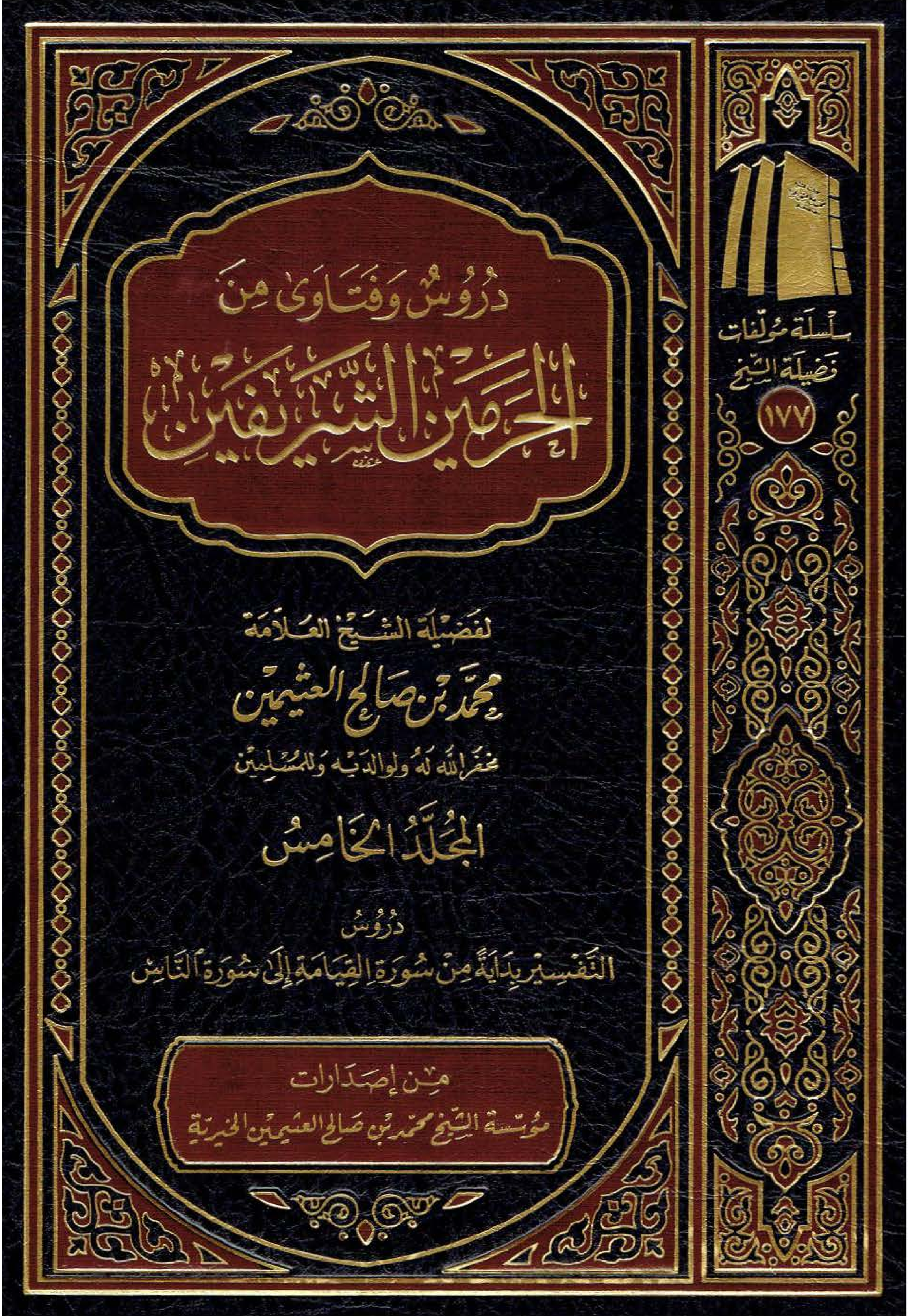

دُرُوسٌ وفتاوى مِن
الحرمين الشريفين
لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
المجلد الخامس
دُرُوس
التفسير بداية من سورة القيامة إلى سورة الناس
من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ
١٧٧

دُرُوسٌ وَفَتَاوَى مِنَ

الحرمين الشريفين

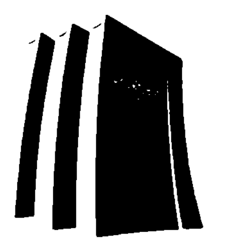
المجلد الخامس

ⓒ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
دروس وفتاوى من الحرمين الشريفين. / محمد بن صالح العثيمين ط ١ -
القصيم، ١٤٣٩ هـ / ١٨ مج.
٧٦٧ ص؛ ١٧×٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٧٧)
ردمك: ٣ - ٦٤ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
٨ - ٦٩ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج ٥)
١- الفتاوى الشرعية. ٢- الفقه الحنبلي. أ. العنوان
ديوي ٢٥٨,٤ ٢٠٣٥ / ١٤٣٩

رقم الإيداع: ٢٠٣٥ / ١٤٣٩
ردمك: ٣-٦٤-٨٢٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٨-٦٩-٨٢٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٥)

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية



المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص. ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوّال المبيعات: ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦
www.binothaimeen.net
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرّة الدولية للطباعة والتوزيع
١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة.
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٧٧)

دروس وفتاوى من
الحرمين الشريفين

لفضيلة الشيخ العلامة

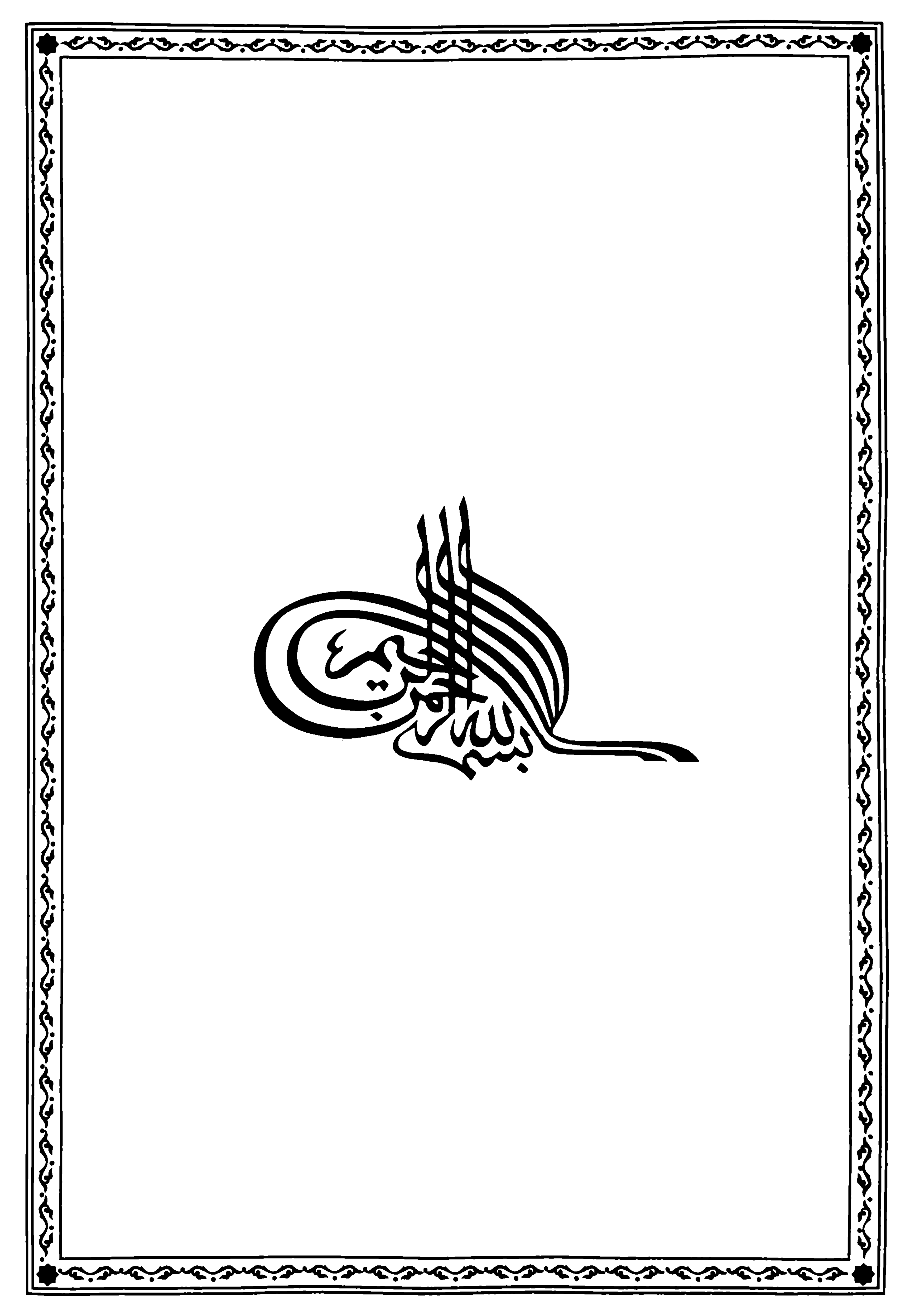
محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الخامس

دروس التفسير بداية من سورة القيامة إلى سورة الناس

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم



سورةُ القيامةِ

الدَّرْسُ الأَوَّلُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تعالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:١-٢]، وهَذَا افتتاحُ السورةِ، وآخرُ السورةِ: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القيامة:٣٦-٤٠].

هذهِ الآياتُ تقرِّرُ الإيمانَ باليومِ الآخرِ؛ لأنَّه لا يمكِنُ لأيِّ إنسانٍ يَعمَلُ إلَّا إذا آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِر، فإذا لم يؤمنْ باليومِ الآخِرِ فيعني ذلك أنَّه لم يؤمنْ بأنَّ هناك ثوابًا وعقابًا، وإذا لم يخشَ الإِنْسَانُ عقابًا، ولم يرجُ ثوابًا، فإنَّه لا يعملُ، لكن متى آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ، فحينئذٍ يَتَحقَّقُ العملُ الصالحُ، ولهَذَا يَقرِنُ اللهُ تَعَالَى الإيمانَ باليومِ الآخِرِ بالإيمانِ به في مواضعَ كثيرةٍ من كتابِه.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ هَذَا نفيٌ؛ لا إلهَ إلَّا اللهُ، لا أُقسمُ، لا أَقومُ، كُلُّها نفيٌ. (لا أُقْسِمُ) جملةٌ مكوَّنةٌ من (لا) ومن فعلٍ مضارعٍ. و(لا أقومُ) جملةٌ مكوَّنةٌ من (لا) ومن فعلٍ مضارعٍ، لكن (لا أُقسمُ) معناها الإثباتُ، لكنَّه جِيءَ بـ (لا) لتنبيهِ المخاطَبِ؛ كأنه يقالُ لنا: انتبهوا، أُقْسِمُ بيومِ القيامةِ. فـ(لا أُقْسِمُ) أي: أُقسم بيومِ القيامةِ أن يومَ القيامةِ حقٌّ، فالمقسَمُ به والمقسَمُ عليه في هذهِ الآيَةِ شَيْءٌ واحدٌ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة:٣]. فهَذَا القولُ وهو أنَّ (لا) للتنبيهِ هو أحسنُ الأقوالِ وأصحُّها، وفيه قولانِ آخرانِ لا حاجةَ لِذِكْرِهما؛ لأنَّهما مَرجوحانِ.

ويومُ القيامةِ هو اليومُ الَّذي يُبعَثُ فيه النَّاسُ، وسُمِّي يومَ القيامةِ لأمورٍ ثلاثةٍ:

الأوَّل: أن النَّاسَ يقومونَ فيه لربِّ العالمينَ.

والثَّاني: أنَّه يُقامُ فيه الأَشْهَادُ.

والثَّالث: أنَّه يُقامُ فيه القِسطُ؛ أي العَدلُ، يقولُ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٤-٦]، ويقول تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، ويقولُ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧]، فيُقام العدلُ، ويَتبيَّنُ لكلِّ أحدٍ؛ فلهَذَا سُمِّيَ يومَ القيامةِ.

فالمقسَمُ عليه هو المقسَمُ به؛ أي ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أن يومَ القيامةِ حقٌّ، وإذا آمنَ الإِنْسَانُ بذلكَ فلا بُدَّ أن يعملَ، وإذا لم يؤمنْ بذلك فإنَّه لن يعملَ،

وهل يظنُّ الإِنْسَانُ أنَّه خُلِقَ في هذهِ الدُّنْيَا سُدًى؛ لا يُؤمَرُ ولا يُنهَى، إن ظَنَّ ذلك فقد أخطأَ، ولهَذَا قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة:٣٧]، الجوابُ: بلى، و(نُطفة) أي قَطرةً يَسيرةً، ﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي يُراقُ، و(مَنِيٌّ) فَعِيلٌ بمعنى مَفعولٍ.

والإِنْسَانُ سواءٌ أكانَ ذكرًا أم أُنثى هو نُطفةٌ تُراقُ في الرَّحِمِ، ويتكونُ من هذهِ النُّطفةِ إما ذَكرٌ وإما أُنثى، وقد قَسَّمَ اللهُ ذلك إلى ثلاثةِ أقسامٍ فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ [الشورى:٤٩-٥٠]

يَهَبُ لَمَن يشاءُ إناثًا خُلَّصًا، ويَهَبُ لَمَن يَشاءُ الذكورَ خُلَّصًا، أو يُزوِّجهم؛ يَجعلهم أَصنافًا ذُكورًا وإناثًا، وهكذا جَميع المواليدِ؛ فتجدُ من النَّاسِ مَن يُولَد له إناثٌ بلا ذُكورٍ، ومنهم من يُولَد له ذكورٌ بلا إناثٍ، ومنهم من يُولَدُ له ذكورٌ وإناثٌ، وكلُّ ذلكَ بِقُدرةِ الخلَّاقِ العَليمِ عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ [القيامة:٣٨-٣٩]بعد أن كان نُطفةً ثمَّ عَلَقةً، جعل منه ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾؛ أي الصنفينِ الذكَر والأُنثى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٤٠]، والجواب: بلى قادِر؛ ولهَذَا ينبغي للإنسانِ إذا قَرأَ هذهِ الآيَةَ أن يقولَ: سُبحانَك فبَلَى قادِرٌ على أن يُحيِيَ الموتَى، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

فإنْ قالَ قائلٌ: ما الداعِي لِلقَسَمِ من عند اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهو جَلَّوَعَلَا أصدقُ القائلينَ قَولًا، وهو صادقٌ بلا قَسَمٍ، فما الفائدةُ منَ القَسَمِ؟

قلنا: الفائدةُ من ذلك:

أولًا: إظهارُ عَظَمةِ المقسَمِ به؛ لأن القسمَ كما حدَّه العلماءُ: تأكيدُ الشَّيْءِ بذِكْرِ مُعَظَّمٍ. وإذا تأملتَ كلَّ ما أقسمَ اللهُ به وجدتَه دالًّا على عظمةِ الربِّ عَزَّوَجَلَّ.

ثانيًا: الاعتناءُ بالمقسَمِ عليه، وأنه أمرٌ مهمٌّ يُقسَمُ عليه؛ لِيَثْبُتَ ويُتَأَكَّدَ.

ثالثًا: أن القُرآنَ جَرَى على الأسلوبِ العربيِّ، كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]

ومعلومٌ أن الأسلوبَ العربيَّ جرت عادةُ العربِ في كلامِهم أن يَعقِدوا الشَّيْءَ بالقَسَمِ، فيكونُ هَذَا من بلاغةِ القُرآنِ؛ أن جَرَى على الأسلوبِ العربيِّ المُبينِ في كلِّ أساليبِه؛ سواءٌ كانتْ إنشائيَّةً أم خَبَرِيَّةً. وعلى هَذَا فيكونُ هَذَا القَسَمُ من أجلِ إظهارِ بلاغةِ القُرآنِ، ومطابقتِه تمامًا للُّغةِ العربيَّةِ.

إذن، هي ثلاثُ فوائدَ: العنايةُ والتوكيدُ هَذَا واحدٌ، والثَّاني: مطابقةُ القُرآنِ للأسلوبِ العربيِّ، والثَّالثُ، وهو الَّذي ذكرناه أولًا: إظهارُ عظمةِ المقسَمِ به، وأنه شيءٌ عظيمٌ. ولهَذَا ذَكَرْنا أن القَسَمَ هو تأكيدُ الشَّيْءِ بذكرِ معظَّمٍ.

ومن أجلِ ذلك صارَ القَسَمُ بغيرِ اللهِ شِركًا، فإذا أقسمَ الإِنْسَانُ بغيرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فإنَّه يكونُ مُشرِكًا، وإذا قَالَ: والكعبةِ لأفعلنَّ كذا وكذا، والكعبةُ معظَّمةٌ فهي بيتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لكن نقولُ: هَذَا الرجلُ أشركَ؛ لأنَّه أَقْسَمَ بالكعبةِ.

وإذا قَالَ: ومُحَمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ رسولِ اللهِ. فأَقْسَمَ بالرَّسُولِ ﷺ، وهو سيِّدُ بني آدمَ وأفضلُ الرسُلِ، نقولُ: هَذَا رجلٌ أشركَ؛ لأنَّه أَقْسَمَ بغيرِ اللهِ.

وإذا قَالَ: وحياةِ مُحَمَّدٍ. فقد أشركَ، أي أَقْسَمَ بحياتِه، وحياتُه صفتُه، فأقسم

بصفةِ المخلوقِ، فيكون مُشرِكًا.

والدليل أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»(١).

و(أو) هنا إما للشكِّ وإما للتنويعِ. وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»(٢).

فإذا قال قائلٌ: هَذَا الشِّركُ الَّذي جاء في الحديثِ أهو شِركٌ أكبرُ، مُخرِجٌ عنِ المِلَّة، مُخَلَّدٌ صاحبُه في النارِ، أم هو شِركٌ أصغرُ قابلٌ للمَغفِرةِ؟

قلنا: فيه تفصيلٌ؛ إذا كان يعتقدُ أن لهَذَا المحلوفِ من التعظيمِ والعظمةِ مثلَ ما للهِ؛ فهو شِركٌ أكبرُ. ولا أحدَ يكونُ له من العظمةِ مثل ما لربِّ العالمينَ أبدًا، وإذا كان يَعتقِدُ فيه عَظَمَةً لكنَّها ليستْ كعظمةِ اللهِ فهو شركٌ أصغرُ.

أما إذا كان سَبقَ لِسانٍ؛ فإنَّه لا يُؤاخَذُ به الإِنْسَانُ، فكلُّ ما كان سَبقَ لسانٍ فإنَّه لا يُؤاخَذُ به الإِنْسَانُ؛ لقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٥]، وفي الآيةِ الأخرى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة:٨٩].

وعلى هَذَا فلو قال الرجلُ لزوجتِه: أنتِ طالِقٌ. وهو يريدُ: أنتِ طاهِرٌ، لكن سَبَقَ لِسانُه فقال: أنتِ طالِقٌ، فإن هذهِ الزوجةَ لا تُطَلَّقُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥، رقم ٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

والقاعدةُ في هَذَا أن اللفظَ إذا سبقَ على اللسانِ، فإنَّه لا حُكْمَ له، وهو لغوٌ منَ القولِ، والآياتُ الدالَّة على ذلك كثيرةٌ.

ولهَذَا نَصَحْنا واحدًا من النَّاسِ قَالَ: والنَّبِيِّ أن تُخْبِرَني عن كذا وكذا. يسأل عن دِينه، فقلتُ: لا تحلِفْ بالنَّبِيِّ، الحَلِفُ بالنَّبِيِّ شِركٌ، قَالَ: والنَّبِيِّ لا أَحلِفُ بالنَّبِيِّ، فحَلَفَ بالنَّبِيِّ ألَّا يحلفَ بالنَّبِيِّ.

فهَذَا الظاهرُ لي أنَّه سبقُ لسانٍ بلا شكٍّ؛ لأنَّه كيف أنهاه عن ذلك ثمَّ يعودُ ويقولُ هَذَا، فما كان من سبقِ اللسانِ فإنَّه لا يُؤاخَذُ به؛ لأن رحمَةَ اللهِ أوسعُ من غَضَبِه، ولأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحبُّ العفوَ.

تنبيه: ذكرنا أن الحَلِفَ بغيرِ اللهِ شِركٌ؛ مع أننا نقرأُ في القُرآنِ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس:١-٥]، و﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل:١]، وغيرَ ذلك، وهَذَا حَلِفٌ بغيرِ اللهِ، فما الجوابُ؟

الجواب: أن للهِ أن يُقسِمَ بما شاء مِن خَلقِه، ونحن لا نَحْجُرُ على اللهِ، فللَّهِ أن يفعلَ ما يشاءُ، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

ولهَذَا نجد أن اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ على نفسِه أشياءَ، وأوجبَ على نفسِه أشياءَ، وليس لنا أن نُحَرِّمَ على اللهِ، أو نُوجِب على اللهِ، فاللهُ حرَّم على نفسِه الظُّلم فقال في الحديث القُدُسي: «**يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**»[1]. وأوجبَ على نفسِه الرحمَةَ، والدليلُ في قولِه تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤] ولكن ليسَ لنا أن نُوجِبَ على اللهِ بعقولِنا.

يقول ابنُ القيمِ -رَحِمهُ اللهُ تَعَالَى- في النُّونِيَّةِ[1]:

مَـا للعِبـادِ عَلَيْـهِ حَـقٌّ واجـبٌ ... هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ

كَـلَّا وَلَا عَمَـلٌ لَدَيْـهِ ضَـائعٌ ... إنْ كَانَ بِالإِخْلَاصِ وَالإِحْسَـانِ

إذن، للهِ أن يُقسِمَ بما شاءَ من خَلقِه، وإقسامُه بخلقِه هو تعظيمٌ لنفسِه؛ لأن عظمةَ المخلوقِ تدُلُّ على عظمةِ الخالِق، فإقسامُه جَلَّ وَعَلَا بمخلوقاتِه هو تعظيمٌ لنفسِه، وإظهارٌ لعظمةِ هَذَا المحلوفِ به.

ونسألُ اللهَ تَعَالَى أن يَرزُقَنا وإياكم فهمَ كتابهِ والعملَ به، وإني أحثُّكم -بارك اللهُ فيكم- على تدبُّرِ القُرآنِ، وتفهُّمِ معانيهِ، والاستعانةِ على ذلكَ بما قاله أهلُ العلمِ؛ ولاسِيَّما ما يذكره ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فإنَّه إذا تكلَّمَ على الآيَةِ أشبعَ، فعليكم بما تَجِدونه في تفسيرِ ابنِ القيِّمِ مِمَّا فيه من الفوائدِ العظيمةِ.



---

(١) القصيدة النونية (ص:٢٠٨).

الدرسُ الثاني:

الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، والصلاةُ والسلامُ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ، خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأَصْحَابِهِ أَجْمعين، أَمَّا بَعْدُ:

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة:١٦] هذا النَّفْيُ مُوَجَّهٌ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عبدٌ للهِ بخَالِصِ العُبوديةِ وكمالِها، فيأْمُرُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ ويَنْهاهُ كَسَائِرِ العِبادِ، وليسَ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ من الرُّبوبيةِ، لا قَلِيلٌ ولا كَثِيرٌ، حتى إنَّ رَجُلًا قال للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ما شَاءَ اللهُ وشِئْتَ. فقاله له: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[1].

ولا يخفى على كثيرٍ ممن قَرَؤوا سِيرةَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَمالُ عُبودِيَّتِه للهِ عَزَّوَجَلَّ فهو أَتْقَى الناسِ لرَبِّه وأَخْشَاهم له، وأَعْلَمُهم بما يَتَّقِي، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه.

يقولُ عَزَّوَجَلَّ لنبيِّه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ وكانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من حِرْصِه على تِلاوةِ القُرآنِ يَتَعَجَّلُ جِبْرِيلَ، بمعنى أنَّ جِبْرِيلَ إذا أَلْقَاه إليه عَجِلَ به؛ لئلا يَفُوتَه شيءٌ منه، فقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ نِعْمَ المُلْتَزِمُ.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ (على) هذه للإيجابِ، فقد أَوْجَبَ اللهُ على نَفْسِه أنْ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٧٤، رقم ٧٨٣)، وأحمد (١/ ٢٨٣، رقم ٢٥٦١)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٤٤، رقم ١٣٠٠٥).

يُبَيِّنَ هذا القرآنَ، ولله أنْ يُوجِبَ على نفسه ما شاءَ تَفَضُّلًا منه وكَرَمًا، وإلا فليس للعِبَادِ عليه حقٌّ وَاجِبٌ إلا ما أَوْجَبَهُ اللهُ على نفسِه، واسْمَعْ إلى قولِه تَعالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]، (كتب) بمعنى أَوْجَبَ، فلِلَّهِ أنْ يُوجِبَ على نفسِه ما شاءَ، وله أنْ يُوجِبَ على عِبادِه ما شاءَ؛ لأنَّ له الحُكْمَ وإليه الحُكْمُ، فهنا قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: نحن نَجْمَعُه فلا يَفُوتُكَ منه شَيْءٌ، و﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: أنْ نَقْرَأَهُ.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ ضَمِيرُ الفاعلِ في قولِه: ﴿قَرَأْنَٰهُ﴾ يَعودُ على اللهِ، وضَمِيرُ المَفْعولِ (الهاءُ) على القُرآنِ، والقَارِئُ جِبْرِيلُ، وهو الذي يُمْلِي على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهنا أضافَ اللهُ فِعْلَ جِبْرِيلَ إلى نفسِه، فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾، لأنَّ جِبْرِيلَ رسولُ رَبِّ العالمين عَزَّوَجَلَّ، وقِراءتُه ما أَنْزَلَ اللهُ به قِراءةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا يَنْبَغِي للإنسانِ الذي يَتَعَلَّمُ القرآنَ أَلَّا يُعاجِلَ المُقْرِئَ، بل يَنْتَظِرُ حتى يَقِفَ على مَقْطَعٍ من المَقاطِعِ، ثم يَتَّبع.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: بيانَه بالقولِ، والمعنى على اللهِ تعالى، فعليه عَزَّوَجَلَّ بيانُه بالقولِ، لا يَضِيعُ منه شيءٌ، والمعنى: لا يُحَرَّفُ منه شَيْءٌ، ولو حَرَّفَ أَحَدٌ شيئًا من كِتَابِ اللهِ لَقَيَّضَ اللهُ له مَن يَفْضَحُه، ويَرُدُّ عليه تَحْرِيفَه، كما تعلمون مما حَرَّفه أهلُ البِدَعِ مِن كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حيثُ يُحَرِّفونَ، ويأتي إليهم أهلُ السُّنةِ والجماعةِ، فيَنْقُضونَ هذا التحريفَ ويَفْضَحُونَهم به، وسيأتي لهذا مثالٌ في السورةِ نَفْسِها.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ [النحل:٤٤]، أي للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا

نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لِتُبَيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم باللفظِ والمَعْنَى، ولهذا ما تَرَكَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا يَخْفَى على الناسِ من كِتَابِ اللهِ إلا بَيَّنَه، وسيأتي لذلك مِثالٌ فيما بعدُ من هذه السورةِ.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة:٢٠-٢١] العاجلةُ هي الدنيا، والآخرةُ هي دارُ الآخرةِ، ومَا أَكْثَرَ الذين يُحِبُّونَ العاجلةَ ويَتْرُكون الآخرةَ، ما أَكْثَرَهم، إنَّ تِسْعَ مئةٍ وتِسْعَةً وتِسْعِينَ من بَنِي آدَمَ كُلُّهم في النارِ إلا وَاحِدًا في الألفِ يكونُ في الجَنَّةِ؛ ولهذا صَحَّ أنْ يُوَجَّهَ الخطابُ للعُمومِ؛ لأن الأكثرين يُحِبُّونَ العَاجِلَةَ، ويَذَرُونَ الآخِرَةَ.

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يَوْمَ تَقُومُ القِيَامَةُ ﴿نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ نَاضِرَةٌ الأولى بمعنى حَسَنَةٍ؛ ولهذا كُتِبَ بالضَّادِ ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بالظاءِ، أي: تَنْظُرُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهذه الوُجُوهُ سَوْفَ تَنْظُر إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وانْظُرْ إلى اللُّطْفِ والإحسانِ بإضافةِ الرُّبوبيةِ هنا إلى هذهِ الوُجوهِ، وهي رُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ غَيْرُ الرُّبوبيةِ العَامَّةِ؛ حيثُ ربَّى اللهُ هؤلاء القومَ على ما يُرْضِيهِ، وأباحَ لهم النَّظَرَ إلى وَجْهِهِ عَزَّوَجَلَّ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنا النَّظَرَ إلى وَجْهِكَ يا رَبَّ العالمين.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: تَنْظُرُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالعَيْنِ رُؤْيةً حَقِيقةً، كما بَيَّنَها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ واسْتَمِعْ إلى بَيَانِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الذي قالَ اللهُ عنه: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]؛ حيثُ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عندما نَظَرَ إلى القَمَرِ ليلةَ البَدْرِ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ»، والجملةُ هنا مُؤَكَّدَةٌ بـ(إِنَّ) وبالسِّينِ الدَّالَّةِ على التَّحْقيقِ، «كَمَا

تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ»(١).

وهذا نَصٌّ صَرِيحٌ على أنَّ رُؤْيَةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالعَيْنِ حَقِيقَةٌ؛ لأنه شَبَّهَه بأَمْرٍ مَعْلومٍ لِكُلِّ إنسانٍ، وهو رُؤْيَةُ القَمرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، وهي مَعْلومةٌ لكُلِّ الناسِ، ولا تَخْفَى على أَحَدٍ، كما تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، وواللهِ لَنْ يَرَى المُسْلمون بيانًا أَعْظَمَ من هذا البيانِ، ولو اقْتَصَرَ على جُمْلةِ (تَرَوْنَ رَبَّكم) لكان المعنى مَفْهومًا؛ لأن (رأى) إذا تَعَدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، فهي رُؤْيةٌ بَصَرِيَّةٌ، وإنْ تَعَدَّى إلى مَفْعولين فهي رُؤْيَةٌ قَلْبِيَّةٌ؛ لقولِ الشاعر(٢):

رَأَيْتُ اللهَ أَكْبَرَ كُلِّ شَيْءٍ مُحَاوَلَةً وَأَكْثَرَهُمْ جُنُودًا

الرُّؤْيةُ هنا رُؤْيَة عِلْميَّة قَلْبيَّة، وإذا قلتَ: رأيتُ نورًا، أو: رَأَيْتُ زيدًا، أو: رأيتُ كذا. فهي رُؤْيَةٌ بَصَرِيَّةٌ، وخُذْ هذه القَاعِدَةَ، إذا تَعَدَى (رَأَى) إلى مَفْعولٍ واحدٍ فهي رُؤْيةٌ بَصَرِيَّةٌ، وإلى مفعولين فهي رُؤْيةٌ عِلْميَّةٌ قَلْبيَّةٌ. وإذا قُلْتَ: رأيتُ زيدًا، فسَقَطَ مَيِّتًا. أي ضَرَبْتُ رِئَتَهُ. وهذا من سَعَةِ اللُّغةِ العربيةِ.

فالنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول عند رؤيتِه للقمرِ ليلةَ البدرِ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ». وأَكَّدَ هذه الرؤيةَ بتأكيدٍ مُبالَغٍ، «كَما تَرَوْنَ هذا القَمَرَ» أي ليلةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ أو خَمْسَ عَشْرَةَ، «لا تُضامُونَ». وفي روايةٍ: «لا تَضَامُّونَ»، وفي ثالثةٍ: «لا تُضَارُّونَ»(٣). بالراء، والمعنى: أنه لا يَلْحَقُكُم ضَيْمٌ، ولا يَنْضَمُّ بَعْضُكم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم (٥٧٣)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

(٢) انظر شرح أدب الكاتب لابن قتيبة، للجواليقي (ص:١٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، رقم (٧٤٣٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

إلى بَعْضٍ لِيَرَاهُ؛ لأنه وَاضِحٌ، ولا ضَرَرَ عليكم في رُؤْيَتِه. وفي روايةٍ: «كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»(١)، وهذه أيضًا رؤيةٌ مُؤَكَّدَةٌ بنَفْيِ ما يُضادُّها، وهو قولُه: «لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»، وليسَ بعدَ هذا البيانِ بَيَانٌ، وقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في قولِه تَعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ نَادَى مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا، قَالُوا: أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ، وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ؟ قَالُوا: بَلَى، فَيُكْشَفُ الحِجَابُ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ»(٢). فبَيَّنَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ هذا المَعْنَى الذي يَخْفَى، وهو الزِّيادةُ، بَيَّنَه بأنه النَّظَرُ إلى وَجْهِ اللهِ(٣).

ونحن نُؤمن إيمانًا جازمًا، لا شكَّ عندنا فيه، أننا نَرَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ يومَ القيامةِ، أي إنَّ الناسَ المؤمنين يَرَوْنَ ربَّهم يومَ القيامةِ، وأسألُ اللهَ أن يَجْعَلَني وإيَّاكم منهم، نُؤمِنُ بذلك كما نَرَى الشمسَ، وكما نَرَى القمرَ ليلةَ البَدْرِ؛ لأن هذا جاء في القرآنِ الكريمِ في عِدَّةِ مَواضِعَ نُبَيِّنُها إن شاءَ اللهُ، وجاءَ في السُّنةِ المُطَهَّرةِ مُتواترًا عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والمتواترُ يُفِيدُ العِلْمَ اليَقِينِيَّ على المشهورِ عندَ أهلِ العِلْمِ، واسْتَمِعْ إلى قولِ النَّاظِمِ(٤):

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، (٢٥٥٢)، وابن ماجه: كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٧).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، رقم (١٨١).

(٤) ذكره الكتاني في نظم المتناثر (ص:١٨)، نقلًا عن الشيخ أبي الله محمد التاودي (ت ١٢٠٩ هـ) في حواشيه على الجامع الصحيح.

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبْ وَمَنْ بَنَى للهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبْ
وَرُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالحَوْضُ وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

يعني هذه بَعْضُ المُتواتِرِ، وليستْ كُلَّ المُتواتِرِ.

إذن، أَحَادِيثُ الرُّؤْيةِ -أي: رُؤْيةِ المُؤْمِنِينَ رَبَّهم- مُتواتِرَةٌ، لا يُمْكِنُ إنكارُها، ولكن مِن العَجَبِ العُجابِ أنَّ بعضَ الناسِ أنْكَرَ رُؤْيةَ اللهِ، أَسْأَلُ اللهَ أنْ يَهْدِيَه، ولا أَسْتَطِيعُ أنْ أَقولَ: حَرَمَه اللهُ رُؤْيَتَه، لا أَسْتَطِيعُ واللهِ ذلكَ؛ لأنَّ الدعوةَ عليه بهذا صَعْبَةٌ جِدًّا، لكني أقولُ: أسأَلُ اللهَ أنْ يَهْدِيَه؛ حتى يُؤْمِنَ بما دلَّ عليه النصُّ؛ لأنه أنْكَرَ الرُّؤْيةَ، وحَرَّفَ جميعَ النصوصِ الواردةِ في ذلك، مع أنها لا تَقْبَلُ التحريفَ، ولكنْ كما قالَ تَعالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]، فمَهْما حاولتَ أن تُقْنِعَ مَن لم يَقْذِفِ اللهُ نُورًا في قَلْبِهِ فلن تَستطِيعَ أن تَقْذِفَ النُّورَ في قلبِه، فرُؤيةُ اللهِ حَقٌّ.

نَذْكُرُ الآنَ مَا نَسْتَحْضِرُه من أَدِلَّةِ الكتابِ العزيزِ:

الأول: قَوْلُ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣]. وذلك حِينَما كَلَّمَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فاشتاقَ إلى رُؤْيَتِه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾. ووَجْهُ الدَّلالةِ أنَّ رُؤيةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لو كانتْ مُسْتحِيلةً غيرَ لائقةٍ به ما سَأَلَها موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، الذي هو من أُولي العَزْمِ من الرُّسلِ، من الخَمْسَةِ الكِبَارِ من الرُّسلِ، وهم: مُحَمَّدٌ، وإِبْرَاهِيمُ، ومُوسَى، وعِيسَى، ونُوحٌ؛ لأنَّ الذين يقولون: إنَّ اللهَ لا يُرَى. حُجَّتُهم أنَّ هذا غيرُ لائقٍ باللهِ، ولو أَثْبَتْنَا رُؤْيَتَه لأَثْبَتْنَا العَيْبَ والنَّقْصَ في حَقِّهِ. ونحن نقولُ: هل يَجُوزُ لنَبِيٍّ

من أُولِي العَزْمِ أن يَسْأَلَ اللهَ ما لا يَلِيقُ به؟ هذا لا يَكونُ أبدًا.

إذن، هذه الآيةُ تَدُلُّ على جوازِ رُؤْيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه يُمْكِنُ أنْ يُرى.

ولكنَّ اللهَ قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾؛ لأنَّ الإنسانَ في الدُّنْيا لا يَتحمَّلُ أنْ يَرى اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَبدًا، وضَرَبَ اللهُ له مثلًا، فقال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾، والجَبَلُ مَعْروفٌ، والمعروفُ يَقولونَ: إنَّه لا يُعَرَّفُ، إنما يُعرَّفُ المَجهولُ النَّكِرةُ، أما المعروفُ فتَعْرِيفُه تَحْصِيلُ حاصِلٍ. قال: ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ فقد تَجلَّى الربُّ عَزَّوَجَلَّ للجبَلِ، وهذا ما حَدَثَ للجبَلِ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ أي: انْدكَّ الجبَلُ وزَالَ، فلما رَأى مُوسَى هذا المَشْهَدَ العظيمَ صَعِقَ ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾.

العَجَبُ أنَّ أولئك القومَ الذين يُنْكِرونَ الرؤيةَ يَستدِلُّونَ بهذهِ الآيةِ على نَفْيِ الرُّؤْيةِ، قالوا: إنَّ اللهَ قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، و(لن) هذه نَفْيٌ للتَّأْبيدِ. لكنهم كَذَبوا على اللُّغةِ، والقرآنُ يُكذِّبُ هذا الزَّعْمَ؛ أنْ تَكُونَ (لن) للتَّأْبِيدِ، قالَ ابنُ مَالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكَافِيَةِ(١):

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدَا ... فَقَوْلَهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

وفي القُرآنِ الكَريمِ قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة:٩٤-٩٥] ولكن سيأتي يومٌ يَتمَنَّى أهلُ النارِ أنْ يَموتُوا، وذلك في قولِه تَعالَى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] واللامُ دُعائيَّةٌ

(١) شرح الكافية الشافية (٣/ ١٥١٥).

هنا، ولذلك جَزَمَتِ الفِعْلَ، فهم سَوْفَ يَسْألونَ اللهَ أنْ يَقْضِيَ عليهم؛ حتى يَسْتَرِيحوا من العذابِ، أَنْجاني اللهُ وإياكم من النارِ.

إذن (لَنْ) لَيْسَتْ للتأبيدِ، بل هي لنَفْيٍ مُؤَقَّتٍ، حسَبَ ما تَقْتَضِيهِ الحاجَةُ.

الثاني: قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وذلك لأنَّ نَفْيَ الإدراكِ دَلِيلٌ على أَصْلِ الرُّؤْيةِ، ولو كانَ أَصْلُ الرُّؤْيةِ مُنْتَفِيًا لكانَ التَّعبيرُ: لا تَراهُ الأَبْصارُ. ولكنه قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾، فنَفَى الأَخَصَّ، فعُلِمَ وُجوبُ الأَعَمِّ وهو الرُّؤْيَةُ.

العَجَبُ أنَّ الذين يُنْكِرُونَ الرُّؤْيَةَ يَستَدِلُّونَ بهذهِ الآيةِ أيضًا، وهَذِهِ الآيةُ نَجْعَلُها فوقَ رُؤوسِهم، فهي تَدُلُّ على ثُبوتِ الرُّؤْيَةِ، ووَجْهُ ذلك أن مُقْتَضى اللُّغةِ العربيةِ والكلامِ الفَصِيحِ أنَّه إذا نُفِيَ الأخصُّ فهو دَلِيلٌ على وُجودِ الأَعَمِّ، وهذا وَاضِحٌ.

الثالث: آيَتُنا التي نحن الآن بصَدَدِ تَفْسِيرِها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، والدليلُ في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

الرابع: قولُ اللهِ تَعالَى في سُورةِ المُطَفِّفِينَ في شأنِ الفُجَّارِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، ففيها دَلِيلٌ على ثُبوتِ الرُّؤْيَةِ لغَيْرِ هؤلاء من وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: ما قَرَّرَه الإمامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيثُ قال: «إذا حُجِبَ هؤلاء في حَالِ الغَضَبِ، فقد بَانَ وظَهَرَ للآخَرِينَ في حالِ الرِّضا، ولَوْ كَانَ مَحْجُوبًا عَنِ الجميعِ لم يَكُنْ لنَفْيِ الحَجْبِ عن هؤلاءِ فَائِدَةٌ»[1].

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٦٠، رقم ٨٨٣)، ونصه: قَالَ الشَّافِعِيُّ: فَلَمَّا أَنْ حُجِبُوا هَؤُلَاءِ فِي السَّخَطِ كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا.

الوجه الثاني: قولُه تعالى: ﴿لَمَحْجُوبُونَ﴾ يَدُلُّ على أنَّ هناكَ مَرْئِيًّا لو لا الحَجْبُ.

الخامس: قولُ اللهِ تَعَالَى في السورةِ نَفْسِها: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٥] أي: يَنْظُرون إلى كلِّ النعيمِ الذي أعطاهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ومنه النَّظَرُ إلى وَجْهِهِ؛ لأنَّ ذلكَ في مُقابِلِ قولِه في الفُجَّارِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾.

السادس: قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]؛ لأن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهو أَعْلَمُ الخلقِ بكَلامِ اللهِ، فَسَّرَ الزِّيادةَ بأنها النَّظَرُ إلى وَجْهِ اللهِ الكريمِ[1]، ولو أنَّ إنسانًا أرادَ أن يَتوَسَّعَ في هذا لوَجَدَ أَدِلَّةً أُخْرَى، ولكنَّ المؤمنَ يَكْفِيهِ دليلٌ واحدٌ من القرآنِ الكريمِ، أو صَحِيحِ السُّنةِ.

فعَقِيدَتُنَا أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُرَى يومَ القِيامةِ، يُرَى رُؤْيَةَ حَقٍّ، عِيانًا كما يُرَى القَمَرُ لَيْلَةَ البَدْرِ، ولكنْ بدُونِ إحاطةٍ، لقولِه تَعَالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]، لكن نُنَبِّهُ إلى أنَّ اللهَ لا يُرَى في الدنيا يَقَظَةً؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لما تَحَدَّثَ عن الدَّجَّالِ قال: «وَلَا تَرَوْنَ رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا»[2]. فمُحالٌ أَنْ يُرَى اللهُ تَعَالَى في الدُّنْيا يَقَظَةً، أمَّا منامًا فقد يُرَى؛ فإنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ في المَنامِ.

وفي وُقوعِ ذلك لِغَيْرِ النبيِّ نَظَرٌ، وقد ذُكِرَ عن الإمامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ وغيرِه من

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، رقم (١٨١).

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب فتنة الدجال، وخروج عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج، ومأجوج، رقم (٤٠٧٧).

الصَّالِحِينَ أَنَّه رَأَى اللهَ في المَنَامِ(١)، لكن في النَّفْسِ من هذا شَيْءٌ، وليسَ كلُّ مَا ثَبتَ للرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَثْبُتُ لأُمَّتِهِ؛ لأنَّ آياتِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قد تَثْبُتُ لبَعْضِ الأُمَّةِ فتكونُ كَرَامَاتٍ لها.

المُهِمُّ أنه يَكْفِينا أنْ نُؤْمِنَ بأنَّ اللهَ يُرَى حَقًّا في الآخِرَةِ، أما في الدنيا يَقَظَةً فلا يُرَى؛ لأَنَّه قال لِمُوسَى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣]، وأما مَنامًا فقد جَاءَ ذلك للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأَمَّا غَيْرُه فمَحَلُّ نَظَرٍ، واللهُ أَعْلَمُ.

إذن، مِن عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنةِ والجماعةِ إِثْباتُ رُؤْيةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إنا نَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وَجْهِكَ الكريمِ، وأَلَّا تَحْرِمَنا ذلك بسُوءِ أَفْعَالِنَا، إنك على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



(١) انظر: مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (٥٨٣).



سورة الإنسان

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

هذهِ السورةُ إحدى السورتينِ اللتينِ كانَ النبيُّ ﷺ يقرأُ بهما في فجرِ يوم الجمعةِ، والسورةُ الأولى هِيَ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة:١-٢] السجدة[1].

قولُه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١].

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾، والاستفهامُ هنا للتحقيقِ، والمعنَى: قد أَتى على الإنسانِ حينٌ منَ الدهرِ لم يكنْ شيئًا مذكورًا، وهذا حقٌّ، فالإنسانُ قبلَ أن يُخلقَ لم يكنْ شيئًا مذكورًا، وقد أَتى عليهِ حينٌ منَ الدهرِ لم يكنْ شيئًا مذكورًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة، رقم (٨٩١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في يوم الجمعة، رقم (٨٨٠).

قولُه تَعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢] وبيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ابتداءَ هذا الخَلقِ فقالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾. فالنطفةُ هيَ الماءُ القليلُ، والمرادُ بِهِ هنا مَنِيُّ الرَّجلِ، والأَمْشاجُ كما قالَ المتأخرونَ هي: الحيواناتُ المَنويةُ، فإنَّ هَذِهِ النُطفةَ تشتملُ على حيواناتٍ مَنويةٍ كثيرةٍ جدًّا.

ومعنى قولِه تَعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾. أي: نختبرُه بخلقِ السمع والبصرِ لهُ، ولهذا قالَ تَعالَى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، وهذا اختبارٌ منَ اللهِ ليختبرَ العبدَ، في ماذا يستعملُ هذا السمعَ، وفي ماذا يستعملُ هذا البصرَ، فقد يستعملُ الإنسانُ سمعَه للاستماع إلى ما حرَّمَ اللهُ، كالاستماع إلى الأغاني الماجنةِ، والاستماع إلى الموسيقَى، وآلاتِ الطرب إلا ما اسْتُثْنِيَ منهَا، ومما اسْتُثْنِيَ من آلاتِ الطرب الدُّفُّ في الأفراح والأعراس، في الأفراح كأيام الأعيادِ، وفي الأعراس كأيام دخولِ الإنسانِ بزوجتِه، فإن هذا مما رُخِّصَ فيهِ[1].

ويَبتلي اللهُ عَزَّوَجَلَّ الإنسانَ بالبصرِ، فيُعْطِيهِ البصرَ لِيَبْتَلِيَه، لِيَنْظُرَ هل يبصرُ فيما أحلَّ اللهُ لهُ، أو فيما حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ، ومنَ الإبصارِ فيما حَرَّمَ اللهُ عليهِ أن يُطلقَ الإنسانُ بصرَه بالنظرِ إلى ما حَرَّمَ اللهُ كالنظرِ إلى المرأةِ الأجنبيةِ، والنظرِ إلى الصورِ المُحرمةِ، وما أشبهَ ذلكَ، فجعلَ اللهُ تَعالَى للإنسانِ سَمْعًا وبصرًا ابتلاءً واختبارًا.

قولُه تَعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣].

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب النكاح، باب ما جاء في إعلان النكاح، رقم (١٠٨٩) بلفظ: «أعلنوا هذا النكاح، واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف».

ثم بَيَّنَ عزَّوَجلَّ أنهُ هَدَى الإنسانَ السبيلَ، أي بَيَّنَ لهُ الطريقَ، إما شاكِرًا، وإما كَفُورًا، فالإنسانُ الشاكرُ هو الذي يَشْكُرُ نعمةَ اللهِ على هِدَايَتِه لهذا الطريقِ، وهُوَ المؤمنُ، والكافرُ هو الجاحدُ لهذهِ النعمةِ، فانقسمَ الناسُ بعدَ هدايةِ اللهِ لهم إلى قسمينِ: شاكرِ قائم بطاعةِ المُنعم، وكافرِ جحدَ نعمةَ المُنعم، ولم يقمْ بالشكرِ ولا بالطاعةِ.

قولُه تَعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان:٤].

ثم بيَّنَ اللهُ بعدَ ذلكَ جزاءَ هؤلاءِ وهؤلاءِ، فقالَ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ أعتدْنَا بمعنى هَيَّئْنَا، والسلاسلُ ما يُربطُ بِهِ المجرمُ الكافرُ، والأغلالُ أن تُغلَّ يداهُ إلى عنقِه، والسَّعيرُ النارُ المُحرقةُ والعياذُ باللهِ، فتجدونَ جزاءَ الكافرينَ مُجملًا في ثلاثِ كلماتٍ: ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾، ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾، ﴿وَسَعِيرًا﴾.

ثم انتقلَ عزَّوَجلَّ إلى الأبرارِ، الَّذِينَ هم ضِدُّ الكافرينَ والفجارِ فقالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٥-٦].

قولُه تَعالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:٧-٢٢].

وأطالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في وصفِ ثوابِ الأبرارِ لأن اللهَ تَعالَى فَصَّلَ أعمالَهم فقالَ تَعالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان:٧-١٠] فنجدُ أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ فَصَّلَ أعمالَهم، وكانَ مُقابلَ هذا التفصيلِ في الأعمالِ أن يقابلَ ذلكَ بتفصيلِ الجزاءِ.

أما الكفارُ فإن اللهَ ذكرَ عملَهم مجملًا، فكانَ جزاؤُهم مجملًا، وهذا مِن بلاغةِ القرآنِ، فاللهُ فَصَّلَ أعمالَ الأبرارِ في عدةِ آياتٍ، يوفونَ بالنذرِ، يخافونَ يومًا، يُطعمونَ الطعامَ لوجهِ اللهِ، يخافونَ من ربِّهم، فذكرَ اللهُ تَعالَى أَعمالًا متعددةً، فكانَ مقابلَ ذلكَ أن يَذْكُرَ جزاءَهم مُفَصَّلًا كما ذُكِرَتْ أعمالُهم مُفَصَّلةً، أما الكفارُ فذُكرتْ أعمالُهم مُجملةً، وكانَ مقابلَ ذلكَ أن يُذْكَرَ جزاؤُهم مجملًا.

في هذهِ الآياتِ يقولُ تَعالَى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، وفي آياتٍ أُخرى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣]، فهل هناكَ تعارضٌ بينَ هذهِ الآياتِ؟

الجوابُ: لا تعارضَ بينَ الآياتِ، بل هم يُحلونَ بحُلِيٍّ بعضُه فضةٌ، وبعضُه ذهبٌ، وبعضُه لؤلؤٌ، ولك أن تتصورَ الحُلِيَّ بالفضةِ البيضاءِ اللامعةِ، والذَّهبِ الأحمرِ، واللؤلؤِ الصَّافي، لوجدتَ منظرًا عظيمًا يُطربُ الأعينَ، ويَسرُّ النَّفسَ،

فاللباسُ الذي يَتحلونَ بهِ ثلاثةُ أنواع، هيَ الذهبُ، والفضةُ، واللؤلؤُ، وهذا الحُليُّ يكونُ في جميع الذِّراع لقـولِ النبيِّ ﷺ: «تبلُـغُ الحِلْيَـةُ مِنَ المُؤْمِن حَيْثُ يَبْلُغُ الوَضُوءُ»(١). والوضوءُ يبلغُ المرافقَ، وعلى هذا كلُّ الذراع يكونُ مملوءًا بالحُليِّ.

قولُه تَعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان:٢٣].

ثم قالَ اللهُ تَعالَى لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾. فالقرآنُ هُوَ كلامُ اللهِ الذي بينَ أيدينَا مكتوبٌ في المصاحفِ، ومحفورٌ في الصدورِ، هُوَ كلامُ اللهِ مُنزلٌ غيرُ مخلوقٍ؛ لأن اللهَ تَعالَى ذَكَرَ في عدةِ آياتٍ أنهُ أنزلَه على محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فتارةً يقولُ: أَنْزَلْنَاهُ، وتارةً يقولُ: نَزَّلْنَا، وذلكَ لأن القرآنَ يَنْزِلُ إلى الرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ شيئًا فشيئًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦].

فالتعبيرُ بـ(أَنْزَلَ) باعتبارِه كاملًا، والتعبيرُ بـ(نَزَّلَ) باعتبارِه مُجزئًا ينزلُ شيئًا فشيئًا، وهنَا يقولُ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾، يعنى شيئًا فشيئًا.

قولُه تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢٤].

فلما ذَكَرَ اللهُ مِنَّتَه عليهِ بتنزيل القرآنِ أمرَه أن يصبرَ لحكم اللهِ.

وهنا يردُ سؤالٌ: لما قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ فكانَ مِنَ المتوقع أن يقولَ: فاشكرْ نعمةَ اللهِ، فلماذا قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾؟.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم (٢٥٠).

قلنَا: لأن تنزيلَ القرآنِ عليهِ، يترتبُ عليهِ عهدٌ وميثاقٌ أن يُبلِّغَه إلى الأمةِ، وتبليغُه إلى الأمةِ يحتاجُ إلى صبرٍ ومعاناةٍ، لأنه سوفَ يُكذَّبُ، وسوفَ يُؤذَى على هذا الوحي، فيحتاجُ إلى صبرٍ، ولهذا نقولُ لكلِّ مَنْ مَنَّ اللهُ عليهِ بعلم: اصبرْ على ما أعطاكَ اللهُ منَ العلم، وقم بالواجب نحوَ هذا العلم تعليمًا ودعوةً وخلقًا وأدبًا وعبادةً؛ لأن اللهَ لم يُحمِّلْكَ هذا العلمَ إلا وسيسألُكَ عنهُ يومَ القيامةِ.

وقولُه: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ هل المرادُ بهِ الحكمُ الكَونيُّ أو القَدَرِيُّ؟ أو هما جميعًا؟

قلنَا: هما جميعًا، والمعنى: اصبرْ لحكم اللهِ الشرعيِّ حيثُ ألزمَهُ اللهُ بأن يُبلِّغَ ما أُنزِلَ إليهِ من ربِّه، ولحُكمِه الكونيِّ إذا جرى عليهِ مِن عبادِ اللهِ ما يكرَهُ، ومِنَ المعلوم أن النبيَّ ﷺ جَرَى عليهِ مِنَ الأذى والصبرِ عَلَيْهِ ما جعَلَه في قمةِ الصابرينَ، فقدْ أُوذيَ ﷺ إيذاءً شديدًا حتى إنهُ كان ذاتَ يوم ساجدًا تحتَ الكعبةِ فجاءَ سفهاءُ قريش بسَلَى جَزورٍ، أي فَرْثِهَا وما في بَطنِها، ووضَعُوه عليهِ وهوَ ساجدٌ ﷺ(١)، كلُّ هذا إغاظةً لَهُ، وإلَّا فإن منَ المعلوم أن قريشًا تُكْرِمُ من يَأْتِي إلى البيتِ الحرام حتى إنَّهُمْ يَسقونَ الحُجاجَ الماءَ المنقوعَ بِهِ الزبيبُ، ويخدمونَ الحجاجَ، ورسولُ اللهِ ﷺ أحقُّ الناس بالتكريم، ويؤذونَه هذا الإيذاءَ، فأُمِرَ أن يصبرَ لحكم اللهِ.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾: الآثمُ العاصي، والكفورُ الكافرُ، يعني لا تُطِعْ لا هؤلاءِ ولا هؤلاءِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

وأما المؤمنونَ فقدْ أمرَ اللهُ تعالى نبيَّه أن يَخْفِضَ جَناحَه لمن اتَّبَعَهُ مِنَ المؤمنينَ.

قولُه تَعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٢٩-٣٠].

قولُه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ المشارُ إليهِ السورةُ وما ذُكِرَ فيهَا.

﴿تَذْكِرَةٌ﴾ يتذكرُ بها الإنسانُ ويَتَّعِظُ، ثم يَنْقَسِمُ الناسُ إلى منتفع بهذهِ التذكرةِ وغيرِ منتفع. ولهذا قالَ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

فإن قالَ قائلٌ: كيفَ قالَ تَعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾؟

فالجوابُ: إن مشيئةَ الإنسانِ مخلوقةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، فهو الذي خلقَها، فلا يشاءُ الإنسانُ إلا بعدَ أن يخلقَ اللهُ فيهِ المشيئةَ؛ لأن اللهَ خالقُ كلِّ شيءٍ.

وبيَّنَ عَزَّوَجَلَّ أن الأمرَ إليهِ لِأَجْلِ أن نَتَّجِهَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وألا نفخرَ بأنفسِنا إذا وُفِّقْنَا للطاعةِ، بل نعلمُ علمَ اليقينِ أن ذلكَ مِن كَرَم اللهِ ونِعْمَتِه وإحسانِه.

قولُه تَعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ [الإنسان:٣١].

قولُه تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي في جنتِه.

وقولُه: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ أي مؤلمًا.



سورة المرسلات

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قوله: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات:١] الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ واوُ القسمِ، يعني أن اللهَ أقسمَ بالمرسلاتِ عُرفًا، سواءٌ قلنا: إنها الرياحُ، أو قلنا: إنها الملائكةُ، فالرياحُ مُرسلَةٌ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الأعراف:٥٧]، والملائكةُ كذلكَ مُرسلةٌ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١].

أَقْسَمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِشَيْءٍ منَ المخلوقاتِ فقالَ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات:١-٦]، والمقسَمُ عليه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات:٧]، يعني ما نُوعدُ بهِ منَ البعثِ والجزاءِ والجنةِ والنارِ واقعٌ لا محالةَ، ولا يُمكنُ أن يَتَخَلَّفَ، فلو قُدِّرَ أن الخلقَ يُوجَدُونَ ويُؤمَرُونَ ويُنهَوْنَ وتُسْتَباحُ دِمَاءُ المخالفينَ وأموالُهم، ثم لا يكونُ هناكَ بعثٌ؛ لو كانَ الأمرُ هكذا لكانَ خلقَ الخلقَ عبثًا، ولهذا قالَ اللهُ تَعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]. فلا بُدَّ مِنَ الرجوعِ إلى اللهِ، ولا بدَّ مِنَ الحسابِ.

وقالَ تَعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]؛ أي همَلًا لا يُؤمرُ ولا يُنهى، فهذا لا يُمكنُ؛ لأن ذلكَ يُنافي حكمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فلا بدَّ من بعثٍ، ولهذا قالَ هُنا: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾.

ما حكمُ الحَلِفِ بالمخلوقاتِ؟

الحلفُ بغيرِ اللهِ شِركٌ، لكنهُ شركٌ أصغرُ، فحتى لو حَلفتَ بأشرفِ البشرِ محمدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. وعلى هذا فقولُ بعضِ الناسِ: والنبي ما أفعلُ كذا، أو والنبي لأفعلنَّ كذا، يكونُ حرامًا لا يَرضاهُ اللهُ ولا رَسُولُه، وعلى من حلفَ بالنبيِّ أن يتوبَ إلى اللهِ ولا يَعودَ، وأن يُعَوِّدَ لسانَه الحَلِفَ باللهِ دونَ الحلفِ بالنبيِّ ﷺ.

والحلفُ بالوطنِ الذي أنتَ تعيشُ بينَ أكنافهِ، بأن تقولَ: أُقسمُ بوطني أن الأمرَ كذا وكذا، لا يجوزُ، وهوَ حرامٌ.

وكذلكَ الحلفُ بالشرفِ حرامٌ؛ مثلَ أن يقولَ: وشرفي لأفعلنَّ كذا، أو يخاطبُ إنسانًا ويقولُ: وشَرفك إن هذا صحيحٌ؟ فيقولُ: وشرفي إن هذا صحيحٌ، فهذا أيضًا منَ الشركِ، فالحلفُ لا يجوزُ إلا باللهِ.

لكن اللهَ جَلَّوَعَلَا لهُ أن يُقسمَ بما شاءَ مِن خلقِه؛ لأنهُ يَحكمُ ولا يُحكمُ عليهِ، ولا يُسألُ عما يَفعلُ وهمْ يُسألونَ، فلهُ أن يحكمَ بما شاءَ، ولهُ أن يحلفَ بما شاءَ.

مثالٌ: حكمُ السجودِ لغيرِ اللهِ أنهُ شِركٌ أكبرُ، ولقدْ كانَ السجودُ لغيرِ اللهِ طاعةً عظيمةً، وجعلَهُ اللهُ طاعةً وعبادةً معَ أنهُ لغيرِ اللهِ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟

لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]. فانظرْ إلى أن الأمرَ أمرُ اللهِ؛ يجعلُ الواجبَ واجبًا، والحرامَ واجبًا، والإخلاصَ شركًا، والشركَ إخلاصًا؛ لأن لهُ أن يحكمَ بما شاءَ.

كذلكَ: قتلُ الولدِ حرامٌ: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٣١]، وفي يوم منَ الأيامِ كانَ طاعةً يحمدُ عليهِ الفاعلُ؛ وذلكَ حينَ أمرَ اللهُ تَعالى إبراهيمَ أن يَقْتُلَ ابنَهُ، فامتثلَ وأطاعَ، وتَلَّهُ للجبينِ -على جَبينِه- لِيَذْبَحَهُ، وإنما تَلَّهُ على جبينِه لئلا يَنظُرَ إلى وجهِهِ وهُوَ يريدُ قتلَه فيرحَمَه، فتَلَّهُ للجبينِ ليذبَحَهُ، ولَكِنَّهُ جاءَ الفرجُ منَ اللهِ، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٤-١٠٥].

المهمُّ أنَّ للهِ أن يحلفَ بما شاءَ، وللهِ تعالى أن يأمرَ بالسجودِ لغيرِهِ، وللهِ تعالى أن يأمرَ بقتلِ النفسِ؛ لأن الحُكمَ للهِ العليِّ الكبيرِ، فنحنُ نقولُ: أقسمَ اللهُ تعالى بما أقسمَ بهِ في هذهِ السورةِ لأن لهُ أن يُقسمَ بما شاءَ، أما نحنُ فإن النبيَّ ﷺ قالَ: «لا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»(١).

وقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»(٢).

والحَلِفُ بالمخلوقاتِ دليلٌ على عظمةِ هذهِ المخلوقاتِ؛ لأن اللهَ لا يَحْلِفُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥، رقم ٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

إلا بشيءٍ عظيمٍ، فلا يَحْلِفُ بالشيءِ الذي ليسَ لهُ عظمةٌ وليسَ فيهِ دليلٌ على كمالِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، بل لا بدَّ أن يحلفَ بمخلوقاتٍ عظيمةٍ؛ كما في هَذِهِ السورةِ وغيرِها.

في هذهِ السورةِ -يا إخواني- يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٥-٣٦]. وفي بعضِ الآياتِ يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: إن هؤلاءِ لا يكتمونَ اللهَ حَديثًا، وإنهمْ يتكلمونَ، وإنهمْ يَقولونَ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، فكيفَ نَجمعُ بينَ الآياتِ؟

فالآنَ ظاهرُ الآياتِ التعارضُ، ولكنِ اعلمْ أنهُ لا يوجدُ في كتابِ اللهِ تعارضٌ، ولا يوجدُ في سنةِ الرسولِ ﷺ الثابتةِ عنهُ تعارضٌ، ولا يوجدُ بينَ القرآنِ والسنةِ الصحيحةِ تعارضٌ، ولا يُوجدُ بينَ آياتِ القرآنِ تعارضٌ، ولا يوجدُ بينَ الأحاديثِ الثابتةِ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تعارضٌ، فلا يُوجدُ بينَ القرآنِ والثابتِ منَ السنةِ تعارضٌ أبدًا؛ لأن الحقَّ لا يكونُ باطلًا: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، لكنِ التعارضُ قدْ يَبدُو لبعضِ الناسِ إما لقلةِ علمِهِ، وإما لقلةِ فَهمِهِ، وإما لزيغِ قلبِهِ والعياذُ باللهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران:٧]. وإلا فلا يُمكنُ التعارضُ.

وقدْ ألفَ العلماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مؤلفاتٍ في دَرءِ تعارضِ النصوصِ الصحيحةِ، وبيّنُوا أوجهَ الجمعِ بَيْنَها، وممنْ ألفَ في ذلكَ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، صاحبُ (أضواءِ البيانِ في تفسيرِ القرآنِ بالقرآنِ)، ألفَ جُزءًا مُفيدًا سَماهُ (دفعَ إيهامِ الاضطرابِ عنْ آياتِ الكتابِ).

إذنْ، كيفَ نجمعُ بينَ الآياتِ التي تَدُلُّ على أن هؤلاءِ لا يَنطقونَ ولا يُؤذنُ لهمْ فيعتذرونَ، وبينَ الآياتِ التي تَدُلُّ على أنهمْ يَتكلمونَ؟

نقولُ: أولًا: مقدارُ يومِ القيامةِ خمسونَ ألفَ سنةٍ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]، خمسونَ ألفَ سنةٍ ألا تتغيرُ الأحوالُ؟ ففي بعضِ الأحيانِ يتكلمونَ، وفي بعضِ الأحيانِ لا يتكلمونَ، فالأحوالُ تختلفُ في يومٍ منْ أَيَّامِنَا نحنُ في أربعٍ وعشرينَ ساعةً، فكيفَ بيومٍ مقدارُهُ خمسونَ ألفَ سنةٍ؟!

فيقالُ: إن الناسَ يومَ القيامةِ لهم أحوالٌ، ففي بعضِ الأحوالِ لا يستطيعونَ أن يَتكلَّموا، وفي بعضِ الأحوالِ يؤذنُ لهمْ فيتكلمونَ، ولكن لا يمكنُ أن يُقبلَ اعتذارُهُم -أعني المشركينَ-، ولوْ حَاولُوا أن يَعتذِرُوا لشَهِدَتْ عَلَيْهِمْ جنوبُهم وألسنتُهم وأيدِيهم وأرجلُهُم بما كانوا يكسبونَ، فلا يستطيعونَ الخلاصَ.

مثالٌ آخرُ: بَيَّنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن الناسَ يُحشرونَ منهمْ مَنْ تكونُ وُجوهُهُم مُسْوَدَّةً، ومنهمْ مَن يُحشرُ أزرقَ، فقالَ تَعالَى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢]، وقالَ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر:٦٠]. فكيفَ يُجمعُ بينَ السوادِ والزرقةِ؟

فلو قالَ قائلٌ: هذا تناقضٌ فإننا نقولُ: ليسَ فيهِ تناقضٌ، فالزمنُ طويلٌ، وليسَ قَصيرًا، فيمكنُ أن يتغيرَ، ويمكنُ أن يقالَ: بَعْضُهم يحشرونَ زُرقًا، وبَعْضُهم يحشرونَ سُودًا. ويُمكنُ أن يُقالَ: الزرقةُ الحالكةُ قريبةٌ منَ السوادِ. فالمهمُّ -يا إخواني- القرآنُ ليسَ فيهِ تناقضٌ.

في هذهِ السورةِ يَفْصِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَيْنَ كلِّ آيتينِ بقولِه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

من أجلِ أن يَقرعَ الأسماعَ هذا التحذيرُ العظيمُ، وهو التكذيبُ، ويلٌ للمكذبينَ يومَ القيامةِ بالحقِّ؛ سواءٌ كذَّبُوا بالشريعةِ كلِّها أو كَذَّبُوا ببعضِها؛ لأنَّ مَنْ كَذَّبَ ببعضِ الشريعةِ فقدْ كَذَّبَ بالشريعةِ كلِّها؛ قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

وقالَ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ حينَ أَخَذُوا ببعضِ الكتابِ دونَ بعضٍ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥].

إذنْ، كَرَّرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هذا الوعيدَ للمكذبينَ لأهميةِ الموضوعِ، فالتكذيبُ ليسَ بالأمرِ الهينِ بعدَ قيامِ الحجةِ، أما إذا لم تقمِ الحجةُ فلا شيءَ حتى تقومَ الحجةُ.

ولهذا أنكرَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رجلٍ سَمِعَهُ يقرأُ آيةً في الفرقانِ على خلافِ ما كانَ يَعرِفُه عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجَذَبَهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ؛ لأنها جاءتْ على خلافِ ما سَمِعَ، فأَخَذَهُ إلى الرسولِ ﷺ فَقَرَأَ عمرُ الآيةَ، فقالَ الرسولُ ﷺ: «**هَكَذَا أُنْزِلَتْ**» وقرأَ الرجلُ الآيةَ فقالَ: «**هَكَذَا أُنْزِلَتْ**»[(١)]. لأن القرآنَ أولُ ما نَزَلَ نَزَلَ على سبعةِ أحرفٍ.

فعمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينَ أنكرَ ما أنكرَ ليسَ مُرادُهُ التكذيبَ أبدًا، لكنهُ لمْ يَبْلُغْه،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، رقم (٢٤١٩)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، رقم (٨١٨).

وإذا لم يَبْلُغْهُ فهو معذورٌ، وعلى هذا فمنْ ذُكِرَ لهُ حديثٌ مَثَلًا وكَذَّبَ بهِ لعدم ثقتِه في الناقلِ، فلا يُعَدُّ هذا كافرًا؛ لأنهُ لم يُكَذِّبْ بالحديثِ بعدَ عِلمِه أنهُ مِن كلامِ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكن إذا كذَّبَ بالحديثِ وهو يقولُ: نعمْ قالَ الرسولُ ﷺ كذا ولكن ذلكَ لا صحةَ لهُ، فحينئذٍ يكونُ كافرًا، فلو قالَ: أنا أقومُ بالصلاةِ، وأُصلي، وأزكي، وأصومُ، وأحجُّ، لكنَّ هذا الكلامَ الذي قالهُ الرسولُ غيرُ صحيحٍ. فنقولُ: هو كافرٌ نَعَمْ، وأيُّ إنسانٍ يُكذِّبُ بنصٍّ يعلمُ أنهُ من كلامِ اللهِ أو كلامِ رسولِهِ فهو كافرٌ.

كذلكَ أيضًا وردَ نظيرُ ذلكَ، أو قريبًا منهُ في التكرارِ، في سورةٍ أخرى، وهي سورةُ الرحمنِ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، تكررتْ أكثرَ مِن ثلاثينَ مرةً؛ لأن كلَّ آيةٍ بينَ جُملتينِ فيهما مِنْ نِعَمِ اللهِ، فيقولُ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن:١٣]. أيْ: بأيِّ نِعَمِ اللهِ تُكذبانِ، والخطابُ للإنسِ والجنِّ.

وليُعْلَم أنهُ لا يُمْكِنُ أن يَقَعَ في القرآنِ تَكْرَارٌ إلا ولهُ فائدةٌ، لكنْ لقصورِ عُقولِنا وأَفهامِنا وحيلولةِ الذنوبِ بَيْنَنَا وبينَ التوفيقِ للصوابِ قَد يَخْفَى عَلينَا حكمُ ذلكَ، ولكنَّنَا نَعْلَمُ عِلْمَ اليقينِ أن لذلكَ حِكَمًا كثيرةً عظيمةً.

أَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يَجعَلَنا ممنْ يَتلونَ كتابهُ حقَّ تلاوتِه؛ لفظًا ومَعنى وعملًا، إنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ على نَبِيِّنا محمدٍ، وَعَلَى آلِهِ أجمعينَ.



سورة النبأ

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومنْ يُضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَهُ اللهُ بالهدى ودينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصحَ الأمةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلى آلهِ وأصحابهِ، ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قالَ اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ:١-١٦].

ابتدأَ اللهُ تَعالَى سورةَ النبأِ بهذا الاستفهامِ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، ومعلومٌ عندَ أهلِ النحوِ أن (عن) هنا حرفُ جرٍّ، وأن (الميمَ) أصلُها (ما) الاستفهاميةُ، لكن حذفتْ منها الألفُ؛ لأن القاعدةَ أن (ما) الاستفهاميةَ إذا دخلَ عليها حرفُ الجرِّ فإنهُ تُحذفُ ألِفُها.

قولُه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ يعني: عن أيِّ شيءٍ يتساءلونَ، وأيُّ شيءٍ يُشكلُ عليهمْ؟

وأيُّ شيءٍ يَشُكُّونَ فيهِ؟ وأيُّ شيءٍ يُنكرونَهُ؟ فأجابَ اللهُ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:٢]، ولهذا كان يَنْبَغِي للقارئِ إذا قَرَأَ أن يَقِفَ على قولِه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ وألَّا يَصِلَ؛ لأنه إذا وَصَلَ لم يتبينِ الكلامُ، أي لم يتبينِ المعنَى، لكنْ إذا قُلتَ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ فهذا استفهامٌ، والجوابُ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ:٢-٣].

والنبأُ العظيمُ الذي همْ فيهِ مختلفونَ هو كلُّ ما أنبأَ بِهِ الرسولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ، فهمْ يتساءلونَ: هلْ ما جاءَ بِهِ محمدٌ حقٌّ في هذا الأمرِ، أو ليسَ بحقٍّ؟

ووصفَ اللهُ هذا النبأَ بالعِظَمِ؛ لأَنَّهُ أعظمُ نبأٍ على وجهِ الأرضِ؛ إذ إنهُ نبأٌ ثابتٌ بالنبوةِ؛ بالوحيِ الذي أوحاهُ اللهُ تَعَالَى إلى رسولِه محمدٍ ﷺ.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، فمنهمْ مَن صَدَّقَ، ومنهمْ منْ أَنْكَرَ، ومنهمْ من تَرَدَّدَ؛ فكانوا على ثلاثةِ أقسامٍ:

قسمٌ آمَنَ بالرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهؤلاءِ إنما يتساءلونَ مِن أجلِ تقريرِ ذلكَ في نفوسِهم.

وقسمٌ آخَرُ أنكرَ وجَحَدَ وقالَ في النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: إنهُ ساحرٌ كذابٌ، إنهُ كاهنٌ، إنهُ شاعرٌ، إنهُ مجنونٌ.

والقسمُ الثالثُ تَرَدَّدَ، تَعْصِفُ بِهِ الريحُ مرةً إلى هُنا ومرةً إلى هُنا، فإن يَسَّرَ اللهُ لهُ قُرَناءَ صَلاحٍ صَلَحَ بإذنِ اللهِ، وإن قَيَّضَ اللهُ لهُ قُرَناءَ السوءِ فسدَ.

قولُه: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ:٤] (كلا) هنا بمعنَى: حقًّا سيعلمونَ. واعلمْ أن (كلا) تأتي بمعانٍ كثيرةٍ، وكذلكَ غيرُها مِن حروفِ الجرِّ، وحروفُ المعاني تأتي

لمعانٍ كثيرةٍ، والذي يُعيِّنُ المعنى هو السياقُ وقرائنُ الأحوالِ، ولذلكَ كان للسياقِ تأثيرٌ في صرفِ اللفظِ عن ظاهرِهِ إلى المَعْنَى الذي يخالفُ الظاهرَ، وكذلكَ قرائنُ الأحوالِ، ومِن ثَمَّ أَنْكَرَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ وغيرُه منَ المُحَقِّقِينَ أن يكونَ في القرآنِ مجازٌ(١)؛ لأن المجازَ يعني أن هذا اللفظَ مستعملٌ في غيرِ موضعٍ لهُ، وهذا ليسَ بصحيحٍ، فالقرآنُ كلُّ ما فيهِ فهو حقيقةٌ وحقٌّ، وليسَ فيهِ مجازٌ.

ولهذا أدلةٌ كثيرةٌ، منها أن مِنْ أبرزِ علاماتِ المجازِ صِحَّةُ نَفْيِهِ، وليسَ في القرآنِ شيءٌ يَصِحُّ نَفْيُهُ، وأَضرِبُ لكمْ مثلًا: إذا قلتَ: رأيتُ أسدًا يحملُ سيفًا يهاجمُ الأعداءَ، فمعنى الأسدِ: الرجلُ الشجاعُ، ويمكنُ لأي إنسانٍ أن يقولَ لكَ: هذا ليسَ بأسدٍ، هذا بشرٌ من بَنِي آدمَ، فيصحُّ أن يَقَعَ النفيُ على هذه الكلمةِ.

وليس في القرآنِ شيءٌ يَصِحُّ نَفْيُهُ.

وهلْ يمكنُ أن تقولَ في قولِه تَعَالَى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤]: إن الذلَّ ليسَ لهُ جناحٌ؟

الجوابُ: لا، فما دامَ اللهُ أثبتَهُ فلا بدَّ أن نُثْبِتَهُ.

فلا يمكنُ أن تقولَ في قولِه: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف:٧٧]: إن الجدارَ لا يريدُ.

فكلُّ ما في القرآنِ حقٌّ، ولا يُمْكِنُ نَفْيُهُ، ولذلكَ لا يوجدُ في القرآنِ مجازٌ.

فمِنَ العلماءِ مَن قال: لا يوجدُ في القرآنِ ولا في اللغةِ العربيةِ مجازٌ، وإن الكلمةَ في سياقِها تُعيِّنُ المرادَ، ولا يجوزُ أن يكونَ المرادُ غيرَ ما دلتْ عليهِ هذه

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٨٨).

الكلمةُ في موضِعها. وهذا هو الحقُّ، وهوَ الذي ذهبَ إليهِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتلميذُه ابنُ القيمِ وغيرُهما مِنَ المُحقِّقِينَ، ونَصَرَهُ ابنُ القيمِ بأدلةٍ قويةٍ؛ مَن شاءَ أن يراجِعَها فليراجِعْها في كتابِه (الصواعقِ المرسلةِ).

إذنْ نقولُ: القرآنُ ليسَ فيهِ مجازٌ؛ لأن الكلمةَ في موضِعِها دالةٌ على المعنى المرادِ، ولا يُمكنُ أن يُرادَ سِواهَا، فقولُه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ:١-٤] ذكرنَا أن (كَلَّا) لها معانٍ كثيرةٌ، والذي يُعيِّنُ المعنى هو السياقُ.

قولُه: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ:٥] السينُ هنا يقولونَ: إنها للتنفيسِ، وتفيدُ التحقيقَ والقربَ؛ أي أنهمْ سَيَعْلَمُونَ حقًّا ولا بدَّ، وسيعلمونَ عن زمنٍ قريبٍ لا بعيدٍ.

قولُه: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أي سَيَعْلَمُونَ عن هذا النبأِ الذي يتساءلونَ عنهُ تَساؤُلَ إنكارٍ وشكٍّ وترددٍ -وصدَقَ اللهُ- ومتى يَعْلَمُونَ ذلكَ؟ يَعْلَمُونَهُ إذا أتى أَحَدَهُم الموتُ، فإنهُ يُشاهدُ الحقَّ عِيانًا، ولكنَّهُ لا يُمْكِنُ أن تُقبلَ توبتُه إذا شاهدَ الموتَ؛ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨].

قولُه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ [النبأ:٦] ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ يقولُ أهلُ البلاغةِ وأهلُ النحوِ أيضًا: إن همزةَ الاستفهامِ إذا دخلتْ على النفيِ فإنها للتقريرِ، فمعنى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ أي: قدْ جعَلْنَا، ومعنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] أي: قدْ شَرَحْنَا لكَ صَدْرَك، وهنَا ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ أي: قَدْ جَعَلْنَا.

قولُه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ أي كالمِهَادِ في سُهُولَتِها ويُسرِها، ولذلكَ ليستْ رِخوةً بحيثُ لا يستقرُّ عليها شيءٌ، وليستْ صُلبةً بحيثُ لا ينتفعُ بها أحدٌ، ولكنِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ جعلَهَا بَيْنَ بَيْنَ؛ حتى يَنْتَفِعَ الناسُ بها وتكونَ لهمْ كالمهادِ.

قولُه: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٧] الجبالُ معروفةٌ، وهي هذه المُشَاهَدَةُ، وما أَكْثَرَها فيما حولَ مكةَ -شَرَّفَها اللهُ- وسَمَّاهَا أوتادًا لأنها تُرْسِي الأرضَ؛ كما قالَ تَعالَى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات:٣٢-٣٣]، فهي بمنزلةِ الوَتِدِ للخَيْمَةِ تُثَبِّتُ الأرضَ عنِ الاضطرابِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥] أيْ أن تضطربَ، فهذهِ الجبالُ العظيمةُ تحفظُ توازنَ الأرضِ حتى لا تَضْطَرِبَ بالناسِ، وتُثَبِّتُ الأرضَ أيضًا حتى لا تَميدَ بالناسِ.

قولُه: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النبأ:٨] (أزواجًا) بمعنى: أصنافًا؛ كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢] أي أصنافَهم وأشكالَهم. وقالَ تَعالَى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٨]؛ أي أصنافٌ، فمعنَى ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا، فما هذه الأصنافُ؟

ذكرٌ وأنثَى صِنفٌ وصِنفٌ، شَقِيٌّ وسَعِيدٌ، أَبْيَضُ وأَسْوَدُ، طَوِيلٌ وقَصِيرٌ، حَسَنُ الخُلُقِ وسَيِّئُ الخُلقِ، فهذهِ أنواعٌ كثيرةٌ لا تُحصى منَ الأصنافِ في بني آدمَ.

ولذلكَ اعْلَمْ أن اختلافَ الناسِ في أخلاقِهِمُ الباطنةِ أشدُّ مِنِ اختلافِهم في أخلاقِهِمُ الظاهرةِ، يعني كلُّنا الآنَ لنا وجوهٌ، ولنا أيدٍ، ولنا أرجلٌ، ولا تَجِدُ واحدًا مثلَ الآخرِ مِن كلِّ وجهٍ أبدًا ولا يُمكنُ.

إذنِ، الخُلُقُ -وهوَ الصفةُ الباطنةُ في الإنسانِ- مختلفٌ، فلا تَجِدُ اثْنَيْنِ اتَّفَقَا في

الأخلاقِ، فقدْ يَتَّفِقَانِ في بَعْضِ الأخلاقِ ويكونانِ مثلًا حَسَنِي الأخلاقِ وحَسَنِي المحادثَةِ وحَسَنِي المقابلةِ، لكنْ يختلفانِ في شيءٍ؛ لأن اللهَ تعالى خَلَقَنَا أزواجًا، أي أصنافًا، بل إن الرجلَ الواحدَ ينظرُ إلى يدِه اليُمْنَى وإلى يدِه اليُسْرَى فيجدُ بينهُما اختلافًا؛ فالتشققاتُ مختلفةٌ، واليمينُ أَقوى، ومجاري الدمِ -العروقُ- تختلفُ في اليدِ اليُمْنَى واليُسْرَى، والأناملُ تختلفُ -يعني أطرافَ الأصابعِ- تختلفُ بينَ اليدِ اليُمْنَى واليُسْرَى، ولو أنكَ ذَهَبْتَ تَسْأَلُ أهلَ العلمِ بالتشريحِ لوجدتَ اختلافًا كثيرًا.

لذلكَ نقولُ: إن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَنَا أَصْنافًا وأَشكالًا، ولهذا قالَ ﴿وَخَلَقْنَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أيْ أصنافًا مختلفةً في الخِلْقَةِ والخُلُقِ.

قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ:٩] أي: قاطعًا للتعبِ والمشقةِ، ولهذا كان في النومِ فائدتانِ:

الفائدةُ الأولى: قطعُ التعبِ السابقِ، فالإنسانُ عندمَا يتعبُ تعبًا شديدًا ثم ينامُ ينقطعُ التعبُ، ثم يستقيظُ وهوَ مستريحٌ، فهذا قطعٌ.

الفائدةُ الثانيةُ: تجديدٌ للقوةِ في المستقبلِ، فيجدُ الإنسانُ بعدَ النومِ أنهُ قامَ نشيطًا، ولهذا نَهى النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الإنسانَ أن يقومَ ليلَهُ ولا ينامُ وقالَ: «**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»[1].

فلا يجوزُ للإنسانِ أن يُرْهِقَ نفسَه، اللهمَّ إلا أحيانًا، فربما يُرَخَّصُ للإنسانِ ألا ينامَ مثلَ العَشْرِ الأواخرِ مِنْ رمضانَ؛ كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة، رقم (١٣٦٩).

يقومُ فيها الليلَ كلَّهُ ولا ينامُ[1]، أما ما سِوَى ذلكَ فما قامَ النبيُّ ﷺ ليلةً إلى السَّحرِ أبدًا إلا في العَشْرِ الأواخرِ من رمضانَ.

إذن، النومُ ثُباتٌ، فهو نعمةٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ، فلا ينبغي للإنسانِ أن يَسهرَ ليلَه، وأن يُتْعِبَ نفسَه، ولا ينبغي أيضًا العكسُ؛ أن يكونَ دائمًا نائمًا خمولا كسولًا، بلْ يكونُ عَدلًا متوسطًا.

قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ:١٠] يعني جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى لباسًا، وذلكَ أن الليلَ مظلمٌ، والظلمةُ تَسْتُرُ، ولو لم يكنْ عندنَا هذه الأنوارُ التي مَنَّ اللهُ بها علينا لَوَجَدْتَ الليلَ حالكًا يَسْتُرُ مَنْ فيهِ، حتى إن الرجلَ ليكونُ إلى جَنْبِكَ ولا تَدْرِي ماذا يقولُ ولا ماذا يفعلُ، فالليلُ بمنزلةِ اللباسِ، يُغَطِّي الأرضَ ويُغَطِّي الشيءَ عَنِ العيونِ.

قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ:١١] أي زَمَنًا للمعاشِ، أي لِطَلَبِ العَيْشِ؛ لأن في النهارِ يَخْرُجُونَ إلى مَصَالِحِهِمُ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ.

قولُه: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢] الفاعلُ في (بَنَيْنَا) اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وبناءُ اللهِ تَعَالَى للسمواتِ لا تظنُّ أنهُ كبناءِ الإنسانِ للبيتِ، ففي بناءِ الإنسانِ للبيتِ يأتي بالعُمَّالِ، ويأتي بالزنابيلِ، ويأتي بالطوبِ، ويأتي بالطينِ، ويأتي بالخشبِ، وأما بناءُ اللهِ السمواتِ فهو في كلمةٍ واحدةٍ: كنْ فيكونُ.

---

(١) أخرج البخاري: كتاب فضل ليلة القدر، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان، رقم (٢٠٢٤)، ومسلم: كتاب الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان، رقم (١١٧٤) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ».

وقدْ بَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنهُ خلقَ السَّمَوَاتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ؛ أولُها الأحدُ، وآخرُها الجمعةُ؛ الأرضُ في أربعةِ أيامٍ، والسماءُ في يومينِ؛ قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:٩-١٢].

وقولُه: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾. أي: قويةً، وهذا يُبيِّنُ معنى قولِه تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] أي بقوةٍ، وليستِ الأيدي هنا جمعَ يدٍ، ولكنها مصدرُ (آدَ يئيدُ)، فتقولُ: «آدَ الشيءُ» بمعنَى قَوِيَ، (يئيدُ) يقوَى (أيدًا) بمعنى قوةٍ.

يقولُ بعضُ الناسِ إذا سَمِعُوا مثلَ هذا التفسيرِ: إن هذا تحريفٌ كتحريفِ أهلِ التعطيلِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] أي بقوتي.

فنقولُ: كلا، كلمةُ (أيدٍ) هنا لم يُضِفْهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى نفسِه، لكن ﴿بِيَدَيَّ﴾ أضافَها اللهُ إلى نفسِه، ففرقٌ بينَ هذَا وهذَا، ولذلكَ لا يجوزُ أن نُفسرَ الأيدِ في قولِه تعالى: ﴿بِأَيْدٍ﴾ أي بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وحرامٌ علينا؛ لأن اللهَ لم يُضِفْها إلى نفسِه، ولو أننا فَسَّرْنَاها بيدِ اللهِ لَكُنَّا أَضَفْنَا إلى اللهِ ما لم يُضفْهُ لنفسِه.

إذنْ ﴿بِأَيْدٍ﴾ أي بقوةٍ، ولا إشكالَ في هذا ولا تحريفَ، ولا يجوزُ أن تفسَّرَ بأنها يدُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأن اللهَ تعالى لم يُضفْها إلى نفسِه.

قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ:١٣] يعني خَلَقْنَا أيضًا سِرَاجًا جَعَلْنَاهُ وَهَّاجًا، ويعني بذلكَ الشمسَ؛ فإنها سراجٌ تَسْتَنِيرُ بها الأرضُ كلُّها، ويَدُلُّكَ لهذا

أنهُ إذا ارتفعتِ الشمسُ وطلعتِ الشمسُ بطَلَ كلُّ ضوءٍ، يقولُ الشاعرُ[1]:

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَواكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنهُنَّ كَوكَبُ

فالشمسُ تُغطِّي كلَّ شيءٍ، وهيَ سراجٌ وهَّاجٌ، أي شديدُ الحرارةِ، والشمسُ كتلةٌ عظيمةٌ تنيرُ الأفقَ وتنيرُ الأرضَ، وهي أيضًا شديدةُ الحرارةِ، انظرْ إلى بُعدِها الآنَ، وانظرْ إلى حرارتِها في أيامِ الصيفِ، فلا تكادُ تَمْشِي على الأرضِ مِن شِدَّةِ حرارتِها، فقدِ اكتسبتِ الأرضُ هذه الحرارةَ مِنَ الشمسِ، فعلى بُعدِها هذا البعدَ العظيمَ تَصلُ حرارتُها إلى الأرضِ، بينما لو تُوقَدُ جميعُ نيرانِ الدنيَا لم تتجاوزِ الأمتارَ، ولذلكَ قالَ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾.

قولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ:١٤] يعني مِنَ السحابِ، وسَمَّاها معصراتٍ لأن المطرَ يَخْرُجُ منها كالنُّقَطِ تخرجُ منَ الثوبِ المعصورِ، كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور:٤٣] من بَينِه. و﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي: كثيرَ الثَّجِّ والصبِّ.

قولُه: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ:١٥-١٦] اللامُ هنا للتعليلِ؛ أي أَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هذا المطرَ مِن أجلِ أن يُخْرِجَ بِهِ الحبَّ والنباتَ والجناتِ والبساتينَ الكثيرةَ ألفافًا؛ أي كثيرةَ الأشجارِ، التي يلتفُّ بعضُها إلى بعضٍ.

إلى آخرِ ما ذَكرَ اللهُ في هذه السورةِ؛ حيثُ تَكَلَّمَ جَلَّوَعَلَا عنِ البعثِ، وعنْ نفخِ الصُّورِ، وعنْ مآلِ المتقينَ، ومآلِ المجرمينَ.

وفي القرآنِ عبرٌ وعظاتٌ، ولذلكَ أُكرِّرُ عليكمْ -باركَ اللهُ فيكمْ- أن تُكثروا

---

(١) من شعر النابغة في النعمان. الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ١٦٣).

تدبرَ القرآنِ، وتَفهمَ القرآنِ، ففيهِ العبرُ، وفيهِ الآياتُ البيناتُ، وبهِ يَقوى الإيمانُ، ويتضحُ النورُ.

أسأَلُ اللهَ تعالى أن يجعلَنِي وإياكُم ممن يَتلُونَه حقَّ تلاوتِهِ، ويَقْدُرُونَهُ حقَّ قَدْرِه، إنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ على نَبِيِّنَا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبهِ.





سورة التكوير

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ، وصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:١٥-٢٩].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾.

في هذه الآياتِ أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَى بأربعةِ أشياءَ، وقولُنا: أَقْسَمَ يُشْكِلُ عليه أن الآيَةَ (لا أقسم)، فكيف نُفَسِّرُ النفيَ بالإثباتِ؟

الجوابُ عن هذا أن نقولَ: الآيةُ ليس فيها نَفْيٌ، بل فيها (لا)، والمرادُ بها في هذا المَوْضِعِ التنبيهُ؛ تنبيهُ المخاطَبِ لما سَيُلقَى إليه؛ لأنَّه إذا كان الأمر هامًّا حَسُنَ أن يُنَبَّهَ المخاطَبُ قبل أن يُخاطَبَ؛ ليكونَ على استعدادٍ لِقَبولِ ما يَسمَعُه.

وهذه الآيـةِ نظـائرُ كثيرةٌ في القُرآنِ؛ كقولِه تَعَالَى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾

[القيامة:١]، وقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد:١]، وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة:٣٨]، وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج:٤٠]. فالمراد بـ(لا) هنا التنبيهُ.

قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥-١٦] هذان جِنْسَانِ من النُّجُومِ مَعروفان عند أهلِ الاتِّبَاعِ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ النجومَ ومَنازِلَها لِيَستدلُّوا بها على الأوقاتِ.

قولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير:١٧] قال بَعْضُ المُفَسِّرِينَ: إن معنَى قولِه: ﴿عَسۡعَسَ﴾ أي دَخَلَ، وبَعْضُهم قال: إذا أقبلَ وإذا أَدْبَرَ، والصحيحُ أن الآيَةَ شَامِلَةٌ للمعنيينِ جميعًا، إلا أَنَّه يؤَيِّدُ القولَ بأَنَّ المرادَ (إذا أقبلَ) قولُه: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٨]، الصُّبْحُ يَعْنِي الإصباحَ، وهو ابتداءُ ضوءِ الشمسِ في الأُفُقِ.

واعْلَمْ أن الفجرَ فجرانِ: فجرٌ صادِقٌ وفجرٌ كاذبٌ، والفرقُ بينهما من حيثُ المشاهدةُ من وجوهٍ ثلاثةٍ:

الفرق الأول: الفجرُ الصادقُ: مُسْتَطِيرٌ -بالراءِ- في الأُفقِ، يَمْتَدُّ من الشمالِ إلى الجنوبِ كأنه جَنَاحَا طائرٍ. والفجرُ الكاذبُ: مُستطيلٌ -باللامِ- في الأُفُقِ، يعني أَنَّه ليس عَرْضًا ولكنه طُولًا يمتدُّ منَ المَشرِقِ إلى المغربِ، وجاء في الحديثِ أَنَّه كذَنَبِ السِّرْحَانِ[1] أي كذَنَبِ الذئبِ.

الفرق الثَّاني: الفجرُ الصادقُ يَزدَادُ نُورًا، فلا ظُلمةَ بعدَه، يعني متى ظَهَرَ الفجرُ الصادقُ فالنورُ يَزدَادُ حتَّى طلوعِ الشمسِ، فلا ظُلمةَ بعدَه. والفجرُ الكاذبُ

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (ص:١٢٣، رقم ٩٧).

يُظلِمُ، يعني يَبْقَى حوالي ثَلَاثِينَ دَقِيقَةً أو نحوَها ثمَّ يُظْلِمُ فيعودُ الجوُّ مُظلِمًا كما كان قبلَ ذلك.

الفرق الثَّالث: أن الفجرَ الصادقَ ضوءُه متَّصِلٌ بالأُفقِ، والفجرُ الكاذبُ بَيْنَه وبَيْنَ الأفقِ ظُلمةٌ، فليس متَّصلًا بالأفقِ.

هـذا من حيثُ الفروقُ المحسوسةُ، أمـا الفروقُ الشرعيَّة فالفجرُ الكاذبُ لا يَتعلَّقُ به حُكمٌ، يعني لا يحرُمُ به الطعامُ على الصائمِ، ولا تَحِلُّ به صلاةُ الفجرِ، والفجرُ الصادقُ تَحِلُّ به صلاةُ الفجرِ، ويحرُمُ فيه الطعامُ على الصائِم، فهذا فرقٌ شرعيٌّ.

قولُه تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ المرادُ بالصبحِ هنا الصادِقُ؛ لأنَّه هو الَّذِي يَنْتَقِلُ به الجوُّ من اللَّيْلِ إلى النهارِ، ولهذا كان مُبتدَأُ النهارِ شَرعًا هو طُلوعَ الفجرِ، أما لُغةً: فمُبتدَأُ النهارِ طُلُوعُ الشمسِ، فهناك فرقٌ بين المعنى اللُّغويِّ والشرعيِّ بالنسبةِ للنهارِ؛ فابتداءُ النهارِ شَرْعًا من طلوعِ الفجرِ، وابتداءُ النهارِ لُغَةً من طُلُوعِ الشَّمْسِ.

قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير:١٩] ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضميرُ يعودُ على القُرآنِ الكريمِ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا الرَّسُولُ هو الرَّسُولُ المَلَكِيُّ، يعني جِبريلَ، وسُمِّيَ كَريمًا لِبَهَائِهِ وحُسْنِه، وقيامِهِ بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على الوجهِ الأكملِ.

قولُه: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ [التكوير:٢٠] أي: صاحبِ قوةٍ؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥].

قولُه: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي عندَ صاحبِ العرشِ، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ كما قَالَ

اللهُ تَعَالَى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥]. إذن فـ(ذُو العَرْشِ) أي صاحبُ العَرْشِ، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فمعنى قولِهِ: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قولُه: ﴿مَكِينٍ﴾ أي: ذي مَكانةٍ وشَرَفٍ ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥]، فكما فضَّل اللهُ النبيينَ بَعْضَهم على بعضٍ، وفضَّلَ اللهُ الخلائقَ بَعْضَها على بعضٍ، فضَّل اللهُ الملائكةَ بَعْضَهم على بَعْضٍ.

قولُه: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢١] أي: له كلِمةٌ يُطاعُ عليها ﴿ثَمَّ﴾ أي: هُناكَ في السَّماءِ ﴿أَمِينٍ﴾ أي: مُؤتَمَنٍ على ما يُرسَلُ به من الوحيِ إلى الرُّسُلِ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

ويَدُلُّكَ على أنَّه مُطاعٌ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر أنَّه «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ**»، والعكسُ إذا أبغضَ اللهُ رَجُلًا(١).

الشاهدُ مِنْ هذا قولُ جبريلَ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ**». إذن، هو مُطَاعٌ هُنَاكَ.

﴿أَمِينٍ﴾ أي: مُؤتَمَنٍ على الوحيِ الَّذِي يُرسِلُه اللهُ به إلى الأنبياءِ والرسلِ.

قولُه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢١] لَمَّا تَكلَّمَ عَزَّوَجَلَّ على الرَّسُولِ الملَكِيِّ ذَكَرَ الرَّسُولَ البَشَرِيَّ، وهو مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب المِقَة من الله تعالى، رقم (٦٠٤٠)، ومسلم: كتاب البر والصلاة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حببه لعباده، رقم (٢٦٣٧).

بِمَجْنُونٍ﴾. والخطابُ لِقُرَيْشٍ، أي: ما الَّذِي هو صَاحِبٌ لكم تَعرِفُونَهُ، وتَعْرِفُونَ صِدْقَه وأَمَانَتَه، وعَقْلَه الراجِحَ، بمجنونٍ.

والعَجَبُ -يا إِخْوَانَنَا- أن قُريشًا كانوا يُسمُّونَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ الوحيِ الصادقَ الأمينَ، ولما نَزَلَ عليه الوحيُ ودعاهم للحقِّ قالوا: إنَّه ساحِرٌ كذَّابٌ مجنونٌ. وما أشبهَ ذلك، فيقولُ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يعني: ما الَّذِي تَعرِفُونَه ولَيْسَ بغريبٍ عليكم، بل هو صَاحِبٌ لكم، ما هو بمجنونٍ، بل هو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أكملُ النَّاسِ عَقْلًا وأَسَدُّهم رَأْيًا، وأقواهُم أمانةً.

ولو كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يريدُ أنْ يَكْتُمَ شيئًا مِمَّا أَوحَى اللهُ إليه لَكَتَمَ قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]، كلماتٌ عظيمةٌ يُوجِّهُها اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى رسولِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَنْقُلُ ما أُوحِيَ إليه من غَيْرِ زيادةٍ ولا نقصٍ.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ أي: رَأَى مُحَمَّدٌ جِبريلَ ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣] أي: البيِّنِ الظاهِرِ العَالِي، فإن الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رَأَى جبريلَ على صُورتِهِ الَّتي خُلِقَ عليها مَرَّتَيْنِ: مرَّةً في غارِ حِرَاءَ(١)، ومَرَّةً في السَّماءِ السابعةِ لَمَّا عُرِجَ به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ(٢)، وهذه الرؤيةُ هي الَّتي في غارِ حِراءَ؛ لأَنَّه يقولُ: ﴿رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ﴾. إذن، مُحَمَّدٌ في الأرضِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (١٦٣).

قولُه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤] يعني ما صاحبُكم أيضًا على الغَيبِ -وهو الوحيُ الَّذِي أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ- ﴿بِضَنِينٍ﴾ أي: بَخِيلٍ، وفي قراءةٍ: (بِظَنِينٍ)[1] أي بِمُتَّهَمٍ، بل هو أكملُ النَّاسِ أمانةً عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قولُه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير:٢٤] الضميرُ في قولِه: ﴿هُوَ﴾ يعودُ على القُرآنِ، ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي القُرآنُ ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ يَعْنِي بقولِ كاهنٍ؛ لأن الكهَنةَ تَنزِلُ عَلَيْهِمُ الشياطينُ بما استمعتْ من الوحيِ، فيتلقَّاها الكاهِنُ ويَكْذِبُ عليها مئةَ كِذْبَةٍ، ويُحدِّثُ النَّاسَ، فهم شياطينُ، وشياطينُ الإنسِ يَتَلَقَّوْنَ السمعَ من شياطينِ الجنِّ.

وقولُه: ﴿رَّجِيمٍ﴾ أي: مَرجومٍ مُبعَدٍ مَطرودٍ عن رَحْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قولُه: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير:٢٦] أي: فبعدَ هذا الإيضاحِ، وبيانِ أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ قولُ رسولٍ كريمٍ، وأنَّ صاحبَكم الَّذِي نَزَلَ عليه هذا الوحيُ ليس بمجنونٍ، فأين تذهبونَ بعدَ هذا؟ وهذا الاستفهامُ للإنكارِ والتحدِّي.

قولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٧] (إنْ) هنا بمعنى (ما)، ويَدُلُّ لذلك أن (إلا) أَتَتْ بعدَها: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا﴾ أي: ما هو إلا ذِكرٌ للعالمينَ، أي: تَذْكِيرٌ لهم، فمَن هَدَاهُ اللهُ تَذكَّرَ، ومَنْ لم يَهْتَدِ أنكرَ.

قولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨]. لَمَّا قال: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ عمومًا أبدل منها قولَه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، ومَن لم يشأْ فليسَ ذِكرًا له، ولا يَنتفِعُ بالقُرآنِ.

قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩] لَمَّا بَيَّنَ عَزَّوَجَلَّ أنّه ذِكْرٌ لمَن شَاءَ أن يستقيمَ، بَيَّنَ أن مشيئةَ العبدِ تَابِعَةٌ لمشيئةِ اللهِ، فقال: ﴿وَمَا

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٣٦٤).

نَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

أولًا: جوازُ إقسامِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالمخلوقاتِ.

ووجهُ ذلك أن اللهَ أقسمَ بالنجومِ، وبالليلِ، وبالصبحِ.

وهل لنا أن نُقسِمَ بالمخلوقاتِ؟

الجواب: ليس لنا أن نُقسِمَ بالمخلوقاتِ، ولو عَظُمت عندنا وعندَ اللهِ. ولهذا لا يجوزُ للإنسانِ أن يقولَ: والنبيِّ، يعني أن يُقسِمَ بالنبيِّ ﷺ، ثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١).

وقال: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**»(٢).

وقال: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**»(٣).

ونحن نَسمَعُ هنا في المسجدِ الحرامِ من بعضِ إخوانِنَا مَن يُقسِمُ بالنبيِّ ﷺ فيقولُ: والنبيِّ ما فعلتُ كذا. ومن النَّاسِ من يُقسِمُ بعليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن النَّاسِ مَن يُقسِمُ بعيسى بنِ مَريمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكُلُّ هذا مِنَ الشركِ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، رقم (٦٦٤٦)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥، رقم ٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

فلا إقسامَ إلا باللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، أو صفةٍ مِنْ صِفَاتِه؛ كعزَّةِ اللهِ، فتقولُ: بعزةِ اللهِ لأَفْعَلَنَّ كذا وكذا، وأما ما عدا ذلك فالإقسامُ به شِركٌ، لكنْ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يُقسِمَ بِمَن شَاءَ مِن خَلْقِه.

ثانيًا: من فوائدِ هذه الآياتِ الكريمةِ: بيانُ أنَّ هذا الوحيَ الَّذِي جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ قولُ جبريلَ، والدَّلِيلُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير:١٩-٢٠].

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: كيف تقولُ: إنَّه قولُ جبريلَ، وهو قولُ ربِّ العالمينَ؟

فالجواب: أنَّه أُضِيفَ إلى جِبريلَ لأنَّه نَزَلَ به من عندِ اللهِ، وقد ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى في آيةٍ أُخرى أن القُرآنَ الكريمَ قولُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقال تَعَالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [الحاقة:٣٨-٤٠]، المرادُ بالرَّسُولِ الكريمِ هنا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لقولِه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة:٤١-٤٢].

إذن، أُضِيفَ إلى مُحَمَّدٍ ﷺ لأنَّه بَلَّغَهُ أُمَّتَه، وأُضِيفَ إلى جبريلَ لأنَّه بَلَّغَهُ للرسولِ، والقائلُ به ابتداءً هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فالقُرآنُ الكريمُ كلامُ اللهِ تَعَالَى حقًّا، تَكَلَّمَ به حقيقةً بألفاظٍ مُرِيدًا معانيَه عَزَّوَجَلَّ، وليس كلامَ جبريلَ، ولا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّه لا يُمكِنُ أن يكونَ الكلامُ الواحدُ مِنْ مُتكَلِّمِيْنِ.

فالقُرآنُ إذن يجِبُ عَلَيْنَا أن نعتقدَ أنَّه كلامُ اللهِ، ألفاظُه ومعانِيهِ، وليس الكلامُ هو اللفظَ دونَ المعنى، ولا المعنى دونَ اللفظِ.

ثالثًا: من فوائدِ هذه الآياتِ الكريمةِ: بيانُ مكانةِ جِبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لقولِه:

﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢٠-٢١].

رابعًا: ومن فوائدِ هذه الآياتِ الكريمةِ قوةُ تَوبيخِ قُرَيْشٍ، الَّذِينَ كذَّبوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهو منهم وليسَ بعيدًا، وكان عليهم أن يكونوا أولَ مؤمنٍ به؛ لأَنَّه صاحبُهم يَعرِفُونَه، ومِن شُكْرِ نعمةِ اللهِ عليهم أن يُؤمِنوا به، ويُؤخَذُ ذلك من قولِه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢].

خامسًا: ومِنْ فوائِدِها أيضًا بيانُ كَمالِ عَقْلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأَنَّه إنَّما نَفَى عنه الجنونَ لِكَمالِ عَقْلِه، ولِدَفْعِ دَعْوَى هَؤُلاءِ المكذِّبينَ له، الَّذِينَ يقولون: إنَّه مجنونٌ. وقَدْ قال اللهُ له: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢].

سادسًا: ومن فوائدِ هذه الآياتِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ غيرُ مُتَّهَمٍ بما يقولُه من وحيِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤].

سابعًا: ومن فوائدِ هذه الآياتِ إثباتُ مشيئةِ العبدِ، وأنَّ العبدَ ليس مُجْبَرًا على عَمَلِه، بل له مَشيئةٌ وإرادةٌ، وهذا هو الحقُّ الَّذِي يَدُلُّ عليه السمعُ والعقلُ والواقِعُ.

وللإنسانِ مَشيئةٌ، فمثلًا يتكلمُ بمشيئتِهِ، ولا يَشْعُرُ أَحَدٌ أن أَحَدًا يُجْبِرُه، فللإنسانِ مَشيئةٌ لا شَكَّ فيها، لكنَّ مَشِيئَتَنَا تابعةٌ لمشيئةِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ هو الَّذِي خَلَقَنا، وخَلَقَ ما فينا من أوصافٍ وأفعالٍ وأقوالٍ، فمَشيئَتُنا تابعةٌ لمشيئةِ اللهِ، بمعنى أننا إذا شِئْنَا شَيْئًا عَلِمْنَا بأنَّ اللهَ قد شَاءَ أن نَشَاءَ، لا شَكَّ في هذا، ولا يُمكِنُ أن يكونَ في مُلْكِ اللهِ ما لا يُرِيدُه عَزَّوَجَلَّ، بل كُلُّ شيءٍ فبمشيئةِ اللهِ.

ولو قال قائلٌ: هذا جمعٌ بين النَّقِيضَيْنِ، فكيفَ تَقُولُ: للإنسانِ مشيئةٌ. ومشيئتُه تابعةٌ لمشيئةِ اللهِ؟

قلنا: ليس هناك تناقُضٌ؛ لأننا نعلمُ بالمحسوسِ والمعقولِ والواقعِ أنَّ الإنسانَ له مَشيئةٌ يُضافُ إليها فعلُ العبدِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ [البقرة:٢٢٣]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، فللإنسانِ مَشيئةٌ لا شَكَّ، لكنَّ الَّذِي أودعَ فيه هذه المشيئةَ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

إذن، مَشِيئَتُنا تابعةٌ لمشيئةِ اللهِ، ونحن إذا شِئْنَا شَيْئًا عَلِمْنا بأنَّ اللهَ شَاءَ منَّا أن نشاءَ، ثمَّ إنْ فَعَلناه تمَّ الأمرُ، وإلا قد يَنصرِفُ الإنسانُ عن شيءٍ أرادهُ أولًا ثمَّ يَنْصَرِفُ عنه ثانيًا.

وضَلَّ في هذه المسألةِ -يا إخواني- طائفتانِ؛ طائفةٌ تقولُ: الإنسانُ ليسَ له مَشيئةٌ، وإنما يَفْعَلُ جَبْرًا؛ لأنَّه مُدَبَّرٌ. وهؤلاء ضلُّوا سَوَاءَ السبيلِ؛ لأنَّه لو كان الإنسانُ يُجبَرُ لم يُمْدَحْ فاعلُ الإحسانِ، ولم يُذَمَّ فاعلُ الإساءةِ؛ إذ إنَّ المحسِنَ لا نَمْدَحُه لأن هذا غَضْبٌ عليه، والمسيءَ كذلك لا نَذُمُّه لأنَّ هذا غَصْبٌ عليه.

كذلك أيضًا لو كان الإنسانُ يُجْبَرُ ما صَحَّ أن يُثابَ المُطِيعُ، ولا أن يُعاقَبَ العاصي؛ لأنَّ العاصيَ يقولُ: أنا ليس لي إرادةٌ وليس لي قُدرةٌ. وعليه لا يَحسُنُ أن يُعاقَبَ، وما عُقوبةُ الإنسانِ المُجْبَرِ إلا كقولِ القائلِ[1]:

أَلْقَاهُ فِي اليَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ ... إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالمَاءِ

إذن، هذا القولُ بأنَّ النَّاسَ مُجْبَرونَ على أَعْمَالِهم ليس لهم فيها إرادةٌ ولا مَشيئةٌ قولٌ باطِلٌ، يُبطِلُهُ السمعُ والعقلُ والواقِعُ.

وقال آخرونَ بالعكسِ، قالوا: الإنسان مُستقِلٌّ، يَفْعَلُ ما يشاءُ بدونِ إرادةِ

(١) زهر الأكم في الأمثال والحكم (١/ ١٥٥).

اللهِ عَزَّوَجَلَّ. وهذا قبيحٌ، وكيف يُمكِنُ للإنسانِ أن يَفْعَلَ ما يُخالفُ إرادةَ اللهِ، ولله ملكُ السَّمواتِ والأرضِ، بيدِه مَلَكُوتُ كلِّ شَيْءٍ!

فإذن، كِلَا القولينِ باطِلٌ، وسَبَبُ ذلك أن بعضَ النَّاسِ يَأْخُذُ من النصوصِ بأَطْرَافِها، ويَدَعُ الطرفَ الآخرَ فيَضِلُّ، فهؤلاء الجَبْرِيَّةُ نَظَرُوا إلى عمومِ مُلْكِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّ كُلَّ شيءٍ بيدِه، فقالوا: الإنسانُ ما له إرادةٌ ولا مَشيئةٌ ولا قُدرةٌ على العملِ أيضًا. والآخرونَ رَأَوْا أنَّ اللهَ تَعَالَى أَضَافَ الأَفْعَالَ إلى فَاعِلِيهَا وأثبتَ لهم المشيئةَ، والواقِعُ يَشْهَدُ بذلك، فَأَخَذُوا بهذا ونَسُوا أنَّ اللهَ تَعَالَى له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، والصوابُ أن الإنسانَ له مَشيئةٌ، وله إرادةٌ، وأنه يَفْعَلُ باختيارِه، وأنَّه لا يُجبَرُ على عَمَلِه، لكننا نَعْلَمُ أن ما يَقَعُ في الكَوْنِ فإنَّما يَقَعُ بمشيئةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

مراتبُ القَدَرِ أربعٌ:

المرتبةُ الأولى: العِلمُ.

والثَّانيةُ: الكِتابَةُ.

والثَّالثةُ: المَشِيئَةُ.

والرَّابِعةُ: الخَلْقُ.

وبهذا يقولُ ناظِمُ هذا البيتِ:

عِلْمٌ كِتَابَةُ رَبِّنَا مَشِيئَتُهُ ... وخَلْقُهُ وَهْوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينُ

المرتبة الأولى: العلمُ:

معناه أن تؤمنَ بأنَّ اللهَ تَعَالَى عَليمٌ بكلِّ شيءٍ، لا يَعزُبُ عنه مِثقالُ ذرةٍ في

السَّمَواتِ ولا في الأرضِ، حتَّى ما يُوَسْوِسُ به الإنسانُ في نفسِه، ويحدِّثُ به نَفْسَه، فاللهُ عليمٌ به، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦]، وهو عليمٌ بكلِّ شيءٍ جملةً وتفصيلًا، وقال تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥].

المرتبةُ الثَّانيةُ: الكتابةُ:

أي الكتابةُ في اللوحِ المحفوظِ، فإنَّ اللهَ تَعالَى قال للقلم: «**اكْتُبْ -يَعْنِي فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ- قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»[1]. فكتب القلمُ ما هو كائنٌ إلى يوم القِيامَةِ، بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. ودليلُ هذا قولهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

وقال تَعالَى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

المرتبةُ الثَّالثةُ: المشيئةُ:

ودليلُها قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال تَعالَى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، لكنْ دليلُ كونِ فعلِ الإنسانِ بمشيئةِ اللهِ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: أبواب تفسير القُرآن، باب ومن سورة ن، رقم (٣٣١٩).

بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣]. وقال تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢]. وفي الآيـةِ الثَّانيـةِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١٣٧].

إذن، مشيئةُ اللهِ عامَّةٌ لِما يُريدُه مِنْ فِعْلِه، وما يُريدُهُ مِنْ خَلْقِه جَلَّ وَعَلَا.

المرتبةُ الرابعةُ: الخَلْقُ:

كلُّ شيءٍ موجودٌ فهو مخلوقٌ للهِ، كائِنٌ بعدَ أن لم يَكُنْ، والدَّليلُ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]، فكلُّ شيءٍ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خالِقُه، وأعمالُ العبادِ مخلوقةٌ للهِ؛ لأن عملَ العبدِ ناتِجٌ عن عزيمةٍ وقدرةٍ، والعزيمةُ والقدرةُ مخلوقتانِ للهِ، فالإنسانُ عَمَلُه مخلوقٌ للهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦].

فهذه مراتبُ أربعٌ في الإيمانِ بالقدرِ، لا يمكنُ أن يتمَّ الإيمانُ بالقدرِ الَّذِي هو أحدُ أركانِ الإيمانِ الستَّةِ إلا إذا آمنَ الإنسانُ بهذه المراتبِ الأربعةِ: العلم، الكتابة، المشيئة، الخَلق.

أسألُ اللهَ تَعَالَى أن يَجْعَلَنِي وإياكم من المؤمنينَ بِقَدَرِ اللهِ، إنَّه على كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: فما بالُنَا نأخُذُ بالأسبابِ؟

قلنا: لا شَكَّ أن الإنسانَ يَفعَلُ الأسبابَ، وإذا فعلَ الأسبابَ فقد تتمُّ أمورٌ وقد لا تتمُّ، فربما يفعلُ الإنسانُ السببَ ويحجزُ في الطائرةِ، ويأخُذُ (كارت) الدخولِ

في الطائرةِ، ثمَّ لا تطيرُ الطائرةُ.

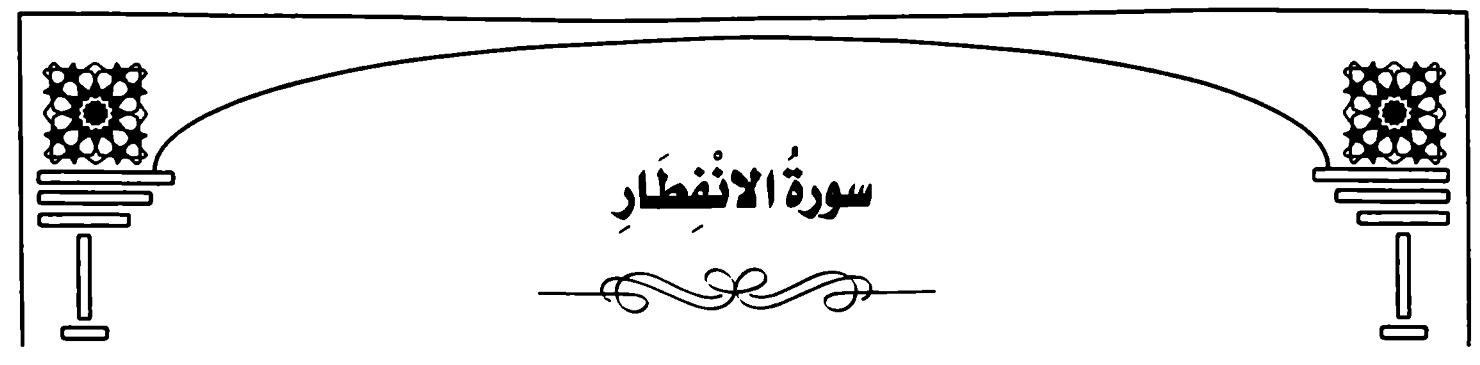
إذن، أنا فعلتُ الأسبابَ لكن لو أراد اللهُ أن يتمَّ الأمرُ لتَمَّ.

ولذلك اسْمَعْ هذا الحديثَ واجْعَلْه نُصْبَ عَيْنَيْك دائمًا: قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**» يعني: المؤمنُ الضعيفُ والقويُّ كِلَاهُمَا فيه خيرٌ، «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ**» يعني خلافَ ما تُريدُ «**فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[1]. فعلينا أن نفعلَ الأسبابَ، أما أن تَتِمَّ الأمورُ فهذا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

والحمدُ للهِ الَّذِي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحبِه.



(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).



سورةُ الانْفِطَارِ

الدرسُ الأولَ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بَعْدُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار:١-٥].

هَذِهِ مَشاهِدُ يَوْمِ القِيامَةِ، واللهُ تَعَالَى أحيانًا يُعبِّرُ بالانْفِطَارِ كَما فِي هَذِهِ الآياتِ، وأحيانًا يُعبِّرُ بالانشقاقِ، كَما فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١]، وكَما فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن:٣٧].

فهَذِهِ السَّماءُ العظيمةُ الشديدةُ القويةُ يَوْمَ القِيامَةِ تَتَفطَّرُ أَيْ تَتشقَّقُ: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ:١٩-٢٠]، هَذِهِ الجِبالُ العظيمةُ الَّتِي لا تَدُكُّها المَعاوِلُ القويةُ يَوْمَ القِيامَةِ تكونُ هَباءً مَنْثُورًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥]؛ لأنَّ الَّذِي خلقَها عزَّوَجَلَّ

قادرٌ عَلَى أَنْ يجعلَها كَذَلِكَ فِي لحظةٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار:١] يَعْنِي: انشقَّتْ كَما تنفطرُ الأَرْضُ من نباتٍ، تنشقُّ السَّماءُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ [الانفطار:٢] ﴿ٱلۡكَوَاكِبُ﴾: هِيَ كِبارُ النُّجُومِ، وعِظامُ النُّجُومِ، تَنْتَثِرُ: أَيْ تَتَفرقُ وتَتَطايرُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ [الانفطار:٣]: البِحارُ تُفجَّرُ، وتُوقَدُ نارًا، الآنَ الجِبالُ أَمسكَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ وَلَوْ شاءَ اللهُ لفاضتْ عَلَى الأَرْضِ، لكنَّ اللهَ أَمسَكَهَا بقُدرَتِه، وَيَوْم القِيامَةِ تُفجَّرُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ [الانفطار:٤] يَعْنِي: نُشِرَتْ، فالقبورُ الآنَ ثابتةٌ عَلَى أصحابِها، لَكِنْ يَوْمَ القِيامَةِ تُبعثَرُ؛ لأَنَّ النَّاسَ يَخرجُون منها، ينبتُ الإِنْسَانُ فِي قبرِه كَما تنبتُ الحِبَّةُ، حَتَّى إِذَا تكَامَلَ الجسدُ -بِإِذْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ نُفِخَ فِي الصُّورِ، فخرجتِ الأرواحُ من الصُّورِ، وَحلَّتْ كُلُّ رُوحٍ فِي جَسَدِها لا تُخْطِئُه، ثُمَّ يَخرجون، كَما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، ﴿قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ مَا الَّذِي حَدَثَ.

فَإِذَا حَصلَتْ هَذِهِ الأمورُ الأربعةُ: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [الانفطار:٥] يَعْنِي: عَلِمَتْ كُلُّ نَفسٍ مَا قَدَّمَتْ من الأعمالِ، ومَا أَخَّرَتْ؛ مَا قَدَّمَتْ فِي أولِ حياتِها، ومَا أَخَّرَتْ فِي آخِرِ حياتِها، وبأيِّ وسيلةٍ تَعلمُ مَا قَدَّمَتْ وأَخَّرَتْ؟ بالكتُبِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ أَيْ: عَمَلَه، ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣] أَيْ: مفتوحًا، ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ

عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤].

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ: «واللهِ لقد أَنصفَكَ مَن جَعلَكَ حسيبًا عَلَى نفسِك»[1]. وأنت بِنفْسِك تنظرُ الكتابَ مكتوبًا فِيهِ كُلُّ شيءٍ، فاقْرَأْه وحَاسِبْ نفسَك، حِينَئِذٍ يَعلمُ الإِنْسَانُ مَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦].

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أيُّ شيءٍ غرَّكَ بربِّكَ حَتَّى انْتَهكْتَ حُرُماتِه، وكَذَّبتَ رُسُلَه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار:٧].

قَوْلُهُ: ﴿خَلَقَكَ﴾ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ وهُمْ مُشْرِكون ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]. والجَوابُ: هُوَ ما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ ويَقُولُ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ فيكونُ الجَوَابُ أَنَّهم لم يُخلَقُوا من غيرِ شَيْءٍ ولا هُم الخالقون، إذن فالَّذِي خَلَقَهُم هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

ولِذَلِكَ قَالَ جُبَيْرُ بنُ مُطْعِمٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وكانَ سَمِعَها من الرَّسُولِ ﷺ وكانَ من أَسْرَى بدرٍ، يَقُولُ: سمعتُ هَذِهِ الآيةَ، فكادَ قَلبي يَطيرُ من شدةِ وَقْعِها، وَوَقَرَ الإِيمَانُ فِي قلبي[2].

---

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (١/ ٥٤٥، رقم ١٥٦٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، بابٌ، رقم (٤٠٢٣).

إذن، ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ أَيْ: جَعَلَكَ سَوِيًّا فِي كُلِّ عضوٍ من أعضائِك، كُلُّها سَوِيَّةٌ، الرأسُ، والعينُ، والفمُ، والأنفُ، والرقبةُ، والقَلْبُ، والرئةُ، والكبدُ، والأمعاءُ، كُلُّها متناسبةٌ.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أَيْ: جَعَلَك ذا قَامةٍ، فالحصانُ يَمشي عَلَى أربعٍ، عَلَى يديه ورِجْلَيْه، ظَهرُه فوق، كَذَلِكَ الحيواناتُ الأُخْرَى كالبَعِيرِ والشاةِ والبقرِ، ومَا أَشْبهَ ذَلِكَ، فالإِنْسانُ مُعْتَدِلٌ، ذو قامةٍ، أشرفُ أعضائِه رأسُه جَعَلَه اللهُ فوق، ولِذَلِكَ إِذَا سَجَدَ الإِنْسانُ فِي الصَّلَاةِ صارَ أقربَ إِلَى اللهِ مما إِذَا كَانَ قائمًا، لِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ**»[1]. وَالحِكْمَةُ من ذَلِكَ أَنَّك لَمَّا وضعتَ أَعْلَى ما فيكَ فِي أَسْفَلَ -فِي المكانِ الَّذِي يُوازِي قَدَمَيْكَ- رَفَعَكَ اللهُ: «**مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ**»[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٨]

يعني: أَنَّ اللهَ ركَّبَ بني آدمَ فِي أيِّ صورةٍ شاءَها، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ**﴾ [آل عمران:٦] ولننظُرْ للآدميين الَّذِين أَمَامَنا، فليسوا عَلَى صورةٍ واحدةٍ، بل فِيهِم الطويلُ والقصيرُ، والأبيضُ والأسودُ، فِيهِم ما بينَ ذَلِكَ، فِيهِم الجميلُ، فِيهِم المتوسطُ، فِيهِم الَّذِي دونَ ذَلِكَ، وهَلُمَّ جرًّا. ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ ولا أَحْسَنُ من صورةِ بني آدمَ فيما نعلمُ، إِنْ نَظَرَ فبالمقابلِ، وإِنْ وَقَفَ فباعتدالٍ، وهَلُمَّ جرًّا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:٩]

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨).

أَيْ بَعْدَ هَذِهِ الحقائـقِ: ﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ أَيْ: بالجـزاءِ؛ لأنَّ الَّذِيـن كَفَرُوا يَقُولون: لا بَعْثَ ولا جَزَاءَ، ويَقُولُ قائلُهم: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، وأجابَ اللهُ تَعَالَى بقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، هم يُكذِّبون بالدينِ، يُكذِّبون بالجزاءِ، يَقُولون: ليسَ هُنُاكَ جزاءٌ، والإِنْسَانُ إِذَا ماتَ انتهى أمرُه، ولا عَوْدَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:١٠-١١].

قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ﴾ يَعْنِي: اللهُ وكَّل عَلَيْكُم هَؤُلاءِ.

قَوْلُهُ: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ هم ملائكةٌ عن اليمينِ وعن الشِمالِ يَكتبون: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٢].

كُلُّ ما نفعلُ يَعْلَمُونَه، ويَكْتبُونَه، وكلُّ ما نَقُولُ يَكْتبُونَه أَيْضًا.

ولِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَحذرَ كُلُّ إِنْسَانٍ أن يُسَجَّلَ عَلَيْهِ ما لا يرضاه اللهُ عَزَّوَجَلَّ فَيهلِكَ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ عَلَيْهِ حافظٌ يحفظُه ويكتبُ كُلَّ ما عَمِلَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، كَلِمَةُ: ﴿مِن قَوْلٍ﴾ عامَّةٌ تعمُّ كُلَّ قولٍ، ووجهُ العمومِ أنها نكِرةٌ فِي سياقِ النَّفْيِ، والنكرةُ فِي سياقِ النَّفْيِ تكونُ عامَّةً، والنكرةُ فِي سياقِ النَّهْيِ كَذَلِكَ تكونُ عامَّةً كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، فكَلِمَةُ ﴿شَيْـًٔا﴾ يَعْنِي: أيَّ شَيْءٍ يكونُ.

مَسْأَلَةٌ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ هل عُمومُها مُؤكَّدٌ أَمْ غيرُ مُؤَكَّدٍ؟

الجَوَابُ: نعم مُؤَكَّدٌ بـ(مِنْ)، و(مِنْ) مُؤَكِّدةٌ لأَنَّها زائدةٌ، ولأَنَّ كُلَّ حرفٍ زائدٍ يفيدُ التَّوكيدَ، هَذِهِ قاعدةٌ بلاغيةٌ وعربيةٌ؛ لأَنَّها أُكِّدتْ بـ(مِن) لأَنَّها زائدةٌ، وعلاماتُ الزائدةِ أَنْ يَسْتَقيمَ الكلامُ بِحذفِها، أو أَنْ يَسْتَقيمَ الكلامُ مَعَ حذفِها، فهي -إذن- زائدةٌ، والزيادةُ تفيدُ التَّوكيدَ، كقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة:١٩]، وكقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]. إذن، كُلُّ قولٍ فإِنَّهُ يُكتبُ، لديه رقيبٌ عتيدٌ.

رُوِيَ عن إمامِ أَهْلِ السُّنَّةِ أحمدَ بنِ حنبلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّ رجلًا دخل عَلَيْهِ وهُوَ مريضٌ يئنُّ من مَرَضِه، فقال: يا أبا عبدَ اللهِ، ما هَذَا؟ كيفَ تئنُّ بمرضِك، وقد قَالَ طاوسٌ -من التَّابعين المَعروفين-: إنَّ المَلَكَ يكتبُ حَتَّى أنينَ المريضِ. فَأَمْسَكَ أبو عبدِ اللهِ عَنِ الأنينِ(١).

فكلُّ شَيْءٍ يُكتَبُ، والحسناتُ كثيرةٌ وللهِ الحَمْدُ، وَنَحْنُ نعلمُ أَنَّ الحرفَ الواحدَ من القُرْآنِ فِيهِ عَشْرُ حسناتٍ، والرُّجلُ إِذَا أسبغَ الوضوءَ فِي بيتِه، وخرجَ للمسجدِ لا يُخرجُه إِلَّا الصَّلَاةُ، لم يَخْطُ خطوةً واحدةً إِلَّا رفع اللهُ له بها درجةً، وحطَّ عنه بها خطيئةً، مَنْ يُحصي الخُطُواتِ؟ فالخَيْرُ كثيرٌ، ثُمَّ مِنْ وراءِ ذَلِكَ فضلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حَيْثُ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] هُوَ يَغفرُ عَزَّوَجَلَّ الذنوبَ الَّتِي دونَ الشركِ عَلَى كُلِّ حالٍ، ولكن: ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣].

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾، الأبرارُ جمع: بَرٍّ، والبَرُّ: كثيرُ الخَيْرِ والإحسانِ، إذن، فالمُرَادُ

---

(١) ذكره أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٢/ ١١٩).

بالأبرارِ مَن كَثُرتْ حسناتُهم وخيراتُهم، فآمَنُوا باللهِ، وقاموا بالواجبِ، وكمَّلوا بالمستحبِّ.

قَوْلُهُ: ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ (في) تُفيدُ الظرفيةَ، فكأنهم مُنغمِسُون فِي النَّعيمِ، النَّعيمُ مُحيطٌ بهم من كُلِّ وجهٍ. ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ فهم فِي نعيمٍ فِي الدُّنْيَا والآخِرةِ، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ فِي الدُّنْيَا، وفي القَبْرِ، وفي البَعثِ.

نعيمُ الأبرارِ فِي الدُّنْيَا وَرَدَ فِي القُرْآنِ والسُّنةِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

هَذَا النَّعيمُ، حياةٌ طيبةٌ. ما قَالَ اللهُ: نُكثرُ أموالَه، وأبناءَه، وقصورَه، وسياراتِه، لا، بل قال: نُحييه حياةً طيبةً، دائِمًا فِي طِيبٍ. فَسَّرَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١). هَذَا للمؤمنِ؛ لأَنَّهُ -أَيْ: المُؤْمِن- إِذَا أَصَابتْه السَّراءُ عَلِمَ أَنَّها من عندِ اللهِ، فشَكَرَ اللهَ عليها، وقام بطاعةِ اللهِ.

وإذا أَصابتْه الضَّراءُ يصبرُ، لا يتضجرُ، ولا يتحسَّرُ، ولا يحزنُ حُزْنًا يَخْرُجُ به عن المشروعِ؛ لأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ من عندِ اللهِ، فيرضى ويَسْتَسلِمُ، يَقُولُ: أنا مخلوقٌ من جملةِ المَخْلُوقَات، والخالقُ عَزَّوَجَلَّ يفعلُ ما شاء، فَإِذَا أصابني الضُّرُّ فمن اللهِ. فيَصبرُ، ويَحتسبُ، يموتُ له الميتُ فيصبرُ، يُصابُ ببدنِه فيصبرُ، يُصابُ بمالِه فيصبرُ.

في القَبْرِ -انظرْ إِلَى نعيمِ القَبْرِ، إِذَا دُفِنَ الميتُ، وتولَّى عنه أصحابُه، حَتَّى إِنَّه

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقاق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

ليسمعُ قَرْعَ نِعالِهم، يسمعُ وَهُوَ مدفونٌ بالأَرْضِ قرعَ نِعالِهم، يُسمِعُه مَن يُسمِعُ كلَّ شيءٍ عَزَّوَجَلَّ يأتيه مَلَكانِ فيُجلسانِه، ويسألانِه عن ثلاثةِ أمورٍ: عن ربِّه، ودينِه، ونبيِّه، فيجيبُ بالصوابِ، فيَقُولُ المُؤْمِنُ: ربيَ اللهُ، وديني الإِسْلامُ، ونبيي مُحَمَّدٌ، فينادي منادٍ من السَّماءِ أنْ صَدَقَ عَبدي، فأَفْرِشوه من الجنَّةِ، وافتحوا له بابًا إِلَى الجنَّةِ، فيأتيه من رَوْحِها ونعيمِها، ويُفسَحُ له فِي قبْرِه مدَّ بَصَرِه[1]، فيَرى أَنَّه انتقلَ من الدُّنْيَا إِلَى ما هُوَ أحسنُ منها، ولا يندمُ عَلَى فواتِ الدارِ، ولكنه يَنْدَمُ أَنَّه لم يَكُنِ ازدادَ عملًا صالحًا فقط، لا عَلَى أَنَّه فارَقَ الدُّنْيَا.

أَمَّا النَّعِيمُ فِي الآخِرةِ فحدِّثْ ولا حَرَجَ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] عن النَّارِ، ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٢-١٠٣]، تَتلقَّاهُم، فالوفدُ إِذَا تَلقَّاه خدَمُ المَلِكِ سُرَّ بهذَا، هَؤُلاءِ تَتلقَّاهم الملائكةُ: ﴿هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

فالنَّعِيمُ فِي الدُّنْيَا، وفي القَبْرِ، وَيَوْم القِيامَةِ، وفي الجنَّةِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، يَعْنِي: الدَّارَ الحُسْنَى، والحُسنَى فِي اللغةِ العربيةِ: اسمُ تفضيلٍ، يَعْنِي: الَّتِي لا أَحسَنَ منها، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ والزيادةُ فَسَّرها أَعْلمُ الخَلْقِ بكتابِ اللهِ مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ ﷺ قال: «وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ الكَرِيمِ»[2]،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٧٣٣).

(٢) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٣/ ٣٠٢، رقم ٢٣٣٠)، والشاشي في مسنده (٢/ ٣٨٩، رقم ٩٩٠).

وهَذَا أَعْلَى وأَغْلَى ما يكونُ من النَّعِيمِ لأهلِ الجنَّة أَنْ يَنظروا إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ والنَّظَرُ إِلَى اللهِ ثابتٌ بِالقُرْآنِ والسُّنَّةِ، وإجماعِ الصَّحابَةِ، والتَّابعين، والأئمةِ من بَعدِهم، بل يَرَوْنَ النَّظَرَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَعْلَى وأَغْلَى ما يكونُ من النَّعِيمِ.

الأدلَّةُ علَى رُؤيَةِ المُؤمِنينَ ربَّهم يَوْمَ القِيامَةِ:

يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ يَعْنِي: حَسَنَة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] تَنظُرُ إِلَى اللهِ، وهَذَا نَصٌّ صريحٌ بِأَنَّ النَّظَرَ نَظَرُ العينِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ يَعْنِي: حَسَنَةٌ بهيَّةٌ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تنظرُ إِلَى ربِّها بأعيُنِها الَّتِي فِي الوَجْهِ.

وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] والزيادةُ هِيَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ الكَرِيمِ».

وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] الكُفَّارُ لا يَنظرُون إِلَى وَجْهِ اللهِ، فتدلُّ هَذِهِ الآيةُ بمفهومِها عَلَى أَنَّ عَكْسَهم لَيْسَ محجوبًا عَنِ اللهِ، يُقوِّي هَذَا فِي نَفْسِ السُّورةِ فِي آخرِها قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣].

فِي هَذِهِ الآيةِ من سُورةِ المُطَفِّفِينَ قِصَّةٌ مطابقةٌ تمامًا للوضعِ الحاليِّ للبَشَرِ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٢٩] فِي الدُّنْيا يَقُولُ: ما هَذَا، مُطوِّعٌ متشددٌ. إِلَى آخرِ الألقابِ، ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٠] فمَن المارُّ المُجرمُ أم الَّذِينَ آمَنوا؟

فَنقولُ: الآيةُ تحتملُ معنيين، تحتملُ هَذَا وهَذَا، وهَذَا من بَلاغة القُرْآنِ، يَعْنِي: إِذَا مَرَّ المُؤْمِنون بالمجرمين تَغامزوا بهم، وإذا مَرَّ المُجْرِمونَ بالمُؤْمِنِينَ وهم قاعدون تَغامزوا بهم، فَلا يَسلَمُ المُؤْمِنون من أَذِيَّتِهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ أَيْ: المُجْرِمونَ ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المطففين:٣١] يَعْنِي: يَقُولون لأهليهم: اليَوْمَ مرَّ بنا فلانٌ المطوِّعُ، وقُمنا نَتغامزُ؛ احتقارًا له، يفرحون بهذَا.

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢] يَعْنِي: إِذَا رَأَى المُجْرِمونَ المُؤْمِنِينَ قَالُوا: هَؤُلاءِ ضالُّون، مَا عِنْدَهُم عقلٌ، ما عِنْدَهُم فقهٌ، رَجْعِيُّونَ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا، وهَذَا ينطبقُ عَلَى وقتِنا الآنَ، كثيرٌ مِمَّن لَيْسَ عِنْدَهُم دينٌ يَقُولون لأَهْلِ الدِّينِ: إنَّهم ضالون، رَجعيون، لا يَعرفون قِيمَةَ الحياة! وواللهِ إِنَّ المُؤْمِنَ هُوَ الَّذي عَرَفَ قيمةَ الحياةِ، وإِنَّ المجرمَ هُوَ الَّذِي لم يَعرِفْ قيمةَ الحياةِ، بل خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرةَ.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ [المطففين:٣٣] يَعْنِي: ما جَعَلَهم اللهُ حَفَظَةً يَتتبعون الأَبرَارَ، لكنهم أهلُ عدوانٍ وظلمٍ.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ [المطففين:٣٤]

﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ يَعْنِي به يَوْمَ القِيَامَةِ، ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾

تَفسيرُ الآيةِ: فَاليوْمَ الَّذين آمَنُوا يَضحكون من الكُفَّارِ، هَذِهِ الضحكةُ الَّتِي لا بُكاءَ بَعْدَهَا، لكنْ ضحكُ الفُجَّارِ من الأبرارِ، يَعقبُه الندمُ، والبُكاءُ، الَّذِي لا يَنفَعُ.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٥]

أوَّلُ ما نَقُولُ: يَنظرون إِلَى اللهِ، فِي المُقابلِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] أيضًا يَنظرون إِلَى النَّعِيمِ الَّذِي أعطاهم اللهُ، حَتَّى إِنَّ أَدناهُم مَنْ يَنظرُ

فِي مُلْكِهِ أَلْفَيْ عامٍ يَرَى أقصاهُ كَمَا يَرَى أدناه، يَنظرون أيضًا إِلَى أَهْلِ الجَحِيمِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات:٥٠]، ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يَعْنِي: ما الَّذِي حَصَلَ وهُم فِي مُنادمةٍ فِي الجنَّةِ، فِي سرورٍ، فِي انبساطٍ وفي حُبورٍ.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ لَكِنَّهُ قرينُ سُوءٍ، يَقُولُ: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات:٥٠-٥٣]، قَالَ له: تُصَدِّقُ أَنَّنا إِذَا مِتْنا وكُنَّا عظامًا وترابًا، نُبْعَثُ ونُجازَى، تُصَدِّقُ بهَذَا؟ انظُر جليسَ السُّوءِ، يريدُ من هَذَا المُؤْمِنِ أنْ يُشَكِّكه فِي هَذَا، ويُكَفِّره.

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات:٥٤] يَعْنِي: يقُولُون: نَنظُرُ إِلَى هَذَا، إِلَى هَذَا القَرِينِ، يَقُولُ لأصحابِه فِي الجَنَّةِ: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾، هُنا للتشويقِ، والعَرضِ أيضًا، ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٥٥] ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ﴾ أَيْ: رَأى قرينَه فِي الدُّنْيَا الَّذِي كَانَ يُشككُه، رَآه: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أَيْ: فِي قَعْرِهَا وأَصْلِها، فقالَ له: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات:٥٦].

مَسْأَلَةٌ: الجنّةُ فِي أعلَى عِلِّيِّين، والنَّارُ فِي أسفلِ السَّافلين، كيف يَنظرُ إليه، ويُخاطبُه، هل هَذَا ممكنٌ؟

الجَوابُ: يُمكنُ، ويجبُ علينا أنْ نُصدِّقَ بهَذَا؛ لأَنَّهُ كلامُ اللهِ، ثُمَّ إنَّ هَذَا وُجِدَ فِي الدُّنْيَا من صُنعِ الآدمي، هُنُاكَ الآنَ هواتفُ، تُكلمُ صاحبَك وتَنظرُ إِلَى وجْهِه وَهُوَ فِي المشرقِ وأنت فِي المغربِ، أليسَ كَذَلِكَ، وهَذَا من صُنعِ البَشَرِ، فكيفَ بصُنعِ الخَالقِ عَزَّوَجَلَّ!

﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ [الصافات:٥٦-٥٧]، فلْننظُرْ إِلَى هَذَا النَّعيمِ، إذن:

الأَوَّلُ: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣] إِلَى اللهِ تَعَالَى.

والثَّاني: النَّعِيمُ الَّذِي أعطاهم اللهُ تَعَالَى فِي الجنَّةِ.

والثَّالِثُ: إِلَى الفُجَّارِ فِي سَواءِ الجَحِيمِ.

دليلٌ آخرُ: مُوسَى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اشتاقَ إِلَى رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ لَمَّا كَلَّمَه اللهُ كَما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٤٣] يَعْنِي: للوقتِ الَّذِي وَعدناه، ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ فقالَ مُوسَى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ اشتاقَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ قَالَ اللهُ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ لا يُمكنُ أَنْ تراني، يَعْنِي: فِي الدُّنْيَا، ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ فانْدكَّ الجبلُ من عَظَمَةِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ حِينئذٍ خَرَّ مُوسَى صَعِقًا، أُغْمِي عَلَيْهِ كَما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، ودلالةُ هَذِهِ الآيةِ لَيْسَ عَلَى النَّظَرِ للهِ عَزَّوَجَلَّ لكِنْ عَلَى إِمكانِ نَظَرِ اللهِ؛ لأنَّ مُوسَى لن يطلبَ شيئًا مستحيلًا.

قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]، هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ يُرَى؛ لأَنَّهُ لو كَانَ لا يُرَى، لقال: «لا تراهُ الأبصارُ» فلمَّا قال: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ﴾ عَلِمنا أَنَّ الأبصارَ تَراهُ ولكِنْ لا تُدرِكُه، ومَنِ الَّذِي يُحيطُ بَصرُه باللهِ عَزَّوَجَلَّ! أيُّ بَصَرٍ يُحيطُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ! لا يُمكنُ، فالأَبْصارُ لا تُدرِكُه، وَهُوَ يُدركُ الأبصارَ، هَذِهِ أربعُ آياتٍ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، فَسَّرَها كثيرٌ من العُلَمَاءِ بِأَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، مَعَ أَنَّه يَكفِي المُؤْمِنَ دليلٌ واحدٌ.

أَمَّا السُّنَّةُ: فالنظرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ متواترٌ، والمُتواتِرُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الحَدِيثِ يُفيدُ اليَقينَ، وانظُرْ إِلَى نَظْمٍ جمعَ فِيهِ عدَّةَ مسائلَ من المُتواتِرِ، يَقُولُ:

ممَّا تَوَاتَرَ حديثُ مَنْ كَذَبْ:

يَعني: مَن كَذَبَ عليَّ متعمدًا، فَلْيتبوَّأْ مقعدَه من النَّارِ.

وَمَنْ بَنَى للهِ بيتًا واحْتَسَبْ

يعني: مَن بَنَى للهِ بَيتًا، بَنَى اللهُ لَه بَيْتًا فِي الجنَّةِ.

وَرُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالحَوْضُ

ورؤيةٌ: هَذَا الشاهدُ، أَيْ: رُؤْيَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ

شَفَاعَةٌ: يَعْنِي: شَفَاعَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وغيْره فِي أَهْلِ الكَبائِرِ.



الدرسُ الثاني:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتَّقينَ، ولا عُدوانَ إلا على الظالمينَ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وَحْدَه لا شَرِيكَ له، إلهُ الأوَّلين والآخِرينَ، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُه ورسولُه، سيِّدُ المرسَلِين، وإمامُ المتَّقينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَنْ تبِعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعْدُ:**

قال تَعَالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ [الانفطار:١-١٦].

قولُه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ هذه أربعةُ أشياءَ، ويكونُ بعدَها ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي: كلُّ نفسٍ ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾. هذه السَّماءُ الَّتي أخبرَ اللهُ تَعَالَى أنَّه بناها بأيدٍ؛ أي بقوةٍ، وأخبر أنَّها شديدةٌ فقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢]؛ هذه السَّماء الَّتي قال اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٣-٤].

فلا يمكِن أن تَرَى فيها خَلَلًا، ولا ضعفًا، بل هي قويَّةٌ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ

بناها بأيدٍ؛ أي بقوَّةٍ.

فهذه السَّماءُ إذا كان يومُ القِيامَةِ انفطرتْ، أي: تمزَّقتْ؛ لأن الأمرَ انتهى وانقضى، والذي أرادَه جَلَّوَعَلَا حصَلَ في هذه الخَليقةِ.

ولعلَّ أحدًا يكونُ في قَلبِه هاجسٌ حيثُ ذَكَرْتُ أن معنى قولِه تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] أي بقوَّةٍ؛ إذ يظنُّ البعضُ أن المرادَ أيدي اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وليس كذلك؛ لأن الأَيْدَ هنا لم تُضَفْ إلى اللهِ، فما قال: بأيدينا، بل قال: ﴿بِأَيۡيْدٍ﴾، ولا يَحِلُّ لنا أن نُضِيفَ إلى اللهِ ما لم يُضِفْه إلى نفسِه.

ومعنى (الأَيْدِ) في اللغةِ العربيَّةِ القوَّةُ، يُقالُ: آد، والمضارعُ: يَئِيد، والمصدر: أَيْد.

قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ سُبحانَ اللهِ! هذه الكواكبُ العظيمةُ الرفيعةُ المُنيرةُ الَّتي جَعَلَها اللهُ تَعَالَى مَصابيحَ في السَّماءِ، وإذا شِئتَ أن تَعْرِفَ عَظَمَتها فابعُدْ عن أنوارِ الكهرباءِ تَجِدِ العظمةَ العظيمةَ، سُبْحَانَ اللهِ العظيمِ! هذه الكواكبُ إذا كان يومُ القِيامَةِ انتثرتْ؛ تَفرَّقَتْ وتناثرتْ.

قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ [الانفطار:٣] يُفَجَّرُ بَعْضُها على بَعْضٍ، ولا تكونُ الأرضُ يابسةً؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى إذا كان يومُ القِيامَةِ فإنه يَقبِضُ الأرضَ بيدِه جَلَّوَعَلَا، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧].

فهذه ثلاثةُ أشياءَ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾.

والرَّابِعة: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار:٤] يعني بُعثِرَ تُرابُها، وخَرَجَ النَّاسُ من قُبورِهم للهِ عَزَّوَجَلَّ، والنَّاسُ الآن إذا مَاتُوا دُفِنوا في الأرضِ؛ لقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥].

فتبعثرُ القبورُ ويخرجُ النَّاسُ من قُبورِهم لربِّ العالمينَ، حُفاةً عُراةً غُرْلًا، حفاةٌ ليس عَلَيْهِمْ نِعالٌ، عُراةٌ ليس عليهم كِساءٌ، غُرْلٌ يعني غيرَ مَخْتُونِينَ، فجِلدةُ الحَشَفَةِ تعودُ يومَ القِيَامَةِ؛ لِتَعْلَموا أن اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فهذا الَّذِي أُخذَ من الإنسانِ يعودُ يومَ القِيَامَةِ؛ لقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

فاليدُ إذا قُطعتْ بحادثٍ، أو بقِصاصٍ، أو بسرقةٍ فإنها تُدفَن في أيِّ مكانٍ، ثمَّ يموتُ مَن قُطعتْ يدُه، فإذا كان يومُ القِيَامَةِ عادتْ هذه اليدُ الَّتي قطعتْ؛ لأن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾.

هذا المشهدُ العظيمُ تأملوه -يا إخواني- في كتابِ اللهِ، إنَّه لمشهدٌ عظيمٌ، إنَّه لمشهدٌ تَزِيغُ فيه القلوبُ والأبصارُ، وتَشْخَصُ فيه القلوبُ والأبصارُ.

ثم بعدَ هذه الأشياءِ الأربعةِ قال تَعَالَى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾. و(نَفْسٌ) هنا نكِرةٌ لكنها بمعنى العمومِ، ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ يعني كلَّ نفسٍ ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار:٥].

وتعلَمُ ذلك من كتابِها؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء:١٣-١٤] يعني يقالُ: اقرأْ كتابَك، ما نَظلِمُك، فأنتَ اقرأْ كتابَك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤].

قال بعضُ السلَفِ: «يَا ابْنَ آدَمَ، أَنْصَفَكَ مَنْ خَلَقَكَ، جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ»[١]. يعني عَامَلَكَ بالإنصافِ والعدلِ، فلا تُظْلَمُ، هذا كتابُك اقرأْهُ، فحينئذٍ يعلمُ الإنسانُ ما قدَّم وأخَّر، يعني ما عمِلَه في أولِ عُمُرِه، وما عمِلَه في آخِرِ عُمُرِهِ، يجدُه مكتوبًا، سُبْحَانَ اللهِ!

أرأيتم -يا إخواني- لو أن شخصًا وُضِعَ على صَدْرِهِ مُسجِّلٌ يُسَجِّلُ كلَّ ما يقولُ، ألا يخافُ ممَّن وَضَعَه أن يقولَ فيه ما يكرَهُ؟! إذن لماذا لا نخافُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ولماذا لا نخافُ من هذا الكتابِ الَّذِي نَلقاه مَنشورًا.

أسألُ اللهَ أن يجعلَ فيه الخيرَ لنا ولكمْ.

وهل الَّذِي يوجَدُ في الكتابِ هي الأعمالُ فقطْ أم الأعمالُ والأقوالُ؟

الجوابُ: الأعمالُ والأقوالُ، واسمَعْ قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

أسألُ اللهَ أن يُنجِيَنِي وإياكم، فالأمرُ ليس بهيِّنٍ، فهناك رَقيبٌ وعَتيدٌ على كلِّ قولٍ تقولُه، رَقيبٌ حاضِرٌ يكتبُ، فلو قال إنسانٌ: سُبْحَانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ. فإنها تُكتَبُ، ولو أنَّ رَجُلًا اغتابَ أخاهُ المسلِمَ فإن الغِيبةَ تُكتَبُ، ولو أنَّ الإنسانَ تكلَّمَ بكلامِ اللَّغْوِ الَّذِي ليس فيه خيرٌ ولا شرٌّ فإنَّه يُكتَب؛ ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وقَدْ قيلَ للإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو مَريضٌ يَئِنُّ مِن مَرَضِهِ: إن طاوسا -وهو رجلٌ من كبارِ التابعينَ- يَكْرَهُ الأَنِينَ في المرضِ، فَأَمْسَكَ أبو عبدِ اللهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنِ

---

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (١/ ٥٤٥، رقم ١٥٦٣).

الأنينِ حتَّى مات[1]؛ خوفًا من أن يُكتَبَ، اللَّهُمَّ أَنْجِنَا يا ربَّ العالمينَ.

والأمرُ خطيرٌ، فمَن يُحصِي الكلامَ الَّذِي يقعُ منَّا في مجالِسِنَا وفي أسواقِنَا، وفي مساجِدِنا، وفي كلِّ مكانٍ! لكنه يُحصَى.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦] أيُّ شيءٍ غرَّك باللهِ حتَّى تَعْصِيَ اللهَ وتخالفَه فيما أَمَرَكَ، مع أنَّه عَزَّوَجَلَّ كريمٌ، ومِنْ كَرَمِه تعَالَى أن الحسنةَ بعشْرِ أمثالِها، فقد أَخْبَرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنَّ الحسنةَ تُكتَبُ بِعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِ مئةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ[2]. اللَّهُمَّ لك الحمدُ، أليس هذا غايةَ الكرمِ، فهذا الكرمُ العظيمُ، فمن الَّذِي غرَّك بربِّكَ الكريمِ أيها الإنسانُ.

إذن، ارجِعْ إلى ربِّكَ، وأطِعْ ربَّك تَكسَبِ الحسناتِ، ولا تخالفْ أمرَ اللهِ وتقعْ في نواهيهِ، فتقعْ في غَضَبِه.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٧-٨] سُبْحَانَ اللهِ والحمدُ للهِ، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ هل أحدٌ يُنكِرُ أنَّ اللهَ خَلَقَه؟ أبدًا، لا يمكنُ، إلا المكابِر، فكلنا يعلمُ أنَّ اللهَ هو الَّذِي خَلَقَنا، ولم يَخْلُقْكَ أبوك أو أمُّك أو رئيسُك، فما خَلَقَك إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي في الخِلقةِ، وجعَلك سويًّا مستقيمًا.

ولهذا لا يوجدُ أحدٌ من الحيوانِ كالإنسانِ مُستقيمًا، ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي: جَعَلَك ذا اعتدالٍ.

---

(١) ذكره أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٢/ ١١٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب حسن إسلام المرء، رقم (٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، رقم (١٢٩).

ثم قال: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٦]. فلستَ أنت الَّذِي يختارُ الصورةَ، بل مَن يختارُها هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾.

وإذا علِمنا ذلك فواجبٌ علينا أن نلجأَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ في كلِّ أحوالِنا؛ في عِباداتِنا، وفي مُلمَّاتِنا، وفي كلِّ حالٍ، قال تَعالَى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٦٢]؟ لا والله.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:٩] انتقالٌ مِنَ الأولِ إلى الثَّاني، والدِّينُ: الجزاءُ، والذي يُكَذِّبُ بالدِّينِ هم الكفارُ، الَّذِينَ يُنْكِرونَ البعثَ، ويقولُ قائلُهم: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس:٧٨]، والجوابُ: ﴿يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩].

ويقولون: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات:٥٣]، يعني هل نُبعثُ ونُدانُ ونُجازَى، هذا زَعمُهم أنَّه لا يمكِنُ، والجوابُ: ممكنٌ، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١] في نفخةٍ واحدةٍ ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ فيُجابُونَ ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس:٥٢]. يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]. سُبْحانَ الَّذِي على كلِّ شيءٍ قديرٌ، صيحةٌ واحدةٌ يُصاحُ بهم: اخْرُجوا، احْضُروا، فإذا هم جميعٌ لدينا مُحضَرُونَ.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]؛ لأن اللهَ تَعالَى إذا أراد شيئًا قال له: كنْ. فيكونُ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ

كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾ [القمر:٥٠]، يعني: ما أمرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ للشيءِ إذا أَرَادَهُ إلا واحدةٌ كَلَمْحِ بالبصرِ، فيكونُ الشيءُ كَلَمْحِ البصرِ، ونحنُ لا نتصوَّرُ شَيْئًا أسرعَ من لمحِ البصرِ، وهي صيحةٌ واحدةٌ.

إذن، هَؤُلاءِ الَّذِينَ كذَّبوا بالدِّينِ والجزاءِ لا شَكَّ أنَّهم ضالُّون، وأنهم لم يَقْدُرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِه، ولم يَعرِفوا عظمةَ اللهِ، وإلا لآمَنُوا بهذا.

ثم قال تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:١٠-١١].

قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾ هَؤُلاءِ الحافظون هم الملائكةُ ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ [ق:١٧]، اللهُ أكبرُ! ما أعظمَ عنايةَ اللهِ تَعَالَى بابنِ آدمَ! فكلُّ إنسانٍ عنده مَلَكانِ؛ واحدٌ على اليمينِ وواحدٌ على الشمالِ، يكتبانِ ما قال وما فعلَ، لكنهم كِرامٌ، لا يمكنُ أن يَظْلِمُوا الإنسانَ، ولا أن يَنقُصُوا من حَقِّه شيئًا؛ لأنهم كِرامٌ ﴿كَٰتِبِينَ﴾ يعني يَكْتُبُونَ ما قال الإنسانُ، وما فعل الإنسانُ.

وهنا قد يَتنطَّع مُتَنطِّعٌ، ويَتَعَمَّق مُتَعَمِّقٌ، ويقولُ: كيفَ يَكْتُبُون؟ بماذا يَكْتُبُون؟ بأيِّ قلمٍ؟ وعلى أي صحيفةٍ؟

فنقولُ: هذا سؤالٌ محرَّمٌ لا يحِلُّ، فكلُّ أمورِ الغيبِ لا تُورِدْ عليها سؤالًا، ومَوْقِفُنا من أمورِ الغيبِ الإيمانُ والتسليمُ، أما بماذا يَكْتُبُون وعلى أيِّ شيءٍ يَكْتُبُونَ؟ فهذا لا يحِلُّ لنا أن نسألَ عنه.

واسْمَعْ قولَ الإمامِ مالكٍ رَحِمَهُٱللَّهُ، إمامِ دارِ الهجرةِ، وهو يُقرِّرُ في مسجدِ النبيِّ ﷺ، ومعه تلاميذُه، جاء رَجُلٌ وقال: يا أبا عبدِ اللهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، كيف استوَى؟

والاستواءُ وَرَدَ في القُرآنِ، وكذلك في الحديثِ، لكن في القُرآنِ في سبعةِ مواضعَ يُقرِّرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّه اسْتَوَى على العرشِ، فنحن نُؤْمِنُ بهذا، ونُشهِدُ اللهَ وملائكتَه وأنبياءَه وجميعَ خلقِهِ بأنَّه اسْتَوَى على عرشِهِ جَلَّوَعَلَا.

قال: كيف استوى؟ يريدُ أن يشرحَ الإمامُ مالِكٌ رَحِمَهُٱللَّهُ كيفيةَ استواءِ اللهِ على العرشِ، وهذا سؤالٌ عظيمٌ وَرَدَ على قلبِ الإمامِ وكأنه أثقلُ حَجَرٍ في الأرضِ، فأطرقَ، وجَعَلَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فهؤلاءِ سَلَفُنا الَّذِينَ يَقْدِرُونَ اللهَ حقَّ قَدْرِه، فجَعَلَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا، ثمَّ رَفَعَ رَأْسَه وقال: «يَا هَذَا، الِاسْتِوَاءُ غَيرُ مَجْهُولٍ، والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والإيمانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»[1]. وغيرُ مجهولٍ يعني أنَّه معلومٌ.

فمعنى اسْتَوَى على العَرْشِ: عَلَا على العرشِ، والعرشُ هو أعظمُ المخلوقاتِ الَّتي نَعلَمُها، والسَّمواتُ السبعُ والأرَضونَ السبعُ بالنسبةِ للكرسيِّ كحلْقةٍ أُلقيتْ في فلاةٍ من الأرضِ، لا إِلَهَ إلَّا اللهُ! حَلْقَةُ المِغْفَرِ صغيرةٌ وضيِّقةٌ إذا أُلقيتْ في فلاةٍ من الأرضِ فإنَّها تكونُ لا شيءَ، وإنَّ فَضْلَ العرشِ على الكرسيِّ كفضلِ الفلاةِ على هذه الحَلْقةِ[2]، سُبْحَانَ اللهِ! هذا العرشُ العظيمُ استوى اللهُ عليه، أي: عَلَا عليه، لكن كيفَ؟ الإمامُ مالِكٌ يقولُ: «الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ» يعني: عُقُولُنَا لا تُدرِكُ الاستواءَ كيف يكونُ، «والإيمانُ بهِ واجِبٌ» أي بالاستواءِ على ما أرادَ اللهُ، «والسؤالُ عنهُ» يعني عن كيفيَّتِه «بِدْعَةٌ»، فالإيمانُ به واجبٌ لأنَّ اللهَ تَعَالَى قرَّر ذلك في سبعةِ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٥، رقم ٨٦٧).
(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٧، رقم ٣٦١) أنه ﷺ قال: «..مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى الحَلْقَةِ..».

مواضعَ من كتابِه، والسؤالُ عنه بدعةٌ لأنَّ الصَّحابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يَسْأَلُوا عن كَيْفِيَّتِه رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ عندهم منَ الأدَبِ مع اللهِ ورسولِه ما يَمنعُهُمْ أنْ يَسْأَلُوا عن الكيفيةِ.

إذن، اسْتَوَى على العرشِ يعني عَلَا وارتفعَ، وكيف استواؤُه؟ لا نَدْرِي فهو غيرُ معقولٍ، وحكمُ الإيمانِ به أنَّه واجبٌ، وحكمُ السؤالِ عنه أنَّه بِدعةٌ. فهذا الَّذِي قاله مالِكٌ، وتلقَّاه النَّاسُ بالقبولِ.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَا أُرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا»، معنى «ما أُرَاكَ» أي: ما أَظُنُّك. واعلمْ أنَّه يقال: أَرى، ويُقال: أُرى، فإذا قيل: أَرى، فبمعنى أَعْلَمُ، وإذا قيل: أُرى، فبمعنى أَظُنُّ.

وقدِ اجتمعَ هذانِ في حديثِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أُتِي بِكَعْبِ بنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان مَرِيضًا، والقَمْلُ يَتناثَرُ على وجهِه من رأسِه، من أجلِ المرضِ، فقال له النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَا كُنْتُ أُرَى الوَجَعَ بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى**»(١) يعني بعينِي، وأُرى الأُولى بمعنى أظنُّ، يعني ما كنتُ أَظُنُّ أن الوجعَ بَلَغَ بك لهذه الحالِ.

قال الإمام مالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما أُراكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا» ثمَّ أَمرَ به أن يُخرَجَ من مَسجدِ الرَّسُولِ ﷺ، قال: أَخرِجوه؛ لأن مثلَ هذا السؤالِ سؤالٌ في غيرِ مَحَلِّه، ولا يقعُ إلا من أهلِ البِدَعِ وأشباهِهِم.

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب المحصر، باب: الإطعام في الفدية نصف صاع، رقم (١٨١٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، ووجوب الفدية لحلقه، وبيان قدرها، رقم (١٢٠١).

وهل كُلُّ شيءٍ جَديدٍ يُعتبَرُ بدعةً؟

نقولُ: لا، فالآن الساعةُ الَّتي تُلبَسُ لا يُقالُ: إنَّها بدعةٌ ويجبُ عليك أن تَرْمِيَ بها!! وكذلك الأقـلامُ، إذن البدعةُ هي كُلُّ ما يَتَعَبَّدُ بـه الإنسانُ للهِ تَعَالَى ولم تكنْ في شرعِ اللهِ. فاضبِطِ البدعةَ -يا أخي- لأنَّه يَنْبَنِي عليها مَسائلُ.

أهلُ العقائدِ الفاسدةِ يَتَعَبَّدُونَ للهِ بها، يقولون: هذا هو الواجبُ علينا، فالواجبُ أن نُؤَوِّلَ كلَّ الصفاتِ إلا ما استُثْني عندهم، وآخرونَ يقولون: الواجبُ أن نؤولَ جميعَ الصفاتِ. والذين يَبتدعون في الدينِ أذكارًا أو صلواتٍ أو صِيامًا يَتَقَرَّبُونَ بذلك إلى اللهِ، لا شَكَّ أنَّهم ما فعلوا هذا، ولا أَتْعَبُوا أنفسَهم، إلا تَقَرُّبًا للهِ عَزَّوَجَلَّ، يعني قَلَّ مَن يفعلُ هذا مُراغمةً لأهلِ السُّنةِ، لكن يتقرَّبون بها إلى اللهِ، فننظُرُ هل هذه العباداتُ شَرَعَها اللهُ أم لم يَشرَعْها، فإنْ شَرَعَها فهي عِبادةٌ، وإن لم يَشرَعْها فهي بِدعةٌ وضلالةٌ.

وهنا نقولُ: الأصلُ في العباداتِ المنعُ حتَّى يقومَ دليلٌ، فالعبادةُ ليست مثلَ المعاملاتِ، ولا مثلَ الصنائعِ، فالعبادةُ وسيلةٌ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فلا بُدَّ أن يأذَنَ اللهُ بها، وإلا فهي باطلةٌ مردودةٌ على صاحبِها، ولا يَزدادُ بها إلا بُعدًا من اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١). يعني مَردودًا على صاحبِه، فلا ينفعُه عندَ اللهِ، ولا يُقرِّبُه إلى اللهِ، بل «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجُمُعَة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

ومن أمثلةِ البِدع ما يحدُثُ في شهرِ رجبٍ، رجبِ مُضَرَ إحدى القبائلِ الكُبرى في قُريشٍ، وهناك رَبيعةُ لها رَجَبٌ تحرِّمُ فيه القتالَ، لكنه رمضانُ، فهما قبيلتانِ من العربِ؛ إحداهما لها رَجَبٌ الحقيقيُّ، وأخرى لها رجبٌ رَمَضانُ، ورجبٌ من الأشهرِ الحُرُمِ الَّتي هي أربعةُ أشهرٍ في السنةِ، وهي ذو القَعدةِ -بالفتحِ أحسنُ- وذو الحجَّةِ، ومُحَرَّمٌ، ورجَبٌ.

فهذه أربعةٌ في الجاهليةِ يحرِّمونَ فيها القتالَ، ولا أحدَ يقاتلُ أحدًا، حتَّى لو رأى الرجلُ قاتِلَ أبيهِ فلا يَقْتُلُه، فهذه الأشهرُ محترَمةٌ عندَه؛ لأنَّ الأشهرَ الثلاثةَ المتواليَةَ أشهرُ حجٍّ، يعني: سفرُ النَّاسِ للحجِّ في ذي القَعدةِ، ومحرَّمٌ شهرُ رُجوعِهم، حتَّى يأمنَ النَّاسُ الَّذِينَ يذهبون إلى الحجِّ ذهابًا وإيابًا، وإن كان المحرمُ ليس من أشهرِ الحجِّ؛ لأنَّ أشهرَ الحجِّ تنتهي بانتهاءِ ذي الحجةِ، ورجبٌ يَعتمرون فيه؛ لأنَّه نِصفُ العامِ: محرم، صفر، ربيع الأوَّل، ربيع الثَّاني، جُمادَى الأُولى، جمادى الآخِرة، هذه خمسة، والسادسُ هو رَجَب، فرجبٌ تُعظِّمُه مُضَرُ، ولهذا قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمادَى وَشَعْبَانَ»[1].

وهذا الشهرُ لا شَكَّ أنَّه شهرٌ محرَّمٌ، ولكن هل يَتَميَزُ بشيءٍ؟

نقولُ: لا يتميزُ عن الأشهرِ الثلاثةِ صاحباتِه بشيءٍ؛ لا بصيامٍ، ولا بصلاةٍ، ولا بأيِّ شيءٍ من الأعمالِ، اللَّهُمَّ إلا العمرة؛ فقد وَرَدَ عن الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنَّهم يَعتمرون فيه، أمَّا غيرُ هذا فَلَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم (٣١٩٧)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (١٦٧٩).

مِنَ البِدَعِ في شهرِ رَجَب:

أولًا: صلاةٌ تُسَمَّى صلاةَ الرَّغائبِ، وتكونُ في أولِ ليلةِ جُمُعَةٍ، بين المغربِ والعشاءِ، وهي اثنتا عَشْرَةَ ركعةً، فهذه بدعةٌ، ولا يحِلُّ للإنسانِ أن يَتعَبَّدَ للهِ بها؛ لأن هذه الصَّلاةَ تحتاجُ إلى دليلٍ، وليس هناك دليلٌ، حتَّى إن النَّوَوِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو شافعيُّ المذهَبِ أَنْكَرَهَا بشدةٍ، قال: إنَّها بِدعةٌ قَبيحةٌ منكَرةٌ[1]. فَوَصَفَها بالقُبحِ؛ لأنها شُرِعَتْ بغيرِ إِذْنِ اللهِ، وأولُ ما أُحْدِثَتْ في القرنِ الرَّابعِ الهجريِّ، فمضتِ القرونُ الثلاثةُ المفضَّلةُ وما يَعرِفُون هذه الصَّلاةَ، حتَّى ابتُدعت في القرنِ الرَّابعِ الهجريِّ، فهل يمكنُ أن تُشرَعَ عبادةٌ بعد موتِ الرَّسُولِ! نقولُ: لا؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣].

فمَنِ ابتدعَ عبادةً لم تكنْ في عهدِ الرَّسُولِ ﷺ فإنه على خطرٍ عظيمٍ؛ لأنَّه يَستلزِمُ من هذه البدعةِ أن الدِّينَ ناقِصٌ لم يُكمَلْ؛ لأنا نقولُ: هذه البدعةُ إما أنَّها دِينٌ أو غيرُ دِينٍ، فإن قال: إنَّها غيرُ دينٍ قلنا: فلماذا تَتَعَبَّدُ للهِ بها؟ وإن قال: دِينٌ. فنقولُ: هذا يعني أنك لم تؤمنْ بأنَّ اللهَ أكملَ الدِّينَ، وإلا فلا دَاعِيَ لها.

ثانيًا: كذلك أيضًا في شهرِ رَجَبٍ أحدثَ بعضُ النَّاس صَدَقَاتٍ في أولِ ليلةٍ منه، وحَلوَى تُقدَّمُ، واحتفالًا يُشبهُ الاحتفالَ بالعيدِ، فمِنْ أين جَاءَ هذا؟! هل كان الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأصحابُه يَفْعَلُون هذا؟ الجوابُ: لا، إذن هو بِدعةٌ، فدَعِ الشهرَ يمرُّ كغيرِه من الشهورِ.

ثالثًا: وأحدثَ بعضُ النَّاسِ صيامَ رجبٍ، وصيامُهُ على الخصوصِ لم يَرِدْ

---

(١) المجموع شرح المهذب (٤/ ٥٦).

في حديثٍ عن الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولهذا كرِه الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ إفرادَ رجبٍ بالصَّومِ[١].

والشَّهرُ الَّذِي يُكثِرُ فيه الرَّسُولُ ﷺ منَ الصَّومِ غير رمضانَ هو شَعبانُ، فقد كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يُكثِرُ الصيامَ في شعبانَ، حتَّى إنَّه يصومُه إلا قليلًا[٢].

إذن، ذَكرنا في رجبٍ صلاةَ الرغائبِ، والصدقاتِ، وإفرادَه بالصَّومِ.

رابعًا: يقولون: إن المِعراجَ الَّذِي صار للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان ليلةَ سبعٍ وعشرينَ من رجبٍ، فنقولُ: أين الدَّلِيلُ؟ فلا يوجدُ دليلٌ، فهذه كتبُ التاريخِ بين أيدينا؛ ابن كثير في (البداية والنهاية) وغيرُه لم يذكروا أنَّها في سبعٍ وعشرينَ من رجبٍ، وإن كانت اشتهرتْ بعد ذلك بهذا لكِن الكلام على الأولِ، وأقربُ ما يكونُ أن يكونَ المعراجُ في ربيعِ الأولِ، الشهرِ الَّذِي بُعِثَ فيه الرَّسُولُ ﷺ، فهذا أقربُ ما يكونُ.

فإحداثُ احتفالِ ليلةِ سبعٍ وعشرينَ من رجبٍ بِناءً على أنَّها ليلةُ المِعراجِ هذا خطأٌ تاريخيٌّ وخطأٌ شرعيٌّ، تاريخيٌّ لأن ذلك لم يَثبُتْ، وتعبديٌّ لأنَّه حتَّى لو ثَبتَ أن المعراجَ في تلك الليلةِ فإحداثُ عبادةٍ فيه أو احتفالٍ أو عيدٍ هو بِدعةٌ، نقولُ: هل كان الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يفعلُ ذلك؟

أنا أقولُ لكم: لا، ما كان يَحتفِلُ ليلةَ سبعٍ وعشرينَ من رَجَبٍ.

---

(١) انظر: المغني لابن قدامة (٣/ ١٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب صوم شعبان، رقم (١٩٦٩)، ومسلم: كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان، رقم (١١٥٦).

وهل كان جاهلًا بأن ذلك مَشروعٌ؟

نقولُ: لا يمكِنُ أن يكونَ قائدُ الأُمةِ، ومَن علَّمه اللهُ ما لم يكنْ يَعلَمُ، أن يكونَ جَاهِلًا بشيءٍ من شريعةِ اللهِ.

إذن، لا يمكنُ أن يكونَ جاهلًا، فإن قلتَ: هو عالمٌ، قلنا: ولماذا لم يفعلْها؟ أيكونُ مُتهاونًا -وحَاشَاهُ ذلك- بأمرِ اللهِ؟ فهذا لا يمكِنُ.

لذلك أنا أنصحُ إخواني المسلمينَ من هذا المكانِ؛ من المسجدِ الحرامِ، أن يَدَعوا هذه الأشياءَ الَّتي ما أنزلَ اللهُ بها من سلطانٍ.

والمعراجُ لا شَكَّ أنَّه بالنسبةِ للرسولِ ﷺ هو خيرُ ليلةٍ كانت له فيما نَعلمُ؛ لأنَّه عُرِجَ به إلى السَّموَاتِ السبعِ، وكلَّم اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وفرضَ اللهُ عليه الصلواتِ الخمسَ، وأُسري به أيضًا في نفسِ الليلةِ من المسجدِ الحرامِ؛ من الحجرِ؛ منَ الحَطِيمِ، أُسري به إلى بيتِ المَقدِسِ، فاجْتَمَعَ بالأنبياءِ، كلُّ الأنبياءِ اجْتَمَعَ بهم، وصَلَّى بهم إمامًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو آخِرُهم بَعثًا، وفيهم مَن هو أكبرُ مِنه سِنًّا مثلُ نُوحٍ؛ وقد لبِث في قومِهِ ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عامًا، ومع ذلك تَقَدَّمَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وصَلَّى بهم إِمَامًا، وعُرِجَ به إلى السَّموَاتِ السبعِ، كُلَّما مرَّ بسماءٍ خَاطَبه مَن أَرَادَ اللهُ أن يُخاطِبَه، وبعدما يَرُدُّ السلامَ يقولُ: «مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ»، إلا آدمَ فقال: «مَرْحَبًا بِالابنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ»، وكذلك إبراهيمُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ[1].

وعَادَ من السَّموَاتِ السبعِ إلى الأرضِ، وجَاءَ إلى مَكَّةَ في ليلةٍ واحدةٍ، لا إِلَهَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء، رقم (١٦٣).

إِلَّا اللهُ! مَن يَصِلُ إلى هذا المدى إلا بقُدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

إذن، ذَكَرنا في رجبٍ صلاةَ الرغائبِ، والصدقاتِ، وإفرادَه بالصيامِ، وليلةَ المعراجِ.

أقولُ لكم هذا وأنا أعلمُ أني مَسؤولٌ أمامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أقولُ: هذه كُلُّها لا أصلَ لها، ومَن أرادَ النجاةَ والسلامةَ فلْيقتصِرْ على ما كان الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَفْعَلُونَه، وكَفَى بنا عَمَلًا، وكَفَى بهم أُسوةً، وأَرِحْ نفسَك يا أخي.

والعجبُ أن كثيرًا ممَّن هم نَشيطون في هذه البِدَعِ أَنَّك تَراهُم لا يَتَسابَقُونَ إلى فعلِ الخيراتِ الواضحةِ، وليس كُلُّهم، فبعضُهم يريدُ الخيرَ لكن لم يعلمْ به، يعني لا تظنَّ أن كلَّ مُبتدِعٍ يريدُ الشرَّ، فبعضُهم يريدُ الخيرَ، وعلامةُ منَ يريدُ الخيرَ أنَّه إذا ذُكِّرَ ونُبِّهَ رجَع إلى الحقِّ، وقال: أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه.

وأنا أسألُ اللهَ تَعالَى في هذا المكانِ أن يَهْدِيَ إخوانَنَا المسلمينَ لاتِّبَاعِ السنةِ والابتعادِ عن البدعةِ، إنَّه على كلِّ شَيْءٍ قديرٌ.

استطردنا في ذلك من أجلِ قولِ الإمامِ مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَا أُرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا».

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٢] فلا يَخفَى عليهم، فكلُّ فِعلٍ تَفْعَلُه فهم يَعْلَمُونَه، وبعدَ ذلك يَكْتُبُونَهُ.

ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤].

هذان صنفانِ من النَّاسِ لا ثالثَ لهما، فكلُّ بَنِي آدمَ إمَّا بَرٌّ وإما فاجِرٌ. ودليلُ هذا قولُ اللهِ تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢].

وقال تَعَالَى في يوم القِيَامَةِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٣-١٠٨] فذَكَرَ أن النَّاسَ في ذلك اليومِ منهم شَقِيٌّ وسَعِيدٌ، فلا ثَالِثَ لهما أبدًا.

وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ يعني الكفارَ، فالأبرارُ في نعيمٍ -اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الأبرارِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الأبرارِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الأبرارِ يا ربَّ العالمينَ- وهذا النعيمُ في الدنيا والآخِرةِ، فلا أحدَ أَنْعَمُ بالًا من أهلِ البرِّ، ولا أطيبُ قَلْبًا من أهلِ البرِّ، حتَّى قال بعضُ السلفِ: «**لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالسُّرُورِ لَجَالَدُونَا بِالسُّيُوفِ**»(١).

وقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(٢). فلا أَحَدَ أَنْعَمُ مِنَ المؤمنِ.

ويَدُلُّ لهذا أيضًا قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ هذا في الحياةِ الدنيا، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الإيمانَ يا رَبَّ

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (ص:٨١، رقم ٨٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

العالمينَ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]. فتأَمَّلُوا كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾. ما قال: فَلَنُوَفِّرَنَّ له المالَ، ولا قال: فلَنُتْرِفَنَّه في الدنيا، بل قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾. حتَّى ولو كان لا يَجِدُ دِرهمًا فحياتُه طيِّبةٌ. وفي الآخرةِ يقولُ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. وهذا أحسنُ ما يَكُونُ من الجزاءِ.

إذن، الأبرارُ في نعيمٍ في الدنيا والآخِرةِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنا مِنَ الأبرارِ.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ وهم الكفارُ ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾ في الدنيا وفي الآخرةِ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إنَّنا لا نَرى الكفارَ الآنَ تَتَسعَّرُ بهم النَّارُ حتَّى يكونوا في جَحيمٍ؟

قلنا: في قلوبِهم، يعني لو فَتَّشْتَ في قلبِ الكافرِ لوجدتَه في جحيمٍ، ولو كان في أكثرِ ما يكونُ منَ الترفِ البدنيِّ، فالنعيمُ نعيمُ القلبِ، أما نعيمُ البدنِ فهو تَرَفٌ مآلهُ التَّلَفُ، فهم في جَحيمٍ في الدنيا بما يَحْدُثُ في قلوبِهم من الظُّلمةِ والوَحْشَةِ من اللهِ، والوَحْشَةِ من الخلقِ، وسوءِ الظنِّ باللهِ، وغيرِ ذلك.

وفي الآخرةِ في جَحيمٍ، وهذا ما فيه إشكالٌ، وهذا كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]؟ لا أحدَ. فاللهُ عَزَّوَجَلَّ أَخْبَرَ عن هذا، فاخترْ أحدَ الأمرينِ، فماذا تختارُ: أن تكونَ مع الأبرارِ أم مع الفُجَّارِ؟ نقولُ: مع الأبرارِ، لا شكَّ، فكلُّ إنسانٍ يَتمَنَّى هذا ويسألُ اللهَ.

لكنْ لا تعتمِدْ على نفسِكَ، واسألِ اللهَ الثباتَ، إنَّ نَبِيَّنا مُحَمَّدًا ﷺ لما أُخْبِرَ أنَّه

ما من قلبٍ من قلوبِ بني آدمَ إلا وهو بينِ أُصْبُعَيْنِ من أصابعِ الرحمنِ يُقَلِّبُه كيف يَشَاءُ، قال هو ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»[1].

فما مِنْ إنسانٍ إلا وهو محتاجٌ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يُثَبِّتَهُ، فإنْ لم يُثَبِّتْكَ اللهُ هَلَكْتَ، إن الشيطانَ يضرِبُكَ بالسهامِ في كلِّ وقتٍ، إن رَأَى منك إقبالًا على الطاعةِ أَصَابَكَ بالوَسْوَاسِ، وإنْ رَأَى مِنْكَ إدبارًا أَصَابَكَ بالتأثيرِ، فاصحُ وانتبهْ.

وكثيرٌ من النَّاسِ التَزَمُوا وأَقْبَلُوا على اللهِ، فجاءهم الشيطانُ يُوَسْوِسُ لهم وَسَاوِسَ لا يمكِنُ أن تُذكَرَ، وساوسُ يُحِبُّ الواحدُ مِنهم أن يقعَ مِنَ السَّماءِ ويموتُ، أو يُحرَّقَ، ولا يتكلمُ بها عندهُ، وهذا أمرٌ وَقَعَ للصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فالصَّحَابَةُ قالوا: «إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ» يعني من الوَسَاوِسِ والشكوكِ وما يُلقِيه الشيطانُ، فقال: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»[2]. أي خالصُ الإيمانِ.

ومع هـذا أيضًا أَمَرَنَا ﷺ في مثلِ هذه الحـالِ بأمرينِ هما الدواءُ، قال: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»[3]. فإذا أصابتك هذه الشكوكُ فقُلْ: أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ، وأَعرِضْ عنها وانتهِ عنها، وانسَها، ولا تُحدِّثْ نَفْسَكَ بها، ثمَّ بَعْدَ ذلك ستَزُولُ عَنْكَ.

وما أكثرَ الَّذِينَ يَشْكُونَ من هذه الوَسَاوِسِ حين التزموا، فنقولُ: اثبُتْ، واستعِذْ باللهِ منها، وتَنَاسَهَا حتَّى تزولَ عنك بإذنِ اللهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤)

وليس لهذه الوَسَاوِسِ دواءٌ إلا هذا الَّذِي قال الرَّسُولُ ﷺ.

قيل لابنِ مَسْعُودٍ أوِ ابنِ عباسٍ: إن اليهودَ يقولون: نحن لا نُوَسْوِسُ في صَلَاتِنَا... ومعنى لا نُوَسْوِسُ: لا نفكِّرُ، فإذا دَخَلُوا لصلاةٍ حَضَرَتْ قُلُوبُهم، والمسلمونَ يُوَسْوِسُونَ في الصَّلاةِ، وسُبْحَانَ اللهِ! يُوَسْوِسُ في أشياءَ ما فيها فائدةٌ، وإذا انتهتِ الصَّلاةُ راحتِ الوَسَاوِسُ، ثمَّ إذا وَسْوَسَ بشيءٍ وحَاوَلَ أنْ يُثَبِّتَ نفسَه انْفَتَحَ عليه شيءٌ آخرُ، فصارت صلاتُه هكذا وَسَاوِسَ، فيُصَلِّي جسدًا، ولا يُصَلِّي قَلْبًا.

اليهودُ يريدونَ أن يُرَاغِمُوا المسلمين فقالوا: نحن نُصَلِّي ولا نُوَسْوِسُ. فقيل لابنِ مَسْعُودٍ أو ابنِ عباسٍ: إنَّهم يقولون هكذا، فأجاب بجوابٍ عجيبٍ، قال: «صَدَقُوا، وَمَا يَصْنَعُ الشَّيْطَانُ بِقَلْبٍ خَرَابٍ»[1]؟! اللهُ أكبرُ! يعني قلوبُهم خَرِبَةٌ فما يجيءُ الشيطانُ لِيُوَسْوِسَ لها؛ لأنها خرابٌ، فهل أحدٌ مِنَ النَّاسِ يَأْتِي إلى خرابٍ لِيَسْكُنَه! لكنه يَسْكُنُ العمارَ.

إذن، الشيطانُ فَرَغَ منهم، فقلوبُهم خَرِبَةٌ، فلا يأتي يُوَسْوِسُ إِلَيْهِمْ.

قوله: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ [الانفطار:١٥-١٦].

فعلينا -أيُّها الإخوةُ- أن نَعْرِفَ أن النَّاسَ ينقسمونَ إلى قسمينِ: بَرٌّ وفاجرٍ، فالأبرارُ دائمًا في نعيمٍ، والفجَّارُ دائمًا في جَحِيمٍ، ثمَّ النهايةُ، وهو الجحيمُ الأكبرُ يومَ القِيَامَةِ، ولهذا قال: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي يومَ الجزاءِ ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ كما قال في آيةٍ أخرى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨]، فيَبْقَوْنَ فيها أبدَ الآبِدِينَ،

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٦٠٨) عن بعض السلف.

إلى ما لا نهايةَ له؛ لأنَّ الدَّلِيلَ في تأبيدِ النَّارِ قَطْعِيٌّ، والأقوالُ الشاذَّةُ لا عِبرةَ بها.

وفي القُرآنِ الكريمِ ثلاثُ آياتٍ صَريحةٌ في أنَّ أهلَ النَّارِ خَالِدُونَ فيها أبدًا:

الآيةُ الأُولى: في سُورَةِ النساءِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩].

الآيةُ الثَّانيةُ: في الأحزابِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

الآيةُ الثَّالثةُ: في الجِنِّ: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وبعدَ ثلاثِ آياتٍ من كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُخبَرُ بها بتأبيدِ خلودِ أهلِ النَّارِ فيها؛ لا يُمكِنُ أن نقولَ: إنَّهم لا يُخلَّدون أبدًا، ونحن لا نَحكُمُ على أمورِ الغيبِ إلا بما أخبرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا كان من عقيدةِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّ أَهْلَ الجنَّةِ خَالِدُونَ فيها أبدًا، وأنَّ أَهْلَ النَّارِ خَالِدُونَ فيها أبدًا. أَجَارَنَا اللهُ وإيَّاكم منها.



الدرسُ الثالثُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار:١] يعني انْشَقَّتْ، وذلك يومَ القيامةِ.

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ [الانفطار:٢] يعني تفرَّقَت بعدَ أن كَانَتْ مُجْتَمِعَةً.

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ [الانفطار:٣] بعدَ أن كَانَتْ ممسُوكةً، فالآنَ البِحارُ ممسوكةٌ، فلا تَرَى جِدَارًا يُمْسِكُهَا، هي على سَطْحِ الأرضِ، ومع ذلك أَمْسَكَها بقُدرتِه ربُّ العالمين، فِي يَوْمِ القِيامَةِ تَتَفَجَّرُ.

﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ [الانفطار:٤] يعني نُشِرَ أَهْلُها وخَرَجُوا منها، وذلك يومَ القيامةِ فإنَّ القُبورَ تُبعْثَرُ.

إذا حَصَلَ هذا ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [الانفطار:٥] يعني عَلِمت كلُّ نفسٍ ما قَدَّمَتْ وأَخَّرَتْ مِن خيرٍ وشَرٍّ، يبدو ذلك في صحائفِ أعمالِه، ويلقَى كتابًا منشورًا فيُقالُ له: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء:١٤].

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ

فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار:٦-٧] ثلاثةُ أشياءَ.

﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٨] أي: في أيِّ صورةٍ شاءَهَا رَكَّبك عَزَّوَجَلَّ، لَيْسَ مِن كَدِّ أُمِّكَ، ولا مِن كَدِّ أَبِيكَ، أيُّ شيءٍ غَرَّكَ أَيُّهَا الإنسانُ بِرَبِّكَ؟ يَغُرُّ الإنسانَ بِرَبِّه شيئان: الدنيا والشيطانُ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر:٥]، هذا الذي يَغُرُّ الإنسانَ بِرَبِّهِ حتى يَنْسَى فَضْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، بل ويَنْسَى كيف خُلِقَ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:٦].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أي: أَوْجَدَكَ مِنَ العَدَمِ، ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي: جَعَلَكَ سَوِيًّا لا نَقْصَ فيك، ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي: جَعَلَكَ مُسْتَقِيمًا تَقِفُ على قَدَمَيْكَ، والبهائمُ على أَرْبَعٍ، وعلى أكثَرَ مِن أربعٍ، وفيهم مَن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ، وقيل: معنى عَدَلَك أي جَعَلَكَ مُسْتَقِيمًا في الصورةِ على أحسنِ شيءٍ، ولهذا قال: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٨].

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:٩] أي: بالجزاءِ، وَهُوَ يومُ القيامةِ.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢] هَؤُلَاءِ الحَفَظةُ جَعَلَهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ حَفَظةً على الإنسانِ، يَكْتُبُونَ ما عَمِلَ مِن خيرٍ وشرٍّ، واقْرَأْ قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٧] واحدٌ على اليَمِينِ، وواحدٌ على الشِّمالِ، الذي على اليَمِينِ يَكْتُبُ الحسناتِ، والذي على الشِّمَالِ يَكْتُبُ السيئاتِ، فكلُّ إنسانٍ معه مَلَكَانِ، واللهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ [ق:١٨] يعني: أيَّ لَفْظٍ يَلْفِظُ به ﴿إِلَّا لَدَيْهِ

رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] ﴿رَقِيبٌ﴾ يعني: مُرَاقِبٌ لا يَتْرُكُ شَيْئًا، ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضِرٌ لا يغيبُ يكتُبُ كلَّ قولٍ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! أيَّ قَوْلٍ يَكْتُبُ؟! اسْمَعْ يا أخي، إِنْ حَمِدْتَ اللهَ كَتَبَ، وإن قَرَأْتَ القرآنَ كَتَبَ، وإن أمرتَ بالمعروفِ كَتَبَ، وإن نَهَيْتَ عن مُنكرٍ كَتَبَ، كُلُّ قولٍ يُكْتَبُ.

والإنسانُ على خَطَرٍ، إذا كان كلُّ قولٍ يُكتبُ فالمسألةُ خطيرةٌ جدًّا، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ، وَهُوَ أنصحُ الخَلقِ للخَلقِ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[1]، لِئَلَّا يُكْتَبَ عليه.

وإذا تَكَلَّمَ الإنسانُ بقولٍ مُحرَّمٍ كالشَّتمِ واللَّعنِ والغِيبةِ والنَّمِيمةِ يُكْتَبُ، والدَّليلُ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ [ق:١٨] أيَّ قولٍ يكونُ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] يَكْتُبُهُ.

فإذا لَقِيتَ أخاك وقلتَ: السلام عليك. يُكتب لك عشرُ حسناتٍ، وما أكثرَ ما فرَّطنا في الحسنات، ما أكثرَ ما لَقِينا إخوتنا ولم نُسَلِّم، بل إني أقول لكم: إذا سلَّم الإنسانُ على شخصٍ استنكر، فالسلامُ الآن أصبح مجهولًا بين الأُمة الإسلامية مع الأسفِ الشديدِ.

ولو كان رَجُلٌ فيه مرضٌ فهو يَئِنُّ مِن مرضه فيُكتب هذا الأنينُ، فذُكر عن بعض السلف أنه يُكتبُ، «دخل رجلٌ على الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ وهو في مرضه فوجده يئِنُّ، فقال له: إن طاوسًا يقول: إن أنين المريض يُكْتَبُ عليه؛ لقوله تعالى:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧).

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]. فأمسك الإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الأنينِ[١].

وطاوس مِنَ التابعين مشهورٌ، فأمسك عن الأنينِ خوفًا مِن أَنْ يُكتبَ عليه.

إذا دار الأمر بين أن تقولَ أو لا تقولَ، فالأفضلُ أَلَّا تقولَ، لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ».

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:٩- ١١] انْظُرْ كيف وصفهم اللهُ بالكَرمِ، يعني لَيْسَ عندهم ظُلْمٌ، ولا يُحَمِّلُونَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَقُلْهُ، ولا يَنْقُصُون عَمَّا يقوله، بل هُم كِرامٌ كاتِبُون.

ولو سأل سائلٌ: هل معنى ذلك أنهم معهم قَلَمٌ وقِرطاسٌ؟

نقول: اللهُ أعلمُ، علينا أن نُصَدِّقَ، وَلَيْسَ علينا -بل وَلَيْسَ لنا- أن نسألَ عن كيفيةِ ذلك، فانتبهوا لهذا الأمرِ، أمورُ الغيبِ صَدِّقْ بها إن كنتَ تُريدُ السلامةَ، ولا تبحثْ عنها، هذه نصيحتي لكم.

لما خَلَقَ اللهُ القَلَمَ قال له: «اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[٢]، وذلك في اللوحِ المحفوظِ، فإذا جاء مَن يسألُ: مِن أينَ القَلمُ هذا؟ أَمِن حديدٍ أَمْ مِن رصاصٍ أَمْ مِن صُفْرٍ؟ نقولُ: يا أخي اللهُ أعلمُ، لا تسألْ، صَدِّقْ بِقَلَمٍ كَتَبَ ولا تسألْ.

---

(١) ذكره أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٢/ ١١٩).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ن، رقم (٣٣١٩).

أو جاء آخرُ يسألُ يقولُ: مِن أي شيءٍ هذا اللوحُ؟ أَمِنْ خَشَبٍ، أو مِن حِجارةٍ، أو مِن حديدٍ؟ نقولُ: اللهُ أعلمُ، واسكتْ عما تذكرُ.

ثم يأتي مَن يسألُ فيقولُ: كيف يسعُ هذا اللوحُ كُلَّ ما يكونُ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ؟ كيف يكونُ كُبْرُه؟ نقولُ: اللهُ أعلمُ، ولا تسألْ هذا السؤالَ، آمِنْ ولا تسألْ.

والحمدُ للهِ الذى أرانا ونحن أحياءٌ أَنَّ الشيءَ الصغيرَ يستوعبُ شيئًا كثيرًا وَهُوَ صغيرٌ، في لوحٍ مِن مَعدنٍ على قَدْرِ القُرصِ الصغيرِ يُسَجَّلُ فيه ملايينُ الكلماتِ، التفسيرُ بجميعِ مؤلَّفاتِه، والحديثُ بجميعِ مؤلفاتِه، وَهُوَ قُرصٌ صغيرٌ مِن صُنعِ البَشرِ، فكيف بصُنعِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الذى أتقنَ كلَّ شيءٍ.

في قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾، أي أهلُ الجنةِ، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ [الصافات:٥٠-٥١] يَعْنِي صَديقٌ في الدنيا، ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات:٥٢-٥٣]، يعني يقول له: لا تُصَدِّقْ أنك ستُبعث بعد أَنْ تَكُونَ تُرابًا وعِظامًا، كيف تُصَدِّقُ؟! هذا قرينُه في الدنيا، قال الرَّجُلُ مِن أهلِ الجنةِ: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات:٥٤] قالوا: نعم، فمَشَوْا، ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٥٥]، أي في قرارِ النارِ في أسفلِ السافلين وَهُوَ في أعلى عِلِّيِّين، قال له: ﴿تَٱللَّهِ﴾، يعني والله ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات:٥٦-٥٧].

بعضُ الناسِ قال: كيف يرى هذا في أعلى عِلِّيِّين، وهذا في أسفلِ السافلين؟ كيف يتكلمُ معه؟! نقولُ: اللهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ، صَدِّقْ ولا تبحثْ، وأرانا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك مِن صُنعِ البَشرِ في الإنترنت، فترى صاحِبَك وتُحَدِّثُه، كأنك في

مجلسِه، سَمِعْنا به، ولـم نَرَهُ، وهذا مِن صُنعِ البَشرِ في أقصى مكانٍ يُشاهدُه ويتكلمُ معه كأنه جالسٌ معه، هـذا وَهُـوَ مِن صُنعِ البشرِ، فكيف بصنعِ اللهِ؟! ولذلك لا تسألوا عن هذه الأمور الغيبيةِ.

وفي يومِ القيامةِ تدنو الشمسُ مِنَ الخلائقِ قَدْرَ مِيل، ولا يحترقون، في الدنيا لو دَنَتِ الشمسُ عن مركزِها شَعْرَةً واحدةً لأحرقت الأرضَ، ويومَ القيامةِ هي على رؤوسِ الناسِ قَدْرَ مِيل، ولا تَحْرِقُهم، لا تَقُلْ: كيف؟ فالله عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ، أَلَيْسَ الناس يَقِفُونَ خمسين أَلْفَ سَنة حافيةً أرجُلهم عاريةً أجسامُهم لا يحتاجون طعامًا، وَلَا شَرَابًا، وَلَا نومًا، وإن كان عليهم مَشَقَّةٌ شديدةٌ إلا على المؤمنِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا منهم يا رب العالمين، فهو يسيرٌ.

ويأتي أحدُهم عند قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ويسألُ: مِن أي شيء يكون هذا العَرشُ؟ أَمِن ذهبٍ؟ أو مِن لؤلؤٍ؟ أو مِن نُحاسٍ؟ نقول: اسكُت لَيْسَ هذا مِنْ شأنك، آمِن بِعَرشٍ عظيمٍ، ولا تَقُل: كيف هو؟ ولا مِن أين هو؟

ثم يسألُ عن قَوْلِهِ تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ يقول: ما معنى استوى؟ وكيف استوى؟ نقول: اسكت، لَيْسَ هذا مِنْ شأنك، آمِن بأنه اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ، أي عَلَا عليه ولا تُجاوزْ هذا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: معناه اسْتَوْلَى على العرشِ. نقولُ: كَذَبْتَ، أتقولُ: اسْتَوْلَى على البَعيرِ؟ أتقولُ: اسْتَوْلَى على السماءِ؟ أتقولُ: اسْتَوْلَى على الأرضِ؟ لا، لا يستقيمُ هذا، اسْتَوَى: أي عَلَا على العَرشِ عُلُوًّا حقيقيًّا كما يَلِيقُ بجلالِه عَزَّوَجَلَّ، ولا تسألْ عن الكيفيةِ.

وأذكر قصة عجيبة تدلُّ على شدة تعظيم السلفِ لرب العالمين، وأنَّ بَيْنَنَا وبَيْنَهُم مَرَاحِلَ عظيمة، سأل الإمامَ مالكًا رَجُلٌ وَهُوَ في مسجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ قد يكون سَيِّئَ النِّيةِ، وقد يكونُ جاهلًا حقيقةً، المهم أن مالِكًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أطرَقَ برأسه حتى علاه الرُّحَضَاء -أي العَرَق- مِن شِدةِ هذا السؤالِ، هذا السؤالُ ما يسأله إلا إنسانٌ متجرئٌ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ثم رَفع رَأْسَه وقال كلمته المشهورة التي تَسْتَحِقُّ أن تُكتبَ بماءِ الذهبِ على صفحاتِ الفِضةِ، قال له: «يَا هَذَا، الِاسْتَوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ» يعني: معلومٌ وَهُوَ العُلُوُّ على الشيء «وَالكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ» يعني: ما نعقله ولا نستطيعُ «والإيمانُ به واجِبٌ»، الإيمان بالاستواء واجب لأن اللهَ ذكَرَهُ في القرآنِ في سَبْعَةِ مواضِعَ، «والسؤال عنه بِدْعَةٌ»، لأن السلفَ ما سألوا عنه، ولأن السؤالَ عنه مِن دَيْدَنِ أهلِ البِدَع، قال: «وما أُرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا، وما أُرَاكَ إلا مُبْتَدِعًا». ثم أَمَرَ به فأُخْرِجَ مِنَ المسجدِ النبويِّ[1].

أخرجه مِنَ المسجدِ النبويِّ تَعْزِيرًا له، وإذلالًا له، وإن كان للناسِ الحقُّ في الجلوسِ في مسجدِ النبيِّ ﷺ، لكن أخرجه لأن هذا مُضِلٌّ يُضِلُّ الناسَ، فاللَّهُمَّ ارْضَ عن مالِكٍ، اللَّهُمَّ ارزقنا اتباعَ آثارِ السابقين الأوَّلِين.

إذن، علينا أَنْ نُؤْمِنَ بالله، وأَنْ نُؤْمِنَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ في كتابه، أو أخبر عنه رسولُه، وعلينا أَنْ نَلْقَى اللهَ عَلَى هَـذِهِ العقيدةِ، أنشُدُكم اللهَ أيها المسلمون، أن تَبْقَوْا عَلَى هَذِهِ العقيدةِ، إِنَّ الرحمنَ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى أي عَلَا عُلُوًّا

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٥، رقم ٨٦٧).

يليق بجلالِه، وَلَيْسَ معناه اسْتَوْلَى، فإن هذا كذبٌ على اللغةِ العربيةِ، والقرآنُ نَزَلَ بلسانٍ عربيٍّ، وهذا أَيْضًا جِنايةٌ على النصِّ مِن وجهين:

الوجه الأول: أنه إنكار على المعنى الذى دَلَّ عليه.

الوجه الثاني: إثباتُ معنًى لم يَدُلَّ عليه، فصار جنايةً في الإثباتِ، وجنايةً في النفي.

أخي المسلم، لا تَمُتْ إلا عَلَى هَذِهِ العقيدةِ، إِنَّ اللهَ استوى على عَرْشِه، أي: عَلَا عَلَيْهِ عَزَّوَجَلَّ عُلُوًّا يليق بجلالِه، وَلَيْسَ معناه اسْتَوْلَى.

وهناك أدلةٌ في القرآنِ واللغةِ تَدُلُّ على ذلك، منها قَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨] (استويتَ) معناها عَلَوْتَ عليه، واستَقْرَرْتَ فيه.

واسْمَعْ قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٢-١٣] معنى ﴿ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَوْتُمْ عليه ولا إشكالَ، ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ تَرْكَبُ على ظَهرِ الناقـةِ، وعلى ظَهرِ السفينةِ، وعلى ظَهرِ السيارةِ، وعلى ظهرِ الطائرةِ، كل هذه دخلت في الفُلكِ، فالفُلكُ يشملُ ثلاثةَ أنواعٍ: فُلك جَوِّيٌّ، وفُلك بَحَرِيٌّ، وفُلك بَرِّيٌّ، فالفُلك الجَوِّيُّ الطائراتُ، والبَحَرِيُّ السُّفنُ، والبَرِّيُّ السياراتُ، أما الأنعامُ فظاهرٌ، وهي الإبلُ، وما يركبُ مِنَ البهائمِ.

فالواجبُ علينا أَنْ نَلْقَى اللهَ بعقيدةٍ هي أن اسْتِوَاءَهُ على عَرْشِه يعني عُلُوَّهُ

عليه، وَلَيْسَ اسْتِيلَاءَه عليه.

إذا قلت: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] إذا قلت: اسْتَوْلَى على العرشِ. فلمن يكونُ مِلكُ العَرشِ قبل هذا الاستيلاءِ؟! هل لآخَرَ صَارَ بينه وبينَ اللهِ معركةٌ واسْتَوْلَى عليه اللهُ وأَخَذَه منه، أهذا معقولٌ؟! و(ثُمَّ) هذه للترتيبِ لمهلةٍ، خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العرشِ، كيف تقول اسْتَوْلَى؟

ثم نسأَلُ: هل الأرضُ والسماءُ مِلكٌ للهِ؟ الجوابُ: كلُّ شيءٍ مِلكٌ للهِ، إذن، قُل: إنَّ اللهَ اسْتَوَى عَلَى كُلِّ شيءٍ. وهذا لا يقولُه أحدٌ، فهل تقولُ: استوى على ظَهرِ الناقةِ.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨] فهو عالٍ عَلَى كُلِّ شيء، كُلُّ المخلوقاتِ تحتَهُ عَزَّوَجَلَّ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «**وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ**»[1]. عالٍ عَلَى كُلِّ شيءٍ بنفسِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

أدلةُ عُلُوِّ اللهِ تعالَى:

أدلةُ العُلُوِّ خمسةُ أنواعٍ: كتابُ اللهِ، وسُنةُ رسولِ اللهِ ﷺ، وإجماعُ الصحابةِ، والعقلُ، والفطرةُ.

أولا: الكتاب: الأدلةُ في القرآنِ كثيرةٌ على وجوهٍ متنوعةٍ، منها قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] الأعلى اسمُ تفضيلٍ، يعني فوقَ كُلِّ شيء، وقال اللهُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣).

عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥] العَلِيُّ صِفةٌ مُشَبَّهةٌ تقتضي الثُّبوتَ والاستمرارَ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨].

وقال تَعالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] ويعني نفسه تَبَارَكَوَتَعَالَى، وقال تَعالَى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥] يعني يَصعدُ إلى اللهِ.

وَقَالَ تَعالَى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

وَقَالَ تَعَالَى ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤] أي تصعد.

فالأدلةُ كثيرةٌ، لا تكادُ تُحصى كثرةً فِي القُرْآنِ الكريمِ، والمتكلمُ بالقرآنِ هو اللهُ تَعالَى، وَهُوَ أعلمُ بنفسِه وبِغَيْرِه، وَلَا يُمكِنُ أَنْ يتكلمَ عن نفسِه بشيءٍ إلا وَهُوَ حَقٌّ؛ لأنه أعلمُ بنفسِه مِن غَيرِه.

ثانيا: السُّنة: السُّنة دَلالتُها على عُلُوِّ اللهِ تَعَالَى مِن وجوهٍ: **الأول**: قولية، **والثاني**: فِعلية، **والثالث**: إقرارية:

أما القولية فلقد قال النَّبِيُّ ﷺ لأصحابه ليَرُدُّوا على أبي سُفيانَ في غزوة أُحُدٍ، لما قال: اعْلُ هُبَلُ، قال: «**قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**»(١). وكان يقول في سجوده: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**»(٢). ويقول ﷺ في رُقية المريضِ: «**رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ**»(٣). والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ.

(١) أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب السير، باب التعبئة، رقم (٨٥٨١).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).
(٣) أخرجه أبو داود: كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، رقم (٢١٨٦).

أما الفعلية: فقد جاءت في مناسبة الحَجِّ، في حَجةِ الوداع، حين خَطَبَ النبيُّ ﷺ المسلمين يومَ عَرفةَ خُطبةً عظيمةً بليغةً، ثم قال: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قالوا: نعم. قال: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»، قالوا: نعم. قال: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»، قالوا: نعم. ثلاثَ مراتٍ، فقال بأصبعه الكريمةِ يرفعها إلى السماءِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[1]، يَنْكُتُها إلى الناسِ، يعني يردُّها إليهم، «اللَّهُمَّ» يرفعُ أصبعَه فوقَ، «اشْهَدْ» يشيرُ بها تحتَ على هؤلاء أنهم أَقَرُّوا بالبلاغِ.

ونحن نُشهدُ اللهَ وملائكتَه وأنبياءَه، وجميعَ خَلْقِه أن نبيَّنا محمدًا ﷺ بلَّغ الرسالةَ أتمَّ بلاغٍ، ونسألُ اللهَ أَنْ يُصلِّيَ عليه وملائكتُه وَأَنْ يَجْزِيَهُ عنا خيرًا.

الإقرارية: مُعاوية بن الحَكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان له جاريةٌ مملوكةٌ غَضِبَ عليها يَوْمًا مِنَ الأيامِ فَصَكَّها، لأنَّ الإنسانَ إذا غَضِبَ ما يَمْلِكُ نَفْسَه، فنَدِمَ على ما فَعَلَ وأَرَادَ أَنْ يَعْتِقَها، فقال النَّبيُّ ﷺ: «ائْتِنِي بِهَا». فجاءت الجاريةُ فقال لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَيْنَ اللهُ؟»، و(أين) يُستفهمُ بها عن المكانِ، قالت: في السماءِ. جاريةٌ ما تَعَلَّمَتْ، ولا دَرَسَتْ، لكنها الفِطرةُ، قال لها: «مَنْ أَنَا؟» قالت: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[2]. وهذه دَلَالَةٌ إقراريةٌ، أقرَّها، لم يَقُلْ: كفرتِ بهذا، ولم يقل: كذبت، بل قال: «فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». لما قالت: إِنَّ اللهَ في السماءِ.

ثالثا: إجماعُ الصحابةِ: أجمعَ الصحابةُ -وهم خيرُ الأمةِ وسلفُ الأمةِ وقدوةُ الأُمةِ- عَلَى أَنَّ اللهَ في السماءِ، أجمعوا على ذلك مِن أَوَّلِهم إلى آخِرِهم، وعَلِمنا إجماعَهم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٥)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (١٦٧٩) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلَاة، باب تحريم الكلام في الصَّلَاة، رقم (٥٣٧).

بأنهم لم يأتِ عن واحدٍ منهم حرفٌ واحدٌ يقولُ: إنَّ اللهَ لَيْسَ في السماءِ. وهم يَتْلُون كتابَ اللهِ وأنه اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ، فما قال أحدٌ منهم يومًا مِنَ الأيامِ: إنَّ اللهَ لم يَسْتَوِ على العرشِ، وَلَيْسَ في السماءِ. أبدًا، وهذا يعني أنهم أَجْمَعُوا على هذا.

وهذه قاعدةٌ أَزُفُّها لطالبِ العِلم، أنَّك إذا لم تجدْ في كلامِ الصحابةِ ما ظاهِرُه يُخالفُ ظاهِرَ القرآنِ، فهذا إجماعٌ منهم؛ لأن الصحابةَ يعرفون معنى القرآنِ، نَزَلَ بلُغتِهم، وفي عصرِهم، وفي الأحوالِ التي يُشَاهِدُونَ فيها النزولَ، فهم أعلمُ الناسِ بكتابِ اللهِ لا شَكَّ، فإذا لم يَرِدْ عنهم أَنَّ اللهَ لَيْسَ في السماءِ، أو أنه لَيْسَ داخِلَ العالَمِ، ولا خارِجَه، ولا متصلا، ولا منفصلا، ولا مُباينًا، ولا محايدًا، إلى آخرِه، عَلِمْنا أنهم لا يقولون إلا بما دَلَّ عَلَيْهِ القُرْآنُ وكلامُ النبيِّ ﷺ.

فهذا تقريرُ إجماعِ الصحابةِ فهو دليلٌ في هذه الصِّفةِ وفي غيرِها مِنَ الصفاتِ.

رابعًا: العقل: دَلَالَةُ العقلِ على عُلوِّ اللهِ، أسألُكم أيها الناسُ، أيهما أفضلُ وأكملُ العُلوِّ أو النزولُ؟ العلوُّ طبعا، ولهذا فإن الناسَ يمدحون الشيءَ بأنه عالٍ، يقولون: واللهِ هذا كلامٌ عالٍ ممتازٌ، هذا طعامٌ عالٍ ممتازٌ. فالعُلُوُّ بلا شَكٍّ أنه صِفةُ كمالٍ، فهل ترضى أن تُنكرَ صِفةَ الكمالِ عن اللهِ؟ بالطبعِ لا تَرْضَى، فالعقلُ يَدُلُّ على عُلو اللهِ؛ لأن العُلوَّ صِفةُ كمالٍ، والسُّفْلُ صِفةُ نَقْصٍ.

خامسا: الفِطرةُ: الفِطرة هذه ما فُطِرَ عليه الخَلقُ، أنت لو لم تقرأْ قولَ مَن يقولُ: إنَّ اللهَ لَيَسَ في السماءِ. مثلا لَمْ يَكُنْ فِي قلبك إِلَّا أَنَّ اللهَ في السماءِ، ولهذا نَجِدُ كثيرًا مِنَ المتكلمين الذين يُنكرون أَنَّ اللهَ في السماءِ يقولون: الآن أموتُ على عقيدةِ أُمِّي وعجائزِ نَيْسَابُورَ، الفِطرة، يقال: إن أبا المَعالي الجُوَيْنِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ كان يُقرر على

مسألةِ الاستواءِ والعُلوِّ، فقال له أبو العلاء الهَمَداني: يا شيخُ دَعْنَا مِنَ الكلامِ على مسألةِ العَرشِ، لكن أخبِرني عن هذه الضرورةِ التي يجدُها كل إنسانٍ في قلبِه، ما قال عارفٌ قط: يا اللهُ. إلا وجَدَ مِن قلبِه ضرورةً بطلبِ العلوِّ[1]. أنت الآن إذا دعوتَ وقلتَ: يا اللهُ، يذهبُ القلبُ إلى السماءِ، حتى إِنَّ الإنسانَ أحيانا للضرورةِ يرفعُ يديه، فهذا دليلٌ فِطري.

فشيءٌ دَلَّ عَلَيْهِ القُرْآنُ والسُّنةُ وإجماعُ الصحابةِ والعقلُ والفِطرةُ هل يُنْكَرُ؟! لا واللهِ لا يُنكرُ، ولا يُنكِره إلا مُكابِرٌ.

جاءنا رَجُل فحَسَرَ عن ذراعيه وشَمَّرَ عن ساقَيْهِ وقال: جئتكم بالدَّلِيل الذي يقطعُ قولَكم، ويُفَنِّدُ حُجَّتَكُم. قلنا: نحن لا نريدُ إلا الدَّلِيلَ، قال: ماذا تَقُولُونَ فِي قول اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة:٧] كيف تقولون في هذا؟ قلنا: الإجابةُ سهلةٌ، نقولُ: ماذا تقول في قولِه تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]؟ وماذا تقولُ في قولِه تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]؟ أنت إِنْ أَوَّلْتَ هذا فنحن نُؤولُ ما ذكرتَ، كُلُّ إنسانٍ يعلمُ أن معنى قولِه تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أنه مُحيطٌ بالخَلقِ عِلمًا وقُدرةً وسلطانًا، لا أحدَ، لو سَلِمَ مِنَ البِدعةِ، يدورُ في عقلِه أنه معنا في المكانِ، لا أحدَ يقولُ هذا.

وأضربُ لكم أيها المسلمون أمثالًا أبرأُ بها إِلَى اللهِ مِن مسؤوليتكم، وأُقيم

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (١/ ١٨٨).

الحُجةَ عليكم: إذا قلت: إِنَّ اللهَ معنا فِي كُلِّ مَكَانٍ وَلَيْسَ عاليًا. قلنا: لو فَرَضنا ذلك على زعمهم فنحن هنا في المَسْجِدِ الحَرَامِ معنا في المكانِ هنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أنا أريدُ أَنْ أُبطلَ قولَه بشيء ملموسٍ محسوسٍ، وهناك ناسٌ الآن خارجَ المسجدِ يبيعون السِّلعَ في دكاكينهم، فأين يكونُ اللهُ؟ في الدُّكانِ؟

ويوجد ناسٌ هناك في محلاتِ الصيانةِ يُصْلِحُونَ السياراتِ، هل يمكنُ أن يقولَ قائلٌ: اللهُ معهم هناك في هذا المحلِّ؟ هل يقولُ بهذا أحدٌ؟! هل يقولُ بهذا عاقلٌ؟! سبحانك هذا بُهتانٌ عظيمٌ.

أقولُ أيضا: أحدُنا في المسجدِ ينتظرُ والآخَرُ في الحَمَّامِ يَبُولُ ويَتَغَوَّطُ، أين اللهُ بِالنِّسْبَةِ للذي يَبُولُ ويَتَغَوَّطُ؟ هل اللهُ معه في الحُشِّ؟ قاتَلَ اللهُ عُقولًا تذهبُ هذا المذهبَ.

وأسألُ اللهَ أَنْ يهديَها الصراطَ المستقيمَ، وَأَنْ يمُنَّ عليها بالتوبةِ النصوحِ قبل أن تَلْقَى ربَّها عَلَى هَذِهِ العقيدةِ.

لا أقولُ -واللهِ- هذا شَماتةً بهم، ولكن نقولُ هذا لِئَلَّا يغترَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ المسلمين بهذا القولِ، ونحن نسألُ اللهَ لهم الهدايةَ، هدايةَ الصراطِ المستقيمِ، واللهِ لا نُكِنُّ لهم عداوةً، ولا بغضاءَ إذا هداهم اللهُ، ولكنا نسألُ اللهَ أَنْ يَهْدِيَهُم، أَنْ يَنتشلوا أنفسَهم وإخوانَهم المسلمين من هذه العقيدةِ الباطلةِ.

إن هذا القولَ يَلْزَمُ منه إمَّا أَنْ يَتَجَزَّأَ اللهُ أجزاءً في كلِّ شيءٍ جُزءٌ منه، وإما أَنْ يتعدَّدَ، وكلاهما باطلٌ.

وأما قولُه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ فهذا لا إشكالَ فيه لأَنَّ المعنى أنه محيطٌ بنا عِلْمًا

وقُدرةً وسُلطانًا وتدبيرًا، ولكن لَيْسَ في مكانِنا.

أَلَيْسَتِ العربُ تقولُ بلسانِها المبينِ إذا سافروا: ما زِلْنَا نَسِيرُ والقمرُ معنا. فأين مكانُ القمرِ؟ سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ! القمرُ لَيْسَ معهم على الراحلةِ، أفيكونُ القمرُ في العُلوِّ والربُّ يكونُ معهم على الراحلةِ؟! لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ!

الضابطُ يقولُ للجندِ: اذهبوا إلى ساحةِ القتالِ وأنا معكم. وَهُوَ في غُرفةِ العملياتِ، هل هو معهم بذاتِه؟ لا، لكن معهم بالتَّدبيرِ يُدَبِّرُهم ويُوَجِّههم، هذا لسانٌ عربيٌّ مُبينٌ واضحٌ.

ويقالُ للرَّجلِ: هل زوجتُك معك؟ فيقولُ: نعم. وَهُوَ في المسجدِ يُصَلِّي، وهي في بيتِها تَطبخُ الطعامَ.

إذن، المَعِيَّةُ معناها المصاحَبَةُ، وهي في كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِه، فلا يلزم منها الاختلاطُ، ولا الحلولُ في المكانِ.

عبادَ اللهِ، أنتم في العَشرِ الأُوَلِ مِنْ شَهرِ ذِي الحِجَّةِ، ما مِن أيامٍ العملُ الصالحُ فيها أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِن هذه الأيامِ، أرجو اللهَ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ في كلامي هذا انتشالٌ لكم مِن هذه البِدعةِ الباطلةِ؛ أَنَّ اللهَ مع الخَلقِ في كلِّ مكانٍ، ولقد سَمِعْتُمْ ما قَرَّرْنَاهُ في الأمثلةِ.

فَالَقَ رَبَّكَ وأنت تؤمنُ بأنه تَعَالَى فوقَ كلِّ شيءٍ، والخَلقُ بِالنِّسْبَةِ للهِ لا شيءَ، جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ**»[1]، السمواتُ السَّبعُ كُلُّها بأفلاكِها ونجومِها وشَمْسِها والأَرَضُونَ السَّبعُ

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٧، رقم ٣٦١).

ببحارِها ورِمَالِها وأنهارِها بِالنِّسْبَةِ للكرسيِّ كحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ في فلاةٍ مِنَ الأرضِ، وحَلْقَةُ الدِّرعِ صغيرةٌ جِدًّا، أي مثلُ حَلْقَةِ السلسلةِ، لو ألقيتَها في فلاةٍ مِنَ الأرضِ ماذا تشغلُ مِنَ الأرضِ؟ لا شيءَ، وإنَّ فَضْلَ العَرشِ على الكرسيِّ كفضلِ الفَلاةِ على هذه الحَلْقةِ.

إذن، ما نِسبةُ الكُرسيِّ للعَرشِ؟ لا شيءَ، هذا وهي كلها مخلوقةٌ، فكيف بالخالِقِ عَزَّوَجَلَّ؟ الخالِقُ فوقَ كلِّ شيءٍ، وكل شيءٍ فهو تحتَ الخالِقِ عَزَّوَجَلَّ ولا يُحيطُ به شيءٌ مِنَ الأمكنةِ أبدًا؛ لأنه فوقَ كلِّ شيءٍ.

هذه عقيدتي، وأرجو اللهَ تَعَالَى أَنْ تَكُونَ عقيدةَ كل مسلم، وَأَنْ ينتشل مَن يعتقدُ أَنَّ اللهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِن هـذه البِدعةِ الباطلةِ حتى يلقى اللهَ وَهُـوَ على ما جاءت به الرُّسُلُ -عليهم الصَّلَاة والسلام-.

انتهى الكَلَامُ على هذا، والخلاصةُ أننا نؤمن ونعتقد بأن الله نفسه فوق كل شيء، ونؤمنُ ونعتقدُ بأن اللهَ تَعَالَى اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ، أي عَلا عليه عُلُوًّا يَليقُ بجلالِه، لا نُكَيِّفُه، ولا نَتَخَيَّلُه أبدًا، نؤمن كَما جَاءَ فِي النص.

هذه هي العقيدةُ الصحيحةُ، وعلمتم الجوابَ عن قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] وقوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧].

واعلم أخي المسلم -ولا سِيَّما طالبُ العِلم- أَنَّ القرآنَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يتناقض أبدًا؛ لِأَنَّ اللهَ قَالَ في كتابه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، فإن زعمَ أحدٌ أن في آياتٍ مِنَ القرآنِ شيئًا مِنَ

التناقضِ فاعلمْ أَنَّ البلاءَ منه لا مِنَ القرآنِ، إما أَنْ يَكُونَ قاصِرَ الفَهمِ -وما أكثرَ الذين لا يفهمون- وإما أَنْ يَكُونَ ناقِصَ العِلمِ -وما أكثرَ الذين لا يعلمون- وإما أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ مرض حالَ بَيْنَهُ وبين فَهْمِ كتابِ اللهِ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣] قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا﴾ [المطففين:١٤] لَيْسَتْ أساطيرَ الأولين ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

أَثَرُ المعاصي على الإنسَانِ:

والمعاصي تَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وبينَ العِلمِ حتى يلتبسَ عليه الشيءُ الواضحُ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يخاطبُ النَّبيَّ ﷺ يأمرُه بأنْ يحكمَ بين الناسِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ويقولُ بعد ذلك: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٠٦] فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الاستغفارَ سببٌ لفتحِ العُلومِ، وَهُوَ كذلك، فالمعاصي تَحُول بَيْنَ المَرْءِ وبينَ فَهمِ كتابِ الله وسُنةِ رسولِه، فإذا أشكَلَ عليك مسألةٌ فاستغفِرِ اللهَ، كَرِّر الاستغفارَ فيفتح اللهُ عليك، يقول الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعَاصِي
وَقَالَ اعْلَمْ بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ اللهِ لَا يُؤْتَى لِعَاصِي

هذا يقولُه الشافعي لشيخِه.

وكما أَنَّ المعاصيَ تَحُولُ بين الإنسانِ وبين العِلمِ فإنها تَحُولُ بين الإنسانِ وبين الطاعةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩] الذُّنوبُ تُوجِبُ الذُّنوبَ، ولهذا قَالَ العلماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ المعاصي بَريدُ

---

(١) ديوان الإمام الشافعي (ص:١٠٦).

الكفرِ، اللَّهُمَّ اغفر لنا ذنوبَنا، وكَفِّرْ عنا سيئاتِنا، وتَوَفَّنَا مع الأبرارِ.

انتهى الكَلَامُ على ما يتعلقُ بالعلوِّ، وأَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يملأَ قلوبَكم بمعرفةِ اللهِ وحقوقِهِ، واتباعِ كتابِهِ وسُنةِ رسولِه، وَأَنْ يهديَ مَن اشتبَه عليهم الأمرُ فالتبَسَ عليهم إلى صراطٍ مستقيمٍ.



الدرسُ الرابعُ:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينهُ ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفسِنَا ومنْ سيئاتِ أعمالِنَا، مَنْ يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورَسولُه، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار:٤-٥] في ذلِكَ اليومِ تعْلَمُ النُّفوسُ ما قَدَّمَتْ وأَخَّرَتْ، ووسيلَةُ الإعلامِ تجِدُهَا في القُرآنِ: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣]، لن يَتْعَبَ في فَكِّ الكِتابِ، بل سيأتِيهِ منْشُورًا مفتُوحًا، ويُقالُ لهُ: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤].

قالَ بعضُ السَّلَفِ: «واللهِ لقَدَ أنْصفَكَ من جعلَكَ حَسِيبًا على نفْسِكَ»(١). وهذا حَقٌّ، وفِي الكِتابِ تجِدُ أنَّك عَمِلْتَ كذَا في يومِ كذَا في مكانِ كَذَا، وكلُّ شيءٍ محفُوظٌ، وفي يومِ القِيامَةِ يُخْرَجُ هذا الكِتابُ، حينئذٍ يعلَمُ الإنسانُ ما قَدَّمَ وأَخَّرَ.

ونحنُ لا نعلَمُ ما سبَقَ في أعمالِنَا، ولم نُحْصِهِ، من خيرٍ أو شَرٍّ، وكذلكَ ما تأَخَّرَ، لا نعْلَمُهُ، إذن: نحنُ في الدُّنْيا نَنْسَى ما سبَقَ، ونجْهَلُ ما لَحِقَ، لكنَّ يومَ القيامَةِ نعلَمُ ما قَدَّمْنَا وما أَخَّرْنَا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الانفطار:٦] يخاطِبُ اللهُ هنَا الإنسانَ، والإنسانُ هنَا المرادُ بِهِ الجِنْسُ، ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦] أي: أَيُّ شيءٍ غَرَّكَ بِهِ؟ أيُّ شَيءٍ

---

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (١/ ٥٤٥، رقم ١٥٦٣).

جَعَلكَ تكْفُرُ به؟ أَيُّ شيءٍ جَعَلَكَ تَكْفُرُ بكتُبِهِ وبرُسلِهِ وباليومِ الآخِرِ؟ وهذا الاستِفهامُ استفهامُ إنكارٍ وتعَجُّبٍ، والكرِيمُ: ذو الكرَمِ، وهو العطاءُ والفَضْلُ الذي لا نِهايَةَ لَهُ.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ [الانفطار:٧] ﴿خَلَقَكَ﴾، أي: أوْجَدَكَ.

﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي: جَعَلَكَ سَوِيًّا؛ ولهذا لا يوجَدُ صورَةٌ في الحيواناتِ أحسنَ من صورَةِ الإنسانِ أبدًا، فالإنسانُ سَوِيٌّ مستَقِيمٌ، يمْشِي على رِجْليهِ، ويدَاهُ مكَرَّمتانِ، لا تباشِرَانِ الأرضَ، وأشياءُ كثيرةٌ يعْرِفُها الذين لهم اختِصاصٌ بهذَا.

﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي: جعَلَكَ معتدلًا مستَقِيما، ثم قالَ: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٨]، فنَحْنُ الآن نجِدُ أمامَنَا عَالمًا مِنْ بَنِي آدمَ، قد اختَلَفَتْ صُوَرُهم، فيهِمُ الطويلُ والقَصِيرُ، والأسودُ والأبيضُ والأحمرُ.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ اقْرِنْ هذِه الآيةَ بقولِ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٦] فاللهُ عَزَّوَجَلَّ يصوِّرُنا في الأرحامِ كيفَ يشاءُ، منَّا مَنْ هو أسودُ، أو أبيضُ، طويلٌ أو قَصِيرٌ، فالمصوِّرُ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

﴿كَلَّا﴾ أي: عَجَبًا أو حَقًّا، ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:٩] أي: تُكَذِّبُونَ بالجزاءِ؛ لأن الدِّينَ يطلَقُ على مَعْنَيَينِ: المعنَى الأوَّل: العمَلُ. والمعنى الثاني: الجَزاءُ.

فَمِنَ المعنَى الأوَّلِ قولُهُ تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، فالدِّينُ بمَعْنى الجزاءِ، والثاني في سورَةِ الفاتِحَةِ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، أي: يومِ الجَزاءِ. وفي المثَلِ السائدِ: كما تَدِينُ تُدانُ، أي: كما تعْمَلُ تُجازَى.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار:١٠] أكَّدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن علينا حافِظِينَ بمؤكِّدَيْنِ:

إنَّ، واللامِ في قولِهِ ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾، والحافِظُونَ: هم الملائكةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومكانُهُم عن اليمِينِ وعنِ الشِّمالِ، كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧-١٨]، فأيُّ قولٍ تقولُهُ فتذَكَّرْ أن عنْدَكَ رَقِيبًا يراقِبُ ويحفَظُ، وعتِيدًا حاضِرًا لا يَغِيبُ، هؤلاءِ الحفَظَةُ يكتُبونَ كلَّ ما يقولُ الإنسانُ، وهم يكتُبونَ كلَّ قولٍ، سواء كان فيه ثوابٌ أم لا؛ لأن اللهَ تعالى قالَ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ [ق:١٨]، و﴿قَوْلٍ﴾ هنا نَكِرَةٌ في سِياقِ النَّفْيِ، والنَّكِرَةُ في سياقِ النَّفيِ تفيدُ العمومَ، وزِيدَ توكيدُها بـ(مِنِ) الزائدَةِ إعرابًا، لا الزائدةِ معنى.

إذن: كُلُّ قولٍ تقُولُهُ من خَيْرٍ أو شَرٍّ أو لَغْوٍ فهُو مكتُوبٌ، تكتبُه الملائكَةُ، ولو كان عندَ الإنسانِ مُسجِّلُ صَوْتٍ في جَيبِهِ، وكلَّما تكلَّمَ سجَّلَ، لملأ الغُرَفَ مِنْ أشرِطَةِ التَّسْجِيلِ، والملائكةُ يكتُبونَ، وكلُّ ما تَتَكَلَّمُ به مكتُوبٌ عندَ اللهِ.

قال بعضُ العلماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: وإنهم ليكْتُبونَ حتَّى أنينَ المريضِ. لأن الأَنِينَ إذا كان باختيارِ الإنسانِ فهـو عبارَةٌ عن التَّشَكِّي، أمَّا إذا كان الأنينُ بغَيرِ اختِيارِهِ فلا يُكتَبُ عليهِ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

دخَلَ رجلٌ على الإمامِ أحمدَ بنَ حنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو مَرِيضٌ ويئِنُّ مِنْ شِدَّةِ المَرَضِ، فقالَ له: يا أبَا عبدِ اللهِ، إن طَاوُسًا يقولُ: إنَّ الملَكَ يكتُبُ حتى أنِينَ المريضِ. فقطَعَ الإمامُ أحمدُ الأنينَ[1]. فهؤلاءِ هُم العلماءُ الذِينَ يخشَوْنَ اللهَ حقَّ خَشْيَتِهِ، مع أنه بلَغَهُ عن تابِعِيٍّ من التابِعينَ، وليسَ عن رسولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) ذكره أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٢/ ١١٩).

كتابةُ الملائكةِ للأعمالِ:

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:١١] أي: ذَوِي كَرَمٍ، والكَرِيمُ إن لم يُعْطِ لم يأخُذْ؛ ولهذَا لا يكتُبونَ ظُلْمًا، فلا يكتُبونَ على العَبْدِ ما لم يعْمَلْ مِنَ المعاصِي، ولا يكتُبونَ له مَا لم يعْمَلْ مِنَ الطاعاتِ، بل هُمْ كِرَامٌ، ﴿كَٰتِبِينَ﴾ ولا نَعْرِفُ كيف يكتُبونَ، أو بِمَ يكتُبونَ، ولا نسألُ عَنْ ذلكَ، كما قالَ مالِكٌ في استِواءِ اللهِ علَى العَرْشِ، فنحنُ نؤمن جَمِيعًا بأن اللهَ مُسْتَوٍ على العَرْشِ، والعَرْشُ فوقَ السمواتِ، فوقَ كلِّ شيءٍ مِنَ المخلوقاتِ، واللهُ تعالى مسْتَوٍ عليهِ، أي: عالٍ عليه، وأما قولُ من يقولُ: إن اللهَ في كلِّ مكانٍ. فهذا خطَأٌ، لو فكَّر صاحِبُهُ في الأمرِ لوَجَدَ أنه أكبرُ مسبَّةٍ للهِ عَزَّوَجَلَّ، فاللهُ تعالى نفسُه فوقَ كلِّ شيءٍ، أما عِلْمُه فهو مُحِيطٌ بكلِّ شيءٍ.

فقد سأَلَ رَجُلٌ الإمامَ مالِكًا وقال لَهُ: يا أبا عبدِ اللهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيفَ استَوَى. يقْصِدُ: صِفْ لي استِواءَهُ وكَيفِيَّتَهُ، فأطرقَ مالِكٌ هكذَا برأسِهِ، حتى جعَلَ يتَصَبَّبُ عرَقًا مِنْ شِدَّةِ السُّؤالِ والخَجَلِ، فهذا سؤالٌ لا يَليقُ، وفيه تكَلُّفٌ، ثم رفَعَ رأسَهُ، وقالَ كِلَماتُهُ المشهورَةُ التي تستَحِقُّ أن تُكتَبَ بأغْلى مِدادٍ، قال له: «يا هَذَا، الاستِواءُ غيرُ مجهُولٍ، والكَيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمان بِهِ واجِبٌ، والسؤالُ عنه بِدْعَةٌ»(١). أربعُ جُمَلٍ عظِيمَةٍ.

«الاستواءُ غيرُ مجْهُولٍ» يعْنِي: أنه معْلومٌ، فكُلُّنا يعرِفُ معنَى استوى على كذَا، قالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ۝١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٢-١٣]، لتَسْتَوُوا: أي لتَرْكَبوا على ظهْرِهِ. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٥، رقم ٨٦٧).

ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨]، أي: عَلَوْتَ عليهِ ورَكِبْتَهُ.

إذن: استِواءُ اللهِ علَى عرْشِهِ يعنِي عُلُوًّا عليه، وهذَا العُلُوُّ خاصٌّ بالعَرْشِ، غيرُ العُلُوِّ العامِّ على جميعِ المخلوقاتِ.

«والكيفُ غيرُ معْقُولٍ» أي: إن عَقولَنَا لا تدرِكُ كيفَ استَوَى اللهُ على العَرْشِ، فهذا غيرُ ممكِنٍ.

«والإيمانُ بِهِ واجِبٌ» أي: الإيمانُ بالاستِوَاءِ.

«والسؤالُ عنْهُ بِدْعَةٌ» أي: السُّؤالُ عن كَيفِيَّتِهِ، لكنَّ السؤالَ عنْ معناهُ ليس فيهِ شيءٌ؛ لأن الصحابَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وهُمْ أحرَصُ مِنَّا على معرِفَةِ اللهِ، وأشدُّ منا حُبًّا للهِ، وأعلَمُ مِنَّا باللهِ، ما سألُوا الرَّسولُ عن هذا، مع أنَّهُم لو وَجَّهُوا السؤالَ لوَجَّهُوهُ إلى مَنْ يعلَمُ كيفَ يُجِيبُهم.

«وما أُرَاكَ إلَّا مبْتَدِعًا» أُراك: أي: أَظُنُّكَ إلا مُبْتَدِعًا؛ لأن أهلَ البِدَعِ هم الذين يَسألونَ عن هذِهِ الأشياءِ، ثم أَمَرَ به فأُخْرِجَ مِنَ المسجِدِ النَّبَوِيِّ، ولم يحتَجَّ على إخراجِهِ أحدٌ مِنَ الناسِ بقولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة:١١٤]؛ لأن مِثْلَ هذَا الرَّجُلِ المبتَدِعِ يجِبُ أن يُخرَجَ من بُيوتِ اللهِ؛ لأن اللهَ قالَ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور:٣٦]، ولم يقُلْ: أن تُرْفَعَ ويُذْكَرُ فيها البِدَعُ. فلذَلِكَ كان رأيُ مالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ صوابًا؛ حيثُ أَمَرَ بِهِ، فأُخْرِجَ من المسجِدِ.

على كلِّ حالٍ كتابَةُ الملائكَةِ أعمالَ النَّاسِ معلومَةٌ، وهي: تَقْييدُ الشَّيءِ، والكيفُ مجهولٌ، لو كان بعِلْمِنَا بالكَيْفِيَّةِ خيرٌ لكانَ اللهُ أعلَمَنَا بذلِكَ؛ لأنه ما مِنْ

خيرٍ إلا أعْلَمَنَا اللهُ به حتَّى نفعَلَهُ، وما من شَرٍّ إلا أعلَمَنَا اللهُ به حتَّى نتَجَنَّبَهُ.

وهذه قاعدةٌ في جميعِ أمورِ الغَيْبِ، فكلُّ أمورِ الغَيْبِ لا يمكنُ أن نتَحَدَّثَ عن كيْفِيَّتِها إذا لم تكُنْ كَيْفِيَّتُها معلومَةً بالكِتابِ والسُّنَّةِ.

كثيرٌ منَّا يعلمُ أن الإنسانَ إذا دُفِنَ في قَبْرِهِ، وأتاهُ الملكانِ، وسألَاهُ عن ثلاثَةِ أشياءَ: هِيَ: مَنْ ربُّكَ؟ ما دينُكَ؟ من نَبِيُّكَ؟ إذا أجاب بصوابٍ نادَى منادٍ مِنَ السماءِ أن: صدَقَ عبْدِي، فأفرِشُوه من الجنَّةِ، وألْبِسُوه مِنَ الجنَّةِ، وافتحوا له بابًا إلى الجنة. ويوسع قبرُه مدَّ البصرِ[1].

فلو قالَ قائلٌ: كيفَ يُوَسَّعُ مدَّ البصَرِ والمقبُرَةُ كلُّها لا تكونُ مدَّ البَصَرِ؟ نقولُ: هذا معناه التَّشْكيكُ في خبَرِ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والسؤالُ عن هذَا بِدْعَةٌ، نحن نؤمِنُ بما جاءَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ دونَ أن نسألَ عن كَيْفِيَّتِهَا. وسأضرِبُ لكم مثَلًا لذلك: أنتم تنامُونَ في اللَّيْلِ على فِراشٍ طولُهُ مثَلًا أربعُ أذْرُعٍ، أي: يزِيدُ عَنْ طولِكُم قَلِيلًا، وعن عرْضِكُم قليلًا، ويَرَى الإنسانُ في منامِهِ أنه في فَلاةٍ مِنَ الأرضِ واسعةٍ، وأحيانًا في بساتِينَ، وأحيانًا بين الجِبالِ، وأحيانًا بين أودِيَةٍ، وهو لا يزالُ على فِراشِهِ. فإذا كانَتْ هذِهِ حالُ الرُّوحِ في النومِ فكيفَ بحالِهَا في الموتِ؟!

واعلم أن النَّومَ وفاةٌ، لكنَّها وفاةٌ صُغْرَى، والدليلُ على أن النَّومَ وفاة قولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر:٤٢]، وهذه الوفاةُ العُظْمَى، ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢]، وقالَ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠]، فإذا كان هذا في الرُّوحِ قبْلَ أن تخرُجَ مِنَ البدنِ، فما

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).

بالُّكَ بالرُّوحِ بعد خُروجِهَا مِنَ البدنِ، ولهذا قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النُّونِيَّةِ[١]:

شَأْنُ الرُّوحِ أَعْجَبُ شَانِ ....

أي: من أعظَمِ الأمورِ العَجِيبَةِ؛ ولهذا لما سألُوا الرَّسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَنِ الروحِ، قالَ الله لَهُ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥] أي: مِنْ شأنِ اللهِ، وليسَ مِنْ شأنِكُم.

ثم قالَ مُبَكِّتًا لهم: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء:٨٥] كأنَّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ما بَقِيَ عليكُمْ مِنَ العُلومِ إلا أن تعْرِفُوا الرُّوحَ حتى تسألُوا عنها، وهذا تَبْكِيتٌ لهم، والَّذِي فاتَنَا مِنَ العلومِ أكثرُ بكَثيرٍ، فليسَ عنْدَنَا مِنَ العُلومِ إلا قليلٌ، فكيفَ نسألُ عَنِ الرُّوحِ؟!

كذلك الذي يسألُ عن صِفاتِ اللهِ، ويقولُ مثلًا: كيفَ استَوى؟ أو كيف يكْتُبُ الملائكَةُ أعمالَ العبادِ؟ أقول: ما بَقِيَ عليكَ مِنَ العِلْمِ إلا هذَا، حتى تسألَ عنْه ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء:٨٥].

﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٢] أي: أن الملائكَةَ يعلَمُونَ ما تفعَلُونَ، وفي هذا إشارةٌ إلى ما جاءَ به الحدِيثُ الصَّحِيحُ؛ حيث قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[٢]. فالحمْدُ للهِ على نِعَمِهِ، فالإنسانُ يحدِّثُ نفْسَهُ بأشياءَ فظيعةٍ عظيمَةٍ، لكن إذا لم يعمَلْ فهُو معفُوٌّ عنْهُ.

---

(١) النونية (ص:١٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، رقم (٢٥٢٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

فمثلًا هناكَ رجُلٌ همَّ أن يعمَلَ ذَنْبًا، وعزَمَ عليه، لكنه لم يفعَلْهُ، فلا يُكْتَبُ عليه، بل إذا تَرَكَهُ للهِ أثابَهُ عليهِ، ولهذا قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً**»(١). لأنَّه تَرَكَها للهِ، فلا تُكْتَبُ عليهِ، بل تكتَبُ له حسَناتٌ، إلى أن يشاءَ اللهُ.

إذا هَمَّ الإنسانُ بالحسَنَةِ ولم يفعَلْهَا عَجْزًا عنها، فإنه يُكْتَبُ له أجْرُهَا، ولا إذا كان قدْ شرَعَ فيها، أو كان مِنْ عادَتِهِ أن يفعَلَهَا، ولكن عَجزَ عنها، فإنه يُكتَبُ له أجْرُها؛ لأنه هَمَّ بِهَا، وسَعَى فيها، ولكن حِيلَ بينَه وبينَها بقَدَرِ اللهِ، فهذا يُكتَبُ له الأجْرُ كامِلًا، والدليلُ: قالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، فإنَّ الإنسانَ إذا خَرَجَ مِنْ بلدِ الكُفْرِ مهاجِرًا إلى اللهِ ورسولِهِ، ثم ماتَ، يُكْتَبُ له أجْرُ المجاهِدِينَ؛ لأنه عجزَ عن استِكمالِ العَمَلِ، واللهُ تعالى ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ.

وهناكَ دليلٌ آخَرُ فيمَنْ عجزَ عن العَمَلِ، وكان من عادَتِهِ أن يعمَلَهُ، فإنه يُكْتَبُ له أجْرُهُ كامِلًا، دليلُه: قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ صَحِيحًا مُقِيمًا**»(٢).

فلنفرض مثلًا أن إنسانًا من عادَتِه أن يتَهَجَّدَ في الليلِ، وأن يكثُرَ النَّوافِلَ، ولكنه سافَرَ، ومنَعَهُ السفَرُ من أن يفعَلَ ما كان يفعلُهُ في الحَضَرِ، فيُكتَبُ له الأجرُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة، رقم (١٣١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، رقم (٢٨٣٤).

كامِلًا، كأنه فعَلَ ذلِكَ تمامًا.

كذلك إنسانٌ مَرِضَ، كان من عادَتِهِ أن يصومَ يومَي الاثنينِ والخَميسِ، وأن يُكْثِرَ النوافِلَ، ولكنه مَرِضَ، ولم يتمَكَّنْ من ذلِكَ، فإنه يُكتبُ له الأجرُ كامِلًا، أي: يكتَبُ له أجرُ صِيامِ الاثنينِ والخميسِ، وما يفعَلُهُ مِنْ نوافِلَ؛ لأنه ترَكَ ذلك عَجْزًا، أو مَعَ المشقَّةِ، وهذا من فضْلِ اللهِ تعالى وكَرَمِهِ، هذِه واحِدَةٌ.

الثانية: إذا هَمَّ الإنسانُ بالحسَنَةِ وفعَلَها فِعْلًا فإن الحسنَةَ تُكْتَبُ له بعَشْرِ أمثالِهَا، إلى سبْعِ مئةِ ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرَةٍ.

الثالثة: إذا هَمَّ بها وترَكَها رغْبَةً عنها، لا عَجْزًا عَنْ فعْلِهَا، ولا عن استِكْمالِهَا، فإنها تُكتَبُ له حسنَةٌ كامِلَةٌ، هو لم يفْعَلْ، فكيف تُكتَبُ له؟ ولكنَّنَا نقول: مجرَّدُ همِّ الإنسانِ بالحَسناتِ لَهُ ثوابٌ؛ لأنه يدُلُّ على رَغبَتِهِ في الحسناتِ، فصارتِ المسألَةُ ثلاثَةَ أقسامٍ:

القسم الأول: إذا همَّ بالحَسَنَةِ وعجزَ عنْها، أو عَنْ إكمالِهَا، فإنها تُكتَبُ له حسَنَةٌ واحِدَةٌ، أي: يكونُ كمَنْ فعلَهَا، فيُكتَبُ له الأجْرُ كامِلًا، والدليلُ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٠٠]، وكذلِكَ قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ صَحِيحًا مُقِيمًا**».

القسمُ الثاني: إذا هَمَّ بالحسنَةِ وترَكَها مِنْ دونِ فِعْلٍ، فتُكتَبُ له حسنَةٌ كامِلَةٌ؛ لأن مجرَّدَ هَمِّ الإنسانِ بالحَسناتِ حَسَنَةٌ، لأنه يدُلُّ على حُسْنِ قصْدِهِ وإرادَتِه، وقد صَحَّ بِهِ الحديثُ عنِ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

القسمُ الثالثُ: من هَمَّ بحسَنَةٍ وفعَلَها؛ فإنَّها تُكتَبُ له مضاعَفَةً عشْرَ أمثالِهَا، والدليلُ على هذا مِنَ القُرآنِ: قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، ومِنَ السُّنَّةِ قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فعَمِلَهَا كَتبَهَا اللهُ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مَئَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ**»(١).

أما السَّيئاتُ إذا هَمَّ بها الإنسانُ، وعَمِلَ بهَا، كُتِبَتْ سيئَةً واحِدَةً فقط، لا زيادَةَ عليهَا، وهذا مِنْ فضلِ اللهِ: الحسنَاتُ تُضَاعَفُ، والسَّيِّئاتُ لا تُضَاعَفُ، بل تُكتَبُ سيئَّةً واحِدَةً؛ لقولِهِ تعَالَى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠]، وكذلِكَ صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنه: «**مَنْ عَمِلَ السَّيِّئَةَ كتبَها اللهُ تعالى سَيِّئَةً وَاحِدَةً**»(٢)، وإن هَمَّ بِهَا ولم يعْمَلْهَا فعَلى ثلاثَةِ أقسامٍ:

القِسْمُ الأوَّلُ: أن يدعَهَا عَجْزًا عنها، أي يفعلُ الأعمالَ التي توصِّلُ إليهَا، لكن عَجَزَ، فهَذَا يكونُ كفاعِلِهَا، مثالُ ذلِكَ: رجلٌ أتَى بالسُّلَّمِ، وتسَلَّقَ الجِدارَ؛ ليسْرِقَ، فلما أطلَّ على البيتِ إذا بصاحِبِ البيتِ يَقْظانُ، فنزَلَ، فتُكْتَبُ عليه عقوبَةُ السارِقُ؛ لأنه عَجَزَ عنْها، هو فَعَلَ الأسبابَ، فعَجَزَ، فيُكتَبُ له عقوبَةُ العاصِي.

والدليلُ على هذا قولُ النَّبيِّ ﷺ: «**إِذَا التقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا**» أي بالقتلِ، «**فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**». قالُوا: يا رسولَ اللهِ، هذا القاتِلُ -يقصِدُونَ أن القاتِلَ في النَّارِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة، رقم (١٣١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة، رقم (١٣١).

خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣]- فما بالُ المقتُولِ؟ قال: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»(١).

وهذا واضحٌ، فهذا الرَّجُلُ معه السيفُ، يريدُ أن يقتُلَ، لكِنْ غلَبَهُ ضَعْفُهُ، فيكونُ القاتِلُ والمقتولُ في النَّارِ: القاتِلُ لأنه قاتِلٌ، والمقتُولُ لأنه كان حَرِيصًا على قَتْلِ صاحِبِهِ، لكِنْ عَجَزَ.

القسمُ الثَّانِي: أن يَهُمَّ بالسَّيِّئَةِ فيترُكُها للهِ، فهذَا يُكْتَبُ له حسنَةٌ كامِلَةٌ، مثالُ ذلِكَ: رجلٌ هَمَّ أن يغْتَابَ شخْصًا، والغِيبَةُ هي ذِكْرُكَ أخاكَ بما يكْرَهُ، فلما تَذَكَّرَ أن الغِيبَةَ حرَامٌ، من كبائرِ الذُّنُوبِ، سوفَ يُعاقَبُ عليهَا، فتَرَكَها للهِ، فهَذَا يؤجَرُ عليهَا. قالَ اللهُ تعالى في الحدِيثِ القُدُسِيِّ: «لِأَنَّهُ إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي»(٢).

أي: من أجْلِي. ومِنْ ذلِكَ قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ»(٣). أي: مِنْ أشرافِ القَومِ، وليستْ مِنَ النِّساءِ الدَّنِيئاتِ، وليس عندَهُ أحدٌ، وليس عندَهُ ضعْفٌ جِنْسِيٌّ، بل هو قادِرٌ ولو أرادَ إجابتَهُ، لكنه قال: إني أخافُ اللهَ. فتَرَكها، فهذا الَّذِي تَرَكَ هذِهِ الشَّهْوَةَ المحرَّمَةَ مع قُدرَتِهِ عليها، وقوةِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، رقم (٣١)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، رقم (٢٨٨٨).

(٢) أخرجه ابن منده في الإيمان (١/ ٤٩٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

الدَّاعِي إليهَا، وعدَمِ المانِعِ والصارِفِ، يُظِلُّه اللهُ في ظلِّهِ، يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ.

ومثلُ ذلكَ ما حكاهُ النَّبيُّ ﷺ، وهو الصادِقُ المصدُوقُ: «أَنَّ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ آوَاهُمُ اللَّيْلُ إِلَى غَارٍ» والغَارُ هو: الكَهْفُ، والكهفُ فَتْحَةٌ كبيرَةٌ في الجَبَلِ، هؤلاءِ قَدْ آواهُمُ الليلُ إلى هذا الغارِ، «فَدَخَلُوا، فَأَرْسَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ صَخْرَةً كَبِيرَةً سَدَّتِ البَابَ، عَجَزُوا عَنْ إِزَالَتِهَا، فَقَالُوا: تَوَسَّلُوا إِلَى اللهِ تَعَالَى بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ». لأنَّ التَّوَسُّلَ بالعمَلِ الصالِحِ جائزٌ. «فَقَالَ أَحَدُهُمْ: كَانَ لَهُ أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ». وَكَانَ يَسْرَحُ فِي غَنَمِهِ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ أَوَى إِلَى أَهْلِهِ: إِلَى أَبَوَيْهِ وَإِلَى أَوْلَادِهِ، وَفِي لَيلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي لَمَّا وَصَلَ إِلَى بَيْتِهِ وَجَدَ أَنَّ أَبَوَيْهِ قَدْ نَامَا، فَكَرِهَ أَنْ يُوقِظَهُمَا، وَالصِّبْيانُ عِنْدَهُ يَتَضاغَوْنَ مِنَ الجُوعِ، فَكَرِهَ أَنْ يَسْقِيَهُمَا قَبلَ أَبَوَيْهِ، فَبَقِيَ الإِنَاءُ فِي يَدِهِ حَتَّى بَرَقَ الفَجْرُ، فَاستَيْقَظَ الأَبَوَانِ فَسَقَاهُمَا، ثُمَّ سَقَى الأَوْلَادَ». وهذا العملُ في غايَةِ البِرِّ. «فقال: اللَّهُمَّ إن كُنْتَ فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ قَلِيلًا، لَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا».

أَمَّا الثَّانِي فتَوَسَّلَ إِلَى اللهِ بأَنَّهُ كان لَهُ ابنَةُ عَمٍّ، وَكَانَ يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا، فَكَانَ يُرَاوِدُهَا عَنْ نَفْسِهَا، يَطْلُبُ منْهَا فِعْلَ الفَاحِشَةِ، لَكِنْ تَأْبَى عَلَيهِ؛ لأَنَّهَا عَفِيفَةٌ، وَالرَّجُلُ حِينَ طَلَبَها لَيسَ بعَفِيفٍ، وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ أَحْوَجَتْهَا الدُّنْيَا، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ تطْلُبُ منه مَالًا، فَأَبَى إِلَّا أَنْ تُمَكِّنَهُ مِنَ نَفْسِهَا، وكان يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا، هي مِنْ أجلِ الضَّرُورَةِ مكَّنَتْهُ من نَفْسِها. «فَلَمَّا جَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسَ الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِهِ قَالَتْ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ». كَلِمَةٌ جَعَلَتِ الرَّجُلَ يرتَعِدُ، ومعْنَى: «لا تَفُضَّ الخَاتِمَ إلا بحَقِّهِ» أي: أن يتزَوَّجَها، فَقَامَ عَنْهَا خَوْفًا مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وهِيَ مِنْ أَحبِّ الناسِ إليهِ، وهذا مِنْ كمالِ العِفَّةِ خَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَانْفَرَجَتِ

الصَّخْرَةُ، لَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ، وهذَا مِنْ حِكْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهُو الَّذِي يأمُرُ الصَّخْرَةَ فتتَزَحْزَحُ.

أما الثَّالثُ فإنَّه تَوَسَّلَ إلى اللهِ بكَمالِ الأمانَةِ، «فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ» اسْتَأْجَرَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الأُجْرَةِ، وَلَمْ يُعْطِ أَحَدَهُمْ أَجْرَهُ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ الأَجِيرُ، وَهَذَا الرَّجُلُ نَمَا لَهُ أَجْرُهُ، فَجعَلَ يَبِيعُ ويَشْتَرِي، فَجَاءَهُ الأَجِيرُ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، وقالَ: يا فُلانُ أَعْطِنِي أَجْرِي. فَقَالَ: «كُلُّ مَا تَرَى مِنَ الإِبِلِ وَالغَنَمِ وَالبَقَرِ فَهُوَ أَجْرُكَ». وهذا من تَمامِ البَرَكَةِ من اللهِ، فقَدْ جعَلَ أجْرَهُ في هذِهِ المدَّةِ كلَّ ما يراهُ بعَيْنَيْهِ. «فقَالَ لَهُ: اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَسْتَهزِئْ». يعني: أن أَجْرَةَ إنسانٍ لا تُساوِي كلَّ هذَا المالِ العظيم. قَالَ: «لَا أَسْتَهزِئُ بِكَ، وَهَذَا مَالُكَ، فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»(١).

الشاهد من هَذَا الحدِيثِ الَّذِي سُقْتُه هو ذلِكَ الرَّجلُ الذي هَمَّ بالمَعْصِيَةِ وتَرَكَها للهِ.

القِسمُ الثالِثُ: تَرَكَ السيِّئَةَ لا خَوْفًا مِنَ اللهِ، ولا عَجْزًا عنْهَا، لكنه طابَتْ نفْسُهُ، فهَذَا لا يأثَمُ، ولا يُؤجَرُ؛ لا يأثَمُ لأنه لم يفْعَلْ معْصِيَةً، ولم يحاوِلْ فِعْلَها، ولا يؤجَرُ لأنَّه لم يتْرُكْهَا للهِ.

القِسْمُ الرابِعُ: رجلٌ لا تَطْرَأُ له المَعْصِيَةُ إطْلاقًا مِنَ الأصلِ، لا يفكِّرُ فيها، فهَذَا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا فترك أجره فعمل فيه المستأجر فزاد، رقم (٢٢٧٢)، ومسلم: كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، رقم (١٠٠).

لا يُكْتَبُ لَهُ ولا عليهِ، وهذَا كثيرٌ، والناسُ -والحمد لله- لا يفكِّرُون في شُرْبِ الخمْرِ، ولا في الزِّنَى، ولا فِي اللُّوَاطِ، ولا في السَّرِقَةِ، فهؤلاءِ لا يُؤْجَرُونَ، ولا يَأْثَمُونَ.

فهذه أقسامُ تَرْكِ المعصِيَةِ، والملائكَةُ الكِرامُ الذين يكتُبونَ ما أمَرَهُم اللهُ بكِتابَتِهِ، وهو مَا جاءتْ به النُّصوصُ على حسبِ التَّقْسِيمِ الذي ذَكَرْنَاهُ.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣]: الأبْرارُ جَمْعُ برٍّ، وضِدُّهُم الفُجَّارُ، وهو جَمْعُ فاجِرٍ، والأبرارُ هُمْ: كثِيرُو الخَيراتِ، كثيرُو الأعمالِ الصالحاتِ، كثِيرُو الإحسانِ إلى النَّاسِ، هؤلاء هم الأبرارُ، الَّذِينَ أكثَرُ مما يكونُ به البِرُّ في عبادَةِ اللهِ، وفي مُعامَلَةِ عبادِ اللهِ.

﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ والنَّعِيمُ في الدُّنيا والآخِرَةِ؛ لأنها لم تُقَيِّدِ الأبرارَ في نَعِيمٍ في الدُّنْيَا والآخرَةِ؛ ولهذا قالَ النبيُّ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١).

إذن، المؤمنُ طَيِّبَةٌ نَفْسُهُ، إن أصابَتْهُ السَرَّاءُ شَكَرَ، وقام بالشُّكْرِ، وإن أصابَتْهُ الضَرَّاءُ صَبَرَ، وقامَ بالصبْرِ، ولم يتَضَجَّرْ، وقالَ: هذا قدرُ اللهِ، وما شاءَ فَعَلَ، وأنا عبدُهُ، وهو ربي، يفْعَلُ بي مَا يشاءُ.

إذن، البِرُّ في نَعِيمٍ في الدُّنْيا، وإن شِئتَ زيادَةً على هذا الدَّلِيلِ فاقْرَأْ قولَ الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]، وهذا في الدُّنْيَا، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقاق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

[النحل:٩٧] وهذا فِي الآخِرَةِ، فالمؤمِنُ حياتُهُ طَيِّبَةٌ.

ولهذا قالَ بعضُ السَّلَفِ: لو يعلمُ المُلوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نَحْنُ فيه لجَالَدُونَا عَلَيهِ بالسُّيُوفِ(١). والملوكُ وأبناءُ المُلوكِ مُتْرَفُونَ في الدُّنْيا، منَعَّمُونَ في الدُّنْيا، لكنَّهم لو يعلَمُونَ ما فِيهِ أهلُ الخيرِ من النَّعِيمِ القَلْبِيِّ، وانشراحِ الصدْرِ، ورِضَا النَّفْسِ، لجَالَدُوهم عليهَا بالسُّيوفِ.

وقد ذَكَرَ المؤرِّخُونَ عن شيخِ الإسلامِ ابنِ تَيمِية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه عُذِّبَ مِرارًا، وسُجِنَ مِرارًا، ولما أدخَلُوه السِّجْنَ ذاتَ مرَّةٍ، قال: ما يفْعَلُ أعْدَائي بِي، إنَّ حَبْسِي خَلْوَةٌ -خلوة باللهِ عَزَّوَجَلَّ- وإن نَفْيِي سِياحَةٌ، وإن قَتْلِي شَهادَةٌ، وإن جَنَّتِي فِي صَدْرِي(٢). والشاهِدُ هُنا قولُهُ: جَنَّتِي فِي صَدْرِي. لأَنَّه راضٍ، وواللهِ لو رَضِينَا باللهِ عَزَّوَجَلَّ ما كنَا لنَحْزَنَ أبدًا على مَا يُصِيبُنَا، وعلى ما يخَالِفُنَا، ولقُلْنَا: هذا تدبيرُ اللهِ، وهو أعلَمُ بِنَا، وهو رَبُّنَا. فإذا رَضِيَ الإنسانُ باللهِ صارَ في نَعِيمٍ.

أما نعيمُ الآخِرَةِ فحدِّثْ ولا حَرَجَ، قالَ الله تعالى فيهِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، فلا تعْلَمُ النَّفْسُ ما أُخْفِيَ لها مِنْ قُرَّةِ الأعْيُنِ؛ لأنَّه قُرَّةٌ لا يتَصوَّرُهَا الإنسانُ، وقالَ اللهُ تعالى في الحديثِ القُدُسِيِّ: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(٣). أعددت أي: اللهُ نَفْسُه عَزَّوَجَلَّ لعبادِهِ الصالحِينَ ما لا عَيْنٌ رأتْ

(١) هذا قول إبراهيم بن أدهم، كما في حلية الأولياء، لأبي نعيم (٧/ ٣٧٠).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٥١٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، بابٌ، رقم (٢٨٢٤).

مِنَ النَّعِيمِ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلْبِ بشَرٍ.

وفي سُورَة الإنسانِ من تفْصِيلِ النَّعِيمِ الشيءُ العظيمُ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان:١٩] على أهْلِ الجنَّةِ ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ فلا يلحَقُهم الفَناءُ ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة:١٨]، أي: من خَمْرٍ صافٍ، ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة:١٩].

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان:١٩]، الضَّمِيرُ في قولِهِ: ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ يعودُ على الأبْرارِ أو على الولْدَانِ، على قولين. قالَ بعضُ العلماءِ: إذا رأيتَ أهلَ الجنَّةِ حسِبْتَهُم لُؤلؤًا منثُورًا من حُسْنِهِمْ وصَفَائِهِمْ، وصفاءُ الجِسْمِ يدُلُّ على صفاءِ القَلْبِ. وقالَ بعضُ أهلِ العِلْمِ: إن الضميرَ في قولِهِ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ يعودُ على الوِلْدَانِ، فالضميرُ يعودُ إلى أقْربِ مذْكُورٍ، وهذا هو الأصْلُ.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ هنَا الضَّمِيرُ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعودُ إلى أهْلِ الجنَّةِ، لكِنْ ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ بعْدَهَا ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ والضَّمِيرُ فيهَا يعودُ على الوِلْدانِ.

وعلى هَذَا إذا كان الضَّمِيرُ يعودُ على الأبرارِ نَقِفُ على قولِهِ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ كَيْ لَا تكونَ الجُمْلَةُ متَّصِلَةً بالَّتِي قَبْلَها. أما إذا قُلْنا: إنَّ الضميرَ يعودُ على الوِلْدانِ، فإنَّ الأحسنَ ألَّا نَقِفَ.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣] النَّعِيمُ يرادُ بِهِ نَعِيمُ الدُّنيا ونَعِيمُ الآخِرَةِ.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٤] الفُجَّارُ في جحيمٍ في الآخِرَةِ ولا شَكَّ؛ لأنَّه قالَ: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٥]، لكِنْ حتَّى في الدُّنْيَا لا تَجِدُ قَلْبَ الكافِرِ، وإن نَعِمَ بَدَنُهُ، نَاعِمًا أبدًا، بل هُو في جَحِيمٍ يفكِّرُ، إذا فكَّرَ في الموتِ ضاقَ صَدْرُه

وضاقَتْ علَيْهِ الدُّنْيا كلُّها، وإذا أصابَهُ مَرَضٌ اصْطَلى قَلْبُهُ مِنَ النَّارِ.

أيضًا الكافِرُ إذَا رَأَى أن غيرَهُ يفُوقُه مَالًا أو قُوَّةً أو أولادًا ماتَ حَسْرَةً؛ لأنه حسُودٌ؛ فلذلكَ نقولُ: الفُجَّارُ في جَحِيمٍ فِي الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ.

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٥] أي: يصْلَوْنَ هذِهِ النارَ، ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: يومَ الجزاءِ.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ [الانفطار:١٦] وهذا كقَولِهِ: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨] فَهُمْ لا يَخْرُجونَ منْها، ولا يَغِيبُونَ عنْها، ولا يُفَتَّرُ عنهمُ العَذابُ، بل إنَّهم يقولونَ لخزَنَةِ جهنَّمَ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩]. انظُرْ إلى مَـدَى الذُّلِّ والخِزْيِ، فهُمْ يطْلُبونَ من خَزَنَةِ جهنَّمَ أن يدْعُتوا رَبَّهُم، ولـم يَقُولُوا لخزَنَةِ جهنَّمَ: ادْعُوا ربَّنَا؛ لأنهم يخجَلُونَ أن يُضِيفُوا رُبُوبِيَّةَ اللهِ إليهِمْ، وهم في محلِّ غَضَبِهِ، ولم يقولُوا: يُمْسِكُ العذابَ عنَّا يومًا، بلْ قالُوا: ﴿يُخَفِّفْ﴾ فَقَطْ، ولـم يقُولوا: دائمًا، بل قالُوا: ﴿يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وهذا مما يَدُلُّ على حَسْرَتِهِمْ، وعلى شدَّةِ عذابِهِمْ، فهُمْ في جَحِيمٍ، يَصْلَوْنَها يومَ الدِّينِ، بل قالوا أعظَمَ من ذلِكَ، قالوا لمالِكٍ خازِنِ النارِ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: يُهْلِكُنا، ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧] لا قَضاءَ فِيهِ ولا مَوتَ، ويقال لهُمْ: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف:٧٨]. زِدْ على ذلِكَ أنهم يقولونَ لأرْحَمِ الراحِمين عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧] فيَرُدُّ عليهِمُ الجبَّارُ: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، وهِيَ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ، أن يقولَ الملِكُ الرَّحِيمُ الجبَّارُ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا

وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ حينئذٍ ينقطعُ منهم كلُّ رجاءٍ، وييأسُونَ كلَّ اليأسِ، فهُم ماكِثُونَ.

فإن قالَ قائلٌ: هل النَّارُ كالجنَّةِ مؤبَّدَةٌ، أم يلْبَسُونَ فيها سِنِينَ عدِيدَةً، ثم تُخْمَدُ ومن فيها؟

فالجوابُ: هِي مؤبَّدَةٌ، وهذا أمرٌ قَطْعِيٌّ لا إشكالَ فيه، ولا ينْبَغِي أن يكونَ فيهِ إشكالٌ؛ لأن اللهَ قالَ: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨] فَهِي مؤَبَّدَةٌ، وصرَّحَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بأنهم مخلَّدُونَ فيها أبدًا في ثلاثَةِ مواضِعَ مِنْ كلامِهِ العَظِيمِ:

الموضِعِ الأَوَّلِ: قالَ تعالى في سورةِ النِّساءِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩] أَتُرِيدُونَ أَصْدَقَ مِنْ هذا؟ وقد جاءَ هذا الكلامُ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ، العَالمُ بما يقُولُ، الخالِقُ لما يُريدُ.

الموضِعِ الثَّاني: قالَ تعالى في سورَةِ الأحزابِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

الموضِعِ الثالثِ: قالَ تعالى في سُورَةِ الجنِّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]، وإذا كان كَذلِكَ فلا مجالَ للشَّكِّ، ولا للتَّشْكِيكِ، ولولَا أنَّه قيلَ: إن في ذلِكَ قوْلًا. لأنْكَرْنَا هذا غايَةَ الإنْكارِ، والمَرَدُّ عند ذلِكَ إلى اللهِ ورَسولِهِ، والقُرآنُ صريحٌ، والجنَّةُ أيضًا جاءتْ في بَعْضِ الأحاديثِ في ذِكْرِ التَّقْييدِ المؤبَّدِ.

فإن قالَ قائلٌ: أليسَ اللهُ يقولُ: ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ:٢٢]، والأحْقابُ: جمعُ حُقُبٍ، وهو الزَّمَنُ أي: أزْمَانًا؟

فالجوابُ: أن معنى الآيةِ: لابِثِينَ أحقَابًا كثيرةً لا نِهايةَ لها، ويدُلُّ على مرادِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الآياتُ الأُخْرَى الدَّالَّةُ على التَّعبيرِ الصَّريحِ.

وبعضُهُم أجابَ بجوابٍ آخرَ، فقالَ: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ:٢٤] وأحْقَابًا أخْرَى على خلافِ ذلِكَ، لكن يَكْفِينَا قولُنَا إنَّها أحقابٌ لا نِهايةَ لهَا، كما دَلَّتْ عليه الآياتُ الأخْرَى.

فإن قالَ قائلٌ: أليسَ اللهُ يقولُ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، وقالَ في أهْلِ الجنَّةِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] فَفرَّق بينهُما؟

قلنا: التَّفْرِيقُ بينهُما هُو الأَوْجَبُ، والمعنى: لكن ما شاءَ ربُّكَ زيادةً على ذلك فَهُو واقِعٌ.

وأما قولُهُ في أهْلِ الجنَّةِ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]، وقولُهُ في أهلِ النَّارِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] فَفِي غايَةِ المُماثَلَةِ؛ لأنَّ آيةَ أهلِ النَّارِ كأن مَوْرِدًا أَوْرَدَ: كيفَ يفعَلُ الله ذلِكَ؟ كيف يفْعَلُ اللهُ بهؤلاءِ هذَا العذابَ المؤبَّدَ؟ فقالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] في آيَةِ أهلِ الجنَّةِ، فالمقامُ مقامُ عطَاءٍ، فقالَ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] أي: غَيْرَ مقْطُوعٍ، بل هو دَائمٌ.

فإذا قالَ إنسان: أعمارُ بَنِي آدَمَ الأَوَّلِينَ طويلَةٌ، فنُوحٌ لَبِثَ في قومِهِ يدْعُوهم إلى اللهِ ألفَ سنَةٍ إلا خَمسينَ عامًا، وأعمارُ هذِهِ الأُمَّةِ ما بينَ السِّتِّينَ إلى السَّبْعِينَ غالبًا، فكيف يجازِيهِمُ اللهُ سُبحَانَهُوَتَعَالَى بعذابٍ مؤبَّدٍ أبدَ الآبِدِينَ وأعمارُهُم قَصِيرَةٌ؟ والجوابُ: هؤلاء لم يظْلِمْهُمُ اللهُ، بل أعْذَرَ لهم، وأرْسَلَ الرُّسَلَ، وأنزلَ الكُتُبَ،

وبيَّنَ الأمرَ، وأوْضَحَهُ، فليس في هذا ظُلْمٌ.

أرأيتَ لو أنَّ إنسانًا قال لكَ: إذا مَشِيتَ في هذَا الطريقِ فسوْفَ تَقَعُ في نارٍ. فأَبَيْتَ إلا أن تمْشِيَ في الطَّرِيقِ، وهذا الذِي حذَّرَكَ هو الَّذِي أوْقَدَ النَّارَ، فهَلْ هو غاشٌّ لكَ أو ظَالمٌ؟ أبدًا، بل بَيَّنَ لهُمُ الأمرَ ووضَّحَ، فيكونُ هؤلاءِ الَّذِينَ بَقُوا في النارِ أبَدَ الآبِدِينَ قد أعذَرَ اللهُ إليهِمْ، وبيَّنَ لهم، وأنزلَ الرُّسُلَ، وأنْزَلَ الكُتُبَ، وقالَ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

إذن، مِنْ عَقِيدَتِنَا الثابِتَةِ الراسِخَةِ أن أهلَ الجنَّةِ مخلَّدُونَ فيهَا أبدَ الآبِدِينَ، وأن أهلَ النَّارِ مخلَّدُونَ فيها أبَدَ الآبِدِينَ، هذِهِ عَقِيدَتُنَا التي نَرْجُو اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن نَلْقَاهُ ونَحْنُ عليهَا؛ لأنها هي مُقْتَضَى كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وكلامِ رَسولِهِ.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧] (مَا) هُنا استِفْهَامِيَّةٌ، والمرادُ بالاستِفْهَامِ التَّهويلُ والتَّعظِيمُ، أي: أيُّ شيءٍ أدْراكَ بهذا اليومِ العظيمِ. و(أدراكَ) أي: أعْلَمَكَ، والخِطابُ للنَّبيِّ ﷺ، وقد سبَقَ لنَا التَّفْصِيلُ في الخِطابِ الموَجَّهِ للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وذَكَرْنَا أنه ثلاثةُ أقسامٍ:

الأوَّلُ: أن يُوجدَ دَلِيلٌ على أن المرادَ بِهِ هو وحْدَهُ. ومثالُهُ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، فهذا خاصٌّ بِهِ، ولا يمكِنُ أن يكونَ للأُمَّةِ.

الثاني: أن يُوجَدَ دليلٌ على أن المرادَ بِهِ هو وأمَّتُهُ. ومثالُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١] فالخِطابُ هو للخُصوصِ، ثم وُجِّه إلى عُمومِ النَّاسِ.

الثالث: أن لا يُوجَدَ دَلِيلٌ. وهذا كثيرٌ، ومِنْهُ هذِهِ الآيَة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧]، أي: ما أعْلَمَكَ أيها النَّبيُّ، أو ما أعْلَمَكَ أيها الإنسانُ، للعُمومِ.

والفِعْلُ (أدْرَى) ينْصِبُ ثلاثَةَ مفاعِيلَ، وهِي في هذِهِ الآيَةِ: المفْعُولُ الأوَّلُ الكاف الضَّمِير، وجملَةُ ﴿مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ فالمبتَدَأُ والخَبَرُ سدَّ مَسَدَّ مفْعُولي أدْرَى الثاني والثالث.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار:١٩] في ذلِكَ اليومِ لا تمْلِكُ نَفْسٌ لنَفْسٍ شيئًا، فالأبُ لا يَمْلِكُ إنقاذَ ابنِهِ، والأمُّ لا تَمْلِكُ إنقاذَ ابنَتِهَا، ولا أحدَ يمْلِكُ لأحدٍ شَيْئًا، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧].

فَفِي الدُّنْيا مثلًا لو شبَّ حَرِيقٌ تَجِدُ الأمَّ تَفْدِي ابنَتَهَا بنَفْسِهَا، لكن في الآخِرَةِ لَا، فكُلُّ إنسانٍ مشغولٌ بنَفْسِهِ.

﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩] ليس هناكَ مَلِكٌ ولا رَئيسٌ ولا وزِيرٌ ولا أمِيرٌ، ليس لأحدٍ أمرٌ إلا للهِ عَزَّوَجَلَّ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ [غافر:١٨]، والآزِفَةُ هي الساعَةُ القَرِيبَةُ، مِنْ أَزِفَ الشيءُ إذا اقْتَرَبَ، قالَ الشاعِرُ[1]:

أَزِفَ التَّرَحُّــلُ غَـيْرَ أَنَّ رِكَابَنَــا ... لَــمَّا تَـزُلْ بِرِحَالِنَــا وَكَــأَنْ قَــدِ

فأَزِفَتْ أي: قَرُبَتْ، كَما قالَ تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣].

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٨-١٩] قبله فيها: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]،

---

(١) البيت للنابغة، انظر: البيان والتبين (٢/ ١٩٢).

وهذَا معْنَى قولِهِ: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩].

انتَهى الكلامُ على هذِهِ السُّورَةِ العظِيمَةِ، وأنَا أحُثُّكُمْ على تَدَبُّرِ القرآنِ وتَفَهُّمِ مَعانِيهِ؛ لأنَّه أُنْزِلَ عليكُمْ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، لَمْ يَقُلْ: لِيقْرَؤوه فقَطْ، بلْ قالَ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. فبَيَّنَ اللهُ تعالى الحِكْمَةَ مِنْ إنزالِ القُرآنِ، وهو التَّدَبُّرُ ثُمَّ العَمَلُ.

ولكن عليكُمْ بالتَّفاسِيرِ الأثَرِيَّةِ، كتفْسِيرِ ابنِ كَثِيرٍ، وتفسيرِ الشيخِ عبدِالرحمنِ السَّعْدِي، وما أشْبَهَهَا من هذه التفاسيرِ المضمُونَةِ في العقِيدَةِ والفِكْرِ، وغيرِ ذلك. واحذروا التفاسِيرَ الَّتِي يُخْشَى منها، إما في العقيدَةِ كتَفْسِيرِ بعضِ المعتَزِلَةِ، كالكشَّافِ وهو تَفْسِيرُ الزَّمَخْشَرِيِّ، فهو تفسيرٌ جيِّدٌ، لكن في عِلْمِ اللُّغَةَ: بلاغَةً وإعْرابًا وتَصْرِيفًا، وغير ذلك، والمفَسِّرُونَ الذين مِنْ بعدِهِ، والذين ينْحُونَ منْحَاهُ، كلُّهُم عيالٌ عليهِ، يأخُذُونَ من كلامِهِ، لكِنْ فيه اعتِزَالٌ، وهذا مشْكِلٌ، فهو يفَسِّرُ القرآنَ على مذهَبِ المعتَزِلَةِ، وهذه مشكِلَةٌ، فالطالِبُ الذي لا يُدْرِكُ حقِيقَتَهُ يسيرُ وراءَهُ معْجَبًا بقُوَّةِ أُسْلُوبِهِ حتى يهْلِكَ، فاحذروا مثْلَ هذه التفاسِيرِ، وعليكُم بالتفاسِيرِ الأثَرِيَّةِ.





سورة المُطفِّفِينَ

الدرس الأولُ:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خَاتمِ النَّبيينَ وَإمامِ المتقينَ، وَعلى آلِهِ وأَصْحَابِه، ومَنْ تَبِعهم بِإحسانٍ إلَى يومِ الدينِ، **أمَّا بعدُ**:

قالَ اللهُ تَعَالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:١-٦].

هذهِ السُّورةُ ابتَدَأَها اللهُ تَعَالى بِالوَعِيد بِالويلِ، وهيَ كَلمةٌ إمَّا أنْ يُرادَ بِهَا وادٍ فِي جهَنَّم، وإمَّا أنَّها كَلمةُ وَعيدٍ وَتهديدٍ؛ وَلِهَذا ابتُدِئت بِالتَّنكيرِ الدَّالِّ عَلَى التَّعظيمِ، وبيَّنَ اللهُ أنَّ المطففينَ هُمُ الَّذينَ يُريدونَ منَ الناسِ كَمَالَ حُقُوقِهم، ولكنَّهُم يَهْضِمونَ الناسَ حقَّهم.

﴿ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ يَعْني استَوْفوا حقَّهم بِالكيلِ، يَسْتَوفون الحَقَّ كاملًا، ولكنَّهم إذَا كَالُوا النَّاسَ، أَي: إذَا كَالُوا لِلنَّاسِ مَا يَجبُ للنَّاسِ عَلَيْهم، أَو وَزَنُوهم، أَي: أَو وَزَنوا لَهُمْ؛ يُخْسِرونَ الكيلَ وَالميزانَ، فيُرِيدون أَنْ يَكونَ حقُّهُم كاملًا، وأَنْ يَنْقُصُوا النَّاسَ حُقُوقَهمْ.

ويَجبُ عَلَيْنا أَلَّا نَنْظرَ إِلَى هذِهِ الآياتِ عَلى أَنَّها خَاصةٌ فِي الطَّعامِ الَّذي يُكالُ

أوِ الَّذي يُوزنُ، ولكنَّها مَثَلٌ لكلِّ مَن أَراد منَ النَّاسِ أَنْ يُوفُّوه حقَّه كَاملًا ولكنَّهُ يَنْقُصُهم حُقُوقَهم.

فمنْ ذَلكَ مَا يَكونُ بَيْنَ طَلبةِ العِلْمِ، فإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُريدُ أَنْ يَكونَ الناسُ تبعًا لَه، وَيَهْضمُهم حَقَّهم، ويَغْمِطُهم اجتِهَادَهم، ولَا يَرَى لِأَقْوَالِهم شَيئًا منَ الحظِّ والنَّصيبِ إِذَا كانتْ تُخَالفُ مَا يَراهُ هُو بِنَفسه، فَيريدُ منَ الناسِ أَنْ يَكُونوا تَبعًا لهُ، ولَا يَتْبَعُ الناسَ حتَّى فِيما هو الحقُّ؛ لأَنَّه يَرَى أَنَّه شِبْهُ مَعصومٍ، وأنَّ غيرَهُ مُعَرَّض لِلْخطأِ.

وهذَا لهُ نَصيبٌ مِنْ هذه الآيةِ؛ لأَنَّه يَعْذِرُ نَفسَهُ بِاجتهادِهِ، ولَا يَعذرُ النَّاسَ باجتِهَادهمْ، وقَد سَبقَ وأَنَّ نَبَّهنا عَلى هذَا كَثيرًا، وقُلْنَا: إِنَّ الإِنسانَ الَّذي يَرَى أنَّه عَلى صَوابٍ فِي اجتهادِهِ، يَجبُ أَن يَقْدُرَ الناسَ قَدْرَهم، وأَلَّا يَرى أَنَّهم عَلى خطأٍ فِي اجتهادِهِمْ؛ لأَنَّهُ إِذَا رَأَى ذَلك -أَي: رَأَى أَنَّه عَلَى صَوابٍ فِي اجتِهَادِهِ وأَنَّ غَيرَهُ عَلى خطأٍ فِي اجتهادِهِ- فَهذَا هو المطففُ، الَّذي إِذَا اكتالَ عَلَى النَّاسِ استَوْفَى، وإِذَا كَالَهُم أَخْسَرَ.

ثمَّ ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي هذه الآيةِ أنَّ الناسَ قِسمانِ: فُجَّارٌ، وأبرارٌ، أَمَّا الفُجَّار فَالمرادُ بِهِم هنَا الكفَّارُ، فَكِتابُهم فِي سِجِّين، فِي الأَرضِ السُّفْلى؛ لأَنَّه فِي النَّارِ.

وأَمَّا الأبرارُ فَفِي عِلِّيِّينَ، فِي أَعْلَى مَكانٍ؛ لأَنَّهُم فِي الجنةِ، والجنةُ مِنْها الفِرْدوسُ، والفِردوسُ أَعْلَى الجنةِ، وَسَقفه عَرشُ اللهِ جَلَّوَعَلَا، فالجنةُ فِي أَعْلَى عِلِّيينَ، والنارُ فِي أَسْفَلِ سافلينَ.

وذَكَرَ اللهُ تعالى فِي آخرِ السُّورةِ أنَّ هناكَ قَومًا مُجْرمينَ، يَضْحكونَ منَ المؤمنينَ

وَيَسْتهزئون بِهِمْ، وإذَا مَرَّ بِهِمُ المؤمنونَ تَغَامزوا بِهم سُخريَةً واستِهْزاءً، وإذَا رجَعوا إِلَى أَهْلِهم رَجَعوا مُتفكِّهين بِما نَالُوا منَ المؤمنينَ منَ السُّخريةِ والاستِهْزاءِ، وإذَا رَأَى هَؤُلاءِ الذينَ آمنُوا قَالُوا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢]، أَي: مُنْحَرفون عَنِ الحقِّ، مُجَانبونَ للصَّوابِ، وهذهِ الكلمةُ الَّتي ذَكَرهَا اللهُ اليومَ ذَكرهَا اللهُ عمَّن سَبقَ منَ المجرمِينَ الَّذينَ أَجْرَموا هذَا الجرمَ، فإنَّ كثيرًا منَ المجرمينَ يَرون أنَّ المؤمنينَ مُتَأخرينَ، وأنَّهم رَجعيُّون، وأنَّ هَؤُلاءِ الذينَ عَزَفوا عنِ الصِّراطِ المستَقِيمِ هُمُ التَّقدميُّونَ، وهُمُ الَّذينَ عَلى حقٍّ، وهُمُ الَّذينَ يَقُودونَ المجتمعَ إِلَى التقدمِ والازدِهارِ، وَالحقيقَةُ أنَّهم يَقُودونَ المجتمَعَ إِلَى الهاوِيَةِ، وَإِلَى ضَلالٍ فِي العقيدَةِ وَإِلَى خَطأٍ فِي الفكرِ، وَانحرافٍ فِي العملِ، كلُّ مَا يَدَّعونهُ تَقدُّمًا -وهوَ مُخالفٌ لِلشَّرعِ- فإنَّهُ مُتأخِّرٌ، ولكنْ لَا يَزالونَ يَسْخَرون بِالمؤْمِنينَ.

وَموقفُ المؤمنِ مِنْ هَؤلاءِ يَجِبُ أنْ يَكونَ مَوقفَ الصَّارمِ الصَّامدِ، الَّذي لَا تُزَحزحهُ هَذهِ العَواصفُ، وسوفَ تكونُ العاقبةُ لِأَهلِ الحقِّ، طالَ الزمنُ أَمْ قصُرَ؛ لقولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، فَالعاقبةُ لِلمتَّقينَ، إمَّا فِي الدُّنيا وَالآخرةِ، وإمَّا فِي الآخرةِ؛ وَلِهَذا قالَ اللهُ تَعالَى فِي آخرِ السُّورةِ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٣٤].

وكانَ الكفَّارُ الذينَ أَجْرَموا يَضْحَكون فِي الدُّنيا منَ المؤْمنينَ؛ لكنَّهم يَضْحكونَ ضَحِكًا بعدهُ بكاءٌ، أَمَّا هَؤلاءِ المؤْمِنونَ فإنَّهُم يَضْحَكون يَوْمَ القيامةِ منَ المجرمينَ ضَحكًا لَا بكاءَ بَعدهُ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٦].

رُؤيةُ المؤمنينَ للهِ تعالى يَوْمَ القِيامةِ:

وفِي هذه الآيةِ منْ صِفاتِ اللهِ: إِثباتُ رُؤيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أيْ: إنَّ اللهَ تعالى يُرى؛ ولكنَّ رُؤيةَ اللهِ لَا تكونُ إلَّا فِي الآخرةِ، ورُؤيةُ المؤمنِينَ للهِ عَزَّوَجَلَّ فِي الآخرَةِ ثَابتةٌ فِي القرآنِ، وفِي السُّنةِ، وإجماعِ السَّلفِ، ولَم يُنكرْهَا أَحدٌ منْ سلفِ الأمةِ، فَفِي كِتابِ اللهِ عدةُ آياتٍ تَدل عَلى أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُرى يومَ القيامةِ، مِنْهَا هَذهِ الآيةُ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، الضَّميرُ فِي قولِهِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ﴾ يَعودُ إِلَى الفُجَّارِ.

وإِذَا كان الفُجَّارُ مَحْجوبِينَ عنِ اللهِ دلَّ عَلى أنَّ الأبرارَ غَيرُ مَحْجوبينَ عنِ اللهِ؛ لأنَّهُمْ لَو حُجِبُوا عنِ اللهِ لَمْ يكنْ بَيْنهم وَبَيْنَ الفُجَّارِ فَرقٌ، ولَما كان لِلتَّنْصيصِ عَلى حَجْبِ الفُجَّارِ عنِ اللهِ فائدةٌ، ولَا نَعلمُ فائدةً لِهَذَا إلَّا أنَّ الأبرارَ يَنْظرونَ إِلَى اللهِ.

وَلِهَذَا قالَ الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا حُجِبَ عَنْهُ الفُجَّارُ فِي حَالِ السَّخَطِ؛ إِلَّا لِيَرَاهُ المُؤْمِنُونَ أَوِ الأَبْرَارُ فِي حَالِ الرِّضَا»(١).

ومِنْ هذه الآياتِ الدَّالةِ عَلى رُؤيةِ اللهِ تعالى يَوْمَ القيامَةِ قَولهُ تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٥]، فإنَّ هذه الآيَةَ يَستدلُّ بِها أهلُ السُّنةِ عَلَى رُؤيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ووجهُ ذَلك أنَّه حُذفَ فِيهَا المفعولُ، أَي: لَمْ يُذكرِ المنظورُ إِلَيْهِ، وإذَا كَانت فِي مَقامِ الثَّناءِ وَمقامِ المدحِ؛ فإنَّ أَعظمَ مَا يُنظرُ إِلَيْهِ وأَفضلَ مَا يُنظرُ إِلَيْهِ، وألذَّ مَا يُنظر إِلَيْه هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ وَلِهَذَا لَا يجدُ المؤمنونَ أَلذَّ منَ النَّظر إِلَى وَجهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أسألُ اللهَ أنْ لَا يحرِمَنَا إِيَّاهَا.

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٦٠، رقم ٨٨٣)، ونصه: قَالَ الشَّافِعِيُّ: فَلَمَّا أَنْ حُجِبُوا هَؤُلَاءِ فِي السَّخَطِ كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا.

ومنْ ذَلك أَيْضًا قَولهُ تَعَالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] فقالَ فِي الأُولى: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ بِالضَّادِ، وقالَ فِي الثَّانية ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بالظَّاء، والفرقُ بَيْنَهما أنَّ الأُولى منَ النَّضْرَةِ أَو منَ النَّضارةِ وهيَ الحُسنُ، والثَّانيةُ منَ النظَرِ وهوَ الرُّؤيةُ، تَقولُ: نَظرتُ إليهِ: إذَا رأيتَه.

فَفِي هذه الآيةِ دَليلٌ عَلى أنَّ المؤمنينَ يَنظرونَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهِيَ الوجوهُ النَّاظرةُ؛ لأنَّ الوجوهَ النَّاضرةَ هيَ وُجوهُ المؤمنينَ كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس:٣٨-٣٩].

ومنْ ذلكَ أَيضًا قولهُ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ [يونس:٢٦]، فقدْ فَسَّر النبيُّ ﷺ الزِّيادةَ بأنَّها النَّظرُ إِلَى وجهِ اللهِ الكَريمِ[1]، ومنَ المعلومِ أنَّ تَفسيرَ النَّبيِّ ﷺ لِلقرآنِ هو أَقْوَى مَا يُفَسَّر بهِ القرآنُ، بعدَ تفسيرِ القرآنِ بِالقرآنِ؛ لأنَّ القرآنَ يُفسرُ إمَّا بكلامِ اللهِ، أَو بكلامِ الرَّسولِ، أَو بِكلامِ الصَّحابةِ، أَو بِكلامِ التَّابعين، أَو بِكلام الأئمةِ والعلماءِ مِنْ بَعْدِهِمْ.

وأعلَى أَنواعِ التَّفسيرِ تَفسيرُ القرآنِ بِالقرآنِ، ثمَّ تَفسيرُهُ بِالسنةِ، فإِذَا كان النبيُّ ﷺ فسَّر الزِّيادةَ بأنَّهَا النَّظرُ إِلَى وَجهِ اللهِ؛ تعيَّنَ أنْ يَكونَ هذَا هو المرادُ بِهَا؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلمُ النَّاسِ بِمَعاني كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا السنةُ فَقَد تَواترتِ الأَحاديثُ عَن رَسولِ اللهِ ﷺ بِرؤيةِ المؤمنينَ للهِ عَزَّوَجَلَّ عِيانًا بِأَبْصارهِمْ، قالَ النبيُّ ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَكَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ**

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، رقم (١٨١).

وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»[(١)].

والصَّلاةُ الَّتي قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمسِ هِي صَلاةُ الفجرِ، والصلاةُ الَّتي قَبل غُروبها هِيَ صَلاةُ العصرِ؛ وَلِهَذا جَاءَ فِي الحديثِ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ»[(٢)]. البَرْدَانِ: الفجرُ والعصرُ؛ لأنَّ الفجرَ فِي برادِ الليلِ، والعصرُ فِي برادِ النَّهارِ، وقَد أَنْشَدوا أَبياتًا فِيها ذِكْرُ الرُّؤيةِ وأنَّهَا مُتواترةٌ[(٣)]:

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبْ ... وَمَنْ بَنَى للهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبْ

وَرُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالحَوْضُ ... وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

مِما تَواتر: يَعني أنَّ هُناك أَحَاديثُ مُتَواترةٌ غَيرُ هَذِهِ؛ وَلِهذا قالَ: «مِما تَواتَرَ»، وقالَ فِي النِّهايةِ: «وهذِي بعضُ»، فَمِما تَواترتْ بِهِ الأحادِيثُ رُؤيةُ المؤمنينَ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولمْ يُنكرْهَا أحدٌ منْ سلفِ الأُمَّةِ، وإِنَّما حَدثَ إِنْكارهَا بعدَ انقضَاءِ القُرونِ الثَّلاثةِ المفضَّلةِ، ولَا شكَّ أَنَّ مُنكرهَا حَريٌّ بأنْ يُحْرَمَهَا يَومَ القيامةِ، وألَّا يَرَى رَبَّهُ؛ لأَنَّه يَعتقدُ أَنَّ اللهَ لَا يُرَى، معَ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَكَّد ذَلِكَ بِنَفسِه فِي كتابِهِ، وأَثْبته لَهُ رَسولُهُ ﷺ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم (٥٧٣)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم (٥٤٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (١٠١١).

(٣) ذكره الكتاني في نظم المتناثر (ص:١٨)، نقلًا عن الشيخ أبي الله محمد التاودي (ت ١٢٠٩هـ) في حواشيه على الجامع الصحيح.

الدرسُ الثاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأَشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قولُه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين:١-٣].

قولُه: ﴿وَيۡلٞ﴾: كلمةُ وعيدٍ يُتوعدُ بها الناسُ.

قولُه: ﴿لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾: المطففونَ بيَّنَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾، وهذا مِن تفسيرِ القرآنِ بالقرآنِ.

فالمطففونَ هُمُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ﴾ فإذا كَالُوا لَهُم، ﴿أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾ أو وزَنُوا لهمْ، ﴿يُخۡسِرُونَ﴾، فهم يُنقصونَ، فهذا المُطَفِفُ، إن كان الحقُّ لهُ استوفاهُ كاملًا، وإن كان الحقُّ عليهِ نقصَ فيهِ، وهذا ليسَ خاصًّا فيما يُكالُ ويوزنُ، إنما هو على سبيلِ المثالِ، والحكمُ عامٌّ في جميعِ الحقوقِ، لكن الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ ذكرَ الكيلَ والوزنَ على سبيلِ المثالِ.

فالموظفُ إذا جاءَ لأمينِ الصندوقِ وكانَ راتبُه عشَرَةَ آلافِ ريالٍ، وأعطاهُ عشرةَ آلافِ ريالٍ إلا ريالًا واحدًا، فيقولُ الموظفُ لأمينِ الصندوقِ باقٍ ريالٌ أعطِني

إياهُ، ولكن هذا الموظفُ تجدهُ يأتي بعدَ بدءِ الدوامِ بساعةٍ، ويخرجُ قبلَ نهايةِ الدوامِ بساعةٍ، فهذا يُعدُّ منَ المطففينَ.

فإذا اكتالَ على الناسِ استوفى، فإذا أَتى إلى أمينِ الصندوقِ قالَ أعطني حقِّي كاملًا، لكن عندَ أداءِ الوظيفةِ لا يُؤدِّيها على الوجهِ الكاملِ، فيتأخرُ على بدايةِ الدوامِ، أو يتقدمُ قبل انتهاءِ الدوامِ، وربَّما يأتي في أولِ الدوامِ، ولا يخرجُ إلا في آخرِ الدوامِ، ولكن إذا جاءَهُ الناسُ يراجعونَه فإذا هو مشغولٌ في التليفونِ بأمورٍ خاصةٍ، فهذا يعتبرُ مُضيعًا للواجبِ، ومِنَ المُطففين، فهذا الرجلُ يُفرط في حقِّ الدولةِ، مُقصرٌ في حقِّ الشعبِ، فهو جَامعٌ بينَ التَّفريطِ، وبينَ العدوانِ.

عكس ذلكَ قومٌ نزيهونَ بريئونَ حريصونَ على إبراءِ الذمةِ، يأتونَ في أولِ الدوامِ، ويخرجونَ في آخرِ الدوامِ، ويقولونَ ليسَ عندنا عملٌ الآنَ فهل يجوزُ أن نقرأَ القرآنَ، فيجوزُ لأنهُ لم يُفرطْ ولم يَعتدِ.

ويقولُ ليسَ عندي عملٌ الآنَ هلْ يجوزُ أن أصليَ ركعتيِ الضحَى؟

نقولُ: نعمْ لكن لا تتعدَّى مكانَ العملِ، صلِّ في مكانِ العملِ، في الغرفةِ التي أنتَ تعملُ فيها، حتى إذا جاءَ أحدٌ وجدَكَ حاضرًا.

فالتطفيفُ ضابطُه أن يأخذَ الإنسانُ بجميعِ حقوقِه، وأن يُنقصَ الحقوقَ التي عليهِ، فالرجلُ معَ زوجتِه يُطالبُها أن تقومَ بكلِّ حقوقِه، ويُقصرُ في حُقوقِها فنسمِّيه مُطففًا، فكلُّ مَن طَالبَ بحقِّه وقَصَّرَ في حقِّ الآخرينَ فإنهُ مُطففٌ ولهُ هذا الوعيدُ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٤-٦].

قولُه: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ الظنُّ هنـا بمعنى اليقينِ، أي: أفـلا يتيقنُ هؤلاءِ أنهم مبعوثونَ ليومٍ عظيمٍ، وهذا اليومُ يومَ يقومُ الناسِ لربِّ العالمينَ، ويكونُ قيامُهم كما وصفَهُم اللهُ عَزَّوَجَلَّ في قولِه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، يأتونَ كما خُلقُوا في بطونِ أُمهاتِهم حُفاةً عُراةً غُرلًا، وكذلكَ وصفَ النبيُّ ﷺ قيامَ الناسِ يومَ القيامةِ «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»(١). حُفاةً: غيرَ مُتعلينَ، عُراةً: غيرَ مُكتسينَ، غُرلًا: غيرَ مُختونين، وفي بعضِ ألفاظِ الحديثِ «بُهمًا»: قالَ العلماءُ أي ليسَ معهُم مالٌ، لأن اللهَ قالَ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤].

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ حُفاةً عُراةً غُرلًا، «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ»(٢)، قالَ الراوِي: لا أدرِي أرادَ بالميلِ المسافةَ، أو أرادَ به ميلَ المُكحلةِ، وسواءٌ هذا أو هذا فإن الشمسَ تكونُ قريبةً منَ العبادِ.

فإن قيلَ: كيفَ يَبقَى الناسُ، والشمسُ منهمْ بهذا القُربِ؟

فالجوابُ: أن أحوالَ الآخرةِ لا تقاسُ بأحوالِ الدنيا، أليسَ الرجلُ في الجنةِ ينظرُ إلى مُلكِه في الجنَّةِ مسيرةَ ألفِ عامٍ، يَنظرُ أَقصاهُ كما ينظرُ أدناه، لكن في الدنيا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، رقم (٢٨٦٤).

لا يَقدِرُ على هذا، فأنتَ وظيفتُك فيما أخبرَ اللهُ بهِ ورسولُه من أمورِ الغيبِ أن تقولَ: آمَنا وصَدَّقْنَا، ولا تقولُ كيفَ ولمَ؛ لأن هذَا ليسَ لكَ.

فيومُ القيامةِ المؤمنونَ يسعَى نورُهم بينَ أيدِيهم وبأيمانِهم والمكانُ واحدٌ، ومعَ ذلكَ فالكفارُ في ظُلماتٍ، ومِنَ الناسِ من يَعْرَقُ حتى يصِلَ العَرقُ إلى كَعبيهِ، وبعضُهم إلى رُكبتيه، وبعضُهم إلى حِقويهِ، وبعضُهم إلى الوجوهِ، وهمْ في مَقامٍ واحدٍ، وفي موضعٍ واحدٍ، ويختلفونَ هذا الاختلافَ، فموقفُنا من هذا الاختلافِ هو التصديقُ، وألَا نقيسَ أحوالَ الآخرةِ بأحوالِ الدنيا.

فالربُّ عَزَّوَجَلَّ فوقَ كلِّ شيءٍ، عالٍ على كلِّ شيءٍ، وينزلُ آخرَ الليلِ إلى السماءِ الدنيا، فيقولُ «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[1]. ولا يمكنُ أن نقولَ كيفَ ينزلُ وهو عالٍ على كلِّ شيءٍ، فوظيفتُك أن تقولَ آمنَّا وصَدَّقْنَا، أما كيفَ ولمَ في أمورٍ غيبيةٍ فهذا لا يُردُّ عليهِ.

وما غُرَّ مَن غُرَّ منَ الناسِ المُنكِرين لمثلِ هذه الأمورِ إلا أنَّهم قاسُوا الغائبَ على الحاضرِ المشاهَدِ، فضلُّوا، ولو أنهُم سَلكُوا مَسْلَكَ الإيمانِ والتصديقِ والإذعانِ، لَسَلِموا من هذه البدعِ التي ابتدعُوها في أسماءِ اللهِ وصفاتِه، وأمورِ اليومِ الآخِرِ.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٢].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

ثم قَسَّمَ اللهُ الناسَ في هذه السورةِ إلى قسمينِ: أبرارٍ، وضدهم الفجارُ، وبينَ ثَوابِ كلِّ واحدٍ منهم، ويهمُّنَا من هذه السورةِ قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾

انتبهُوا للضمائرِ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾، المجرمُ يَضْحَكُ منَ المؤمِنِ، ووصفَ اللهُ كلَّ مَن يَضْحَكُ منَ المؤمنينِ بأنهُ مجرمٌ، فإذا رأيتَ أَحَدًا يَضْحَكُ من فِعْلِ المؤمنِ بما يوافقُ الكتابَ والسنةَ فصفهُ بأنهُ مجرمٌ، فإذا ضَحِكَ إنسانٌ على شَخْصٍ مطبقٍ للشريعةِ كإعفاءِ اللحيةِ، فهذا مجرمٌ، لأن اللهَ قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾

أحيانًا يَمُرُّ المجرمُ بالمؤمنِ وهوَ جالسٌ، فإذا مَرُّوا بهم تَغامزُوا، أو بالعكسِ، فقد يكونُ المؤمنُ هو الذي يَمُرُّ بالمجرمِ، فالضمائرُ هنا صالحةٌ لهذا وهذا.

قولُه: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾

المُنْقَلِبُ هو المجرمُ، يَنْقَلِبُ لأهلِه، ويرَى أنهُ مُتَنَعِّمٌ بِضَحِكِه مِنَ المؤمنِ، إذا رَأَى المُجْرِمُونَ المؤمنينَ قالوا: إن هؤلاءِ لضالونَ.

الآنَ اختلفَ الأسلوبُ، صَارُوا يَقُولُونَ: هؤلاءِ رَجْعِيُّونَ. والآيةُ تقولُ هؤلاءِ ضَالُّونَ، فالمعنى واحدٌ، وإنِ اختلفتِ العبارةُ، جاءتْ عبارةٌ جديدةٌ جاءَ بها النصارى، مثلَ أن يقولوا: هؤلاءِ أُصُولِيُّونَ، أو هؤلاءِ متشددونَ، أو هؤلاءِ متطرفونَ، أي

على طرفِ الجـدارِ يمكنُ أن يسقطُوا منَ الجـدارِ، كلُّ هذا المقصودُ منهُ تشويهُ المتمسكِ بالإيمانِ.

ونحنُ لا ننكرُ أنهُ يوجدُ منَ الإخوةِ مَن هو متشددٌ في الدينِ، كلُّ شيءٍ عندَه بدعةٌ، بل كلُّ شيءٍ عندَه كفرٌ، لكن هؤلاءِ إن قالوا: إنَّ هذا منَ الدِّينِ الإسلاميِّ، فهم مُخْطِئونَ في ذلكَ، ولا نَقُولُ: إنَّهم مِنَ الكفارِ كما يُكَفِّرونَ هُم مَن شَاؤوا مِنْ عِبَادِ اللهِ، ولا إنَّهمْ ضُلَّالٌ، ولكنْ نَقُولُ: إنَّ هذَا القولَ، أو هذَا التَّصرُّفَ خطأٌ.

نحنُ لا نقولُ: إن كلَّ داعيةٍ للهِ عَزَّوَجَلَّ يكونُ على صوابٍ في طريقِ الدعوةِ، بل قدْ يُخْطِئُ كثيرًا، لكن نقولُ: إنَّ هؤلاءِ الَّذِينَ يَصِفُون الدُّعاةَ بأنهم ضَالُّونَ، أو بأنهم متطرفونَ، أو متشددونَ، أو أنهم أصوليونَ، أي يَتَمَسَّكُونَ بأصلِ دينِهم، إن كان كذلكَ فكلمةُ أصوليٍّ تَنْطَبِقُ حتى على القِسِّيسِينَ، فالقساوسةُ النصارى هُمْ أصوليونَ يَتَعَصَّبُونَ لدينِهم ويَتَمَسَّكُونَ بهِ، ولهذا عَدَلَ النَّصارَى عن كلمةِ مُسْلِمِينَ إلى كلمةِ أُصُولِيِّنَ، يعني كلمةُ مسلمين تُهَدِّدُهُم يَرْتَجِفُ النصارى منها، لا يُرِيدُونَ أن تكونَ صحوةُ المسلمينَ صحوةَ إسلامٍ، بل صحوةً أصوليةً كما يزعمونَ.

فأساليبُ المجرمينَ في قديمِ الزمانِ وحديثِه مَغْزَاهَا واحدٌ، وهوَ الحطُّ مِنْ قدرِ المتمسكينَ بدينِ اللهِ.

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في آخرِ السورةِ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤].

قولُه: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ (ال) هنا للعهدِ الذِّكريِّ، فأقربُ العهودِ في هذه الآيةِ أنهُ عهدٌ ذِكريٌّ.

فاليومَ، يعني بذلكَ اليومَ العظيمَ الذي يقومُ فيهِ الناسُ لربِّ العالمينَ.

قولُه: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ منَ الكفارِ، مُتعَلِّقٌ بما بعدَها لا بِما قَبْلَها والمعنى: فاليومَ الذينَ آمنُوا يَضْحَكُونَ منَ الكفارِ، ولهذا يَحسنُ أن تَقِفَ قليلًا عندَ قولِكَ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ لأجلِ أن يَعْرِفَ السامعُ أن قولَه ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ متعلقةٌ بما بعدَها، ويكونُ المعنى: فاليومَ الذينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ مِنَ الكفارِ.

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾، فرحًا وسرورًا بنعمةِ اللهِ، حيثُ لم يكونُوا مثلَ هؤلاءِ المجرمينَ، أما ضَحِكُ المجرمينَ في الدنيا فكانَ عاقبتُه البكاءَ والندمَ والحزنَ والبأسَ.

قولُه: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٥] الأرائكُ، جمعُ أريكةٍ، وهيَ السُّرُرُ الفخمةُ التي هيَ المُتَكَأُ، يَنظُرُونَ إلى ما أَعَدَّ اللهُ لهم منَ النَّعيمِ، ومِنْهُ النَّظرُ إلى وجهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفي سورةِ الصافاتِ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في أهلِ الجنةِ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات:٥٠-٥٣]، يعني كان لي في الدنيا قَرينٌ مُكذبٌ بالبعثِ يقولُ: هل تُصدقُ أننا إذا مِتنَا وكنَّا ترابًا وعظامًا نُبعثُ ونُجازَى؟ لكنِ المؤمنُ رفضَ هذا القَرينَ، ومَشَى في طريقٍ مُعاكسٍ، فآمَنَ بالبعثِ والجزاءِ.

فيقولُ الرجلُ مِن أهلِ الجنةِ، ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات:٥٤] هل هنا للتشويقِ، يعني: هلا تَطَّلِعُونَ إلى هذا القَرينِ، ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٥٥] أي رأَى قرينَه الذي كان يَقُولُ في الدنيا كيفَ تصدقُ بالبعثِ، ﴿فَرَءَاهُ

﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ في أصلِها وقعرِها، قالَ لهُ: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات:٥٦]، لتُهْلِكَني لو اتبعتُكَ، ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات:٥٧]، أي منَ المُحضَرينَ للعذابِ.

فإن قيلَ: كيفَ يكونُ مَن في أَعْلَى عِلِّيِّينَ في الجنةِ يَنْظُرُ إلى مَن هو في أسفلِ السافلينَ في النارِ؟

قُلْنَا: مِن أمورِ الدُّنْيَا ما يَشْهَدُ بإمكانيةِ ذلكَ، فالتليفزيون الآنَ، يخطبُ رئيسُ القومِ في بلدِه، ونشاهدُه نحنُ مع هذا البعدِ العظيمِ، معَ أن الصَّنعةَ صَنعةُ بشرٍ، فكيفَ بالخالقِ عَزَّوَجَلَّ.

يخاطبُه يقولُ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾، يخاطبُه وذاكَ يَسْمَعُ، وهذا ممكنٌ، لأن أحوالَ الآخرةِ ليستْ كأحوالِ الدنيا، بل في أحوالِ الدنيا ما يشهدُ لذلكَ، وهوَ الهاتفُ فيكلمُكَ مَن في أَقْصَى المشرقِ، أَوْ في أَقْصَى المغربِ، وأنتَ في بَلَدِكَ.

قولُه تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٦].

الجملةُ هنا استفهاميةٌ، والمرادُ بالاستفهامِ هنا التحقيقُ أي: إنَّ اللهَ تعالى قد ثَوَّبَ الكفارَ وجازاهُم جزاءَ فعلِهم في الدُّنْيَا، ونظيرُ ذَلِكَ قولُه تَعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١].



الدرسُ الثالثُ:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتَّقِينَ، ولا عُدوانَ إلَّا على الظالمينَ، وأشهدُ أنْ لا إِلَهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شَريكَ له، إِلَهُ الأوَّلِينَ والآخِرين، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال تَعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١-١٥].

يقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

أولًا: الكلامُ على البسملةِ هل هي من القُرآنِ أو لَيْسَتْ مِنَ القُرآنِ؟

والجوابُ: أن البسملةَ من القُرآنِ بلا شَكٍّ، وهي آيةٌ مستقِلةٌ ليستْ من السورةِ الَّتي بَعْدَها، ولا من السورةِ الَّتي قَبْلَها، ولهذا كان الراجِحُ من أقوالِ العلماءِ أن البسملةَ ليستْ من الفاتحةِ، بل هي مُسْتَقِلَّةٌ، فلو قَرَأَ الإنسانُ الفاتحةَ من قولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] إلى آخرِها فصلاتُه صحيحةٌ؛ لأن البسملةَ ليستْ من الفاتحةِ.

ويدُلُّ على أنَّها ليستْ من الفاتحةِ أنَّها لم تكنْ آيةً من أيِّ سُورَةٍ من القُرآنِ،

فكل سُوَرِ القُرآنِ فيها البسملةُ إلا (بَرَاءَةٌ)، ولا تُعَدُّ من السورةِ.

ويدُلُّ لهذا أيضًا أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لم يَكُنْ يجهرُ بها في الصَّلاةِ الجهريةِ، يعني المغربَ والعشاءَ والفجرَ، وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وأبو بكرٍ وعمرُ لا يجهرون بالبسملةِ في الفاتحةِ[1]، وهذا يدُلُّ دلالةً واضحةً على أنَّها لَيْسَتْ من الفاتحةِ؛ إذ لو كانت منها لجَهَرَ بها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كما يجهرُ ببقيةِ الآياتِ، هذا دَلِيلٌ ثانٍ.

دَلِيلٌ ثالثٌ: أنَّه ثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ مِنْ حديثِ أبي هُرَيْرَةَ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[2].

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: أنَّ اللهَ تَعَالَى قال في هذا الحديثِ: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ**»، فلْنَنْظُرْ كيف هذه القسمةُ: ثلاثُ آياتٍ للهِ، وثلاثُ آياتٍ للعبدِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما يقول بعد التكبير، رقم (٧٤٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب حجة من قال: لا يجهر بالبسملة، رقم (٣٩٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٥).

وآيةٌ بَيْنَهما:

الذي للهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٤] كُلُّ هذه حقٌّ للهِ مَحْضٌ.

والذي للعبدِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

والآيـةُ الرَّابعـةُ وهي الوُسْطَى من السبعِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] بينَ اللهِ وبينَ العبدِ. وهذا دَلِيلٌ واضِحٌ.

إذن، البسملةُ آيةٌ مُستقِلةٌ من كتابِ اللهِ، ليستْ منَ الفاتحةِ ولا مِنْ غَيْرِها من السورِ، ولكنها آيةٌ مُستقِلةٌ.

وقولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين:١] (ويل) كلمةُ وَعِيدٍ، وهي كثيرةٌ في القُرآنِ، وهي مبتدأٌ، وقولُه: ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ خبَرُ المبتدأِ مُتَعَلِّقٌ بمحذوفٍ، والتقديرُ: ويلٌ كائنٌ للمطففينَ.

ومَنِ المطفِّفُ؟

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:٢-٣] إذا اكتالوا على النَّاسِ يَستوفون: يأْخُذُونَ حَقَّهم كاملًا، وإذا كَالُوا للناسِ يُخْسِرونَ: أي يَنْقُصُون، فهم ظَلَمَةٌ يَأْخُذُون حَقَّهم كاملًا، ويُعْطُونَ حقَّ غَيْرِهم نَاقصًا.

وهل هذا الحكمُ خاصٌّ بما يُكالُ ويُوزَنُ أو بكلِّ الحقوقِ؟

الجوابُ: بكلِّ الحقوقِ، لكنَّ اللهَ تَعَالَى ذَكَرَ الكيلَ والوزنَ للتمثيلِ فقطْ، وإلا فَفِي جميعِ الحقوقِ كلُّ إنسانٍ يريدُ أن يأخذَ حقَّه كاملًا من النَّاسِ، ويُعْطِيهِمْ حَقَّهُم ناقصًا، فإنه داخلٌ في هذه الآيةِ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

والنَّاسُ في هذه المعاملةِ أربعةُ أقسامٍ:

الأولُ: مَن يَسْتَوْفِي حَقَّه كاملًا ويُوَفِّي الَّذِي عليه كاملًا، وهذا عَدْلٌ، لا إشكالَ فيه.

والثَّاني: من يأْخُذُ حقَّه كاملًا، ويَنْقُصُ حقَّ النَّاسِ، وهذا مُطَفِّفٌ.

والثَّالثُ: من يُعْطِي الحقَّ كَامِلًا إذا كان عليه، وإذا كان له تَسَامَحَ فيه، وأَخَذَهُ ناقصًا، وهذا مُحْسِنٌ.

والرَّابعُ: من يَنقُصُ الحقَّ الَّذِي عليه، والذي له، وهذا ظَالِمٌ بالنسبةِ لحقِّ الغيرِ، أما بالنسبةِ لحقِّ نفسِه فهو حُرٌّ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين:٤] يعني ألا يَتيَقَّن هَؤُلاءِ أنَّهم مَبعوثون، متى؟ ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين:٥]، واللام هنا للتوقيتِ؛ كقولِه تَعَالَى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء:٧٨].

قال: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هذا اليومُ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦] يقومون من قُبُورِهِمْ.

قولُه: ﴿كَلَّآ﴾ أي: حقًّا ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧] يعني أنَّهم

كُتِبَ عليهم أنَّهم في سِجِّينٍ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ إذا قُرِئَ عليه القُرآن ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:٨-١٣] يقول هذا إما جحودًا وإنكارًا، وإما لأنَّ اللهَ طَبَعَ على قلبِه فلا يَصِلُ إليه نورُ القُرآنِ، ويظنُّ هذا مِنَ الأساطيرِ الَّتي ليس لها فائدةٌ.

فكونُ الإنسانِ يقولُ: أساطيرُ الأولينَ نقولُ: يَحتمِلُ مَعْنَيَيْنِ:

المعنى الأولُ: أن يقولَ ذلك على سبيلِ الجحودِ والإنكارِ، وإن كان يَعتقدُ أَنَّه حقٌّ.

وإما أن يكونَ هذا اعتقادُه؛ لأنَّ اللهَ طَمَسَ على قلبِه فلا يَرى عَظَمَةَ هذا القُرآنِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾ يعني كلا ليس أساطيرَ الأَوَّلِينَ، بل هو كلامُ اللهِ ﴿بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ وهذا يُرَجِّحُ المعنى الثَّانيَ الَّذِي قُلْنَا في قولِهم: أساطيرُ الأولين: إنَّهم من أجلِ الذنوبِ الَّتي تَرَاكَمَتْ على قلوبِهم -والعياذُ باللهِ- صَارُوا لا يَعْرِفُونَ الحقَّ.

قولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] يعني: حقًّا إنَّهم لَمَحْجُوبُونَ عن اللهِ عَزَّوَجَلَّ في ذلك اليومِ، وغيرُهم غيرُ مَحْجُوبٍ، فالفجَّارُ محجوبون عن اللهِ لا يَرَوْنَه، وغيرُهم ليسوا مَحْجُوبِينَ، بل يَرَوْنَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

وهل هذه الرؤيةُ للمؤمنينَ رؤيةٌ حقيقيةٌ، أو هي بمعنى قوةِ اليقينِ؟ لأنَّ مَنْ كان على يقينٍ تامٍّ كأنَّما يشاهدُ ما تيقَّنَهُ، فنحن الآنَ نؤمنُ بأنَّ الدارَ الآخرةَ حقٌّ،

وأن الجنةَ حقٌّ، والنارَ حقٌّ، كأننا نُشَاهِدُهَا رأيَ عينٍ، فهل معنى قولِنا: إن المؤمنين يَرَوْنَ اللهَ أي: يتيقَّنُونَه، فيكونُ في قلوبِهم كالمرئيِّ بالعينِ، أو أنَّها رؤيةٌ حقيقيةٌ؟

الجوابُ: الثَّاني؛ رؤيةٌ حقيقيةٌ، فالمؤمنون يَرَوْنَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ كما يشاءُ اللهُ، أسألُ اللهَ تَعَالَى أن يجعلَني وإياكم ممن يَرَوْنَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنا ممن يَراكَ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنا لذَّةَ النظرِ إلى وجهِكَ، والشوقَ إلى لقائِكَ، في غيرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فِتنةٍ مُضِلَّةٍ.

ولقد زَاغَ قومٌ حَجَبَهم اللهُ عن الحقِّ، كما حَجَبَ الكفارَ عن رُؤْيَتِه عَزَّوَجَلَّ يومَ القِيَامَة، فقالوا: إنَّ اللهَ لا يُرى، ومُحالٌ أن يُرى. ولكنْ هَؤُلاءِ ضَلُّوا سَوَاءَ السبيلِ، ولا شَكَّ أنَّهم ضَلُّوا سواءَ السبيلِ؛ وذلك لأنَّ القُرآنَ صريحٌ، والسُّنَّةَ صريحةٌ، في أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُرَى:

الدَّلِيل الأول: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] المعجمة الأولى في (ناضرة) أختُ الصادِ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أختُ الطاءِ، إذن يَختلِف المعنى كما اختلفَ اللفظُ، ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ يعني: حَسَنَةٌ بهيَّةٌ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي تنظرُ بعينِها إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأن النظرَ إذا أُضيفَ إلى الوجهِ فالمرادُ النظرُ بالعينِ، فهذه آيةٌ صَريحةٌ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي بالعينِ، فهذا الدَّلِيلُ الأولُ.

والدَّلِيلُ الثَّاني: الآيةُ الَّتي مَعَنا: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾

قال الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «واللهِ ما حَجَبَ هَؤُلاءِ إلَّا وأولئك يَنْظُرُونَ»[1].

يعني ما حَجَبَ الفجارَ إلا والأبرارُ يَنظُرونَ.

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٦٠، رقم ٨٨٣)، ونصه: قَالَ الشَّافِعِيُّ: فَلَمَّا أَنْ حُجِبُوا هَؤُلَاءِ فِي السَّخَطِ كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا.

الدَّلِيلُ الثَّالثُ: قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس:٢٦] فسَّر أعلمُ النَّاسِ بكلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فسر الزيادةَ بأنها النظرُ إلى وجهِ اللهِ(١)، ولا يمكِنُ أن نَرى أحدًا يُفَسِّرُ القُرآنَ أعلمَ بالقُرآنِ من رسولِ اللهِ، ولا يمكنُ أن نَرَى أحدًا أعلمَ بمعاني كلامِ اللهِ من رسولِ اللهِ، وقد فسَّر الزيادةَ بأنها النظرُ إلى وجهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الدَّلِيلُ الرَّابعُ: قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في أهلِ الجنَّةِ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] نُفَسِّرُ المزيدَ بأنه النظرُ إلى وجهِ اللهِ، كما فَسَّرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الزيادةَ بأنَّها النظرُ إلى وجهِ اللهِ.

الدَّلِيلُ الخامسُ: قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٢-٢٣] ينظرونَ كلَّ ما فيه النعيمُ، وأَجَلُّ النعيمِ وألذُّه وأعظمُه النظرُ إلى وجهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فهذه خمسُ آياتٍ من كتابِ اللهِ تَدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالَى يَنْظُرُ إليه عبادُه الأبرارُ المؤمنونَ.

الدَّلِيل السادسُ من القُرآنِ: قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣] لم يقلْ: لا تراهُ، بل قالَ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾، ونفيُ الإدراكِ يدُلُّ على ثُبوتِ أصلِ الرؤيةِ لكن بدونِ إدراكٍ.

وهذه الآيةُ من العجبِ أن بعضَهم قال: إنَّها تدُلُّ على نفيِ الرؤيةِ، ولكنه

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، رقم (١٨١).

أخطأَ خطأً عظيمًا؛ إما لِعُجمتِه ولُكْنَتِه وكونِه لا يعرِفُ مَدلولَ كلامِ العربِ، أو لِعَدَمِ تأملِه، اللهُ أَعْلَمُ، لكنَّ الآيةَ عندَ التأملِ تَدُلُّ على رؤيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فهذه ستُّ آياتٍ من كتابِ اللهِ يَثبُت الحكمُ بواحدةٍ منها، فكيف وهي آياتٌ متتابعةٌ على معنًى واحدٍ.

أما السنةُ: فإن أحاديثَ السنَّةِ متواترةٌ بأن المؤمنين يَرَوْنَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، منها قولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ». وهل أوضحُ مِنَ القمرِ ليلةَ البدرِ؟ أبدًا، فالقمرُ في أولِ الشهرِ وآخِرِ الشهرِ ضعيفٌ، لكنه عند منتصفِ الشهرِ واضِحٌ، «لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ» يعني لا يَضُمُّ بَعْضُكم بعضًا فيقولُ: يا فلانُ تعالَ لِأُرِيَك، تعالَ انظرْ. لأن الشيءَ واضِحٌ كالقمرِ ليلةَ البدرِ، «فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»(١).

والمرادُ بالصلاتينِ: الصَّلاةُ الَّتي قبلَ طلوعِ الشمسِ: الفجرُ، والتي قبلَ غُروبِها: العصرُ، فهاتانِ الصلاتانِ هما أفضلُ الصلواتِ، وأفضلُهما العصرُ؛ لقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨]، وهي صلاةُ العصرِ.

ومعَ الأسفِ أن بعضَ النَّاسِ لا يُحافظُ على صلاةِ العصرِ؛ لأنَّه ينامُ بعد الظُّهْرِ، ولا يحافظُ على صلاةِ الفجرِ لأنَّه ينامُ بالليلِ، فيَسْهَرُ إلى قُربِ الفجرِ ثمَّ ينامُ إلى أن يأتيَ وقتُ العملِ، إلا مَنْ شَاءَ اللهُ.

وأَخْبَرَ النبيُّ ﷺ أَنَّنا نَرى ربَّنا عِيانًا كما نَرَى الشمسَ صَحْوًا، ليس دُونَها

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٣).

سَحَابٌ[١]، فانظرْ إلى تحقيقِ الرؤيةِ وتثبيتِها بهذا التشبيهِ، شَبَّهَ رؤيةَ اللهِ برؤيةِ هذينِ الكوكبينِ الشمسِ والقمرِ لِوُضُوحِهما وبيانِهِما. وليسَ المرادُ تشبيهَ المرئيِّ بالمرئيِّ، كلَّا واللهِ؛ لأن اللهَ تَعَالَى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

ومما قيل[٢]:

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبْ ... وَمَنْ بَنَى للهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبْ

ورُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالحَوْضُ ... وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

الشاهدُ من هذينِ البيتينِ قولُه: «وَرُؤْيَةٌ»، وهو كذلك، فأحاديثُ الرؤيةِ متواترةٌ، والمتواترُ يقولُ العلماءُ: إنَّه يُفيدُ العلمَ اليقينيَّ، فإذا انضمَّت هذه الأحاديثُ إلى الآياتِ الكريمةِ الَّتي ذكرناها، وهي سِتُّ آياتٍ، وانضمَّ إلى ذلك إجماعُ الصَّحَابَةِ؛ لأنَّه لم يَرِدْ عن الصَّحَابَةِ حرفٌ واحدٌ بِنفيِ رؤيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ تَبَيَّنَ أن مَن خالفَ ذلك فهو ضالٌّ.

نسألُ اللهَ أن يَهْدِيَهم، ولا نسألُ اللهَ أن يَحْرِمَهم رؤيتَه، بل نقولُ: نسألُ اللهَ أن يَهدِيَهم حتَّى يَرَوْا رَبَّهم عَزَّوَجَلَّ.

والحَمْدُ للهِ الَّذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، رقم (٧٤٣٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

(٢) ذكره الكتاني في نظم المتناثر (ص:١٨)، نقلًا عن الشيخ أبي الله محمد التاودي (ت ١٢٠٩هـ) في حواشيه على الجامع الصحيح.

الدرسُ الرابعُ:

الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمَامِ المُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وأصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسَانٍ إلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّنا سَمِعْنَا فِيمَا قَرَأَهُ أئمتُنَا سُورَةَ المطفِّفِينَ، وهِيَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:١-٦].

فهذِهِ السُّورَةُ ابتدأَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالوَعِيدِ بالوَيْلِ، وَهِيَ كَلِمَةٌ إمَّا أَنْ يُرَادَ بِهَا وادٍ فِي جهَنَّمَ، وإمَّا أَنَّهَا كَلِمَةُ وَعِيدٍ وتهديدٍ، ولِهَذَا ابتُدِئَتْ بالتَّنْكيرِ الدَّالِّ عَلَى التَّعْظِيمِ، وبيَّنَ اللهُ أَنَّ المطفِّفِينَ هُمُ الَّذِينَ يُرِيدونَ مِنَ النَّاسِ كَمَالَ حقوقِهِمْ، ولكنَّهُمْ يَهْضِمُونَ النَّاسَ حقَّهُمْ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾.

معنى قوله تعالى: ﴿ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ استوفَوْا حقَّهُم فِي الكَيْلِ، يستوفُونَ حقَّهُمْ كَامِلًا، ولكنَّهُم إِذَا كالُوا للنَّاسِ مَا يجب للنَّاسِ عَلَيْهِم ﴿أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ أي: وزنوا لهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾ الكَيْلَ والميزانَ يُرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ حقُّهُمْ كَامِلًا، وأَنْ يَنْقُصوا النَّاسَ حقُوقَهُمْ.

لا تَنْظُروا إِلَى هَذِهِ الآيَةِ عَلَى أَنَّهَا خاصَّةٌ فِي الطَّعَامِ الَّذِي يُكالُ أوِ الَّذِي يُوزَنُ، ولكنَّهَا مَثَلٌ لِكُلِّ مَنْ أرادَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُوَفُّوهُ حَقَّهُ كَامِلًا، ولكنَّهُ يَنْقُصُهُمْ حُقُوقَهُمْ.

ومِنْ ذَلِكَ مَا يكونُ بَيْنَ طَلَبَةِ العِلْمِ؛ فإنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يريدُ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ تَبَعًا لَهُ، فيَهْضِمَهُمْ حَقَّهُمْ، ويَغْمِطَهُمُ اجتهادَهُمْ، ولا يَرَى لأقوالِهم شَيْئًا مِنَ الحَظِّ والنَّصِيبِ إِذَا كَانَتْ تُخَالِفُ مَا يَرَاهُ هُوَ بنفْسِهِ، فيُرِيدُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يكونوا تبَعًا، ولَا يَتْبَعُ النَّاسَ حَتَّى فِيمَا هُوَ الحَقُّ؛ لأَنَّهُ يَرَى أَنَّهُ شِبْهُ مَعْصُومٍ، وأَنَّ غَيْرَهُ مُعَرَّضٌ للخطَأِ.

وَهَذَا لَهُ نصيبٌ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ؛ لأَنَّهُ يَعْذِرُ نفسَهُ فِي اجتهادِهِ، ولا يَعْذِرُ النَّاسَ فِي اجتهادِهم، وقد نَبَّهْنَا عَلَى هَذَا كثيرًا فِي هَذَا المجلِسِ وَفِي مجالِسَ أُخْرَى، وقُلْنَا: إنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي يَرَى نفسَهُ عَلَى صوابٍ فِي اجتهادِهِ يَجِبُ أَنْ يُقَدِّرَ النَّاسَ قَدْرَهُم، وألَّا يَرَى أَنَّهُم عَلَى خَطَأٍ فِي اجتهادِهم؛ لأَنَّهُ إِذَا رَأَى أَنَّهُ عَلَى صوابٍ فِي اجتهادِهِ، وأن غيرَهُ عَلَى خَطَأٍ فِي اجتهادِهِ فَهَذَا هُوَ المطفِّفُ الَّذِي إِذَا اكتَالَ عَلَى النَّاسِ استوفَى، وَإِذَا كالَهُمْ أخسَرَ.

ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ أَنَّ النَّاسَ قِسْمانِ: فُجَّارٌ وأبرارٌ، أَمَّا الفُجَّارُ -والمرادُ بِهِمْ هُنَا الكُفَّارُ- فكتابُهُمْ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى؛ لأَنَّهُمْ فِي النَّارِ، وأَمَّا الأبرارُ فَفِي عِلِّيِّينَ فِي أعلَى مَكَانٍ لأَنَّهُم فِي الجنَّةِ، والجَنَّة فوقَ كلِّ شَيْءٍ؛ لأَنَّ مِنْهَا الفِرْدَوْسَ، والفِرْدَوْسُ أعلَى الجنَّةِ، وسَقْفُهُ عَرْشُ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ فالجنَّةُ فِي عِلِّيِّينَ والنَّارُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ.

وذَكَرَ اللهُ فِي آخِرِ السُّورَةِ أَنَّ هُنَاكَ قومًا مُجْرِمِينَ يَضْحَكُونَ مِنَ المؤمِنِينَ، ويستهزِئونَ بِهِمْ، وَإِذَا مَرَّ بِهِمُ الْمُؤمِنُونَ تغامَزُوا بِهِمْ سُخْرِيَةً واسْتِهْزَاءً، وَإِذَا رَجَعُوا إِلَى أهلِهم رجعُوا متفكِّهِينَ بما نالُوا مِنَ المؤمِنِينَ مِنَ السُّخْرِيَةِ والاستهزاءِ، وَإِذَا

رأى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آمنُوا قالُوا ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢] أي منحرِفُون عَنِ الحَقِّ مجانِبُون للصَّوَابِ.

وَهَذِهِ الكَلِمَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ عَمَّنْ سَبَقَ هِيَ موجودَةٌ فِي الَّذِين أَجْرَمُوا هَذَا اليَوْمَ، فإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ يَرَوْنَ أَنَّ المُؤْمِنِينَ متأخِّرُون، وأَنَّهُمْ رَجْعِيُّونَ، وأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ انحرفُوا عَنِ الصِّرَاط المستقيمِ هُمُ التَّقَدُّمِيُّونَ، وهُمُ الَّذِينَ عَلَى الحَقِّ، وهُمُ الَّذِينَ يَقُودُونَ المجْتَمَعَ إِلَى التَّقَدُّمِ والرُّقِيِّ عَلَى زَعْمِهِمْ.

والحَقِيقَةُ أَنَّهُم يَقُودُونَ المجتمَعَ إِلَى الهَاوِيَةِ، إِلَى ضَلَالٍ فِي العَقِيدَةِ وخَطَأٍ فِي الفِكْرِ، وانحرافٍ فِي العملِ، كلُّ مَا يَدَّعُونَهُ تقدُّمًا، وَهُوَ مخالِفٌ للشَّرْعِ فَهُوَ متأخر، وَلَكِنْ لَا يزالُونَ يسخرُونَ مِنَ المؤمِنِينَ، ومَوْقِفُ المؤمِنِينَ مِنْهُم يجِبُ أَنْ يَكُونَ مَوْقِفَ الصَّابِرِ الصَّامِدِ الَّذِي لَا تُزَحْزِحُهُ هَذِهِ العواصِفُ، وسَوْفَ تكُونُ العَاقِبَةُ لأَهْلِ الحَقِّ طَالَ الزَّمَنُ أَمْ قَصُرَ، لقولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، فالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، إمَّا فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وإمَّا فِي الآخِرَةِ.

ولِهَذَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٣٤]، وكَانَ الكفَّارُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا فِي الدُّنْيَا يَضْحَكُونَ مِنَ المؤمِنِينَ، لَكِنَّهُم يَضْحكُون ضَحِكًا بَعْدَهُ البُكَاءُ، أَمَّا هَؤُلَاءِ المؤمِنُونَ فَإِنَّهُم يَضْحكُون يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ المُجْرِمِينَ ضَحِكًا لَا بُكَاءَ بَعْدَهُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٦].

وفي هَذِهِ الآيَةِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ مَسْأَلَةٌ كبيرَةٌ عظيمَةٌ وهِيَ إثبَاتُ رُؤيَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فاللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُرَى، وَلَكِنْ رُؤْيَةُ اللهِ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي الآخِرَةِ.

ورُؤْيَةُ المُؤْمِنِينَ للهِ عَزَّوَجَلَّ فِي الآخِرَةِ ثابتةٌ بالقرآنِ وبالسُّنَّةِ وإِجْمَاعِ السَّلَفِ، ولم ينكِرْهَا أحدٌ مِنْهُمْ، ففِي كِتَابِ اللهِ عِدَّةُ آياتٍ تدلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُرَى بالأَبْصَارِ عِيَانًا مِنهَا هَذِهِ الآيَة ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] الضَّمير فِي ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعودُ إِلَى الفُجَّارِ، وَإِذَا كَانَ الفُجَّارُ محجوبِينَ عَنِ اللهِ دَلَّ عَلَى أَنَّ الأبرارَ غَيْرُ محجوبِينَ عَنِ اللهِ؛ لأَنَّهُمْ لَوْ حُجِبُوا عَنِ اللهِ لم يَكُنْ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الفُجَّارِ فَرْقٌ، ولَمَّا كَانَ للتَّنْصِيصِ عَلَى حَجْبِ الفُجَّارِ عَنِ اللهِ فَائِدَةٌ ولا نَعْلَمُ فَائِدَةً لِهَذَا إِلَّا أَنَّ الأَبْرَارَ يَنْظُرُونَ إِلَى اللهِ، ولِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «لَمَّا أَنْ حَجَبَ هَؤُلَاءِ فِي السَّخَطِ، كَانَ فِي هَذَا دليلٌ عَلَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا»[1].

ومِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣]، فَإِنَّ هَذِهِ الآيَةَ يَستدِلُّ بِهَا أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى رُؤيَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ووَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حُذِفَ فِيهَا المفعولُ، أَيْ لَمْ يُذكَرِ المنظورُ إِلَيْهِ، وَإِذَا كَانَت فِي مَقَامِ الثَّنَاءِ ومَقَامِ المَدْحِ فَإِنَّ أَعْظَمَ مَا يُنْظَرُ إِلَيْهِ وأَفْضَلَ مَا يُنظرُ إِلَيْهِ وأَلَذُّ مَا يُنْظَرُ إِلَيْهِ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولِهَذَا لَا يَجِدُ المؤمِنُونَ أَلذَّ مِنَ النَّظَرِ إِلَى وجهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ومِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] الأُولَى بالضَّادِ والثَّانِيَةُ بالظَّاءِ، والفرق بَيْنَهُمَا أَنَّ الأُولَى ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ من النَّضْرَةِ أَوْ مِنَ

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٦٠، رقم ٨٨٣)، ونصه: قَالَ الشَّافِعِيُّ: فَلَمَّا أَنْ حُجِبُوا هَؤُلَاءِ فِي السَّخَطِ كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا.

النَّضَارَةِ بالضَّادِ وهِيَ الحُسْنُ، والثَّانِيَة مِنَ النَّظَرِ، وَهُوَ الرؤيةُ، تقول: نَظَرْتُ إِلَيْهِ: أَيْ رأيتُهُ، فَفِي هَذِهِ الآيَةِ دليلٌ عَلَى أَنَّ المُؤْمِنِينَ ينظرُونَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَهِيَ الوجوهُ النَّاضِرَةُ؛ لأنَّ الوجوهَ النَّاضِرَةَ هِيَ وُجُوهُ المُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس:٣٨-٣٩].

ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تعَالَى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فقد فسر النَّبِيُّ ﷺ الزِّيَادَةَ بِأَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ الكَرِيمِ[1]، ومِنَ المعلومِ أَنَّ تفسيرَ النَّبِيِّ ﷺ للقُرْآنِ هُوَ أقوَى مَا يُفَسَّرُ بِهِ القُرْآنُ بَعْدَ تفسيرِ القرآنِ بالقُرْآنِ؛ لأنَّ القرآنَ يُفَسَّرُ إمَّا بكلامِ اللهِ، أَوْ بِكَلَامِ الرَّسُولِ، أو بِكَلَامِ الصَّحابَةِ، أو بكلامِ التَّابِعِينَ أَوْ بكَلَامِ الأئمَّةِ والعُلَماءِ مِنْ بَعْدِهِمْ.

وأعلَى أنواعِ التَّفْسِيرِ تَفْسِيرُ القُرْآنِ بالقُرْآنِ، ثُمَّ تفسيرُهُ بالسُّنَّةِ، فإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فسَّرَ الزيادةَ بِأَنَّهَا النَّظَرَ إِلَى وجهِ اللهِ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ المرادَ بِهَا؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَعْلَمُ النَّاسِ بمعانِي كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وأَمَّا السُّنَّةُ فقدْ تَوَاتَرَتِ الأحادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ برُؤْيَةِ المُؤْمِنِينَ للهِ عَزَّوَجَلَّ عِيانًا بأبصارِهِمْ؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، باب (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

الصَّلَاةُ الَّتِي قبلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ هِيَ صَلَاةُ الفَجْرِ، والصَّلَاةُ الَّتِي قبلَ غُرُوبِها هِيَ صَلَاةُ العَصْرِ، ولِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ «مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ»(١)، البَرْدانِ: الفَجْرُ والعَصْرُ؛ لأنَّ الفَجْرَ فِي برادِ اللَّيْل والعَصْرَ فِي برادِ النَّهَارِ.

وقَالَ النَّاظِمُ(٢):

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبْ ... وَمَنْ بَنَى للهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبْ
وَرُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالحَوْضُ ... وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

مما تواتر: يَعْنِي هُنَاكَ أحاديثُ مُتَوَاتِرَةٌ غَيْرُ هَذِهِ، ولِهَذَا قَالَ: مِمَّا تَوَاتَرَ، وقالَ فِي النِّهَايَةِ: وَهَذِي بَعْضُ.

فمِمَّا تواتَرَتْ بِهِ الأحَادِيثُ رُؤْيَةُ المُؤْمِنِينَ للهِ عَزَّوَجَلَّ ولَمْ يُنْكِرِ الرؤيةَ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الأُمَّةِ، وإِنَّمَا حَدَثَ إنكارُهَا بَعْدَ انقضَاءِ القُرُونِ الثَّلَاثَةِ المُفَضَّلَةِ، ولا شَكَّ أَنَّ مُنْكِرَهَا حَرِيٌّ بِأَنْ يُحرَمَهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، وأَلَّا يرَى رَبَّهُ؛ لأَنَّهُ يعتقِدُ أَنَّ اللهَ لَا يُرَى مَعَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَثْبَتَ ذَلِكَ لنفسِهِ فِي كتابِهِ، وأثبتَهُ لَهُ رسولُهُ ﷺ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم (٥٧٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الفجر والعصر، رقم (٦٣٥).
(٢) ذكره الكتاني في نظم المتناثر (ص:١٨)، نقلًا عن الشيخ أبي الله محمد التاودي (ت ١٢٠٩هـ) في حواشيه على الجامع الصحيح.

الدرس الخامس:

الحَمدُ لله رَبِّ العالَمِينَ، والعَاقِبَةُ للمُتَّقِينَ، ولا عُدْوَانَ إلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وأَشْهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لهُ، رَبُّ العالَمِينَ، وإلَهُ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ، وأَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبْدُهُ ورَسُولُهُ، خاتَمُ النَّبِيِّينَ، وإمامُ المُتَّقِينَ، صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وأصْحابِهِ والتَّابِعِينَ لَهُمْ بإحْسانٍ إلَى يَوْمِ الدِّينِ.

جَاءَ جِبْرِيلُ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وقالَ: «رَغِمَ أنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ»[1] فصَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، صَلُّوا عَلَيْهِ كُلَّمَا ذُكِرَ اسْمُهُ؛ فإنَّ جِبْرِيلَ دعَا عَلَى مَنْ ذُكِرَ عنْدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ولَمْ يُصَلِّ عليْهِ، وهَذَا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الصَّلاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، عَلَى مَنْ سَمِعَ اسْمَهُ يُذْكَرُ صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ عليْهِ.

إنَّ حقَّ نبيِّنَا عَلَيْنَا أعْظَمُ مِنْ حقِّ أيِّ بَشَرٍ، أعْظَمُ مِنْ حقِّ الآباءِ والأُمَّهاتِ والأبْناءِ والبَناتِ والإخْوَةِ والأخَواتِ، وسائِرِ المَخْلُوقَاتِ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى أنْقَذَنَا بِهِ مِنَ الهَلاكِ، هَدَانَا بِهِ مِنَ الضَّلالَةِ، وبَصَّرنَا بِهِ مِنَ العَمَى، وأرْشَدَنَا بِهِ مِنَ الغِوايَةِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ عَلَى عَبْدِكَ ورَسُولِكَ مُحَمَّدٍ وعلَى آلِهِ وأصْحابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسَانٍ إلَى يَوْمِ الدِّينِ.

استَمَعْنَا فِي قِراءَةِ الفَجْرِ هَذَا اليَوْمَ إلَى سُورَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ: أُولاهُمَا سُورَةُ المُطَفِّفِينَ، والثَّانِيةُ سُورَةُ الغاشِيَةِ.

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٠/ ١٩٢ رقم ٤٢٧٧)، من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٦٤٦)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (١٨٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ:١-٣] (وَيْلٌ) كَلِمَةُ وعِيدٍ وتَهْدِيدٍ، والمُطَفِّفُونَ بيَّنَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ:٣] لَا بُدَّ أَيُّهَا القارِئُ أَنْ تَصِلَ الثَّانِيَةَ بالأُولَى؛ لأَنَّكَ لوْ قُلْتَ: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ لَمْ يَكُونُوا مُطَفِّفِينَ؛ إِذْ كُلُّ إِنْسَانٍ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَوْفِيَ الحَقَّ لنفسِهِ، لكنِ التَّطْفِيفُ جاءَ مِنَ الآيَةِ الثَّانِيَةِ ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أيْ: إِذَا كالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ فإِنَّهُمْ يُخْسِرُونَ، أيْ: يَنْقُصُونَ المِكْيالَ والمِيزَانَ، فهُمْ لأنفُسِهِمْ يأخُذُونَ بالحَقِّ تامًّا، وأمَّا لغَيْرِهِمْ فإِنَّهُمْ يَنْقُصُونَ ذَلِكَ.

إِذَنْ: فهُمْ قَدْ جانَبُوا العَدْلَ فِي مُعامَلَةِ عِبادِ اللهِ؛ إِذْ كانُوا يَأْخُذُونَ حُقوقَهُمْ كامِلَةً، لكنَّهُمْ يَنْقُصُونَ الخَلْقَ حقَّهُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعالَى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المُطَفِّفِينَ:٤-٥].

وهَذَا الاسْتِفْهامُ للتَّوْبِيخِ، يَعْنِي: أَنَّ اللهَ يُوَبِّخُهُمْ؛ حَيْثُ لَا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لهَذَا اليَوْمِ العَظِيمِ، وهُوَ يَوْمُ القِيامَةِ، فإِنَّ النَّاسَ سَوْفَ يُبْعَثُونَ ويُجازُونَ عَلَى أعمالِهِمْ، إِنْ خَيْرًا فخَيْرٌ وإِنْ شرًّا فشَرٌّ.

وانْتَبِهْ إِلَى كلمَةٍ يَقُولُهَا النَّاسُ اليَوْمَ، إِذَا فَعَلْتَ خَيْرًا قالَ: جَعَلَ اللهُ ذَلِكَ فِي مَوازِينِ عَمَلِكَ. وهذِهِ الكَلِمَةُ فِيهَا نَظَرٌ، والصَّوابُ أَنْ تَقُولَ: جَعَلَ اللهُ ذَلِكَ فِي مَوازِينِ حَسناتِكَ؛ لأنَّ العَمَلَ إِمَّا حَسَنٌ وإِمَّا سَيِّئٌ، فإذا قُلْتَ: جَعَلَ اللهُ ذَلِكَ فِي مَوازِينِ عَمَلِكَ، أيِّ العَمَلِ؟ يُمْكِنُ أَنْ يُرِيدَ العَمَلَ السَّيِّئَ، بمَعْنَى أَنْ يَكْتُبَ اللهُ

هَذَا لكَ سَيِّئَةً، ويُمْكِنُ أنْ يُرِيدَ العَمَلَ الحَسَنَ، فيكْتُبُهَا اللهُ حَسَنَةً، وإذَا كانَ الكَلامُ مُحْتَمِلًا لِمَا يَسُوءُ وما يَسُرُّ فلْيُعْدَلْ عَنْهُ إلَى كلامٍ يَسُرُّ.

فإذا قُلْتَ: جَعَلَ اللهُ ذَلِكَ فِي موازِينِ حَسَناتِكَ، صَارَ الكَلامُ لَا يَحْتَمِلُ إلَّا أنْ يَكُونَ فِي مِيزَانِ الحَسَنَاتِ.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هَذَا اليَوْمُ العَظِيمُ ذَكَرَ اللهُ تَعالَى مِنْ أوْصافِهِ ومِنْ أحْوالِ النَّاسِ فِيهِ مَا لا يَتَّسِعُ المَقامُ لِذِكْرِه، لكنَّهُ مَعْلُومٌ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [المُطَفِّفِين:٦] يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ للهِ ربِّ العالَمِينَ، حافِيَةً أقْدامُهُمْ، عارِيَةً أجْسامُهُمْ، شاخِصَةً أبْصارُهُمْ، زَاهِلَةً قُلوبُهُمْ ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحَجّ:٢].

ثُمَّ قسَّمَ اللهُ تَعالَى النَّاسَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ إلَى قِسْمَيْنِ ﴿كَلَّآ﴾أي: حقًّا ﴿إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المُطَفِّفِين:٧-١٠].

كِتَابُ الفُجَّارِ -وهُمُ الكُفَّارُ- فِي سِجِّينٍ، فِي الأرْضِ السُّفْلَى فِي أدْنَى مَنْزِلَةٍ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ [المُطَفِّفِين:٨] وهَذَا الاسْتِفْهامُ للتَّفْخِيمِ والتَّعْظِيمِ، أيْ: أيُّ شَيْءٍ أدْرَاكَ بهَذَا ﴿كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المُطَفِّفِين:٩] مَكْتُوبٌ، لَا بُدَّ أنْ يَكُونَ.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المُطَفِّفِين:١٠-١١] (ويْلٌ) كَلِمَةُ وعِيدٍ وتَهْدِيدٍ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أيْ: يُكَذِّبُونَ بيَوْمِ القِيامَةِ، وإنَّمَا سُمِّيَ يَوْمَ الدِّينِ؛ لأنَّ النَّاسَ يُدانُونَ فِيهِ، أيْ: يُجَازَوْنَ عَلَى أعْمالِهِمْ، كُلٌّ يُجازَى

عَلَى عَمَلِهِ يَوْمِ القِيامَةِ.

واعْلَمْ أنَّ الدِّينَ يَرِدُ فِي كِتَابِ اللهِ عَلَى مَعْنَيَيْنِ:

المَعْنَى الأوَّل: العَمَلُ.

المَعْنَى الثَّانِي: الجَزَاءُ عَنِ العَمَلِ.

فمِمَّا جَاءَ مُرادًا بِهِ العَمَلُ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافِرون:٦] أيْ: لكُمْ عَمَلُكُمْ ولي عَمَلِي، كما قَالَ تَعالَى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يُونُس:٤١].

ويأْتِي الدِّينُ بمَعْنَى الجَزَاءِ عَلَى العَمَلِ، كما فِي هَذِهِ الآيَةِ ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أيْ: بيَوْمِ الجَزاءِ عَنِ العَمَلِ.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ﴾ أيْ: بيَوْمِ الدِّينِ ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المُطَفِّفِينَ:١٢-١٣] أيْ: لَا يُكَذِّبُ بيَوْمِ الدِّينِ إلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ، أيْ: مُتَعَدٍّ لحُدُودِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، عادٍ عَلَى حُقوقِ اللهِ، أثِيمٌ، أيْ: مُكْتَسِبٌ للإثْمِ، وجاءَتْ (أَثِيمٌ) بَدَلَ (آثِمٌ) إشارَةً إِلَى أنَّ هَذِهِ الصِّفَةِ لَازِمَةٌ لهُ، والعِياذُ باللهِ.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ [المُطَفِّفِينَ:١٣] أيْ: إذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آياتُ الوَحْيِ النازِلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المُطَفِّفِينَ:١٣] أساطيرُ جَمْعُ أُسْطُورَةٍ، وهِيَ الكَلامُ الَّذِي يُنْقَلُ وهُوَ لَغْوٌ مِنَ القَوْلِ، لَا يُسْتَفَادُ منهُ، وإنَّما هُوَ كَلامٌ يُلْقَى فِي المَجالِسِ مِنْ أجْلِ أنْ يُزِيلَ المَلَلَ، أوْ مَا أشْبَهَ ذَلِكَ، فهُوَ لَا حَقِيقَةَ له، لكنَّهُ أُسْطُورَةٌ مِنَ الأساطِيرِ.

فإذا رَأَيْتَ مِنْ قَلْبِكَ أنَّهُ لا يَتَأَثَّرُ بالقُرْآنِ، وأنَّ الشَّيْطانَ يُلْقِي فِي قَلْبِكَ أنَّهُ

أساطيرُ؛ فاعْلَمْ أنَّ فِي قَلْبِكَ زَيْغًا -أعوذُ باللهِ- فعالِجْ نَفْسَكَ قَبْلَ أنْ يَفْجَأَكَ المَوْتُ، ثُمَّ لَا تَنفَعُكَ التَّوْبَةُ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النِّساء:١٨] فإذَا شَاهَدْتَ المَوْتَ لَا يَنفَعُكَ التَّوْبَةُ.

انْظُرْ إِلَى فِرْعَوْنَ، آمَنَ قَبْلَ أنْ يَمُوتَ، لَمَّا أدْرَكَهُ الغَرَقُ، ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يُونُس:٩٠] فقِيلَ له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ أيْ: آلآنَ تُؤْمِنُ ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يُونُس:٩١].

انْظُرِ الذُّلَّ العَظِيمَ، كانَ جبَّارًا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وكانَ يَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ، ويَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ، والآنَ جَعَلَ نفسَهُ تابِعًا لهم، لَمْ يَقُلْ: آمَنْتُ باللهِ، بل قالَ: آمَنتُ بالَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ.

وهَذَا غايَةُ الذُّلِّ أنْ يَكُونَ هَذَا اليَوْمُ، يَحْسِبُ نفسَهُ تابِعًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وكان فِي الأَوَّلِ جبَّارًا عنيداً عَلَيْهِمْ، لكنْ هَذَا جزاءُ مَنْ عصَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ أنْ يُذِيقَهُ اللهُ الذُّلَّ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ.

أَقُولُ: إنَّ الإنْسَانَ إذَا أتاهُ الأجَلُ لَا تَنْفَعُهُ التَّوْبَةُ.

﴿كَلَّا﴾ يَعْنِي: لَيْسَ الأمْرُ كما قالَ، لكنْ هُناكَ شَيْءٌ مَنَعَ مِنْ وُصُولِ تأْثِيرِ الآياتِ إِلَى قُلوبِهِمْ، أَلَا وهُوَ الرَّيْنُ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ:١٤] أيْ تجَمَّعَ عليْهَا، وغَشِيَ علَيْهَا مَا كانُوا يَكسِبُونَ مِنَ الأعْمالِ، فإنَّ الأعْمالَ السَّيِّئَةَ تَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وبَيْنَ الحَقِّ -أعاذَنَا اللهُ وإيَّاكُمْ مِنْ ذَلِكَ- ولِهَذَا حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، بأنْ يَقُولَ الإنْسَانُ: هَذَا ذَنْبٌ صَغِيرٌ لَا يَهِمُّ، يَفْعَلُهُ ويَتُوبُ إِلَى اللهِ.

لَا تَحْقِرِ الذَّنْبَ، قالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ»[١] وضَرَبَ لذَلِكَ مَثَلًا بقَوْمٍ نَزَلُوا أرْضًا، وأرَادُوا أنْ يُوقِدُوا نارًا، فصَارَ هَذَا يأْتِي بعُودٍ، وهَذَا يأْتِي بعُودٍ، وهَذَا يأْتِي بعُودٍ، حتَّى جَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا، وأوْقَدُوا نارًا عَظِيمَةً، وهكَذَا الذُّنُوبُ، تَتَراكَمُ عَلَى القَلْبِ حتَّى تَحُولَ بينَهُ وبينَ رُؤْيَةِ الحَقِّ، وتَحُولَ بَيْنَ الحَقِّ وبينَ الوُصُولِ إِلَى هَذَا القَلْبِ؛ ولذَلِكَ فتِّشْ قَلْبَكَ، فإذَا رَأَيْتَ مِنْ قَلْبِكَ أَنَّهُ لا يَتَأَثَّرُ بالقُرْآنِ، ولا يُعظِّمُ القُرْآنَ، ولا يَهْتَدِي بالقُرْآنِ، فاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ رانَ عَلَى قَلْبِكَ ما كُنْتَ تَكْسِبُ مِنَ الأَعْمالِ السَّيِّئَةِ.

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ:١٥] لَمَّا حُجِبُوا عَنْ نُورِ آياتِهِ فِي الدُّنْيَا حُجِبُوا عَنْ رُؤْيَتِهِ فِي الآخِرَةِ ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ يُحْجَبُونَ عَنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فلا يَرَوْنَهُ كَما أَنَّهُمْ حُجِبُوا -والعياذُ باللهِ- بذُنُوبِهِمْ عَنْ رُؤْيَةِ النُّورِ والحَقِّ الَّذِي فِي آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

واسْتَدَلَّ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعالَى بهذِهِ الآيَة عَلَى أَنَّ المُؤْمِنِينَ الأبْرارَ يَرَوْنَ اللهَ، وجْهُ الدَّلالَةِ يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ اللهَ تَعالَى مَا حَجَبَهُمْ عَنْهُ فِي السُّخْطِ إِلَّا لأَنَّ أولياءَهُ يَنْظُرُونَهُ فِي الرِّضا[٢]، قَالَ: هُناكَ أبْرارٌ وفُجَّارٌ، وهُناكَ جَزاءٌ لهَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ، فإذَا حُجِبَ هَؤُلَاءِ عَنْ رُؤْيَةِ اللهِ فإِنَّ ذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ الآخَرِينَ يَرَوْنَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وهذ اسْتِدْلالٌ جَيِّدٌ واضِحٌ؛ لأَنَّهُ لوْ كانَ الجَمِيعُ مَحْجُوبِينَ عَنِ اللهِ لَمْ يَكُنْ لتَخْصِيصِ هَؤُلَاءِ بالحَجْبِ فائِدَةٌ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره (١٠/ ١٥٤)، والواحدي في التفسير الوسيط (٤/ ٤٤٦)، وانظر تفسير القرطبي (١٩/ ٢٦١).

إِذَنْ: يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بهذِهِ الآيَةِ، وبِما دلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ إثْباتٍ وضِدِّهِ، إثْباتِ الحَجْبِ عَنِ الفُجَّارِ، وإثْباتِ الرُّؤْيَةِ للأَبْرارِ؛ لأنَّ كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لهُ مَنْطُوقٌ ومَفْهُومٌ، ولهُ إيماءٌ وإشارَةٌ.

إِذَنْ: يَجِبُ عَلَيْنَا عَقِيدَةً أَنْ نُؤْمِنَ بأنَّ اللهَ تَعالَى يُرَى فِي الآخِرَةِ، يَراهُ الأبْرارُ -اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا ذَلِكَ يَا رَبَّ العالَمِينَ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وجْهِكَ الكَرِيمِ- وهلْ هُناكَ أدِلَّةٌ أُخْرَى تَدُلُّ عَلَى أنَّ المُؤْمِنِينَ الأبْرارَ يَرَوْنَ اللهَ؟

الجَوابُ: نَعَمْ، هُناكَ أدِلَّةٌ فِي القُرْآنِ والسُّنَّةِ وإجْماعِ السَّلَفِ عَلَى أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُرَى بالأَبْصارِ عِيانًا، اقْرَأْ قَوْلَ اللهِ تَعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القِيامَةِ:٢٢-٢٣] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ مِنَ النَّضارَةِ وهِيَ الحُسْنُ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مِنَ النَّظَرِ وهُوَ الإبْصارُ، فإذَا أُضِيفَ النَّظَرُ إِلَى الوَجْهِ يَكُونُ بالعَيْنِ. إِذَنْ: تَنْظُرُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالعَيْنِ.

دَلِيلٌ ثالِثٌ: قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يُونُس:٢٦] والدَّلِيلُ هُوَ تَفْسِيرُ أعْلَمِ الخَلْقِ بكِتابِ اللهِ -وهُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ- فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَسَّرَ الزِّيادَةَ بأنَّها النَّظَرُ إِلَى وجْهِ اللهِ[1]، ولَيْسَ بَعْدَ قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ مجالٌ لقَائِلٍ، فإذَا فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ كلامَ اللهِ بشَيْءٍ وجَبَ أنْ يُفَسَّرَ به؛ لأنَّنا نَعلَمُ عِلْمَ اليَقِينِ أنَّ أعْلَمَ النَّاسِ بكِتابِ اللهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

الدَّلِيلُ الرَّابعُ: قَوْلُ اللهِ تعالَى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] أيْ: لأهْلِ

---

(١) أخرجه الطبري (١٥/ ٦٥)، وابن أبي حاتم في التفسير (٦/ ١٩٤٥)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه بمعناه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨١)، من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجَنَّةِ فِي الجَنَّةِ مَا يَشاؤُونَ ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرُف:٧١] ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أيْ: مَزِيدٌ عَلَى مَا يَشاؤُونَ، يُعْطِي اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَهْلَ الجَنَّةِ نَعِيمًا لَمْ يَخْطِرْ لَهُمْ عَلَى البالِ، فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، أَسْأَلُ اللهَ بأَسْمائِهِ الحُسْنَى وصِفاتِهِ العُلَى أَنْ يَجْعَلَنَا وإِيَّاكُمْ مِنْ أَهْلِهَا.

فإذا قَالَ قَائِلٌ: قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ مَنْ قَالَ لكَ: إنَّهُ النَّظَرُ إِلَى وجْهِ اللهِ؟

قُلْنَا: لأنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فسَّرَ الزِّيادَةَ الَّتِي ذكَرْنَاهَا بالنَّظَرِ إِلَى وجْهِ اللهِ.

إِذَنْ: فالمَزِيدُ يَدْخُلُ فِيهِ النَّظَرُ إِلَى وجْهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الدَّلِيلُ الخامِسُ: قَوْلُ اللهِ تَعالَى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ:٢٣] المَفْعُولُ هُنَا مَحْذُوفٌ، قارِنْ ﴿يَنظُرُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ:٢٣] بقَوْلِهِ ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ:١٥] فِي الفُجَّارِ يَتبيَّنْ لكَ أنَّ أَوَّلَ مَا يَنْظُرُونَ، وأَلَذَّ مَا يَنظُرُونَ هُوَ النَّظَرُ إِلَى وجْهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

إِذَنْ: يَنْظُرُونَ مَا أَعَدَّ اللهُ لهم مِنَ النَّعِيمِ، ويَنْظُرُونَ إِلَى وجْهِ ربِّهِمُ الكَرِيمِ.

الدَّلِيلُ السادِسُ: قَوْلُ اللهِ تَعالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعامِ:١٠٣].

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ تَسْتَدِلُّ بنَفْيٍ عَلَى إِثْباتٍ؟ اللهُ يقولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعامِ:١٠٣] وأنتَ تَقُولُ: فِي هَذِهِ الآيَة دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللهَ يُرَى؟

فالجَوابُ: قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعامِ:١٠٣] والإِدْراكُ أَخصُّ مِنَ الرُّؤْيَةِ؛ لأنَّ الإِنْسَانَ يَرَى الشَّيْءَ ولا يُدْرِكُهُ لبُعْدِهِ، أَوْ لضَعْفِ نَظَرِ الرَّائِي،

أَوْ لغَيْرِ ذَلِكَ، ونَفْيُ الأخَصِّ يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ الأعَمِّ؛ لأَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ الكَلامُ إِذَا نَفَيْتَ الأَخَصَّ والأعَمُّ مُنْتَفٍ؛ إِذْ إِنَّهُ لوْ كانَ الأعَمُّ مُنْتَفِيًا لكانَ الأَوْلَى بالمُتَكَلِّمِ أنْ يَنْفِيَ الأعَمَّ حتَّى يَدْخُلَ فِيهِ الأخَصُّ، فلمَّا نَفَى الإدْرَاكَ دلَّ عَلَى وُجوبِ أَصْلِ الرُّؤْيَةِ؛ ولهَذَا اسْتَدَلَّ نُفاةُ الرُّؤْيَةِ عَلَى أنَّ اللهَ لَا يُرَى بهذِهِ الآيَةِ، وسُبْحَانَهُ اللهُ الحَكِيمُ!

كانَ اسْتِدْلالُهُمْ بالآيَةِ دَلِيلًا عليْهِمْ، وهكَذَا كُلُّ مُبْطِلٍ يَنْفِي الحَقَّ إِذَا اسْتَدَلَّ بآيَةٍ أوْ بحدِيثٍ صَحِيحٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فإنَّ دَلِيلَهُ يكونُ دَلِيلًا عليْهِ.

وأُذَكِّرُكُمْ بما قالَهُ حَبْرُ الأُمَّةِ -الَّذِي أعْطاهُ اللهُ تَعالَى عُلومًا، وعَقْلًا كَبِيرًا، وإدْراكًا واسِعًا- شَيْخُ الإِسْلام ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ حيثُ قَالَ فِي كِتابِهِ: (دَرْءُ تَعارُضِ العَقْلِ والنَّقْلِ): إنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لكُلِّ مَنْ أتَى بدَلِيلٍ صَحِيحٍ مِنَ القُرْآنِ أوْ مِنَ السُّنَّةِ يَحْتَجُّ بِهِ عَلَى باطِلِهِ، فإنِّي مُسْتَعِدٌّ أنْ أجْعَلَ دَلِيلَهُ دَلِيلًا عليْهِ، ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

فهذِهِ الآيَةُ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣] استَدَلَّ بِهَا نُفاةُ الرُّؤْيَةِ، لكنَّهَا فِي الحَقِيقَةِ دَلِيلٌ عليْهِمْ؛ لأنَّ اللهَ إنَّما نَفَى الإدْراكَ لَا أَصْلَ الرُّؤْيَةِ، ونَفْيُ الإدْراكِ يَدُلُّ عَلَى وُجودِ أصْلِ الرُّؤْيَةِ، وهَذَا واضِحٌ جِدًّا.

الدَّلِيلُ السابِعُ مِنَ القُرْآنِ: قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حينَ سَأَلَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣] فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أنَّ رُؤْيَةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَيْسَتْ مُسْتَحِيلَةً.

وجْهُ الدَّلالَةِ: أنَّها لوْ كانَتْ رُؤْيَةُ اللهِ مُسْتَحِيلَةً لكانَتْ ممَّا لَا يَلِيقُ به، ومُسْتَحِيلٌ أنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وهُوَ الثَّالِثُ مِنْ أُولِي العَزْمِ- مُسْتَحِيلٌ أنْ يَسْأَلَ اللهَ تعالَى مَا كانَ مُسْتَحِيلًا عليْهِ؛ لأَنَّهُ إمَّا أنْ يَكُونَ جاهِلًا فيما يَسْتَحِيلُ ويَجِبُ لله، وإمَّا أنْ يَكُونَ مُعانِدًا، وكِلاهُمَا لَا يَلِيقُ بمَقامِهِ.

وعَلَى هَذَا فيَكُونُ فِي طَلَبِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّظَرَ إِلَى اللهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوازِ رُؤْيَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

هذِهِ الأدِلَّةُ السَّبْعَةُ مِنَ القُرْآنِ، ورُبَّما خَفِيَ عنَّا بعضُ الأدِلَّةِ، لكنْ يَكْفِي المُؤْمِنَ دَلِيلٌ واحِدٌ.

أمَّا السُّنَّةُ فقدْ ذَكَرَ بعضُ العُلَماءِ أنَّها مُتواتِرَةٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى عَلَيْهِ وسلم فِي النَّظَرِ إِلَى وجْهِ اللهِ، والمُتَواتِرُ هُوَ المُتَتَابِعُ المُتكاثِرُ الَّذِي يُفِيدُ العِلْمَ اليَقِينِيَّ، ولقدْ صَرَّحَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «أَنَّ المُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ اللهَ تَعَالَى عَيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ كَما يَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَكَما يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»[1] اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ عليْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا البَيَانُ العَظِيمُ.

قالَ: «إِنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ» وإِذَا قَالَ: «سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ» كَفَى وفَهِمَ النَّاسُ ذَلِكَ، لكنْ زَادَ عَلَى هَذَا المِثَالَ الواضِحَ: «كَما تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ» ولا أَحَدَ يَشُكُّ بالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ إِذَا رَآهُ أَنَّهُ رَأَى القَمَرَ حَقِيقَةً؛ لأَنَّهُ رآهُ لَيْلَةَ البَدْرِ أَوْسَعَ مَا يَكُونُ النُّورُ فِي القَمَرِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل السجود، رقم (٨٠٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية ، رقم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهُنَا قِصَّةٌ تَدُلُّ عَلَى ذَكاءِ بَعْضِ النَّاسِ، يُقالُ: إنَّ أَحَدَ العُلَماءِ أَتَى إِلَيْهِ رَجُلٌ ثِقَةٌ دَيِّنٌ، فشَهِدَ عندَهُ أَنَّهُ رَأَى الهِلالَ، قالَ: هلْ مَعَكَ أحدٌ؟ قالَ: نَعَمْ، مَعِي رِجالٌ، لكنْ عَجَزُوا أنْ يُدْرِكُوهُ، قالَ: ائْتِ بِهِمْ، فقالُوا: مَا رَأَيْنَاهُ. وهَذَا الرَّجُلُ أَصَرَّ عَلَى أَنَّهُ رآهُ، فتَحَيَّرَ القاضِي! كَيْفَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الجَماعَةُ لَمْ يَرَوْهُ وهَذَا الرَّجُلُ وحْدَهُ رآهُ؟!

فَقَالَ لهُ: أرَأَيْتَهُ؟ قالَ: نَعَمْ، رَأَيْتُهُ يَقِينًا، قالَ: فِي أيِّ مكانٍ؟ قالَ: فِي المكانِ الفُلانِيِّ، قَالَ القاضِي: فلْنَمْضِ أَنَا وأنْتَ، فذَهَبَ القاضِي معَ الرَّجُلِ إِلَى المكانِ، وقالَ لهُ: أَتَرَاهُ؟ قالَ: نَعَمْ، هَذَا الهِلالُ.

فنظَرَ القاضِي فَلَمْ يَرَ شَيْئًا فتَعَجَّبَ، فمَسَحَ القاضِي حاجِبَهُ، وقالَ لهُ: أرَأَيْتَهُ؟ قالَ: لَا أَرَاهُ الآنَ، غَابَ القَمَرُ. وإذَا بِهَا شَعَرَةٌ بَيْضاءُ فِي حاجِبِهِ مُقَوَّسَةٌ كأَنَّها الهِلالُ، وهَذَا الرَّجُلُ يَشْهَدُ أَنَّهُ رَأَى الهِلالَ، والحَقِيقَةُ أَنَّهُ رأَى شَعَرَةً مُقَوَّسَةً بَيْضَاءَ فِي حَاجِبِهِ.

إنَّما أَتَيْتُ بهَذَا؛ لأنَّ القَمَرَ يَخْفَى فِي أَوَّلِ طُلُوعِهِ، فَفِي أَوَّلِ الشَّهْرِ يَخْفَي، وكذَلِكَ فِي آخِرِهِ، لكنْ لَيْلَةَ البَدْرِ لَا يَخْفَى، ولَمَّا تَراءَى النَّاسُ الهِلالَ فِي عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكانَ حاضِرًا معَهُمْ، قالُوا: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، هَذَا الهِلالُ، وشَهِدُوا، ولَمْ يَرَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: سَأَراهُ وأَنَا نائِمٌ عَلَى فِراشِي؛ حيثُ يرْتَفِعُ الهِلالُ ويَكْبُرُ فيَراهُ الإنْسَانُ وهُوَ نائِمٌ عَلَى فِراشِهِ.

وأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّنا نَرى ربَّنا -ونَسْأَلُ اللهَ أَلَّا يَحْرِمَنَا مِنْ ذَلِكَ- نراهُ كما نَرى الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحابٌ[1]، والشَّمْسُ فِي الصَّحْوِ لَا تَخْفَى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل السجود، رقم (٨٠٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب

وأجْمَعَ السَّلَفُ مِنَ الصَّحابَةِ، وأئِمَّةِ التَّابِعِينَ، وأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ عَلَى أنَّ اللهَ تَعالَى يُرَى فِي الآخِرَة، ولَمْ يَأْتِ حَرْفٌ واحِدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحابَةِ يَنْفِي رُؤْيَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لكنْ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أنْكَرُوا رُؤْيَةَ اللهِ مع وُجُودِ هَذِهِ الأدِلَّةِ الواضِحَةِ الصَّرِيحَةِ الصَّحِيحَةِ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور:٤٠].

نَسْأَلُ اللهَ تَعالَى لَهُمْ أنْ يَهْدِيَهُمْ، وأنْ يُبَيِّنَ لَهُمُ الحَقَّ، ويَرْزُقَهُمُ اتِّباعَهُ، فنحنُ لَا ندْعُو عَلَى أحدٍ خالَفَنَا، لكنَّنَا ندْعُو لهُ بالهِدَايَةِ، ونقولُ: نَسْأَلُ اللهَ أنْ يَهْدِيَهُ إلَى الحَقِّ ويَتبَيَّنَ لهُ، إنَّ رُؤْيَةَ اللهِ تَعالَى حقٌّ، ثابِتَةٌ بالقُرْآنِ والسُّنَّةِ وإجْماعِ السَّلَفِ، مَا مِنْهُمْ أحدٌ نَفاهَا.

قالَ بَعْضُ العُلَماءِ: نَسْأَلُ اللهَ تَعالَى أنْ يَحْرِمَ رُؤْيَتَهُ مَنْ يُنْكِرُ رُؤْيَتَهُ، وهُوَ دُعاءٌ شَدِيدٌ لَا شكَّ، والأَوْلَى أنْ نَقُولَ: اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فإنَّهُم لَا يَعْلَمُونَ، نسألُ اللهَ لَهُمُ الهِدَايَةَ؛ حتَّى يَرْجِعُوا إلَى الحَقِّ، ويَأْخُذُوا بِهِ، كَما أَخَذَ بذَلِكَ أَسْلافُهُمْ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المُطَفِّفِين:١٦-١٧] ﴿لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ يَعْنِي النَّارَ ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ تَوْبِيخًا وتَبْكِيتًا وإهَانَةً وإذْلالًا ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ وفِي هَذَا التَّوْبِيخِ إيلامٌ عَظِيمٌ لقُلُوبِهِمْ، فيَجْتَمِعُ عليْهِمُ الإيلامُ القَلْبِيُّ والإيلامُ الجَسَدِيُّ، يَصِلُونَ الجَحِيمَ ويُوَبَّخُونَ ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المُطَفِّفِين:١٧].

= معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ انْتَقَلَ القُرْآنُ إِلَى الكَلامِ عَنِ الأَبْرَارِ الَّذِينَ هُمْ ضِدُّ الفُجَّارِ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المُطَفِّفِين:١٨-٢٣].

الأَرَائِكُ هِيَ السُّرُرُ الفَخْمَةُ المُغَطَّاةُ بِالكِساءِ، وهِيَ مِنْ أَفْخَرِ السُّرُرِ ﴿يَنظُرُونَ﴾ إِلَى مَا أعدَّ اللهُ لهم مِنَ النَّعِيمِ، وإِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهُوَ أنْعَمُ مَا يَكُونَ لأَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهَذَا جاءَ فِي الحَدِيثِ: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»(١).

﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ قارِنْ بَيْنَ هَذِهِ الآيَة وبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القِيامَةِ:٢٢-٢٣] يَتبيَّنْ لكَ أنَّ المُراد بقَوْلِهِ: ﴿يَنظُرُونَ﴾ أيْ: يَنْظُرُونَ إِلَى مَا أعدَّ اللهُ لهم مِنَ النَّعِيمِ، وأعْلاهُ وأفْضَلُهُ وأَلَذُّهُ عِنْدَهُمْ هُوَ النَّظَرُ إِلَى وجْهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أَسْأَلُ اللهَ أنْ يُوفِّقَنِي وإِيَّاكُمْ لذَلِكَ، وأنْ يجْعَلَنا ممَّنْ يَنْظُرُ إِلَى اللهِ تَعالَى.

﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ﴾ [المُطَفِّفِين:٢٥] الرَّحِيقُ هُوَ الخالِصُ، ونَوْعُ هَذَا الَّذِي يُسْقَوْنَ منهُ ذَكَرَهُ اللهُ تَعالَى فِي سُورَةِ القِتالِ سُورَةِ مُحَمَّدٍ فَقالَ: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ [مُحَمَّد:١٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤)، والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء «أي بعد الذكر»، رقم (١٣٠٥)، من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ معنَى الآسِنِ: المُتغيِّرُ؛ لأنَّ مِياهَ الدُّنْيَا تتغيَّرُ، لكنْ ماءُ الجنَّةِ -رزَقَنا اللهُ وإيَّاكُمُ الشُّرْبَ منهُ- لَا يتغيَّرُ مهمَا كانَ، ولَمْ يأْتِ هَذَا الماءُ مِنْ آبارٍ أوْ مِنْ أمْطارٍ، إنَّمَا هَذَا ماءٌ خلَقَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الجنَّةِ، والعَجَبُ أنَّ هَذِهِ الأنْهارَ تَجْرِي بدُونِ أُخْدُودٍ، أيْ: لَا توجَدُ حَواجِزُ ولا حُفَرٌ يَجْرِي فِيهَا النَّهْرُ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ فِي النُّونِيَّةِ:

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ ... سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الفَيَضَانِ(١)

فالنَّهْرُ يَجْرِي حيثُ أرَدْتَ، تُصرِّفُهُ أنتَ كما تُرِيدُ، بدُونِ أنْ تَحْفِرَ لهَذَا النَّهْرِ، وبدُونِ أنْ تُقِيمَ أُخْدُودًا لهُ.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ لنْ يتغيَّرَ ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [مُحَمَّد:١٥] هُنا ربَّما يَسْأَلُ سائِلٌ يقولُ: كَيْفَ يَحِلُّ شُرْبُ الخَمْرِ، وقدْ حرَّمَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؟

فالجَوابُ: أنَّ خَمْرَةَ الدُّنْيَا خَمْرَةٌ خَبِيثَةٌ، تَغْتَالُ العُقولَ، وتَذْهَبُ بهَا، ويَحْصُلُ بِهَا الشَّرُّ والبَلاءُ. أمَّا خَمْرَةُ الآخِرَةِ فقدْ قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصَّافَّاتِ:٤٧] ولا تُصدِّعُ الرُّؤُوسَ، ولا تُخرِّبُ البُطُونَ، فَهِيَ خالِيَةٌ مِنَ السَّبَبِ الَّذِي مِنْ أجلِهِ حُرِّمَتْ خَمْرَةُ الدُّنْيَا، كما أنَّهُ لَا يُمْكِنُ أنْ تُقاسَ أحْكامُ الآخِرَةِ بأحْكامِ الدُّنْيَا.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [مُحَمَّد:١٥] أيْ: مُصفًّى ممَّا يَشُوبُهُ مِنَ الكَدَرِ، فإنَّ عَسَلَ الدُّنْيَا مُختَلِطٌ بشَوائِبِ النَّحْلِ، أمَّا فِي الآخِرَةِ فلا.

---

(١) النونية (ص:٣٢٦).

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ [المُطَفِّفِين:٢٥] أي: رَحِيقٍ خالصٍ مِنْ كُلِّ شَوْبٍ مختُومٍ، ثُمَّ بيَّنَ بماذا هُوَ مختُومٌ؟ فقالَ: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ [المُطَفِّفِين:٢٦] ما ألَذَّ هَذَا الشَّرابَ إذَا كانَ آخِرُهُ فِيهِ المِسْكُ!

﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المُطَفِّفِين:٢٦] أيْ: ليتَسابَقِ المُتسابِقُونَ عَلَى العَمَلِ الَّذِي يُوصِلُهُمْ إلَى هَذَا الجزاءِ، وصَدَقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، واللهِ إنَّ هَذَا لَهُوَ الَّذِي يُتَنافَسُ فيه، لَيْسَ الَّذِي يُتَنافَسُ فِيهِ القُصُورُ والمَراكِبُ الفَخْمَةُ وغَيْرُ ذَلِكَ، لكنَّهُ هَذَا الثَّوابُ الجَزِيلُ العَظِيمُ.

ذكَرْنَا الخَمْرَ أنَّهُ مِنْ شَرابِ أهْلِ الجَنَّةِ، لكنْ هَلِ الخَمْرُ فِي الدُّنْيا مُحَرَّمٌ؟

الجَوابُ: نَعَمْ.

وهلْ أُحِلَّ للعِبادِ يوْمًا مِنَ الدَّهْرِ؟

الجَوابُ: نَعَمْ، أُحِلَّ للعِبادِ يوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النَّحْلِ:٦٧] فهَذَا واضِحٌ أنَّ اللهَ تَعالَى أحَلَّهُ، وذَكَّرَ النَّاسَ بهذِهِ النِّعْمَةِ ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النَّحْلِ:٦٧].

ثُمَّ إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ، فالشَّيْءُ الَّذِي يَصْعُبُ عَلَى النُّفُوسِ أنْ تَنْزِعَ منهُ مرَّةً واحِدَةً يكونُ بالتَّدْرِيجِ، جَاءَتِ الآيَةُ الثَّانِيةُ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البَقَرة:٢١٩] وما دامَ اللهُ تَعالَى قالَ: ﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البَقَرة:٢١٩] فإنَّ العاقِلَ لنْ يَفْعَلَهُما وإثْمُهُما أكْبَرُ، فانْتَهَى مِنَ النَّاسِ مَنِ انْتَهَى بهذِهِ الآيَةِ.

ثم جاءَتِ الآيَةُ الثَّالِثَةُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ [النِّساءِ:٤٣] وهَذَا يَقْتَضِي أَلَّا تَشْرَبَ الخَمْرَ قُرْبَ وقْتِ الصَّلاةِ، فيكونُ هُناكَ امْتِناعٌ مِنْهَا فِي جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنَ الوَقْتِ، خَمْسَةُ أَوْقاتٍ لَا تَشْرَبُ الخَمْرَ فِيهَا، والإِنْسَانُ إِذَا امْتَنَعَ مِنْ شُرْبِهَا خَمْسَةَ أَوْقاتٍ فِي اليَوْمِ واللَّيْلَةِ فسَوْفَ يكونُ فِي ذَلِكَ تَدرُّجٌ.

ثُمَّ جاءَتِ الآيَةُ الرابِعَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩٠-٩١] قَالَ الصَّحابَةُ: انْتَهَيْنَا يا رَبَّنا انْتَهَيْنا(١).

فبيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ هَذِهِ الأَشْياءَ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ، وأَمَرَنا أَنْ نَتَجَنَّبَها، وحينئذٍ حُرِّمَتِ الخَمْرُ تَحْرِيمًا باتًّا؛ ولِهَذَا كانَ تَحْرِيمُهَا مِنَ المَعْلُومِ بالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الإِسْلامِ، وقالَ أَهْلُ العِلْمِ: مَنْ أَنْكَرَ تَحْرِيمَ الخَمْرِ وهُوَ عَاشَ فِي المُسْلِمِينَ فإِنَّهُ كافِرٌ؛ لأَنَّهُ أَنْكَرَ مَا يُعْلَمُ تَحْرِيمُهُ بالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الإِسْلامِ.

ومَنْ شَرِبَهَا غَيْرَ مُسْتَحِلٍّ لها فإِنَّهُ يُعاقَبُ بالجَلْدِ، كانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ قَدْ سَكِرَ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيَقُومُ الصَّحابَةُ يَضْرِبُونَهُ، مِنْهُمْ مَنْ يَضْرِبُ بيَدِهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يَضْرِبُ بثَوْبِهِ، ومنْهُمْ مَنْ يَضْرِبُ بنَعْلِهِ، نَحْوَ أَرْبَعِينَ جَلْدَةً، وبَقِيَ الأَمْرُ هكَذَا فِي خِلافَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٥٣)، وأبو داود: كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر، رقم (٣٦٧٠)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٤٩)، والنسائي: كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، رقم (٥٥٤٠)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ وكَثُرَ الشُّرْبُ؛ لأنَّ المُسْلِمونَ فتحُوا البِلادَ، وكانَ أَهْلُهَا يَتَعاطَوْنَ الخَمْرَ، فكَثُرَ الشُّرْبُ، فجمَعَ عُمَرُ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا، وكانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ إِذَا أُشْكِلَ عَلَيْهِ الأمْرُ جَمَعَ الصَّحَابَةَ وشَاوَرَهُمْ؛ لأَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يُرِيدُ إِلَّا الحقَّ، فجمَعَهُمْ وقالَ: مَا تَرَوْنَ؟ الشُّرْبُ كَثُرَ فِي النَّاسِ، وأرْبَعُونَ جَلْدَةً لَا تَكْفِي، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمنِ ابْنُ عَوْفٍ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَخَفُّ الحُدُودِ ثَمانُونَ جَلْدَةً، والَّذِي هُوَ ثَمانُونَ جَلْدَةً مِنَ الحُدُودِ هُوَ قَذْفُ المُحْصَنِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور:٤] قَالَ: أَخَفُّ الحُدُودِ ثَمانُونَ، فجَعَلَهَا عُمَرُ ثَمانِينَ جَلْدَةً(١).

ويُرْوَى عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا شَرِبَ هَذَى، وإِذَا هَذَى افْتَرَى، وجَزاءُ المُفْتِري بالقَذْفِ ثَمانُونَ جَلْدَةً(٢)، وعَلَى كُلِّ حالٍ أقرَّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدَّ شَارِبِ الخَمْرِ ثَمانِينَ جَلْدَةً.

وإِذَا جَلَدْنَاهُ ثَمانِينَ جَلْدَةً، ثُمَّ عادَ وشَرِبَ جَلَدْنَاهُ للمرَّةِ الثَّانِيَةِ، فإِنْ عادَ وشَرِبَ جلدْناهُ الثَّالِثَةَ، فإِنْ عادَ وشَرِبَ، فَفِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ اخْتَلَفَ العُلَماءُ، فمِنْهُم مَنْ قَالَ يُقتَلُ، ومنْهُمْ مَنْ قَالَ: يُجْلَدُ.

فأمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يُقتَلُ فلِقَوْلِ النَّبيِّ ﷺ: «إِذَا شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاقْتُلُوهُ»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب حد الخمر، رقم (١٧٠٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٨٤٢، رقم ٢)، وعبد الرزاق في المصنف (٧/ ٣٧٨).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨٠)، وأبو داود: كتاب، باب إذا تتابع في شرب الخمر، رقم (٤٤٨٤)، والنسائي: كتاب الأشربة، باب ذكر الروايات المغلظات في شرب الخمر، رقم (٥٦٦٢)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من شرب الخمر مرارًا، رقم (٢٥٧٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: لَا يُقتَلُ، وإنَّ هَذَا الحَدِيثَ مَنْسُوخٌ، ومنهُمْ مَنْ ضَعَّفَهُ، ومنهُمْ مَنْ فَصَّلَ كشَيخِ الإِسْلامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، قالَ: إنِ انْتَهَى النَّاسُ بالجَلْدِ اكْتَفَيْنَا به، وإنْ لَمْ يَنْتَهُوا فإِنَّهُ يُقتَلُ؛ رَدْعًا للناسِ[1]. وهَذَا الَّذِي قالَهُ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ غايَةُ الفِقْهِ؛ لأَنَّ قَتْلَهُ حينئذٍ مِنْ بَابِ دفْعِ الصَّائِلِ، والصَّائِلُ إذَا لَمْ يَنْتَهِ إِلَّا بالقَتْلِ فإِنَّهُ يجوزُ قَتْلُهُ.

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾ [المُطَفِّفِينَ:٢٧] التَّسْنِيمُ أيِ: الشَّيْءُ العالِي، مأخوذٌ مِنْ سَنامِ البَعِيرِ، وهُوَ أعْلَى جِسْمِهَا ﴿عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ:٢٨] والمُقَرَّبُونَ هُمُ الأَبْرارُ السَّابِقُونَ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ:٢٩] وانْتَبِهْ لهَذَا المَشْهَدِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ أيْ بالكُفْرِ والفُسُوقِ ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ أيْ: كانُوا فِي الدُّنْيا يَضْحَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ، ويَسْخَرُونَ بِهِمْ، ويَسْتَهِينُونَ بِهِمْ، ويَقُولُونَ: إنَّهُمْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ، وإنَّهُم حَشْوٌ، فيَضْحَكُونَ.

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ:٣٠] هلِ المُرَادُ: إذَا مرَّ المُجرِمُونَ بالمُؤْمِنِينَ، أَوْ إذَا مرَّ المُؤْمِنُونَ بالمُجْرِمِينَ؟

الجَوابُ: الآيَةُ صالِحَةٌ للوَجْهَيْنِ، وقدْ أعطَيْنَاكُمْ قاعِدَةً مُفِيدَةً فِي التَّفْسِيرِ: إذَا احْتَمَلَتِ الآيَةُ مَعنيَيْنِ لَا مُرَجِّحَ لأَحدِهِمَا عَلَى الآخَرِ، ولا يُنافِي أحَدُهُمَا الآخَرَ فإِنَّهَا تُحمَلُ علَيْهِمَا.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٣٦-٣٣٧).

لنُطَبِّقْ هَذَا عَلَى الآيَةِ: إذَا مرَّ المُجْرِمُونَ بالمُؤْمِنِينَ يتَغامَزُونَ، يَغْمِزُ بعْضُهُمْ بَعْضًا، انْظُرْ هَذَا المِسْكِينَ! انْظُرْ هَذَا الرَّجْعِيَّ! انْظُرْ هَذَا الضَّالَ! هَذِهِ واحِدَةٌ.

إذَا مرَّ المُؤْمِنُونَ بالمُجْرِمِينَ عابِرِينَ قالُوا: انْظُرْ هَذَا مِنَ الضُّلَّالِ، مِنَ الرَّجْعِيِّينَ، مِنَ الَّذِينَ لَا فائِدَةَ مِنْهُمْ ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المُطَفِّفِين:٣٠] إذَنِ: الآيَةُ صالِحَةٌ للوَجْهَيْنِ جَمِيعًا.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ [المُطَفِّفِين:٣١] أيْ: إذَا انْقَلَبَ هَؤُلَاءِ المُجْرِمُونَ إلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ، أيْ مُتَنَعِّمِينَ بِمَا جَرَى مِنْهُمْ مِنَ الضَّحِكِ عَلَى هَؤُلَاءِ، والتَّغامُزِ بِهِمْ.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المُطَفِّفِين:٣٢] إذَا رأَى المُجْرِمُونَ هؤُلَاءِ المُؤْمِنِينَ قالَ: هَؤُلَاءِ ضَالُّونَ، ويَنْطَبِقُ هَذَا عَلَى مَا يُوجَدُ فِي عَصْرِنَا اليَوْمَ مِنْ أُولَئِكَ القَوْمِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إنَّ الإِسْلامَ تَأَخُّرٌ، وإنَّ التَّمَسُّكَ بِهِ تَأَخُّرٌ، وإنَّ المُتَمَسِّكَ بِهِ رَجْعِيٌّ، وإنَّهُ لَا يُمْكِنُ أنْ نَرْجِعَ إلَى عَصْرِ النَّاقَةِ والجَمَلِ، ويُوجَدُ هَذَا الآنَ مِنَ المُلْحِدِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِدِينِ الإِسْلامِ، لكنْ نقولُ لَهُمْ: انْتَظِرُوا جزَاءَكُمْ.

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المُطَفِّفِين:٣٤] وذَلِكَ يَوْمَ القِيامَةِ، وهَذَا واللهِ الضَّحِكُ الَّذِي لَا بُكاءَ بَعْدَهُ، أَمَّا ضَحِكُ المُجْرِمِينَ بالمُؤْمِنِينَ بالدُّنْيَا فإنَّ بعدَهُ البُكاءَ الطَّوِيلَ.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المُطَفِّفِين:٣٥] أيْ: يَنْظُرُونَ إلَى عذابِ هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أيْ: مِنْ أهلِ الجَنَّةِ: ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ [الصَّافَّاتِ:٥٠-٥٣] لهُ قَرِينٌ صاحِبٌ يقولُ: أَنْكِرُ البَعْثَ، كَيْفَ إذَا كُنَّا عِظامًا ورُفاتًا كَيْفَ نُبْعَثُ ونُجازَى؟! أُنْكِرُ هَذَا ﴿قَالَ﴾ أيِ: الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لأصحابِهِ: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ [الصَّافَّاتِ:٥٤] والاسْتِفْهامُ هُنَا للتَّشْوِيقِ، يُشَوِّقُهُمْ إِلَى أَنْ يَطَّلِعُوا إِلَى قَرِينِهِ ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصَّافَّاتِ:٥٥] أيْ: فِي أَصْلِ الجَحِيم ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصَّافَّاتِ:٥٦-٥٧] يُخاطِبُهُ وهُوَ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ، وذاكَ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ.

فإنْ قَالَ قائِلٌ: كَيْفَ رآهُ وكيفَ خَاطَبَهُ؟

قُلْنَا: مَوْقِفُنَا مِنْ مِثْلِ هَذَا الأمْرِ أَنْ نَقُولَ: آمَنَّا وصَدَّقْنَا، وهَذَا شَيْءٌ فَوْقَ عُقُولِنَا، يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُصَدِّقَ به، ثُمَّ نقولُ: إنَّهُ وقَعَ مَا يَدُلُّ عَلَى إمْكانِ ذَلِكَ فِي الدُّنْيا، فالآنَ تُوجَدُ أَجْهِزَةٌ يُمْكِنُ أَنْ يَتَخاطَبَ بِهَا النَّاسُ ويَتَرَاءَوْنَ مِنْ بَعِيدٍ، والَّذِينَ عاشُوا فِي أُورُوبَّا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ مَا لَا نَعْرِفُ، سُبْحَانَ اللهِ! تُعْقَدُ نَدواتٌ، واحِدٌ فِي أَقْصَى المَشْرِقِ والثَّانِي فِي أقْصَى المَغْرِبِ، وتُوضَعُ فِي التِّلْفازِ نَدْوَةٌ، أَوْ فِي التِّليفونِ -فِفِي التِّليفونِ أَيْضًا يُشاهَدُ الإنْسَانُ المُتَكَلِّمُ- هَذَا وهُوَ مِنْ صُنْعِ الآدَمِيِّ، فكَيْفَ بما هُوَ صُنْعُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟!

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ:٣٦] يَعْنِي قَدْ ثُوِّبَ وجُوزِي الكُفَّارُ عَلَى مَا كانُوا يَفْعَلُونَ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ والكُفْرِ بآياتِهِ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعالَى أنْ يَخْتِمَ لنَا ولكُمْ بخَاتِمَةِ السَّعادَةِ، وأنْ يَجْعَلَ مُسْتَقْبَلَ أمْرِنَا خيْرًا مِنْ مَاضِيهِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



سورةُ البروجِ

الدرسُ الأولُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُه، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، وسَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عبدهُ ورسولُه، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج:١-١١].

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ إلى آخرِ السورةِ، وفي هَذَا إشكالٌ؛ وهو أنَّ اللهَ تَعالَى أقسمَ بالسَّماءِ ذاتِ البُروجِ، معَ أن الإقسامَ بغيرِ اللهِ شِركٌ كما تَقَرَّرَ، فكيف نجمعُ بين هَذَا وبين قولِنا: إن الحَلِفَ بغيرِ اللهِ شِركٌ؟

الجوابُ: أنَّ للهِ أن يحلفَ بما شاءَ مِن خَلْقِه، وأمَّا الخلقُ فلا يَحلِفون إلَّا باللهِ،

أو باسمٍ من أسمائِه، أو صفةٍ من صفاتِه.

أرأيتمُ السُّجُودَ لغيرِ اللهِ؟ فإنَّه شِركٌ، ومع ذلك كان تَرْكُ السُّجُودِ لغيرِ الله كُفرًا، وذلك حينَ أمرَ اللهُ الملائكةَ أنْ تسجدَ لآدمَ، فسَجَدُوا إلَّا إبليسَ اسْتكْبَرَ وكان من الكافرينَ، فانظرِ الآنَ: السُّجُودُ لغيرِ اللهِ شِركٌ، وكان حينَ أمرَ اللهُ به لغيرِ اللهِ كان عبادةً، وكان تَركُه كفرًا.

وكذلك قتلُ النفسِ؛ وأعظمُها أن يقتلَ الإِنْسَانِ ولدَه، فهو من كبائرِ الذنوبِ، ولمَّا أمرَ اللهُ نبيَّه إبراهيمَ الخليلَ أن يَقْتُلَ ابنَه، صَارَ قتلُه عبادةً وطاعةً.

إذن، للهِ تَعَالَى أن يفعلَ ما شاءَ، وأن يحكمَ بما شَاءَ، فهو ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾.

(ذَاتِ) بمعنى: صاحبةِ، والبُروجُ جمعُ بُرْجٍ، وهي عبارةٌ عن مجموعاتٍ عظيمةٍ كبيرةٍ منَ النجومِ، سُمِّيَتْ بُروجًا لأنَّها تُشبِهُ البناياتِ العظيمةَ الكبيرةَ، والبروجُ اثْنَا عَشَرَ بُرجًا؛ ثلاثةٌ للرَّبيعِ، وثلاثةٌ للشتاءِ، وثلاثةٌ للصيفِ، وثلاثةٌ للخريفِ، فعندَ استواءِ اللَّيلِ والنهارِ بعدَ الشتاءِ يكونُ هَذَا الربيعُ، وعند انتهاءِ اللَّيلِ في الطُّولِ، والنهارِ في القِصَرِ يكونُ الشتاءُ، ثمَّ إذا رجعتِ الشمسُ حتَّى يتساوى اللَّيلُ والنهارُ فهَذَا فصلُ الخَريفِ، ثمَّ فصلُ الصيفِ.

والحَمَلُ والثَّورُ والجَوْزاءُ هذه الثلاثةُ للربيعِ.

والسَّرَطَانُ والأسدُ والسُّنْبُلَةُ للصَّيفِ.

والمِيزَانُ والعَقْرَبُ والقَوسُ للخَريفِ.

والجَدْيُ والدَّلْوُ والحُوتُ للشتاءِ.

فهذِهِ اثنا عَشَرَ بُرْجًا، أقسمَ اللهُ تَعَالَى بها لِعَظَمَتِها وعِظَمِ خَلقها.

قوله: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾ [البروج:٢] هو يومُ القيامةِ، وأقسمَ اللهُ به لأنَّه يومُ الجَزاءِ وإقامةِ العدلِ.

قولُه: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ [البروج:٣] أيضًا يومَ القيامةِ، وفيه الشاهدُ والمشهودُ عليه، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

قولُه: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ [البروج:٤] هَذَا هو جوابُ القسمِ الَّذي هو ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ وما عُطِفَ عليه؛ لأنَّ كلَّ قَسَمٍ لا بُدَّ فيه من مُقْسِمٍ، ومُقْسَمٍ به، وصِيغةِ قَسَمٍ، ومُقْسَمٍ عليه، أربعةُ أشياءَ.

قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ﴾ [التوبة:٥٦] وهذِهِ الآيَةُ جمعتْ أركانَ القسمِ الأربعة:

﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ هذه صِيغةُ القَسَمِ.

المقسِمُ هو الواوُ في (يحلفونَ)

و(الله) المقسَمُ به.

و﴿إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ﴾ المقسَمُ عليه.

فقوله: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾، هَذَا جوابُ القَسَمِ.

وأصحابُ الأخدودِ هم الَّذين خَدُّوا في الأرضِ؛ أي حَفَروا أُخْدُودًا، من أجْلِ أن يُلقُوا فيه المؤمنينَ ويُحْرِقُوهم؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ أي: صاحبةِ الوقودِ، وهو الحطبُ الَّذي يُوقَدُ به، وكَوْنُها وُصِفَتْ بأنها ذاتُ الوقودِ يدُلُّ على أنهم اتخَذُوا وَقودًا عَظيمًا.

قوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج:٦] (هم) يعودُ على أصحابِ الأخدودِ، (عليها) على النارِ أيْ حَوْلَها، (قُعودٌ) يَتفَرَّجُون والنارُ تأْكُلُ المؤمنينَ، لَكِنَّهم يَتفَرَّجُونَ عليهم -والعياذُ باللهِ- لِقَسوةِ قلوبِهم، وشِدَّةِ حَنَقِهم وعداوتِهم للمؤمنينَ.

قولُه: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج:٧] (هم) أي القعود ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ يشاهدونهم وهم يَتَفَكَّهون بهَذَا المشهدِ -والعياذُ باللهِ-.

وما ذَنْبُهُمْ؟ قالَ تعالَى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨] هَذَا الَّذي نَقَمُوا منه، وكان عليهم لو كانوا عُقَلَاءَ أن يُكْرِمُوهُمْ؛ لأَنَّهم آمَنوا باللهِ العَزيزِ الحَميدِ، لكنَّهم -والعياذُ باللهِ- قَتَلُوا أولياءَ اللهِ شرَّ قِتلةٍ، وذلك بما أَوقدوا منَ النارِ وأَلْقُوهُمْ فيها.

قولُه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج:٩] فهو المالِكُ عَزَّوَجَلَّ مُلكًا مُطلَقًا، لا أحدَ يُنازِعُه في مُلكِه، ولا أحدَ يَعترِضُ عليه فيما فَعَلَ في مُلْكِهِ.

فقولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: كلِّ شيءٍ ممَّا يُصْنَعُ في هَذَا الكونِ، أو يقعُ في هَذَا الكونِ، فاللهُ تَعالَى شهيدٌ عليه، بل هو عَزَّوَجَلَّ شَهيدٌ على ما في القلوبِ مِمَّا لا يَعْلَمُه أحدٌ.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠] فَتَنُوهم أي صَدُّوهم عن دِينِهم، وقيل: إن الفتنةَ هنا بمعنى الإحراقِ؛ أي أَحْرَقوهم، وهما مُتلازِمانِ؛ لأنَّهم صَدُّوا النَّاسَ عن دِينِهم، وأَحْرَقُوا مَن لم يَرجِعْ عن دِينه.

قَالَ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾. انظرْ إلى سَعَةِ رحمةِ اللهِ، يُحْرِقون أولياءَه، ثمَّ يَعرِضُ عليهم التوبةَ. ولو تَابُوا لَعفَا اللهُ عنهم، ولهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ الَّذي هو عذابُ النارِ؛ لأنَّ النارَ تُحرِقُ أهلَها، ولكنَّهم كلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهم بُدِّلوا جُلُودًا غيرَها؛ لِيَذُوقوا العذابَ أبدَ الآبِدِينَ، هكذا يُفعَلُ بهم -والعياذُ باللهِ- تُحرِقهم النارُ، ثمَّ تعودُ الجلودُ، ثمَّ تُحْرَقُ، ثمَّ تعودُ، ثمَّ تحرقُ من أجلِ أن يتكررَ العذابُ عليهم أبدَ الآبدينَ.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج:١١].

من أوصافِ القُرآنِ أنَّه مَثانٍ، تُثَنَّى فيه المعاني؛ فلمَّا ذَكَرَ عذابَ هؤلاءِ، ذَكَرَ نعيمَ المؤمنينَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمَنُوا بكلِّ ما يَجِبُ الإيمانُ به، وقد بيَّن رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَرْكَانَ الإيمانِ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١).

أضافَ إلى ذلك: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فلا بُدَّ من إيمانٍ وعملٍ، فالإيمانُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم (٩).

وحدَه لا يَكْفِي، ولكن يجبُ أن يُعْلَمَ أن الإِنْسَانَ إذا آمَنَ حَقًّا بهذهِ الستَّةِ، فإِنَّه سوفَ يَعمَلُ عملًا صالحًا، لكن مع هَذَا لا بُدَّ من العملِ الصالحِ، والعملُ الصالحُ ما جمعَ شرطينِ:

الأول: الإخلاصُ للهِ.

والثَّاني: اتِّباعُ شَريعةِ اللهِ.

وإنما قُلنا: اتباعُ شريعةِ اللهِ؛ ليشملَ إيمانَ هذه الأُمَّة وإيمانَ مَن سَبَقَهم.

أما الإخلاصُ للهِ فإذا فُقِدَ بَطَلَ العملُ؛ ففي الحديثِ الصحيحِ القُدُسِيِّ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

وفي الحديثِ الصحيحِ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢).

إذن، لا بُدَّ أن يكونَ العملُ على شريعةِ اللهِ، وأن يكونَ خَالِصًا للهِ عَزَّوَجَلَّ.

قولُه: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جناتٌ جمعُ جنةٍ، والجنةُ هي الدارُ الَّتي أَعَدَّها اللهُ تَعَالَى لأوليائِه، وفيها «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، بابٌ، رقم (٢٨٢٤).

قولُه: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (مِنْ تَحْتِهَا) ليسَ المرادُ من تحتِ أَرْضِها، بل هذه الأنهارُ تَجْرِي على السَّطحِ، ولكنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحتِ أشجارِها وقُصورِها، والأنهارُ جمعُ نَهرٍ، وقد بيَّنَ اللهُ تَعَالَى في سورةِ القتالِ أن الأنهارَ أربعةُ أنواعٍ:

أنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى، ونهرٌ من لبنٍ، ونهرٌ من ماءٍ، ونهرٌ من خمرٍ، قال تَعَالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

وهذهِ الأنهارُ كلُّها مَوصوفةٌ بصفةِ مدحٍ وكمالٍ:

ماءٌ غيرُ آسِنٍ: أي غيرُ مُتغَيِّرٍ، لا يَقبلُ التغيُّرَ إطلاقًا، بينما ماءُ الدُّنْيَا إذا أبطأَ تغيَّرَ، وصار آسِنًا، أي مُتغَيِّرًا.

وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّرْ طعمُه: ولبنُ الدُّنْيَا إذا أبطأَ تغيَّرَ.

وأنهارٌ من خمرٍ لَذَّةٍ للشاربينَ: وقد وصفَ اللهُ هَذَا الخمرَ في قولِه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات:٤٥-٤٧]؛ فهي لا تُصدِّعُ الرأسَ ولا تُخِلُّ بالعقلِ، بل هي لَذَّةٌ مُطلَقةٌ.

والرَّابعُ: أنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى؛ لم يخرجْ من بطونِ النحلِ، ولكنَّه مِمَّا خَلَقَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ في تلك الجنةِ.

نسألُ اللهَ أن يَجْعَلَنا وإياكم من أهلِها.

قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج:١١] (الكَبيرُ) صفةُ الفوزِ، وهَذَا التركيبُ

-أي إذا أتى المبتدأُ والخبرُ وكلاهما مَعْرِفَةٌ- يدُلُّ على الحَصْرِ، والحصرُ: إثباتُ الحُكْمِ في المذكورِ، ونَفْيُه عمَّا سِواه؛ أي ذلك هو الفوزُ، وما سواهُ فإنَّه ليسَ فوزًا كبيرًا، بل الفوزُ الكبيرُ هو دخولُ الجنَّةِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

من فوائد هذه الآيات: الصبر:

وفي هذه الآياتِ فوائدُ كثيرةٌ، لكن نُنبِّه على شيءٍ واحدٍ، وهو الصبرُ على الأذى في اللهِ، فهؤلاء صَبَرُوا على التعذيبِ بالنارِ؛ لأنَّ هؤلاء المؤمنينَ صَبَرُوا على الإحراقِ بالنارِ مع الثباتِ على دِينِهم، وأكثرُ النَّاسِ على خِلافِ ذلك، فأكثرُ النَّاسِ على قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠] ثمَّ ارتدَّ عن دِينِه خوفًا من فتنةِ النَّاسِ، وقالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على طَرَفٍ ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

لكنَّ المؤمنَ يَثْبُتُ على الإيمانِ، ويقولُ كما قالَ السحرةُ لِفِرْعَوْنَ حين آمَنُوا، قالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه:٧٢] ولا يُهِمُّنا، فالحياةُ الدُّنْيَا مُنْقَضِيَةٌ، مُنْتَهِيَةٌ، لن تَدومَ، ولكنَّ الشأنَ كلَّ الشأنِ على أيِّ حالٍ يموتُ الإِنْسَانُ؛ ولذلك لا تُفكِّرُ متى تموتُ ولا أين تموتُ؛ لأنَّك مهما طالتْ بك الدُّنْيا فمآلُكَ إلى الموتِ، ولا تفكِّرْ متى تموتُ؛ هل بعدَ عُمُرٍ طويلٍ أو بعد عُمُرٍ قصيرٍ، فكلُّ هَذَا سَيَذْهَبُ كأنه سَاعَةٌ، لكن فكِّرْ يا أخي المسلم على أيِّ حالٍ تموتُ، واسألِ اللهَ دائمًا حُسْنَ الخاتمةِ، وأن يجعلَ خيرَ عُمُرِكَ آخِرَه، وخيرَ عَمَلِك خواتمَه؛

لأن الأعمالَ بالخواتيمِ؛ كما في حديثِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا»[١].

والمرادُ بـ «حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ» أي في زمنِ البقاءِ، لا في درجاتِ العملِ؛ لأن الإِنْسَانَ لو عمِلَ عملًا صالحًا يصلُ إلى ألَّا يبقى بينه وبين الجنةِ إلَّا ذِراعٌ، فإن اللهَ لن يخْذُلَه، لكن يعملُ عملًا ظاهِرُهُ الصلاحُ حتَّى إذا قرُب الأجلُ -والعياذُ باللهِ- انْتكَسَ. نسألُ اللهَ السلامةَ.

وفي الصحيحِ أن رجلًا كان مع النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غَزوةٍ، وكان هَذَا الرجلُ شُجاعًا؛ لا يدعُ شَاذَّةً ولا فاذَّةً للعدوِّ، وتعجَّبَ النَّاسُ من إقدامِه وشجاعتِه، فقال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» -أعاذنا اللهُ وإياكم منها- فكبُرَ ذلك على المُسْلمينَ، وقالوا: إذا كان هَذَا الرجلُ الشجاعُ المقدامُ مِنْ أهلِ النارِ، فمَن يكونُ من أهلِ الجنةِ؟! فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ أَبَدًا، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ، كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ. فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم -صلوات الله عليه- وذريته، رقم (٣٣٣٢)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٣).

لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ حَتَّى جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»(١).

ففَتِّشْ يا أخي عن قَلْبِك، هل القلبُ ثابتٌ مطمئنٌّ بالإيمانِ، مُخْلِصٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فأَبْشِرْ بالخيرِ، وهل هو على خِلافِ ذلكَ؛ فصَحِّحِ المَسارَ، وصَحِّحِ النِّيَّةَ، وأخلِ قلبَك من الحقدِ والبغضاءِ للمسلمينَ، وأخلِ قلبَكَ من الشكِّ، والشِّركِ، والنفاقِ، حتَّى تكونَ العاقبةُ لكَ حميدةً إنْ شاء اللهُ تَعَالَى.

وصَلَّى اللهُ على نَبيِّنا مُحَمَّدٍ، والحمدُ للهِ الَّذي بحمدِه تتمُّ الصالحاتُ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد، رقم (٢٧٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، رقم (١١٢).

الدرسُ الثاني:

إن الحمدَ للهِ نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، ومنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سورةِ البروجِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠].

وفي هذه السورةِ العظيمةِ قصَّ اللهُ علينا نبأَ أصحابِ الأخدودِ الذينَ ضربُوا أخاديدَ في الأرضِ لمنْ آمنَ باللهِ، وجعلُوا يُحْرِقونَهُمْ في هذه الأخاديدِ ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨]، ولكنْ هؤلاءِ المؤمنونَ قد رسخَ الإيمانُ في قلوبِهم، وآمنُوا باللهِ إيمانًا عميقًا، وآمَنُوا بأَنَّهُمْ إذا انْتَقَلُوا مِن هذه الدارِ الفانيةِ المملوءةِ بالكدَرِ فإنهم يَنْتَقِلُونَ إلى دارٍ خيرٍ منها؛ كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧] فالآخرةُ خيرٌ وأبقى لكنها لِمَنِ اتقَى؛ كما قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧]، أما مَن لم يتقِ اللهَ فإن الآخرةَ شرٌّ لهُ منَ الدنيا.

وذُكِرَ أن الحافظَ ابنَ حجرٍ لما كان قاضيَ القضاةِ بمصرَ مرَّ يومًا بالسوقِ في موكبٍ عظيمٍ وهيئةٍ جميلةٍ، فهجمَ عليهِ يهوديٌّ يبيعُ الزيتَ الحارَّ، وأثوابُه ملطخةٌ بالزيتِ، وهوَ في غايةِ الرثاثةِ والشناعةِ، فقبضَ على لجامِ بغلتِه وقالَ: يا شيخَ

الإسلامِ، تزعمُ أن نبيَّكُم قالَ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الكَافِرِ»[1]. فأيُّ سجنٍ أنتَ فيهِ، وأيُّ جنةٍ أنا فيها؟! فقالَ: أنا بالنسبةِ لما أعدَّ اللهُ لي في الآخرةِ مِنَ النعيمِ كأني الآنَ في السجنِ، وأنتَ بالنسبةِ لما أعدَّ لكَ في الآخرةِ منَ العذابِ الأليمِ كأنكَ في جنةٍ! فأسلمَ اليهوديُّ[2].

وصدقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إذ يقولُ: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧].

أقولُ: إن هؤلاءِ المؤمنينَ الذينَ نقِمَ منهمْ هؤلاءِ المجرمونَ أن يُؤمِنوا باللهِ العزيزِ الحميدِ، هؤلاءِ صَبرُوا على ما أُوذُوا، والصبرُ على الإيذاءِ في اللهِ عَزَّوَجَلَّ منْ خصالِ الرسلِ الكرامِ، كما قالَ اللهُ تَعَالَى لرسولِه محمدٍ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ يعني: جَمَعَ لهمْ بينَ التكذيبِ والإيذاءِ ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤] يعني: فاصبرْ فأنتَ على حقٍّ.

إذنْ، أُوجِّهُ كلمتي هذه إلى الشبابِ، خاصةً الذينَ وُفِّقُوا للالتزامِ والتزمُوا بدينِ اللهِ وآمنُوا باللهِ، واتجهُوا اتجاهًا سليمًا، ولكنهُ يحصلُ لهم إيذاءٌ؛ إما مِن بعضِ أصحابِهم سابقًا، وإما منْ بعضِ أهليهِمُ الذينَ عندَهُم في بيوتِهم؛ كما شكَا إلينا كثيرٌ منَ الشبابِ الذينَ يُؤذَوْنَ مِن قِبلِ أهليهمْ، فيكونُ أهلُوهم قد شَبُّوا وشابُوا على المنكراتِ وعلى المحرماتِ، فإذا رأوْا هذَا الملتزمَ مِن فتًى أو فتاةٍ آذوهُ إيذاءً

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦).
(٢) فيض القدير (٣/ ٥٤٦).

عظيمًا، فأقولُ لهؤلاء: اصبرُوا، اصبرُوا، اصبرُوا؛ فإن العاقبةَ للمتقينَ، ولا تَيأَسُوا من رَوحِ اللهِ، وانصحُوا أهليكُم؛ فإنَّهُ رُبَّ كلمةٍ أَثَّرَتْ في القلبِ كما كان ذلك كثيرًا، فكثيرًا ما نيأَسُ مِن أن يهديَ اللهُ أحدًا منَ الناسِ لتوَغُّلِه في الفسوقِ والفجورِ، ولكنْ يهدِيه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فالقلوبُ بينَ أُصْبُعَيْنِ من أصابعِ الرحمنِ عَزَّوَجَلَّ يُصرِّفُها كيفَ يشاءُ[1]. اللهمَّ صَرِّفْ قلوبَنا إلى طاعتِك، اللهمَّ مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلوبَنا على دينِك يا ربَّ العالمينَ.

فهؤلاءِ الفتيةُ الذينَ صَبَرُوا على أن يُحْرَقُوا بالنارِ، وثَبَتُوا على إيمانهمْ لنا فيهمْ أُسْوَةٌ، وهذهِ الأمةُ خيرُ الأممِ، فإذا كان مَن سَبقَنا يَصْبِرُونَ على هذا الأذى فلنكنْ نحنُ أولى منهمْ بذلكَ، فلْنَصْبِرْ فإن العاقبةَ للمتقينَ، وأمَّا ما يَحْصُلُ من بعضِ الشبابِ من عدمِ الصبرِ واللجوءِ إلى العنفِ والإفسادِ والتخريبِ فهذا لا شكَّ أنهُ خِلَافُ طريقِ المرسلينَ، وخِلَافُ هديِ السلفِ الصالحِ، بلِ الواجبُ الصبرُ.

ولذلكَ نجدُ أن عاقبةَ العنفِ والشِّدَّةِ وأنْ يريدَ الإنسانُ أن يهتديَ الناسُ بينَ عشيةٍ وضحاها، فيلجأُ إلى القوةِ؛ نجدُ أن العاقبةَ تكونُ سيئةً، وتكونُ العاقبةُ سيئةً ليسَ فقطْ على هؤلاءِ الذين باشرُوا هذا الفعلَ الأهوجَ، ولكنْ حتى على غيرِهم من دعاةِ الحقِّ؛ لأنهم يكونونَ سببًا في ردعِ غيرِهم عنْ دعوتِهم إلى اللهِ.

إذنْ، يجبُ الصبرُ واستعمالُ الحكمةِ وعدمُ العنفِ، والذي لا يأتي اليومَ يأتي غدًا، والذي لا يأتي غدًا يأتي بعدَ غدٍ، والذي لا يُدْرِكُهُ الإنسانُ في حياتِهِ ودعوتُه حقٌّ يدركُه بعدَ مماتِه؛ فإنَّ الداعيَ إلى الحقِّ له أجرُ مَنْ عَمِلَ بهِ ولو بعدَ موتِه،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

فلا تَسْتَعْجِلْ يا أخِي، ولا تَسْتَعْمِلْ ما يكونُ سَبَبًا لضررِكَ وضررِ غيرِكَ؛ فإن رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أُوذِيَ أشدَّ الإيذاءِ في مَكَّةَ، ومعَ ذلكَ لم يؤمرْ بالجهادِ، ولم يُؤْمَرْ بالقتالِ؛ لأن السلطةَ كانتْ في ذلكَ الوقتِ للكافرينَ؛ لمشركي قريشٍ.

ومنَ السفهِ عقلًا والضلالِ دِينًا أن يُقَاوِمَ الإنسانُ السلاحَ المكثفَ الشديدَ بمثلِ سكينِ المطبخِ، وعصَا الراعي.

إذنْ، يا أخي انتظرْ واصبرْ فإن العاقبةَ للمتقينَ، وادعُ إلى اللهِ لكنْ بالحكمةِ وبالوسيلةِ التي تكونُ أقربَ إلى المقصودِ، واعلمْ أن مُنَابَذَةَ الحُكَّامِ منَ الأمورِ المنهيِّ عنها، نهى عنها النبيُّ ﷺ وأَمَرَنَا أن نَصْبِرَ فقالَ: «**مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا، فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا، فَمَاتَ عَلَيْهِ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»(١).

لذلكَ أحثُّ إخوانَنا الَّذِينَ يجِدُونَ في وُلَاتِهم ما يُخَالِفُ شريعةَ اللهِ، مما لا يَصِلُ إلى الكفرِ، أحثُّهم على الصبرِ وانتظارِ الفرجِ، وأن يَدْعُوا إلى اللهِ تعالى بالحكمةِ، وألا يحاولوا إطلاقًا أن يَخْرُجُوا الخروجَ المسلحَ؛ فإن العاقبةَ في ذلكَ سيئةٌ، ومن دَرَسَ التاريخَ مِن أولِه إلى يومِنَا هذا عَلِمَ حقيقةَ ما وقعَ، وأنهُ لا يَحْصُلُ من ذلكَ إلا الشرُّ والبلاءُ، فلْنَصْبِرْ ولْنَحْتَسِبْ حتى يأتيَ اللهُ بأمرِهِ.

أعودُ إلى قصةِ أصحابِ الأخدودِ فأقولُ: هؤلاءِ الذينَ أُحْرِقوا بالنارِ من

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم (٧١٤٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، رقم (١٨٤٩).

أجْلِ أنهم آمَنُوا باللهِ العزيزِ الحميدِ؛ لا شَكَّ أن الذينَ أَحْرَقُوهم أَتَوْا إثمًا عظيمًا، وذنبًا كبيرًا، وعدوانًا على غيرِهم، ولكنِ استمعْ إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج:١٠] أي: صدُّوهُم عن دينِهم، أو أَحْرَقُوهم؛ لأن الفتنةَ تُطْلَقُ على معانٍ كثيرةٍ؛ منها الإحراقُ، ومنها الصدُّ عن دينِ اللهِ، فهنا ﴿فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتملُ أن المرادَ أحرقُوهم، أو أنَّ المرادَ صدُّوهم عن دينِهم.

فإن قالَ قائلٌ: فأيُّهما أولى: الإحراقُ، أم الصدُّ عن دينِ اللهِ؟

قُلْنَا: كلاهُما حقٌّ، وإني أُعطِيكُم قاعدةً مفيدةً في التفسيرِ، بلْ وفي الحديثِ النبويِّ: كلُّ نصٍّ منَ القرآنِ أوِ السنةِ يحتملُ معنيينِ، لا يتضادانِ، ولا مرجحَ لأحدِهما على الآخرِ، فالواجبُ حملُ النصِّ عليهما.

ولهذا أمثلةٌ كثيرةٌ: منها هذه الآيةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي صدوهُم عن دينِهم أو أَحرقُوهُم.

ونأتي بمثالٍ يوضحُ حتى تَقيسُوا عليهِ؛ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٧-١٨] قال بعضُ المفسرينَ: (عَسْعَسَ) يعني أَدْبَرَ. وقالَ بعضُ المفسرينَ: (عَسْعَسَ) يعني أقبلَ. والكلمةُ منَ الكلماتِ المتضادةِ، يعني من كلماتِ الأضدادِ التي يكونُ اللفظُ فيها صالحًا للمعنى وضدِّهِ، فيحملُ النصُّ عَلَيْهَا كلَيْهِما؛ لأنَّ كلَيهِما صالحٌ، فالليلُ في إقبالِه والليلُ في إدبارِهِ لا شكَّ أَنَّهُ آيةٌ عظيمةٌ من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ اللهُ أكبرُ! ما أَحْلَمَ اللهَ على خلقِه! عَرَضَ عليهمُ التوبةَ قبلَ أن يَذْكُرَ

وعيدَهُ؛ لأن جملةَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هِيَ محلُّ المبتدأِ، وخَبرُهُ: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾، فذكَرَ التوبةَ قبلَ أن يَذْكُرَ الجزاءَ، كأنَّهُ يَعرِضُ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَتوبُوا، وأنهم إذا تابُوا رفعَ اللهُ عنهم العقوبةَ.

فانظرْ إلى حِلْمِ اللهِ! يحرقونَ أولياءَه بالنارِ ويفتنونَهمْ عن دينِهمْ ثم يَعرِضُ عليهمُ التوبةَ، أتجدونَ حِلمًا أوسعَ مِن هـذا؟! أبدًا واللهِ، إن اللهَ تعـالى حليمٌ، لا يعاجِلُ بالعقوبةِ، بل يُمْهِلُ العاصيَ، ولكنهُ إذا تمادَى العاصي في عِصْيَانِهِ فإن اللهَ تعالى يأخُذُهُ أخذًا شديدًا، قالَ النبيُّ -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ-: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُمْلِي لِلظَّالِمِ» يعني يُمْهِلُه «فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» وتلا قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢][1].

فمِنْ هذه الآيةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ نأخذُ فوائدَ: أعظمُها فائدةُ سعةُ حلمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنهُ حليمٌ لا يُعَجِّلُ بالعقوبةِ، بل يَعْرِضُ التوبةَ الرافعةَ للعقوبةِ لعلَّ العبدَ يتوبُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

اللَّهُمَّ إنا نَسْأَلُكَ أن تتوبَ علينا يا ربَّ العالمينَ.

ومنْ فوائدِ هذه الآيةِ أن الكافرَ إذا أسلمَ عفَا اللهُ عنهُ فيما سلفَ مما فيهِ اعتداءٌ على الخلقِ، ومما فيهِ اعتداءٌ في حقِّ الخالقِ، فإنَّ اللهَ يعفُو عنهُ حتى لو كان الكافرُ قتلَ ألفَ مسلمٍ، فإذا تابَ تابَ اللهُ عليهِ، ورفعَ عنهُ عقوبةَ القتلِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، رقم (٤٦٨٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣).

ودليلُ هذا قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، كلُّ ما سلفَ منَ الذنوبِ، وقولُ النبيِّ ﷺ لعمروِ بنِ العاصِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟»[1]. وهذا من أعظمِ الترغيبِ في الإسْلامِ.

ولذلكَ نقولُ فيمنْ كان في أولِ أمرِه على ضلالٍ؛ لا يُصَلِّي ولا يصومُ، ويفعلُ المحرماتِ، فهنا إذا كان لا يُصَلِّي فقدْ وصلَ إلى درجةِ الكفرِ، نقولُ لهُ: إذا تُبْتَ تابَ اللهُ عليكَ، ليسَ عليكَ قضاءُ صلاةٍ ولا قضاءُ صومٍ ولا غيرُ ذلكَ؛ لأن مَنْ تَابَ مِنَ الكفرِ تَابَ اللهُ عليهِ، وكذلكَ مَنْ تَابَ مِنَ الفسوقِ فإن اللهَ تعالى يتوبُ عليهِ؛ لأن التوبةَ تهدمُ ما قبلَها.

ولكنْ يَبقى علينَا أن نَعْرِفَ ما معنى التوبةِ، وما شروطُ التوبةِ:

التوبةُ: هيَ الرجوعُ إلى اللهِ من معصيتِهِ إلى طاعتِهِ، وهيَ قسمانِ: توبةٌ مقيدةٌ، وتوبةٌ مطلقةٌ.

فالتوبةُ المقَيَّدَةُ أن تتوبَ من ذنبٍ معينٍ معَ الإصرارِ على غيرِهِ، والتوبةُ المطلقةُ أن تتوبَ من كل ذنبٍ، فَتُفَكِّرُ في نفسِكَ وكلِّ ذنبٍ أنتَ عليهِ تتوبُ منهُ.

والتوبةُ العامةُ المطلقةُ يكونُ مَن قامَ بها مِنَ التَّوَّابِينَ، فيُسَمَّى توابًا، وقدْ قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، أما التوبةُ الخاصةُ المقيدَةُ من ذنبٍ معينٍ فهذهِ يقالُ فيها: إن الإنسانَ تابَ من هذا، ولكنْ لا يقالُ: إنهُ منَ التَّوَّابِينَ؛ وذلكَ لكونِه مصرًّا على ذنبٍ آخرَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، رقم (١٢١).

وبهذا المعنى وبهذا التقريرِ يتبينُ أن الإنسانَ إذا كان مِن أهلِ السنةِ، وكانَ ملتزمًا بمذهبِ السلفِ، وخرجَ عن مذهبِ السلفِ في شيءٍ معينٍ، فإننا لا نقولُ: إنهُ مبتدعٌ، وانتبهْ إلى هذه النقطةِ؛ لأن بعضَ الجهالِ السفهاءِ إذا رَأَوْا مِن أحدِ العلماءِ الذينَ لهم قَدَمُ صدقٍ في العلمِ، وقَدَمُ صدقٍ في الدعوةِ إلى اللهِ، وقَدَمُ صدقٍ في منفعةِ عبادِ اللهِ، وقد أسبغَ اللهُ عليهمْ مِنْ قَبُولٍ بينَ الأمةِ الإسلاميةِ مما يدُلُّ على رضاهُ عَزَّوَجَلَّ عنهمْ؛ نجدُ بعضَ الجهالِ السفهاءِ إذا كان قد صدرَ مِن مثلِ هؤلاءِ بدعةٌ قالوا: هذا مبتدعٌ، يجبُ ألا نقبلَ كتبَه، ويجبُ أن نحرِقَ كتبَه. نسألُ اللهَ العافيةَ!

ومِن السفهاءِ مَن قالَ: يجبُ أن يُحرقَ (فتحُ البارِي شرح صحيح البخاري)، ويجبُ أن يُحرقَ (شرحُ صحيحِ مسلمٍ)؛ لأن مؤلِّفَيهِما فيهما شيءٌ منَ البدعِ، سبحانَ اللهِ! ألا ينظرُ هؤلاءِ إلى ما لهذينِ العالِمَينِ من قَدَمِ صدقٍ في الإسلامِ ودعوةٍ إلى الحقِّ، وحسناتٍ عظيمةٍ تمحو السيئةَ الواحدةَ أو السيئاتِ التي لا تقابلُ ولا عشر معشارِ الحسناتِ، فهذا ليسَ منَ العدلِ، وليسَ منَ الإنصافِ، وليسَ مِنَ الشرعِ، بل هو ظلمٌ وجَورٌ.

وأقولُ: إنهُ إذا تَبَيَّنَ للإنسانِ الفرقُ بينَ العمومِ والخصوصِ، وبينَ الإطلاقِ والتقييدِ، عرَفَ أن مَن سلكَ بدعةً منَ البدعِ في مسألةٍ منَ المسائلِ مع كونِه معروفًا بالتزامِ السنةِ، ونشرِ الحقِّ، والدعوةِ إليهِ، فإنهُ لا يَصِحُّ أن نُسَمِّيَه مُبْتَدِعًا على وجهِ الإطلاقِ، نعمْ نقولُ: هو ابتدعَ في هذا القولِ، لكنْ لا نقولُ: إنهُ مبتدعٌ، ففَرقٌ بينَ التسميةِ المطلقةِ، وبينَ الوصفِ المقيدِ. فانتبهْ يا أخي لهذا، واتَّزِنْ في أمورِكَ وفي

حُكْمِكَ في عبادِ اللهِ وعلى عبادِ اللهِ.

ذكرنَا أن التوبةَ نوعانِ: مقيدةٌ ومطلقةٌ، وإن شئتَ فقلْ: عامةٌ وخاصةٌ، والتوبةُ من كلِّ ذنبٍ يَصِحُّ أن نُسَمِّيَ صاحبَها منَ التَّوَّابِينَ، وأما الخاصةُ أو المقيدةُ بذنبٍ معينٍ فلا يَصِحُّ أن نعطيَه وصفَ التَّوَّابِينَ على وجهِ الإطلاقِ؛ لأن هذا هو العدلُ، فالعدلُ أن مَنِ استحقَّ وصفًا على الإطلاقِ أُعْطِيَ الوصفَ على الإطلاقِ، ومَنِ استحقَّ وصفًا على وجهِ التقييدِ، أُعْطِيَ الوصفَ على وجهِ التقييدِ، هذا هو العدلُ.

والإنسانُ سوفَ يحاسَبُ على كلِّ كلمةٍ يُخرجُها من فمِه، أو على كلِّ أمرٍ يضمِرُه في قلبِه إذا كان مما يؤاخَذُ عليهِ؛ لأن أعمالَ القلوبِ منها ما يُؤاخذُ عليهِ ومنها ما لا يؤاخذُ عليهِ.

شروطُ التوبةِ:

والتوبةُ لها شروطٌ، وشروطُها خمسةٌ:

الشرطُ الأولُ: الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، بألا يحملَ الإنسانَ على التوبةِ مراعاةُ أحدٍ منَ الخلقِ، أو مراعاةُ أمرٍ منَ الدنيا، ولكنهُ تابَ للهِ خوفًا منْ عقابِ اللهِ، ورجاءً لثوابِ اللهِ، وحينئذٍ يكونُ قد أخلصَ في توبتِه، أما مَن تابَ رياءً وسمعةً، أو لأجلِ أن يَرضى عنهُ فلانٌ أو فلانٌ، أو خوفًا من سيفٍ، أو خوفًا من عصًا، أو خوفًا من ذمٍّ، فهذا لا توبةَ لهُ، فلا بدَّ منَ الإخلاصِ.

الشرطُ الثاني: النَّدَمُ على ما فَعَلَ منَ الذنبِ. والندمُ: انكسارُ القلبِ وتحسُّرُه، وكأنهُ يقولُ: لَيْتَنِي لم أفعلْ، أما مَنْ لا يؤثرُ فيهِ الذنبُ شيئًا في قلبِه فتوبتُه ناقصةٌ،

ولا بُدَّ أن يَنْدَمَ على ما فَعَلَ، والندمُ وإن كان انفعالًا في النفسِ وليسَ فعلًا بالجوارحِ، لكنَّ الإنسانَ يُمْكِنُه أن يندمَ، يعني يمكنُه أن يَنْفَعِلَ كما لو فَعَلَ معهُ إنسانٌ شيئًا يَقْتَضِي الغضبَ فغَضِبَ. فعلى كل حالٍ لا بُدَّ منَ الندمِ.

الشرطُ الثالثُ: الإقلاعُ عنِ الذنبِ، يعني أن يتركَ الإنسانُ ذنبَه، فلو تابَ الإنسانُ ولكنهُ مُصِرٌّ على الذنبِ، كرجلٍ قالَ: أتوبُ إلى اللهِ منَ النظرِ المحرمِ إلى امرأةٍ لا يحلُّ لهُ النظرُ إليها لشهوةٍ، ولكنهُ كلما مَرَّتْ بهِ امرأةٌ أَتبعَهَا بصرَهُ، فهذهِ التوبةُ غيرُ صحيحةٍ، بل حقيرةٌ، فالأمرُ أن هذا مستهزئٌ باللهِ، كيفَ يقولُ لربِّهِ: إنهُ تائبٌ، وهوَ مقيمٌ على معصيتِهِ؟! واللهِ لو قالَ لكَ قائلٌ منَ البشرِ، وأنتَ تلومُه على فعلِ شيءٍ: سامِحْنِي، هذا شيءٌ فعلتُه ولكنْ سامِحْني، وتَرَاهُ يَفْعَلُه، فهلْ هذا صَدَقَك في قولِه: إنهُ تابَ منهُ؟ أبدًا، بلِ استهزأَ بك. فلا بدَّ أن يَدَعَ الإنسانُ الذنبَ.

مثالٌ آخرُ: هؤلاءِ الذينَ يأكلونَ الربَا -نسألُ اللهَ العافيةَ- والربا ملعونٌ آكلُه، فلوْ قالَ قائلٌ منهم: اللهمَّ إني أتوبُ إليكَ مِن أكلِ الربا. وفي أثناءِ ذلكَ قالَ للمحاسبِ: كمِ الربحُ اليومَ، العشرةُ أحدَ عشرَ أم اثنا عشرَ، فهذا ليسَ بصادقٍ التوبةِ، بل هذا كالمستهزِئِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

إذنْ، لا بدَّ مِنَ الإقلاعِ عنِ الذنبِ، والإقلاعُ عنِ الذنبِ إن كان الذنبُ تَرْكَ واجبٍ فالإقلاعُ عنهُ أن يأتيَ بالواجبِ، وإن كان الذنبُ فعلَ محرمٍ فالإقلاعُ عنهُ أن يَتْرُكَ المحرمَ.

فلنضربْ لكلِّ واحدٍ مثلًا: رجلٌ عرَفَ أنهُ أخطأَ بمنعِ الزكاةِ وقالَ: إنهُ تائبٌ إلى اللهِ، وكانَ عليهِ ثلاثُ سنواتٍ لم يؤدِّ الزكاةَ، فهلْ تصحُّ توبتُه إذا أدى

زكاةَ هذا العامِ دونَ زكاةِ العامينِ السابقينِ؟

الجوابُ: لا تَصِحُّ؛ لأنهُ لم يُقْلِعْ عنِ الذنبِ، فإذا كان صَادِقًا في تَوْبَتِهِ مِن تَرْكِ الواجبِ فليقمْ بفعلِ الواجبِ، وإلا فهو كاذبٌ، وعلى هذا فالتوبةُ مِن تركِ الواجبِ أن يقومَ بفعلِ الواجبِ.

وهناكَ التوبةُ مِنَ الذنبِ بفعلِ المحرمِ، كأن يقولَ: إنهُ تابَ منَ النظرِ المحرمِ، أو منَ الربا، أو منَ الغِيبةِ، أو ما أشبهَ ذلكَ منَ الذنوبِ، ولكنهُ باقٍ على ما هو عليهِ.

وإذا كان قدْ تابَ مِن ظلمِ الناسِ وأكلِ أموالِهم وخزينتُهُ مملوءةٌ بأموالِ الناسِ، فما تَتَحَقَّقُ التوبةُ، وتَتَحَقَّقُ التوبةُ بأن يَرُدَّ هذه الأموالَ إلى أهلِها، فإن قالَ: إنهُ تابَ مِن أكلِ أموالِ الناسِ، وأموالُ الناسِ في بطنِه أو في صندوقِه، فإنَّهُ لم يَتُبْ، فلا بُدَّ أن يُؤَدِّيَ الأموالَ التي ظَلَمَها إلى أصحابِها.

كذلكَ رجلٌ جاءَ تائبًا يسألُ ويقولُ: إنهُ قدْ أَخَذَ مالَ هذا سرقةً، أو جَحَدَه، معَ وجوبِ بذلِه لصاحبِه أو ما أشبَهَ ذلكَ، فكيفَ يتوبُ؟

قلنَا: أعطِ صاحبَهُ إياهُ، قالَ: إن صاحبَهُ قد ماتَ، فلمَنْ يعطِيهِ؟ قلنا: يُعْطِيهِ وَرَثَتَه، قالَ: إن إعطاءَهُ ورثتَهُ يشقُّ عليهِ، فنقولُ: ولو شقَّ عليكَ، فأنتَ السببُ في ذلكَ، قالَ: أخشى بالمراجعاتِ والاتصالاتِ بالهاتفِ أن أُغَرَّمَ أكثرَ مما أخذتُ، قلنَا لهُ: ولو غَرِمْتَ أكثرَ مما أخذتَ، ما دَامَ يُمْكِنُ أن توصلَ الحقَّ إلى أهلِهِ فإيصالُكَ إياهُ في الدنيا خيرٌ مِن أخذِهِ منكَ من حسناتِكَ يومَ القيامةِ، فإذا قالَ: لا أعرفُ لهُ ورثةً لأنه رجلٌ من غيرِ بلادِهِ ولا يَدري ما قبيلتُهُ، فإننا نقولُ: تصدَّقْ بهِ، وانْوِهِ لمن هو لهُ.

وهلْ هذه الصدقةُ أجرُها للميتِ أم للورثةِ؟

نقولُ: العلماءُ اختلفوا؛ فمنَ العلماءِ مَن قالَ: يكونُ الأجرُ للميتِ؛ لأنهُ صاحبُ المالِ الأولِ. ومنهمْ مَن قالَ: إنهُ للورثةِ لأنهم أصحابُ المالِ أخيرًا، فهذا المالُ للميتِ أولًا لكن في النهايةِ صارَ للورثةِ؛ لأن الإنسانَ مِن حينِ أن تَخْرُجَ روحُهُ يكونُ جميعُ ما عندَهُ لورثتِهِ، حتى ثوبه الذي هو عليهِ يكونُ للورثةِ.

إذنْ، إذا كان الذنبُ متعلقًا بأحدٍ منَ المخلوقينَ فلا بدَّ أن يوصلَ الحقُّ إلى أهلِه، وإلا لم تَصِحَّ توبتُهُ.

وإذا كان الحقُّ ضَرْبًا، يعني إنسانٌ ضَرَبَ شخصًا عدوانًا بغيرِ حقٍّ، فكيفَ يتخلصُ منهُ؟

نقولُ: يذهبُ إلى صاحبِهِ ويقولُ: إنهُ ظلمَهُ بالضربِ، ويَتَحَلَّلُ منهُ؛ فإن سَامَحَهُ فهذا المطلوبُ، وإلا قالَ: الآنَ خذْ من بَدَنِي مثلَ ما جنيتُ عليكَ، فإذا كان ضَرَبَهُ على ظهرِه فإنهُ يقولُ: هذا ظهرِي لكَ، اضربْنِي.

ولكنْ هلْ يجوزُ لمن أرادَ أن يَضْرِبَهُ استيفاءً لحقِّه أن يضربَهُ أشدَّ من ضربِهِ إياهُ؟

نقولُ: لا يجوزُ؛ لأن اللهَ يقولُ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى:٤٠]، ولكن هناكَ طريقٌ آخرُ أحسنُ من هذَا: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

فأنتَ -أخي المسلمُ- إذا جاءَ أخوكَ يعتذرُ إليكَ بكونِهِ جنى عليكَ أو اغتابَكَ عندَ الناسِ، فإن من حقِّهِ عليكَ الحقِّ المستحبِّ أن تعفوَ عنهُ، وأنتَ إذا عفوتَ

عنهُ فأجرُكَ على كريمٍ، وهوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وأَجرُكَ على اللهِ أحسَنُ من كونِكَ تقتصُّ لنفسِكَ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

الشرطُ الرابعُ: العزمُ على ألا يعودَ إلى الذنبِ في المستقبلِ، فأما إذا تابَ وأقلعَ لكن في نيتِه أن يعودَ، أو مترددٌ هل يعودُ إلى الذنبِ فيما لو حصلتْ لهُ فرصَةٌ، أو لا يعودُ، فإن توبتَهُ لا تَصِحُّ، فلا بدَّ أن يَعزِمَ على ألا يَعُودَ.

فإذا تابَ منَ الغِيبةِ -والغِيبةُ كما تعرفونَ من كبائرِ الذنوبِ، وهيَ أن يذكرَ أخاهُ في غيبتِه بما يكرهُ- لكنهُ مترددٌ يقولُ: ربما لو يأتي ذِكرٌ لهذا الرجلِ أعدتُ اغتيابي إياهُ، فلا تَصِحُّ توبتُهُ؛ لأنه لم يَعزِمْ على ألا يعودَ، ولا بُدَّ منْ أن يَعْزِمَ على ألا يعودَ.

فإن عَزَمَ على ألا يعودَ لكنهُ في يومٍ مِنَ الأيامِ سَوَّلَتْ لهُ نفسُهُ ففعلَ الذنبَ، فإن التوبةَ الأُولى مقبولةٌ، ويحتاجُ إلى تجديدِ توبةٍ للذنبِ الجديدِ.

ولهذا سأذكرُ عبارتينِ: إحداهُما خطأٌ والأخرى صوابٌ:

العبارةُ الأولى: يشترطُ لصحةِ التوبةِ ألا يعودَ. وهذهِ خطأٌ.

والعبارةُ الثانيةُ: يشترطُ لصحةِ التوبةِ أن يعزمَ على ألا يعودَ، وهذه هيَ الصوابُ: العزمُ على ألا يعودَ؛ لأنك لو قلتَ: من شروطِ التوبةِ ألا يعودَ، ثم تابَ بجميعِ الشروطِ إلا أنهُ عادَ فيما بعدُ، فعلى قولِنا: إنهُ يشترطُ ألا يعودَ تكونُ التوبةُ الأولى غيرَ صحيحةٍ، وهذا غَلَطٌ، بلِ التوبةُ الأولى صحيحةٌ، ويحتاجُ أن يقدمَ توبةً جديدةً للذنبِ الجديدِ.

إذنْ، فالعبارةُ الصحيحةُ هيَ العزمُ على ألا يعودَ، فإن عادَ فإن توبتَهُ الأولى صحيحةٌ ومقبولةٌ، وعليهِ أن يجددَ توبةً للذنبِ الجديدِ.

الشرطُ الخامسُ: أن تكونَ التوبةُ في وقتٍ تقبلُ فيهِ التوبةُ، وهذا مِن أخطرِ الشروطِ؛ وذلكَ نوعانِ: النوعُ الأولُ: زمنٌ عامٌّ، والنوعُ الثاني: زمنٌ خاصٌّ:

أما الزمنُ العامُّ الذي تنقطعُ بهِ التوبةُ فهو طلوعُ الشمسِ مِن مغربِها، فالشمسُ التي تدورُ الآنَ على الأرضِ تأتي منَ المشرقِ وتغربُ مِنَ المغربِ، هذه الشمسُ سيأتي يومٌ منَ الأيامِ ويأمرُها ربُّها عَزَّوَجَلَّ أن ترجعَ من حيثُ أتتْ، وأن تخرجَ منَ المغربِ، وحينئذٍ يؤمنُ الناسُ كلُّهم، حتى أكفرُ عبادِ اللهِ يؤمنُ؛ لأنهُ يتبينُ لهُ الآنَ أن للكونِ خالقًا، وأنها ليستْ طبيعةً تتفاعلُ وينفعلُ بعضُها معَ بعضٍ، فيؤمنُ كلُّ الناسِ، ويتوبُ المذنبونَ، لكن هلْ تنفعُ التوبةُ؟ الجوابُ: «لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[1].

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، وبعضُ الآياتِ المرادةِ في هذه الآيةِ هيَ طلوعُ الشمسِ من مَغرِبِها.

إذنْ، مَنْ تابَ منَ الذنبِ بعدَ أن تخرجَ الشمسُ من مغربِها فتوبتُه غيرُ مقبولةٍ؛ لأن من شروطِ التوبةِ أن تكونَ في زمنِ قبولِ التوبةِ.

أما الزمنُ الخاصُّ فهو أن يتوبَ الإنسانُ قبلَ حضورِ أجلِهِ، ومَن منا يعلمُ متى يحضُرُ أجلُه؟ لا أحدَ يعلمُ، قدْ يموتُ الإنسانُ على فراشِهِ، وقدْ يموتُ على مكتبِهِ، وقد يموتُ وهو قابضٌ على مِقودِ السيارةِ، وقد يموتُ وهو يَمشي في السوقِ، فلا أحدَ يعلمُ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٧٩).

من هنا نعرفُ أن التوبةَ واجبةٌ على الفورِ، وأنهُ يجبُ على الإنسانِ أن يبادرَ بالتوبةِ، ولا يتأخرَ؛ لأنهُ لا يَدري متى يموتُ -أحسنَ اللهُ لي ولكمُ الخاتمةَ- فإذا حضرَ الأجلُ لم تنفعِ التوبةُ؛ لأنه فاتَ الأوانُ وشوهدَ الغائبُ بالعيانِ، واستمعْ إلى قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء:١٨]؛ لأنهم حضرَهُمُ الموتُ وعاينُوا الغائبَ، وعَرَفُوا أنهم منتقلونَ عنِ الدنيا، فتابُوا لكن لم ينفعْ.

فهذا قولُ اللهِ الخبريُّ الحكميُّ، وانظرْ إلى فِعلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الكونيِّ القدَرِيِّ: فرعونُ قد عُلِمَ أنهُ مِن أشدِّ الناسِ ذنبًا، بلْ قالَ اللهُ فيهِ وفي قومِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، وفي قراءةٍ: (ادْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ)(١)، ففرعونُ أدركَهُ الغرقُ، فغَرِقَ في بحرٍ يَفْصِلُ بين آسيَا وأفريقيَا، وهوَ بحرُ القُلْزُمِ، ويعرفُ الآنَ بالبحرِ الأحمرِ، غَرِقَ فرعونُ بهذا البحرِ والبحرُ ماءٌ، وكانَ هذا الرجلُ الطاغيةُ كان يَفْخَرُ بالأنهارِ تَجْرِي من تحتِهِ، ويقولُ لقومِه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ يُشِيرُ إلى موسى ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥١-٥٢]، أي لا يكادُ يُفْصِحُ بالكلامِ؛ لأن مُوسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيه لكنةٌ في لسانِهِ، فليسَ يَتَكَلَّمُ كلامًا منطلقًا واضحًا، ولهذا قالَ: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ [طه:٢٧]، ولم يقلْ: احللْ عقدةَ لساني، فأجابَ اللهُ دعاءَهُ وحَلَّ عقدةً من لسانِهِ على قدرِ ما يُفْهَمُ الكلامُ فقطْ، قالَ: احللْ عقدةً مِن لساني

---

(١) انظر: حجة القراءات (ص:٦٣٣).

يَفقهُوا قولي فقطْ، ما أرادَ أكثرَ من ذلكَ، أرادَ أن يُفهَمَ كلامُهُ فقطْ، فأجابَهُ ربُّ العالمينَ عَزَّوَجَلَّ وحَلَّ عقدةً من لسانِهِ.

وانظرِ القناعةَ منَ الرسلِ -عليهمُ الصلاةُ والسلامُ- يَتبيَّنُ لكَ أن الرسلَ لا يُرِيدُونَ المتاعَ بالدنيا، وإنما يُرِيدُونَ مِنَ الدنيا ما يقومُ بهِ الدِّينُ.

ويحضُرني الآنَ -وإن كنتُ أَخرُجُ عنِ الموضوعِ قليلا- قصةُ أحدِ الثلاثةِ الذينَ ابتُلُوا، ومنهمْ أعمَى ابْتُلِيَ بالعمَى، وجاءَهُ الملَكُ، أرسلَ اللهُ إليهمْ ملَكًا يسألُهمْ ما يريدونَ، فقالَ الأعمَى: «**يَرُدُّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ**»[1]. فلما قالَ: يردُّ اللهُ إليَّ بصري لأرَى بهِ النجومَ في البحرِ، بلْ قالَ: «**يَرُدُّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ**». إذنْ سألَ قدرَ الكفايةِ وليسَ زائدًا عنِ الكفايةِ.

أعودُ إلى فرعونَ وقدْ غرِقَ بالماءِ الذي كان يَفْتَخِرُ بهِ، فلما أَدْرَكَهُ الغرقُ قالَ: آمنتُ بالذِي آمنتْ بهِ بنو إسرائيلَ. والذي آمنتْ بهِ بنو إسرائيلَ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لكنِ انْظُرْ إلى الذلِّ والخزيِ والعارِ لهذا الرجلِ المتكبرِ الجبارِ؛ كان يَبطشُ ببني إسرائيلَ والآنَ جعلَ نفسَهُ تابعًا لهم، فما قالَ: آمنتُ باللهِ ربِّ العالمينَ، بل قالَ: آمنتُ بالذي آمنتْ بهِ بنو إسرائيلَ. استصغارًا لنفسِهِ واحتقارًا لها، واستذلالًا لها، فذُلَّ حتى صارَ مِن أتباعِ بني إسرائيلَ.

وهذا يدلُّكَ على قدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠] فقيل له: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ بدنٌ

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦٤)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، بابٌ، رقم (٢٩٦٤).

بلا رُوحٍ ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس:٩٢] أي علامةً، والذينَ خَلْفَهُ هِمْ بَنُو إسرائيلَ؛ لأنَّ بَنِي إسرائيلَ قدْ أَرْعَبَهُم فرعونُ، وبَلَغَ رعبُه قعرَ قلوبِهم، فلنْ يطمئنُّوا حتى يُشَاهِدُوا هذا الطاغيةَ قدْ ماتَ أمامَ أعينِهم، أرأيتُم لو كان لكمْ عدوٌّ قد أرعبَكُم وجاءكُم خبرٌ صادقٌ متواترٌ وقالَ: إن عدوَّكُم قدْ ماتَ. هلْ تطمئنونَ إلى هذا الخبرِ الصادقِ اليقينيِّ مثلما تطمئنونَ إلى مشاهدتِكم للعدوِّ أمامَ أعينِكم قدْ ماتَ؟

نقولُ: اطمئنانُ الإنسانِ لكونِ عدوِّهِ قدْ ماتَ أمامَ عينِهِ أبلغُ مِنِ اطمئنانِهِ بالخبرِ، ولهذا قالَ: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، فإذا شاهدَهُ بنو إسرائيلَ اطمأَنُّوا أن عدوَّهمُ انتهى، ولم يبقَ لهمْ عدوٌّ.

فهذا شاهدٌ؛ شاهدٌ بالقضاءِ القدريِّ لكونِ التوبةِ لا تُقبلُ إذا حضرَ الأجلُ.

إذن، لا بدَّ أن تكونَ التوبةُ في زمنٍ تقبلُ فيهِ التوبةُ، فإن لم تكنْ في زمنٍ تقبلُ فيهِ التوبةُ فلا قبولَ لها.

الوصيةُ:

فانتبهْ يا أخي، ولا تَضْحَكْ على نفسكَ، ولا تَلْعَبْ بعقلِكَ، ولا تقلْ: تُبْتُ منَ الذنبِ. وأنتَ مُصِرٌّ عليهِ، أَعَاذَنِي اللهُ وإياكُم مِن ذلكَ، وفكِّرْ في أمرِكَ، هل أنتَ تائبٌ حقًّا، وهلْ يصحُّ أن تُوصفَ بالتَّوَّابِ، وانظرْ في الأمرِ، ولا تَضْحَكْ على نفسِكَ.

ولهذا ثبتَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُرِيدُ أَنْ يُوصِيَ فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ**»[1]. لأن الإنسانَ ما يأمنُ، فما حقُّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب الوصايا وقول النبي ﷺ: «**وصية الرجل مكتوبة عنده**»، رقم (٢٧٣٨)، ومسلم: كتاب الوصية، بابٌ، رقم (١٦٢٧).

المسلمِ أن يبيتَ ليلتينِ إلا وقد كَتَبَ وَصِيَّتَهُ، وليستِ الوصيةُ التي يَعرفُها العامةُ الآنَ أن يُوصي بالثلثِ أو الربعِ أو الخمسِ، بلِ الوصيةُ المهمةُ التي ليسَ للمسلمِ حقٌّ أن يبيتَ ليلتينِ إلا وقدْ كتبَهَا هيَ الحقوقُ الواجبةُ عليهِ، فأنتَ مثلًا اشتريتَ مِن شخصٍ شيئًا بعشَرةِ ريالاتٍ، وليس معكَ شيءٌ، فما معكَ عشرةُ ريالاتٍ، فقلتَ: سوفَ آتي بها إليكَ فقيدْهاَ. فإن قيلَ: عشرةُ ريالاتٍ قليلةٍ، قلنا: تكتبُها ولو كانتْ عشرةَ ريالاتٍ، فما تَدري، فلو متَّ ضاعَ حقُّ الرجلِ، فلوْ جاءَ الرجلُ إلى الورثةِ بعدَ موتكَ وقالَ: أنا لي على فلانٍ عشرةُ ريالاتٍ. سيقولُ لُه الورثةُ: هاتِ البينةَ، ولهمْ حقٌّ أن يقولُوا: هاتِ البينةَ؛ لأن المالَ ليسَ لهمُ الآنَ، ولا يُمكنُ أن يُعطوهُ كلَّ مَا ادعاهُ، فإذا كان الإنسانُ قد كَتَبَ هذه الدراهمَ العشرةَ فلنْ يحتاجَ إلى بينةٍ.

والورثةُ يجبُ عليهمْ بمجردِ أن يموتَ الإنسانُ أن ينظرُوا في دفاترِه؛ ما الذي عليهِ، ولا يحِلُّ لهم أن يأخذُوا منَ التركةِ عودَ الكبريتِ حتى يَتبَيَّنَ أنهُ لا دَيْنَ عليهِ؛ لأن الورثةَ ليسَ لهمْ حقٌّ في المالِ إلا بعدَ وفاءِ الدَّينِ، فتجدونَ في القرآنِ الكريمِ لما ذكرَ المواريثَ قالَ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ [النساء:١١].

وأَسَفًا لبعضِ الناسِ الظَّلمةِ الذينَ لا يخافونَ اللهَ ولا يحترمونَ الميتَ، فتجدُهم مِن حينِ أن يموتَ الميتُ يستولونَ على مالِه، ولا يَبْحَثُونَ هلْ عليهِ دَينٌ أو لا، وهذا حرامٌ عليهمْ، فإذا كان الرجلُ معروفًا بمعاملةِ الناسِ فلا بدَّ أن يبحثُوا قبل أن يأخذُوا المالَ على وجهِ الميراثِ، ولا بدَّ أن يبحثُوا هلْ أحدٌ يطلبُه، حتى إني أقولُ لكمْ: قالَ العلماءُ: يجبُ الإسراعُ في قضاءِ دَينِ الميتِ، وينبغي أن يؤدَّى دينُ

الميتِ قبلَ أن يدفنَ، سبحانَ اللهِ! قبلَ أن يدفنَ، وهو سيدفنُ بعدَ موتِه بساعةٍ مثلًا! فالعلماءُ يقولونَ: ينبغي أن يُقضى الدَّيْنُ قبلَ أن يدفنَ، حتى يدفنَ ونفسُه غيرُ معلقةٍ بدَيْنِهِ.

وأكثرُ الناسِ يأكلُ مالَ الميتِ مِن ضرسٍ على ضرسٍ ولا يبحثُ عن دَينِه، والميتُ قد يكونُ معروفًا باشتباكاتِه معَ الناسِ في المعاملاتِ؛ لهُ وعليهِ. وهذا منَ الخطأِ، ومنَ العقوقِ، سواءٌ كان الموروثُ والدًا أو والدةً.

فنسألُ اللهَ لنا ولكمُ التوبةَ النصوحَ؛ التي أمرنَا اللهُ بها في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم:٨]. وتأمَّلْ يا أخي قولَ اللهِ تعالى: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ حتى يقطعَ على الإنسانِ بابَ الجزمِ بقبولِ التوبةِ، فقد يتوبُ الإنسانُ لكن تكونُ توبتُه غيرَ نَصوحٍ، وهوَ لا يَدري، فلا تقبلُ لذلكَ، قالَ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ و(عسى) مِنَ اللهِ وَعْدٌ، لكنْ فِعْلُ العبدِ هو الذي يُخشى ألا يكونَ على وجهِ الصوابِ، فتُبْ إلى اللهِ توبةً نصوحًا؛ فإن اللهَ ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

والحمدُ لله الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ على نَبِيِّنَا محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ.



الدرسُ الثالثُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج:١-٤] إِلَى آخِرِه.

بدأ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى السُّورةَ بالقَسَمِ بالسَّماءِ، وَوَصَفَهَا بأنَّها ذاتُ بُرُوجٍ، والبُرُوجُ عِنْدَ الفلكيين اثنا عَشَرَ بُرجًا، ولكلِّ بُرجٍ نُجومٌ معينة، وأصلُها المكانُ العالي؛ لأنَّ هَذِهِ النُّجُومَ فِي السَّماءِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ اليَوْمُ الموعودُ هُوَ يَوْمُ القِيَامَةِ؛ لأَنَّهُ وُعِد به، وَهُوَ سرورٌ للمتقين، وثُبورٌ للمُجرمين.

قَوْلُهُ: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أَقسَمَ اللهُ أيضًا بالشاهِدِ والمَشهودِ، وَذَلِكَ أيضًا يَوْمَ القِيامَةِ، فإنَّ هَذَا اليَوْمَ مشهودٌ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣] وأمَّا الشَّاهِدُ فهم الرُّسلُ، شُهداءُ عَلَى أُممِهم؛ لأنَّ الرسالةَ بَلَغَتْهُم، فهَذِهِ الأمةُ شاهدةٌ عَلَى الأممِ السابقةِ بِأَنَّ رُسُلَهم بَلَّغُوهم، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

ومن الشُّهودِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ: شُهودُ الجَوارِحِ والجُلودِ، كَما قَالَ تَعالَى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤].

قَوْلُهُ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ هَذَا هُوَ جوابُ القَسَمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾، وأصلُ جوابِ القَسَمِ أنْ يُقْرَنَ بها يَدُلُّ عَلَى التَّوكيدِ كاللامِ، و(قَد)، فتقولُ: واللهِ لقد جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ، وقد تُحذَفُ اللامُ وتبقى (قد)، كَما فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس١-٢] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩]، وقد تُحذَفُ اللامُ و(قد)، كَما فِي هَذِهِ الآيةِ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ ﴿قُتِلَ﴾ وأصلُها: لقد قُتِلَ أصحابُ الأخدُودِ، ولكِنْ حُذِفَت اللامُ و(قد).

قَوْلُهُ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ الأخدُودُ: هِيَ السواقي الَّتِي تُحفَرُ فِي الأَرْضِ، وَصَنَعَهَا المُجْرِمونَ الَّذِين أَحْرَقوا بها المُؤْمِنِينَ، فَخَدُّوا أخاديدَ فِي الأَرْضِ، ووَضَعُوا فِيهَا الحَطَبَ، وأوقدوا فِيهَا النَّارَ، وعَرَضوا النَّاسَ عليها، فمَنْ لَمْ يُؤمِنْ أَلْقَوْه فِي النَّارِ، ولِهَذَا قال: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج:٥-٦]، وانْظُرْ إِلَى هَذَا الاسْتِكبارِ وهَذَا العُلُوِّ وهَذِهِ الغطرسةُ، حَيْثُ إِنَّ بَنِي آدَمَ يُحَرَّقُون بالنَّارِ، وهَؤُلاءِ قُعُودٌ كأَنْ لَمْ يَكُنْ شيءٌ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جَبروتِهِم واستِكبارِهم، وعُتُوِّهِم وفُجُورِهم: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾.

واعلَمْ أَنَّ النَّارَ مُلكٌ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَتصَرَّفُ بها كَما يشاءُ، فَلَو شاءَ اللهُ تَعالَى لم تَحْرِقْهم، كَما جَرَى ذَلِكَ للخليلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإِنَّ أعداءَ إِبْرَاهِيمَ لم يَسْتَطيعوا أَنْ يُقابِلُوا الحَقَّ، ولكنهم قَالُوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ

فَعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨] فَفَعلُوا، وَنَفَّذُوا، وأَوْقدوا نارًا عظيمةً، حَتَّى قِيل: إنَّهم لَمَّا أرادوا أَنْ يُلْقُوا إِبْرَاهِيمَ فِيهَا أَلْقَوْه عن طريقِ المَنْجَنِيقِ -المَنْجَنِيقُ مِثْل المدافعِ- يَعْنِي: وضعوه فِي كِفَّةِ المَنْجَنِيقِ، ثُمَّ رَمَوْه من بُعْدٍ؛ لأنَّهم لا يَستطيعون قُرْبَ النَّارِ لشِدَّةِ حَرارتِها، ولكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بقُدرَتِه قَالَ لهَذِهِ النَّارِ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، فكانت بَرْدًا وسَلامًا؛ بردًا ضدَّ الحَرارةِ، وسَلامًا ضِدَّ الحَرِيقِ، فلم تَحْرِقْه، ولم تُؤذِه، وصارتْ بردًا وسلامًا.

قال العُلَمَاءُ: لو قَالَ اللهُ تَعَالَى لهَذِهِ النَّارِ: كُوني بَرْدًا، لأهلكتْ إِبْرَاهِيمَ ببُرودتِها، ولكنَّ اللهَ قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ ممَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ جميعَ الأشياءِ كُلِّها خاضعةٌ لأمرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الأمرِ الكَوْنِيِّ.

في قِصَّةِ أصحابِ الأُخْدُودِ النَّارُ أحرقتِ المُؤْمِنِينَ الَّذِين وُضِعوا فيها؛ لأنَّ اللهَ لم يَقُلْ لهَا: كُوني بردًا وسلامًا عَلَيْهِم، لكنَّ هَؤُلاءِ المتغطرسين، أعني: الَّذِين فَتَنوا المُؤْمِنِينَ والمؤمناتِ، بَقُوا وكأنَّ شَيئًا لم يكنْ: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج:٥-٦]، ﴿إِذْ هُمْ﴾ أَيْ: أصحابُ الأخدُودِ، ﴿عَلَيْهَا﴾ عَلَى النَّارِ، ﴿قُعُودٌ﴾ يَنظُرون كيفَ تَضْطَرِمُ أبدانُ هَؤُلاءِ الَّذِين أُلْقُوا فيها.

﴿وَهُمْ﴾ أَيْ: أصحابُ الأُخْدُودِ، ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج:٧] يُشاهدونهم، ويَشهدُ بَعضُهم عَلَى بَعْضٍ بما صَنَعَ الآخرون.

بأيِّ ذنبٍ أَحْرَقوا هَؤُلاءِ بالنارِ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨] أَيْ: مَا أَنكرُوا عَلَيْهِم إِلَّا إيمانَهم باللهِ، وهَذَا لَيْسَ مُنكرًا، بل هَذَا هُوَ الحقُّ، وهَذَا هُوَ المفروضُ -أعني: الإيمانُ باللهِ العزيزِ الحميدِ- لكنَّ هَؤُلاءِ

الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ نَقَمُوا من هَؤُلاءِ المُؤْمِنِينَ أَنْ يُؤمنوا باللهِ العزيزِ الحميدِ.

وانظرْ كيف قـال: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ يَعْنِي: العـالي، يَعْنِي: أن هَؤُلاءِ أصحابَ الأُخْدُودِ وإن غَلبوا المُؤْمِنِينَ بإحراقِهم، فاللهُ تَعَالَى فَوْقَهم، والعزةُ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمودِ عَلَى كُلِّ حالٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأنَّ الحميدَ هنا بمعنى محمودٍ، ويصحُّ أَنْ تَكُونَ بمعنى حامدٍ، والمعنيان صحيحان، فَهُوَ حميدٌ أَيْ: محمودٌ، ويُحْمَدُ عَلَى كُلِّ حالٍ، حامدٌ لَمِن يَسْتَحِقُّ الحمدَ من عِبادِه، ولِذَلِكَ أثنى اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ فِي عدة آياتٍ، وعلى الرُّسُلِ -عَلَيْهِم الصَّلَاةُ والسلامُ- لأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا: لا يُضيعُ أجرَ مَن أحسنَ عملًا.

إذن، ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ بمعنى: حَامِدٍ، وبمعنى محمودٍ.

وكان النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَصابَه ما يُسَرُّ به، قال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»، وإذا أصابه مكروهٌ قال: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»(١).

وهنا عبارةٌ يتناقلُها بعضُ النَّاسِ، يَقُولُ: الحمدُ للهِ الَّذِي لا يُحمَدُ عَلَى مكروهٍ سواه، وهَذِهِ العبارةُ غيرُ صوابٍ؛ لأنَّها مخالفةٌ لِمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ -يقولُه، إذ إِنَّه يَقُولُ؟ «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

أَمَّا: الحمدُ للهِ الَّذِي لا يُحمَدُ عَلَى مكروهٍ سِواه، فهَذَا غلطٌ، كأنك تَمُنُّ عَلَى ربِّك أنْ حَمَدتَه عَلَى المكروهِ، ثُمَّ إنَّ كَلِمَةَ (مكروهٍ) تُعلن إعلانًا بَيِّنًا أنَّ هُنَاكَ نوعًا من الكراهةِ لِمَا قَدَّره اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولا شَكَّ أن الإِنْسَانَ قد يَكْرَهُ المَقضيَّ، لكن

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣).

لا يَكْرَهُ القضاءَ، فقضاءُ اللهِ مَرْضِيٌّ عنه عَلَى كُلِّ حالٍ، والمَقضيُّ هُوَ الَّذي فِيهِ شَيْءٌ مَكْرُوهٌ، شَيْءٌ مَرْضِيٌّ عنه.

لكِنْ عَلَى كُلِّ حالٍ، إنَّ هَذِهِ العبارةَ لا يَنْبَغِي للإِنْسَانِ أن يَقولَها، بل يَتجنبُها، ويقولُ ما قاله النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البروج:٩]، ﴿لَهُۥ مُلْكُ﴾ فِيهَا مبتدأٌ وخبرٌ، والخبرُ هنا مقدمٌ لإفادةِ الحَصْرِ، يَعْنِي: إنَّ مُلكَ السَّمواتِ والأَرْضِ للهِ وحدَه، لا أحدَ يُشَارِكُه، لا يَمْلِكُ أحدٌ شَيئًا من ملكوتِ السَّمواتِ والأَرْضِ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣]، اسْتَمِعْ إِلَى هَذِهِ الآيةِ الكَريمةِ الَّتِي سُقْنَاها الآنَ، تجدُ أنَّها قطعتْ كُلَّ أملٍ للمشركين باللهِ، الَّذِين يَدْعُون غيرَ اللهِ، ماذا يُريدون؟ يُريدون أن تَنفعَهم هَذِهِ الأصنامُ، سواءٌ كانت هَذِهِ الأصنامُ منصوبةً أو كانت قبورًا أو غيرَ ذَلِكَ، فَكُلُّ ما يُدْعَى من دونِ اللهِ فهَذَا شتأنُه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَعْنِي: عَلَى وجهِ الاسْتِقلالِ، وليس لهَذِهِ الأصنامِ مُلْكٌ فِي السمواتِ والأَرْضِ، لا قليلٌ ولا كثيرٌ، ولا مثقالُ ذَرَّةٍ.

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ يعني: هَذِهِ الأصنامُ الَّتِي تَدعون من دونِ اللهِ، ليست مشاركةً للهِ، إذن، نَفَى عنها الملكَ الاسْتِقلاليَّ فِي عبارةِ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ونَفَى أن تكونَ لهم شركةٌ فِي مُلكِ اللهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أَيْ: من مُساعدٍ ومُعاونٍ، يَعْنِي: لَيْسَ للهِ من هَذِهِ الأصنامِ معينٌ له فِي شَيْءٍ من مُلْكِهِ، إذن، لَيْسَ لها ملكٌ اسْتِقلاليٌّ، ولا ملكُ شَركةٍ، ولا مساعدةٌ ولا معاونةٌ.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، أيضًا نَفَى الشفاعةَ، يَعْنِي: هَذِهِ الأصنامُ لا تشفعُ عِنْدَ اللهِ إِلَّا بإذنِ اللهِ، ولن يأذنَ اللهُ لهَذِهِ الأصنامِ المعبودةِ أَنْ تشفعَ أَبَدًا؛ لأنَّ اللهَ لا يأذنُ بالشفاعةِ إِلَّا إِذَا رَضِيَ عن الشافعِ وعن المشفوعِ له، فَقَطَعَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جميعَ أطماعِ المُشْرِكِينَ به.

ولذلك، الَّذِين يَذْهَبُون إِلَى قَبْرِ فلانٍ أو قَبْرِ فلانٍ مِمَّن يَدَّعُون أنَّهم أولياءُ، ويَدْعُونَهم، نَقُولُ: هَؤُلاءِ سفهاءُ فِي العقولِ، ضُلَّالٌ فِي الأديانِ، لَيْسَ عِنْدَهُم عقلٌ، وليس عِنْدَهُم دِينٌ، أَمَّا كونُهم لَيْسَ عِنْدَهُم عقلٌ، فَلِأَنَّ هَؤُلاءِ الَّذِين يَدْعُونَهم لَيْسَ بأيديهم شيءٌ، لا نفعٌ ولا ضُرٌّ، وأمَّا كونُهم ضُلَّالًا فِي الأديانِ فَلِأَنَّ هَذَا مِنَ الشركِ، والشركُ أعظمُ الضَّلالِ.

ولذلك، يجبُ عَلَى عُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ فِي البلادِ الَّتِي يكونُ فِيهَا مثلُ ذَلِكَ من عِبادَةِ القبورِ، والاسْتِغاثةِ بأهلِها، أَنْ يُبَيِّنُوا للعامَّةِ أن هَذَا شِركٌ، وأنَّ مَنْ اتَّخَذَه فإنَّ اللهَ قد حرَّمَ عَلَيْهِ الجنَّةَ، ومأواه النَّارُ، وما للظَّالِمِينَ من أنصارٍ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

يجبُ عَلَى عُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ وعلى طُلَّابِ العِلْمِ، أن يُبينوا للعامَّةِ الَّذِين ضَلُّوا

ولم يَهتدوا للحقِّ، أن يُبينوا للعامَّةِ أنَّه لا يُعبَدُ إلَّا اللهُ، ولا يُستغاثُ إلَّا باللهِ، وأن هَؤُلاءِ المقبورين جثثٌ هامدةٌ، وقد تكُونُ الديدانُ أكلتهم، وقد يكونون مُضمحلين نهائيًا إلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ، فإنَّهُ يَبْقَى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾.

بعده ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ هَؤُلاءِ الَّذِين يَدعون مِنْ دونِ اللهِ، قد يَدَّعُون أنَّهم إنَّما يريدون أن يكونوا شفعاءَ، وأنهم إنَّما عَبَدُوهم ليقرِّبوهم إِلَى اللهِ، ولكن هَذَا غلطٌ؛ لأَنَّهُ لا يمكنُ أن تشفعَ هَذِهِ الأصنامُ إلَّا بإذنِ اللهِ، ولا يمكنُ أن يأذنَ اللهُ لها بالشفاعةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، أَيْ: تُحْصَبُون بها وتُرمَون بها أنتم وأصنامُكم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨-١٠٠]، أَتَدْرُونَ ماذا قَالَ المشركون لَمَّا نزلتْ هَذِهِ الآيةُ؟ قَالُوا: إذن عيسى يُعْبَدُ من دونِ اللهِ، فيكونُ من حَصَبِ جهنَّمَ، فأجابَ اللهُ مباشرةً، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] وعيسى ابنُ مريمَ ﷺ مِمَّن سَبقَتْ له مِنَ اللهِ الحُسنى، فيكونُ خارِجًا من العمومِ.

وهل عيسى ابنُ مريمَ يرضَى أن يُعبَدَ من دونِ اللهِ؟ لا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة:١١٦]، أَيْ: لَيْسَ من حَقِّي أن أُعبَدَ من دونِ اللهِ، والعِبادَةُ حقٌّ للهِ وَحدَه.

وهل النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَمْلِكُ لأحدٍ نفعًا أو ضرًّا؟

لا يَمْلِكُ، فلا يَمْلِكُ لنفسِه أن يَضُرَّها أو يَنْفَعَها؟ لا، وانظُرْ إِلَى أَمْرِ اللهِ له أن يَقُولَ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة:١٨٨]، هَذِهِ حقيقةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّه نذيرٌ وبشيرٌ للمؤمنين، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى آمرًا إياه أن يَقُولَ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:٥٠] حَتَّى أُعطيَكم ما تسألونني، ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ يَعْنِي: ولا أقولُ لكم إني أعلمُ الغيبَ، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾.

إذن، هُوَ بشرٌ مثلُنا يَنسى كَمَا نَنسى، ويَتَألَّمُ كَمَا نَتَألَّمُ، ويَجوعُ كَمَا نَجوعُ، وَيَعطَشُ كَمَا نَعطَشُ، هُوَ بشرٌ، ويَنامُ كَمَا نَنامُ، كَمَا قَالَ: «أَقُومُ وَأَنَام»[1].

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ﴾، ﴿قُلْ﴾ يَعْنِي: للأُمَّةِ كلِّها، ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢١-٢٢]، يَعْنِي: حَتَّى لو أرادَ اللهُ أنْ يُصيبَني بسُوءٍ، فإنني لا أَسْتَطيعُ أنْ أَرُدَّهَ، ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أَيْ: ملجأً ومَعاذًا عِنْدَ إصابةِ الضُّرِّ إِلَّا اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

فاقطَعْ تَعَلُّقَكَ بغيرِ اللهِ، لا بالنبيِّ، ولا بالمَلِكِ، ولا بالوَلِيِّ، ولا بأيِّ أَحدٍ، واجعَلْ اتجاهَك إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذِي بيدِه ملكُوتُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ. ﴿وَمَا نَقَمُواْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم (٤٧٧٦)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، رقم (١٤٠١).

مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ [البروج:٨-٩]، ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فاللهُ شهيدٌ عليه، مطلعٌ عليه، عالمٌ به، لا يخفَى عَلَيْهِ شيءٌ فِي الأَرْضِ ولا فِي السَّماءِ.

ثُمَّ قَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾، مَنْ هم؟ الآيةُ عامَّةٌ، لكن يَدخلُ فِيهَا أولُ ما يَدخلُ أصحابُ الأُخْدُودِ، ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ صَدُّوهم عن دينِ اللهِ، وعذَّبوهم فِي دينِ اللهِ.

قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾، انظُرْ كَرَمَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ قبلَ أن يَذكُرَ عِقابَهم عَرَضَ عَلَيْهِم التَّوبةَ، فانظُرْ إِلَى كَرمِه عَزَّوَجَلَّ يُعذِّبون أولياءَه، ويُحرِّقونهم بالنَّارِ، ومع ذَلِكَ يَعرِضُ عَلَيْهِم التَّوبةَ، وَلَوْ تابوا تَابَ اللهُ عَلَيْهِم؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى يتوبُ عَلَى مَن تَابَ، فمهما عَظُم ذنبُك إِذَا رَجَعْتَ إِلَى ربِّكَ وتُبْتَ إليه، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يتوبُ عليك.

قَالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، لا تَسْتَكْثِرِ الذنبَ، ولا تَسْتَعْظِمِ الذنبَ، فإنَّهُ قليلٌ بالنِّسْبَةِ إِلَى عفوِ اللهِ، وقليلٌ بالنِّسْبَةِ إِلَى رحمتِه، ولكنْ أَقبِلْ إِلَى اللهِ بصدقٍ وإخلاصٍ، وتُبْ إِلَى ربِّك، ومَن تَابَ تَابَ الله عَلَيْهِ مهما عَظُمَ ذنبُه.

قَوْلُهُ: ﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ جهَنَّمُ اسمٌ من أَسْماءِ النَّارِ، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ يَعْني: العَذابُ الَّذِي يُحرِقُهم كَمَا أَحْرَقوا أولياءَه فِي الدُّنْيَا

يُحْرِقُهم اللهُ تَعَالَى بذنوبِهم فِي الآخِرةِ، بشرطِ أن لا يَتُوبُوا، فَإِنْ تَابُوا تَابَ اللهُ عَلَيْهِم.

شُرُوطُ التَّوبةِ:

الشَّرطُ الأَوَّلُ: الإخلاصُ للهِ، بِأَنْ لا يَحملَ الإِنْسَانَ عَلَى التَّوبةِ مُراءاةُ النَّاسِ، أو أنْ يُمدَحَ عِندَهم، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فيكونُ الحاملُ له عَلَى التَّوبةِ هُوَ خوفُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ورجاءُ ثوابِه ورحمتِه.

الشَّرْطُ الثَّاني: النَّدمُ عَلَى ما فَعَلَ من الذنبِ، بحَيْثُ يتأسَّفُ ويَحزنُ أنْ فَعَلَ هَذَا الذنبَ.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: الإقلاعُ عن الذنبِ فِي الحالِ، فلا يُسَوِّفُ ويَقُولُ: أتوبُ غدًا، أُقْلِعُ غدًا، بل يَتوبُ فورًا؛ لأنَّ التَّوبةَ واجبةٌ عَلَى الفورِ، إن كانت فِي حقِّ اللهِ فأمرُها ظاهرٌ، يَتُوبُ إِلَى اللهِ ويَقُولُ: اللَّهُمَّ إني أتوبُ إليك، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَت بحقِّ الآدميين، فلا بُدَّ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِم حقوقَهم.

الشَّرْطُ الرَّابعُ: أنْ يعزِمَ عَلَى أَنْ لا يعودَ، يَعْنِي: يَنوي بقَلبِه نيةً عازمةً جازمةً أنْ لا يعودَ إِلَى الذنبِ، ولكنْ هل الشَّرْطُ (أنْ لا يَعودَ) أم (العزمُ عَلَى أَنْ لا يَعودَ)؟

الشَّرطُ: أنْ يَعزمَ عَلَى أَنْ لا يعودَ، فَلَو فُرِضَ أَنَّه عَزَمَ عَلَى أَنْ لا يَعودَ، ثُمَّ سَوَّلَتْ له نَفسُه فعادَ، فالتَّوبةُ الأولى صحيحةٌ، لكِنْ يَحتاجُ إِلَى تَجديدِ التَّوبةِ عن مُمارسةِ الذنبِ مَرَّةً أُخْرَى.

الشَّرْطُ الخَامِسُ: أن تكونَ التَّوبةُ فِي الوقتِ الَّذِي تُقبلُ فِيهِ التَّوبةُ، وَذَلِكَ أن تكونَ قبلَ حُضورِ الأجَلِ، فَإِنْ كانت بَعْدَ حُضورِ الأجَلِ لم تنفعْ؛ لِقَوْلِ اللهِ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، وأن تكونَ قبلَ طُلوعِ الشَّمْسِ من مَغرِبها؛ لأنَّها إِذَا طَلَعتِ الشَّمْسُ من مَغربِها فلا توبةَ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، ولقول النَّبيِّ ﷺ: «**لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»(١).

تَنبيهٌ:

أُوصيكمْ بِالحرصِ عَلَى فَهمِ القُرْآنِ الكَرِيمِ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، لِيدَّبَّرُوا آياتِه: لِيتفهَّمُوها، ويَعرِفُوها، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وَعَلَيْكُمْ بكُتُبِ التَّفْسِيرِ المَوْثُوقةِ الَّتِي يُوثَقُ بِمُؤلِفيها فِي دِينِهم وعَقِيدتِهم، مِثْل تفسيرِ ابنِ كثيرٍ، وتفسيرِ الشَّيْخِ ابن سعدي، وتفسيرِ القُرطبي عَلَى ما فِيهِ من بَعْضِ المُخالفاتِ.



(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٧٩).

الدرسُ الرابعُ:

إن الحمدَ للهِ، نَحْمَدُه، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أنفسِنا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعمالِنا، مَن يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ لهُ، وأشهدُ أن لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَه لا شَرِيكَ له، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وأصحابِه، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:١-١٠].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ الواوُ حرفُ قَسَمٍ، والسَّماءُ مُقْسَمٌ به، و﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ وصفٌ لهذه السَّماءِ، أي: صاحبةِ البروجِ، والبروجُ جمعُ بُرْجٍ، وهو البناءُ العالي. والبروجُ الَّتي في السَّماءِ هي نجومٌ عظيمةٌ، كلُّ طائفةٍ تُسَمَّى بُرجًا، وهي -أي البروج- اثنا عَشَرَ بُرجًا: الحَمَل، والثَّور، والجَوْزاء، والسَّرَطَان، والأَسَد، والسُّنْبُلة، والمِيزان، والعَقْرَب، والقَوْس، والجَدْي، والدَّلو، والحُوت.

فهذه اثنا عَشَرَ برجًا، كلُّ ثلاثةٍ منها في فصلٍ، ففصلُ الربيعِ له الثلاثةُ الأولى، ثمَّ فصلُ الصيفِ القَيْظ له الثلاثةُ الثَّانيةُ، ثمَّ الخريف له الثلاثةُ الثَّالثةُ، ثمَّ الشتاءُ له الثلاثةُ الرَّابعةُ.

أقسمَ اللهُ تَعَالَى بالسَّماءِ ذاتِ البروجِ؛ لِما فيها من الآياتِ الدالَّة على عَظَمَةِ

خالِقِها عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ هذه السَّماءَ مع عُلُوها وقُوتِها مَخلوقةٌ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وليستْ قديمةً، أي ليستْ أَزَلِيَّةً، بل هي مَخلوقةٌ، وليستْ أَبَدِيَّةً؛ لأنها سوف تَتْلَفُ في النهايةِ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧].

ثم أقسمَ بشيءٍ آخرَ فقال تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾، وهو يومُ القِيامَةِ، فإنَّه يومٌ عظيم، وَصَفَهُ الله تَعَالَى بأوصافٍ كثيرةٍ عظيمةٍ لا يَتَّسِعُ المقامُ لِذِكرها، ولكنها موجودةٌ في الكِتابِ والسنَّةِ.

قولُه: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ هذا أيضًا يكونُ يومَ القِيامَةِ؛ شَاهِدٌ ومَشهودٌ، هذه الأمةُ شاهدةٌ على الأممِ قَبْلَها؛ كما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

ثمَّ هذه الأمةُ يَشهَدُ عليها رسولُها مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ كما قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في نفسِ الآيةِ: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، يعني كيف تكونُ الحالُ.

طَلَبَ النبيُّ ﷺ من عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ أن يَقْرَأَ عليه القُرآنَ، وكان عبدُ اللهِ ابنُ مسعودٍ أحسنَ القرَّاءِ قراءةً، حتَّى إن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ القُرْآنَ

غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»(١). يعني به عَبْدَ اللهِ بْنَ مسعودٍ -قال: يَا رَسُولَ اللهِ، أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». صلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عليه، يقولُ: فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، قَالَ: «حَسْبُكَ الآنَ». فَالتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ(٢). لأَنَّه تَذَكَّرَ هذه الحالَ العظيمةَ.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢].

إذن، الشاهدُ والمشهودُ يكونُ يومَ القِيامَةِ.

قولُه: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤] هذه الجملةُ جوابُ القَسَمِ، والقسمُ هو: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، قال أهلُ النحوِ: وقد حُذِفَ منها شيئانِ: اللامُ و(قد)، والتقديرُ: لقد قُتِلَ أصحابُ الأُخدودِ.

وأصحابُ الأخدودِ: هم قَومٌ كفرةٌ بينهم قوم مؤمنونَ، فأراد هَؤُلاءِ الكفارُ أن يَنتقِموا من المؤمنينَ لإيمانِهم، وأنتم تعلمونَ أن الكافرَ عدوٌّ للمؤمنِ؛ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١].

فكلُّ كافرٍ مهما أَلَانَ القولَ ووَسَّعَ الوجهَ للمؤمنِ فإنَّه عدوُّه، ولا تغترَّ بلِين

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فضل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (١٣٨).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ: حسبك، رقم (٥٠٥٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب فضل استماع القرآن، رقم (٨٠٠).

القولِ من الكافرِ فإنَّه عدوُّك، فهَؤُلاءِ القومُ الكَفَرَةُ خَدُّوا أخاديدَ في الأرضِ، وهي حُفَرٌ واسعةٌ، وملؤُوها حَطَبًا، وكلُّ مَن بقيَ على إيمانِه ألقَوْه في هذه النَّارِ إحراقًا، يعني أنَّها جريمةٌ بشِعَةٌ، وعُقوبةٌ مُنكَرةٌ أن يُحرَقَ هَؤُلاءِ في النارِ، لكنَّ العدوَّ قد مُلِئَ قلبُه حِقْدًا وحَنَقًا على المؤمنِ، فحَفَرُوا هذه الأخاديدَ ومَلَؤُوها حَطَبًا وَمَنْ لم يَكْفُرْ ألقَوْه فيها، ولكن هَؤُلاءِ الَّذِينَ أُلْقُوا في النارِ احترقوا في نارِ الدُّنيا، لكنهم انْتَقَلُوا إلى نَعيمِ الآخرةِ؛ لأنهم قُتِلُوا دونَ دِينِهم، فهم شُهداءُ، فانتقلوا من دارِ المِحَنِ والفِتَنِ والبلاءِ إلى دارِ النعيمِ المُقيمِ، أما هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَحْرَقُوهم فقال اللهُ فيهم:

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ أي صاحبةِ الوقودِ. والوقودُ ما تُوقَد به النَّارُ مِن حَطَبٍ أو غيرِه.

وفي قولِه: ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ إشارةٌ إلى أن الحطبَ عظيمٌ، ولهذا قال: ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾.

قولُه: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج:٦] هَؤُلاءِ الكفرةُ على هذه النَّارِ قُعودٌ، أي: حَوْلَها قَريبون منها.

قولُه: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج:٧] يشاهدونهم يُطرَحون في النَّارِ حتَّى تُحْرِقَهم؛ لكن هم في الواقعِ -أعني هَؤُلاءِ الكفرةَ- مَسْرُورُونَ، إلَّا أنَّه سرورٌ سيكونُ بعده أحزانٌ.

قولُه: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي: ما أَنْكَروا عليهم إلَّا هذا ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨] وهل هذا يُنكَرُ أو يُمدَحُ ويُحمَدُ فاعلُه؟

نقولُ: الثَّاني، لكنَّ الكافِرَ لا يريدُ هذا، بل يريدُ الكفرَ.

والعزيزُ: الغالِبُ، والحميدُ: المحمودُ لـمَا له من كمالِ الصفاتِ وكمالِ النِّعَمِ والإفضالِ جَلَّوَعَلَا.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البروج:٩] فما جَرَى على المؤمنينَ من العذابِ فإنَّه داخلٌ في مُلْكِه، وهو الَّذِي قدَّره، ولكنه لحكمةٍ عظيمةٍ، وغايةٍ حميدةٍ، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي أنَّه عَزَّوَجَلَّ شَهيدٌ على كلِّ شيءٍ في السَّماءِ أو الأرضِ؛ قَرُبَ أو بَعُدَ.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠].

بماذا فتَنوا المؤمنينَ والمؤمناتِ؟

كانوا يأْتُونَ بالرجلِ المؤمنِ -أو المرأةِ- ويقولون: إمَّا أنْ تَرْجِعَ عن إيمانِك، وإما أن تُلقَى في النارِ، وحَفَروا أُخدودًا في الأرضِ وأَضْرَموا فيه النيرانَ، وصار مَن يَصبرُ على دِينه يُلقَى في النارِ، وهذه فتنةٌ عظيمةٌ.

فهم فَتَنوا المؤمنينَ عن دِينِهِمْ، وأَحْرَقُوهُمْ بالنارِ لأنهم مؤمنونَ باللهِ، وهذه فتنةٌ عظيمةٌ، ولكنْ رَضِيَ اللهُ عن المؤمنينَ الَّذينَ فُتِنوا، وصَبَروا على ما فُتِنوا في دِينِهم، ولم يَجعَلُوا فِتْنَةَ النَّاسِ كعذابِ اللهِ بل صَبَرُوا.

وبهذا نعلمُ أنَّه يجبُ علينا أن يكونَ لنا أُسوةٌ فيمَنْ سَبقَنا مِن سَلَفِ هذه الأُمَّةِ، وفيمن سَبقَنَا من الأُمَمِ، وذلك بالصبرِ على الأذى في دينِ اللهِ، فاصبرْ يا أخي، فنحنُ نعلمُ أنَّه لا بُدَّ من فتنةٍ.

والفتنُ أنواعٌ كثيرةٌ؛ فِتَنٌ حِسِّيَّةٌ في تعذيبِ الإنسانِ وسجنِه وغيرِ ذلك، وفِتَنٌ معنويَّةٌ بالتضييقِ النفسيِّ على أهلِ الخيرِ، وفتنٌ فِكريَّةٌ بالتشكيكِ في الإسلامِ وفي شرائعِه.

فكلُّ هذا سَيكُونُ، وكلُّ هذا كائِنٌ، لكنْ مَوْقِفُنَا هو الصبرُ، واللهُ مع الصابرينَ.

كذلك يجبُ علينا ونحنُ أعِزَّاءُ إن شَاءَ اللهُ تَعَالَى بِدِينِنا؛ أن نُقابِلَ أعداءَنا لا مُقابِلَ المُدافِعِ، ولكن مُقَابِلَ المهاجِمِ، فنحنُ مَعَنَا الحقُّ، ومعنا سلاحٌ، فلا يجوزُ أبدًا أن نُداهِنَهم ولا أن نَسْتَسْلِمَ لهم، بل يجبُ أن نكونَ صُرَحَاءَ أمامَهم، وأن نكونَ أعزَّاءَ، فلما قال المنافقون: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ قال اللهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

فالعزةُ للمؤمنِ، فاصبِرْ وستكونُ العاقبةُ لك، فإن لم تكنْ لك في حياتِكَ فهي لكَ في الآخرةِ، وإذا لم تكنْ لك في حياتِكَ فهي عزةٌ للمَبْدَأِ الَّذِي أنت عليه، وهو الإيمانُ، يَعْتَزُّ به مَنْ يُقَلِّدُكَ ويتأسَّى بك، فعلينا بالصبرِ.

وهل أُوذِيَ المسلمونَ من سَلَفِ هذه الأمةِ؟

نقول: نعم أُوذُوا، حتَّى إن إمامَ المتقينَ ورسولَ ربِّ العالمينَ أُوذِيَ، ألم تَعْلَمُوا معاشرَ المسلمينَ أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان يومًا من الأيامِ ساجدًا تحتَ الكعبةِ ساجدًا للهِ، فاجتمعَ مَلَأٌ من قريشٍ، وبَعَثُوا واحدًا منهم إلى جَزُورٍ لِبَنِي فلانٍ يأتي بِسَلَاها[1] وفَرْثِها[2] ودمِها يضعُه على ظهرِ النبيِّ ﷺ وهو

(١) السلى: هو اللفافة الَّتي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان. انظر: النهاية (سلا).
(٢) الفرث: هو ما في كرش الحيوان. فتح الباري (١٠/ ٧٣).

ساجدٌ، سُبْحَانَ اللهِ! أتجدون أشدَّ من هذا الإيذاءِ؟! إنسانٌ يعبدُ اللهَ تحتَ بيتِ اللهِ في آمَنِ بُقعةٍ من بِقاعِ الأرضِ ويُوضَع على ظَهرِه سَلَى الجَزورِ وهو ساجِدٌ، حتَّى تأتيَ ابنتُه أَمَةٌ مِنْ إماءِ اللهِ -وهي حُرَّة، لكنَّها مِنْ إماءِ اللهِ، وكلُّ النساءِ إماءٌ للهِ، وكلُّ الرجالِ عَبيدٌ للهِ- فتُزِيلُ الأذَى عن ظَهره[1]، ففي هذا أذيَّةٌ.

وأتى النبيُّ ﷺ هو وألفٌ وأربعُ مئةٍ من أصحابِه مُعتمِرينَ يُلَبُّونَ: لبَّيك اللَّهُمَّ لبَّيكَ، ومعهم الهَدْيُ، فمَنَعَتْهُمْ قُرَيْشٌ، وقالوا: ما يمكِنُ أن تدخلوا مَكَّةَ أبدًا، مع أن قريشًا لو أتى بدويٌّ جافٍ لم تمنَعْه من الوصولِ إلى البيتِ، والنبيُّ ﷺ مُنِعَ من الوصولِ إلى البيتِ، وهو أَولَى النَّاسِ بالبيتِ، وصَبَرَ، وصارت المفاوضاتُ بينه وبين قريشٍ[2].

فأقولُ يا إخواني: أنا أعلمُ أنَّه يوجدُ في بعضِ البلادِ الإسلاميةِ من يُؤذَى في اللهِ، ويُعذَّبُ في اللهِ، ويُفتَنُ في دينِه، ولكن عليه بالصبرِ وانتظارِ الفرجِ، فإن الفرجَ قريبٌ، قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا**»[3].

فهؤلاء القومُ أصحابُ الأخدودِ ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة، لم تفسد عليه صلاته، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧، رقم ٢٨٠٤)، والطبراني (١١/ ١٢٣، رقم ١١٢٤٣)، والضياء (١٠/ ٢٣، رقم ١٣).

إلى اللهِ ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ كما أَحْرَقُوا أولياءَ اللهِ أَحْرَقَهُم اللهُ بالنارِ، وإن تابوا فلا عَذَابَ عليهم، فليسَ عليهم عَذَابُ جَهَنَّمَ ولا عذابُ الحريقِ.

قال بعضُ السلفِ: «مَا أَحْلَمَ اللهَ، إِنَّهُمْ يُعَذِّبُونَ أَوْلِيَاءَهُ بِالنَّارِ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ!»[1].

إذن، فمَن تابَ مِنَ الذنبِ ولو عَظُمَ فإنَّ اللهَ يَتُوبُ عليه.

وفي هذه الآياتِ بحوثٌ:

البحث الأول: شروط التوبة:

واعلم أن للتوبةِ شروطًا خمسةً:

الأولُ: الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

والثَّاني: النَّدَمُ على فعلِ المعصيةِ.

والثَّالثُ: الإقلاعُ عن المعصيةِ.

والرَّابعُ: العزمُ على ألا يعودَ.

والخامسُ: أن تكونَ في وقتِ قَبولِ التوبةِ.

الشرطُ الأولُ: الإخلاصُ:

الإخلاصُ للهِ بألا يَحملَ الإنسانُ على التوبةِ الخوفُ من المخلوقينَ أو مُرَاءاةُ المخلوقينَ، فإن كان الحامِلُ على التوبةِ الخوفُ من المخلوقينَ لم تَصِحَّ توبتُه؛ لقولِ

---

(١) تفسير مجاهد (ص:٧١٨).

اللهِ تَعَالَى فِي الحديثِ القُدُسِيِّ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1].

الشرطُ الثَّاني: الندمُ:

الندمُ على المعصيةِ يعني بأن يكونَ الإنسانُ مُتَأَسِّفًا أن وقعتْ منه هذه المعصيةُ، فتجدُه مُنكسِرَ القلبِ مُنِيبًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يَخشَى عقابَ اللهِ.

الشرطُ الثَّالثُ: الإقلاعُ عن الذنبِ:

فأما أن يقولَ: إنَّه تائبٌ، وهو مستمِرٌّ في ذنبِه فلا توبةَ له، فلو أن رجلًا تابَ من الكذبِ، والكذبُ كما نعلمُ جميعًا حرامٌ، ومن أخلاقِ المنافقينَ، لو قال: إنَّه تابَ من الكذِبِ، ولكنه يكذبُ وما زالَ يكذبُ، فلا تَصِحُّ توبتُه؛ لأَنَّه لم يُقْلِعْ، بل إن توبتَه هذه كالاستهزاءِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

كذلك إنسانٌ كان يَسْرِقُ من أموالِ النَّاسِ، ويجحدُ ما يجبُ عليه من الديونِ، فقال: إنَّه تائِبٌ، ولم يَرُدَّ الأموالَ إلى أهلِها، فلا تَصِحُّ توبتُه؛ لأَنَّه لم يُقْلِعْ عن الذنبِ.

فإذا سرقَ من شخصٍ مِئَةَ ريالٍ، ثمَّ نَدِمَ وتَابَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولكن قال: أنا أستحيي أنْ أردَّ العشرةَ إليه. قلنا: لم تَصِحَّ توبتُك؛ لأَنَّه لم يُقْلِعْ إلى الآن، فالمعصيةُ تحت يديْه، فلا بُدَّ أن تَرُدَّ العشرةَ إلى الَّذِي أَخَذْتَها منه، وإلا فالتوبةُ غيرُ صحيحةٍ.

فإذا قال: أَخجَلُ أن أَرُدَّها إليه، أو أَخْشَى إن أعطيتُه عشرةً يقولُ: إنك

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

سَرَقْتَ مئةً، وهذا ممكِنٌ ووارِدٌ بلا شكٍّ، فماذا يصنعُ؟ نقولُ: الحمدُ للهِ، إذا اتقيتَ اللهَ جَعَلَ لك فرجًا ومخرجًا، انظرْ إلى واحدٍ من أصحابِه أهلِ الثقةِ وقلْ: يا فلانُ، القضيةُ كذا وكذا، وأنا سرقتُ من فلانٍ عَشَرَةَ ريالاتٍ، ولا أستطيعُ الآن أن أَرُدَّها إليه مصارحةً، فَخُذْهَا -جزاك اللهُ خيرًا- وأَعْطِها إياه. وهذا يمكِنُ، المهمُّ أَنَّه يَسعَى بأيِّ وسيلةٍ إلى أن يَرُدَّ المظالمَ إلى أهلِها قبلَ أن تُؤخَذَ من حسناتِه يومَ القِيامَةِ.

الشرطُ الرَّابعُ: العزمُ على ألا يعودَ:

فأما من تابَ وفي نيتِه أَنَّه إن تَيَسَّرَتْ له المعصيةُ مرَّةً أخرى عادَ إليها فلا تُقبَلُ توبتُه، وهذا يقعُ أحيانًا، فَيَيْئَسُ الإنسانُ من الوصولِ إلى المعصيةِ، ويقولُ: تُبْنَا منها، لكن في نِيَّتِه لو تَيَسَّرَت له لَفَعَلَهَا، فهذا لا توبةَ له، فلا بُدَّ أن يَعزِمَ على ألا يعودَ، فإن عَزَمَ على ألا يعودَ ثمَّ سَوَّلَتْ له نفسُهُ فَفَعَلَهَا، فهل له أن يتوبَ ثانيةً أو لا؟

نقولُ: نَعَمْ يتوبُ ثانيةً، ثمَّ ثالثةً، ثمَّ رابعةً، وكلما أذنبَ وتابَ إلى اللهِ فإنَّ اللهَ يتوبُ عليه.

الشرطُ الخامسُ: أن تكونَ التوبةُ في وقتٍ تُقبَلُ فيه التوبةُ:

فإن لم تكنْ في الوقتِ الَّذِي تقبلُ فيه التوبةُ فلا توبةَ له، وهذا نوعانِ:

النوعُ الأولُ: باعتبارِ كلِّ واحدٍ.

والنوعُ الثَّاني: باعتبارِ الجميعِ.

النوعُ الأولُ: باعتبارِ كلِّ واحدٍ: فإنَّ الإنسانَ إذا حضرَه الموتُ لم تُقبَلْ توبتُه، فإذا شاهدَ الموتَ لم تُقبَلْ توبتُه، ولو تابَ. والدَّلِيلُ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨].

فهذا ليسَ له توبةٌ، ولأنَّ هذا التائبَ توبتُه توبةُ اضطرارٍ، وليستْ عن اختيارٍ، فلما رأى العذابَ قال: تُبتُ، فما ينفعُ هذا.

وبهذا نعلمُ أنَّه يجبُ على الإنسانِ أن يُبادِرَ بالتوبةِ. أَسْأَلُ اللهَ أن يتوبَ عليَّ وعليكم.

ويدُلُّ لهذا الأمرُ الواقِعُ، فكثيرٌ منا يعلمُ أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أغرقَ فرعونَ في البحرِ الأحمرِ، فإنَّ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما خَرَجَ من مِصْرَ بقومِه تبعه فرعونُ بجنودِه، أما موسى فَأَمَرَه اللهُ أن يَضْرِبَ البحرَ بعصاه، فضَرَبَ البحرَ بعصاه فانفلقَ البحرُ -الماءُ المائعُ الجارِي- إلى اثني عَشَرَ طَرِيقًا، فصار طرقًا والمياهُ واقفةٌ وليستْ جامدةً، وهي سيالةٌ لكن وَقَفَتْ بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ثمَّ إن البحرَ يَبِسَ في الحالِ: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه:٧٧].

فخَرَجَ موسى بقومِهِ حتَّى صَارُوا إلى الجانبِ الآخرِ، وتَبِعَهم فرعونُ بجنودِهِ داخلًا في هذه الطرُقِ، فأَمَرَ اللهُ البحرَ فانطبقَ على فِرعونَ بجنودِه وغَرِقوا إلا فرعونَ، ففرعونُ لما ﴿أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، وهو كان بالأولِ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، ويقولُ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، ويُقتِّل أبناءَ بني إسرائيلَ، ويستحيي نساءَهم.

والآن انظرْ إلى الذلِّ العظيمِ: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ

إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ولم يقلْ: إلا الله، فالآن اتَّبَعْ بني إسرائيلَ وانقادَ لهم وصارَ من أتباعِهم ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فقيل: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ يعني آلآن تؤمنُ ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ بَدَنٌ بلا رُوحٍ؛ لأَنَّه مات وغرِقَ.

لكن لماذا أنجاه اللهُ تَعَالَى ببدنِه؟ ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس:٩١-٩٢]؛ لأنَّ بني إسرائيلَ قد أَرْعَبَهُمْ فرعونُ أشدَّ الرُّعبِ، فأرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يُخرِجَ بَدَنَه ليشاهدوا أَنَّه قَدْ ماتَ؛ لأَنَّه لو لم يُشاهِدوه لَذَهَبَ بهم الوهمُ كلَّ مَذهَبٍ، ولقالوا: يمكنُ أن الرجلَ حَمَلَه الموجُ إلى الساحلِ ونَجَا، وصار عندهم شُكُوكٌ، فلما شاهدوه بأعينِهم علِموا أَنَّه غَرِقَ، وأنهم نَجَوْا منه، ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ فنَجَا بدنُه ثمَّ بعد ذلك هَلَكَ مع حِيتانِ البحرِ، أو في أيِّ مكانٍ، اللهُ أَعْلَمُ.

المقصودُ أن التوبةَ بعدَ أن يشاهدَ الإنسانُ العذابَ، ويحضرُه الموتُ، لا تُقبلُ.

النوعُ الثَّاني: باعتبار الجميع: أما العامُّ فطلوعُ الشمسِ من مَغرِبِها، وإذا طلعتِ الشمسُ من مَغرِبِها آمَنَ النَّاسُ كلُّهم. ونحنُ نعلمُ الآنَ أن الشمسَ تطلُعُ من المشرقِ، وتغربُ في المغربِ، فإذا قَرُبَتِ الساعةُ طَلَعَت الشمسُ من المغربِ، يَعْنِي رجعتْ بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! من يستطيعُ أن يَرُدَّهَا؟! لا أحدَ يستطيعُ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

فإذا رآها النَّاسُ آمنوا كلُّهم، حتَّى الملاحدةُ يُؤمنون؛ لأنهم يَعلمون الآن أن لها ربًّا يُدَبِّرها، فيؤمنون باللهِ عَزَّوَجَلَّ، لكن لا ينفعُهم الإيمانُ بعدَ أن تَطْلُعَ الشمسُ من المغربِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ وهو طلوعُ الشمسِ من مغربِها

﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨].

وقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[١].

فانتبِهْ يا أخي لشروطِ التوبةِ، وتُبْ إلى اللهِ قبلَ أن يفجأَكَ الموتُ، وحينئذٍ لا ينفعُ الندمُ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي اليَوْمِ إِلَيْهِ مِئَةَ مَرَّةٍ**»[٢]. والرَّسُولُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قد غَفَرَ اللهُ له ما تَقَدَّمَ من ذنبِهِ وما تأخَّرَ، ومع ذلك يَستغفرُ اللهَ ويتوبُ إليه في اليومِ مئةَ مرةٍ، يقولُ: أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه، أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه.. حتَّى يكملَ مئةَ مرةٍ.

فينبغي لنا نحنُ أن نستغفرَ اللهَ ونتوبَ إليه مئةَ مرةٍ، وأن نجعلَ ذلك عند النومِ في آخِرِ حياتنا اليوميةِ حتَّى يكونَ هذا الاستغفارُ وهذه التوبةُ ماحيةً لما عمِلناه في يومِنا، كما أن من قال: «**سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ**»، في اليومِ مئةَ مرةٍ غُفِرَت ذنوبُهُ وإن كانتْ مثلَ زَبَدِ البَحْرِ[٣].

فاحرِصْ على هذين الأمرين: «**سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ**» مئةَ مرةٍ، و«**أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ**» مئةَ مرةٍ.

البحثُ الثاني:

كيف أقسمَ اللهُ تَعَالَى بالسَّماءِ وهي مَخلوقةٌ، والإقسامُ بالمخلوقِ بالنسبةِ إلينا

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٧٩).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (٢٧٠٢).
(٣) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم (٦٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩١).

حرامٌ، ونوعٌ منَ الشركِ، فكيف أقسمَ اللهُ تَعَالَى بها حَرَّمَهُ على العبادِ؟

والجوابُ على هذا الإشكالِ أن نقولَ: للهِ عَزَّوَجَلَّ أن يُقْسِمَ بما شَاءَ مِن خلقِه، فنحنُ لا نحكُمُ على اللهِ، ولكنَّ اللهَ هو الَّذي يَحكُمُ علينا، ومع هذا لا يُقسِمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بشيءٍ من خلقِه إلَّا وفيه آياتٌ عظيمةٌ تَدُلُّ على عظمةِ الخالِقِ، فيكونُ القَسَمُ بهذا المخلوقِ تعظيمًا للهِ عَزَّوَجَلَّ.

أما نحنُ فلا يَحِلُّ لنا أنْ نُقسِمَ بمخلوقٍ مهما عَلَتْ مَرْتَبَتُه؛ فلا نُقسِمُ بالرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يعني لا نقولُ: والنَّبِيِّ، ولا نقولُ: والرَّسُولِ، ولا نُقسِمُ بِجِبريلَ، ولا نُقسِمُ بالشمسِ ولا بالقمرِ، ولا بأيِّ مخلوقٍ؛ لقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»[1].

وجاء عنه ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ**» أو قال: «**أَشْرَكَ**»[2].

وحينئذٍ يُعتبَرُ الحلِفُ بغيرِ اللهِ نوعًا من الشركِ، ولقد قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[3]. لأن (واللات) حَلِفٌ بغيرِ اللهِ، فهو نوعٌ من الشركِ، فليقلْ: لا إِلَهَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥، رقم ٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب لا يحلف باللات والعزى ولا بالطواغيت، رقم (٦٦٥٠)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب من حلف باللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله، رقم (١٦٤٧).

إِلَّا اللهُ، فيداوي الشركَ بالتوحيدِ؛ لأن دواءَ الشيءِ يكونُ بضدِّه.

البحثُ الثَّالثُ:

هل هذا الَّذِي وَقَعَ من هَؤُلاءِ الكَفَرَةِ يُشابهُ ما وقعَ اليومَ منَ الرُّوسِ -قاتَلَهُمُ اللهُ وأذلَّهم- على إخوانِنا في الشيشانِ؟

نقولُ: نعم؛ لأن هَؤُلاءِ الروسَ إنَّما قاموا بهذه الحربِ على الشيشانِ لأنهم آمنوا باللهِ، ولأنه دبَّ فيهم التوحيدُ، والمتابعةُ الصحيحةُ للرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وهؤلاءِ الكَفَرَةُ الرُّوسُ وغيرُهم من الكفارِ يعلمون أن المسلمينَ لو عادوا إلى دِينِهم الأولِ الَّذِي عليه أَسْلَافُهم من الصَّحَابَةِ والتابعينَ لاكتسحوهم؛ لأن الصَّحَابَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فتحوا بإسلامِهم وإيمانِهم مَشارقَ الأرضِ ومَغارِبَها، واكتسحوا مُلْكَ الفُرسِ ومُلكَ الرُّومِ، والفرسُ والرومُ في ذلك الوقتِ يُشبهانِ الأمريكانَ والسُّوفييتَ، دولتانِ عظيمتانِ.

هَؤُلاءِ الروسُ خافوا إنْ دبَّ الإسلامُ الصحيحُ في القُوقَازِ أن يَقْضِيَ عليهم، ولهذا سَمِعْنَا أن الغربَ لَمَّا فَتَّتَ اللهُ الاتحادَ السوفيتيَّ قالوا: الآن انتهينا من الشُّيوعيَّةِ وزال خَوفُنا منها، لكن بَقِيَ علينا خوفٌ من شيءٍ أعظمَ منها ألا وهو الإسلامُ.

وصَدَقوا فيما قالوا، فالإسلامُ الصحيحُ الَّذِي عليه السلفُ الصالحُ واللهِ ثمَّ واللهِ ثمَّ واللهِ لو أن الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ طَبَّقَتْه لاكتسحتْ مَشارقَ الأرضِ ومغاربَها.

أقولُ ذلك لأنَّ اللهَ قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة:٣٣].

ولقولِه تعَالَى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠-٤١].

لكنَّ الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ اليومَ في حالٍ يُرثَى لها، وفي حالِ تَفرُّقٍ وبِدَعٍ وتَمرُّدٍ على الحكَّامِ، وتَسَلُّطٍ من الحكَّامِ على الرَّعايا، وهكذا، فلذلك حتَّى الآن لم يُكتَبْ لها النصرُ، وصارتِ الحروبُ بينها وبين شِرْذِمَةٍ منَ اليهودِ مِرارًا وفي النهايةِ اكْتَسَحَ اليهودُ جزءًا كبيرًا من أراضي المسلمينَ.

واليهودُ كانوا يقاتلون عن عقيدةٍ، وإن كانتْ عقيدةً باطلةً، لكن الَّذِينَ كانوا يقاتلونهم كانوا يُقاتِلُونهم للعُرُوبةِ، والقوميَّةِ، ولذلك لم يَنجَحُوا، ولو قاتلوا بالإسلامِ، مع تطبيقِهم له عقيدةً وقولًا وعملًا، لَانْتَصَرُوا عليهم بالتأكيدِ؛ لأن أذلَّ عبادِ اللهِ هم اليهودُ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ في أيِّ مكانٍ كانوا فالذلَّةُ مَضروبةٌ عليهم، ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٢]، الحبلُ منَ اللهِ الإسلامُ، فإذا أَسْلَموا صار لهم العِزَّةُ؛ فعبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مِنَ اليهودِ، ومن أحبارِ اليهودِ، ومعَ ذلك أسلمَ وحسُن إسلامُه.

﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني أن غيرَهم يقوِّيهم ويكونُ معهم، وإلا فَهُم أذلَّةٌ، يقول الله تَعَالَى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ [الحشر:١٤]، أما مقابلةً وجهًا لوجهٍ فلا، لكنَّ الخطابَ في قولِه: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ للصحابةِ الَّذِينَ قاموا بالإسلامِ حقَّ القيامِ، عقيدةً وقولًا وعملًا، فالآن هل هم لا يُقَاتِلُونَنَا إلَّا في قُرًى مُحصَّنةٍ؟

نقولُ: لا، يُقَاتِلُونَنَا وَجْهًا لوجهٍ؛ ذلك لأن قَناتَنا[١] ضَعُفَتْ، لِضَعْفِ دِينِنا وتفرُّقِنا، وتمزُّقِنا.

أسألُ اللهَ تَعَالَى أن يجمعَ كلِمَتنا على الحقِّ، وأنْ يَنْصُرَنا على أعدائِنا، وأن يَجْعَلَنا هُداةً مُهْتَدِينَ، وصالحينَ مُصْلِحِينَ.

والحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



(١) القناة: الرمح. والمراد: السلاح والقوة. انظر: تاج العروس (قنو).



سورةُ الطارقِ

الدرسُ الأولُ:

إِنَّ الحَمدَ لله، نَحْمَدُه، ونَستَعِينُه، ونَستغفِرُه، ونعوذُ بالله مِن شُرورِ أنفُسِنا، ومِن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَن يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لا شريكَ له، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه ورسولُهُ، وخَلِيلُهُ وأَمِينُه عَلَى وَحْيِه، أَرْسَلَهُ اللهُ بالهُدَى ودِينِ الحَقِّ، فَبَلَّغَ الرسالَةَ، وأَدَّى الأَمَانَةَ، ونَصَحَ الأُمةَ، وجاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ، وأُوذِيَ فِي اللهِ، فصَبَرَ كما صَبَرَ أُولو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ -عليهم الصلاة والسلام- فصَلَواتُ اللهِ وسلامُه عليه، وعلى آله وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ.

وأسألُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ يجعلَني وَإِيَّاكُم مِن أتباعِه ظاهِرًا وباطنًا، وَأَنْ يَحْشُرَنا فِي زُمْرَتِه، وَأَنْ يَسْقِيَنَا مِن حَوْضِه، وَأَنْ يُدْخِلَنا فِي شفاعتِه، وَأَنْ يَجْمَعَنا به فِي جَنَّاتِ النَّعيمِ مَعَ النَّبِيِّين والصِّدِّيقِين والشُّهداءِ والصَّالِحِين، إنه عَلَى كلِّ شيءٍ قديرٌ، أَمَّا بَعْدُ:

ففِي هَذِهِ اللَّيْلةِ، ليلةِ الجُمُعَةِ الثَّالثِ والعِشرين مِن شهرِ ربيعِ الثَّاني، عامَ سَبْعَةَ عَشَرَ وأربعِ مِئَةٍ وألف، يسَّرَ اللهُ لنا أن نلتقيَ بإخوانِنا هنا فِي المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشريفِ، ونَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يجعلَهُ لقاءً نافعًا لنا ولكم.

الحَثُّ عَلَى تَدَبُّرِ آياتِ القُرْآنِ:

وكما هِيَ عادتُنا فِي مِثلِ هَذِهِ اللقاءاتِ المباركةِ هنا، وفي المَسْجِدِ الحرامِ نتكلَّمُ أولًا عَلَى ما قَرَأَهُ إمامُنا فِي صَلَاةِ المَغْرِب؛ وذلك لأنَّ تفسيرَ القُرْآنِ عِلمُه أمرٌ مُهِمٌّ، فإنَّ اللهَ تَعَالَى يقولُ فِي كتابِه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، فوَصَفَ اللهُ القُرْآنَ بأنه مُبارَكٌ، ولا شَكَّ أَنَّه كذلك، فهو مُبارَكٌ فِي تِلاوَتِه، مُبَارَكٌ فِي أَثَرِهِ، ومُبَارَكٌ فِي تأثيرِه، فآثارُ هَذَا القُرْآنِ الكريمِ حين كانت الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ متمسكةً به، آثارٌ عظيمةٌ بَالِغَةٌ، مَلَكت به الأمةُ الإسلاميةُ مَشارِقَ الأرضِ ومَغَارِبَها، ودَكَّتْ به عُروشَ مُلوكِ الفُرسِ والرُّومِ، حتَّى صَارَتْ أكثرَ بِقاعِ الأرضِ تابعةً لهذا الدِّينِ الإسلاميِّ.

لهذا كان القُرْآنُ مُبارَكًا، قال اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾، ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالقُرْآنِ، ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢] فهو مُبارَكٌ بكلِّ أنواعِ البَركةِ، ومِن كلِّ وجهٍ.

ولكن هل الحِكمة مِن إنزالِه أن نقرأَه تَعَبُّدًا للهِ تَعَالَى بقراءتِهِ، ورجاءً لحُصولِ الثوابِ، أَمْ أَنَّ الأمرَ وراءَ ذلك؟

الجوابُ: الأمرُ وراءَ ذلك، لا شَكَّ أن تلاوتَه، ورجاءَ الثوابِ بذلك، لا شَكَّ أنَّه أمرٌ مقصودٌ مُهِمٌّ، والإنْسَانُ إذا قَرَأَ القُرْآنَ فله بكلِّ حرفٍ عَشْرُ حسناتٍ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لاَ أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ**»(١). لكنَّ المقصودَ

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر، رقم (٢٩١٠).

أمرٌ وراءَ ذلك، وهو: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، ومعنى التَّدَبُّرِ: التأمُّلُ، والتفكُّرُ فِي المعنى حتَّى نَصِلَ إليه ونَعْرِفَهُ، ثمَّ بعدَ ذلك تأتي النتيجةُ والثمرةُ: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩] لِيَتَذَكَّرَ أي: يَتَّعِظَ بما فيه مِن المواعِظِ والحِكمِ والأسرارِ.

قوله تعالى: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أصحابُ العقولِ، فكلُّ مَن كانَ أَعْقَلَ فهو لهذا القُرْآنِ أَتْبعُ، وأَشَدُّ تمسُّكًا.

إذن، الفائدةُ مِن إنزالِ هَذَا القُرْآنِ شيئان: أَنْ يتدبَّرَ النَّاسُ كتابَ اللهِ، وأَنْ يَتَذَكَّرَ أُولو الألبابِ، وهذا يعني أنَّه فَرْضٌ علينا أنْ نَتَفَهَّمَ معانيَ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وإنَّك لو تأمَّلتَ لوجدتَ أكثرَ المُسْلِمِينَ اليومَ لا يعرفون مِن القُرْآنِ إِلَّا رَسْمَهُ، ولَفْظَهُ فقط، ولا يعرفون المعنى إِلَّا قليلًا، ولهذا لو سألتَ أيَّ واحدٍ حتَّى ولو كان طالِبَ عِلمٍ: ما المرادُ بكذا وكذا؟ لوجدتَهُ يتشكَّكُ ويتردَّدُ، ولهذا أحثُّكم -بَارَكَ اللهُ فيكم- عَلَى تفهُّمِ معاني القُرْآنِ.

فإنْ قالَ قائلٌ: بِم نعرف هَذِهِ المعانيَ؟

قلنا: الطريقُ إِلَى ذلك شيئان:

الشَّيْءُ الأوَّل: تَلَقِّي المعاني مِن أفواهِ العُلَماءِ، لكنِ العُلَماءُ الموثوقُ بهم، وليس كلُّ مَن قالَ: إنه عالِمٌ يُتلقَّى قولُه؛ لأنَّ مِن العُلَماء مَن لَيْسُوا بعلماء، أو مِن العُلَماء مَن لَيسُوا بأُمَنَاءَ، لكن العالِمَ حقيقةً هُوَ الَّذِي لديه العِلمُ والأمانةُ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

الطريقُ الثَّاني: أن نقرأَ ما كُتِبَ فِي تفسيرِ القُرْآنِ، ولكن أيُّ كِتابٍ نقرؤه؟ هل كلُّ ما فُسِّرَ به القُرْآنُ نقرؤه؟ لا؛ لأنَّ المفسرين رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَنْحاءٍ شَتَّى، لا بُدَّ

أن نُطالِعَ كُتبَ التفسيرِ مِن مؤلفين موثوقين فِي عِلمِهم وأمانتِهم، مثل تَفْسِيرِ ابنِ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتفسيرِ ابنِ سعدي، وتفسيرِ صاحبِ هَذَا الكرسيِّ أبي بكر الجزائري، وغيرهم ممن يُوثَقُ بِعِلمِهم وأمانتِهم.

ثم هناك شيءٌ آخَرُ أُوصِي به طلبةَ العِلمِ خاصَّةً، وهو أَنْ يتأمَّلَ الإِنْسَانُ كلامَ اللهِ بنفسِه أولًا، فإذا تولَّدَ عنده شيءٌ مِن المعنى، فليَرجعْ إِلَى كُتبِ التفسيرِ؛ حتَّى لا يَضِلَّ، وإنما قلتُ ذلك مِنْ أَجْلِ أَنْ يتمرَّنَ هُوَ بنفسه عَلَى معرفته معاني كتابِ اللهِ، وألَّا يكونَ إِمَّعَةً يقرأ فقط ويحفظ، بل لا بُدَّ أَنْ يفهمَ.

لذلك أَحُثُّ طَلَبَةَ العِلمِ بالذات عَلَى أَنْ يتأمَّلَ الإِنْسَانُ معنى الآية أولا، ثمَّ بَعد ذلك إذا تكوَّن عنده معنًى يرجع إِلَى كلامِ العُلَمَاءِ؛ حتَّى لا يَضِلَّ، ولأن الإِنْسَانَ ربما يَضِلُّ، وربما يفهمُ الآيةَ عَلَى غيرِ معناها، ولا سِيَّما مَن لَيْسَ عنده مِرانٌ ومُتابعةٌ لمعاني القُرْآنِ.

لهذا اخترتُ أن أبدأ جَلساتي هَذِهِ بتعليقٍ سريعٍ حَوْلَ ما قَرَأه إمامُنا فِي الصَّلاةِ الَّتِي يتلُوها هَذَا اللقاءُ، وهي سُورةُ الطارقِ، للتذكيرِ، وذلك لأننا قد فَسَّرْناها قبلَ ذلك.

نقولُ: أولا: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق:١] هَذِهِ الصِّيغةُ صِيغةُ قَسَمٍ، أَقْسَمَ اللهُ بشيئين: بالسَّماءِ، وهي مخلوقةٌ، والطارقِ وهو مخلُوقٌ، فكيف جاز القَسَمُ بالمخلوقِ؟

نقولُ: للخالقِ أَنْ يُقسمَ بما شاء مِن خَلْقِه، أو مِن آياتِه، أو مِن أسمائِه، أو مِن صفاتِه، أما نَحْنُ فليس لنا أن نُقسمَ إِلَّا باللهِ عَزَّوَجَلَّ قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى

آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»(١).

فِي هَذِهِ السُّورةِ قاعدةٌ مِن قواعِدِ التفسيرِ، وهي أنَّه يُرجَعُ فِي التفسيرِ أولًا إِلَى كلامِ اللهِ، بمعنى: أَنْ نُفَسِّرَ القُرْآنَ أولًا بالقُرْآنِ، يُؤخذُ هذا مِن تبيين معنى الطارقِ بقولِه: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق:٣].

إذن، أولُ ما نُفسرُ القُرْآنَ بالقُرْآنِ؛ لأنَّ القُرْآنَ يُفَسِّرُ بعضُه بعضًا، حيث إِنَّ المتكلِّمَ به واحد، ثمَّ بعد ذلك نُفَسِّره بما فَسَّرَت به السُّنَّة؛ لأنَّ أعلَمَ الخَلق بكتاب الله هو رسولُ اللهِ ﷺ لا مُنازَعَة فِي ذلك.

ومِن أمثلة تفسير القُرْآن بالسُّنة قول الله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ [الأنعام:٨٢]، قالَ الصَّحَابَة: أَيُّنا لا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَما قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾»(٢).

ومِن ذلك أيضًا قولُ النَّبِي ﷺ فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠]، قال: «أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ»(٣).

ومن ذلك تفسيره ﷺ الزيادة فِي قوله تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس:٢٦]، بأنها النَّظَرُ إِلَى وجه الله الكريم(٤).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، رقم (٢٦٧٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ظلم دون ظلم، رقم (٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، رقم (١٢٤).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، رقم (١٩١٧).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨١).

بعد ذلك نرجع إِلَى تفسير الصَّحَابَة رَضِيَٱللَّهُعَنهُمْ لأنَّ الصَّحَابَة أعلمُ النَّاس بَعْدَ الرَّسُول عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بمعاني كلامِ الله؛ لأَنَّه نزَل بِلُغتهم، وفي عصرهم، وفي الحالات الَّتِي يُنزَّل عليها معنى القُرْآن؛ لأنَّ القُرْآن قَدْ يُخَصَّص بحالٍ مِن الأحوال الَّتِي ينزل فيها.

ثم بَعد ذلك كبار التابعين، ولا سِيَّما الَّذِينَ أخذوا عن الصَّحَابَة، كمُجَاهِدِ بنِ جَبْرٍ رَحِمَهُٱللَّهُ وغيره مِن التابعين.

قوله تَعَالَى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٩] معنى ﴿تُبۡلَى﴾ تُختبر، ومنه قولُه تَعَالَى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء:٣٥].

﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾ يعني: القلوب.

وهنا نأخذُ قاعدةً: الحِسابُ يومَ القيامةِ عَلَى ما فِي الصُّدورِ، والحِسابُ فِي الدُّنيا عَلَى ما فِي الجَوارِحِ، وفي الدُّنيا يُحاسَبُ الإِنْسَانُ، ويُقَوَّمُ الإِنْسَانُ عَلَى حَسَبِ عملِه الظاهرِ، وتُوكَلُ السرائرُ إِلَى اللهِ، وفي الآخرةِ لا مَفَرَّ، فالعِبرةُ عَلَى ما فِي القلبِ.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُصلحَ قلوبَنا وقلوبَكم.

ولهذا يجبُ علينا أن نعتنيَ بقُلوبِنا أكثرَ مِن جَوارِحِنا، فكَمْ مِن إِنْسَانٍ صَلَّى إِلَى جَنبِه إِنْسَانٌ آخَرُ، وبينهما فِي الفضلِ والثوابِ والدرجةِ عندَ اللهِ كما بين السَّماءِ والأرضِ، اعتبارًا بما فِي القلوبِ، ولهذا طَهِّرُوا قلوبَكم مِن الشِّركِ، ومِن الشَّكِّ، ومِن النفاقِ، ومِن الحِقدِ والغِلِّ عَلَى المُسْلِمِينَ، إِلَى غيرِ ذلك مِمَّا يجبُ أَنْ يُطهَّرَ القلبُ منه؛ لأنَّ المدارَ يومَ القيامةِ عَلَى ما فِي القلوبِ.

واستمعْ إِلَى قولِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ**»، والمَكْلُومُ: يعني: المَجْرُوح يُجرحُ فِي سبيلِ اللهِ، «**وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ**»(١).

الشاهدُ قولُه: «**وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ**»، انْتَبِهْ لهذا القَيْدِ، ولهذا قالَ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي صحيحِه عَلَى هَذَا الحَدِيثِ: لَا يَقُولُ فُلَانٌ شَهِيدٌ(٢). حتَّى لو قُتِلَ فِي المعركةِ بين المُسْلِمِينَ والكفَّارِ، لا تَقُلْ: شهيدٌ، بل قُلْ: فُلَانٌ يُرجى أَنْ يَكُونَ شهيدًا، أما أنْ أقولَ: شهيدٌ. والرَّسُولُ ﷺ يقولُ: «**وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ**». فهذا لَيْسَ بجائزٍ، وكيف نقولُ هكذا والرَّسُولُ ﷺ تبرَّأَ مِن أَنْ يُطْلِقَ لفظَ الشهيدِ عَلَى ما يظهرُ مِن حالِه، فقال: «**وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ**».

ثم اعتَبِرُوا بالقصة الَّتِي جاءت أيضًا فِي صحيح البخاري: كان هناك رَجُل مَعَ المُسْلِمِينَ في المعركةِ، وكان شُجاعًا قَوِيًّا مِقدامًا، لا يَدَعُ للعَدُوِّ شاذَّةً ولا فاذَّةً إِلَّا قضى عليها، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، والرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا ينطقُ عن الهوى، قال: «**أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**». فعَظُم ذلك عَلَى الصَّحابَةِ، وشَقَّ عليهم، كيف يكونُ هَذَا الرَّجلُ الشُّجاعُ المِقدامُ مِن أهلِ النَّارِ؟ فقال أحدُهم -أي: أحد الصَّحابَةِ-: والله لَأَلْزَمَنَّهُ، أي: أُتَابِعُه وأنظُر ما النتيجةُ، فأُصيبَ هَذَا الرَّجُلُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من يخرج في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٢٨٠٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم (١٨٧٦).

(٢) كتاب الجهاد والسير، باب لاَ يَقُولُ فُلاَنٌ شَهِيدٌ؛ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ اللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ، قبل حديث رقم (٢٨٩٨).

بِسَهْمٍ مِن العَدُوِّ، فَجَزِعَ وكأَنَّه يقول -والله أعلم-: كيف يُصيبُني السهمُ وأنا ذلك الرَّجلُ الشُّجاعُ المِقدامُ؟ فَسَلَّ سَيْفَهُ، واتَّكَأَ عليه مِن عِند الصَّدْرِ حتَّى خَرَجَ مِن ظَهْرِه، فقَتَل نفسَه -والعِيَاذُ باللهِ- فجاء الرَّجُلُ الَّذِي كان مُلازمًا له، وقال للنبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»(١).

أجارنا الله وَإِيَّاكُم من ذلك، اللَّهُمَّ أصلِح قُلوبنا.

المسألةُ صَعبةٌ، فالقُلوبُ لا بُدَّ مِن تَطْهِيرِها قَبْلَ كلِّ شيءٍ، ثمَّ إذا صَلُحَ القلبُ وطَهُرَ، فالجوارِحُ تَبَعٌ له؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»(٢). اللَّهُمَّ أصلِح قُلوبَنا.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق:١١-١٢] الرَّجع

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد، رقم (٢٧٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، رقم (١١٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩).

يعني: المطر، والصَّدْع: التشقُّق إذا أَمْطَرَتِ السَّماءُ عَلَى الأرضِ، ونَبَتت، عندما يكونُ أولُ النباتِ تنشقُّ الأرضُ عن النباتِ، فأقسمَ اللهُ بالسَّماءِ ذاتِ الرَّجعِ، وبالأرضِ ذاتِ الصَّدعِ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ ينظرُ إِلَى الأرضِ المَيْتَةِ لَيْس فيها خَضراءُ تُمطِرُها السَّماءُ، فتَشَقَّقُ بالنباتِ، فيُحيي اللهُ الأرضَ بعدَ موتِها.

أيضًا الإِنْسَانُ سوف يموتُ ويُدفنُ، وتأكلُه الأرضُ، إِلَّا مَن شاءَ اللهُ، ثمَّ يُخْرَجُ منها، فالقادرُ عَلَى إخراجِ هَذِهِ الحَبَّةِ اليابِسَةِ مِن باطِنِ الأرضِ قادرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الإِنْسَانَ بَعْدَ مَوْتِهِ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾، يعني: هامِدَةً لَيْسَ بها خضراءُ، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

واللهِ إنَّ لنا لَمَوْعِدًا نُحشَرُ فيه إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ حُفاةً عُراةً غُرْلًا، لا مالَ، ولا ولدَ، ولا زَوْجة، ولا قَرِيبَ، ولا نَسِيبَ، بل الواحِدُ منا يَفِرُّ مِن: ﴿أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧].

أسأَلُ اللهَ أَنْ يجعلَني وَإِيَّاكُم فِي ذاكَ اليومِ مِن السُّعداءِ، إنَّه عَلَى كلِّ شيءٍ قديرٌ.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥] الَّذِين يَكِيدُون هُم الكفَّار، يَكِيدُون للرَّسُول ﷺ قال تَعالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٦]، ﴿كَيْدًا﴾ يعني: أعظمَ مِن كَيْدِهم، كما قالَ تَعالَى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، وما أكثرَ مَكْرَ اللهِ بمَن يَمكرُ به،

فمكَرَ بفِرْعَوْنَ حِين حَشَرَ المَدائنَ يُريدُ بذلك القضاءَ عَلَى مُوسَى وقومِه: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء:٦٠-٦١] يعني: عَلَى كُلِّ حالٍ هالِكُون؛ لأنَّ البحرَ أمامَهُم، وفِرْعَوْنَ عَدُوَّهُمْ خَلْفَهم، فأين يذهبون؟ البحرُ الأحمرُ بَحْرٌ عظيمٌ واسِعٌ، فماذا يصنعون؟

قالَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَقالَ الآمِنِ المُؤمنِ المُطمئنِّ، قال: ﴿كَلَّآ﴾ يعني: لَسْنَا بِمُدْرَكِين، ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢]، اللهُ أكبرُ! ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨].

﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾، فأوحى اللهُ إليه ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء:٦٣] عَصًا مِن خَشَبٍ يتكِئُ عليها، ويَهُشُّ بها عَلَى غَنَمِه ضَرَبَ بها البَحرَ، وفِي لَحظةٍ أبلغَ مِن طَرْفَةِ العَيْنِ انفلَقَ البحرُ -لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ- وكان اثني عَشَرَ طريقًا، وليس طريقًا واحدًا، ويَبُسَ فِي الحالِ، سُبْحَانَ اللهِ العظيمِ.

وإنما كان اثني عَشَرَ طريقًا لأنَّ بني إسرائيلَ كانوا اثني عَشَرَ سَبْطًا، وجُعِلَ الماءُ السَّيَّالُ بينهم كالجِبال، وهو بِصِفَتِه، فلَيْسَ معنى ذلك أنَّه صار ثَلْجًا، لأنَّه لم يُذكرْ فِي القُرْآنِ أنَّه تحوَّلَ إِلَى ثلجٍ، ولو تحوَّلَ إِلَى ثَلجٍ ومَرَّ النَّاسُ فِي هَذِهِ الطرق لتَجمَّدُوا، لكنه -بإذنِ اللهِ- وَقَفَ هَذَا الماءُ كالطَّوْدِ العَظيمِ، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣]، والطَّوْدُ: الجَبَلُ.

وقيل: إنه كان فِي هَذِهِ الأَطْوَادِ ثُقوبٌ -يعني: فُرُجًا- يَنظرُ النَّاسُ بعضُهم إِلَى بعضٍ حتَّى يطمئنوا عَلَى نجاةِ إخوانِهم، واللهُ عَلَى كلِّ شيءٍ قديرٌ، ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧] وسُبْحَانَ اللهِ العظيمِ! أرضٌ

كُلُّها طِينٌ، ومَضَى عليها ما لا يَعْلَمُه إِلَّا اللهُ مِن السنوات، والماءُ فوقَها، ومع ذلك فِي لحظةٍ صارت يَبَسًا، وفي لحظةٍ تَمَزَّقَ هَذَا الماءُ، وصار كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العَظيمِ، ممَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الأمرَ بِيَدِ اللهِ ﷻ وأنه عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنه إذا أراد شيئًا قالَ له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧].

أين عُلماءُ الطبيعةِ؟! هل يمكنُ للطبيعةِ أن تَفْعَلَ هذا؟ لا واللهِ، وإبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْقَدَ له المُكذبون نارًا عظيمةً، ثُمَّ أَلْقَوْه فِي الجحيمِ، ويقالُ: إنهم رَمَوْهُ بالمَنْجَنِيقِ عَلَى النَّارِ؛ لأنها تَحرِقُ مَنْ قَرُبَ منها؛ لِشِدَّتِها وكثرتِها وعَظَمَتِها، فرَمَوْهُ بالمَنْجَنِيقِ في النَّارِ، فقالَ اللهُ للنارِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، هَذِهِ النَّارُ المحرِقةُ صارت بَرْدًا، لكنه لَيْسَ البَرْدَ القارِصَ الَّذِي يَقْتُلُ، حيث قال: ﴿وَسَلَـٰمًا﴾، قالَ العُلَماءُ: لو قالَ ﴿بَرْدًا﴾ بدونِ أَنْ يَقولَ ﴿وَسَلَـٰمًا﴾ لكانت تُهْلِكُه، لكنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا قالَ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، فكانت بَرْدًا وسلامًا عليه.

أقول: إِنَّ الله تَعالَى عَلَى كل شيءٍ قديرٌ، وقادِرٌ عَلَى قَلْبِ الأشياءِ، وتغييرِ طبائِعِها؛ لأنَّه هُوَ الخالِقُ وَحْدَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

أقول: فِرْعَوْنُ كادَ لمُوسَى، ورأى أَنَّه قَدْ ظَفَرَ به، حيث وَصَلَ إِلَى نُقطةِ الصِّفرِ إِلَى غايَةٍ لا بُدَّ -على حَسَبِ فهم فِرْعَوْن- أَنْ يَهْلِكَ، حتَّى الَّذِينَ آمنوا مَعَ مُوسَى قَالُوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، فظنَّ الخبيثُ أنَّه تَمَكَّنَ مِن مُوسَى وقومِه.

خَرَجَ مُوسَى وقومُه مِن البَحرِ سَالمِينَ، ودَخَلَ فِرْعَوْنُ وقومُه عَلَى أَنَّهم سوف يُدْرِكون مُوسَى، فلما تكامَلَ مُوسَى وقومُه خارِجين، وفِرْعَوْنُ وقومُه داخِلين، أَمَرَ

اللهُ البحرَ أَنْ يَعُودَ عَلَى ما هُوَ عليه، فانطبق عليهم -الله أكبر- حتى كانوا فِي قَعْرِ البَحرِ، وهلكوا عن آخِرِهم، وفِرْعَوْنُ الَّذِي كان يَفْتَخِرُ بالماءِ أولًا، حيثُ قالَ لقومِهِ قبلُ: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١]، افتخَرَ بأن له مُلكَ مِصْرَ.

ثُمَّ خَلَفَهُ بنو إسرائيلَ الَّذِينَ كان بالأمسِ يُذَبِّحُ أبناءَهم، ويَسْتَحْيِي نساءَهم، وافتخَرَ بالأنهارِ الَّتِي تجري مِن تَحْتِهِ، فأَهْلَكَهُ اللهُ بالماءِ الَّذِي كان يفتخرُ به بالأمسِ، واستكبَرَ عَلَى قومِ مُوسَى، وبالتالي صَارَ تابعًا لهم، فلما أَدْرَكَهُ الغرَقُ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠] سُبْحَانَ اللهِ! كان قبل ذلك يُقَتِّلُ بني إسرائيل عَلَى الإيمانِ، أما الآن فأَذْعَنَ وذَلَّ، وقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، لم يقلْ: آمنتُ باللهِ؛ ذُلًّا -والعِيَاذُ باللهِ- وخِزْيًا أنَّ هَؤُلَاءِ القومَ الَّذِينَ كان بالأمسِ يُقتِّلُهم، ويُذَبِّحُهُم، صار الآن تابعًا، فقِيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تُؤمنُ بما آمَنَت به بنو إسرائيلَ، ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تكونُ مِن المُسْلِمِينَ ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس:٩١-٩٢]، بالبَدَنِ لا بالروحِ، الرُّوحُ ذَهَبَتْ مَعَ الأرواحِ مِن الغرَقِ إِلَى الحَرْقِ -والعِيَاذُ باللهِ- قال تَعالَى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، لكنْ نَجَّاهُ اللهُ بِبَدَنِه ليكونَ آيةً وعلامةً عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ الَّذِي كان قَدْ أَرْعَبَ بني إسرائيلَ، قَدْ مات؛ لأنكم تعلمون أنَّه بَلَغَ مِن رُعبِ بني إسرائيلَ مِن هَذَا الرَّجلِ الكافرِ العنيدِ مبلغًا عظيمًا، فَقَدْ لا يُصدِّقُون بأنه غَرِقَ، وقد يقولُ الشيطانُ لهم: إنه لم يَغْرَقْ، إنه نَجا، أَنْجَتْهُ الأمواجُ إِلَى ساحلِ البحرِ مثلا، فإذا شاهدوه بأعيُنِهم حينئذٍ يطمئنون، ولهذا قال: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس:٩٢] أي:

مِنْ بني إسرائيلَ، ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامةً عَلَى أنك هَلَكْتَ، ولم يَبْقَ لك شيءٌ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ، أنا جئتُ بهذا المِثالِ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعالَى يَكِيدُ لأوليائِه عَلَى أعدائِه، وقد قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف:٧٦].

قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق:١٧] مَهِّلْهُم يعني: تَأَخَّرْ، ودَعْهُم يَأْمَنُوا مَكْرَ اللهِ، ويَسْتَدْرِجْهُمُ اللهُ، ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ أي: قَلِيلًا، وسوفَ يجدونَ جَزاءَهُمْ.



الدرسُ الثاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ [الطارق:١-١٧].

قولُ اللهِ تَعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ يُقسِمُ اللهُ تَعالَى بالسَّماءِ، والسَّماءُ هنا يَحتمِلُ أن يُرادَ بها كلَّ ما عَلاكَ، فكلُّ ما عَلاكَ فهو سماءٌ، ويَحتمِلُ أن يُرادَ بالسَّماءِ السَّمَوَاتُ السبعُ، فيكونُ مُفردًا أُريدَ به الجنسُ، فيعمُّ كلَّ السَّمَوَاتِ.

وأيًّا كان فإنَّ اللهَ تَعالَى لم يُقْسِمْ بشيءٍ إلا وهو دليلٌ عَلَى آيةٍ من آياته عَزَّوَجَلَّ؛ فهذه السَّمَوَاتُ الواسعةُ الأرجاءِ، العاليةُ البِناءِ، القويَّةُ، بناها اللهُ عَزَّوَجَلَّ كما قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]، وقال تَعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ

﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس:٥].

وإيَّاك يا أخي أن تعتقدَ أنَّ قولَه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ يعني أن اللهَ بنَى السَّماءَ بيدِه، كلَّا؛ فقد قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، فاللهُ تَعَالَى خلقَ السَّموَاتِ بالكلمةِ، وليس بيدِه جَلَّوَعَلَا؛ ولهذا يُخطِئُ مَن يَظُنُّ أن قولَه: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ جمعُ يدٍ، وإنما هِيَ مصدرُ آدَ يَئِيدُ، والمصدر أَيْد؛ كباعَ يَبيع والمصدر بيعٌ، وكالَ يَكِيلُ كَيْلًا.

ولهذا لم يُضِفْهَا اللهُ إِلَى نفسِه؛ كما أضافها فِي قولِه تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس:٧١].

وعلى هَذَا فلا يجوزُ أن نعتقدَ أبدًا بأنَّ اللهَ خلقَ السَّماءَ بيدِه.

إذنْ، هَذِهِ السَّمَوَاتُ العظيمةُ جديرةٌ بأن يُقسِمَ اللهُ بها، حيثُ قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾، فالواو هنا حرفُ قَسَمٍ، و(الطارق) معطوفٌ عَلَى (السَّماء)، والمعطوفُ له حُكْمُ المعطوفِ عليه، وعلى هَذَا فيكونُ اللهُ تَعَالَى أقسمَ بالطارِقِ.

وما الطارقُ؟ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ تفخيمًا: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ يعني: أيُّ شيءٍ أَعْلَمَكَ عن هَذَا الطارقِ الَّذِي كان جَديرًا أن يُقسِمَ به. فسَّره اللهُ بقولِه: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، فهَذَا الطارقُ، وسُمِّيَ طارقًا لأَنَّه يَبْرُزُ ليلًا. والطارقُ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ هُوَ القادمُ إِلَى أهلِه ليلًا، أو الوافدُ ليلًا، وعلى هَذَا فالطارقُ هُوَ النجمُ.

وقولُه تعالى: ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ أي يَثْقُبُ ظلامَ اللَّيْلِ بضيائِه؛ ولهذا لو خَرَجْتَ إِلَى محلٍّ لَيْسَ فيه كهرباء لوجدتَ أنوارَ النجومِ ظاهرةً بيِّنةً، فهو يثقُبُ الظلامَ بضيائِه، ويَثْقُبُ الشيطانَ بِشِهابِه، فالشياطينُ تتراكَبُ حتَّى تَصِلَ إِلَى السَّماءِ لِتَسْتَرِقَ السمعَ،

ولهذه الشياطين كُهَّانٌ فِي الأرضِ يَتَلَقَّوْنَهم، فيأتيه الشيطانُ بخبرِ السَّماءِ، ثمَّ يُشِيعها الكاهنُ بين النَّاسِ، ويكونُ -أعني الكاهنَ- حَكَمًا بين النَّاسِ يحكمُ بينهم؛ ولهذا كانوا فِي الجاهليةِ يأتون إِلَى الكهانِ يتحاكمون إليهم، لكنَّ الإسلامَ أَبْطَلَ ذلك وقال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»[1].

إذن، النجمُ الثاقبُ يَثْقُبُ الظلامَ بضيائِه، هَذَا واحدٌ، ويثقُبُ الشياطينَ بِشِهابِه، وتفسيرُ الطارقِ بالنجمِ الثاقبِ تفسيرٌ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا أحدَ يفسِّرُ القُرْآنَ بمثلِ ما يفسِّرُه مَنْ تكلَّم بالقُرْآنِ، وهو اللهُ.

ولهذا يقولُ العُلَماءُ: يُرجَعُ فِي تفسيرِ القُرْآنِ:

أولًا: إِلَى تفسيرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثانيًا: إِلَى تفسيرِ النَّبيِّ ﷺ. ولا تفسيرَ يُعارِضُ ذلك أَبدًا.

ثالثًا: إِلَى تفسيرِ الصَّحابَةِ، ولا سِيَّما الفُقهاءُ منهم المُعتنونَ بالتفسيرِ؛ كعبدِ اللهِ ابنِ عبَّاسٍ.

رابعًا: إِلَى أكابرِ علماءِ التابعينَ الَّذِينَ تَلَقَّوْا تفسيرَ القُرْآنِ عن الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ مثلُ مُجاهِدِ بنِ جَبْرٍ.

فهذه أربعُ مراتبَ.

وتفسيرُ اللهِ له أمثلةٌ كثيرةٌ فِي القُرْآنِ، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧-١٨] قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطب، باب في الكاهن، رقم (٣٩٠٤)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب النهي عن إتيان الحائض، رقم (٦٣٩).

لِنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩].

ونحوُ قولِه تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٣] قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة:٤].

والأمثلةُ كثيرةٌ في هذا.

وتفسيرُ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أيضًا له أمثلةٌ؛ منها قولُ اللهِ تَعالَى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] الحُسنَى مبتدأٌ مؤخَّرٌ، و(للذين) خبرٌ مُقدَّمٌ. فما الحسنى وما الزيادة؟

فَسَّرَها النَّبيُّ ﷺ بأنَّ الحسنى هِيَ الجنَّةُ، وأنَّ الزيادةَ هِيَ النظرُ إِلَى وجهِ اللهِ الكريمِ[1].

أسألُ اللهَ تَعالَى أن يُوَفِّقَنِي وإياكم لذلك، وأن يجعلَنا ممَّن يراه ربُّه وهو راضٍ عنه، ويَرَى رَبَّه وهو راضٍ عنه.

إذن، فقد فَسَّرَها النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأنها النظرُ إِلَى وجهِ اللهِ، فلو أنَّ أحدًا قالَ فِي الزيادةِ بغيرِ ما قالَ الرَّسُول ﷺ فلا نَقبَلُه أبدًا مهما كان.

وعلى هَذَا فيُستفادُ من هَذِهِ الآياتِ الكريمةِ ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أن أهل الجنَّةِ يَرَوْنَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ رُؤيةً عينيَّةً، وليسَ رؤيةً قلبيَّةً، فيَرونه بأبصارِهم كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، رقم (١٨١).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٣).

وأخبر فِي الحديثِ الآخرِ أن المؤمنينَ يرونَ ربَّهم عِيانًا بأبصارِهم كما يرونَ الشمسَ صحوًا ليس دونها سَحابٌ(١).

وفي الحَدِيثِ: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»(٢)، ولا ألذَّ ولا أنعمَ ولا أطيبَ من رؤيةِ المُؤْمِنِينَ للهِ عَزَّوَجَلَّ فِي الجنَّةِ.

أسألُ اللهَ أن يُوَفِّقَني وإياكم لذلكَ.

وحينئذٍ نؤمنُ إيمانًا عَقَدِيًّا جازمًا بأن المُؤْمِنِينَ يرون اللهَ عَزَّوَجَلَّ يومَ القيامةِ فِي الجنَّةِ بأبصارِهم؛ كما يرون القمرَ ليلةَ البدرِ لا يُضامُّون فِي رؤيتِه.

فإنْ قالَ قائلٌ: أليس اللهُ تَعَالَى قالَ لمُوسَى حين ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [الأعراف:١٤٣]؟

فالجوابُ: بلى قالَ ذلك، لكن مُوسَى سأل اللهَ الرؤيةَ فِي الدُّنيا، ولا يمكِنُ لأحدٍ أن يرى اللهَ عَزَّوَجَلَّ أبدًا في الدنيا؛ لأنَّ الأبصارَ لا تتحمَّلُ ذلك؛ ولهذا ضَرَبَ اللهُ له مثلًا فقال: ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ والجبلُ كما نعلمُ جميعًا أصمُّ، فهو أحجارٌ غليظةٌ مَتِينةٌ ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ وبقِيَ عَلَى حالِه ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ ماذا كان الجبلُ؟ ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ انهدَّ، وحينئذٍ ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أُغمي عليه؛ لأنَّه رأى أمرًا هائلًا لم تَتَحمَّلْه نفسُه، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، رقم (٧٤٣٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب الصلاة، باب نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٥).

أي: تنزيهًا أن يحيطَ بك أحدٌ وأنت أعظمُ من كلِّ شيءٍ ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣] تبتُ إليك من أيِّ شيءٍ؟ وهل أذنبَ مُوسَى حتَّى يقولَ: تُبْتُ إليك؟

نقولُ: هُوَ سأل ما لَيْسَ له به علمٌ، ولهذا لما قالَ نوحٌ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود:٤٥] قالَ اللهُ له: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦]. ولهذا تاب مُوسَى من هَذَا السُّؤالِ.

ومنَّا الآنَ طُلَّابُ علمٍ إذا مروا بصفةٍ من صفاتِ اللهِ جعلوا يُمَزِّقونها لَيْسَ يُنكِرونها، لكن يَتَنَطَّعون ويَتَعَمَّقُونَ فيها حتَّى أصبحوا مُمَثِّلِينَ للربِّ عَزَّوَجَلَّ بالخلقِ، فيبحثُ معك فيقول: إن للهِ أصابعَ؟ نقول: حقٌّ للهِ أصابعُ، فيقول: ما كيفية الأصابع؟ كم الأصابع؟ له أظفارٌ؟ له فواصل؟ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وهَذَا حرام، فمسائل الصِّفَات آمِنْ بها عَلَى ما جاءتْ ولا تسأَلْ، فإنْ سألتَ هلكتَ.

وانظروا إِلَى الأئمَّة رَحِمَهُمُ اللَّهُ، قالَ رجل للإمامِ مالكٍ: يا أبا عبدِ اللهِ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟

فهُوَ ما سأل عن المعنى، فلو قالَ: ما معنى استوى فإنه سوف يُجيبُ، لكن قالَ: كيف استوى؟ وهل أنت مُطالَبٌ بأن تسأَلَ عن الكيفيَّةِ؟! أبدًا.

فأطرقَ مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو فِي مَسْجِدِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أطرقَ برأسه حتَّى أَصْبَحَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا؛ من ثِقَلِ السُّؤالِ عَلَى نفسِه، ثمَّ رَفَعَ رأسَه وقال: «الِاسْتِوَاءُ

غَيْرُ مجْهُولٍ، وَالكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»(١).

كلماتٌ من نورٍ، ما شاء الله! يُوَفِّق اللهُ مَن يشاءُ ويَتَفَضَّلُ عليه بالكلماتِ الَّتِي تكونُ نِبراسًا عَلَى المُسْلِمِينَ، ويَروي بعض العُلَماء هَذَا الكلامَ فيقولُ: «الاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ».

وقوله: «الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مجْهُولٍ» يعني معلومًا، «وَالكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ» يعني أننا لا نُدرِكه بِعُقُولِنا، وكيف نُدرِكُ كيفيةَ صفةٍ من صفاتِ اللهِ بالعقلِ واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ فِي الحِسِّ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]؟! والإدراك بالحسِّ سهلٌ، فكلٌّ يُدركُ بالحسِّ، حتَّى أبلدُ من في العالمِ يُدْركُ بالحسِّ، فالذي لا يُدرَكُ بالحِسِّ -بمعنى لا تدركُه الأبصارُ ولا تُحيطُ به- لا يُدرَكُ بالعقلِ. بمعنى أننا لا نعلمُ كيفياتِ صفاتِه أبدًا.

«وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ» أي: الإيمانُ بالاستواءِ واجبٌ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى أثبته لِنَفْسِهِ، وما أثبتَه لِنَفسِهِ وجبَ علينا أن نُسَلِّمَ به، وأن نُثبِتَه.

«وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ» أي: السُّؤالُ عن الكيفيَّةِ، وليس المعنى؛ لأنَّ المعنى يقولُ: «غَيْرُ مجْهُولٍ»، فهو معروفٌ، لكن أن تسألَ عن الكيفيةِ فهَذَا بِدْعَةٌ.

ولماذا كان بِدْعَةً؟

نقولُ: كان بِدْعَةً لوجهينِ:

الوجه الأوَّل: أن الصَّحَابَة لم يَسْأَلُوا عنه الرَّسُولَ ﷺ، ونحن نعلم أن الصَّحَابَةَ أحرصُ منَّا عَلَى معرفة اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويجيبهم الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّذِي

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٥، رقم ٨٦٧).

هُوَ أعلمُ الخلقِ باللهِ، فالسببُ المقتضِي موجودٌ، وانتفاءُ المانعِ موجودٌ، ومع ذلك ما سألوا الرَّسُولَ؛ لأنَّهم يعلمون أن عُقُولَنا أقصرُ وأحقرُ من أن تُدرِكَ كيفيَّةَ صفةِ اللهِ، فآمَنُوا بالاستواءِ ولم يَسْأَلُوا عنه.

وسُبْحَانَ اللهِ! الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يسألون عنه وأنت تأتي فِي آخِرِ الزمانِ تسأَلُ عنه، أأنت أعلمُ باللهِ منهم؟! أأنت أشدُّ تعظيمًا للهِ منهم؟! أأنت أشدُّ حبًّا للهِ منهم؟! كلَّا، فهو بِدْعَةٌ.

الوجه الثَّاني: أن السُّؤالَ عن كيفيةِ صفاتِ اللهِ من سماتِ أهلِ البِدعِ، ومعنى سِماتِهم: علاماتُهم، فأهلُ البدعِ هم الَّذِينَ يسألون عن الكيفيَّاتِ لِيُحْرِجوا المُثْبِتينَ.

تعرفون أنه فِي الصدرِ الأولِ من هَذِهِ الأُمَّةِ -ولا زال- كان الخلافُ فِي صفاتِ اللهِ، فانقسمَ النَّاسُ فيها إِلَى ستةِ أقسامٍ ذَكَرَها شيخُ الإسلامِ ابن تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي آخِرِ (الفتوَى الحَمَوِيَّةِ)، فمن شاء أن يَرجِعَ إليها فليرجعْ[1].

لكنَّ أهلَ البِدع يقولون لأهلِ الإثباتِ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] كيف اليدان؟ كيف البسط؟ فيتوقف الإِنْسَان لأَنَّه ما يعرف هَذَا، قالَ: إذن ما عندك علمٌ، ولست كُفئًا بأن تُسأَل عن صفاتِ اللهِ، وهذا إحراج، ولكن ذكرَ بعضُ أهلِ السُّنَّةِ كلامًا جيدًا مُفحِمًا، قالَ: إذا قالَ لك الجَهْمِيُّ: كيف استوى؟ فقل له: إن اللهَ أَخْبَرَنا أَنَّه استوى، ولم يُخْبِرْنا كيف استوى[2].

---

(١) الفتوى الحموية (ص:٥٤١).

(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٣٠٥).

سُبْحَانَ اللهِ! كلامٌ منضبطٌ واضحٌ؛ أخبرنا أنَّه استوى ولم يُخْبِرْنا كيف استوى، وأخبرنا أن له يدينِ ولم يخبرْنا كيف اليدانِ، وأخبرنا أنَّه خَلَقَ آدمَ بيديْه كما قالَ اللهُ تَعَالَى لإبليسَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] ولكن لو جاء إِنْسَانٌ يسأَلُ: كيف خَلَقَ بيديه؟ فيجبُ علينا أن نقولَ: الخلقُ معلومٌ، نعم إن اللهَ أخبرنا أنَّه خَلَقَه بيدِه، ولم يُخْبِرْنا كيف خَلَقَه، ولا كيف يدُه.

وهذه أمور غيبيَّةٌ يجبُ علينا أن نَقتصِرَ فيها عَلَى ما جاء به النصُّ؛ ولهذا أَسْلَمُ طريقةٍ فيما يَتَعَلَّقُ بأسماءِ اللهِ وصفاتِه هِيَ طريقةُ السلفِ الصَّالِحِ، الَّذِينَ هم أهلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، أما طريقةُ غيرِهم من الطرقِ فإنَّها كلَّها فاسدةٌ؛ لَما يَلزَمُ فيها من اللوازمِ الباطلةِ، ولو لم يكنْ فيها إِلَّا مخالفةُ ظاهرِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ ومخالفةُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لكفَى؛ فإنَّ الصَّحَابَةَ مُجْمِعُون عَلَى إثباتِ النصوصِ كما هي.

فإذا قالَ قائلٌ: ما دليلك عَلَى أَنَّهم مُجمِعون عَلَى أن النصوصَ كما هِيَ؟

قلنا: لأنَّ القُرْآنَ نَزَلَ بلغةِ العربِ، وأعربُ العربِ الصَّحَابَةُ، فنزل القُرْآنُ بلغتِهم، ولم يأتِ حرفٌ واحدٌ منهم يفسِّرُ القُرْآنَ بخلافِ ظاهرِه فيما يَتعلَّقُ بصفاتِ اللهِ.

إذن، فهم مُجمِعون عليها، ولا يُحتاجُ أن نقولَ: هاتِ النقلَ.

إذن، نقول: إن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا فسَّر القُرْآنَ بشيءٍ أخذنا به، وإذا فسَّره الرَّسُولُ بشيءٍ أخذنا به، وإذا فسَّره علماءُ الصَّحَابَةِ بشيءٍ أخذنا به، وإذا فسَّره أئمَّةُ التابعينَ الَّذِينَ تَلَقَّوْا علمَ التفسيرِ عن الصَّحَابَةِ أخذنا به، وما عدا ذلك فليس بحُجَّةٍ.

قولُه: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] (إن) بمعنى (ما)، و(لما) بمعنى (إِلَّا)، فيكونُ تقديرُ الآيةِ: ما كلُّ نفسٍ إِلَّا عليها حافظٌ؛ لأنَّ (إن) إذا جاءتْ بعدها (إِلَّا) فهي للنفيِ؛ كقولِه تَعَالَى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١١٠]، وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم:٥٨]، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ من الآياتِ الكثيرةِ.

يعني: ما كلُّ نفسٍ إِلَّا عليها حافِظٌ يحفظُها ويحفظُ عنها؛ أما يحفظُها فدليلُه قولُه تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١] هَذِهِ من القُرْآنِ، ومن السنَّةِ أن مَن قَرَأَ آيةَ الكرسيِّ فِي ليلةٍ لم يَزَلْ عليه منَ اللهِ حافِظ، ولم يَقْرَبْهُ الشيطانُ حتَّى يُصبِحَ[1]، فهَذَا حِفظُ النفسِ لحظِّ النفسِ.

وحفظُ النفسِ للمحاسبةِ يعني أن اللهَ جَعَلَ عَلَى كلِّ نفسٍ واحدًا مِنَ الملائكةِ يَحفظون أعمالَه؛ كما قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار:٩-١٠]، هَؤُلاءِ الحافظون غيرُ قولِه تَعَالَى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١] فكلُّ إِنْسَانٍ عليه حافظٌ يحفظُه من أمرِ اللهِ ويحفظُ عليه أعمالَه، ويكونُ الحسابُ عليها يومَ القيامةِ، ولهذا سَمَّاهُ اللهُ يومَ الحسابِ.

فهذا الَّذِي يُكتَبُ عَلَى الإِنْسَانِ يحاسبُ عليه يومَ القيامةِ، وكيف يحاسبُ؟

قالَ الله تَعَالَى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣] مفتوحًا ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤] قالَ بعضُ السلفِ: «يَا ابْنَ آدَمَ، أَنْصَفَكَ مَنْ خَلَقَكَ، جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا، فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، رقم (٢٣١١).
(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك (١/ ٥٤٥، رقم ١٥٦٣).

إي واللهِ هَذَا الإنصافُ، يعني ليس هناك مَن يدَّعي عليك يقولُ: هات البينةَ وإلا قولُك مردودٌ، فهَذَا كتابٌ موجودٌ اقْرَأْهُ وكَفَى بنفسِك اليومَ عليك حسيبًا.

وما الَّذِي يكتبُ فِي هذا؟

استمع إِلَى قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ واحدٌ عَلَى اليمين وواحدٌ عَلَى الشمالِ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٨] (رقيبٌ) يعني: مُراقِبٌ، (عتيدٌ) يعني: حاضِرٌ لا يَغيبُ، وكلمةُ (قَوْلٍ) يقولُ العُلَماءُ: إنها نصٌّ فِي العمومِ؛ لأنَّ النكرةَ فِي سِياقِ النفيِ للعمومِ، لكن قد يَقترِنُ بها ما يَجعلُها نصًّا فِي العمومِ لا تحتملُ شيئًا آخرَ، وهو (مِن)، و(من) حرفُ جَرٍّ زائدٌ، وإذا دَخَلَ حرفُ الجرِّ الزائدُ عَلَى كلمةٍ كان مؤكِّدًا لمدلولِ السياقِ.

إذن ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ نقول: (من) حرفُ جرٍّ زائدٌ إعرابًا وليس زائدًا معنًى؛ لأنَّ معناه توكيدُ النفيِ.

قال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أيُّ قولٍ؟

الجوابُ: كلُّ الأقوالِ، ما دَامَ قلنا: (قَوْلٍ) بالنفيِ المؤكَّدِ بـ(مِن) فمعناه كلُّ القولِ؛ من خيرٍ أو شرٍّ أو لغوٍ؛ لأنَّ كلامَ الإِنْسَانِ ثلاثةُ أقسامٍ: خيرٌ وشرٌّ ولغوٌ، ومن القسمِ الأولِ: «**مَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[1].

إذن، لا يقولُ اللغوَ، ولا يقولُ الشرَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان، رقم (٤٧).

واستمعْ إِلَى أوصافِ عبادِ الرَّحْمنِ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢] سالمينَ منه بعيدينَ عنه.

وما أكثرَ اللغوَ فِي كلامِنا، بل ما أكثرَ الزُّورَ، والزورُ هنا لَيْسَ شهادةَ الزورِ، بل كلُّ قولٍ محرَّمٍ فهو زورٌ، فما أكثرَه!

وقد قيلَ للإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ وهو مريضٌ، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَئِنُّ من المرضِ: إن طاوسًا -وهو من التابعينَ- يكرهُ الأنينَ في المرضِ. فأمسكَ عن الأنينِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فتَصَبَّرَ وتحمَّلَ المرضَ ولا يَئِنُّ؛ خوفًا من أن يُكتَبَ عليه[1].

إذن ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: ما كلُّ نفسٍ ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

قولُه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق:٥] اللام لامُ الأمرِ، ولهذا سُكِّنت بعد الفاءِ، ولامُ الأمرِ تُسكَّنُ بعدَ الفاءِ وبعدَ الواوِ وبعدَ (ثمَّ)؛ قالَ الله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ وبعدها: ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩]، ولهذا يخطئُ بعضُ القرَّاءِ فيقولُ: «هَذَا بلاغ للنَّاسِ ولْينذروا به» وهَذَا خطأٌ ولحنٌ يُحِيلُ المعنى، وأكثرُ النَّاسِ ما يُحِسُّ بهذا الشَّيْءِ، فقراءةُ البعضِ: «هَذَا بَلَاغٌ للنَّاسِ ولْينذَروا بِهِ» خطأٌ؛ لأنك إذا سكَّنْتَها بعدَ الواوِ صارتْ لامَ أمرٍ، فيختلفُ المعنى. ولهذا الصوابُ أنْ يَقولَ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ [إبراهيم:٥٢] تَكْسِرُهَا.

وبعدها: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [إبراهيم:٥٢] إذا قرأَ الإِنْسَانُ: (ولْيعملوا) بسكونِ اللامِ فهو خطأٌ يُحِيلُ المعنى؛ لأَنَّه يجعلُ اللامَ لامَ أمرٍ، وهي لامُ تعليلٍ.

---

(١) ذكره أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٢/ ١١٩).

وكذلك بعدها ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ [إبراهيم:٥٢]؛ لأنك لو سكَّنتها اختلف المعنى.

فالقاعدةُ: لامُ التعليلِ مكسورةٌ دائمًا، ولامُ الأمرِ مكسورةٌ إلَّا إذا دخلَ عليها واوُ العطفِ أو فاءُ العطفِ أو (ثُمَّ). وذكَرْنا الأمثلةَ.

إذن، قولُه: ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ هَذِهِ لامُ الأمرِ، وليستْ لامَ التعليلِ، والدَّلِيلُ أنها سُكِّنَتْ بعد الفاءِ، وهذا دليلٌ لفظيٌّ، والدَّلِيلُ المعنويُّ أن اللهَ أَمَرَنا أن يَنْظُرَ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِق.

قولُه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٦-٧] ماءُ الرجلِ يخرجُ من بينِ الصُّلبِ والترائبِ، والترائبُ: الصَّدْرُ، والصُّلْبُ: الظَّهْرُ، خُلِقَ مِنْ هَذَا الماءِ المَهينِ، وأصلُه الأولُ خُلِقَ من تُرابٍ، من حَمَإٍ مَسنونٍ، فهَذَا أصلُ الإِنْسَانِ، وما تولَّد منه من ماءٍ دافقٍ يخرجُ من بينِ الصُّلبِ والترائبِ.

قولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق:٨] إن اللهَ عَزَّوَجَلَّ، الضميرُ في (إنه) يعودُ عَلَى اللهِ، وإن لم يتقدَّمْ ما يعودُ إليه الضميرُ، لكنَّ السياقَ يَدُلُّ عليه. ﴿رَجْعِهِۦ﴾ أي: الإِنْسَان، ﴿لَقَادِرٌ﴾ يومَ القيامةِ؛ كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩].

ففي قولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ استدلَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالأشدِّ عَلَى الأسهلِ، فالابتداءُ أشدُّ من الإعادةِ، والإعادةُ أهونُ.

والدَّليلُ عَلَى أن الإعادةَ أهونُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ﴾ أي: إعادتُـه ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]. وهـذا واضحٌ أنَّ الإعادةَ أهونُ من الابتداءِ.

يقولُ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ فالذي خَلَقَه من ماءٍ دافقٍ قادرٌ عَلَى أن يَرْجِعَه يومَ القيامةِ ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٩]، وانتبهْ يا أخي لهذه الجملةِ، نسألُ اللهَ أن يُقَوِّينا وإياكم عَلَى إخلاصِها: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ يومَ القيامةِ تُختَبَرُ السرائرُ، وليس الظواهرُ، والسرائرُ: القلبُ؛ كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩-١٠]، فيومَ القيامةِ ما يُحاسَبُ الإِنْسَانُ عَلَى أعمالِه الظاهرةِ، وإلا لَنَجَحَ المنافقون؛ لأنَّ المنافقينَ يأتون بالأعمالِ الصَّالحةِ ظاهرُها الصحَّةُ، لكن عَلَى قلوبٍ خَرِبَةٍ، فإذا كان يوم القيامة خانَتْهم قُلوبُهم، فتُبلى السرائرُ، فلا يوجدُ عندَ أحدٍ مَنجاة إِلَّا مَن كانتْ سريرتُه طيبةً. نسألُ اللهَ أن يطيِّبَ سَريرَتَنا.

إذن ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ تُختبَرُ، والحسابُ فِي الدُّنيا عَلَى الظواهرِ، وفي الآخرةِ عَلَى السرائرِ.

وانظرْ إِلَى المنافقين فِي عهدِ الرَّسُولِ ﷺ يُعلنون الإسلامَ، ويأتون إِلَى الصَّلاةِ، ويتصدقون، ويقولون للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: نَشهَدُ إنَّك لَرسولُ اللهِ. ويذكرون اللهَ لكنْ قليلًا، ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء:١٤٢]، والرَّسُولُ يعلمُ بعضَهم ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [محمد:٣٠] حتى إنَّه أَسَرَّ إِلَى حُذَيْفَةَ بنِ اليَمانِ بأسماءِ رجالٍ عيَّنهم، ومع ذلك لم يَقْتُلْهم؛ لئلَّا يُقالَ: إن مُحَمَّدًا يقتُلُ أصحابَه[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦]، رقم (٤٩٠٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، رقم (٢٥٨٤)، أنه ﷺ أبى أن يقتل عبد الله ابن أُبَيٍّ المنافق وقال: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ».

فإذا قالَ قائلٌ: هَؤُلاءِ ليسوا أصحابًا له؛ لأنَّهم أعداءٌ له؛ كما قالَ تَعالَى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤]، إذن نقولُ: هم أصحابُه ظاهرًا، والحُكمُ فِي الدُّنيا عَلَى الظاهرِ، لكن فِي الآخرةِ عَلَى البواطنِ.

ولهذا أصلِحْ سَرِيرَتَك يا أخي، وانظرْ إِلَى قلبِك هل فيه إيمانٌ، وهل هُوَ متعلِّقٌ باللهِ، لا يرجو إِلَّا اللهَ، ولا يخافُ إِلَّا اللهَ، ولا يَستسلِمُ إِلَّا للهِ، فاحمَدِ اللهَ وازددْ من هَذَا خيرًا، ولو فيه بلاءٌ فاحذرْ.

وهناك قصةٌ لرجلٍ من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ فِي غزوةٍ، وكان هذا الرجلُ لا يترك للعدوِّ شاذَّةً ولا فاذَّةً، فهو شُجاعٌ، مِقدامٌ، مُصيبٌ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ».

فعَظُمَ ذلك عَلَى الصَّحابَةِ، كيف يكونُ هَذَا المجاهدُ البطلُ المغوارُ من أهلِ النَّارِ، فَقَالُوا: أَيُّنَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، إِنْ كَانَ هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: لَأَتَّبِعَنَّهُ، فَإِذَا أَسْرَعَ وَأَبْطَأَ كُنْتُ مَعَهُ، حَتَّى جُرِحَ، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَوَضَعَ نِصَابَ[1] سَيْفِهِ بِالأَرْضِ، وَذُبَابَهُ[2] بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَجَاءَ الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ». فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[3].

(١) نصاب السيف: مقبضه. اللسان (نصب).

(٢) ذبابه: طرفه. النهاية (ذبب).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد، رقم (٢٧٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، رقم (١١٢).

نعوذُ باللهِ من ذلك، اللَّهُمَّ أعِذْنَا من هَذَا، اللَّهُمَّ أَعِذْنَا من هَذَا، اللَّهُمَّ أَعِذْنَا من هذا.

إن الرجلَ ليعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ فيما يبدو للنَّاسِ وهو من أهلِ النَّارِ؛ لأنَّ قلبَه فيه سَرِيرةٌ خَبيثةٌ أودتْ إِلَى سُوءِ الخاتمةِ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

ولهذا أَحُثُّ نفسي وإياكم يا إخواني عَلَى إصلاحِ الباطنِ، وعَلَى تفقُّدِ القلبِ، فكلُّنا يتوضَّأُ ويطهِّرُ ظاهرَه، وكلُّنا يَغتسِلُ من الجنابةِ، ويطهِّرُ جسمَه كلَّه، لكنَّ القلبَ هل مِنَّا مَن يَغسِلُه كلَّ يومٍ؟ قلَّ مَن يَغسلُه.

وأجلُّ العباداتِ الصَّلاةُ، ولكنْ كثيرٌ من النَّاسِ لا يفعلُها إِلَّا عَلَى وجهِ العادةِ، فيصبحُ يتوضأُ ويذهبُ ليصليَ الفَجْرَ، لكن لا يُحِسُّ بأن هَذِهِ الصَّلاةَ دخلتْ قلبَه حتَّى كان فِي صلاتِه متصلًا بربِّه.

كانَ بعضُ السلَفِ -وهو عُرْوَةُ بن الزُّبَيْرِ- قد أُصِيبَ فِي أحدِ أعضائِه، فقيل له: إنه لا يمكنُ أن تنجوَ منه حتَّى نقطعَ رجلَك، وليس هناك بنج، فقال: دعوني أصلي، فلما شرَع فِي الصَّلاةِ قطعوا رجلَه؛ وذلك أنه إذا دَخَلَ فِي الصَّلاةِ اتَّصَلَ قلبُه باللهِ عَزَّوَجَلَّ، والاتصالُ باللهِ يُنسِي كلَّ شيءٍ(١).

وانظرْ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما نَهَى أصحابَه عن الوِصالِ -والوصالُ: أَلَّا يُفطِرَ الإِنْسَانُ بينَ اليومينِ، بل يواصلُ- قَالُوا: إنك تُواصِلُ؟ قال: «**إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**»(٢).

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ١٢٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الوصال، رقم (١٩٦٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، رقم (١١٠٥).

قالَ العُلَماءُ: معنى ذلك لانشغالِه بذِكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يهتمُّ بالطعامِ والشرابِ، وهذا حقٌّ. ولهذا يقولُ الشاعرُ فِي مَعْشُوقَتِه[١]:

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا عنِ الشَّرَابِ وتُلْهِيها عنِ الزَّادِ

إذا قامت تتحدَّث إِلَى عَشيقِها نَسِيت الأكلَ والشربَ وكلَّ شيءٍ، والمشتغِلُ قلبُه باللهِ عَزَّوَجَلَّ ينسَى.

ولكن أيها أكملُ حالًا: عُروةُ بنُ الزُّبير الَّذِي انشغلَ عن قطعِ عضوٍ من أعضائِه فِي صلاتِه، أو عمرُ بن الخطاب الَّذِي كان يجهِّزُ الجيشَ وهو يُصَلِّي[٢]؟

الجواب: لا شَكَّ عمرُ بنُ الخطابِ أكملُ حالًا؛ لأنَّه جمعَ بين عبادتينِ.

وها هُوَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولا شَكَّ أَنَّه أكملُ الخلقِ، كان إذا سمِع بُكاءَ الصبيِّ خَفَّفَ الصَّلاةَ[٣]، فكان عندَه وعيٌ، وعندَه عقلٌ، لكنْ بعضُ النَّاسِ لا يتحمَّلُ الجمعَ بين هَذَا وهذا فيعجِزُ.

ولهذا سُئِلَ بعضُ العُلَماءِ عن شخصٍ مات له ولدٌ، فجعل النَّاس يُعَزُّونه وهو يَضحَكُ ويَتبَسَّمُ راضيًا بقضاءِ اللهِ وقدَرِه، لكنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما مات ابنُه إبراهيمُ قال: «**إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[٤]. فهذا أكملُ من حالِ الرجلِ الَّذِي

---

(١) انظر زاد المعاد (٢/ ٣٣).

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا: كتاب الصلاة، باب يفكر الرجل الشيء في الصلاة. وابن أبي شيبة (٢/ ٤٢٤)، أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِنِّي لَأُجَهِّزُ جَيْشِي وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ».

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، رقم (٧٠٧).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون»، رقم (١٣٠٣)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، رقم (٢٣١٥).

عَجزَ أن يَتَحَمَّلَ الجمعَ بين الصبرِ والرضا بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه فجعل يتبسَّمُ.

قولُه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:١٠] وهو الإِنْسَانُ، فلَيْسَ له قوةٌ فِي نفسِه يُدافِعُ عن نفسِه ولا ناصرٌ يُدافعُ عنه، ولكن إذا كان مُؤمِنًا وجدَ النُّصرةَ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ متى؟ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥١-٥٢].

قولُه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق:١١-١٣] السَّماءُ هنا: ما علا، لا شَكَّ، فما هِيَ السَّماءُ المحفوظةُ؛ لأنَّ الرجعَ هُوَ المطرُ، والسحابُ هُوَ الَّذِي يأتي منه المطرُ.

قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ الصَّدْعُ: التشقُّقُ، إذا نَزَلَ المطرُ عَلَى الأرضِ نبتَ الحبُّ فِي جوفِ الأرضِ، ثمَّ يَنتفِخُ، وحينئذٍ تَتَصَدَّعُ الأرضُ، فأَقْسَمَ اللهُ تَعَالَى بالمطرِ الَّذِي به حياةُ الأرضِ، وبالأرضِ الَّتِي قَبِلت هَذَا المطرَ وأنبتتْ عَلَى ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القُرْآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾؛ لأنَّ بالمطرِ حياةُ الأرضِ، وبالقُرْآنِ حياةُ القلوبِ؛ كما قالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [يس:٦٩-٧٠].

فالقرانُ تَحْيَا به القلوبُ، وهو قولٌ فصلٌ، يَعنِي يفصلُ بين الأمورِ، ويفصلُ بين الإيمانِ والكُفرِ، وبين الشِّركِ والتَّوْحِيدِ، وبين الاتِّباعِ والابتداعِ، وبين المؤمنِ والكافرِ، وبين الحقِّ والباطلِ، بل يفصلُ بين أعداءِ اللهِ وأولياءِ اللهِ، وانظرِ الفصلَ العظيمَ الَّذِي حصلَ به عزُّ الإسلامِ فِي أولِ هَذِهِ الأُمَّةِ.

قولُه: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [الطارق:١٤] بل هُوَ جدٌّ، وأجدُّ الجدِّ.

قولُه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥] أي: الكفَّارُ، ولا سيَّما كفَّارُ قُرَيْشٍ الَّذِين بُعث فيهم الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٦] يكيدون جميعًا وأكيدُ أنا وَحْدِي كَيْدًا، وجمعُهم لن يَهزِمَ ربَّ العِزَّةِ والجلالِ، عَلَى أنَّه واحدٌ وهم جمعٌ.

وقولُه: ﴿كَيْدًا﴾ فِي الموضعين للتعظيمِ، يعني يكيدون كيدًا عظيمًا، وأكيدُ كيدًا أعظمَ؛ كما قالَ تعَالَى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:٥٠].

فأعظمُ كيدٍ كاده المشركون للرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما في القُرْآنِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال:٣٠] ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ يعني بالحبسِ، ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ واضح، ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكَّةَ، فقالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾. فخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ من بينهم ولم يفعلوا شيئًا؛ لأنَّ اللهَ تعَالَى خيرُ الماكرينَ، فانظرِ الحيلةَ العظيمةَ.

يقولون: إن كبارَ قُرَيْشٍ اجتمعوا فِي دارِ الندوةِ فقال بعضُهم لبعضٍ: إن هذا الرجلَ قد كان مِنْ أمرِه ما قد رَأَيْتُمْ. فذَكَرُوا آراء من جملتِها هَذَا الرأيُ العظيمُ؛ الاتفاقُ عَلَى القتلِ، قَالُوا: يجتمعُ شبابٌ أقوياءُ من قبائلَ متفرِّقةٍ، ويُعطَى كلُّ واحدٍ منهم سَيفًا بتَّارًا، ويضربون مُحَمَّدًا ﷺ ضَربةَ رجلٍ واحدٍ، حتَّى يَقضُوا عليه، وحينئذٍ يَضيعُ دمُه فِي القبائلِ، فلا تستطيعُ بنو هاشمٍ أن تأخذَ بالثأرِ من جميعِ القبائلِ، وحينئذٍ يرضون بالدِّيَةِ، ولكن هذا لم يحدثْ[1].

(١) انظر سيرة ابن هشام (٣/ ٧).

قولُه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق:١٧] مهِّلْ يعني: انتظِرْ بهم. وأمهِلْهم، ﴿رُوَيْدًۢا﴾ أي: زمنًا قليلًا حتَّى يُؤخَذوا، والحمدُ للهِ ما صار إِلَّا مدَّةٌ وَجيزةٌ بعد أن خَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ من مَكَّةَ خائفًا عَلَى نفسِهِ، فبعدَ ثماني سنواتٍ رَجَعَ إِليها منصورًا مُظفَّرًا حُكْمُ قُرَيْشٍ بيدِه.

ذكر المؤرِّخون أنَّ النَّبيَّ ﷺ لما دَخَلَ مَكَّةَ قال: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ»(١). فهو الآن يُؤَمِّنُهُمْ وكانوا بالأولِ يُخِيفُونَه، والآن هُوَ الَّذِي يُخيفهم.

ثمَّ لَمَّا انتهى الأمرُ وقام عَلَى بابِ الكعبةِ وقُرَيْشٌ تحته ينتظرون ماذا يفعلُ؛ لأنَّه فاتحٌ، ففعل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِعلَ الحليمِ الرَّحِيمِ، قالَ لهم: فقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟» قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، قَالَ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»(٢).

وقال: «فإِنِي أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾»(٣). فهذا حِلمٌ مَعَ القُدرةِ.

فانظرْ إِلَى كيدِ هَؤُلاءِ وإلى كيدِ الربِّ عَزَّوَجَلَّ أيُّهما أعظمُ؟ إن كيدَ اللهِ -يا إخواني- أعظمُ.

ولهذا يُقالُ: هل الكيدُ صفةُ مدحٍ أو صفةُ ذمٍّ؟

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الخراج والإمارة، باب ما جاء في خبر مكة، رقم (٣٠٢٢).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢).
(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠/ ١٥٤، رقم ١١٢٣٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١١٨، رقم: ١٨٠٥٤)

يقال: فيه تفصيلٌ، فإذا كان فِي مقابلةِ كيدِ العدوِّ فهو صفةُ مدحٍ، وإذا كان ابتداءً فهو صفةُ ذمٍّ، وكذلك المكرُ والاستهزاءُ والسخريةُ كلها عَلَى هَذَا البابِ، فإنْ كانت فِي محلِّها فهي صفةُ مدحٍ؛ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة:٧٩].

وقال: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة:١٤-١٥].

وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦].

وقال: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ [النمل:٥٠].

وقال: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣] وهَلُمَّ جرًّا.

وهَذِهِ السُّورةُ كما اتَّضحَ سُورَةٌ عظيمةٌ، وإني أحثُّ الشبابَ خاصَّةً وغيرَهم أيضًا عَلَى فهمِ كتابِ اللهِ، لا عَلَى أن يقرؤوه تعبُّدًا بتلاوتِه فقطْ، إن اللهَ يقولُ فِي كتابِه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، فلا بُدَّ من التدبُّرِ، والتدبُّرُ هُوَ تفهُّم المعنى، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ يتَّعظوا به.

ولهذا كان الَّذِينَ يَقرؤون القُرْآنَ من الصَّحابَةِ لا يَتجاوزونَ عشرَ آياتٍ من كتابِ اللهِ حتَّى يَتعَلَّموها وما فيها من العلمِ والعملِ(١)، لكننا مَعَ الأسفِ الآن تأتي إِلَى فصلٍ كاملٍ فِي الجامعةِ تقولُ: فسِّر لي هَذِهِ الآيَةَ، فلا تكادُ ترى واحدًا منهم يفسِّرها، وهذا نقصٌ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٠، رقم ٢٣٥٢٩).

فإذا كنا نحرِصُ عَلَى شرحِ الأحاديثِ الواردةِ عنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فلماذا لا نحرِصُ عَلَى تفسيرِ كلامِ اللهِ؟! فهَذَا أَولى وأعظمُ، والإِنْسَانُ -سُبْحَانَ اللهِ! اسألْ مُجَرِّبًا- كلَّما تأمَّلَ كتابَ اللهِ اتَّضَحَ له من المعاني ما لم يكنْ يَعرِفُها من قبلُ ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣]، وجرِّبْ تجدْ.

وفي القُرْآنِ حَلُّ كلِّ شيءٍ يُشكِلُ عليك، والدَّليل ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، لكن أحيانًا يكون بيان القُرْآنِ بالأصالةِ، وأحيانًا يكون بيانُ القُرْآنِ بالإحالةِ عَلَى السنَّةِ، فأحيانًا يكونُ الأمرُ واضحًا فِي القُرْآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة:٦]، فهَذَا واضحٌ لا يحتاجُ إلى تفسيرٍ، لكن تأتي: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] والزيادة هَذِهِ ما نعرفُ معناها حتَّى فسرها النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(١).

لكن ما من إِنْسَانٍ يتدبَّرُ القُرْآنَ إِلَّا وَجدَ فيه من العلومِ العظيمةِ ما لا يجدُها فِي غيرِه، فإنْ جئتَ فِي النحوِ وجدتَ شواهدَ، وإنْ جئتَ فِي البلاغةِ وجدتَ شواهدَ، وإن جئتَ فِي البيانِ وجدتَ شواهدَ، وإن جئتَ فِي العقائدِ وجدتَ شواهدَ، وفِي الفقهِ وجدتَ شواهدَ، وفِي كلِّ شيءٍ.

قَالُوا: إن بعض عُلماء المُسْلِمِينَ اجتمع فِي مَطعمٍ من مطاعمِ أُورُبَّا ومعه نصرانيٌّ فِي نفسِ المطعمِ، لكن ليسوا عَلَى مائدةٍ واحدةٍ فيما يَظهَرُ، فجاء النصرانيُّ متحديًا قال: إن كتابكم نزلَ تِبيانًا لكلِّ شيءٍ، فكيف صُنعت هَذِهِ السَّلَطَةُ، وكيف

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨١).

صُنع هَذَا الخبزُ، وكيف صُنع هَذَا اللحمُ.. وهَذَا ليس همّه إِلَّا بطنُه، وكأنه يريدُ من القُرْآنِ أن يكونَ كتابَ مطبخٍ.

وكان الرجلُ العالمُ ذكيًّا، قد أعطاه اللهُ تَعَالَى ذكاءً، قالَ العالمُ: يا صاحبَ المطعمِ، تَعَالَ، كيف صنعتَ هذا؟ قالَ: فعلتُ كذا وكذا وكذا، وذَكَرَ الوصفةَ تمامًا. قال: هكذا جاء فِي القُرْآنِ، فتعجَّب النصرانيُّ وتساءل: كيف جاء فِي القُرْآنِ، هاتِ من أولِ الفَاتِحَةِ إِلَى آخِرِ النَّاسِ ما نجدُ هذا، فقال: موجودٌ فِي القُرْآن؛ إن اللهَ تَعَالَى قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

فهَذِهِ الآيةُ وإن لم تكنْ فِي هَذِهِ المسألةِ بخصوصِها لكن فيها إشارةٌ إِلَى أن كلَّ شيءٍ لا تَعلَمُه اسألْ عنه أهلَ العلمِ به، فلو سُئلتُ مثلًا عن إعرابِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] أقولُ: موجودٌ فِي القُرْآنِ بناءً عَلَى ذلك.

أقولُ: إنني أحثُّ نفسي وإياكم عَلَى تدبُّرِ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وتفهُّمِ معناه؛ ففيه الخيرُ كلُّ الخيرِ، وسعادةُ الدُّنيا والآخِرةِ، وعلومٌ متنوِّعةٌ، وهدايةٌ؛ كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه:١٢٣-١٢٥]. وليس يعترضُ عَلَى اللهِ، ولكن يقولُ: ما السببُ؟ قال: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٦].

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



سورة الأعلى

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

البَسملَةُ يُؤتى بِها فِي أوَّلِ كلِّ سُورةٍ، مِن أوَّلِ سُورةِ الفاتحةِ إِلَى سُورةِ النَّاسِ، إلَّا فِي سُورةِ بَراءَة، فإِنَّه لَيس فِيها بَسملةٌ؛ لأنَّها لَم تَنزلْ لِلفصلِ بَيْنها وبَيْنَ الأنفالِ؛ وَلِهَذَا أُشكلتْ عَلى الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم فَجَعلوا بَيْنهما فَاصلًا دُونَ أَنْ يَضَعوا البَسملةَ، وهَذا يَدلُّ عَلى شدَّة تَحرِّي الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

والبسمَلةُ يؤُتى بِها فِي كلِّ سُورةٍ، ولكنَّها لَيست مِنَ السُّورةِ الَّتي تَلِيها، فَهي لَيْست مِنَ الفَاتحةِ، ولَا مِنَ البقرةِ، ولَا منْ آلِ عِمْرَانَ، ولَا مِن سُورةِ النَّاسِ، ولَا منَ السُّورِ الَّتي بَيْنَ ذَلك، بَل هِي آيةٌ مُستقلَّةٌ، هذَا هُوَ القولُ الرَّاجحُ(١).

وذَهب بَعضُ العُلماءِ إِلى أَنَّها آيةٌ منَ الفاتحةِ، ولَيست آيةً منْ غَيرِهَا، لكنَّ الصَّحيحَ أَنَّها لَيْست آيةً لَا منَ الفاتحةِ ولَا مِنْ غَيْرِها بَل هِيَ آيةٌ مُستقلةٌ، وعَلى هَذَا

---

(١) نيل الأوطار للشوكاني (٣/ ٣٤٦).

فَتكونُ آياتُ الفاتحةِ كَالتَّالي:

الآيةُ الأُولَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الآيةُ الثَّانيةُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

الآيةُ الثَّالثةُ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

الآيةُ الرَّابعةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

الآيةُ الخَامسَةُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

الآيةُ السَّادسةُ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

الآيةُ السَّابعةُ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وهذهِ القِسمةُ هِيَ الَّتي تَجعلُ السُّورةَ نِصفينِ، الثَّلاثُ الآياتُ الأُولى مِنها للهِ، والثَّلاثُ الأَخيرةُ مِنها لِلعبدِ، والرَّابعةُ مِنْها بيْنَ اللهِ وَبَيْنَ العبدِ، فَتبيَّن أنَّ الآيةَ الوُسطَى هِي قَولهُ تعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَقَبلها ثَلاثُ آياتٍ وبَعْدَها ثَلاثُ آياتٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١].

قَوْلُهُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أَيْ: نَزِّه اللهَ عَزَّوَجَلَّ فَالتَّسبيح هُوَ التَّنزِيهُ، أَيْ: نَزِّهِ اللهَ عنْ كلِّ نقصٍ، فاللهُ تعالى كاملٌ فِي ذاتهِ، وفِي أَسمائهِ، وفِي صِفاتهِ.

قَولهُ: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ الَّذي هُو فَوْقَ كلِّ شَيْءٍ جَلَّوَعَلَا؛ لأَنَّهُ استوَى علَى العرشِ، والعرشُ فَوْقَ المخلوقَاتِ، فَالأَرضونَ السَّبعُ، والسَّموَاتُ السَّبعُ، بِالنِّسبة لِلكرسيِّ كحلقةٍ أُلْقيت فِي فلاةٍ منَ الأرضِ، فَحلقةُ الدِّرعِ إذَا أَلْقيتَها فِي فلاةٍ منَ الأرضِ،

فَيَكونُ حَجمُهَا بالنِّسبةِ لِمساحـةِ الأَرضِ لَا شيءَ، وفضـلُ العرشِ عَلَى الكرسيِّ، كَفضلِ الفَلاةِ عَلَى هذِهِ الحلقةِ.

إذن، الكرسيُّ بِالنِّسبةِ لِلعرشِ كَحلقةٍ أُلقيتْ فِي فلاةٍ منَ الأرضِ، والربُّ عَزَّوَجَلَّ فَوْقَ العرشِ وأكبرُ منْ كلِّ شيءٍ، فهُوَ الأَعْلَى جَلَّوَعَلَا.

قَولهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى:٢]، فَاللهُ هو الخالقُ الَّذي بدأَ الكونَ، بَديعُ السَّمواتِ والأرضِ، فسوَّى الكونِ، أَيْ: جعلهُ خلقًا سويًّا كَاملًا لَيْسَ فِيه تَناقضٌ وَلَا اختلافٌ.

قَوْلُهُ تعَالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ [الأعلى:٣] قَدَّرَ المقاديرَ عَزَّوَجَلَّ وكانَ هذا التَّقديرُ قَبل أَنْ يَخلقَ اللهُ السَّمواتِ وَالأرضَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى خلقَ القلمَ، وهُو قَلمٌ لَا يَعلمهُ إلَّا اللهُ، ثمَّ أَمره أَنْ يَكتبَ فِي اللَّوحِ المحفوظِ، واللَّوحُ المحفوظُ لَيْسَ كَأَلْواحنَا مِن خَشبٍ أَو حديدٍ أَو زجاجٍ أَو مَا أَشْبَهَ ذَلك، فلَا تَظنَّهُ صَغيرًا، بَل قالَ بعضُ العلماءِ أنَّه يَسعُ السَّمواتِ والأرضَ؛ لأنَّه كَتبَ فِيه كلَّ شَيْءٍ.

وخلقَ اللهُ القلمَ قالَ لهُ: «اكتبْ»، قالَ القلمُ: «رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟» إذن هو عقَلَ المعنَى، قالَ: «اكتبْ مَا هُو كَائنٌ إلِى يَومِ القيامَةِ»[1]. فَجَرى فِي تِلكَ السَّاعةِ بِما هُو كَائنٌ إلِى يَوْمِ القِيامةِ، كَتب فِي اللَّوح المحفوظِ، كلُّ ذَلك فِي لَمحِ البصرِ، قالَ تَعالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، فَالقلمُ كتبَ في الحالِ، كتبَ مَقاديرَ كلِّ شَيءٍ إلَى أَنْ تَقومَ السَّاعةُ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: أبواب تفسير القُرآن، باب ومن سورة ن، رقم (٣٣١٩).

قَوْلُهُ: ﴿فَهَدَىٰ﴾ أَيْ: فهدَى المخلوقَاتِ، هَدى كلَّ مخلوقٍ لما خلِقَ لَهُ، حتَّى إنَّ الجنينَ يَنْزل مِن بَطن أمِّه، ويطلبُ الثَّدي، والَّذي دلَّه وهَدَاه إلى ثَدي أمِّه هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ قالَ تَعالَى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠] قالَ بعضُ العلماءِ: أَي الثَّديينِ[١].

كَذَلك البعيرُ يَنزل مِنْ بَطنِ أمِّه، والَّذي يَدُلُّه وَيَهديه عَلَى ضَرْعِ الأمِّ لِيَشربَ اللَّبنَ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فكلُّ مَخلوقٍ هداهُ اللهُ لما خُلِق لَه، حتَّى الحشراتَ مَهديَّةٌ لما خُلِقَت لَه.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى:٤-٥].

قَوْلُهُ: ﴿أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أَي: النَّباتُ، والزُّروعُ.

قَولهُ: ﴿غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ الغُثاءُ: مَعروفٌ هُو مَا يَحملهُ السَّيلُ مِنَ القشورِ وَالأعوادِ ومَا أَشْبَهَ ذَلكَ، وأَحْوى: أسود، وَقِيلَ فِي مَعنى الآيةِ أنَّ اللهَ تعالى جَعلَ المرعَى أَخضَرَ خُضرةً تَامَّةً، حتَّى كادَ لشدَّةِ خُضرتهِ أَنْ يَكونَ أَسْوَدَ.

وقيلَ: المعنَى أنَّ هذَا المرعَى، والنَّباتَ الغضَّ الأخضرَ، يَجعلهُ اللهُ هَامدًا يَابسًا، وأنَّ هذَا مثالٌ لِأعمالِ الكفَّارِ نَضِرَةً حَسنةً لكنَّها لَا تَنْفعُهم، واللهُ أعلمُ.

قَولُهُ تَعالَى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى:٦].

الَّذي يُقرِئُ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يُقرِئُ النبيَّ ﷺ بواسطةِ جِبريلَ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ [القيامة:١٦-١٨]، فالَّذي يَقرؤهُ جِبريلُ، لكنْ أَضافَ اللهُ القراءةَ إِلَيْه؛ لأنَّ جبريلَ رسولُهُ، قالَ تعالى:

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٤٠٥).

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨-١٩]، وهنَا قالَ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى:٦]، أَي فَلا تَنْسَى مَا نُقرِئُك بَل سَيبقى وَيمكثُ فِي قَلبكَ حتَّى تُبلِّغهُ للنَّاسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى:٧].

قَولهُ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لكنْ إنْ شاءَ اللهُ تعالى أنْ يُنسيكَ آيةً منَ القرآنِ أَنساكَ اللهُ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦].

قَولهُ: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أَيِ: اللهُ عَزَّوَجَلَّ يَعلمُ مَا يَجهرُ بهِ النَّاسُ، ومَا يَخْفى مِما دُون ذَلِكَ، فَاللهُ يَعلمهُ جَلَّوَعَلَا فَما مِن كلمةٍ تَنطقها إلَّا واللهُ يَعلمُها سرًّا، كانتْ أَو خَفاءً.

قَولهُ تَعالَى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى:٨].

وعدَ اللهُ النبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأنَّه يُيسرهُ لليُسْرى، وهيَ التَّيسيرُ فِي كلِّ شيءٍ؛ ولهذَا كان أمرُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مُيسَّرًا، فعملَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَعمالَ أَهلِ اليُسْرَى فِي كلِّ أَحوالِهِ؛ لأنَّ اللهَ وَعَدَهُ ذَلِكَ.

قَولهُ تَعالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩].

أيْ: ذَكِّرَ النَّاسَ بِما أَوْحى اللهُ إِلَيك مِن كتابِ اللهِ، إنْ نَفعتِ الذِّكرى، فذَكِّرْ عَلى كلِّ حالٍ، فَلا بُدَّ منَ التَّذكِير، ولَا بُدَّ منْ نَشرِ الشَّريعةِ، سواءٌ نَفعتْ أَم لَم تَنفعْ، فَهو كَقَولِنَا: «عَلِمَ فلانٌ إنْ كان العِلمُ يَنفعُهُ».

ومعلومٌ أنَّ العلمَ ينفعُ، ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يعني أيْ إنَّ الذِّكرى ستنفعُ.

وقالَ بعضُ العلماءِ: بَل هِيَ شَرطيَّةٌ، والمعنَى ذَكِّرْ فِي الحالِ الَّتي تَنفعُ الذِّكرى فِيها، وأمَّا إذَا آيست ولَمْ تَطمعْ فِي تذكُّرِ النَّاسِ فلَا تُذكِّرْ.

قَولهُ تَعالَى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلى:١٠-١١].

بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ النَّاسَ بعدَ الذِّكرى يَنْقَسمون إِلَى قِسمينِ:

القِسمُ الأَوَّلُ: من يَخشى اللهَ عَزَّوَجَلَّ فيتذكَّر، كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:٧٣]، وقَولهُ تَعالَى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨]، فإذَا كان العبدُ يَخشى اللهَ، وذُكِّر باللهِ، وخُوِّف بِاللهِ، تَذَكَّر وارتدَعَ عنِ المحرمِ، وقامَ بِالواجبِ عليهِ.

القِسمُ الثَّاني: الأَشقى الَّذي كُتبت لَهُ الشَّقاوةُ وَالعياذُ بِاللهِ، فَهو يَتَجنبُ الذِّكرى.

قَوله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى:١٢].

يَصلى النَّارَ حتَّى يَكونَ حمَمًا، والعياذُ بِاللهِ، كَما قالَ اللهُ تعالى فِي وَصْفِهِمْ: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦].

قَولهُ تعالى: ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وصفٌ للنَّارِ، وليْسَ المانعُ أَنَّ فِيه نارًا كُبْرى وصُغْرى، فَهذا وصفٌ للنَّارِ بأنَّها كُبْرى، وقَد ذكرَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «**نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ**». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً قَالَ: «**فُضِّلَتْ**

عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا»(١). ومعَ ذَلك يَصْلاها الأَشْقى الَّذي لَمْ يَتذكَّرْ بِالقرآنِ.

قَولهُ تَعَالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى:١٣].

قَد يُشكلُ عَلى بعضِ النَّاسِ، فَيقولُ: كَيف يَكونُ لَا حياةَ ولَا موتَ؟ والإنسانُ إمَّا إِن يَكونَ حيًّا، وإمَّا أَن يَكونَ ميتًا؟

قُلنا: النَّفيُ هُنا نفيُ كمالٍ، أيْ لَا يَموتُ مَوتًا كَاملًا فَيستريحَ، ولَا يَحْيى حياةً كاملةً فَيسعدَ فِي حَيَاتِه، وإلَّا فَإِنَّهم أَحياءُ يَتمنَّونَ الموتَ، قالَ اللهُ تعالى عَنْ أَصحابِ النَّارِ، وهُم يُنادُونَ مَالِكًا خازنَ النَّارِ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]، فلَا موتَ يَستريحُونَ بِهِ منَ العذابِ، ولَا حياةَ يَسعدونَ بِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤].

كلمةٌ جامعةٌ، وهِيَ حُصولُ المطلوبِ، والنَّجاةُ منَ المرهُوبِ، فَهي سَعادةُ مَن زكَّى نَفسَه وطهَّرها منَ الشِّركِ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٩-١٠].

قَولهُ تَعالَى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٥].

أَيْ: ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فَعظَّمه، وقَامَ يُصلِّي؛ لأنَّ الصَّلاةَ تَشتملُ عَلى ذكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كَما أَنَّها تَنهى عنِ الفَحشاءِ والمنكَرِ.

قَولهُ تَعالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٩٢).

(بَلْ) هُو لِلْإضرابِ الانتِقاليِّ لَا لِلْإضرابِ الإبطاليِّ، فَالمعنَى أَنَّكم بَعْدَ هذه الذِّكرى، تُؤْثِرون الحياةَ الدُّنيا، أَيْ: تقدِّمُونها عَلى الآخرةِ، والآخرةُ خيرٌ وأبقَى، فَهِيَ خَيرٌ منَ الدُّنيا، وأبْقى مِنَ الدُّنيا.

فجمعَ بينَ الخيرِ الزَّمنيِّ، والخيرِ الذاتيِّ، الخيرُ الزَّمنيُّ بِقولِهِ: ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾، والذَّاتيُّ بقولِهِ: ﴿خَيْرٌ﴾؛ وَلِهَذَا أخبرَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ: «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1]. فالدُّنيا لَيْست خيرًا ولَيْست أَبْقَى، فَمَتاعُها قَليلٌ، ومَا جَاء فِيها مِن صَفوٍ فإنَّه يُكدَّرُ؛ وَلِهَذَا قالَ الشَّاعرُ الحكيمُ[2]:

لاَ طيبَ لِلعَيشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً لذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوْتِ والهَرَمِ

أَيْ: طيبُ العيشِ لِذاتُهِ مُنغَّصةٌ، إذَا تَذكَّرتَ الموتَ والهرَمَ، فإنْ طَالتْ بِكَ الحياةُ صِرت هَرِمًا، وضيَّقتها حتَّى عَلى أَهْلِك، وإنْ مِتَّ انتَهَيْت منَ الدُّنيا، فَكَيْف يَطيبُ العيشُ، كَما أنَّ الدُّنيا مُنغَّصةٌ لِذَاتها.

قالَ الشَّاعرُ الحكيمُ أَيْضًا[3]:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

فلَا تكادُ تمرُّ عَلَيك عشرةُ أَيَّامٍ صَافيةٌ بدُونِ كَدرٍ، بَل لَا بُدَّ مِن كَدرٍ، إمَّا فِي نفسِكَ، أَو أَهلِكَ، أَو جِيرَانِك، أَو بَلَدِك، أَو حُكُومَتِك، ثمَّ مَع ذَلِك لَا يَدْري الإنسانُ فِي أيِّ سَاعةٍ يَدعوهُ الدَّاعي فِي أيِّ لحظةٍ، فكمْ مِن إنسانٍ سَقَطت منْهُ اللُّقمةُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).
(٢) انظر: شرح ابن عقيل (١/ ٢٧٤)، وهمع الهوامع (١/ ٣٧٣).
(٣) البيت للنمر بن تولب، كما في كتاب سيبويه (١/ ٨٦).

مِن يدهِ وماتَ، وسقطَ مِنْهُ فِنجانُ الشَّاي وماتَ، فمنِ السَّفَهِ أنْ نُؤثرَ الحياةَ عَلى الحياةِ الآخرةِ؛ وَلِهَذَا قالَ تَعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

قَولهُ تَعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأعلى:١٨].

آراءُ العلماءِ فِي المشَارِ إِلَيْهِ:

الرَّأيُ الأَوَّلُ: أنَّه قولهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

الرَّأيُ الثَّاني: أنَّه قولهُ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

الرَّأيُ الثَّالثُ: أنَّه كلُّ السُّورةِ.

قَولهُ تَعالَى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى:١٩].

وفيهِ إِشارةٌ إلى أنَّ جَميعَ الكتبِ السَّماويةِ، كَصحفِ إبْراهيمَ ومُوسَى عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ تحثُّ عَلى التَّذكُّرِ بِالوحيِ، وتَلومُ مَن آثرَ الحياةَ الدُّنيا عَلى الآخرةِ.





سورةُ الفجرِ

الدرسُ الأولُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِهِ، وأصحابِهِ، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَال تَعَالَى: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر:١-٤].

خمسةُ أَشْيَاءَ أقسَمَ اللهُ بها، وكُلها من المَخْلُوقَاتِ، فالواوُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ للقَسَمِ، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الواوُ للقَسَمِ، ويَجُوزُ أَنْ تَكُونَ عاطفةً، فَإِنْ كانت للقَسَمِ فالأمرُ ظاهرٌ أنَّ اللهَ تَعَالَى أَقْسَمَ باللَّيَالِي، وَإِنْ كَانَت عاطفةً فالمعطوفُ عَلَى المُقسَمِ به مُقْسَمٌ به، وَهَكَذَا نَقُولُ فِي الباقي.

أَقسَمَ اللهُ بالفجرِ الَّذِي هُوَ الصبحُ، وَهُوَ بدايةُ نورِ الشَّمْسِ؛ لأنَّ بهَذَا الفَجْرِ تزولُ ظُلمةُ اللَّيْلِ، وَهُوَ من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الدالةِ عَلَى كمالِ قُدْرَتِهِ، فَلَو اجتمعَ أَهْلُ الأَرْضِ كلُّهم عَلَى أَنْ يقدِّموا الفَجْرَ عن وقتِه الَّذِي أراده اللهُ خَمسَ دقائقَ

لا يَستطيعون، وَلَوِ اجتَمعوا عَلَى أَنْ يُؤَخِّرُوه خَمسَ دَقَائقَ عن الوقتِ الَّذِي أرادَ اللهُ أن يَخرجَ فِيهِ ما اسْتَطَاعُوا، إذن مَا دَامَ الخَلْقُ تَعْجِزُ عن ذَلِكَ فَهُوَ من آيَاتِ اللهِ.

وكُلُّ شَيْءٍ يَعْجِزُ المخلوقُ عنه، فَهُوَ من آيَاتِ اللهِ الدالةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، ولقد قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أَيْ: فِي النَّهَارِ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧١- ٧٣].

قَوْلُهُ: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هَذَا مُقسَمٌ به، وطريقُ الإقسامِ بِهِ أحدُ أَمْرَين: إمَّا أداةُ القَسَمِ حِينَ نَقُولُ: إنَّ الواو فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَيَالٍ﴾ للقسمِ، وإما العطفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾، وَحِينَئِذٍ نَقُولُ: المعطوفُ عَلَى المُقسمِ به مُقسمٌ به، كَما لو قَالَ قائلٌ: أكلتُ تمرًا وخبزًا، الواوُ حرفُ عطفٍ، (خبزًا) معطوفٌ عَلَيْهِ، أكلتُ تمرًا وخبزًا، (خبزًا) معطوفٌ عَلَى التَّمرِ، إذن، مأكولٌ أم غيرُ مأكولٍ؟ مأكولٌ، المعطوفُ عَلَى المأكولِ مأكولٌ، والمعطوف عَلَى المُقْسَم به مُقْسَمٌ به.

والمُرَادُ باللَّيَالي العَشْرِ؟

قِيل: المُرَادُ باللَّيَالي العَشْرِ ليالي عَشْرِ رَمَضَانَ الأخيرة، وأقسَمَ اللهُ بها؛ لشَرَفِهَا، ولكوْنِ ليلةِ القدرِ فِي العَشْرِ الأواخرِ من رَمَضَانَ، فإنَّ لَيْلَةَ القَدْرِ كائنةٌ فِي كُلِّ عامٍ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ من رَمَضَانَ، ولِهَذَا مَن قامَ العَشْرَ الأَوَاخِرَ من رَمَضَانَ كلَّها، فَقَدْ أصابَ لَيْلَةَ القَدْرِ، سواءٌ شَعَرَ بها أم لم يشعُرْ؛ لأنَّ لَيْلَةَ القَدْرِ قد يَشْعُرُ الإنْسَانُ بها

وقد لا يَشْعُرُ، لَكِنَّنَا نَجزمُ جزمًا أن مَن قامَ لَيَالِي العَشْرِ كلَّها فَقَدْ أصابَ لَيْلَةَ القَدْرِ قطعًا.

فلَيْلَةُ القَدْرِ لا تَخْرُجُ عن هَذِهِ العَشْرِ، سواءٌ شَعُرَ بها أم لم يَشعُرْ، أَيْ: سواء اطَّلَعَ عَلَى علاماتِها الَّتِي ذَكَرَها العُلَماءُ، أم لم يطلعْ، فأَحْيانًا يَمُنُّ اللهُ عَلَى من يشاءُ من عبادِه، فيجدُ فِي إحدى لَيَالِي العَشْرِ انشراحًا فِي صدرِه، وطمأنينةً فِي قلبِه، ورغبةً فِي الخَيْرِ، وهَذَا من علاماتِ لَيْلَةِ القَدْرِ.

أَحْيَانًا إِذَا كان المكانُ بعيدًا عن الأضواءِ، تَتَميزُ لَيْلَةُ القَدْرِ عن غيرِها بِأَنَّهَا بيضاءُ، كأنَّ فِيهَا سراجًا، لكِنْ بالنِّسْبَةِ لحالنِا اليَوْمَ لا يتبينُ هَذَا، لكثرةِ الأضواءِ، لكن اخرُجْ إِلَى البَرِّ تَجِدِ الفَرْقَ العَظِيمَ، لكن من أهمِّ ما يكونُ من العلاماتِ: طُمأنينةُ القَلْبِ، وانشراحُ الصدرُ، والرغبةُ فِي الخَيْرِ، هَذِهِ من علاماتِ لَيْلَةِ القَدْرِ.

وقِيل: إِنَّ المرادَ بقَوْلِهِ ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ أيامُ عَشْرِ ذي الحِجَّةِ الأولى، الَّتِي تبدأُ من أَوَّلِ يومٍ من عَشْر ذي الحِجَّةِ إِلَى يومِ العيدِ، ورُجِّحَ هَذَا القَوْلُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «**مَا مِنْ أَيَّامِ العَمَلِ الصَّالِحِ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ**» -أَيْ: عَشْرُ ذي الحِجَّةِ- قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «**وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْهَا بِشَيْءٍ**»[1]. يَعْنِي: خَرَجَ بمالِه من الفَرسِ أو البَعِيرِ أو المتاعِ، ثُمَّ عُقِرَ جَوادُه، وأُزْهِقَت نفسُه فِي سَبِيلِ اللهِ، فهَذَا أفضلُ من العَمَلِ فِي العَشْرِ الأوائلِ من شهرِ ذي الحِجَّةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، أبواب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، رقم (٩٦٩).

والعَشْرُ الأوائلُ من شَهْرِ ذي الحِجَّةِ لا يدري كثيرٌ من النَّاسِ عن فضلِه شيئًا، فيظنُّ بَعْضُ النَّاسِ أن العَشْرَ الأَوَاخِرَ من رَمَضَان أَفْضَلُ مِنْ العَشْرِ الأَوَائِلِ من شَهْرِ ذي الحِجَّةِ، والأمرُ بالعكسِ، العَمَلُ الصَّالِحُ فِي العَشْرِ الأَوَائِلِ من ذي الحِجَّةِ أحبُّ إِلَى اللهِ من العَمَل الصَّالِحِ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ من رَمَضَانَ.

ورُبَّما يَسْتَغربُ كثيرٌ من النَّاسِ هَذَا لجهلِهم، ولِذَلِكَ تجدُ العَشْرَ الأَوَائِلَ من شَهْر ذي الحِجَّةِ تمرُّ بالنَّاسِ، ولا يقْدِرُون لهَا قَدْرا، لا فِي الصِّيَامِ، ولا فِي الصَّدَقَةِ، ولا فِي قِرَاءَةِ القُرْآنِ، ولا بكثرةِ الصَّلَاةِ؛ لأنَّهم يجْهَلُونَها، ولِهَذَا يجبُ عَلَى طلبةِ العِلْمِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأمورِ الَّتِي تخطرُ عَلَى كثيرٍ من النَّاسِ، أن تُبيَّنَ؛ حَتَّى يعرفَ النَّاسُ.

لو قَالَ قائل: ألا يمكنُ أن نجعلَ المرادَ باللَّيَالِي العَشْرِ هَذَا وهَذَا؟

قُلْنَا: الظاهرُ لنا أنَّه يمكنُ أن يكونَ المُرَادُ باللَّيَالِي العَشْرِ، ليالي عَشْرِ رَمَضَانَ الأخيرة، وأيامُ عَشْرِ ذي الحِجَّةِ الأولى؛ لأنَّ لدينا قاعدةً فِي التَّفْسِيرِ مهمةً، وهي أن اللفظَ إِذَا كَانَ محتملًا لمعنيين عَلَى السَّوَاءِ، ولا منافاةَ بينهما، فالواجبُ حمْلُ اللفظِ عَلَيْهِما جَمِيعًا.

قد يَقُولُ قائلٌ: هل العَشْرُ الأَوَائِلُ من ذي الحِجَّةِ فِيهَا صيامٌ؟

نقولُ: نعم، العَشْرُ الأَوَائِلُ من ذي الحِجَّةِ فِيهَا صَلَاةٌ، وفيها صِيامٌ، وفيها صدقةٌ، وفيها حجُّ بيتِ اللهِ الحَرامِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ مِنْ أَحْسَنِ ما قِيل فِي معنى الآيةِ أنَّه قَسَمٌ بالمخلوقِ، وقَسَمٌ بالخالِقِ، فالقَسَمُ بالمخلوقِ هُوَ القَسَمُ بالشفعِ المخلوقِ، والوَتْرُ هُوَ الخالقُ

عَزَّوَجَلَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ»(١). أَمَّا الشَّفْعُ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩]، كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَ اللهُ منه زوجين، الآدمي زوجانِ ذَكَرٌ وأنثى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات:١٠] وكذلك بقيةُ الحيواناتِ، السَّماءُ والأَرْضُ زوجان.

فالشفعُ المخلوقُ، والوَتْرُ الخالقُ، وبِناءً عَلَى هَذَا يكونُ الشَّفعُ والوترُ إقسامًا بكُلِّ شَيْءٍ؛ لأَنَّهُ ما ثَمَّ إِلَّا خالقٌ ومخلوقٌ.

قَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾، فالفجرُ أَوَّلُ ما أَقْسَمَ اللهُ به، وَهُوَ مُدَّةُ النَّهَارِ، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ آخِرُ ما أَقْسَمَ اللهُ بـه فِي هَذِهِ الإقساماتِ، وَهُـوَ أَوَّلُ اللَّيْلِ، فيكونُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَقْسَمَ بإقبالِ النَّهَارِ وإقبالِ اللَّيْلِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ [الفجر:٤-٥] أَيْ: هل أحدٌ يَفهم الحِكْمَةَ من الإقسامِ بهَذِهِ الأشياءِ، والحِجْرُ فِي ﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾ يَعْنِي: العقلَ، والجَوَابُ: نعم فِي هَذِهِ الأشياءِ الَّتِي أَقْسَمَ اللهُ بها: الفجرُ، ليالٍ عَشْر، الشفعُ والوترُ، واللَّيْلُ إِذَا يَسْري، فِي هَذِهِ الإقساماتِ لا شَكَّ أَنَّ فِيهَا دَلالةً عظيمةً عَلَى عِظَمِ الخالقِ جَلَّ وَعَلَا وعلى عِظَمِ هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ؛ لأنَّ القَسَمَ بِالشَّيْءِ تعظيمٌ له، ولِهَذَا يُفسِّرُ العُلَماءُ القَسَمَ بأنه تأكيدُ الشيءِ بذِكرِ مُعظَّمٍ عَلَى صفةٍ مخصوصةٍ.

تنبيهاتٌ:

التَّنبيهُ الأَوَّلُ: هل يجُوزُ أن نُقسِمَ بالمَخْلُوقَاتِ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب: لله مئة اسم غير واحد، رقم (٦٤١٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، رقم (٢٦٧٧).

نقول: لا يَجُوزُ أَنْ نُقسِمَ بالمَخْلُوقَاتِ، والدَّلِيلُ قولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»(١). وقَوْلُهُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ»(٢). وهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الحلفَ بغَيرِ اللهِ من الشِّركِ، ولكنه يكونُ شركًا أكبرَ إنْ اعْتَقَدَ الحالِفُ به أنَّ لِهَذَا المخلوقِ من العَظمةِ والجَلالِ مثلَ ما للخالقِ، ويكونُ شِركًا أصغرَ إِذَا لم يعتقدْ أن لِهَذَا المحلوفِ به من العَظمةِ والجَلالِ مِثْلَ ما للهِ.

وإذا كَانَ الحلفُ بغيرِ اللهِ شركًا، فالَّذِي جاء فِي هَذِهِ الآياتِ حَلفٌ بغيرِ اللهِ، فما الجَوابُ؟

الجَوَابُ: إِنَّ الَّذِي أَقْسَمَ بهذِهِ المَخْلُوقَاتِ هُوَ الخالقُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حاكمٌ لا محكومٌ عليه، وآمرٌ لا مأمورٌ، وناهٍ لا منهي، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧] فَاللهُ تَعَالَى له أنْ يَحلِفَ بما شاء من خلقِه، أَمَّا نَحْنُ فإننا عبيدٌ لله عَزَّوَجَلَّ مأمورون بما نُؤمَر به، منهيون عما نُنهى عنه، فَإِذَا نُهينا عن الحلفِ بغيرِ اللهِ، وَجَبَ علينا أن نَمْسِكَ.

التَّنبيهُ الثَّاني: لو قَالَ إِنْسَانٌ: إِنَّ أعظمَ البشرِ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ ألا يَجُوزُ الحلفُ به؟

الجَوَابُ: لا يَجُوزُ الحلفُ بالرَّسُولِ ﷺ وَهُوَ أعظمُ البشرِ؛ لأنَّ الحلفَ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب كيف يُسْتَحْلَف، رقم (٢٦٧٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله، رقم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥، رقم ٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

خَصَائِصِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فلو قَالَ قائل: والنَّبِيِّ لأفعلنَّ كذا وكذا، فنقولُ: هَذَا حَرامٌ.

مَسْأَلَةٌ: نسمعُ كَثِيرًا من النَّاسِ يحلفونَ بالنَّبِيِّ، يَقُولُ: والنَّبِيِّ أجبني عن سؤالي، والنَّبِيِّ إني محتاجٌ!! فماذا نَقُولُ لِهَذَا السائلِ؟

أولًا: ننصحُه، فنقولُ: هَذَا لا يَجُوزُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نجيبُ عن سؤالِه، وإنَّما أقولُ هَذِهِ الطريقةَ؛ اقتداءً بيوسفَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنَّهُ سُئل وأجاب أولًا قبلَ أنْ يُجِيبَ بالنصيحةِ، جاء ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦] إِلَى أن قال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩].

يوسفُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دَخَلَ معه السجنَ فتيان، وَذَلِكَ حينما سُجِنَ يوسفُ لأَنَّهُ أَبَى أنْ يُجِيبَ امرأةَ العزيزِ لِمَا تريدُ منه، حَيْثُ رَاوَدَتْه عن نفسِه، وغلَّقتِ الأبوابَ، وكانت قد هَيَّأَتْ نفسَها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف:٢٣]، وفي قِرَاءَةٍ: (هِئْتُ لَكَ)[1] يَعْنِي: هيأت نفسي، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾[يوسف:٢٣]، وأَبَى ﷺ فأُدخل السجن.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ فرأى كُلُّ واحدٍ منهما رُؤْيَةً أحدُهما قال: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾، والآخر قال: ﴿وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾، الرؤيةُ لا يعرفُها إلَّا مَن أعطاه اللهُ تَعَالَى فِراسةً، ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ

---

(١) انظر: السبعة في القراءات، لابن مجاهد (٣٤٧).

إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فَصَاحِبُ الإحسانِ مَرموق، صاحِبُ الإحسان مَقصودٌ؛ لأنَّ الرَّجلَ المحسِنَ يألفُه النَّاسُ، ويحبُّونه، ويأتونَ إليه يشاورونه فِي مشاكلِهم، ولِهَذَا قَالُوا: إنا نراك من المحسنين، قال: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف:٣٧]، وكأنهم لهم موعدٌ، يأتيهم الطَّعامُ، وهَذَا معروفٌ، فالسجناءُ يُقَرَّرُ لهم الغَداءُ بَعْدَ الظُّهْرِ الساعةَ الواحدةَ، وكَانَ السجنُ مقررًا له طعامٌ فِي وقتٍ معينٍ، ولِهَذَا قال: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أَيْ: بتأويلِ ما رأيتما، ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ أَيْ: قبلَ أن يأتيكما ذَلِكَ الطَّعامُ، ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾.

ثُمَّ أشار إِلَى معنًى يكونُ سَبَبًا للعلمِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٣٧]، ومَن أَخْلصَ فِي توحيدِه للهِ فتَحَ اللهُ عَلَيْهِ من أبوابِ العِلْمِ والمعرفةِ ما لا يَفْتَحُه عَلَى غيرِه.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف:٣٨].

ثُمَّ قَالَ لهم: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

فعَرَضَ عَلَيْهِما التَّوحيدَ قبل أنْ يُجيبَهما عن تأويلِ رؤيتَيْهِما، وَقَالَ: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾، فالَّذِي رأى نفسَه يعصرُ خمرًا هُوَ الَّذِي يسقي رَبَّهُ خمرًا، وأمَّا الآخرُ فيُصلَبُ ﴿وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ [يوسف:٤١]،

وهو الَّذِي رأى أَنَّه يَحمِلُ فَوْقَ رأسه خبزًا تأكلُ الطيرُ منه؛ لأنَّ الخبزَ عَلَى الرأسِ لا يمكنُ أنْ تأكلَ الطَّيرُ منه، إلَّا إِذَا كَانَ صاحبُه لا يَسْتَطيعُ الدفاعَ عنه، أرأيتَ لو وَضعتَ إناءً فِيهِ الخبزُ فَوْقَ الرأسِ، فلا يمكنُ أن تأتيَ الطيورُ تأكلُ منه وأنتَ متحرّكٌ، لكن هُوَ اسْتَدلَّ بأنه لا بُدَّ أَنْ يُصلَبَ، ثُمَّ تأكلَ الطَّيرُ من رأسِه. ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١].

أتيتُ بِهَذِهِ القِصَّةِ؛ لأبينَ أَنَّه ينبغي للمفتي إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ، ورأى أن المستفتيَ أخطأَ فيما هُوَ أهمُّ، أنْ ينصحَه، فَلَو سأل سائلٌ، اسْتَفتى مستفتٍ، وَقَالَ: إِنَّه طاف بالبيتِ، ولم يُصلِّ خلفَ المَقامِ، ورأيناه قد حَلَقَ لِحيَتَه -وحَلْقُ اللحيَةِ أعظمُ من أنْ يَتركَ ركعتين خَلْفَ المقامِ- فهنا نأتِي بالوقتِ، ونقولُ له: نريدُ أنْ نَفتيَكَ، ولكن قبل الفتوى سننصحكُ بأمرٍ أهمَّ من ذَلِكَ، وَهُوَ إعفاءُ اللحيةِ، أن تُعفيَ لحيتَك؛ لأنَّ حَلْقَ اللحيةِ معصيةٌ للرَّسُولِ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ حَيْثُ قال: «**أَعْفُوا اللِّحَى وَحُفُّوا الشَّوَارِبَ**»[1]. فَحَلْقُ اللحيةِ موافقةٌ لهَدْي المجوسِ والمُشْرِكِينَ، و«مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[2]. فَحَلْقُ اللحيةِ مُجانبةٌ لهَدْيِ الأنبياءِ والمرسلين، ومن شَذَّ عن طريقِهم، فهو على خطرٍ.

الدَّليلُ الثَّاني عَلَى ضرورةِ إعفاءِ اللحيةِ أنَّه قد عُلِمَ أن النَّبِيَّ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ- كَانَ عظيمَ اللحيةِ، وَكَانَ كثَّ اللحيةِ، يَعْنِي: غليظةً كثيرةَ الشَّعْرِ، والأنبياءُ قَبْلَه عَلَى هَذِهِ الفطرةِ، حينما رَجَعَ مُوسَى لميقاتِ رَبِّه، ووجد بني إسرائيلَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب تقليم الأظافر، رقم (٥٨٩٢)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٢٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب اللباس، باب في لباس الشهرة، رقم (٤٠٣١).

قد عَبَدوا العجلَ، ماذا صنع بأخيه هارونَ؟ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف:١٥٠] أَخَذَ برأسِ أخيه يَجُرُّه إليه، ممسكًا لحيتَه، فقال له: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾، وبيَّنَ له العذرَ، قال: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه:٩٤].

فهَذَا الَّذِي سَأَلَك يَقُولُ: إنَّه طافَ بالبيتِ، ولكنه لم يُصَلِّ ركعتين خلفَ المقامِ، وَهُوَ حالقٌ لحيتَه، نَقُولُ: قبل أن تُفتيَه ينبغي أن تَنْصَحَهُ بإعفاءِ اللحيةِ أولًا، ولكن لا تَنْصَحْه بالعنفِ والغِلظةِ، والتَّخجيلِ أمامَ النَّاسِ، بل بالحُسْنَى تَكُونُ النصيحةُ، وتكونُ فيما بَيْنَكَ وَبَيْنَه؛ لأنَّ هَذِهِ هِيَ النصيحةُ، وَهُوَ أسرعُ وأدعى لِأَن يَقْبَلَ.

لكن لا تَفْضَحْه، أو تَقُلْ له: يا مَن وَافَقَ المجوسَ فِي هَدْيِهم، وخَالَفَ الرُّسُلَ فِي هَدْيِهم، يا من عصَى رسولَ اللهِ، ومن عصى رسولَ اللهِ فَقَدْ عصى اللهَ.

ولقد حدثني مَن أَثِقُ به أن واعظًا قام يعِظُ فِي بَعْضِ المساجِدِ، ويتكلمُ عَلَى حَلْقِ اللحيةِ، ويَقُولُ: مَنْ حَلَقَ لحيتَه فَقَدْ كفَرَ، ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(١). وَقَالَ: إِذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ تبرَّأ منه، فلا تبرُّؤ إلَّا من مشركٍ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٤]، فهَذَا جهلٌ عَظِيمٌ، يريدُ أن يُكَفِّرَ نِصْفَ المسجدِ لجهلِه، قد تَكُونُ نيتُه حَسَنَةً لَكِنَّهُ جاهلٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصيام، رقم (١٤٠١).

وَنَحْنُ قد جَرَّبْنَا وسَمِعْنا مَنْ جَرَّبَ أن النصيحةَ باللطفِ والإقناعِ، أنفعُ بكثيرٍ من العنفِ، وهَذَا مِصداقُ قولِ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**»[1].

فعَلَيْكُم بالرفقِ فِي الأمورِ، فإنَّ الرفقَ كلَّه خيرٌ.

قَوْلُهُ: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥] نعم فِيهِ قَسَمٌ، لكن يحتاجُ إِلَى تأملٍ وتدبرٍ لهَذِهِ الأشياءِ الَّتِي أَقْسَمَ اللهُ بها، وأنا أدعو المُسْلِمِينَ جَمِيعًا إِلَى تدبرِ كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ تدبروا القُرْآنَ، تَفَهَّموا معناه؛ حَتَّى تتلذذوا بقراءتِه، وتنتفعوا بذاخِرِ عِلْمِه، فَإِنَّ القُرْآنَ تِبْيَانٌ لكُلِّ شَيْءٍ، فُقَرَاءتُه خيرٌ، وفي كُلِّ حرفٍ حَسَنَةٌ، والحَسَنَةُ بعَشْرِ أَمْثَالِها، لكن تضيعُ منه الفَائِدَةُ الكبرى إِذَا لم يتدبرْه الإِنْسَانُ، فتدبروا القُرْآنَ، فما بَانَ لكم من معناه فذاك، وما لم يَبِنْ لكم من معناه، فاسألوا أَهْلَ العِلْمِ المَوثوقَ بهم فِي علمِهم، ودينِهم، وأمانتِهم.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنا مِمَّن يَتْلُونَ كِتَابَك حَقَّ تلاوتِه لفظًا ومعنًى وعملًا، ونسأَلُك أن تجعلَ كتابَك قائدًا لنا إِلَى الجنَّةِ، إنك عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ، والحَمْدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلَّى اللهُ وسلَّم عَلَى نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ، وعلى آلِه وصَحْبِه أجمعين.



---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣).

الدرسُ الثاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر:١٥-١٦].

بيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ الإنسانَ إذا ابتُلِيَ بالنِّعْمَةِ قالَ: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾، وإذا ابتُلِي بتَضْيِيقِ الرِّزْقِ قالَ: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾، فقالَ اللهُ تَعالَى: ﴿كَلَّا﴾ يعني: ليسَ المَعْنَى كذلِكَ، وليس كلُّ مَنْ أكْرَمَهُ اللهُ ونَعَّمَهُ؛ يكونُ إكرامُه إياهُ إكْرامًا له، قد يكْرِمُ اللهُ الكافِرَ بالنِّعْمَةِ، ولكن يمْهِلُهُ حتى إذا أَخَذَهُ لم يُفلِتْهُ.

ألم تَسْمَعُوا إلى قَولِ اللهِ تَعالَى في آلِ فِرْعونَ: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٧-٥٩]، وقال في مَوضِعٍ آخرَ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان:٢٥-٢٨]، فَلَمْ ينْفَعْهُم هذَا الإكْرامُ؛ لأنَّهم كَفَرُوا بِهِ.

ونحنُ -ولله الحمدُ- في هَذِه البِلادِ قَدْ مَنَّ اللهُ علينا بنِعَمٍ لا تُوجَدُ في غيْرِهَا: أمْنٌ، رخَاءٌ، سَعَةُ رِزْقٍ، فهذه النِّعَمُ إذا لم تُشْكَرْ صارَتْ نِقَمًا، وأعْقَبَتْهَا النِّقَمُ، كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٩٦-٩٩].

ولهَذَا قالَ العُلماءُ: إذا رَأيتَ الرَّجُلَ يَعْصِي اللهَ ونِعَمُ اللهِ تَعَالَى عليهِ وافِرَةٌ، فاعْلَمْ أن هذا استِدْرَاجٌ مِنَ اللهِ. والاستِدْرَاجُ مآلُهُ الخَيبَةُ، قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، وتَلا قَولَهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢](١).

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر:١٦] أي: ضَيَّقَ عليهِ الرِّزْقَ، ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ فقَنَطَ مِنْ رحمَةِ اللهِ، واستَحْسَرَ، وخابَ ظَنُّهُ بِرَبِّهِ، والأمرُ ليسَ كذلِكَ، بلْ قَدْ يَبْتَلِيَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإنْسانَ بالفَقْرِ لمصلحَةِ الإنسانِ؛ حتى لا يَطْغَى بالرِّزْقِ والنعْمَةِ، وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لأَفْسَدَهُ الغِنَى»(٢). فلا تظُنَّ إذا ضَيَّقَ اللهُ عليكَ الرِّزْقَ أن اللهَ مُهينُكَ، بل هذَا قد يكونُ مِنْ مصْلَحَتِكَ، ومن تَرْبِيَتِكَ، كما نَحْجُبُ المريضَ مثَلًا عن شَهِيِّ الطعامِ.

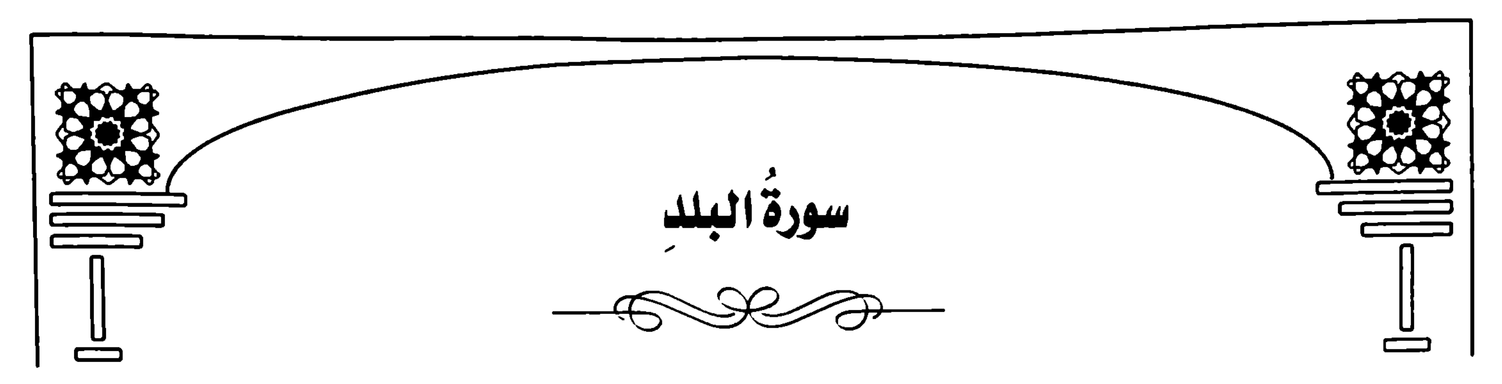
---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، رقم (٤٤٠٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣).

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة (٥/ ٢٢)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/ ٩٥).

فمثلا يُقَدَّمُ إلى ابنِك المرِيضِ طعَامٌ شَهِيٌّ يشْتَهِيه، وقد مُنِعَ عنه بسبَبِ الحُمَّى مثلا، فمِن مَصْلَحَتِهِ أن نَمْنَعَهُ من هذا الطعامِ الشَّهِيِّ؛ حتى تَسْتَقِيمَ صِحَّتُهُ، كذلك يبْتلي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعضَ النـاسِ بضِيقِ الرِّزْقِ؛ امتِحَانًـا، لعَلَّهُ يرجِعُ إلى رَبِّهِ، ولا يطْغَى بنِعَمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.





سورةُ البلدِ

الدرسُ الأولِ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

مقدمةٌ في تدبرِ القرآنِ الكريمِ:

إن هذا القرآنَ الكريمَ نزلَ مِن عندِ مِلكِ الملوكِ عَزَّوَجَلَّ، وعلى هذا فيجبُ علينا أن نُعَظِّمَ هذا القرآنَ حقَّ تعظيمِه، وأن نتقربَ إلى اللهِ تعالى بتلاوتِه.

ولا يكفِي في تعظيمِ القرآنِ والعملِ بالقرآنِ أن نَقْرَأَهُ لفظًا، بل لا بدَّ أن نَعْرِفَ معناهُ؛ إذ إن مَن قَرَأَ القرآنَ ولم يَعْرِفْ معناهُ فهو ومَنْ لم يقرأْ على حدٍّ سواءٍ.

أقولُ ذلكَ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] أي إلا قراءةً، والأميُّ هو الذي لا يقرأُ ولا يكتبُ، فوصفُ اللهُ هؤلاءِ الذينَ لا يعرفونَ القرآنَ إلا قراءةً بأنهم أُمِّيُّونَ، وهذا يدلُّ على أنهُ لا بدَّ أن نتعلمَ معنى القرآنِ.

وأيضًا لا يمكنُ -يا أخي- أن تعملَ بشيءٍ وأنتَ لا تعرفُ معناهُ؛ فمثلا: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام:٧٢] هذا كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فلا يمكنُ أن تعرفَ كيفَ تُصلِّي حتى تعرفَ معنى ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فلا بدَّ إذنْ مِن معرفةِ معاني كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وإلا لكنتَ والذي لا يقرأُ على حدٍّ سواءٍ.

والدليلُ على هذا -يا إخواني- أن مَنْ لا يَعْرِفُ المعنى كالذِي لا يقرأُ- قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] أي: إلا قراءةً، فوَصَفَهُم بالأُمِّيِّينَ.

وقالَ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ والمرادُ بهذا الكتابِ القرآنُ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني: يَتفهمُوها ويتعلمُوها، الأمرُ الثاني: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩] يتذكرُ يعني يتعظُ، فإذا عَلِمَ معانيَ هذا القرآنِ اتَّعَظَ بهِ، وعَمِلَ بهِ.

إذنْ، يَجِبُ علَيْنَا أولًا: حفظُ القرآنِ، ثانيًا: العلمُ بمعناهُ، ثالثًا: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

فلا بدَّ مِن هذا، فلم ينزلِ القرآنُ لمجردِ أن تَتْلُوَهُ، وتلاوةُ القرآنِ لا شكَّ أنها قربةٌ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومَنْ قرأَ القرآنَ فلهُ بكلِّ حرفٍ حسنةٌ، والحسنةُ بعَشْرِ أمثالِها، ولكنِ الفائدةُ مِنَ القرآنِ إنما تكونُ في تدبرِ آياتِهِ.

ولقدْ كان هديُ السلفِ الصالحِ على هذا المسيرِ وهذا الطريقِ، قالَ أبو عبدِ الرحمنِ السلميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما، أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلا يَأْخُذُونَ فِي العَشْرِ الأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ.

قَالُوا: فَعَلِمْنَا العِلْمَ وَالعَمَلَ»(١).

يعني يَتعلمُونَها لفظًا ويقرؤونَها ويجيدُونها وما فيها منَ العلمِ ويعرفونَ معناهَا، ويعملونَ بها. وكانَ الواحدُ منهم يبقَى في قراءةِ البقرةِ إلى ثلاثِ سنواتٍ أو خمسِ سنواتٍ؛ لأنهُ لا يتجاوزُ عشرَ آياتٍ حتى يعرفَ المعنى والعملَ ويقومُ بها، وكَانَ الرجلُ إذا قَرَأَ سُورَةَ البقرةِ وآلَ عِمْرَانَ جَدَّ فيهما، أَيْ صارَ جادًّا.

بِنَاءً على هذه المقدمةِ -يا إخواني- أُحبُّ -ولا سِيَّما مِن طلبةِ العلمِ- أن يحرِصُوا على فَهْمِ معنى القرآنِ الكريمِ، وذلكَ بمراجعةِ كُتبِ التفسيرِ الموثوقِ بمؤلفِيها، أو بمراجعةِ العلماءِ، أما أن يقرأَ وهوَ لا يَدْرِي المعنَى فإنهُ يصيرُ هو والجاهلُ سواءً.

وبناءً على هذا سنتناولُ آياتٍ منْ سورةِ البلدِ:

قالَ تَعالَى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد:١-٢].

قولُه تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، هل (لا أقسمُ) هنا إثباتٌ أو نفيٌ؟ أي هلِ المعنَى: لستُ بمُقسمٍ، أو المعنَى أُقسمُ؟

نقول: معنَى النفيِ لا يستقيمُ، إذنْ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ معناهُ: أقسمُ بهذا البلدِ، و(لا) هنا قالَ علماءُ اللغةِ العربيةِ: إنها للتوكيدِ والتنبيهِ، حتى يتنبهَ الإنسانُ أكثرَ، فهيَ إذنْ للتوكيدِ والتنبيهِ.

قولُه: ﴿أُقْسِمُ﴾ أي: أحلفُ، والقَسَمُ: الحلفُ واليمينُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٠، رقم ٢٣٥٢٩).

قولُه: ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ هو مكةُ؛ لأن هذه السورةَ نزلتْ في مكةَ، وليسَ في المدينةِ، بلْ في مكةَ.

وأَقسمَ اللهُ تَعَالَى بمكةَ لأنها أشرفُ بقاعِ الأرضِ، ولا يوجدُ في الدنيا بقعةٌ يجبُ على المسلمِ أن يصلَ إليهَا إلا مكةَ، حتى إن اللهَ عَزَّوَجَلَّ جعلَ الوصولَ إلى مكةَ وحجَّ بيتِ اللهِ الحرامِ مِن أركانِ الإسلامِ، أي مِن دعائِمه القويةِ التي لا يستقيمُ إلا بها، ولا يوجدُ مكانٌ يجبُ على كلِّ مسلمٍ أن يتجهَ إليهِ في كلِّ يومٍ خمسَ مراتٍ فأكثرَ سِوى مكةَ، ولا يوجدُ بلدٌ في أقطارِ الدنيا يأمنُ فيهِ حتى الشجرُ، وحتى المدينةُ -زادَها اللهُ شرفًا- ليستْ في حرمةِ أخذِ شجرِها كمكةَ.

أخي المسلمُ، مكةُ يأمنُ فيها كلُّ أحدٍ، فالطيورُ آمنةٌ، حتى إنهُ لا يجوزُ للإنسانِ أن يثيرَ الحمامةَ إذا وجدَها واقعةً على شيءٍ، ولا يُنفرُها، فحرامٌ عليهِ أن ينفرهَا، ولا يجوزُ أن يقتلَها، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة:٩٥] انتقامٌ لأجلِ الشجرِ! والشجرُ جمادٌ، فلا يجوزُ أن تقطعَهُ في مكةَ، ولا يجوزُ أن تتعدَّى عليهِ في مكةَ، يعني لوْ وجدتَ شجرةً أنبتَها اللهُ وأردتَ أن تقطعَ منها ورقةً واحدةً فحرامٌ عليكَ.

فلا يوجدُ في الدنيا مثلُ هذا الأمنِ في هذا البلدِ، ولهذا قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:١-٣]، فجعل اللهُ البلدَ نفسَه أمينًا؛ لأن كلَّ مَن حَلَّ في هذا المسجدِ فهو آمنٌ، فالآدميُّ آمنٌ، والصيدُ،

والشجرُ، والحشيشُ، كلُّ ذلكَ آمنٌ.

ولهذا كان جديرًا بأن يُقسِمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بهِ.

ثم قالَ: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ هذا زيادةُ شرفٍ أن حَلَّ في هذا البلدِ محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ، ولهذا قالَ: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، وهذا زيادةُ شرفٍ للبلدِ الحرامِ؛ أن حَلَّ فيهِ سيدُ الأنامِ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ.

ولماذا هاجرَ الرسولُ عنهُ وهوَ أشرفُ بلادِ اللهِ، وهو مكانُ بعثتِه وولادتِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟

قالَ النبيُّ ﷺ في مكةَ: «وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ الأَرْضِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»[1].

إذنْ، لم يخرجِ اختيارًا، ولكنِ اضطرارًا بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، خرجَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من مكةَ التي هيَ أحبُّ البلادِ إلى اللهِ وأحبُّ البلادِ إلى الرسولِ ليقيمَ دينَ اللهِ؛ حتى يرجعَ فاتحًا منصورًا، سبحانَ اللهِ! خَرَجَ منها طريدًا خائفًا على نفسِه، واختفى في غارِ جبلٍ يقالُ لهُ: ثورٌ؛ لأن قريشًا كانتْ تطلبُه، تريدُ أن تَقْتُلَه، ولكنَّهُ اختفى في هذا الغارِ لمدةِ ثلاثِ ليالٍ، وكانَ صاحبَه في هذا الغارِ أبو بكرٍ الصديقُ، الذي قالَ اللهُ عنه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠] اللهُ أكبرُ! إيمانٌ قويٌّ، أبو بكرٍ يقولُ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا»؛ لأن قريشًا تطلبُه في كلِّ الأرضِ، فوقفوا على الغارِ الذي بهِ الرسولُ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٥، رقم ١٨٧٣٧).

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأبو بكرٍ، يقولُ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا» فيجيبُه النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»(١). فلا يقدرُ أحدٌ أن ينالَهم بسوءٍ.

وهذهِ القصةُ تذكرُنا بشبيهةٍ لها، إن اللهَ أرسلَ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى فرعونَ، وإن فرعونَ بجنودِه وجيوشِه وقوتِه وسلطتِه أرادَ أن يقضيَ على موسَى وصحبِه، ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ويشيرُ إلى موسَى وقومِه ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء:٥٣-٥٦].

لما عَلِمَ موسَى وقومُه بهذا خرجُوا بإذنِ اللهِ متجهينَ إلى ناحيةِ الشرقِ؛ إلى الأرضِ المقدسةِ فلسطينَ -أنقذَها اللهُ مِنَ اليهودِ- ووصلُوا إلى البحرِ الأحمرِ، الذي كان يُعْرَفُ قديمًا ببحرِ القُلْزُمِ، وقالُوا لموسى: إنا لمدرَكونَ؛ ففرعونُ وجنودُه خلفَنا، والبحرُ أمامَنا، فأينَ نذهبُ؟ إن خُضْنا البحرَ غرِقْنا، وإن لحِقَنا فرعونُ بجنودِه أَدْرَكَنا وأَهْلَكَنا، فقالَ موسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، فانظرْ إلى المعيةِ هنا جاءتْ مثلما جاءتْ في ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

قالَ: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ اللهُ أكبرُ! هكذا اليقينُ، وهكذا الثقةُ، فإذا حلَّتِ الكوارثُ وضاقتِ الأمورُ فارجعْ إلى علامِ الغيوبِ، فهو ملجؤُكَ يا أخي. أسألُ اللهَ أن يجعلَني وإياكُم ممن ملجؤُهُ ربُّهُ.

وانظرْ إلى القدرةِ الإلهيةِ والآيةِ النبويةِ؛ أوحَى اللهُ إلى موسَى أنِ اضربْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، رقم (٣٦٥٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨١).

بعصاكَ البحرَ -والعصَا مِن شجرٍ عاديٍّ- فضربَهُ مرةً واحدةً، ضَرَبَ هذا البحرَ المتلاطمَ الأمواجِ فانفلقَ، لا إلهَ إلا اللهُ! انفلقَ فكانَ كلُّ فرقٍ كالطودِ العظيمِ، والطودُ: الجبلُ العظيمُ، ضَرَبَه فصارَ جبالًا، صارَ اثني عَشَرَ طريقًا؛ لأن أسباطَ إسرائيلَ كانوا اثنيْ عشرَ، فانفلقَ -سبحانَ اللهِ- البحرُ وصارَ الماءُ كالجبالِ، معَ أن الماءَ جوهرٌ سيالٌ وليسَ بجامدٍ، لكنْ وقفَ بإذنِ اللهِ، وأما الطينُ الذي كان حاملًا لهذا الماءِ في قاعِ البحرِ فقدْ قالَ اللهُ تعَالَى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ [طه:٧٧]، يَبسَ هذا الطينُ في الحالِ، اللهُ أكبرُ! إن اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

فدخلَ موسَى ونفذُوا، ثم دخلَ فرعونُ بجنودِهِ فأمرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ البحرَ أن يعودَ إلى حالِه، فانطبقَ على فرعونَ وقومِه، فقالَ فرعونُ حينَ أدركَهُ الغرقُ، فرعونُ الذي استذلَّ بني إسرائيلَ جعلَ نفسَه تابعًا لهمْ فقالَ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠]، ولم يقلْ: إلا اللهُ، قالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ احتقارًا لنفسِه وإذلالًا لها أن كان اليوم تابعًا لبني إسرائيلَ، بينما كان سابقًا منَ المسرفينَ المفسدينَ المُقتِّلينَ المذبِّحِينَ.

فقيلَ لهُ: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ يعني الآنَ تؤمنُ وقدْ كنتَ كافرًا ﴿وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ [يونس:٩١-٩٢]. والقائلُ ﴿نُنَجِّيكَ﴾ هو اللهُ، قالَ: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ لأن بني إسرائيلَ -يا إخواني- قدْ رعبَهُم فرعونُ، وإذا انطبقَ البحرُ على فرعونَ وقومِه فقدْ يقولونَ: ربما نجَا هذا الرجلُ ولم يغرقْ، فاللهُ نجاهُ ببدنِه، لا بروحِه، فروحُه إلى الحرقِ وإلى النارِ، لكنْ بدنُه نجَا؛ حتى يستيقنَ بنُو إسرائيلَ

أنهُ قد هلكَ. فهذهِ آياتٌ عظيمةٌ.

القَسَمُ بغيرِ اللهِ:

قالَ تَعَالَى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ فأقسمُ بالبلدِ -وهوَ مكةُ- فما حكمُ القَسمِ بالمخلوقاتِ؟

نقولُ: القسمُ بالمخلوقاتِ حرامٌ، فلا يجوزُ أن تقولَ: أُقْسِمُ بحياتِكَ، أقسمُ بحياةِ النبيِّ، أقسمُ بجبريلَ، أقسمُ بميكائيلَ، فالقسمُ بغيرِ اللهِ حرامٌ؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»(١). فإما أن يحلفَ باللهِ وإلا يتركَ الحلفَ.

فإذا قالَ قائلٌ: فكيفَ أَقسمَ اللهُ تَعَالَى بمكةَ، والقَسَمُ حرامٌ؟

فالجوابُ: إن الحاكمَ هو اللهُ، فهو الذي يحكمُ، فاللهُ يَحكمُ ولا يُحكمُ عليهِ، هو يَحكمُ على العبادِ، ويَحكمُ بينَ العبادِ، ولكنِ العبادُ لا يحكمونَ عليهِ.

إذنْ، لهُ أن يُقسمَ بما شاءَ، ولهذا يُقسمُ بالبلدِ مكةَ، ويقسمُ بالشمسِ، ويقسمُ بالليلِ، ويقسمُ بما شاءَ، وأقسمَ بالرسولِ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ قالَ: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢].

فالإقسامُ يكونُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بما شاءَ، وليسَ لنا أن نحكمَ على اللهِ؛ لأن الحاكمَ هو اللهُ: قالَ تَعَالَى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١]، فلا يستطيعُ أحدٌ مِنَ النَّاسِ أن يحكمَ بينَ العبادِ، أو أن يحكمَ العبادُ إلا بحكمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومَن خَرَجَ عنْ ذلكَ فقدْ حادَ عَنِ الطريقِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

إذنِ، الحلفُ بغيرِ اللهِ حرامٌ، أما اللهُ عَزَّوَجَلَّ فلهُ أن يحلفَ بما شاءَ.

الطلاقُ المعلَّقُ:

وهنا مسألةٌ فقهيةٌ: رجلٌ قالَ لزوجتِه: إن كلمتِ فلانًا فأنتِ طالقٌ، فكلمتْهُ، فهلْ تُطلَقُ أو لا تطلقُ؟

الجوابُ: تطلقُ، وهذا مذهبُ الأئمةِ الأربعةِ: مالكٍ، والشافعيِّ، وأبي حنيفةَ، وأحمدَ بنِ حنبلٍ، يقولونَ: إذا قالَ الرجلُ لزوجتِه: إن كلمتِ فلانًا فأنتِ طالقٌ. فكلمتْهُ طُلقتْ، وإن قالَ لها: إن خرجتِ مِن بيتِي فأنتِ طالقٌ. فخرجتْ، فإنها تطلقُ، فهو قالَ هكذا، والتزمَ إن خرجتِ فأنتِ طالقٌ، فإن خرجتْ فإنها تطلقُ.

ولكنْ بعضُ العلماءِ قالَ: إنما الأعمالُ بالنياتِ؛ لأن النبيَّ ﷺ قالَ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[1]. فنسألُ الرجلَ الذي قالَ لزوجتِه: إن كلمتِ فلانًا فأنتِ طالقٌ، أو إنْ خرجتِ فأنتِ طالقٌ. نسألُه: ماذا أرادَ، فهلْ تريدُ أن الزوجةَ بعدَ أن تكلمَ فلانًا لا رغبةَ لكَ فيها، أو تريدُ أن تمنعَها مِن كلامِ فلانٍ، فهو ربما يريدُ أن يمنعَها مِن كلامِ فلانٍ، لا أن يُطلقَها؛ لأنهُ يحبُّها، لكنْ أرادَ أن يُهيبها، وأن يؤكدَ عليها ألا تكلمَه، فيرَى بعضُ العلماءِ أن هذا ليسَ بطلاقٍ، وأنهُ يمينٌ.

وممنْ نصرَ هذَا القولَ نصرًا كبيرًا شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ[2]، قالَ: إن النبيَّ ﷺ يقولُ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»، وهذا لم ينوِ فراقَ زوجتِه، وزوجتُه

---

(١) أخرجه البخاري: بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، رقم (١٩٠٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٣/ ٢٢٥).

أغلى عندَه مِن ماءِ عيونِه، ولا يريدُ طلاقَها أبدًا، لكنْ لما كان الطلاقُ مكروهًا إليها علَّق طلاقَها على هذا الفعلِ لتكرَهه كما تكرهُ الطلاقَ.

ومعَ الأسفِ فإن كثيرًا منَ الناسِ اليومَ تساهلُوا في هذه المسألةِ، وصارَ يقولُ لزوجتِه: إن فعلتِ كذَا -لأدنى سببٍ- فأنتِ طالقٌ، ثم يذهبُ إلى العالمِ الفلانيِّ أو العالمِ الفلانيِّ ويقولُ لهُ: ما تقولُ؟ قالَ: أقولُ: هذا يمينٌ، وعليكَ كفارةُ يمينٍ، ولا تتركِ الزوجةَ.

ولكنْ مذهبُ الأئمةِ الأربعةِ أنهمْ يقولونَ: تُطلقُ، سواءٌ نوى اليمينَ أو نوَى الطلاقَ، ولذلكَ أحذرُ إخواني المسلمينَ مِن أن يتجرؤوا على هذا، فليتقُوا اللهَ في أنفسِهم وأهلِيهم.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصَحْبِه.



الدرسُ الثاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قال تَعَالَى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد:١-٢] إلى الآخر.

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ القَسَمُ تأكيدُ الشيء بِذِكْرِ عظيمٍ كأنَّ المُقْسِمَ يقول: لِعَظَمَةِ هذا الشيءِ أُؤَكِّدُ هذا الخَبَرَ. فإذا قلتُ لكم: طلَعَ الفَجْرُ. فهذا خبرٌ غيرُ مُؤَكَّدٍ، فإذا قلتُ: واللهِ لَقَدْ طَلَعَ الفجرُ، أصبح خبرًا مؤكَّدًا باليمينِ، وإن شئتَ قلتُ: القَسَمُ يؤكدُ الشيءَ، ولكن لا يؤكدُ إلا بعَظِيمٍ، كأن الحالفَ يقولُ: بِقَدْرِ عَظَمَةِ هذا الشيءِ الذي حَلَفْتُ به أؤكدُ لك الخَبَرَ.

فلنرجعْ إلى الآيةِ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ (لا) نافيةٌ، والواقعُ أنه إثباتٌ، وأن ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ بمعنى: أُقْسِمُ، وجاءت (لَا) للتوكيدِ والتَّنبيهِ، لأن مِنَ القَواعدِ المقرَّرةِ في البلاغةِ والنحوِ أَنَّ الحُروفَ الزائدةَ تُفيدُ التوكيدَ والتَّنْبِيهَ، فهنا (لَا) مِنْ حيثُ المعنى زائدةٌ، لكنِ الغَرَضُ منها التوكيدُ والتَّنبِيهُ، كأن اللهَ يقولُ: انْتَبِهُوا واسمعوا القَسَمَ.

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ ويعني بهذا البلدِ مكةَ، كَما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين:١-٣]، فهذا البلدُ أحبُّ البِقاعِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأشرفُ البِقاعِ، لا يوجدُ بُقعةٌ في الأرضِ أشرفُ مِن هذا المسجدِ، حتى

ما زِيدَ في المسجدِ فلَهُ حُكمُه، كان هذا المسجدُ في عَهْدِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أصغرَ بكثيرٍ مما هو عليه الآن، لكن قال أهلُ العِلمِ: ما زِيدَ في المسجدِ فهو منه.

﴿وَأَنتَ حِلٌّ﴾ أي ساكِنٌ ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد:٢] لأنه يجتمعُ شَرَفُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ أشرفُ بَنِي البَشَرِ، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ**»(١). وشَرَفُ المكانِ، أي أُقْسِمُ بهذا البلدِ وأنت يا محمدُ ساكِنٌ فِي هَذَا البَلَدِ، حالٌّ فِي هَذَا البَلَدِ.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد:٣] الواوُ الأُولى هي حرفُ عَطفٍ، ولا يصحُّ أَنْ تَكُونَ للقَسَمِ لأن الباء في قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ لا تدخلُ على الواوِ، والواوُ أَيْضًا لا تُذكرُ مع وجودِ فِعلِ القَسَمِ، إذن الواوُ في قولِه: ﴿وَوَالِدٍ﴾ حرفُ عَطْفٍ، يعني ولا أُقسم بوالدٍ وما وَلَدَ، يعني البَشَرَ، كُلُّهم والدٌ ومولودٌ، وغيرُ البَشَرِ مِنَ الحيوانِ أَيْضًا والدٌ ومولودٌ.

إذن، هذا الخَلْقُ العَظيمُ المُتَوالَدُ دليلٌ على قُدرةِ الخالِقِ عَزَّوَجَلَّ، وعِظَمُ المخلوقِ دليلٌ على عَظَمةِ الخالِقِ، فأنت لو رأيتَ بابًا مصنوعًا على شكلٍ جميلٍ عرفت أَنَّ الصانعَ لهذا البابِ حاذِقٌ، فعَظَمَةُ المخلوقِ دليلٌ على عَظَمَةِ الخالِقِ.

إذن، أقسَمَ اللهُ بالوالدِ وما وَلَدَ لأَنَّ هذا التوالُدَ بين المخلوقاتِ الحيوانيةِ لا شكَّ أنه دليلٌ على عظَمةِ الخالقِ، ولو ذَهَبْتَ إلى علماءِ الطبِّ، لوجدتَ في بَدَنِكَ العَجَبَ العُجَابَ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، يعني في أنفسِكم آياتٌ أفلا تُبْصِرُونَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨).

البَشَرُ أربعةُ أقسامٍ: موجودٌ بلا أُمٍّ ولا أَبٍ، وموجودٌ بأُمٍّ بلا أَبٍ، وموجودٌ بأَبٍ بلا أُمٍّ، وموجودٌ بين أَبٍ وأُمٍّ، وهذا غالبُ البشرِ.

فالموجودُ بلا أبٍ ولا أُمٍّ هو آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَقَهُ اللهُ مِن تُرابٍ، ثم قال له: كُنْ. فكانَ.

والموجودُ مِن أبٍ بلا أُمٍّ حَوَّاءُ، خُلقت مِن أَبٍ، وَهُوَ آدم، وبلا أُمٍّ.

والموجودُ مِن أُمٍّ بلا أَبٍ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، آخِرُ أنبياءِ بني إسرائيلَ، الذي رَفَعَهُ اللهُ إليه حَيًّا وسينزلُ آخِرَ الزمانِ، سينزلُ حاكمًا بشريعةِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يعني لن يأتيَ بشريعةٍ جديدةٍ؛ لأن آخِرَ الشرائعِ شريعةُ محمدٍ ﷺ، أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يجعلَني وإيَّاكُمْ مِنَ المتَمَسِّكِينَ بها.

والمخلوقُ بينَ أبٍ وأُمٍّ سائرُ الناسِ، فسائرُ الناسِ مخلوقون مِن أُمٍّ وأبٍ، فسبحانَ الذي خلَقَ فسوَّى، فهذا التقسيمُ إلى أربعةِ أقسامٍ، ويوجَدُ تقسيمٌ آخَرُ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٤٩] إي واللهِ، واللهِ لا مالِكَ سِوى اللهِ، ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ [الشورى:٤٩] هذا واحدٌ ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى:٤٩] اثنان ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ [الشورى:٥٠] يعني يُصَنِّفُهم ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ [الشورى:٥٠] هذه ثلاثة، والرابع ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى:٥٠].

فالناس الآن أربعةُ أقسامٍ، مِنَ النَّاسِ مَنْ يُولدُ له ذُكورٌ دونَ إناثٍ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُولدُ له إناثٌ دونَ ذكورٍ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُولَدُ له مِنَ الصِّنفين، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لا يُولَدُ له؛ لأن اللهَ له مُلكُ السمواتِ والأرضِ، يفعلُ مَا يشاءُ، وَهُوَ

يُجيرُ ولا يُجارُ عليه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد:٤] القرآنُ أعلى أنواعِ الفصاحةِ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ هذه الآيةُ جوابُ القَسَمِ، يعني هذا هو المُقْسَمُ عليه، المُقْسَمُ عليه بهذه المخلوقاتِ العظيمةِ هو هذا، حالُ الإنسانِ، يا أَيُّهَا الإنسانُ اعْرِفْ قَدْرَ نفسِك، أَقْسَمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بهذه الأمورِ العظيمةِ ليُبَيِّنَ حالَك: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ فالإنسانُ هو كلُّ الناسِ، واخْتَلَفَ العلماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في معنى قولِه: ﴿فِى كَبَدٍ﴾ فقيل: إن معناه في أحسنِ شيءٍ؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] وأصلُ الكَبَدِ الشيءُ المرتفعُ، فقالوا: إِنَّ الإنسانَ خُلِقَ كريمًا مرفوعًا إلا مَنْ أَعْرَضَ وتَوَلَّى. وقيلَ معنى ﴿فِى كَبَدٍ﴾ أي في مُكَابَدَةِ الأمورِ؛ لأن الإنسانَ يُكَابِدُ الأمورَ؛ في أمورِ الدنيا وأمورِ الآخرةِ وأمورِ الأهلِ وأمورِ المجتمعِ، إلا مَنْ مَاتَ قلبُه، فَمَنْ مَاتَ قلبُه فهو مَيِّتٌ، لكنَّ الإنسانَ حَيُّ القلبِ لا بُدَّ أَنْ يُكابِدَ الأمورَ، فأحيانًا يُصابُ بمرضٍ، وأحيانًا يُصابُ بفقرٍ، وأحيانًا يُصابُ بميتٍ عزيزٍ عليه، وأحيانًا يُصابُ بمشاكلَ في مجتمعِه، وأحيانًا يُصابُ بمشاكلَ في مجتمعِ المسلمين عمومًا، هذا واللهِ هو الواقعُ، الإنسانُ في مُكابَدَةِ الدنيا هذا هو الأصلُ، ولهذا يقولُ الشاعرُ الجاهليُّ، وَهُوَ صادِقٌ فيما قال[1]:

فَيَــوْمٌ عَلَيْنَـــا وَيَــوْمٌ لَنَــا ... وَيَــوْمٌ نُسَــاءُ وَيَــوْمٌ نُسَــرُّ

فهذا هو الواقعُ، قِسْ هذا في نفسِك، فتجدُ نَفْسَك يومًا مسرورًا مستأنسًا، وفي يومِ آخرَ بالعكسِ، وفي هَذَا يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ

(١) البيت للنمر بن تولب، كما في كتاب سيبويه (١/ ٨٦).

ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠] يشيرُ عَزَّوَجَلَّ إلى غزوةِ أُحدٍ، وأُحدٌ الجبلُ المعروفُ في المدينةِ، هذه غزوةٌ خَرَجَ النبيُّ ﷺ بنحوِ أَلْفِ رَجُلٍ، لكن فيهم المؤمنون وفيهم المنافقون، فرجع المنافقون في أثناءِ الطريقِ نحو ثُلُثِ الجيشِ، وبَقِيَ نَحْوُ سَبْعِ مِئَةِ نَفَرٍ، ودار القتالُ بين محمدٍ ﷺ أفضلِ قائدٍ مِنَ البشرِ وجنودُه أفضلُ جنودٍ مِنَ البشرِ، الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا معهم في جناتِ النعيمِ، وفي أولِ الأمرِ كَانَتِ الغَلَبَةُ للمسلمين، فجعلوا يجمعون الغنائمَ، وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَمَّرَ عَبْدَ اللهِ بْنَ جُبيرٍ على الرُّماةِ، وهم مَن يُجيدون الرميَ، وكانوا نحوَ خمسين رَجُلًا وقال: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ فَهَزَمُوهُمْ**»(١). فلما رَأَوْا هؤلاء الرُّماةُ أَنَّ الغنائمَ تُجمعُ غَلَبَهُمْ ما في نفوسِهم من إرادةِ الدنيا، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢] فقال أصحابُ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُبَيْرٍ: الغنيمةَ الغنيمةَ، ظَهَرَ أصحابُكم فما تنتظرون؟ فقال عَبْدُ اللهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ ما قال لكم رَسُولُ اللهِ ﷺ. قالوا: واللهِ لَنَأْتِيَنَّ الناسَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الغَنِيمةِ. فنزلوا وكان في قريشٍ فُرسانٌ أقوياءُ منهم خالدُ بنُ الوليدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، سيفُ اللهِ، فلما رَأَوا الثَّغْرَةَ خاليةً دَخَلُوا على المسلمين مِنَ الخَلْفِ، وحَصَلَ ما حَصَلَ حتى عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فِدَاؤهُ أبي وأمي ونفسي، شُجَّ وجهُه، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأُغْمِيَ عليه، وكان يومًا شديدًا، وشَاعَ في الناسِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، رقم (٣٠٣٩).

أَنَّ مُحَمَّدًا قُتِلَ، ومعلومٌ أنه إذا قُتِلَ القائدُ انهزمَ الجيشُ، ولكنه مِنَ الشيطانِ، فصَعِدَ النبيُّ ﷺ عَلَى أُحدٍ، هو وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ، أربعةٌ، فجعَلَ الجبَلُ يَرْتَجِفُ، اللهُ أكبرُ! سُبْحَانَ اللهِ! جَبَلٌ عظيمٌ أَصَمُّ يُضْرَبُ به المثَلُ صار يرتجفُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ»[1]، فسكنَ.

ولَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف يُخاطبُ النَّبِيُّ ﷺ الجمادَ؟

فالجوابُ: أَنَّ هذا لَيْسَ بغريبٍ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان يخطبُ الجُمُعَةَ على جِذعِ نخلةٍ في مسجدِه، ولما صُنِعَ له المنبرَ صَارَ يخطبُ على المنبرِ وتَرَكَ الجِذعَ، يقولُ الصحابةُ: فصار لهذا الجِذع حَنِينٌ مِثل حَنِين العِشارِ لِفَقْدِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فنزَلَ وجعَلَ يُسَكِّتُهُ كما تُسَكِّتُ الأُمُّ ولدَها فسَكَتَ[2].

وهذا موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كان بنو إسرائيل -وبنو إسرائيل تعرفون أنهم عُتاةٌ جُناةٌ- يَدَّعُون أن موسى فيه أَلَمٌ، أَنَّهُ آدَرُ -أي كبيرُ الخِصْيَةِ- وكانوا يُؤذونه ويُعَيِّرُونه بهذا، فنزَلَ ذاتَ يومٍ يغتسلُ ووَضَعَ ثَوْبَه على حَجَرٍ فهَرَبَ الحَجَرُ بالثوبِ، فجعَلَ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَرْكُضُ وراءَه ويقولُ: «ثَوْبِي حَجَرُ ثَوْبِي حَجَرُ»[3]. لكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ هُوَ الَّذِي أمشى هذا الحَجَرَ حتى كان في وَسَطِ بَني إسرائيلَ ورأوا موسى عُريانًا أحسنَ مَا خَلَقَ اللهُ وَبَرَّأَهُ مما يقولون لِيُرِيَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بأعيُنِهم أنهم كذَبُوا فيما ادَّعَوْا على موسى، ثم جعَلَ موسى يضربُ الحَجَرَ، لأنه جَنَى جنايةً

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»، رقم (٣٦٧٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النُّبُوَّة في الإسلام، رقم (٣٣٩٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ رقم (٣٢٢٣)، ومسلم: كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عريانا في الخلوة، رقم (٣٣٩).

عظيمةً، يأخذُ ثوبَ الرَّجلِ ويَفِرُّ به.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كيف ضَرَبَهُ موسى وَهُوَ جمادٌ؟

قُلنا: لأن هذا الحَجَرَ فَعَلَ فِعْلَ العاقِلِ، حيث هَرَبَ بالثوبِ، فجُعلت عقوبتُه عُقوبَةَ العاقلِ.

نرجعُ إِلَى قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران:١٤٠] استُشْهِدَ مِنَ الصحابةِ في تلك الغزوةِ سبعون نفرًا مِن سبعِ مئةٍ، فالنسبةُ عَشَرَةٌ في المئةِ، وهذه مصيبةٌ عظيمةٌ، مع ما أصابهم مِنَ الهلَعِ والحُزْنِ والغَمِّ، ولكن اسمعْ قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُسَلِّيًا الصحابةَ، قال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ [النساء:١٠٤]، ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي: الصحابة، ﴿فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: الكفار.

﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ وبعدها ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤]، فأنتم ترجُون مِنَ اللهِ ما لا يَرْجُونَ، تَرْجُون الجنةَ وهُم لا يَرْجُون ذلك لأنهم كفارٌ، ولذلك لما قام أبو سفيانَ يومَ أُحُدٍ وجعلَ ينادي: أفيكُم محمدٌ؟ قال النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُجِيبُوهُ» إهانةً له وإذلالًا، لأنه فِي ذَلِكَ الوَقْتِ كان سَيِّدَ قريشٍ مِنَ المشركين، قال: أفيكُمُ ابنُ أبي قُحَافَةَ؟ قال: «لَا تُجِيبُوهُ»، قال: أفيكمُ ابنُ الخطَّابِ؟ قال: أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُمْ فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَفْسَهُ فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللهِ، هَا هُوَ ذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَإِنَّا أَحْيَاءٌ، وَلَكَ مِنَّا يَوْمُ سَوْءٍ، فلما قال: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، والحَرْبُ سِجَالٌ. فيومُ بَدْرٍ قُتلَ مِنَ المشركين سبعون رَجُلًا وأُسِرَ سبعون، فالقتلى سواءٌ، ولكن زاد الأسرُ،

و(سِجالٌ) يعني تكونُ مرةً على هذا ومرةً على هذا، قال له عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لَا سَوَاءٌ قَتْلَانَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ.

فهذا معنى قوله تَعَالَى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ ثم ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

ثم قال أبو سُفيانَ مفتخرًا بآلهتِه الباطلةِ: اعْلُ هُبَلُ. وهُبَلُ صَنَمٌ كان يعبدُه المشركون، فمعنى: اعْلُ هُبَلُ، أي مِنَ العُلُوِّ والرِّفعةِ، فقال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لأصحابِه: «أَجِيبُوهُ»، في أولِ الأمرِ لما كان يتكلمُ عن النبيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وعمرَ قال: «لَا تُجِيبُوهُ»، ولكن هنا لما وصَلَ الأمرُ إلى ذي الجَلالِ والإكرامِ والعَظَمَةِ والسُّلطانِ قال: «أَجِيبُوهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ»[(١)]. صَدَقَ رسولُ اللهِ، اللهُ أعلى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وأَجَلُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، ولو شَاءَ اللهُ لَانْتَصَرَ منهم، ولكنِ اسْمَعْ كلامَ اللهِ في سُورةِ القتالِ: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤] والنتيجة ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد:٤-٦].

فهُزِمَ المسلمون وقائدُهم محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِحِكَمٍ عظيمةٍ، ذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُٱللَّهُ في (زادِ المعادِ في هدي خيرِ العِبادِ)، وَهُوَ كتابٌ جليلٌ فِقهيٌّ وتاريخيٌّ وأَدَبيٌّ أَحُثُّ كلَّ واحدٍ منكم على اقتنائِه، ذَكَرَ في قصةِ أُحُدٍ مصالِحَ عظيمةً وحِكَمًا عظيمةً[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، رقم (٣٠٣٩).

(٢) زاد المعاد، لابن القيم (٣/ ٢١١) وما بعدها.

أقول: بَارَكَ اللهُ فيكم: سببُ ما حصل في غزوةِ أُحدٍ معصيةٌ واحدةٌ وهي المخالفةُ، قال: ابْقَوْا في مكانكم. لكن ما بَقُوا، ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:١٥٢] فمعصيةٌ واحدة هُزِمَ فيها أعظمُ جُندٍ بأعظمِ قائدٍ، فماذا تقولون في حالِ المسلمين اليومَ؟! عندهم معاصٍ عظيمةٌ، فكيف نَرْجُو النصرَ وأسبابُ الهزيمةِ بين أَيْدِينا؟ واللهِ لن نَنْتَصِرَ إلا إذا أَتَيْنَا بالشرطِ الذي قاله اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠-٤١] فعاقِبَةُ الأمورِ لَيْسَتْ بِيَدِ فُلان وفُلان، ولا بِيَدِ الدولةِ الفلانيةِ ولا الفلانيةِ، بل بِيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ولو شاءَ اللهُ لَانتصرَ مِن أعدائِنا، ولكنَّ البلاءَ فينا الآن، إننا متفرقون لَسْنَا أُمةً واحدةً، بل هي أحزابٌ، أفكارٌ متعارِضةٌ، وعقائدُ متباينةٌ، فأين الأُلفةُ؟

إنك لو رأيتَ صاحِبَ مُنكرٍ ونصحتَه ربما يكونُ بينك وبينه معاداةٌ بحُجةِ أنك مِنَ القومِ الفُلاني، فما هذا؟ نحن أُمرنا إن تَنازَعْنَا في شيءٍ أَنْ نَرُدَّهُ إلى اللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ﴾ [النساء:٥٩]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ مُقْسِمًا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥] هذه واحدة ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء:٦٥] هذه الثانية، فلا تضيقُ نفوسُهم بما حكَمْتَ به يا محمدُ، والثالثة: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] انقيادًا تامًّا، ولهذا أَكَّدَ الفِعلَ بالمصدرِ فقال: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

وإذا تأمَّلْنَا حالَ الأُمةِ الإسلاميةِ اليومَ وَجَدْنَاهَا خاليةً مِن أكثرِ أسبابِ النصرِ، ولذلك فإن عددَ المسلمين اليومَ أكثرُ مِن مِليار، فما ظنكم بهذا المليارِ؟! لو كان أَفْرَاقًا مِنَ الجرادِ وَلَيْسَ الآدَمِيِّين وسُلِّطَ على اليهودِ لَأَكَلَهُمْ، ومع كثرةِ العَددِ عندنا مواردُ طبيعيةٌ عظيمةٌ مِن جوفِ الأرضِ، ومِن ظَهْرِ الأرضِ، ولكن مع الأسفِ الشديدِ لدينا إعراضٌ كبيرٌ عن أسبابِ النصرِ.

ولذلك أدعوكم مِن هذا المسجدِ، وفي هذه الأيامِ المباركةِ أن تكونوا كما قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة:٧١] اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا منهم يا رب العالمين.

وما هذه الاجتماعاتُ المشروعةُ إلا لتحقيقِ الوحدةِ، فالآن يجتمعُ المسلمون في هذه الأيامِ مِن بلادٍ كثيرةٍ، وأقطارٍ كثيرةٍ، وجِهات كثيرةٍ؛ لأجلِ أَنْ يعرفَ بعضُهم بعضًا، وينصحَ بعضُهم بعضًا، ويَأْلَفَ بعضُهم بعضًا، فربما لا تدري عني شيئًا، ولا أدري عنك شيئًا، لكن إذا جَمَعَنَا هذا المجتمعُ العظيمُ عَرَفَ بعضُنا بعضًا، وشَكَا بعضُنا إلى بعضٍ ما يجدُ في نفسِه مِن أمورٍ دينيةٍ، أو دنيويةٍ، أو اجتماعية، لكن الواقع تجد زِحامًا في الطواف، وزِحامًا في المسعى، وزِحاما عند الجِمارِ، لا يرحمُ بعضنا بَعْضًا، ولا يَهُمُّه أَحد، تجد الرَّجُلَ أمامه امرأةٌ عَجُوزٌ تمشي بِكُلِّ مَشَقَّةٍ لكن يطحنها طحنًا ولا يبالي، أو بِنت صغيرة، أو طِفل صغير، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(١)،

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٠، رقم ٦٤٩٤)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم (٤٩٤١)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، رقم (١٩٢٤)، وقال: حسن صحيح.

هؤلاء الناس اجعلهم كأنهم أولادُك، فارحمهم، واللهِ لو رَحِمْتَ مَن في الأرض لَرَحِمَكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ.

فالمسلمون اليوم لا يُحَقِّقُون ما أراد اللهُ مِن هذه الاجتماعات، وفي البلد الواحد يوجد اجتماعٌ عامٌّ في كل جمعةٍ، ويوجدُ اجتماعٌ خاصٌّ في كلِّ صلاةٍ، ولا نجدُ المسلمين إذا جاؤوا إلى صلاةِ الجُمُعَةِ وانصرفوا منها لا نجدُ قلوبَ بعضِهم مملوءةً بحبِّ الآخَرِين، ولكني أَسْأَلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يحققَ هذا.

حتى في الصلواتِ الخَمسِ، إذا جاء المسلمون إلى الصلواتِ الخَمسِ لا يتفقدُ بعضُهم بَعْضًا، لا يسألون: لماذا تَغَيَّبَ فلانٌ؟ هل هو مريضٌ؟ أو عنده دَيْنٌ يُطَالَبُ به فيَسْتَحِي أَنْ يُقابِلَ الغُرَمَاءَ؟ وما أشبَهَ ذلك، مَعَ أَنَّ الشرعَ إنما شَرَعَ ذلك لهذا الحكمِ.

فالحاصلُ أَنَّ الأُمةَ الإسلاميةَ اليومَ تحتاجُ إلى علماءَ يوجِّهُونها توجيهًا سليمًا، وإلى أُمَرَاءَ يُنَفِّذُون ما قال اللهُ ورسولُه، ولا يُعلَمُ ما قال اللهُ ورسولُه إلا عن طريقِ العلماءِ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩] فأُولو الأمرِ هُمُ العلماءُ والأمراءُ، العُلماءُ الذين يتولَّون أمرَ المسلمين ببيانِ الشريعةِ، والأُمـراءُ الذين لهم الحُكمُ فيُطَبِّقُون الشريعـةَ، فنحن مأمورون بطاعةِ هؤلاء وهؤلاء.

والعَجبُ أنَّ بَعْضَ النَّاسِ يقولُ: الأمراءُ لا طاعةَ لهم، أُولو الأمرِ هُم العُلماءُ فقط. ولكن هذا خطأٌ في الفَهمِ والتطبيقِ؛ لأن لقائلٍ أَنْ يقولَ: أُولو الأمرِ هُم الأُمَرَاءُ دُونَ العُلَماءِ. ونحن نقولُ: أولو الأمرِ هُم العلماءُ والأمراءُ، العلماءُ عليهم

بيانُ الشريعةِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧] والأمراءُ عليهم تنفيذُ الشريعةِ، وحينئذ لو أَنَّ كُلًّا منا قام بواجبِه لحصَلَ خيرٌ كثيرٌ.

الأُمَّةُ الإسلاميةُ في أولِ عمرِها نشأت نشأةً ضعيفةً، ثم بما معها مِن كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وسُنةِ رسولِه والعملِ بهما مَلَأَت أو عَمَّتْ مشارِقَ الأرضِ ومغارِبَها، فوصلُوا إلى الصِّينِ مِنَ الشرقِ، ووصلوا إلى أقصى الغَربِ، ولما دخلت الأهواءُ، وصار كثيرٌ مِنَ الناسِ يريدُ أَنْ ينصُرَ رأيَه بالباطلِ أو بالحقِّ تَفرَّقَتِ الأُمةُ وفَسَدَت، وصارت دُوَيْلاتٍ صغيرةً متفرقةً مَهِينَةً في أعيُنِ الأعداءِ، حتى سَمِعْنا أَنَّ بعضَ الكفارِ مِنَ النصارى واليهودِ يقولُ: يَجِبُ أَنْ يَكُونَ المسلمون والنصارى واليهود على حَدٍّ سَواءٍ. ويُسَمُّونَهُ وِحْدَةَ الأديانِ، أو التقارُبَ بينها، فسبحانَ اللهِ! لا يمكنُ هذا للمسلمين، صحيحٌ أَنَّ المسلمين عليهم أَنْ يوفوا بالعهدِ إذا عاهدوا، لا شكَّ، وهذا مِن تمامِ الإسلامِ ومَحاسِنِه، أما أن نجعلَ دِينَ النصارى واليهودِ دِينًا قِيَمًا مقبولًا عندَ اللهِ، لا واللهِ أبدًا، والذي يساوي بين هذه الأديانِ الثلاثةِ على خطرٍ عظيمٍ، يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ لماذا؟ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١] بعضُهم أولياءُ بعضٍ ضِدَّ المسلمين، لكن فيما بينهم هم مُتَعَادُون، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة:١١٣]، فهما عَدُوَّانِ، أما تجاهَ المسلمين فهم سواءٌ، فكيف يُمكِنُ أن نَقُولَ: إنَّ الدِّينَ واحدٌ، وَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]؟! وكيف

يُمكِنُ أن نَقُولَ: الأديانُ واحدةٌ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥]؟! فلا يمكنُ أَنْ يَقُولَ هذا مسلمٌ.

إِنَّ على أُدبائِنا، وعلى عُلمائِنا أَنْ يُبيِّنُوا أَنَّ هذا الفِكرَ خطأٌ وباطلٌ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ به أَحَدٌ مِنَ المسلمين، فدِينُ المسلمين غيرُ دِينِ اليهودِ، وغيرُ دِين النصارى، النصارى الآن يَدَّعُون أنهم يَتَّبِعُون المسيحَ، ولهذا سَمَّوْا أنفسهم بالمسيحيين بدلًا عن النصارى، نقول: لو أدرك المسيحُ محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَوَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يؤمنَ به، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١] وقال النَّبيُّ ﷺ لعُمَرَ بنِ الخطَّاب: «لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَا أَنْ يَتَّبِعَنِي»[١].

وفي ليلةِ المِعراجِ كان إمامُ الأنبياءِ الرسولَ محمدًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومع ذلك نقول: إن على النصارى أَنْ يؤمنوا بمحمدٍ ﷺ لأَنَّ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بَشَّرَ به، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، فهذا الرسول هو محمدٌ ﷺ، قال النصارى: الذي بَشَّرَ به عيسى اسمُه أحمدُ، وهذا اسمُه محمدٌ، لَيْسَ هذا الرسولَ الذي بَشَّرَ به عيسى، والرسولُ الذي بَشَّرَ به عيسى سيأتي.

نقولُ: أنتم إذا أقررتُم بأن هذه الآيةَ حَقٌّ فاقرؤوا الآية: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾

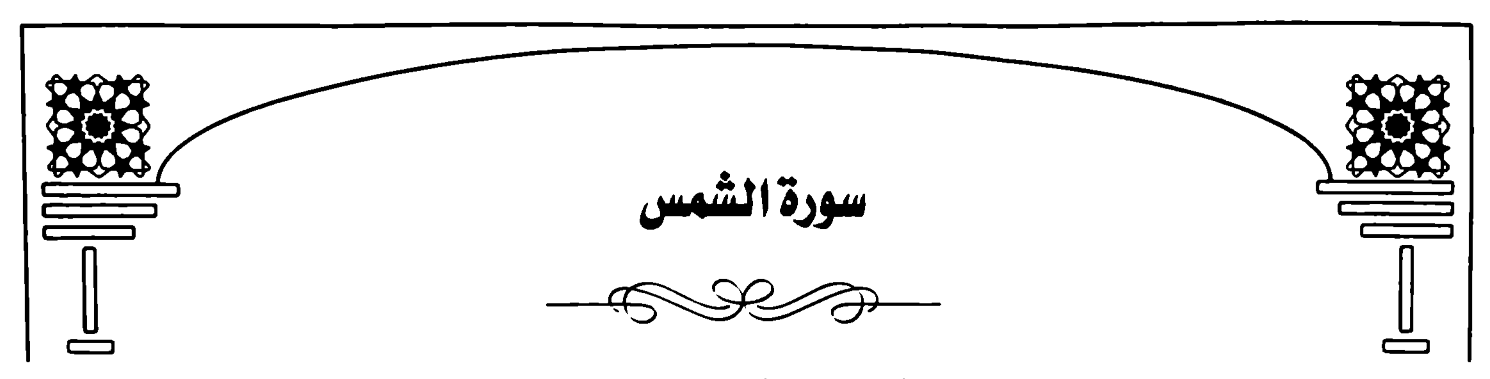
---

(١) أخرجه أحمد (٢٢/ ٤٦٨، رقم ١٤٦٣١).

[الصف:٦] فهل جاءكم أحدٌ غيرُ محمدٍ؟ و(جاء) فِعْلٌ ماضٍ يدُلُّ على وقوعِ المجيءِ، لكن مِن حكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ أَنْطَقَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَقُولَ (أحمد) بدل (محمد)، لأن (أحمد) اسمُ تفضيلٍ يَدُلُّ على عَظَمَةِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأنه أَحْمَدُ الناسِ للهِ، وأَحَقُّ الناسِ أَنْ يُحْمَدَ مِنَ البَشَرِ، هذا هُوَ الَّذِي جعَلَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ينطقُ بكلمةِ (أحمد)، حتى يعرفَ بنو إسرائيلَ أن محمدًا ﷺ أهلٌ أَنْ يُتَّبَعَ مِنْ أَجْلِ اسمِ التفضيلِ.

فعلى كُلِّ حَالٍ هَذِهِ فكرةٌ حدثت أخيرًا.





سورة الشمس

الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فإننا نَشْكُرُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَسَّرَ هَذَا اللِّقاءَ، الَّذِي نَرْجُو أن يَكُونَ مُبارَكًا فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ولقد اسْتَمَعْنَا إِلَى ما قَرَأَهُ إمامُنا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ فِي صَلَاةِ المَغْرِبِ فِي الرَّكْعَةِ الأُولى، وهو قولُه تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس:١].

نَتكَلَّم بما يَسَّرَ اللهُ عَلَى هذه السُّورةِ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ أَقْسَمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالشَّمْسِ؛ لأنها مِن آياتِ اللهِ تَعَالَى، كما سَبَقَ أن بَيَّنَّاه، أَقْسَمَ بها مَعَ أنها من المَخلوقاتِ، والقَسَمُ بالمخلوقاتِ علينا مُحَرَّمٌ، فلا يجوزُ للإِنْسَانِ أن يُقسِمَ بأيِّ مَخْلوقٍ، حتَّى النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لا يَجوزُ أن تُقْسِمَ به، فلا يَجوزُ أن تقول: ونَبِيِّ اللهِ، لقد كان كذا وكذا. هَذَا حَرَامٌ، ومن الشِّرْكِ.

ولا يَجوزُ أيضًا أن تُقْسِمَ بالكَعْبَةِ بيتِ اللهِ، فلا يجوزُ أن تَقُولَ: والكَعْبَةِ، لقد كان كذا وكذا.

ولا يجوزُ أنْ تُقْسِمَ بالسَّماءِ أو الأرضِ أو النُّجومِ أو غيرِها، ودَلِيلُ هَذَا قولُ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، رقم (٢٦٧٩).

وقال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ»(١).

فلا يَجوزُ أن يُقْسِمَ الإِنْسَانُ ببَلَدِهِ، ولا يَجُوزُ أَنْ يُقْسِمَ بعُروبَتِه، ولَا يَجُوزُ أَنْ يُقْسِمَ بأُمَّتِه، الحَلِفُ بغيرِ اللهِ شِرْكٌ، لكن هل هُوَ شِرْكٌ أكبرُ مُخْرِجٌ من المِلَّةِ، أم هُوَ شِرْكٌ أَصْغَرُ؟ نقول: الأرجحُ أَنَّه شِرْكٌ أَصْغَرُ، إِلَّا إذا اعتقَدَ الحالفُ بغيرِ اللهِ أنَّ لهذا المَحْلوفِ به من العَظَمَةِ مِثْلَما للهِ، فحينئذٍ يكونُ شِرْكًا أكبرَ؛ لأَنَّه أشْرَكَ معَ اللهِ تَعَالَى فيما يَخْتَصُّ به أَحَدًا غَيْرَهُ.

فإذا قالَ قائلٌ: فَهِمْنَا من هَذَا أَنَّ الحَلِفَ بغيرِ اللهِ شِرْكٌ، إما أكبرُ وإما أصغرُ، فكيفَ أقسمَ اللهُ بالشَّمْسِ؟ نَقولُ: إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَحْكُمُ ولا يُحْكَمُ عليه، كما أَنَّه يُجِيرُ ولا يُجارُ عليه، فالحُكْمُ للهِ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [الأنعام:٦٢]، والآياتُ فِي هَذَا كثيرةٌ، فإذا كان الربُّ عَزَّوَجَلَّ يَحْكُمُ ولا يُحْكَمُ عليه، فله أن يَحْلِفَ بما شاءَ من خَلْقِه، وله أن يَحْلِفَ بنفسِه، فقد حَلَفَ اللهُ بنفسِه، وحَلَفَ بمَخْلوقاتِه، وله الحُكْمُ فِي ذلك كما يَشَاءُ.

إذن، لا مُنافاةَ بينَ النَّهْيِ عن الحَلِفِ بغيرِ اللهِ وحَلِفِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بمَخْلوقاتِه، ووَجْهُ الجمعِ بين كونِ الحلفِ بغيرِ اللهِ شِرْكًا ومعَ ذلك يَحْلِفُ اللهُ تَعَالَى بالمخلوقاتِ هو أنَّ اللهَ يَحْكُمُ ولا يُحْكَمُ عليه، فلِلَّهِ أنْ يَحْلِفَ بما شاءَ من خَلْقِهِ.

حَسَنًا، لو سَأَلْتُكم: مَا حُكْمُ قَتْلِ الإِنْسَانِ ابنَه؟ لقُلْتُم: لا يَجوزُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يَقولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام:١٥١]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥، رقم ٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء:٣١]، وقَتْلُ الابنِ مِن أَعْظَمِ ما يَكونُ من قَطيعةِ الرَّحِمِ، لكن مَعَ ذلك فِي يومٍ من الأَيَّامِ كان قتلُ الابنِ طَاعَةً للهِ، كما هو الحالُ في قِصَّةِ إبراهيمَ الخليلِ، حيث أَمَرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يَذْبَحَ ابنَه الوحيدَ الَّذِي أتاه عَلَى كِبَرٍ وبَلَغَ معه السَّعْيَ، فرَأَى فِي المَنام أَنَّه يَذْبَحُه، ورُؤْيَا الأنبياءِ وَحْيٌ، فإذا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ شيئًا، فهو وَحْيٌ، ولهذا قَالَتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ**»[1].

رَأَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّه يَذْبَحُ وَلَدَهُ إسماعيلَ، فقال للابنِ -والابنُ فِي شَبابِهِ، صَغيرٌ-: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢]، بهذه اللَّطافةِ: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ لم يَقُلْ: يا إسماعيلُ، قال: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بهذه اللَّطافةِ والرِّقَّةِ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فكانَ جوابُ الابنِ: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾. ما أكرمَ الأبَ، وما أَكْرَمَ الابنَ، وإبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يَعرِضْ هَذَا عَلَى ابْنِهِ من أَجْلِ أن يَسْتَشِيرَه فِي أمرٍ أَمَرَهُ اللهُ بهِ، كَلَّا، واللهِ لَيُنْفِذَنَّ أَمْرَ اللهِ عَلَى كُلِّ حالٍ، لكن لِيَنْظُرَ ماذا عندَ هَذَا الابنِ.

فكان عندَه هَذَا الجوابُ العظيمُ: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ولم يَقُلْ: اذْبَحْنِي، بل نَبَّهَهُ عَلَى الإخلاصِ والطاعةِ: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، ومعلومٌ أنَّ الَّذِي أُمِر به هُوَ الذَّبْحُ، لكنَّ الابنَ لم يقل: اذْبَحْنِي، بل قال: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، من أجلِ أن يُنَبِّهَ أباه عَلَى أن يُنْفِذَ هذا؛ امْتِثالًا لأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثم قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فلم يَجْزِمْ، ولم يَقُل: سَتَجِدُني

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟، رقم (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦٠).

صَابِرًا، أو: مِن الصَّابِرِينَ، بل قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ الإِنْسَانَ إذا جزَمَ عَلَى الفِعْلِ خُذِلَ، قالَ اللهُ تَعَالَى لنبيِّه مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤]. فالابنُ قالَ لأَبِيهِ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولم يَجْزِمْ؛ لِئَلَّا يُخْذَلَ.

وهذه مَسْأَلَةٌ أُنَبِّهُكم عليها -بارك الله فيكم- وهي ألا تَجْزِمَ عَلَى شيءٍ مُسْتَقْبَلٍ إِلَّا أن تَقْرِنَه بمَشيئةِ اللهِ؛ لأنَّ الإِنْسَانَ قد يَجْزِمُ جَزْمًا أَكِيدًا عَلَى الفِعْلِ، ثمَّ لا يَفْعَلُ، إما لمَرَضٍ يَحْدُثُ له، أو لشَاغِلٍ يَشْغَلُه، أو لهِمَّةٍ انْصَرَفَتْ، أو لغيرِ ذلك، لكن قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ. يَسْهُلُ لك الأَمْرُ، وسَأُذْكُر لكم قِصَّةً تُبَيِّنُ لكم ذلك بعد أن نُكْمِلَ الكلامَ عَلَى الآيةِ.

قـولُه: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ [الصافات:١٠٣] يعني: اسْتَسْلَمَا لأَمْرِ اللهِ، وعزَمَا عَلَى التنفيذِ، ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣]، التَّالُّ هو إِبْرَاهِيمُ، والمَتْلُولُ هو إسماعيلُ، ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي: عَلَى جَبْهَتِه، وإنَّما تَلَّه عَلَى جَبْهَتِهِ لِئَلَّا يَنْظُرَ إِلَى وَجْهِ الابنِ حِينَ يَهْوِي بالسِّكِّينَ إِلَى رَقَبَتِه، فتَمْنَعُه الرِّقَّةُ، ولكن جَاءَ الفَرَجُ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذِي قالَ في كِتابِه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦] والذي قالَ عنه نَبِيُّه مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصرَ مع الصَّبْرِ، وأنَّ الفَرَجَ مع الكَرْبِ، وأنَّ مع العُسْرِ يُسْرًا»[1]، ولذلك قالَ الحَكِيمُ[2]: «اشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنفَرِجِي».

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧، رقم ٢٨٠٤)، والطبراني (١١/ ١٢٣، رقم ١١٢٤٣)، والضياء (١٠/ ٢٣، رقم ١٣).

(٢) هو أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف التوزري الأصل المعروف ابن النحوي، وقصيدته التي منها الشطر هي المنفرجة، انظر شرح المنفرجة (ص:٤٣).

في هَذِهِ اللَّحْظةِ الرَّهيبةِ جاءَ الفَرَجُ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ وناداهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ [الصافات:١٠٤-١٠٥] وأنفذْتَها، لكن أنْفَذَها حُكْمًا لا واقِعًا؛ لأنَّ اللهَ نَسَخَ وُجوبَ ذَبْحِ الابنِ.

والشَّاهِدُ من هَذِهِ القِصَّةِ أن الشَّيْءَ المُحَرَّمَ الَّذي من كِبائِرِ الذُّنوبِ إذا أَمَرَ اللهُ به يَكُونُ طَاعَةً، مَعَ أَنَّه من أَكْبَرِ الذُّنوبِ؛ لأننا نَحْنُ عبيدٌ للهِ يَفْعَلُ ما شاءَ، يَحْكُمُ علينا بالواجبِ سَمْعًا وطَاعَةً، وبالمُحَرَّمِ نَجْتَنِبُه سَمْعًا وطَاعَةً، وهَلُمَّ جَرًّا، فالربُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَاكِمٌ وليسَ مَحْكُومًا عليه، إذن فله أن يَحْلِفَ بما شَاءَ.

والقصةُ الَّتي وَعَدْتُكم أنْ أَقُولَها هِيَ أَنَّ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَحَدُ الأنبياءِ الكِرامِ الَّذينَ وَهَبَهم اللهُ الرِّسالةَ والمُلْكَ، فسُلَيْمانُ مَلِكٌ نَبِيٌّ، أعطاهُ اللهُ تَعالَى مُلْكًا لم يُعْطِه أَحَدًا غَيْرَه، فَسَخَّرَ له حتَّى الشياطينَ تَقُومُ بأَمْرِه: ﴿كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ [ص:٣٧]، فالذي يَبْنِي قُصورًا فَخْمةً عَظِيمةً، والذي يَغُوصُ فِي البَحْرِ ويأتي بالدُّرِّ وغَيْرِه من الجَواهِرِ العَظيمةِ، والقِسْمُ الثَّالثُ من الشياطينِ ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ [ص:٣٨] هَؤُلاءِ عُصاةٌ، فقَرَّنَهم سُلَيْمانُ بالأَصْفادِ، غَلَّ أَيْدِيَهم وأَرْجُلَهم؛ لأنَّ اللهَ أعطاهُ مُلْكًا عَظِيمًا، قالَ سُلَيْمانُ داعِيًا رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ [ص:٣٥]، ولما تَفَلَّتَ الشيطانُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَلاتِه، وأرادَ أن يُمْسِكَه النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويَرْبِطَه فِي سَارِيَةِ المَسْجِدِ يَلْعَبُ به الصِّبْيانُ وأهلُ المَدِينَةِ، لكن ذَكَرَ قولَ اللهِ عن سُلَيْمانَ: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ فتَرَكَه[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، والتعوذ منه وجواز العمل القليل في الصلاة، رقم (٥٤٢).

إذن، أعطى اللهُ سُلَيْمانَ مُلْكًا ونُبوَّةً، وفي يومٍ من الأَيَّامِ -وكان يُحِبُّ الجِهادَ- أَقْسَمَ وقالَ: «لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِغُلَامٍ يُقَاتِلُ فِي سَبيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ -أَوِ المَلَكُ-: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ، فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةٌ مِنْ نِسَائِهِ إِلَّا وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ غُلَامٍ، وَلَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ. لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لَهُ فِي حَاجَتِهِ»(١).

الَّذِي حمله عَلَى هَذَا رَغْبَتُه فِي الجِهَادِ، لكنه لَمْ يقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ؛ لأَنَّه كان عندَه عَزْمٌ أَكِيدٌ عَلَى أن يَفْعَلَ، فالذي مِن قِبَلِهِ حَصَلَ، والذي مِن قِبَلِ اللهِ لم يَحْصُلْ، فجامَعَ سبعين امرأةً، وأتت واحدةٌ منهن بشِقِّ إِنْسَانٍ، أي نِصْفِ إِنْسَانٍ، يعني ما حَصَلَ ولا واحدٌ من السبعين، اللهُ أكبرُ!

فقال نَبِيُّنا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لم يَحْنَثْ، وكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ». ولَقَاتَلُوا فِي سَبيلِ اللهِ.

إذن، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤]، وأنت لو حَلَفْتَ وقُلْتَ: واللهِ لَأَزُورَنَّ فُلَانًا اليومَ. هكذا، ومَضَى اليومُ ولم تَزُرْهُ، وَجَبَ عليكَ كفَّارةُ يَمِينٍ، لكن لو قُلْتَ: واللهِ لَأَزُورَنَّ فُلَانًا اليومَ إِنْ شَاءَ اللهُ. ولم تَزُرْهُ، فلا شَيْءَ عَلَيْكَ، مَعَ أن هَذِهِ يَغْفُلُ عنها كثيرٌ من النَّاسِ، فيَحْلِفُونَ بدُونِ أن يَقُولوا: إِنْ شَاءَ اللهُ، وهم إذا قَالُوا: إِنْ شَاءَ اللهُ، حَصَلَت لهم فائدتانِ عَظِيمتانِ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في اليمين، رقم (٦٧٢٠)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤).

الفائدةُ الأُولى: أنَّ اللهَ يُيسِّرُ لهم ما حَلَفوا عليه، كما قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ: «لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لم يَحْنَثْ».

الثَّانيةُ: أنَّه لو حَنِثَ ولم يُتِمَّ اليَمِينَ، لم تَكُنْ عليه كفَّارةٌ.

قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس:١] ضُحَاها: يعني ارْتِفاعَها فِي الأُفُقِ حتَّى يَحْصُلَ الضُّحَى، وهذا لا شَكَّ أنَّه من آياتِ اللهِ العَظِيمةِ.

قوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس:٢] أَقْسَمَ اللهُ بالقَمَرِ، لكنه مُقَيَّدٌ بقولِه: ﴿إِذَا تَلَاهَا﴾، ويكونُ القَمَرُ تَالِيًا للشمسِ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ؛ لأنَّه أَقْرَبُ ما يكونُ القَمَرُ إِلَى الشَّمْسِ وهو تَالٍ لها إذا كان فِي أَوَّلِ الشَّهرِ، وفِي آخِرِ الشَّهْرِ يَكُونُ قَرِيبًا، لكنه سَابِقٌ عليها، فيكونُ اللهُ تَعَالَى أَقْسَمَ بأَوَّلِ النَّهارِ، وأَقْسَمَ بأَوَّلِ الشَّهرِ، نأخذُ أنَّه أَقْسَمَ بأَوَّلِ النَّهارِ من قولِه: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ونأخذُ أنَّه أَقْسَمَ بأَوَّلِ الشَّهْرِ من قولِه: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ حيث يَكُونُ القَمَرُ تَالِيًا للشمسِ، وأَقْرَبُ ما يكونُ إليها، فأَوَّلُ ليلةٍ من الشَّهْرِ يكونُ القَمَرُ أقربَ إِلَى الشَّمْسِ من بَقِيَّةِ اللَّيَالِي، فإذا قالَ الإِنْسَانُ: ألم يَكُن القَمَرُ قَرِيبًا من الشَّمْسِ فِي آخِرِ الشَّهْرِ، فِي تسعٍ وعشرين؟ فالجوابُ أن هَذَا خارجٌ بقولِه: ﴿إِذَا تَلَاهَا﴾؛ لأنَّ القمرَ فِي آخِرِ الشَّهْرِ تتلوه الشَّمْسُ، ولا يتلوها هو.

قوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس:٣-٤]، النهارُ إذا جَلَّى البَسِيطةَ، وأَوْضَحَها، واتَّضَحَ ما كان خَفِيًّا فِي اللَّيْلِ، فهذا من آياتِ اللهِ، أنتم اليومَ فِي المُدنِ لا تَعْرِفونَ مِقْدارَ النَّهارِ، بسبب الأضواء والكهرباء، فلا يدري الإِنْسَان، لكن لو كنتم فِي البَرِّ وليسَ عندكم إِضاءةٌ، لوَجَدْتُم لظُهورِ النهارِ طَعْمًا لَذِيذًا، فالنهارُ يُجلِّي البَسِيطةَ، ويُوَضِّحُها، ويَتَبَيَّنُ به ما كان خَفِيًّا، الآن نَحْنُ فِي أَنْوارِ

عَظيمةٍ، لكن لا يُمْكِنُ أن نَرَى بهذه الأنوارِ ما نراه إذا طَلَعَتِ الشَّمْسُ، فحتَّى وإن كانت هناك أَنْوارٌ قَوِيَّةٌ، لكن لا تكونُ مثلَ الشَّمْسِ.

قولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ يعني: يُغَطِّيها، اللَّيْلُ -سُبْحَانَ اللهِ- لِباسٌ، كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ:١٠] يَسْتُرُ الأَرْضَ، ولا يَعْرِفُ الإِنْسَانُ قَدْرَ هَذَا اللِّباسِ إِلَّا إذا كان فِي الطَّائِرَةِ، إذا كان فِي الطائرةِ وقد غَابَتِ الشَّمْسُ عن الأرضِ، ونَظَرَ إِلَى الأرضِ فِي هَذِهِ الحالِ وَجَدَ كأَنَّها مُغَطَّاةٌ بعَباءَةٍ سَوْداءَ، سُبْحَانَ اللهِ! اللَّيْلُ يُغَطِّيها، وهذهِ من آياتِ اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ والَّذِي يَسْتَطِيعُ أن يَأْتِيَ بالنهارِ إذا ذَهَبَ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [الشمس:٥-٦] السَّماء وما بناها، هل (مَا) بمعنى (مَن)، فيَكونُ اللهُ تَعالَى أَقْسَمَ بالسَّماءِ وبمَن بَنَاهَا، وهو اللهُ، كما قالَ تَعالَى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ [النبأ:١٢]، أم (ما) في قولِه: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ، أي: والسَّماءِ وبِنايتِها؟ الجواب الثاني أَقْرَبُ، وأنها مَصْدَرِيَّةٌ؛ لأنَّ التعبير بـ(ما) بَدَلَ (مَن) فيمن له عِلْمٌ وإرادةٌ قَلِيلٌ، وعلى هَذَا نَجْعَلُ (ما) مَصْدَرِيَّةً، أي: والسَّماءِ وبِنَايَتِها.

وكذلك في قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ تكون: (ما) مَصْدرِيَّةً، و(طَحَاها) فَسَّرَهُ اللهُ فِي القُرْآنِ فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٠-٣١] هَذَا هُوَ طَحْوُها.

حَسَنًا، فإن سَأَلَ سَائِلٌ عَنِ الأَرْضِ هل هِيَ كُرَوِيَّةٌ أم غَيْرُ كُرَوِيَّةٍ، نقولُ له: هل لهذا السُّؤالِ فَائِدَةٌ؟ والَّذِي يُجِيبُ نُطالِبُه بالتَّعليلِ، فإن قالَ: فيه فَائِدَةٌ. نَقولُ

له: بَيِّنِ الفائدةَ، وإن قال: ما فيه فَائِدَةٌ. قُلْنا: حَسَنًا رُبَّما تأتي الفائدةُ.

ولِبَيانِ الفَائدةِ نَسْأَلُ سُؤَالًا: ماتَ رَجُلٌ فِي القَصِيمِ عن أَخِيهِ الذي لا يَرِثُه أَحَدٌ غيرُه وهو في المدينة، ومَاتَ الذي فِي المَدِينَة عن أَخِيهِ الَّذِي فِي القَصِيمِ ولم يكن له وارثٌ غَيْرُه، أَيُّهما الَّذِي يَرِثُ الآخَرَ، فهذان أخوان شَقِيقان، أَحَدُهما فِي المَدِينَةِ، والثَّاني فِي القَصِيمِ، مَاتَا عندَ غُروبِ الشَّمْسِ، أيهما يَرِثُ الآخَرَ؟

أقولُ -بارك الله فيكم-: يَرِثُ الَّذِي فِي المَدِينَة أَخَاهُ الَّذِي فِي القَصِيمِ؛ لأنَّ الشَّمْسَ تَغْرُبُ فِي المَدِينَةِ بعدَ غُروبِها فِي القَصِيمِ، وعلى هذا يَكونُ الوَارِثُ حَيًّا بعدَ مَوْتِ المُوَرِّث.

فهَذَا من فَائِدَةِ كَوْنِها كُرَوِيَّةً؛ لأنَّ الأرضَ لو كانتْ غَيْرَ كُرَوِيَّةٍ، لكانَ مَغِيبُ الشَّمْسِ فِي جَمِيعِ الأرضِ وَاحِدًا، فهذا دَلِيلٌ حِسِّيٌّ، وفيه فَائِدَةٌ.

يعني لو قالَ قَائِلٌ: ما الفائدةُ من كَوْنِنا نَعْرِفُ أنها سَطْحِيَّةٌ أو كُرَوِيَّةٌ؟

نقولُ: له فَوَائِدُ، منها هذه، ثُمَّ إنَّ الدَّلِيلَ المَحْسوسَ وَاضِحٌ، فلو أنَّ طَائِرَةً قَامَتْ مِن مَطارِ جَدَّةَ مُتَّجِهَةً نحوَ الغَرْبِ، وصارت بهذا الاتجاه، فإنها تَعودُ جَدَّةَ ولا بُدَّ؛ لأنها سَتَدُورُ عَلَى الأرضِ، هَذَا شيءٌ مَعْروفٌ، وليسَ فيه إشكالٌ، وقاله العُلَماءُ الأَقْدَمون، كابنِ حَزْمٍ، وشيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ، وغَيْرِهما، وليسَ فيه إشكالٌ.

وهناك أيضًا سُؤالٌ ثانٍ هُوَ الَّذِي أَرَى أَنَّه لا فَائِدَةَ من إضاعةِ الوقتِ فيه، وهو: هل الأرضُ تَدُورُ، أو لا؟ لا نقول: تدور، ولا نقول: لا تدور؛ لأنَّ البَحْثَ فِي هَذَا بحثٌ لا فَائِدَةَ منه -فيما أرى- وعلى هَذَا فتَرْكُه أَحْسَنُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٧-٨] هَذَا

القَسَمُ من أَعْظَمِ ما يَكونُ، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، يعني أن النُّفوسَ كُلَّها سَوَّاهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي أَحْسَنِ تَسْوِيَةٍ، وأَحْسَنِ تعدادٍ لقَبولِ الحقِّ أو رَفْضِه، ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ يعني بَيَّنَ لها الفُجورَ، وبَيَّنَ لها التَّقْوَى عَلَى أَيْدِي الرُّسلِ من وَجْهٍ، وعلى النُّفوسِ من وَجْهٍ آخَرَ، ولهذا قالَ ابنُ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيما يُروى عنه: «مَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ سَيِّئًا، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّءٌ»(١). النُّفوسُ مُلْهَمةٌ للفُجورِ والتَّقْوَى، تَعْرِفُ الفُجورَ وتَعْرِفُ التَّقْوَى، واللهُ تَعالَى هُوَ الَّذِي أَلْهَمَهَا، فمَن المُفْلِحُ؟ المُفْلِحُ هو: ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩] أي: زَكَّى نَفْسَه بأنْ قامَ بطَاعةِ اللهِ بفِعْلِ المأمورات وتَرْكِ المَنْهِيَّاتِ.

فقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: زَكَّى نَفْسَه وطَهَّرَها من أَدْرانِ المَعَاصِي والشِّرْكِ حَسَبَ الاستطاعةِ، إن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يُكَلِّفْنا ما لا نُطِيقُ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، إذن نَحْنُ مأمورون بأن نُزَكِّيَ نُفوسَنا ما اسْتَطَعْنَا.

والتَّزْكِيةُ للنُّفوسِ تكونُ في حَقِّ اللهِ، وحَقِّ الآدَمِيِّينَ، فالتَّزْكِيةُ لها فِي حقِّ اللهِ بأنْ تَقومَ بطاعةِ اللهِ، وأن تَتْرُكَ ما نَهَى اللهُ عنه بصَدْرٍ مُنْشَرِحٍ ونَفْسٍ رَاضِيَةٍ، والتَّزْكِيَةُ له بالنِّسْبَةِ للمخلوقين بأن تُعامِلَهم بما تُحِبُّ أن يُعامِلُوكَ به، هَذَا هو الميزانُ، أن تُعامِلَ النَّاسَ بما تُحِبُّ أَنْ يُعامِلُوكَ بِه، دَلِيلُ هَذَا قولُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(٢). فنَفَى النَّبِيُّ ﷺ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٨٤، رقم ٣٦٠٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، رقم (٤٥).

كَمالَ الإيمانِ حتَّى يُحِبَّ الإِنْسَانُ لأَخِيهِ ما يُحِبُّه لِنَفْسِهِ. وقالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ ويَدْخُلَ الجنَّةَ» وكلنا نُحِبُّ هذا، ونَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُعْطِيَنا إِيَّاهُ «فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ» هَذَا فِي حَقِّ اللهِ، «وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»[1]. وشَاهِدُنا على الكَلامِ الأَخِيرِ، وهو قوله: «وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»، فأنت الآن إذا وجدتَ أخاكَ فِي ضِيقٍ وحَرَجٍ، فقَدِّرْ نَفْسَكَ أنت الَّذِي فِي ضِيقٍ وحَرَجٍ حتَّى تُحاوِلَ أن تَرْفَعَ عن هَذَا الأخِ الضِّيقَ والحَرَجَ.

وإذا رَأَيْتَ اللهَ أَنْعَمَ عَلَى أَخِيكَ بنِعْمَةٍ فَافْرَح له؛ لأَنَّهُ لا يَتِمُّ إِيمانُكَ حتَّى تَفْرَحَ له، وإذا أردتَ أَنْ يُنعِمَ اللهُ عليكَ بنِعْمةٍ فأَحِبَّ لأخيك ما تُحِبُّه لنَفْسِك، على عَكْسِ الحَسَدةِ -والعِيَاذُ باللهِ- الَّذِينَ إذا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى غَيْرِهم بنعمةٍ كَرِهوا ذلك، وتَمَنَّوْا أن تَزُولَ، بل حالوا فِعْلًا أن يُزِيلُوها، فتَجِدُ الرَّجُلَ مَثَلًا يَتكَلَّمُ عن شَخْصٍ آتاهُ اللهُ تَعَالَى مَالًا، وصارَ هَذَا الرَّجُلُ يُنْفِقُ المالَ فِي سُبُلِ الخَيْرِ، فتَجِدُ الحَسَدَةَ تقول: واللهِ فُلَانٌ ما شاءَ اللهُ، يُنْفِقُ المالَ فِي سُبُلِ الخيرِ، لكنه يَكْذِبُ فِي المَقالِ بعضَ الأحيانِ، يَتحَدَّثُ بالكَذِبِ، ما الَّذِي جاء هَذَا لهذا؟!

ما دَامَ يُنْفِقُ أَمْوالَه فِي سُبُلِ الخيرِ فَأَثْنِ عليهِ، ولا تُجِبْ بـ(لكن)، لكنْ هَذِهِ تَقْطَعُ العُنُقَ، لكنَّ بعضَ النَّاسِ -والعِيَاذُ باللهِ- يَحْسُدُ مَن آتاهُ اللهُ تَعالَى خَيْرًا، فإذا ذَكَرَ الخَيْرَ أتى بالاسْتِدْراكِ بـ(لَكِنْ)، يقول الحَاسِدُ أو الحاقد: واللهِ هذا رَجُلٌ يُنْفِقُ المالَ بكَثْرَةٍ، وطَيِّبٌ، وخَيِّرٌ، لكن فيه كُذَيْباتٌ. يَجِيءُ بِها بالتصغيرِ، أو يقول: فُلَانٌ واللهِ طَيِّبٌ ويُنفِقُ كَثِيرًا فِي سُبُلِ الخَيْرِ، لكنَّه أَحْمَقُ، يَغْضَبُ عندَ كلِّ كَلِمةٍ. لكنه

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، رقم (١٨٤٤).

الحَسَدُ -والعِيَاذُ باللهِ- فهل ترضَى أنَّ أَحَدًا يَقْدَحُ فيك وأنتَ تَعْمَلُ الخيرَ؟ إذن، لا تَفْعَل أنتَ بأَخِيكَ. فَصَارَت تَزْكِيةُ النَّفْسِ فيما يَتَعلَّقُ بحقِّ اللهِ، وما يَتَعَلَّقُ بحقِّ الخلقِ.

زكِّ نَفْسَكَ مَعَ النَّاسِ، أَحْسِنِ الخُلقَ، أَحِبَّ لهم ما تُحِبُّ لنَفْسِكَ، أَعِنْهم عَلَى فِعْلِ الخَيْرِ، حَذِّرْهم عن فِعْلِ الشَّرِّ، كل هَذَا من وَاجباتِ الأخِ لأَخِيهِ.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:١٠]، أي: مَن أَهْلَكَها وحَرَمَها الخَيْرَ فهذا خَائِبٌ خاسِرٌ دُنْياهُ وأُخْرَاهُ.

قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس:١١]، ثَمُودُ هم قَوْمُ صَالِحٍ، ومَدَائِنُهم مَعْروفةٌ الآنَ فِي الحِجْرِ، هَؤُلاءِ كَذَّبوا وطَغَوْا -وسيأتي ذِكْرُ طُغْيانِهم- هَذِهِ المدائنُ الآن مَوْجودةٌ ومَعْروفةٌ، ويَكْثُرُ تَرَدُّدُ النَّاسِ إليها، لكن معَ الأسفِ فإن كثيرًا من النَّاسِ يَذْهَبُ إليها لِلاعْتِبارِ بقُوَّةِ هَؤُلاءِ القَوْمِ ونَحْتِهِمُ المَساكِنَ من الجبالِ، ويَرَوْنَ هَذَا من الآثارِ، وهذا -واللهِ- عَيْنُ الخَطَأِ، إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّ فِي طَرِيقِهِ إِلَى تَبُوكَ بهذِهِ المَدَائِنِ، فقَنَّعَ رَأْسَه -أي غَطَّاه- وخَفَضَه، وأَسْرَعَ السَّيْرَ، وقال: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»(١). فأين الَّذِينَ يَدْخُلون الآن عَلَى أهلِ المدائنِ باكين؟! هم قَلِيلونَ، وإن شئتَ فقُل: مَعْدُومون، فأَكْثَرُهم يَذْهَبُ للمشاهدةِ ولاستبيانِ قُوَّةِ هؤلاء، وهذا عَيْنُ الخَطَأِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، رقم (٤٢٣)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠).

فإنْ قالَ قائلٌ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ» وهذه الأُمَّةُ مَحْمِيَّةٌ أن تُصابَ بعُقوبةٍ عامَّةٍ، وهذا مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟

قُلنا: إنَّ قولَ الرَّسُولِ ﷺ: «أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ» لا يعني الرَّجْفةَ والصَّيْحةَ، ولكن يعني الاستكبارَ عن الحقِّ وقبولِه، فرُبَّما هَذَا الرجلُ الَّذِي ذهَبَ إِلَى هَذِهِ المدائنِ لِيَرَى قُوَّةَ هَؤُلاءِ القَوْمِ المُعَذَّبِينَ، رُبَّما يَقَعُ فِي قَلْبِهِ تَعْظِيمٌ لهؤلاءِ وآثارِهم، وحِينَئذٍ يَهْلِكُ كما هَلَكُوا؛ لأَنَّه إذا عَظَّمَهم فسَوْفَ يكونُ استكبارُهم فِي نفسِه قَلِيلًا، ويَتَسَلَّطُ عليه الشيطانُ، فيقول: هَؤُلاءِ عُذِّبوا عَلَى غيرِ ذَنْبٍ -والعِيَاذُ باللهِ- وحِينَئذٍ يَهْلِكُ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ قال: كيفَ يقولُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ» وهذه الأُمَّةُ مَحْروسةٌ أن يُصِيبَها عَذَابٌ عَامٌّ؟ فنقولُ: الإصابةُ هنا ليستْ إِصابةَ العُقوبةِ، بل إصابةُ التكذيبِ بالحقِّ، والاستكبارِ عنه، فقد يُبْتَلَى الإِنْسَانُ بهذا.

ولذلك أنا أَنْصَحُ إخواني الَّذِينَ يَذْهَبون إِلَى هَذِهِ الأماكنِ أَلَّا يَذْهَبوا إِلَّا بالشَّرطِ الَّذِي قالَه النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو أَنْ يَكونوا بَاكِينَ، فإن لم يكونوا بَاكِينَ فلا يَدْخُلوا عليهم، ولا يقربوهم.

قولُه: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ [الشمس:١١-١٢]، أي: أَشْقى هَذِهِ القبيلةِ، وأَشْقى هنا اسْمُ تَفْضِيلٍ، فـ﴿أَشۡقَىٰهَا﴾ يعني: أَشْقَى القومِ، فهو ليسَ فِعْلًا، ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾ يعني: لما طُلِب منه أنْ يَعْقِرَ الناقةَ، فعَقَرَها، وهو شَيْطَانُهم وكَبِيرُهم، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر:٢٩]، وهذه الناقةُ آيةٌ من آياتِ اللهِ أَعْطَاهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صَالِحًا؛ لِيَتَبيَّنَ أنَّه رسولُ اللهِ حَقًّا.

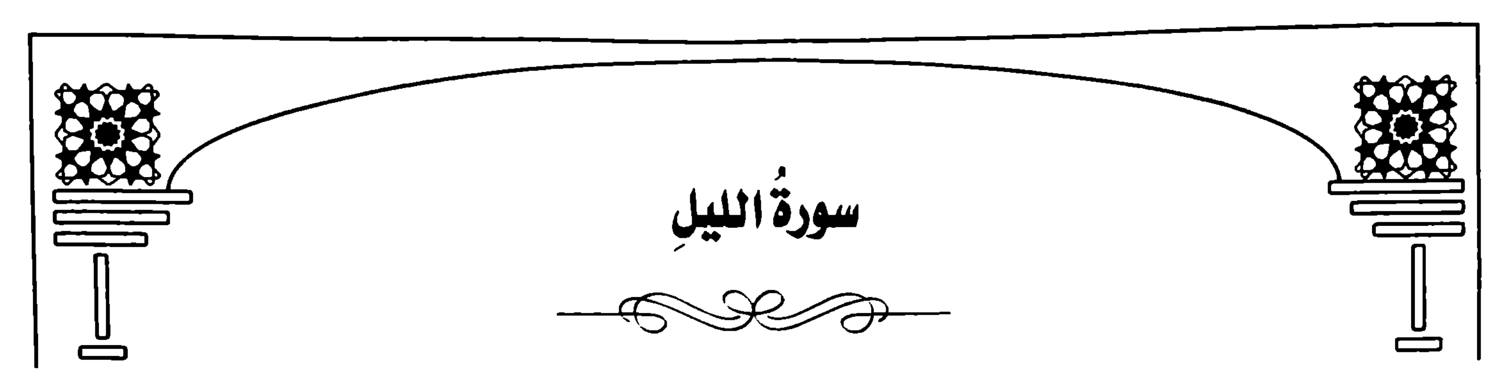
قال تعالى: ﴿نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥] تأتي إِلَى هَذَا البئرِ بئرِ الناقةِ -وهو مَعْروفٌ الآنَ بهذا الاسمِ- وتَشْرَبُ منه يَوْمًا كَامِلًا، وفي اليومِ الثَّاني لهم شِرْبٌ فِي هَذَا البئْرِ، قالَ بعضُ العُلَماءِ: إنها فِي اليومِ الَّذِي تأتي وتَشْرَبُ يأتي الإِنْسَانُ ويَسْقِيها دَلْوًا من ماءٍ ويَأْخُذُ بَدَلَهُ دَلْوًا من حَلِيبٍ، هَذِهِ من آياتِ اللهِ، فأعطاهم اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِهِ الآيةَ، لكنهم كَفَروا بها: عَقَروها، قالَ لهم نَبِيُّهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥]، فأُنذِروا بالعذابِ إنذارَ أمرٍ واقعٍ، فبَقُوا ثلاثةَ أَيَّامٍ، فأَخَذَتْهم الرَّجْفَةُ والصيحةُ حتَّى هَلَكُوا عن آخِرِهم.

قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس:١٣]، نُصبت: ﴿نَاقَةَ﴾ بتقدير: ذَرُوا، أي: ذروها تأكلْ فِي أرضِ اللهِ، فـ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ مَفْعولٌ لفِعْلٍ مَحْذوفٍ، أي: ذَرُوا ناقةَ اللهِ وسُقْيَاهَا، ولكنهم كَذَّبوه، ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس:١٤.] أي: مَحَاهَا حتَّى هَلَكُوا عن آخِرِهِم.

قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس:١٥] الفاعل فِي قولِه: ﴿يَخَافُ﴾ يعودُ عَلَى اللهِ مَنْ لا يَخافُ عاقِبَةَ هَذَا الأَمْرِ؛ لأنَّ الأَمْرَ إليهِ، يعني: لو أَنَّكَ مَثَلًا هَدَمْتَ بِناءَ شَخْصٍ، قد تخافُ العَاقِبَةَ، لكنَّ الربَّ عَزَّوَجَلَّ مَن ذا الَّذِي يُعاقِبُه حتَّى يَخَافَ مِن عَاقِبَةِ هَذَا الأمرِ؟! لا أحدَ.

وعلى هَذَا انتهى الكلامُ عَلَى هَذِهِ السُّورةِ العظيمةِ.





سورةُ الليلِ

الدرسُ الأولُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُهُ، ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ [الليل:١-١٣].

قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ إن اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أقسمَ بالليلِ إذا يَغشَى، أي إذا غطَّى البَسيطةَ، أي الأرضَ؛ لأن التغشيةَ بمعنى التغطيةِ، فهذا اللَّيْلُ بسوادِهِ إذا عمَّ الأرضَ صار كأنه غِطَاءٌ غطَّاها.

وأقسمَ به عَزَّوَجَلَّ حين يَغشَى؛ لأنَّه لا يَستطيعُ أحدٌ أن يأتِيَ بالليلِ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالَى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِ﴾؟ الجواب: لا أحدَ إلَّا اللهُ ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢].

قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل:٢] أي: إذا ظَهَرَ وبَانَ؛ لأن النهارَ يَظهَرُ ويَبِينُ إذا انْفلَقَ الصبحُ، وأقسمَ اللهُ به حين تَجلِّيه لأنَّه من آياتِه عَزَّوَجَلَّ؛ كما قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾؟ [القصص:٧١] الجواب: لا أحدَ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

فأقسمَ بشيئينِ متقابلينِ:

- الليل إذا يُغَطِّي.
- والنهار إذا يُجلِّي.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:٣] أيضًا أَقْسَمَ بخلقِه عَزَّوَجَلَّ لصنفينِ من بني آدمَ؛ هما الذكرُ والأنثى، والذكورةُ والأنوثةُ مُتقابلانِ.

والمُقسَمُ عليه أيضًا شيئانِ مُتقابلان: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤] أي: أَعْمَالُكُمْ متفرِّقةٌ، وقسَّمها اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى **قسمين أساسينِ:**

أولهما: قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧].

ثلاثةُ أشياءَ: (أَعْطَى) أي: بَذَلَ ما يجبُ عليه من عَمَلٍ أو مالٍ، و(اتَّقَى) أي: اتَّقى المحارمَ، و(صَدَّقَ بِالحُسْنَى) أي: صَدَّقَ بالقَوْلَةِ الحُسنَى، وهي قولُ اللهِ ورسولِه. والجواب: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وهذا وعدٌ ممَّن لا يُخلِفُ الميعادَ، أن الإنسانَ إذا اتصفَ بهذه الصفاتِ الثلاثِ: البَذْلِ، والتقوَى، والتصديقِ بما أخبرَ به اللهُ ورسولُه ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ السينُ هنا للتحقيقِ والتقريبِ. وقال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ بالنونِ

الدالَّةِ على الجمعِ، ولم يقلْ: فسأُيسِّرُه؛ لبيانِ أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ ذو عَظَمَةٍ عظيمةٍ، فهو الَّذِي يُعطِي مَن يشاءُ ويَحرِمُ من يشاءُ.

ولذلك تجدُ عملَ الإنسانِ المتَّصِفِ بهذه الصفاتِ يكونُ ميسَّرًا؛ إنْ أَصابَه ضُرٌّ صَبَرَ واحتسبَ الأجرَ واطمأنَّتْ نفسُه به؛ لأنَّه منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهو مطمئنٌّ به، وإنْ أَصابَه سَرَّاءُ شَكَرَ اللهَ وفرِح بذلك، وانْشَرَحَ صدرُه، فهو دائمًا أمورُه مُيسَّرةٌ، وتجدُ مَن لم يكنْ كذلك بالعكسِ، فتجدُه دائمًا في قَلَقٍ، ودائمًا في ضِيقِ صدرٍ، حتَّى يصلَ الأمرُ بأحدِهم إلى أن يَنْحَرَ نفسَه والعياذُ باللهِ.

فقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ هذا قِسمٌ وصنفٌ. وضِدُّه: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٨-١٠].

(أَعْطَى) ضِدُّ (بَخِلَ). و(اسْتَغْنَى) ضِدُّ (اتَّقَى) يعني اسْتَغْنَى بنفسِه ولم يُبالِ، ولم يَتَّقِ اللهَ. وقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ ضِدُّ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾.

إذن، المُقسَمُ به أربعةُ أشياءَ متقابلةٌ: الليلُ ويقابلُه النهارُ، والذَّكَرُ ويقابلُه الأنثى.

والمُقسَمُ عليه شيئانِ متقابلانِ أيضًا: عَمَلٌ صالحٌ وعَمَلٌ سيِّئٌ.

والجزاءُ أيضًا شيئانِ متقابلانِ: التيسيرُ لليُسرَى، والتعسيرُ، والعياذُ باللهِ.

كَانَ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلهِ وسلَّم- في جنازةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ، فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ».

اللهمَّ اجْعَلْنا من أهلِ الجنَّةِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا من أهلِ الجنَّةِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا من أهلِ الجنَّةِ، يا ربَّ العالمينَ.

فكلُّ إنسانٍ مَكتوبٌ مقعدُه؛ هو مِنْ أهلِ النارِ، أو مِنْ أهلِ الجنَّةِ، نعوذُ باللهِ من النارِ، نعوذُ باللهِ من النارِ، نعوذُ باللهِ من النارِ.

فلمَّا قال هذا قال الصَّحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ ما دامَ كلُّ إنسانٍ كُتبَ مقعدُه من الجنةِ، ومقعدُه من النَّارِ، إذن لا نعملُ، فكلُّ إنسانٍ مقعدُه معروفٌ ولا حاجةَ للعملِ.

فأجابهم الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بجوابٍ جامعٍ مانعٍ، لا يمكِنُ الجدالُ فيه، فقال: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**» ثمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[1].

فلا يمكنُ لإنسانٍ أن يقولَ: إن كان اللهُ قد قدَّر لي ولدًا فسيأتي وإنْ لم أتزوَّجْ، ولو قال هذا لقالوا: هذا مجنونٌ، إنَّ اللهَ يُقدِّرُ لكَ الولدَ إذا فعلتَ السببَ، فتزوَّجْ وابتغِ ما كتبَ اللهُ لكَ منَ الولدِ، أما أن يأتيَ ولدٌ بدونِ زواجٍ، فهذا لا يمكِنُ.

إذن، مَقعَدُ الجنَّةِ لا يُمكِنُ بلا عملٍ له، ومقعدُ النَّارِ لا يمكنُ بلا عملٍ له،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة والليل إذا يغشى، باب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾، رقم (٤٦٦٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ». اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا منهم يا حيُّ يا قيومُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا منهم يا حيَّ يا قيومُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا منهم، «وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ».

ثمَّ تلا قولَ اللهِ تَعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾. قَرَأَ ذلك استدلالًا لقولِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وتأييدًا لقولِه.

وفي هذا فائدةٌ عظيمةٌ، وهي أن رسولَ اللهِ ﷺ يَستدِلُّ بالقُرآنِ، مع أنَّه لا يَنطِقُ عنِ الهَوَى، لكن يستدلُّ بالقُرآنِ؛ لأن القُرآنَ دليلٌ لكلِّ إنسانٍ مؤمنٍ، والسنَّةُ دليلٌ لكلِّ إنسانٍ مؤمنٍ، فتلا النبيُّ ﷺ هذه الآيات استدلالًا لما قال وتأييدًا لما قال.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ ثلاثةُ أوصافٍ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ تَتعَسَّرُ عليه الأمورُ حتَّى وإنْ بُسِطَ له في الدنيا، ووُسِّعَ له في الرزقِ، وخَدَمَه الرجالُ، وخَدَمَ أهلَ بيتِه النساءُ، فإنه في عُسرَى، وفي ضَنْكٍ، وفي ضِيقٍ، لا يَعلمُ ما في قلبِه من حرِّ البلاءِ إلَّا هو؛ لأن هذا إذا فكَّرَ هل هذا النعيمُ الَّذِي هو فيه سيبقَى، فسيعرفُ أنه لا يَبقَى، بل الأمرُ كما قال الشاعرُ[1]:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً ... لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوْتِ وَالهَرَمِ

---

(١) البيت من الشواهد النحوية التي لا يعرف قائلها، انظر أوضح المسالك (١/ ٢٤٢)، وهمع الهوامع (١/ ١٧٧).

فكلُّ إنسانٍ مآلُه إلى أحدِ أمرينِ: إما موتٍ، أو هَرَمٍ، أي تَخريفٍ.

فمَن بَخِلَ بما يَجِبُ عليه بَذْلُهُ، واسْتَغْنَى بنفسِه عن تَقْوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وكذَّب بالحُسنى، أي بالصدقِ، وهو ما جاء في كتابِ اللهِ ورسولِه ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

والمانعُ للزكاةِ بخيلٌ. ومِنَ البخلِ أن يُذكرَ النبيُّ ﷺ عندَ الإنسانِ ولا يُصَلِّي عليه، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ، كما جاء في الحديثِ: «**الْبَخِيلُ الَّذِي مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**»[1]. اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ عليه، فكلَّما ذُكِرَ اسمُ الرَّسُولِ ﷺ فصلِّ عليه، والمصلحةُ للمُصَلِّي على الرَّسُولِ، فالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في غِنًى عَنْكَ، لكن أنتَ لستَ في غِنًى عن شَرِيعَتِه، وأنتَ إذا صليتَ عليه صلَّى اللهُ عليك بها عَشْرًا، إذن المصلحةُ لك.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ﴾ [الليل:١١] أي: ما يُغْنِي عن هذا البخيلِ ﴿مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: إذا هَلَكَ، فأيُّ شيءٍ يُغني المالُ إذا مَنَعَ الإنسانُ ما يَجِبُ بَذْلُه منه؟! لا شيءَ، بل هو ضَررٌ عليه، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ [آل عمران:١٨٠]، لا يُغْنِي شيئًا.

والعجيبُ -يا إخواننا- أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَلقَى على أصحابِه لُغزًا، قال: «**أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِ وَارِثِهِ. قال: «**فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ**»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب قَوْلِ رَسُولِ الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ»، رقم (٣٥٤٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما قدم من ماله فهو له، رقم (٦٤٤٢).

فإذا تَصَدَّق الإنسانُ من مالِه فهذا المالُ الذي أَخْرَجَه من المالِ له، فإنسانٌ عنده عشَرةُ آلافٍ، وتَصَدَّقَ بألفٍ، فالمال الَّذِي هو الألفُ له وليس للوارثِ؛ لأَنَّه قدَّمه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٠]. فإذا مات وكان الباقي تِسْعَةَ آلافٍ، فهذه التسعةُ للورثةِ.

إذن، مالُك ما قدَّمتَ، ومالُ وارثِك ما أَخرتَ، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من المالِ، فهو كان بخيلًا لا يُنفِقُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى مؤكِّدًا هذه المقالةَ: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، ولا يمكن أن يُعاد ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل:١٢-١٣] ما أحلمَ اللهَ، ما أرحمَ اللهَ، ما أكرمَ اللهَ، ما أجودَ اللهَ! ﴿إِنَّ عَلَيْنَا﴾ (على) للوجوبِ، ﴿لَلْهُدَىٰ﴾ اللامُ للتوكيدِ، و(إن) للتوكيدِ، أوجبَ اللهُ على نفسِه أن يَهديَ الخلقَ، لكن هدايةَ دلالةٍ، فكلُّ الخلقِ أوجبَ اللهُ على نفسِه أن يهديَهم وأن يَدُلَّهم على الحقِّ، لكنَّ التوفيقَ بيدِ اللهِ، فالتوفيقُ شيءٌ والدلالةُ شيءٌ آخرُ، فأوجبَ اللهُ على نفسِه أن يَهديَ الخلقَ ويبيِّنَ لهم.

وهذا كما في قوله تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:٢٦]. فأوجبَ اللهُ على نفسِه أن يُبيِّنَ وأن يهديَ الخلقَ، فيبيِّنُ لهمُ الحقَّ، لكن لا يَلزَمُ من هذا أن يَهتديَ الخلقُ كلُّهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ

ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل:٣٦]، لكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لا بُدَّ أن يُبيِّنَ للعبادِ، فأَرْسَلَ الرسلَ: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

قوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ (لنا) مقابل (على)، فبيَّن عَزَّوَجَلَّ أنَّه مِن حيثُ الشرائعُ قد بيَّنها والتزمَ ببيانِها سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أما مِن حيثُ المُلْكُ فله الآخِرةُ والأُولى.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرسُ الثاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:١-٤].

الواوُ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ حرفُ جرٍّ وقسمٍ، أيْ: إنَّ اللهَ تعالى يُقسمُ بِالليلِ حِين غَشَيانِه الأرضَ، وتَغطيتِهِ الأرضَ، وهذهِ آيةٌ عظيمةٌ لا يقدرُ عَلَيها إلَّا اللهُ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢].

قالَ اللهُ تَعالَى:﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل:٢]، أَي: ظهرَ وَبانَ، وهذهِ آيةٌ عظيمةٌ، مَن يَأتي بِالنهارِ إِذَا ذَهبَ اللَّيْلُ؟ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لَوِ اجتمعَ الخلقُ كلُّهم مِن جنٍّ وإنسٍ ومَلائكةٍ وغيرِهمْ عَلى أنْ يَأتوا بِهذا النهارِ لَمْ يَتمكَّنُوا مِن ذلكَ، ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ [القصص:٧١]، فأقسمَ اللهُ بِالليلِ وَبِالنهارِ، قَسمًا بينَ شَيئينِ مُتَضادينِ.

ثمَّ أَردف هذَا القسمَ بِقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:٣]، و(ما) هنَا اسمٌ

موصولٌ بِمَعنى الذِي، يَعْني والذِي خَلَقَ الذَّكرَ والأنثى، وهوَ اللهُ، وهوَ واحدٌ.

وقدْ تكونُ (ما) مَصدريةٌ، أَيْ: وخَلَقَ الذَّكَرَ والأنثى مِن أجلِ أنْ يكونَ هناكَ مُقابلةٌ بَيْنَ الزَّمانِ وبينَ الخلقِ، الزمانُ اللَّيلُ والنهارُ، والخلقُ الذَّكرُ وَالأُنْثى، وإذَا جَعَلناها اسمًا مَوصولًا صارَ عطفَ مفردٍ عَلى اثنينِ؛ لأنَّ الخالقَ واحدٌ.

لكنْ مَع ذلكَ يَصِحُّ أنْ تكونَ (ما) اسمًا موصولًا، ويكونُ التعددُ بِاعتبارِ المخلُوقِ، لَا بِاعتبارِ الخالقِ، وَالمخلوقُ هُوَ ذكرٌ وأنثى، وهمَا مُتقابلانِ، فأقسمَ اللهُ تعالى بِاثنينِ مُتضادينِ فِي الزمانِ وَفِي الذَّواتِ، فَالمقسمُ عليهِ اثنانِ مُتَضادانِ فِي العملِ.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤]، ولْيَتَأَمَّلِ الإنسانُ لِيربطَ بَيْنَ المقسَمِ بهِ والمقسَمِ عليهِ منْ تدبرِ القرآنِ ويَظهرُ فيهِ منْ آياتِ القرآنِ مَا لَا يَظهرُ لِلغافلِ، مَا خَلَقَ الذكرَ والأنْثى مِنَ البشرِ، أَو منَ الجنِّ، أَو منَ البَهائمِ، أَو منَ الوُحوشِ، أَو منَ الحشَراتِ، مِنْ كلِّ شيءٍ، حتَّى الأشياءَ الَّتي فِيها ذكورٌ وإِناثٌ، فِيها ذكورٌ تَلقحُ الإناثَ، النخلُ إذَا لمْ يلقحْ لَم ينفعْ.

وَلِهَذَا لما قدمَ النبيُّ ﷺ المدينَةَ، وكانتِ المدينةُ ذاتَ نخيلٍ، ومكةُ لَا نخلَ بِهَا، رَأَى الناسَ يَأخذونَ منْ طلعِ الفحالِ، ويَضعونَ فِي ثمارِ النَّخلِ، قالَ: «مَا أظنُّ ذلكَ يُجدي شَيئًا»؛ وذلكَ لأنَّه ﷺ لمْ يكنْ يَعْهَدُ هذَا الشيءَ، فتركَ الصَّحابةُ هذَا، قَالوا: مَا دامَ لَا يُجدي كَما يقولُ الرَّسولُ ﷺ فلا يَنْبغي أنْ نَفعلَهُ، فَلما لمْ يَفْعَلُوا فسدَ الثمرُ، فَجَاؤوا لِلرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقالَ لهمْ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»[1].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا...، رقم (٢٣٦٣).

وهوَ ﷺ أعلمُ منَّا بأمورِ دِينِنَا.

إذن؛ الذكرُ والأنثَى هنَا منْ كلِّ شيءٍ كَما قُلنا آنفًا.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ السعيُ هُنا بِمَعنى العملِ، لَا بِمَعنى الجريِ بشدةٍ، وهوَ يطلقُ -أَعْنِي السعيَ- تارةً عَلى الجريِ بِشدةٍ، كَقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَأْتُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ تَسْعُونَ»(١). يعنِي تَجرون بشدةٍ، وتَارةً يُرادُ بِالسعيِ مُطلقُ العملِ، كَقَوله تَعَالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]، فَالمقصودُ بِالسعيِ هُنا أَيِ: العملُ، ومَعنى ﴿لَشَتَّىٰ﴾ أَي: مُتفرقٌ ومختلفٌ، لَا فِي الدِّينِ؛ بلْ فِي الدنيَا، فهذَا مزارعٌ، وهذَا تاجرٌ، وهذَا بنَّاءٌ، وهذَا حدادٌ، وهذَا نجارٌ، فَهُوَ سَعيٌ مُختلفٌ؛ لأنَّ النَّاسَ لَو كَان سَعيُهم وَاحدًا لَتعطَّلتِ المصالِحُ.

لَو قدَّرْنَا كلَّ الناسِ بَنَّائِينَ، من يَصْنَعُ القدورَ وَالأَواني؟! وَكَذَلك لَو قدَّرنا أنَّ كلَّهم مُزَارعون؛ مَن يَأتِي بِبَضائعَ مِنَ الأسواقِ؟! كَذَلك كلُّهم تُجارٌ مَن يزرعُ؟! لكنْ لحكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ جعلَ سَعْيَنَا مختلفًا، كلٌّ يَسعى حَسَبَ مَا يُقَدَّرُ لهُ مِن أجلِ أنْ تُعَمَّرَ الدُّنيَا.

كَذَلك فِي الدِّينِ، ومَا أعظمَ التفرقَ فِي الدِّينِ! ومَا أَكثَرَ التفرقَ فِي الدينِ! رجلٌ -وَالعياذُ بِاللهِ- خلقٌ لِلكفرِ وَالاستكبارِ وَالجُحودِ، ورجلٌ آخرُ مؤمنٌ؛ لكنَّهُ يغلبُ عليهِ جانبُ العبادَةِ معَ الجهلِ، وآخرُ مُؤمنٌ عَابدٌ يَغْلبُ عليهِ جانبُ العلمِ؛ لكنَّهُ لَيس كَالأولِ فِي العبادةِ، وَالثَّاني جَامعٌ بَيْنَ الأمرينِ علمٍ وعبادَةٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب قول الرجل: فاتتنا الصلاة، رقم (٦٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، رقم (٦٠٣).

رجلٌ سيِّئُ الخلقِ، مُستكبرٌ، فَخورٌ، مختالٌ، وآخرُ بِالعكسِ، حَسَنُ الخُلُقِ، مُتواضعٌ للخَلْقِ، مُتواضعٌ للحقِّ، بشوشٌ، يبدأُ بِالسلامِ، ويردُّ السلامَ بِطلاقةٍ، وهلمَّ جرًّا.

تجدُ أيضًا رجلًا حَريصًا عَلى اتباعِ السُّنةِ، سنةِ رسولِ اللهِ ﷺ، لَا يَبيعُها بأيِّ ثمنٍ، لَا فِي العَقيدةِ، ولَا فِي العملِ، ولَا فِي الفعلِ، ولَا فِي التركِ، يَمْشي مَع هَدْيِ النبيِّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عقيدةً وقولًا وفعلًا وتركًا، وآخرَ بِالعكسِ، مبتدعٌ، يقولُ فِي دينِنَا مَا ليسَ فيهِ، يفعلُ مَا لمْ يؤمرْ بهِ، يتركُ مَا أُمِرَ بهِ، بَيْنهما فرقٌ عظيمٌ.

وأعظمُ شيءٍ فِي ذلكَ هو الانحرافُ فِي العقيدةِ، فَالانحرافُ فِي العقيدةِ أخطرُ مَا يكونُ، ونَضربُ لكمْ مثلًا فِيما عَلَيه كثيرٌ منَ المتكلِّمينَ، حيثُ لَا يُقِرُّونَ بِكثيرٍ منْ صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يُقِرُّونَ بِصفاتٍ معدودةٍ لَا تبلغُ عددَ أصابعِ اليدينِ، ويُنكرونَ الباقِي، لكنَّ إِنْكارَهم إيَّاها لَيس إنكارَ تَكذيبٍ؛ بَل إنكارُ تأويلٍ؛ لأنهُ لَو كان إِنكارَ تَكذيبٍ لَكَفَروا؛ لكِنَّه إنكارُ تأويلٍ، فَقَد يُعذروا فِيهِ، وقَد لَا يُعْذروا، وأضربُ لكمْ مَثلًا أبينُ لكمُ الفرقَ بينَ إِنكارِ التكذيبِ وإِنكارِ التَّأويلِ:

رجلٌ قالَ فِي تفسيرِ الآيةِ الَّتي أشرنَا إِلَيها قبلَ قليلٍ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦]، قالَ: هيَ النظرُ إِلَى وجهِ اللهِ، قالَ: والمرادُ بِالنظرِ إِلَى وجهِ اللهِ: النظرُ إِلَى ثوابِ اللهِ، أَيْ: إِلَى مَا أعدَّ اللهُ فِي الجنةِ. فهذَا قَد أقرَّ بِالنظرِ إِلى وجهِ اللهِ، وَلَمْ يَقلْ: إنَّهُ لَيس بنظرٍ؛ ولكنَّهُ أَوَّل تأويلًا فَاسدًا؛ لأنَّ هناكَ فَرْقًا عظيمًا بينَ من يقولُ: النظرُ إِلى وجهِ اللهِ، والنظرُ إِلى نعيمِ اللهِ. وبين من يقولُ: أَبدًا لَا يَنظرونَ إِلَى وجهِ اللهِ، هذَا نقولُ لهُ: إنَّك كافرٌ؛ لأنَّه كذبٌ، والذِي يقولُ: ينظرونَ إِلَى وجهِ اللهِ

لكنَّ المرادَ بِذَلك النظرُ إِلَى ثوابِهِ، هَذا مُؤَوِّلٌ.

والمؤولُ لهُ دَرَجاتٌ، تَارة نُنْزِلُ تَأويلَه إِلَى مَا لَا يَكونُ سَائغًا لغةً ولَا شَرعًا، وهذَا فيهِ حكمُ التكذيبِ، وتارةً يكونُ لهُ وجهٌ سائغٌ، إمَّا فِي اللغةِ، أَو فِي نصوصٍ أُخْرَى تَشْتمل عَليه، وهَذا ليسَ فِيه حكمُ التكذيبِ.

فَمثلًا قولُهُ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، قالَ بَعْضُهم: استَوى يَعْني استولَى. وقالَ البعضُ الآخرُ: لَا، لَمْ يَسْتَوِ عَلى العرشِ. والثالثُ قَال: استَوى بِمَعنى علَا عَلى وجهٍ يليقُ بِجَلاله وَعَظَمته. فهذِهِ رِوَاياتٌ ثلاثٌ، فَالَّذي قالَ: لَمْ يستوِ عَلى العرشِ؛ هذَا مكذبٌ، كافرٌ، والَّذِي قالَ: استوَى عَلَى العرشِ بِمَعْنَى استَوْلى. هَذَا مُؤولٌ، والَّذي قَالَ: استوَى بِمَعنى عَلا علَى وجهٍ يَليق بِجلالهِ وَعَظمته، لا نُكَيِّفُ ولا نُمَثِّلُ؛ فهَذا سلفيٌّ، عَلى مذهبِ النبيِّ ﷺ وأَصحابِهِ، إذْ لَم يقلْ أَحدٌ منَ الصحابةِ: إنَّ استوى بِمَعنى استَولى، أبدًا؛ بَل كَانوا يَقُولون: استَوى أَي: عَلا عَلى عرشهِ عَلَى وَجهٍ يليقُ بِهِ، لَا نُكَيِّفُ ولَا نُمَثِّلُ.

فَالمقصودُ بِالسعيِ فِي قولهِ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ أَيِ: العملُ.

فإنْ قيلَ: مَا مُطابقةُ القسمِ يَعْنِي المقسَمَ بِهِ لِلمقسمِ عَليهِ؟

قُلنَا: المطابقَةُ ظَاهرةٌ جدًّا، أَقسمَ اللهُ بِأشياءَ مُتضادةٍ: ليلٍ ونهارٍ، ذكرٍ وأنثَى، السعيُ أيضًا مُتضادٌ، إِيمانٌ وكفرٌ، مَعاصٍ واستقامةٌ، وهَكَذا.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾، هذَا تفصيلُ التفرقِ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧]، هَذه الآيةُ جَمعت فعلَ الأوامرِ، وتركَ النواهِي، وتَصديقَ الأخبارِ، وهَذَا هو الشرعُ، الشَّرعُ أَوامرُ، ونَواهٍ، وأَخبارٌ، هذه الآيةُ تَتضمنُ

الثلاثَة، فإمَّا أنْ يُخْرِجَ منْ مالهِ كَالصَّدقةِ وَالزَّكاةِ، أَو يَبْذُلَ جهدَهُ كَالأعمالِ البَدنيةِ مثلِ الصَّلاةِ وَغيْرِها.

ومَعْنَى: ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ أَي: اتَّقى المعاصِي، أَي: تجنَّبها، ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أَي: صدَّق بقولِ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، فَهيَ الخبرُ الصَّادقُ.

بِهذا تكونُ الآيةُ قدِ اشتملتْ عَلى الدِّينِ كلِّهِ، فِعْلِ الأوامرِ فِي قولهِ: ﴿أَعْطَىٰ﴾؛ لأنَّ الإعطَاءَ بِمَعنى البذلِ، أَيْ: بذلُ المالِ والنفسِ، وأيضًا تركُ النواهِي فِي قولهِ: ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾، وأيضًا التَّصديقُ بِالأخبارِ فِي قولِهِ: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾، إذن جمعتِ الدِّينَ كلَّهُ.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٧]، التيسيرُ هُنا هو تحققُ الأمرِ مَع قربهِ، فَالسينُ تدلُّ عَلى أنَّ الأمرَ متحققٌ، وأنَّه قريبٌ، فَجوابُ الشرطِ فِي قولهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾، هو قولهُ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾، والفعلُ فِي قَولهِ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ عائدٌ إِلَى اللهِ، وإنما قَالها بنونِ الجمعِ، وَلَمْ يَقلْ: أُيَسِّره؛ لأنَّ هذَا جمعٌ لِلتعظيمِ، وقدِ استدلَّ النصرانيُّ بِهذِهِ الآيةِ عَلى تعددِ الآلهةِ، حيثُ قالَ: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ، وقالَ: دليلي قولهُ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾، وهذَا للجمعِ.

فكيفَ يقولُ هـذَا ويـتركُ قـولَهُ تَعالَى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة:٧٣]؟! هلِ اتبعَ المتشابهَ وتَركَ المحكَمَ، أَو أخذَ بِالمحكمِ وحملَ المتشابهَ عليهِ؟

والجوابُ: أَنَّهُ اتبعَ المتشابـهَ، وهَؤلاءِ همُ الذينَ فِي قلوبهمْ زَيغٌ يَتَّبعـون مَا تَشَابه منهُ.

وَلِهَذَا إذَا قالَ النصرانيُّ: إنَّ الآلهةَ مُتعددةٌ، قُلنا: إنَّ اللهَ كفَّرَكَ بِهذَا القولِ

وكذَّبكَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ هذَا حكمٌ بِالكفرِ، التكليفُ، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة:٧٣]، فَإذا كنتَ تَستدلُّ عَلينا بِقولِ اللهِ؛ فَهَذَا اللهُ يُكذِّبُكَ وَيُكفِّرُكَ بِما قلتَ، لكنَّكَ زائغٌ، تَتبعُ المتشابِهَ.

قولِهِ تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ اليُسْرى: هيَ كلُّ مَا تيسرَ مِنَ الأمورِ، أَيْ: إنَّ اللهَ تعالى ييسرُ لهُ الأمورَ حتَّى الأمورَ الشَّاقةَ منْ أمورِ الدُّنيا تكونُ عليهِ يسيرةً؛ لأنَّهُ راضٍ بِاللهِ ربًّا، مُدبرًا، إِلهًا، حكيمًا، لا يُقَدِّر شَيئًا إِلَّا لحكمةٍ، فهُو رَاضٍ دائمًا، أمورُهُ مُتيسرةٌ حتَّى فِي الأمورِ الصِّعابِ تكونُ عليهِ مُيسرةً سَهلةً، حتَّى تجدَهُ قَانعًا بكلِّ مَا قدرَ اللهُ عليهِ، إنْ أُعْطِيَ شكرَ، وإنِ ابْتُلِيَ صبرَ، وإنْ أذنبَ استغفرَ؛ لأنَّهُ ميسَّر لِليُسْرَى، وجربْ هذَا يَا أَخي؛ تجدْ مَا أخبرَ اللهُ به حقًّا، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، فاللهُ تعالى لَمْ يقلْ: فَلَنُوسعنَّ عليهِ فِي الرزقِ، أَو فَلَنُعطينَّه الزوجاتِ والأولادَ وَالقصورَ والمراكبَ والمُلْكَ، بَل قالَ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، أَي: يكونُ دائمًا فِي سرورٍ، دَائمًا في نعيمٍ.

قالَ بعضُ السلفِ: «لَوْ يَعْلَمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ مَا نَحنُ فيهِ لجَالَدونا عَلَيْهِ بِالسيوفِ»(١). وقالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميةَ: «إِنَّ فِي الدنيَا جنةً مَن لَمْ يَدْخُلْها لَمْ يَدخلْ جنةَ الآخرةِ، قيلَ: ومَا الجنةُ؟ قالَ: نعيمُ القلبِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ بذكرِهِ بِقَضائهِ وَقَدره»(٢). هو دائمًا سَائرٌ مَعَ اللهِ، يَمْتثِلُ أمرَهُ، وَيجْتنبُ نهيَهُ، يُديمُ ذِكرَهُ، ويَرْضى

---

(١) قاله إبراهيم بن أدهم، حلية الأولياء (٧/ ٣٧٠).

(٢) كذا نسبه ابن القيم في مدارج السالكين: (١/ ٥٣٦)، والوابل الصيب (ص:١٠٩) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

بِقضائِهِ، هذه وَاللهِ الحياةُ الطيِّبةُ، وليسَ المقصودُ بِالحياةِ الطَّيبةِ نعيمَ البدنِ، فَنعيمُ البدنِ يَزولُ بِزوالِ البدنِ، لكنَّ نعيمَ القلبِ هو النعيمُ.

إذن، (نيسرهُ لِليسرَى): أَيْ: نَجعلُ أُمورهُ كلَّها ميسرةً، إن همَّ بعبادةٍ تيسرتْ عليهِ، إنْ همَّ بأيِّ شيءٍ مِمَّا يَنفعُهُ فِي دينهِ ودُنياهُ يجِدُهُ مُيسرًا عليهِ.

الردُّ عَلَى منِ احتجَّ بِالقدرِ:

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ [الليل:٨]، (بَخِلَ) مقابلُ (أَعْطَى)، و(استغنَى) مُقابلُ (اتَّقى)، يَعني استغْنى بِنفسِهِ عَن ربِّهِ، ولمْ يَخَفْ ربَّه، و(كذَّبَ بِالحسنَى) مُقابلُ (صَدَّقَ بالحسنَى)، فسنيسرُهُ لِلعسرى مُقابلُ فَسَنُيسرُه لِلْيُسرى، فَهَذا فِيه تَقابلٌ، وَفِي هذَا دليلٌ عَلى أنَّ ضلالَ من ضلَّ إِنما هو بنفسِهِ، أَي: هو السببُ فِي ضلالِهِ، وإلَّا فإنَّ اللهَ تعالى لمْ يمنعْ فَضْلَه مَن طَلَبَ فَضْلَهُ، لكنَّ الَّذي يَسْتغنى عَن ربِّه هو الَّذي جَنَى عَلى نَفسِهِ.

وإذَا أردتَ أنْ يَتبينَ لكَ هذَا ظاهِرًا؛ فاقرأْ قولَ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، لم يُزِغِ اللهُ قُلُوبَهم حتَّى زَاغوا، وأَيضًا قولُهُ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣].

إِذن؛ فتِّشْ فِي نفسِكَ يا أَخِي قَبلَ أنْ تَعتِبَ عَلى ربِّكَ، هذه الآياتُ من قَولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ إِلَى قَولِهِ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ عِنْدَما قرأَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قالَ: «مَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ»، أسأَلُ اللهَ أنْ يجعلَ مَقَاعدَنا مَقاعدَ أهلِ الجنَّةِ، كلُّ إنسانٍ مَكتوبٌ

مَقعدُهُ منَ الجنةِ ومنَ النَّارِ، قَالُوا: يَا رسولَ اللهِ، أَفَلَا نَدَعُ العَمَلَ ونتَّكِلُ؟! قالَ: «**اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[1]، هذه الكلمةُ: «**اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»، وهذهِ العبارَةُ مُكونةٌ مِن جُمْلتينِ: فـ«**اعْمَلُوا**» هذه جملةٌ، و«**كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»، جملةٌ ثانيةٌ، فـ(كلٌّ) مُبتدأٌ، و(مُيَسَّرٌ) خبرُ المبتدأِ، و(لِمَا) معمولٌ لميَسَّر، يَعني جار مُتعلق بـ(مُيَسَّرٌ)، و(خُلِقَ لَهُ) جملةٌ؛ لكنَّهَا صَارت مَوصولةً، وجُملةُ الموصولِ بِمَنْزلةِ المفردِ.

أَخْلُصُ منْ ذلكَ فأقولُ: هَاتانِ الجملتَانِ أَغنتا عنْ مجلداتٍ كبيرةٍ، فبدلَ أنْ يتكلمَ الإنسانُ بِفلسفةٍ وكلامٍ طويلٍ عريضٍ؛ هَاتانِ الجُملتانِ يُغنيانِ عنْ كلِّ شيءٍ: «**اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**».

فإنْ قالَ: وماذَا أَعملُ؟ نقولُ: اعملِ الخيرَ، وسَيُيَسِّرُهُ اللهُ لكَ؛ لأَنَّنا نقولُ لكل إنسانٍ احتجَّ بِالقدرِ، وقالَ: مَا دامَ الأمرُ مَكتوبًا فلِمَ العملُ؟! أقولُ: يَا أَخِي اعملْ، وإِذَا رَأيت أنَّ اللهَ قَد يَسر لَكَ الخيرَ فَهذه بُشْرَى سارةٌ، أَنَّكَ مِمن يُسِّرَتْ لَهُ اليُسْرَى، ونقولُ لكَ بكلِّ بَساطةٍ: هلْ أنتَ تَتركُ الزواجَ وَتقولُ: لَا حاجةَ أنْ أَتزوجَ، إنْ كان اللهُ قَد كتبَ لِي أَولادًا، فَسيأتونَ، تَزوَّجتُ أَم لَمْ أتزوجْ؟! هَلْ يقولُ عاقلٌ بِهَذَا؟! فَالأولادُ مَربوطةٌ بِالزواجِ، وَالجنةُ مَربوطةٌ بِالعملِ، ومِثلُ هذَا الكلامِ السَّابق لَا يُقبلُ عقلًا؛ بَل إنَّ الناسَ يَسعونَ جَادِّين لِلحصولِ عَلى البَاءةِ لِيَتزوجوا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة والليل إذا يغشى، باب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، رقم (٤٦٦٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

نقولُ أيضًا: الجنةُ مَكتوبةٌ لكَ بعملٍ، اعملْ لَها حتَّى تُدركَها؛ وَلِهَذا قالَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، أَمَّا أهلُ السعادةِ هكذا فِي الحديثِ فَيُيسرون لِعملِ أهلِ السعادةِ، وأمَّا أهلُ الشقاوةِ فَيُيسرون لِعملِ أهلِ الشقاوَةِ، ثمَّ تَلا هذه الآيات: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾؛ وَلِهذَا يَتبينُ أنَّه لَا يقبلُ منَ العاصِي أنْ يحتجَّ بِالقَدَرِ؛ لأنَّهُ هو الَّذي يَحكمُ عَلى نَفسِهِ أنَّه إذَا احتجَّ بالقدرِ فَهوَ ضالٌّ.

لَو قالَ قائلٌ: أنَا لنْ أبيعَ ولَا أَشْتري، إنْ كان لَمْ يردِ اللهُ لِي أنْ آتيَ بِالدَّراهِمِ. فهَل يقبلُ منهُ؟ فإنْ قلنَا: لَا، فقدْ أَخطأنَا، وإنْ نعمْ فَقَدْ أَخْطَأْنَا أيضًا؛ لأنَّ مسألةَ الرزقِ لَيْست محصورةً فِي البيعِ وَالشراءِ؛ لأنَّه قَد يَأتيهِ المالُ هبةً، وقدْ يَأتيه بِالإرثِ، أمَّا مسألةُ الزواجِ فَالأمرُ مُختلفٌ فِيها؛ لأنَّه لَو قالَ: واللهِ إنْ كان أَوْلادي سَيأتون، فلِمَ الزواجُ؟ فَهل يُمكنُ أنْ يقولَ بِهَذا عاقلٌ؟! الجوابُ: لَا يمكنُ، فَإذا أمكنَ أنْ يُعارضَنَا فِي مسألةِ الرزقِ؛ فإنَّه لَا يستطيعُ المعارضَةَ فِي هذه المسألةِ.

كَذَلك العاصِي لَا يمكنُ أنْ تقبلَ منهُ حُجَّةٌ عَلى مَعصيةِ اللهِ إطلاقًا؛ وَلِهَذا أبطلَ اللهُ هذه الحجةَ فِي قولهِ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، ولوْ كانتْ حجتُهم مَقبولةً، هَل يَذيقُهُمُ اللهُ بَأسَهُ؟ لَا؛ لأنَّ اللهَ تعالى لَا يظلمُ أَحدًا؛ وَلِهذا قالَ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

إذن؛ لَا حجةَ لِلْعاصي بقَدَر الله عَزَّوَجَلَّ عَلى معصيةِ اللهِ.

ثمَّ نقولُ لِلْعاصي أيضًا: هَلْ تَعلمُ أنَّ اللهَ قدَّر عَلَيكَ المعصيةَ؟! هُو قبلَ أَنْ يَفْعَلَها لَا يَدْري، لكنَّهُ بَعد فِعْلِهَا يَدْري أنَّ اللهَ قَد كَتَبها عَليه ولا شكَّ؛ إذن أنتَ الآنَ أَقْدَمت عَلى الفعلِ، وأَنْت حينَ إِقْدامِك لَا تعلمُ، فَلِماذا لمْ تُقَدِّرِ الحسنَى فِي حقِّكَ، وأنَّ اللهَ قَد كَتَبَ أَنَّك منَ المتقينَ فَتَتَّقي اللهَ؟!

والمسألةُ واضحةٌ، أنَّه لَا حجةَ لِلْعَاصي لَا شرعًا ولَا حِسًّا ولا عَقلًا عَلى مَعْصيتِه بأَنَّهُ كَان أَجْدرَ بهِ أنْ يُقَدِّرَ أنَّ اللهَ كتبَ لهُ الهدايَةَ، وأنْ يفرحَ كلَّما عملَ طاعةً، ويَنشطَ، ويقولَ: هذَا مِن عَلامةِ التوفيقِ، وَهَكذا يَنْبغي لكلِّ إنسانٍ مَنَّ اللهُ عليهِ بفعلِ طاعةٍ أَن يَنشطَ عَلى فعلِ الطاعةِ فِي المستقبلِ، وأنْ يقولَ: هذه بُشْرَى منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنهُ يَسَّرَني لِلْيُسرى.

ثمَّ قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل:١١]، فـ(ما) هُنا يَجوز أنْ تكونَ اسمَ استفهامٍ، يَعني: أيُّ شيءٍ يُغْني عنهُ مَالُهُ إذَا تَردَّى؟ ويَجوزُ أنْ تكونَ نافيةً، أَي: لَا يُغْنِي عنهُ مَالهُ شيئًا إِذَا هَلَكَ، هذَا الذِي بَخِلَ وَاستَغْنى وكَذَّبَ بِالحُسْنى، إذَا هلكَ لَا يُغْنِي عنهُ مَالُهُ شيئًا.



الدرسُ الثالثُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل:١].

هَذَا قَسَمٌ باللَّيلِ إذا غَشِيَ البَسِيطةَ، وغطَّاها بِسَوادِه حتَّى كأنه ثوبٌ أسودُ أُلقيَ على الأرضِ فيُغطِّيها، ويقابلُ ذلكَ ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل:٢]، أي ظَهَرَ وبان، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس:٣٧-٣٨].

فأقسمَ اللهُ تَعَالَى بشيئينِ متضادَّين متقابلينِ: الأول: اللَّيل إذا غَشِيَ البسيطةَ، والثَّاني: النهار إذا تجلَّى وظهرَ وبانَ.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:٣]؛ (ما) هنا تحتمِل معنيينِ: الأول: أن تكون مَوصولةً بمعنى (الَّذي)، والثَّاني: أن تكونَ مَصدرِيَّةً، فعلى الأوَّلِ يكونُ المعنى: والَّذي خَلَقَ الذكرَ والأنثى، فيكونُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قد أَقْسَمَ بذاتِه المُقدَّسةِ؛ الَّذي خَلَقَ الذكرَ والأنثى، ومنَ المعلومِ أن الذكرَ مُقابِلٌ للأُنثى، فهو متعلِّقٌ بشيئينِ متضادَّينِ.

أما على أن (ما) مَصدرِّيةٌ فإن (ما) المصدريةُ يُسبقُ ما بعدها بمصدرٍ، وعلى هَذَا فيكونُ (وَمَا خَلَقَ) تقديرُه: وخَلْقِ الذَّكرِ والأنثى، فيكونُ ذلك إقسامًا بصفةٍ من صفاتِ اللهِ؛ وهي خَلْقُ الذكرِ والأنثى، وهما أيضًا متقابلانِ، وفيه دليلٌ على تمامِ قُدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ كما قالَ اللهُ تَعَالَى في سورةِ القيامةِ: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٣٧-٤٠].

فهذهِ أربعةُ أشياءَ متقابلةٌ: الأوَّلُ والثَّاني: اللَّيلُ والنَّهارُ؛ اللَّيلُ إذا غَشِيَ البسيطةَ، والثَّاني: النهارُ إذا تجلَّى؛ أي ظَهرَ وبَانَ. الثَّالثُ والرَّابعُ: الَّذي خَلَقَ الذَّكرَ والأنثى، وهو اللهُ؛ فيكونُ اللهُ تَعَالَى أَقْسَمَ بذاتِه المقدَّسةِ، وهَذَا بناءً على أنَّ (ما) اسمٌ موصولٌ.

والمُقسَمُ عليه ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤]؛ سعيُ بني آدمَ شَتَّى، مُتفرِّقٌ، مُختلِفٌ، كما قال تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢].

والسعيُ هو العملُ، سواءٌ كان بِرِفقٍ أو بِسُرعةٍ، وليس السعيُ هو الجريَ بسرعةٍ؛ ولهَذَا قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا ثُوِّبَ**(١) **بِالصَّلَاةِ فَلَا يَسْعَ إِلَيْهَا أَحَدُكُمْ، وَلَكِنْ لِيَمْشِ وَعَلَيْهِ السَّكِينَةُ وَالوَقَارُ**»(٢).

(١) أي: أقيمت الصلاة. انظر: فتح الباري (٢/ ١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب لا يسعى إلى الصلاة، وليأت بالسكينة والوقار، رقم (٦٣٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، والنهي عن إتيانها سعيا، رقم (٦٠٢).

فالسعيُ في قولِه: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: بادِرُوا وسَابِقُوا إليه، والسعيُ المنهيُّ عنه هو العجلةُ والسرعةُ.

إذن ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ المرادُ بذلك العملُ ﴿لَشَتَّىٰ﴾ لَمُخْتَلِفٌ، وهذهِ الجملةُ الَّتي وَقَعَ الإقسامُ عليها نقولُ: إنها مؤكَّدةٌ بثلاثةِ مؤكِّداتٍ: القسم، و(إن)، واللام.

وانظرْ في قولِه: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ مُطابقةَ الْمُقسَمِ به للمقسَمِ عليه، فالمقسَمُ به أشياءُ متضادَّةٌ، مُتقابِلةٌ، والْمُقسَمُ عليه كذلك مُتقابِلٌ متضادٌّ؛ ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ مِنَ النَّاسِ مَنْ سَعْيُه صالحٌ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ سَعْيُه فاسدٌ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ سَعْيُه أصلحُ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ دونَ ذلك، ومِنَ النَّاسِ مَن سَعْيُه أفسدُ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ دونَ ذلك، فالسعيُ مختلِفٌ، متفرِّقٌ غايةَ التفرُّقِ، فتجدُ اثنينِ يُصليانِ بَعْضِهما إلى جنبِ الآخَرِ، وبين عَمَلَيْهِما كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، وهما يُصَلِّيانِ جَميعًا، خلفَ إمامٍ واحدٍ، وأفعالُهما واحدةٌ، لكن بَيْنَ صلاتَيْهما كما بينِ السَّماءِ والأرضِ، وكما بينَ المشرقِ والمغرِب، وذلك لِمَا قامَ في قلبِ كلِّ واحدٍ مِنهما من الإخلاصِ والإخباتِ للهِ والمتابعةِ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ومن هذه النقطةِ أُحبُّ أن أوجِّهَ إلى شيئينِ:

الشَّيْءُ الأَوَّلُ: عندما نفعلُ المأمورَ به يَنْبَغِي أن نستحضرَ أَنَّنا فَعَلْنَاه لأمرِ اللهِ به، ليحدونا ذلك إلى الإخلاصِ.

يعني عندما أقومُ وأتوضَّأُ أستحضِرُ أنَّ اللهَ أَمَرَني بهذَا في قولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة:٦] وكأنني أُنفِّذُ أمرَ اللهِ أمرًا أمرًا؛ لأنَّه أمرني بذلك.

الشَّيْءُ الثَّاني: أن نستحضِرَ أننا مُتَّبِعونَ بهَذَا لرسولِ اللهِ ﷺ؛ حتَّى يتمَّ تجريدُ المتابعةِ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وهَذَان الأمرانِ- مع الأسفِ الشديدِ- نَغفُلُ عنهما كثيرًا، فحاسِبْ نفسَكَ؛ هل أنت يومًا من الأيامِ والصنبورُ يصُبُّ علي يدِك استحضرتَ أنَّ اللهَ قَالَ: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦]؟

حاسبْ نفسَك يا أخي؛ حتَّى تكونَ مُنَفِّذًا لأمرِ اللهِ، ويقومَ في قلبِكَ مِنَ الإخلاصِ للهِ، والتقرُّبِ إليه، وتعظيمِه عَزَّوَجَلَّ ما لم يكنْ عندك حينَ الغَفلةِ.

كذلك أيضًا تَستحضرُ أَنَّك متابعٌ لرسولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أمامَك يتوضأُ، وانتبهْ لِتتِمَّ المتابعةُ والأُسوةُ الَّتي قالَ اللهُ عنها: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١].

وهكذا نقولُ في الصَّلاةِ، ونقولُ في الصِّيامِ، ونقولُ في الصدَقَةِ، ونقولُ في الحجِّ، ففي كلِّ العباداتِ نَستحضِرُ أننا نفعلُ هَذَا امتثالًا لأمرِ اللهِ؛ لأن هَذَا يؤدِّي إلى قوةِ اليقينِ.

ونفعل هَذَا اتباعًا للرسولِ ﷺ، وهَذَا أيضًا يؤدِّي إلى كمالِ محبَّةِ الرَّسُولِ ﷺ والتأسِّي به.

فينبغي الانتباهُ لهَذَا؛ لأن الغفلةَ تَسْتَوْلِي علينا كثيرًا، ويقومُ الإِنْسَانُ لِيَتَوَضَّأَ لأجلِ أن الوضوءَ شرطٌ لصحةِ الصَّلاةِ، لكن لا يَستحضِرُ أنَّه يتوضأُ امتثالًا لأمرِ اللهِ، أو متابعةً لرسولِه ﷺ، إلَّا أن هَذَا قائمٌ في قلبِ كلِّ مؤمنٍ، فكلُّ مؤمنٍ لو سألْتَه: لماذا تتوضأ؟ لقال: مُخلِصًا للهِ، مُمتَثِلًا لأمرِه. ولو سألْتَه: لماذا تؤدِّي الوضوءَ

على هذه الصفةِ؟ فإنه يقولُ: اتِّبَاعًا لسنةِ الرَّسُولِ ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ ثُمَّ فصَّل اللهُ عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧]، هذه أوصافٌ ثلاثةٌ يَتَرَتَّبُ عليها سعادةُ الدُّنْيَا والآخرةِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾، والثَّاني: ﴿وَاتَّقَىٰ﴾، والثَّالث: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾، فهذهِ ثلاثةُ أمورٍ؛ (أَعْطَى) أيْ: بَذَلَ ما أُمِرَ به من مالٍ أو عملٍ، و(اتَّقى): اجْتَنَبَ ما نُهِي عنه، فهاتانِ الكلمتانِ انتظمتا الأمرَ والنهيَ.

بَقِيَ عندنا الخبرُ؛ لأنَّ الشرعَ كلَّه إنشاءٌ وخبرٌ، وفي الخبرِ قَالَ: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾؛ وبذلك تمَّ الدِّينُ كلُّه، فالدينُ كلُّه إعطاءٌ، واتقاءٌ، وتصديقٌ، فمَن جمعَ بينَ هذه الأمورِ الثلاثةِ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وتيسيرُ اللهِ للعبدِ لليُسْرَى بحسَبِ ما قامَ به من عملٍ أو تصديقٍ، فكلَّما كان أحسنَ عملًا، وكلما كان أشدَّ اجتنابًا للنهيِ، وكلَّما كان أقوى يقينًا وإيمانًا، كانت اليسرى له أسرعَ مِمَّا إذا كان على خلافِ ذلك.

ولنبينا مُحَمَّدٍ ﷺ من هَذَا أكبرُ الحظِّ والنصيب، قالَ اللهُ تَعَالَى له: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى:٨]؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قام بهذهِ الأوصافِ على الوجهِ الأكملِ؛ أَعطَى، واتقى، وصدَّقَ بالحسنى، فبَذَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من مالِه، وبدنِه، وجاهِه ما لم يَبذُلْه أحدٌ منَ النَّاسِ، واتَّقَى ما لم يَتَّقِهِ أحدٌ منَ النَّاسِ، وقال: «وَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ للهِ، وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي»[1].

قال: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ والحُسْنَى كلُّ خبرٍ أخبرَ اللهُ به فإنَّه حُسْنَى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة:٥٠].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، رقم (١١١٠).

قال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: للخَصْلَةِ اليُسْرَى، ولم يُقيِّدِ اللهُ تَعَالَى هَذَا التَّيسيرَ في الدُّنْيَا، بل قَالَ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ فهَذَا التَّيسيرُ يكونُ في الدُّنْيَا والآخرةِ، والإِنْسَانُ مُضْطرٌّ إلى التَّيسيرِ في الآخِرةِ أشدَّ مِنِ اضْطِرَارِهِ إلى التَّيسيرِ في الدُّنْيَا.

قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ هَذَا قِسْمٌ، والقسمُ الثَّاني: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٨-١٠] (بَخِلَ) ضِدُّ (أَعْطَى)، و(اسْتَغْنَى) ضِدُّ (اتَّقى)، والثَّالثُ: (كَذَّبَ بِالحُسْنَى) ضِدُّ (صَدَّقَ بِالحُسْنَى).

قوله: ﴿مَنۢ بَخِلَ﴾ أي: بنفسِه، ومالِه، وجاهِه، وكلِّ ما أُمِرَ ببذلِه، بَخِلَ به وامتنعَ عن إعطائِه.

قوله: ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ أي: رَأَى نفسَه غنيًّا عن اللهِ، واعتزَّ بنفسِه فلم يَتَّقِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ولم يبالِ بأوامرِهِ ونواهِيهِ.

والثَّالثُ: ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ لم يُصدِّقْ بالقَوْلَةِ الحسنى؛ وهي قَوْلَةُ اللهِ ورسولِهِ، بل كَذَّبَ بها؛ إما صراحةً، وإما تلميحًا وتلويحًا، وذلك إذا كان مِنَ المنافقينَ، فهَذَا يُيَسَّر للعُسرى؛ أي تكونُ أُمورُه كلُّها عسيرةً، حتَّى لو تيسَّرتْ ظاهرًا، فهي عَسيرةٌ باطنًا؛ وفي قلبِه من الحرارةِ والضِّيقِ والضَّنْكِ والغمِّ والهمِّ ما يجعلُ كلَّ أمرِه عَسيرًا عليه.

هاتان الآيتانِ قَرأهما النَّبيُّ ﷺ حينما حدَّث أصحابَه وهو على قبرٍ في البَقيعِ فقال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ فقال: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا

خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»(١).

والحمدُ للهِ أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُيسِّرُ الردَّ على كلِّ إشكالٍ حقيقيٍّ يحتاجُ إلى ردٍّ؛ ييسِّرُ أن يسأَلَ عنه أحدُ الصحابةِ حتَّى يُزالَ الإشكالُ على لسانِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ ولهَذَا قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]؛ فما من مشكلةٍ حقيقيةٍ إلا وقد حُلَّت؛ إما من كتابِ اللهِ، أو سُنةِ رسولِه ﷺ؛ إما ابتداءً وإما لسببٍ منَ الأسبابِ.

قال: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» الله أكبر! كلمتان يمكِن أن يكتبَ عنهما أصحابُ الكلامِ وأصحابُ الفلسفةِ مجلَّداتٍ، ولا يستطيعون إقناعَ النفوسِ؛ ولهَذَا تجدُ الَّذين يتكلمون في القضاءِ والقدَرِ من المتكلِّمين وغيرِهم يُبدُون ويُعِيدون من الكلامِ والثَّرثرة، ولكن لا تَصِل إلى نتيجةٍ أبدًا.

لكنَّ رسولَ اللهِ ﷺ الَّذي أُعطيَ جوامعَ الكَلِمِ وبلغَ من فصاحةِ المخلوقينَ أعلاها قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ». ثمَّ تلا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠].

الحمدُ للهِ، هذه بشارة عظيمةٌ للمؤمنِ؛ فإذا رأيتَ اللهَ تَعَالَى قد يسَّرك لليُسْرَى،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة والليل إذا يغشى، باب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، رقم (٤٦٦٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

وأعانَك على نفسِك، وأُعطيتَ ما يجبُ عليك بَذْلُه، واتقيتَ ما يجبُ عليك اجتنابُه، وصدَّقتَ بخبرِ اللهِ ورسولِه، إذا رأيتَ من نفسِك هَذَا فاحمَدِ اللهَ؛ فإنك ممَّن يُيَسَّرون لليُسْرَى، ومن أهلِ السعادةِ؛ لأن الإِنْسَانَ السعيدَ يُيسَّرُ لعملِ أهلِ السعادةِ.

وإذا رأيتَ من نفسِكَ خلافَ ذلك فصحِّحِ الوضعَ قبل أن يَفْجَأَكَ الموتُ وأنت على هذه الحالِ.

أسألُ اللهَ تَعَالَى أن يُيَسِّرَنا وإياكم لليُسْرَى ويُجَنِّبنا العُسْرَى.

تجدُ إنسانًا لا يُصَلِّي مع الجماعةِ فتنصَحُه، فيُقابلُك بقولِهِ: اللهُ يهديني، هكذا كتبَ اللهُ عليَّ. فنقولُ له: أتعلمُ أن اللهَ كتبَ عليك هَذَا؟ لأن القدَرَ مَكتومٌ لا يعلمُه أحدٌ إلَّا اللهُ، فنحن لا نعلمُ قَدَرَ اللهِ إلا بعدَ وقوعِ المقدورِ، فنقولُ لهَذَا الرجلِ الَّذي يقولُ: عسى اللهُ أن يهدِيَني، هَذَا شيء مُقدَّر عليَّ. نقولُ: الماضي نعم مُقَدَّر عليك، ونوافِقُك على المقدَّرِ، لكن في المستقبَلِ صَحِّحْ مَسيرتَكَ، ولا تُقلْ: إنه كُتِبَ عليَّ، فاللهُ تَعَالَى قد هَدَى أقوامًا بعد ضلالِهم.

إذن، لا تحتجَّ بِقَدَرِ اللهِ على شيءٍ مُستقبَلٍ، أما الماضي فربما يُعذَرُ الإِنْسَانُ؛ فمثلًا لو أن شخصًا فعل معصيةً من المعاصي، فلُمْنَاه عليها، وقال: واللهِ هَذَا شيءٌ قُدِّر عليَّ، والحمدُ للهِ على كلِّ حالٍ. فإننا نقول: ليسَ في هَذَا ما يُخالفُ، نُوافِقُك على هَذَا ونَعذُرُك بهَذَا، لكن لا نَعذُرُك في شيءٍ مستقبَلٍ وهو التوبةُ، نقولُ: أنت فعلتَ المحرَّم وهَذَا قَضاءٌ وقَدَرٌ، وقد كُتِبَ ووَقَعَ، لكن تُبْ إلى اللهِ، وليس هناك ما يَحولُ بينك وبينَ التوبةِ.

فإذا قَالَ: لو قدَّر اللهُ عليَّ التوبةَ تُبتُ. قلنا: أفلا تُقدِّرْ أحسنَ التقديرينِ، أفلا

تقدِّرْ أنَّ اللهَ كَتَبَ لك التوبةَ فتَتُوب؟ قدِّر هَذَا يا أخي.

لذلك لا يمكِنُ لإنسانٍ أن يُصِرَّ على معصيةٍ ويحتجُّ بالقدَرِ، لا يمكنُ إطلاقًا، لو قيل لإنسانٍ: تزوَّجْ حتَّى يأتيَك الولدُ، فقَالَ: الولدُ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه، إذا كان قد كُتب لي ولدٌ فسيأتي. قلنا: فإنَّه لن يأتيَ من نفسِه، لا بُدَّ من أن يفعلَ الإِنْسَانُ الأسبابَ حتَّى يصلَ إلى النتيجةِ.

ومَن أنكرَ فِعلَ الأسبابِ فهو سَفيهٌ في عقلِه، ضالٌّ في دينِه، فكلُّ شيءٍ له سببٌ؛ لأنَّ مَبنَى أفعالِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأحكامَه على الحكمةِ؛ وبناءُ الأشياءِ على أسبابِها لا شَكَّ أنَّه حِكمةٌ؛ لأن شيئًا يكونُ بلا سببٍ مَعناه أنَّه جاء عَفوًا بدونِ أيِّ سببٍ، يعني بدونِ مُبَرِّرٍ.

ولكنِ اعلمْ يا أخي أنك قاصِرٌ، وأنك لا تَعلَمُ كلَّ الأسبابِ، فما أكثرَ الأشياءَ الَّتي تقعُ وأنتَ لا تَعرِفُ أسبابَها، وما أكثرَ الأشياءَ الَّتي شَرَعها اللهُ وأنت لا تعرِفُ أسبابَ شَرْعِها، لكنَّ الواجبَ على المؤمنِ في هذه الأمورِ الَّتي لا يَعرِفُ أسبابَها التسليمُ، يقولُ: سمِعنا وأَطَعْنا، سمِعنا وآمنَّا. بدونِ أن يأتيَ بِـ(لِمَ) و(كيف)، فيُسلِّمُ تسليمًا كاملًا.

وعلينا أن ننظرَ إلى الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وامتثالِهم لأمرِ اللهِ ورسولِه، وإنْ لم يَعلَموا السببَ؛ سَألَتِ امرأةٌ أُمَّ المؤمنينَ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت: ما بالُ الحائضِ تقضي الصَّومَ ولا تقضي الصَّلاةَ؟ وهو سؤالٌ واردٌ، لماذا نقولُ للحائضِ إذا طَهُرت: اقضي الصَّومَ ولا تَقضي الصَّلاةَ، فقالت لها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَحَرُورِيَّةٌ أنتِ؟». وهَذَا يحتملُ أنَّه استفهامُ إنكارٍ، أو أنَّه استفهامُ استعلامٍ. والحروريَّة هي

المرأةُ منَ الخوارجِ؛ لأنَّ الخوارجَ يُلَقَّبون بهَذا اللَّقَبِ؛ حَروريَّة، نسبةً إلى المكانِ الَّذي خَرجوا فيه على أميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قالت: «أَحَرُورِيَّةٌ أنتِ؟» لأن الخوارجَ مِن تَشَدُّدِهِم في الدِّينِ، وهم على ضلالٍ في تَشَدُّدِهِمْ، مِنْ تَشَدُّدِهم يقولون: إن المرأةَ الحائضَ تقضي الصَّومَ والصَّلاةَ.

فقالت المرأةُ: «لَسْتُ بِحَرُورِيَّةٍ، وَلَكِنِّي أَسْأَلُ». سؤال استعلامٍ، فقالت عائشةُ: «**كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ، فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ، وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ**»[(١)]. فجعلت الحكمةَ أمرَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعدمَ أمرِه؛ أَمَرَنا فامْتَثَلْنا، لم يَأْمُرْنا فلا يَلْزَمُنا أن نفعلَ ما لم يَأْمُرْنا به، فالمرأةُ سلَّمتْ واسْتَسْلَمَتْ.

ولو كان الإِنْسَانُ لا يعبدُ اللهَ إلَّا حيثُ يعرِفُ الحكمةَ لاختلفتِ الأهواءُ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

إذن، فالإِنْسَانُ المؤمِنُ هو الَّذي يَنقادُ لأمرِ اللهِ ويَستسلِمُ لأمرِه، ولا يحتجُّ بِقَدَرِه على شَرعِه؛ لأنَّ القَدَرَ سِرٌّ مكتومٌ، لو سَأَلْتَ أيَّ واحدٍ من النَّاسِ: أتعلمُ ما قدَّرَ اللهُ عليك غدًا؟ لَأَجَابَ: لا عِلمَ لي، واللهُ يقولُ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان:٣٤].

فإذا كنتَ لا تَدري فقدِّرْ أحسنَ التقديرينِ أنَّ اللهَ قدَّرَ لك السعادةَ، واعْمَلْ عَمَلَ السُّعداءِ حتَّى تصلَ إليه، وأعطِ واتَّقِ وصدِّقْ بالحُسنى، وحينئذٍ تُيسَّرُ لليُسرى، وإذا رأيتَ من نفسِكَ وسواسًا، كما يوجدُ في بعضِ الملتزِمينَ؛ يكونُ في قلوبِهم

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

وساوسُ عظيمةٌ تَخِرُّ لها الجبالُ، فاعلمْ أنَّ هذه الوساوسَ ليستْ غريبةً على المؤمنِ؛ فإنها أصابتْ خيرَ القرونِ من وَلَدِ آدمَ إلى يَومِنا هَذَا، وهم الصحابةُ؛ خيرُ النَّاسِ قرنًا.

هذهِ الوساوسُ أصابت الصحابةَ، حتَّى شَكَوْا هَذَا إلى النَّبِيِّ ﷺ، قالوا: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ.

إذن، هَذَا الَّذي يَجِدونَه في نفوسِهم شيءٌ خطيرٌ، قد يَتَعَلَّقُ بالشرعِ، وقد يتعلَّقُ بالقُرآنِ، وقد يتعلَّقُ بالرَّسُولِ، وقد يتعلَّقُ بربِّ العالمين عَزَّوَجَلَّ، فالشَّيْطَانُ يُلْقِي الشُّبَهَ والشكوكَ في أعظمِ الأشياءِ وأبينِ الأشياءِ، قَالَ: «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟**». قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»[1]. سبحانَ اللهِ! ومعنى الصريحِ أي الَّذي لا يُخالِطُه شيءٌ.

قال: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ» مع أَنَّه من إلقاءِ الشَّيْطَانِ في قُلوبهم؛ لأَنَّ الشَّيْطَان لا يمكِن أن يأتيَ لقلبٍ شاكٍّ ليلقيَ عليه الشكَّ؛ لأَنَّه قد كُفِيَ المؤونةَ، إنما يأتي للقلبِ الخالصِ؛ لأجلِ أن يُلقيَ الشكَّ فيه -والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، هذه نعمةٌ- فيُلقي الشكَّ فيه حتَّى يَهدِمَه.

ولهَذَا قِيل لابنِ مسعودٍ أو ابنِ عبَّاسٍ: إن اليهودَ يقولون: نحن نصلي ولا نُوَسْوِسُ في صلاتِنَا. فإذا صَلَّيْتَ أحيانًا تجدُ القلبَ يَحُومُ حولَ البيتِ، وحولَ السوقِ، وحولَ المدرسةِ، فهذهِ الوساوسُ الَّتي تصيبُ الإِنْسَانَ، فقال ابنُ مسعودٍ أو ابنُ عبَّاسٍ: صَدَقُوا، وما يصنعُ الشَّيْطَانُ بقلبٍ خَرابٍ؟![2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٦٠٨) عن بعض السلف.

هَذَا الشاهدُ: وما يصنعُ الشَّيْطَانُ بقلبٍ خرابٍ؟ أي قَصْرٍ مُنهدِمٍ، فلا نأتي بالشَّيْءِ الَّذي يَهدِمُه، فما من حاجةٍ، فالشَّيْطَانُ لا يأتي أبدًا بالوساوسِ إلَّا للقلوبِ الحيةِ المؤمنةِ؛ من أجلِ أن يُفسِدَ عليها دِينَها. نعوذُ باللهِ منه.

وإذا ابتُلي الإِنْسَانُ بهَذَا -وواللهِ يأتون ويسألون، ويبكونَ، فهم مساكينُ مُبْتَلَوْنَ بهَذَا- فإنه يصنعُ كما قال الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ كلمتين: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»[1].

فذكر النَّبِيُّ ﷺ له وصفتينِ من الدواءِ، وصفةً لا طاقةَ له بها، ووصفةً أخرى له بها طاقةٌ، أمَّا الوصفةُ الَّتي لا طاقةَ له بها إلَّا باللهِ فهو الشَّيْطَانُ، ولهَذَا قَالَ: «فَلْيَسْتَعِذْ» فِرَّ إلى ربِّك عَزَّوَجَلَّ؛ حتَّى يُعِيذَكَ منه. والوصفةُ الثَّانيةُ: «وَلْيَنْتَهِ»؛ لأن الانتهاءَ من فِعلِه يَقدِرُ عليه.

إذن، ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وصفتينِ: الوصفة الأولى لا يَقدِرُ عليها العبدُ، ولكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ وهو أن يَستعيذَ باللهِ؛ يقولُ: أعوذُ باللهِ منَ الشَّيْطَان الرجيمِ. والوصفة الثَّانية ينتهي، ومعنى يَنتهي أن يُعرِضَ عن هَذَا، ولا يَلتفِتُ إليه، ويَنساه؛ وهو إذا تناول هاتينِ الوصفتينِ، فإني واثِقٌ أتمَّ الوُثوقِ أنَّه لن تَعودَ إليه هذه الوساوسُ والشكوكُ.

شَكَا رجلٌ إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كثرةَ الوساوسِ في الصَّلاة.. وما أكثرَ الوساوسَ في الصَّلاةِ الآنَ، ولا يَتَسَلَّطُ الشَّيْطَانُ في هذه

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

الوساوسِ إلا إذا دَخَلَ الإِنْسَانُ في الصَّلاةِ، سُبحَانَ اللهِ! فيأتي الإِنْسَانُ للمسجدِ ما في قلبِهِ شيءٌ، ويقفُ في الصفِّ وما في قلبِهِ شيءٌ، فإذا كبَّر انهالتْ عليه الوساوسُ والتقديراتُ، ويخرجُ من صلاتِهِ ولم يُكتَبْ له إلَّا عُشرُها.

شكا رجلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ هذه الحالَ، فقال له النَّبِيُّ ﷺ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ: خَنْزَبٌ**» سمَّاه الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «**فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا**»(١).

وهذهِ وصفةٌ خاصةٌ فاسْتَعْمِلها، قال الصحابيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي.

إذن، افعل هَذَا الدواءَ الَّذي وصفه النَّبِيُّ ﷺ لكَ حتَّى يزولَ ذلك.

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل:١١]؛ يعني: أيَّ شيءٍ يُغنيه مالُه إذا بَخِلَ به وأَمْسَكَه. ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ الفاعلُ يعودُ على مَن بَخِلَ، وليس على المالِ، يعني ما يُغنِي عنه مالُه إذا هَلَكَ. وصَدَقَ اللهُ، الجواب: لا يُغنيهِ شيئًا، فإذا هلكَ لا ينفعُه مالٌ كما قال تعالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

ثم تأمَّلْ هذه الآياتِ العظيمةِ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل:١٢-١٣]، هَذَا فضلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فدلالةُ الخلقِ وإرشادُ الخلقِ أَوجَبها اللهُ على نفسِه، فأوجبَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على نفسِه أن يَهْدِيَ الخلقَ، لكن ليسَ هدايةَ توفيقٍ، بل هداية دلالةٍ؛ كما قال تعالَى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة، رقم (٢٢٠٣).

قولُه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا﴾ كلمة (عَلَى) تُفيدُ الوجوبَ، ونحن لا نُوجِبُ على اللهِ شيئًا، بل اللهُ يُوجِبُ علينا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو يوجبُ على نفسِه، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤].

إذن، للهِ تَعَالَى أن يُوجِبَ على نفسِه ما شاء، وله أنْ يُحرِّمَ على نفسِه شيئًا؛ كما قالَ اللهُ تَعَالَى في الحديثِ القُدُسِيِّ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**»(١).

قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي: بيانُ الحقِّ؛ فاللهُ أوجبَ على نفسِه أن يبيِّنَ الحقَّ؛ بطريقِ إرسالِ الرسلِ، كما قال تَعَالَى في سورة النساءِ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] فبيَّن الحقَّ لكلِّ أُمَّةٍ.

وانظرْ الآيةَ الَّتي بعدها: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾؛ لأنَّ الآخرةَ والأولى ملكٌ للهِ؛ فاللامُ هنا للملكِ، واللامُ هنا للاختصاصِ، فليس أحدٌ له الآخِرةُ والأُولَى إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وليس أحدٌ يَملِكُ الآخرةَ والأولى إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وتأمَّلْ يا أخي: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ قدَّم الآخِرةَ على الأولى، مع أن الأُولى أسبقُ؛ لسببينِ:

السبب الأول: أن ظهورَ مُلْكِ اللهِ في الآخرةِ أعظمُ وأبينُ من ظهورِه في الدُّنْيَا؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، مع أنَّه يَملِكُ كلَّ شيءٍ.

والثَّاني: مُراعاةُ فواصلِ الآياتِ؛ لأن فواصلَ الآياتِ إذا كانت متشابهةً كان

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

ذلك أَدعَى للتلاوةِ والاستماعِ، لو قَالَ: وإنَّ لنا للأولى والآخرةَ، لم تَتَطابَقْ رُؤوسُ الآياتِ، لكن قَالَ: ﴿لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾. ومراعاةُ فواصلِ الآياتِ منَ البلاغةِ.

أرأيتم يا إخوانَنا إذا ذَكَرَ اللهُ مُوسَى وهارونُ فإنَّه يُقدِّم مُوسَى على هارون؛ لأنَّه أفضلُ من هارونَ، ولكن في سورة طه قُدِّم هارونُ على مُوسَى، فقالت سَحَرةُ فِرْعَوْنَ: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠] مع أنهم كانوا يقولونَ: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢] فقُدِّم ذِكرُ هارون في سورةِ طه من أجلِ أن تتناسبَ الفواصلُ؛ لأنَّه إذا كانت متناسبةً كان أَدعَى للاستماعِ، وأوفقَ للطبيعةِ.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ إذن مُلْكُ الآخرةِ والأولى للهِ عَزَّوَجَلَّ، وهدايةُ عبادِ اللهِ واجبةٌ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، وهَذَا من مُقتضَى رحمتِهِ وإحسانهِ إلى خَلقِه، والمقصودُ بالهُدى هنا هو هُدى الدلالةِ، ولو كان المرادُ هُدَى التوفيقِ لكان جميعُ الخلقِ يَهتدون، ولكنَّه هُدى الدلالةِ والإرشادِ، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، هديناهم يعني بالدلالةِ، لكنَّهم لم يُوَفَّقُوا -والعياذُ باللهِ- واستحبُّوا العمَى على الهدى.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] وإعرابها: (الفاء) حَسَبَ ما قَبلها، (أنذرَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على السكونِ؛ لأنَّه اتصلَتْ به تاءُ الفاعلِ، والتاءُ فاعلٌ، والكاف مفعولٌ به أولُ، والميم للجمع، (نارًا) مفعولٌ به ثانٍ لـ(أَنذَر)؛ لأنَّه ينصب مفعولينِ، (تلظَّى) فعل مضارعٌ، وأصله تَتَلَظَّى، لكن أحيانا تُحذفُ التاءُ لوجودِ مَثيلها في الكلمةِ.

قوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل:١٥-١٦] أي: لا يحترِقُ بها إلَّا هَذَا الَّذي جمعَ الوصفينِ، وهما التكذيبُ والتولِّي؛ كذَّب بالخبرِ وتولَّى عنِ الأمْرِ.

قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ [الليل:١٧] والأتقى هنا اسمُ تفضيلٍ؛ يعني الَّذي بلَغ بالتقوى مَبلغًا استحقَّ أن يُوصَفَ بهَذَا الوصفِ.

قوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل:١٨] يعني: يُعطِي مالَه على وجهٍ يَتزَكَّى به ويُطهِّرُ نفسَه، فخرجَ بذلك رجلانِ؛ الأول مَن لا يُعطي مالَه وهو البخيلُ، والثَّاني من يُعطيه على وجهٍ لا يتزكَّى به وهو المسرِفُ؛ ولهَذَا كان من أوصافِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ أنهم ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ [الفرقان:٦٧].

إذن ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ﴾ خرَج به البخيلُ ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ خرَج به المُسْرِفُ؛ لأن المسرفَ يُؤتي مالَه على وجهٍ لا يَتزكَّى به؛ لإسرافِه، واللهُ لا يُحبُّ المسرفينَ.

قوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ [الليل:١٩] أي: أنَّه يُعطِي المالَ لا مكافأةً على نعمةٍ سابقةٍ؛ وذلك لأن الإِنْسَانَ إذا أعطَى مالَه فإنه قد يكونُ مكافأةً لنعمةٍ سابقةٍ، بأن يكونَ هَذَا الرجلُ الَّذي أعطيتَه قد أحسنَ إليك من قبلُ فكافأتَه، لكن هَذَا يعطي مالَه يتزكَّى ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أي يُكافأُ عليها.

وإذا نَظَرْنَا إلى قولِه تَعَالَى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ نجدُ هَذَا السياقَ مُتَضَمِّنًا لمبتدأٍ وخبرٍ، ثمَّ إذا نَظَرْنَا فيه لم نجدْ فيه كلمةً مرفوعةً، مع أنها جملةٌ خبريَّةٌ بلا شَكٍّ، فتُخرَّجُ على أن التقديرَ: ما لأحدٍ عنده نعمةٌ تُجزى، ويوجدُ في القُرآنِ حروفٌ زائدةٌ في الإعرابِ فقط، لكن في المعنى ليستْ زائدةً، بل تفيدُ معنًى؛ وهو التوكيدُ.

قوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل:٢٠] (إلا) هنا أداةُ استثناءٍ مُنقطِع؛ يعني لكن ابتغاءَ وجهِ ربهِ الأعلى؛ أي طلبَ وجهِ ربِّه الأعلى.

قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:٢١] مَن؟ قال قبلها: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي الَّذي يُؤتِي ماله يَتزكَّى لَسَوْفَ يَرضَى؛ يعني عندَ اللهِ تَعَالَى بالثوابِ الجزيلِ.

قال العلماءُ رَحِمَهُمُاللَّهُ: إنّ هذه الآيَةَ نزلت في أبي بكرٍ الصديقِ رَضِيَاللَّهُعَنْهُ، ولا شَكَّ أن أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ له منها النصيبُ الأوفرُ، ولكن اعلمُوا أن الآيَة إذا نَزَلَتْ بسببٍ، فإنها لا تَختصُّ بالسببِ، ولهَذا من القواعدِ المُقَرَّرَةِ في أُصولِ الفقهِ: العِبْرَة بعمومِ اللفظِ لا بِخُصوصِ السببِ. واللهُ الموفِّقُ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرسُ الرابعُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:١- ٤]؛ أَقْسَمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بهذِهِ الآياتِ العظِيمَةِ؛ لأنها دالَّةٌ على كَمالِ قُدْرتِهِ ورَحمتِهِ، فأَقْسَمَ اللهُ بها عَزَّوَجَلَّ تَعظِيمًا لشَأنِهَا، وبيَانًا لكَوْنِهَا منْ آياتِ اللهِ التِي لا يَخْلُقُ أحدٌ مِثْلَها.

قولُهُ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ الليلُ والنَّهارُ مَعْروفانِ، والقرآنُ الكريمُ جاءَ مثَانِيَ مثانِيَ، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر:٨٧-٨٨]؛ ولهذا تَجِدُ القُرآنَ الكريمَ كَلامَ رَبِّ العَالِمِينَ يذْكُرُ الشيءَ ومقابِلَهُ؛ حتى يكونَ الإنسانُ عنْدَ تِلاوةِ القرآنِ آخِذًا من هذَا ومِنْ هذَا.

وقولُهُ: ﴿وَٱلَّيْلِ﴾؛ المرادُ الجِنْسُ، يعنِي: كلُّ اللَّيلِ، وليسَ ليلةً واحِدَةً، وقولُهُ: ﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾؛ أي: يُغَطِّي الأرْضَ بظُلْمَةِ سوادِهِ، وأنتَ إذا رأيتَ اللَّيْلَ قَدْ غطَّى النهارَ تَتَعجَّبُ فكأنه ثَوْبٌ أَسودُ مَلْفُوفٌ على أشياءَ بيضاءَ، واعتَبِرْ ذلك إذا كُنْتَ

فِي الطائِرَةِ عندَ غُروبِ الشَّمْسِ.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾، هذا قَسَمٌ آخرُ، وليسَ معْطُوفًا على قولِهِ ﴿وَٱلَّيْلِ﴾، بل هو قَسَمٌ مستَقِلٌّ.

﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾، أي: بانَ واتَّضَحَ، وكشَفَ عن سَوادِ الليلِ، وهذا أيضًا مِنْ آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧١- ٧٣].

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾؛ هذا أيضًا قَسَمٌ ثالِثٌ، أقسَمَ اللهُ تَعالَى بنفْسِهِ؛ لأنه -سبحانه- هو الَّذِي خَلَقَ الذَّكَرَ والأنْثى، والذُّكورَةُ والأُنُوثَةُ وصفانِ متَغايِرانِ، فهذِهِ ثلاثةُ أقسامٍ: اللَّيْلُ، والنَّهارُ، وخَلْقُ الذَّكَرِ والأُنْثى.

ثم يذكُرُ اللهُ تَعالَى الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾، أي: إن عَمَلَكُم لمتَفَرِّقٌ متَشَتِّتٌ، هذا عَمَلٌ صالحٌ وهذا سَيِّئٌ، وهذا عدْلٌ، وهذا جَوْرٌ، وهذا لَيِّنٌ، وهذا صعْبٌ، وما أشبهَ ذلِكَ.

وكان النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يومٍ عندَ دَفْنِ إحدَى بناتِهِ، وهو عَلَى القَبْرِ، فقال: «**مَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ**»، فقالوا: يا رَسُولَ اللهِ؛ أفَلَا نَدَعُ العَمَلَ ونَتَّكِلُ عَلَى ما كُتِبَ، قال: «**لَا، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ؛ أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا**

أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لَعَمِلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ». ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل:٥-١١][1].

فبيَّنَ ﷺ أن كلَّ شيءٍ مَكتُوبٌ، لكِنْ بعمَلٍ يُقَدِّمُهُ العَبْدُ، وليس بمُجَرَّدِ أنَّه كُتِبَ مِنْ أهلِ السعادَةِ، أَوْ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ.

فعليكَ يا أخِي المسْلِمَ أن تُحاسِبَ نفْسَكَ، وأن تستَعِدَّ لما سيكونُ أمَامَكَ مِنْ عذابِ القَبْرِ وعذابِ النَّارِ، وأن تعْمَلَ عَمَلًا صَالحًا تُرْضِي بِهِ رَبَّكَ ﷻ، وألا تكونَ إمَّعَةً معَ الناسِ حيثُما كانُوا، فإن ذلك لَنْ يُغْنِيَ عنْكَ مِنَ اللهِ شَيئًا.

وقد صَحَّ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في المنافِقِ إذا دُفِنَ وأتاهُ الملكَانِ يسْألَانِهِ عَنْ دِينِهِ ونَبِيِّهِ وكِتَابِهِ؛ فيقول: «هَاهْ، هَاهْ، لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ»[2].

عليكَ يا أخِي أن تُثَبِّتَ الإيمانَ في قَلْبِكَ باللُّجُوءِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وسُؤالِهِ العِصْمَةَ، وأن يُثَبِّتَكَ بالقَوْلِ الثَّابِتِ في الحياةِ الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ قبْلَ ألَّا ينفَعَ مالٌ ولا بَنونٌ، إلا مَنْ أتَى اللهَ بقَلْبٍ سَلِيمٍ.

ثُمَّ قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل:١١]، يَعْنِي: أيُّ شيءٍ يُغْنِي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة والليل إذا يغشى، باب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾، رقم (٤٦٦٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس، رقم (٨٦)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ما عُرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف، رقم (٩٠٥).

هذا الرَّجُلَ الذي لم يُنْفِقْ مالَهُ فيما يجبُ عليه، ما الَّذِي يغْنِيهِ؟ إنه لا أحَدَ يُغْنِيهِ.

ثم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ [الليل:١٢-١٣]، تأمَّلِ الآيَةَ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾؛ فأوجَبَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على نَفْسِه أن يَهْدِيَ العِبادَ، وأن يَدُلَّهُم على ما فِيهِ الخَيْرُ، وقد فَعَلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فَقَدْ بيَّنَ لعبادِهِ أعظَمَ بيانٍ على أيْدِي الرُّسُلِ -عليهم الصلاة والسلام-، ولا سِيَّما محمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

ثم قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤]، أي: تَتَلَهَّبُ، ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٥- ٢١]، سيُجَنَّبُ هذِهِ النارَ الأتْقى للهِ عَزَّوَجَلَّ، والأطْوعُ لَهُ، والأقْوَمُ في دِينِهِ.





سورةُ الضُّحَى

الدرسُ الأولُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فَجَرْيًا عَلَى عادَتِنا فِي الكلامِ عَلَى ما سَمِعْنَاه مِن قراءةِ إمامِنا فِي صَلَاةِ المَغْرِبِ، نتكلمُ بما نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يفتحَ به علينا فيما سَمِعْنَاهُ، فقَدْ قَرَأَ إمامُنا سُورَتَيْنِ كِلْتَيْهِما تتعلَّقُ برسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الأولى الضُّحى، والثَّانية ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١].

يقول اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:١-٣]، أقسَمَ اللهُ تعَالَى بشيئين مُتَضَادَّيْنِ؛ أَوَّلُهما: الضُّحى الَّذِي به الإشراقُ والنورُ والضياءُ، والثَّاني: اللَّيْلُ إذا سَجَى أي: غطَّى الأرضَ بظَلَامِه، وإنما أقسَمَ اللهُ بذلك لأنهما مِن أعظَمِ آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومِنْ أكبَرِ الأَدِلَّةِ عَلَى رحمةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بعبادِه، يقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ

مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ [القصص:٧١]، الجوابُ: لا أحدَ، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص:٧١-٧٢] لا أحدَ، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٢-٧٣]، ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ يعودُ إِلَى اللَّيْلِ، ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعود إِلَى النهار، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ولأَجْلِ أَنْ تَشْكُروا اللهَ عَزَّوَجَلَّ عَلَى هَذِهِ النِّعمةِ العظيمةِ الَّتِي لا يمكنُ للبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ مَعَ غيرِها مِن المخلوقاتِ أن تأتيَ باللَّيْلِ إذا ذهبَ، ولا أن تأتيَ بالنهارِ إذا ذهبَ، فالكُلُّ مُسَخَّرٌ مِن عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فاللَّيْلُ للسُّكنَى، والنهارُ لابتِغاءِ الفضلِ مِنَ اللهِ، ينتشرُ العالَمُ فيه يَبْتَغُونَ من فضلِ اللهِ.

ولكن مع الأَسَفِ كثيرٌ مِن النَّاسِ اليومَ صار ليلُهم نهارًا، ونهارُهم ليلًا، فتَجِدُهم يَسْهَرُون فِي اللَّيْلِ إِلَى قُربِ طُلوعِ الفَجْرِ، ثمَّ ينامون، وربما ناموا عن صَلَاةِ الفَجْرِ -والعِيَاذُ باللهِ- وعلى أيِّ شيءٍ يسهرون؟ يسهرون عَلَى شيءٍ إما أن يكونَ لَغْوًا لا خيرَ فيه، وإما ضَرَرًا، هَذَا هُوَ الغالبُ، وقَلَّ مَن يَسهرُ للعِلمِ، كما فعَلَ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يُحْيِي أكثرَ اللَّيْلِ لِحِفْظِ حديثِ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ولهذا أوصاه النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُوتِرَ قَبْلَ أَنْ يَنَامَ[1].

---

(١) يعني حديث: «أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لَا أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ». أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب صلاة الضحى في الحضر، رقم (١١٧٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، رقم (٧٢١).

عَلَى كُلِّ حَالٍ، أقسَمَ اللهُ بالضُّحى والليلِ إذا سَجى لِمَا فيهما مِن آياتِ اللهِ العظيمةِ الدَّالَّةِ عَلَى كمالِ قُدرتِه، وعلى كمالِ رَحْمتِه.

ولكن هنا سؤالٌ يَرِدُ كثيرًا، وقد فَهِمنا الجوابَ عنه فيما سبقَ، وهو: كيف أقسَمَ اللهُ بالضُّحى وهو مخلوقٌ مِن المخلوقاتِ؟ وكيف أقسَمَ باللَّيْلِ وهو مخلوقٌ مِن المخلوقاتِ؟ وقد أجبنا عن ذلك فيما سبق، بل أجبتم أنتم عنه فيما سَبَقَ بأنَّ للهِ تَعَالَى أَنْ يُقْسِمَ بما شاءَ مِن خَلْقِه؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى يَحْكُمُ ولا يُحكَمُ عليه، ويأمُرُ ولا يُؤمَرُ، وهو جَلَّ وَعَلَا له الحُكمُ.

إنَّ شيئًا مِن الأشياءِ إذا فَعَلَهُ الإِنْسَانُ كان مُشرِكًا باللهِ، ولما تَرَكَهُ الإِنْسَانُ صار كافرًا، ولما تَرَكَهُ المأمورُ صار كافرًا، شيءٌ معيَّنٌ خاصٌّ إذا فَعَلَه الإِنْسَانُ كان مُشرِكًا باللهِ، وإذا تَرَكَهُ مَنْ أُمِر به صار كافرًا باللهِ، هو السُّجُودُ لغيرِ اللهِ، وحُكمُه أنه شِركٌ أكبرُ مُخْرِجٌ عن المِلَّةِ، فمَن سَجَد لأي أحَدٍ: لِوَلِيٍّ، أو إمامٍ، أو سُلطانٍ، أو وزيرٍ، أو أميرٍ، أو غيرِ ذلك، مَن سَجَدَ لأيِّ مخلوقٍ فإنَّه كافرٌ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

لكنْ هَذَا السُّجُودُ لغيرِ اللهِ صار تَرْكُه يومًا مِن الدَّهرِ كُفرًا باللهِ، وذلك حين أَمَرَ اللهُ الملائكةَ أن تسجُدَ لآدَمَ ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، فحقَّت عليه اللعنةُ حين استكبَرَ وأبى أن يسجُدَ لآدَمَ.

إذن، يجبُ أن نعرفَ أَنَّ الأمرَ أَمْرُ اللهِ، إذا أَمَرَ بشيءٍ صار هَذَا الشَّيْءُ عبادةً، ولو كان نوعُه فِي وقتٍ آخرَ شِركًا وكُفرًا.

قَتْلُ النَّفسِ:

قتلُ النفسِ مِن أعظَمِ الذُّنوبِ، ومِن الْمُوبِقَاتِ، ومع ذلك صارَ يومًا مِن الدَّهرِ قتلُ النفسِ مِن عِبادةِ اللهِ، وذلك في قِصَّةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَزَقه اللهُ تَعالَى بِكْرَهُ الأولَ بعد أن بَلَغَ مِن الكِبَرِ عِتِيًّا، رَزَقَهُ اللهُ إسماعيلَ، وهو أبو العَرَبِ، وإسحاقَ وهو أبو بني إسرائيلَ، فالعَربُ وبنو إسرائيلَ أبناءُ عَمٍّ، رَزَقَه اللهُ إسماعيلَ وهو بِكْرُهُ، فلما بلَغَ معه السعيَ، يعني: كَبِرَ وصَارَ يَسْعَى مَعَ أبيه، لَيْسَ بالطفلِ الَّذِي لا يُؤبَهُ له، ولا بالكَبيرِ الَّذِي انفصَلَ، وأشدُّ ما تتعلقُ النفسُ بالولدِ إذا كان بين الطُّفولةِ وبين الكِبَرِ، تتعلَّقُ به النفسُ؛ لأَنَّه صغيرٌ يسعى مَعَ أبيه، ويَمْشِي مَعَ أبيه، وأبوه يُحِبُّه، ويأتي به فِي المجالسِ، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢] أراه اللهُ فِي المنامِ أَنَّه يذبحُ ابنَهُ إسماعيلَ ولدَه الَّذِي لَيْسَ له ولدٌ سِواهُ، وقد أتاهُ عَلَى كِبَرٍ، اسْتَشْعِرُوا هَذَا الأمرَ، إنْسَانٌ بَلَغَ الكِبَرَ، وآتاه اللهُ ولدًا لَيْسَ له ولدٌ سِواهُ، فكيف تكون مَحَبَّةُ هَذَا الولدِ؟

لا شك أنها عَظِيمةٌ شَدِيدةٌ، لا سِيَّمَا وأنه بَلَغَ معه السَّعْيَ، فأراهُ اللهُ تَعالَى فِي المنامِ أَنَّه يَذْبَحُهُ، ورُؤيا الأنبياءِ وَحْيٌ.

عَرَضَ الأمرَ عَلَى إسماعيلَ، قال: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾، فكان جوابُ هَذَا الابنِ جوابَ الرَّشِيدِ العاقِلِ المؤمِنِ، ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ سُبْحَانَ اللهِ! يعني: اذبحني، وعَرْضُ إبراهيمَ هَذَا الأمرَ عَلَى ابنِه لَيْسَ استشارةً له، ولا يمكنُ لإبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَسْتَشِيرَ ابنَهُ فِي أمرٍ أَمَرَهُ

اللهُ به، أبدًا، ولكن لِيَخْتَبِرَ الابنَ ما موقِفُه؟ فكان موقِفُه أَسَدَّ المواقفِ.

﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ اللهُ أكبرُ! قال: ستَجِدُني مِن الصابرين، ومع ذلك إسماعيلُ لم يَعْتَمِدْ عَلَى قُوَّتِه، بل قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ لم يقلْ: ستَجِدُني مِن الصابرين. لأَنَّه يؤمنُ بأن الأمرَ بِمَشِيئَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ تَمَّ الأمرُ الآن.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ الفاعل اثنان، هما إبراهيمُ وإسماعيلُ.

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣]، تَلَّهُ إبراهيمُ بِقُوَّةٍ ﴿لِلْجَبِينِ﴾ حتَّى وقعَ عَلَى الأرضِ، وقَعَ جَبِينُهُ عَلَى الأرضِ، وإنما فَعَلَ ذلك؛ لِئَلَّا يُشاهِدَ وجهَه حين ذَبْحِه، ولئلا يُشاهدَ الابنُ السِّكينَ وأبوه يَهْوِي بها إِلَى رقبته، ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ حينئذٍ جاء الفَرَجُ مِن الربِّ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦] جاء الفَرَجُ مِن اللهِ، وقد قالَ نَبِيُّنا وإمامُنا وأُسْوَتُنا مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا**»(١).

لما صَدَق فِي عبادةِ اللهِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الصافات:١٠٤] الواوُ هَذِهِ ليست زائدةً كما قال ذلك بعضُ المُعْرِبين، بل الواو عاطفةٌ عَلَى شيءٍ مُقَدَّرٍ، أي: فلَمَّا أَسْلَما، تبَيَّنَ صِدقُهما، وتمامُ انقِيادِهما للهِ.

﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ﴾ ناداه اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٤- ١٠٥]، بَلوى عظيمةٌ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧، رقم ٢٨٠٤)، والطبراني (١١/ ١٢٣، رقم ١١٢٤٣)، والضياء (١٠/ ٢٣، رقم ١٣).

هذا الأمرُ أَمْرٌ بقَتْلِ نَفْسٍ، وأيضًا هي نفسٌ ليست بَعِيدةً، بل مِن الأقاربِ، فالابنُ بَضْعَةٌ مِن أبيه، فهو مِن أَقْرَبِ الأقربين إليه، فاجتمع فِي ذلك قتلُ نَفْسٍ، وقَطِيعَةُ رَحِمٍ، هَذِهِ القطيعةُ، وهذا القتلُ لما كان بأمرِ اللهِ صار عِبادَةً.

إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَبيَّنَ بذلك أنَّه مُحِبٌّ للهِ عَزَّوَجَلَّ وأَنَّ أَمْرَ اللهِ تَعَالَى عنده فوقَ كُلِّ أَمْرٍ، فوقَ هوى النَّفْسِ، ولذلك جُوزي بأنَ جَعَلَهُ اللهُ خَلِيلًا، قالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]، وكان نبيُّنا مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ خليلًا أيضًا كما قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**»(١). ولهذا لا تُوجَدُ الخُلَّةُ -فيما نَعْلَمُ- إِلَّا لشخصين فقط، هما إبراهيمُ ومُحَمَّدٌ -عليهما الصلاة والسلام- يعني: لا يمكنُ أن أقولَ: مُوسَى خليلُ اللهِ، ولا أن أقولَ: عِيسَى خليلُ اللهِ، ولا أن أقول لأيِّ أحدٍ مِن المخلوقاتِ: خليلُ الله، إِلَّا بِعِلْمٍ مِن اللهِ، ولم نعلمْ أَنَّ أحدًا اتخذَهُ اللهُ خليلًا إِلَّا إبراهيمَ ومُحَمَّدًا -صلى الله عليهما وسلم-.

وهنا سؤالٌ: أَيُّهما أعظَمُ مَحَبَّةً وأقوى مَحَبَّةً: الخَليلُ أَمِ الحَبيبُ؟

الجوابُ: الخليلُ، إذن، الَّذِينَ يقولون: مُحَمَّدٌ حبيبُ اللهِ. الواقِع أنَّهم قَصَّرُوا، بل نقولُ: مُحَمَّدٌ خليلُ اللهِ، والخُلَّةُ فوقَ المَحَبَّةِ.

واللهُ يحبُّ المُؤْمِنِينَ، ويحبُّ الصادقين، ويحبُّ المتقين، ويحبُّ المقسطين، المَحَبَّةُ مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكلِّ مَن اتَّبعَ رُسُلَه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٥٣٢).

ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، لكنَّ الخُلَّةَ ليس كلُّ أحدٍ يَنالُها، فالمَحبَّةُ أدنى رُتْبَةً مِن الخُلَّةِ، فمن قالَ عن مُحمَّدٍ رسولِ اللهِ: إنه خليلُ اللهِ، فقد أثبتَ له المَحبَّةَ وزيادةً، ولهذا نَحْنُ نَشْهَدُ أنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ، وأنَّ مُحمَّدًا خليلُ اللهِ، وأنَّ مُحمَّدًا سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ، وأنَّ مُحمَّدًا هُوَ الأُسْوَةُ الَّذِي يجبُ اتِّبَاعُه فِي كلِّ ما شَرَعَه لأُمَّتِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

اتَّضحَ الآن أنَّ قَتْلَ النفسِ المحرَّمَ لَمَّا أَمَرَ اللهُ به صار عبادةً.

نَعُودُ إِلَى الإقسامِ بغيرِ اللهِ، الإقسامُ بغَيْرِ اللهِ حرامٌ علينا؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «أَلَا إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»[1]. هَذَا لا إشكالَ فيه، وجاء فِي الحَدِيثِ الصحيحِ أيضًا: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[2]، لكنه شِركٌ أصغرُ ما لم يَعتقدْ أنَّ للمحلوفِ به مِن التعظيمِ ما للهِ عَزَّوَجَلَّ فحينئذ يكونُ مُشركًا شِركًا أكبرَ، لكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يحكمُ ولا يُحكَمُ عليه، ويَحلفُ بما شاء مِن عبادِه.

لكن اعْلَمْ أَنَّ اللهَ لا يحلفُ بشيءٍ إِلَّا وهو ذو قِيمةٍ عَظِيمةٍ، لا يَحْلِفُ بشيءٍ تافِهٍ، بل بذِي قِيمَةٍ عظيمةٍ؛ لأنَّ أصلَ اليمينِ، أو الحَلِفَ تأكيدُ الشَّيْءِ بِذِكْرِ مُعَظَّمٍ بصيغةٍ مخصوصةٍ.

وحُروفُ القَسَمِ ثلاثةٌ: (الواو، والباء، والتاء)، تقولُ: أَحْلِفُ باللهِ، وتقولُ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، رقم (٦٦٤٦)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥، رقم ٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

واللهِ لَأَفْعَلَنَّ كذا، وتقولُ: تَاللهِ لَأَفعَلَنَّ كذا، قالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٥٧].

إذن، لله أَنْ يُقْسِمَ بما شاء مِن خَلْقِهِ، أما نَحْنُ فلا نُقْسِمُ إِلَّا باللهِ، إما باسم اللهِ، مِثل: واللهِ، أو باسمِ الرَّحمَنِ: والرَّحْمَنِ، أو باسمِ ربِّ العالمينِ: ورَبِّ العالمين، أو بأيِّ صِفةٍ مِن صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ المعنويةِ.

قوله تعالى:﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:٣]، ﴿وَدَّعَكَ﴾ تَركَك، ﴿قَلَىٰ﴾ أَبْغَضَ؛ وذلك رَدًّا عَلَى قولِ مَن قال: إنَّ مُحَمَّدًا تَركَهُ رَبُّه، إنَّ مُحَمَّدًا أَبْغضَهُ رَبُّه. فقَدْ أقسَمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بأنه ما ودَّعَهُ، وما تَركَهُ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، (رَبُّ) مُضافٌ، والكافُ مضافٌ إليه، الرُّبوبيةُ مضافةٌ إِلَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وإضافةُ الرُّبوبيةِ إِلَى شخصٍ مُعَيَّنٍ تعني العِنايةَ التامَّةَ بهذا المَرْبُوبِ.

اللهُ عَزَّوَجَلَّ ربُّ العالمين، لكن إذا أضافَ الرُّبوبيةَ إِلَى شخصٍ مُعَيَّنٍ، كان ذلك دليلًا عَلَى عنايتِه بهذا الشخصِ المعيَّنِ، قالت السَّحَرةُ: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٢١] ثم قال بعدَه ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٢] الأولى رُبوبيةٌ عامَّةٌ، والثَّانية رُبوبيةٌ خاصَّةٌ، فإذا أضافَ اللهُ الرُّبوبيةَ إِلَى شخصٍ معيَّنٍ، كان ذلك دليلًا عَلَى عِنايتِه به، ولهذا تُسمَّى عند العُلَماءِ الربوبيةَ الخاصَّةَ.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ الَّذِي رَبَّاك بِنِعَمِه صغيرًا وكبيرًا قَبْلَ النُّبوةِ وبَعْدَها، وأَتَمَّ نِعْمَتَهُ إِلَى أن مات عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ أي ما تركك، ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي ما أَبْغَضك.

ونفَى اللهُ ذلك ردًّا لقولِ المُكذِّبين للرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: إِنَّ اللهَ تَرَكَهُ

وقَلَاه. فأبطَلَ اللهُ تَعَالَى دعواهم.

إذن، نَفْيُ التَّركِ، ونَفْيُ البُغضِ المرادُ به إثباتُ كمالِ الضِّدِّ، فضِدُّ التَّركِ العِنايةُ بالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وضِدُّ البُغضِ المَحَبَّةُ، فكأنَّه قالَ عَزَّوَجَلَّ: إنَّ اللهَ تَعالَى قَدِ اعتنى بِكَ، وإنه قَدْ أحبَّك عِنايةً لَيْسَ فيها تَرك، وحُبًّا لَيْسَ فيه بُغْضٌ.

قوله تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤] الآخِرَةُ يعني: الدَّارَ الآخِرةَ، ﴿خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: مِن الدُّنيا، ويَحتملُ أَنْ يَكُونَ المعنى: ولَلْعَاقِبَةُ الآخِرَةُ خيرٌ لك مِن الأُولى، يعني: إنَّ عاقِبَةَ أَمْرِكَ ستكُونُ خيرًا لك مِن بَدْئِه؛ لأنَّ الرَّسُولَ ﷺ فِي أولِ أمْرِهِ أُوذِيَ، حتَّى اضْطَرَّهُ المشركون إِلَى ترْكِ أحبِّ البلادِ إِلَى اللهِ، وأَشْرَفِها عنده، وهي مكةُ، فخَرَجَ منها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خائفًا عَلَى نفسِه، وقِصةُ الهجرةِ مشهورةٌ.

وأنا بهذه المناسبةِ، أكررُ مرةً بَعد أخرى، أكررُ عَلَى إخواني المُسْلِمِينَ أَنْ يقرؤوا سِيرةَ النَّبيِّ ﷺ لأنَّ ذلك يَزيدُ فِي الإيمانِ، ويَزيدُ فِي محَبَّةِ اللهِ ورسولِه ﷺ وتَتبيَّنُ به حِكمةُ اللهِ ورسولِه ﷺ ويحصُلُ بذلك للإِنْسَانِ كمالُ الاتِّباعِ والأُسوةِ برسولِ اللهِ ﷺ.

ومع الأسفِ بَعْضُ النَّاسِ لو تسألُه عن تاريخِ عظيمٍ مِن عُظماءِ الكفَّارِ: متى وُلِدَ؟ وكيف تطوَّرَت حياتُه، قال: وُلِدَ فِي كذا، وتطوَّرت حياته كذا وكذا، ولو تسألُه عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: لا أدري.

فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ اللهُ له: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾، أقول: الآخِرةُ هِيَ الدارُ الآخِرةُ، ﴿خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أو أَنَّ الآخرةَ يعني: العاقِبةُ خيرٌ

لك مِن الأُولى، فيكونُ فِي هَذَا بِشارَةٌ مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ للرَّسُولِ ﷺ أَنَّ اللهَ سيجعلُ العاقِبَةَ له.

قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ وهل الآخرةُ خيرٌ مِن الأُولى لمن اتَّبَعَهُ؟

الجواب: نعم، واللهِ خيرٌ مِن الأُولى لمن اتَّبَعَهُ ظاهرًا وباطنًا فِي العقيدةِ، والعبادةِ، والأخلاقِ، والمعاملةِ، كل إِنْسَانٍ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ﷺ فِي هَذِهِ الأشياءِ، فإِنَّ الآخِرَةَ خيرٌ له مِن الأُولى، ولهذا جاء فِي الحَدِيثِ أَنَّ «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الكَافِرِ**»[1]، لأنَّ المؤمنَ إذا نَسَبَ الحياةَ الدُّنيا إِلَى الآخرةِ وجَدَها سِجْنًا عَلَى أَنَّه - أي المؤمن- حياتُه طَيِّبَةٌ.

ويُذكَرُ عن ابنِ حَجَرٍ العَسْقَلانيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكان قاضِيَ القُضاةِ فِي مصرَ، وتعرفون أن قاضيَ القُضاةِ يَمُرُّ بِمَوْكِبٍ، فمَرَّ يومًا مِن الأَيَّامِ فِي مَوْكِبه عَلَى العَرَبَةِ تَجُرُّه الخُيول، أو البِغَال، والنَّاس وراءه، ومَرَّ بِيَهُودِيٍّ فِي مصر، يهوديٍّ زَيَّاتٍ يبيعُ الزَّيتَ، وكُلُّ ثيابِه مُلَوَّثَه بالزَّيْتِ، فأوقفَ الموكِبَ، وقال له: يا قاضيَ القُضاةِ -أو كلمة نحوها- إن نَبِيَّكُم يقول: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الكَافِرِ**». فكيفَ كان ذلك؟

هَذَا اليهوديُّ فِي غايةِ ما يكونُ مِن الشَّقاء، زَيَّاتٌ مُتْعَبٌ فقيرٌ، وابنُ حَجَرٍ العسقلاني مِن حُفَّاظِ الأُمةِ، وممن خَدموا السُّنَّةَ، وهو قاضي القُضاةِ، مُكَرَّمٌ مُعَظَّمٌ مُبَجَّلٌ، كيف هذا؟ يقوله اليهودي، يريدُ أَنْ يعترضَ؛ لأنَّ أعداءَ الْمُسْلِمِينَ يريدون أَنْ يعترضوا عَلَى الكتابِ والسُّنَّةِ، لعلهم يجدونَ مَنفذًا للطعنِ فيهما -قاتلهم اللهُ-

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، بابٌ، رقم (٢٩٥٦).

فقال له ابنُ حَجَرٍ: نعم، أنا فيما ترى مِن النعيمِ، وأنت فيما ترى مِن البؤسِ، ولكنَّ النعيمَ الَّذِي أنا فيه بالنِّسْبَةِ لنَعِيمِ الآخِرةِ سِجْنٌ، وأنت بما أنت فيه مِن البُؤسِ والشَّقاءِ فِي جنةٍ(١).

لأنَّ هَذَا اليهودي إذا مات ذَهَبَ إِلَى النَّارِ -والعِيَاذُ باللهِ- والنَّارُ أَشَدُّ حَرًّا، كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ﴾ [التوبة:٨١]، اليهوديُّ بُهِت؛ لأنَّ هَذَا جوابٌ مُسَدَّدٌ، فقال: أشهدُ أن لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ. آمَن؛ لأنَّ تطبيقَ الحَدِيثِ عَلَى الواقعِ يزيدُ الإِنْسَانَ إيقانًا، ومِثْلُ هَذِهِ القضيةِ -وإن كنتُ ما أُحِبُّ أَنْ أُطِيلَ عليكم- لكن لا بُدَّ أن نَذْكُرَهَا؛ لأنها تُفِيدُ الإِنْسَانَ فائدةً عَظِيمةً.

يقال: إنَّ أَحَدَ العُلَماءِ كان فِي مَطعمٍ فِي بلدٍ أُوروبي، والمطعمُ يجمعُ بين المُسْلِمِينَ وغيرِ المُسْلِمِينَ؛ لأنه فِي بلدٍ أوروبيةٍ، وفيه رَجُلٌ مِن أحبارِ اليهودِ أو النصارى، رأى هَذَا الشيخَ يأتي النَّاسُ إليه، يَسْتَفْتُونَهُ ويسألونه، فعَرَفَ أَنَّه عالِمٌ كبيرٌ، فأتى إليه يُريدُ أَنْ يَدُقَّ عَلَى رأسِه، فقال له فِي القُرْآنِ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، قال: نعم، قال له: كيف أَجِدُ فِي القُرْآنِ كيف أَصْنَعُ هَذِهِ السَّمْبُوسَةَ، وهذا المَرَقَ، وهذا الخُبْزَ؟ كيف أصنَعُه؟ ما وجدتُ فِي القُرْآنِ، أقرأُ القُرْآن مِن فاتحتِه إِلَى خاتمتِه ما أجدُ فيه إذا أردتَ أن تصنعَ السَّمْبُوسَةَ، فافعل كذا وكذا.

القُرْآنُ ما هُوَ كتابُ مَطبخٍ حتَّى يكونَ فيه هكذا، لكنَّ الرَّجُلَ أراد بهذا وَخْزَ

(١) فيض القدير (٣/ ٥٤٦).

الإسلامِ من هَذِهِ الناحيةِ، أَنَّ القُرْآنَ ما هُوَ بتبيانٍ لكلِّ شيءٍ، قال: واللهِ القُرْآنُ تِبيانٌ لكلِّ شيءٍ، ثمَّ إِنَّ الرَّجُلَ العالِمَ دعا صاحبَ المطعمِ، قال: تعالَ، كيف تصنعُ هذا؟ قال: أفعلُ كذا وكذا وكذا، ووَصَفَ الطَّبْخة تمامًا مِئة بالمِئَة، قال: هكذا قالَ القُرْآنُ، سُبْحَانَ اللهِ! أين الَّذِي قالَ القُرْآنُ؟ قال: إِنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] سُبْحَانَ اللهِ! أرشَدَ القُرْآنُ إِلَى أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي نجهلُه نسألُ أهلَ العِلمِ به، فعلى هذا صار القُرْآنُ تِبيانًا لكلِّ شيءٍ.

فأُريد مِن المُسلم أَنْ يكونَ ذا انتباه عندما تَحُلُّ به المُعْضِلات، حتَّى يُدْحِضَ أعداءَ اللهِ؛ لأنَّ أعداء الله يَتَرَبَّصُون بنا الدَّوَائِرَ، ويُريدون أن نَشُكَّ فِي دِينِنا وفي رسُولنا، وفي رَبِّنا عَزَّوَجَلَّ.

قوله تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] اللَّهُمَّ لك الحمد، وعدٌ مِن الله عَزَّوَجَلَّ لكن لاحِظُوا الآية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾، فـ(سَوْفَ) تَدُلُّ عَلَى التحقيق لكن بِمُهْلَةٍ، بخِلاف السِّين، فإِنَّها تَدُلُّ عَلَى التحقيق، لكن بسُرعة، فإذا قلتُ: سأعطيك كذا. فمعناه أَنَّ إعطائي إياك مُحَقَّق فوري، وإذا قلتُ: سوف أُعطيك، فمعناه لَيْسَ فوريًّا، أنا وعدتُك الآن، لكن ما هُوَ فورِيٌّ، والآية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾، وفِعلًا حَصَل، فقد خرج رسول الله ﷺ من مَكَّة طَرِيدًا خائفًا عَلَى نفسه، ولم تمضِ ثماني سنوات إِلَّا وقد دخلها عزيزًا مُنتصرًا مُظفَّرًا -صلوات الله وسلامه عليه- حتَّى إنه فِي كُتب التاريخ أنه أخذ بِعِضَادةِ بابِ الكعبة، وقُرَيْشٌ زُعماؤهم وكُبراؤهم تَحْتَهُ، قال: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟**»، وهم الَّذِينَ طَرَدُوه، وآذَوْهُ، قَالُوا: خيرًا -يعني: تفعلُ بنا خيرًا- أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ

كَرِيمٍ، فقال لهم: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»(١). -صلوات الله وسلامه عليه- وهذا تمام العَفْوِ، العَفْو مَعَ القُدرة هُوَ العفو الحقيقي، ولهذا يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٩٩]، أما العَفْوُ مَعَ العجز فليس بعفوٍ.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] أعطاه اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِن المالِ الشَّيْء الكثير، وكان فِي أول أمرِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يجدُ المالَ، فيَمضي عليه الشَّهران والثَّلاثة لا يُوقَد فِي بيته نارٌ، قِيل لعائشةَ: فما طعامُكم؟ قالت: «**الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالمَاءُ**»(٢)، الشَّهران والثَّلاثة لا يُوقَد فِي بيته نار عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وكان يُقدَّمُ إليه الرَّجُلُ ليُصَلِّيَ عليه، فيسأل: «**هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟**»، فإذا قَالُوا: نعم، قال: «**فَهَلْ تَرَكَ شَيْئًا؟**»، إذا قَالُوا: لا، قال: «**صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ**». لأنَّ صَلَاة الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلَى الميت شفاعةٌ، وصاحِبُ الدَّيْن لا تنفَع فيه الشَّفاعةُ، فكان يتخَلَّى عن الصَّلاةِ عليه، ويقول: «**صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ**»(٣).

وقُدِّم إليه رَجُل مِن الأنصارِ ذاتَ يوم، فتَقَدَّمَ خُطوات ليُصَلِّيَ عليه، ثمَّ سأل: «**هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟**» قَالُوا: نعم، عليه دِينَاران، قال: «**صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ**». وترك الصَّلاة، فتقدم أبو قتادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقال: الدِينَاران عليَّ، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**حَقُّ الغَرِيمِ، وَبَرِئَ مِنْهُمَا المَيِّتُ**». قَالَ: نَعَمْ، فَصَلَّى عَلَيْهِ(٤).

---

(١) عزاه ابن كثير في السيرة النبوية (٣/ ٥٧٠) لابن إسحاق.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، بابٌ، رقم (٢٥٦٧)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، بابٌ، رقم (٢٩٧٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحوالات، باب إن أحال دين الميت على رجل جاز، رقم (٢١٧٣).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٠، رقم ١٤٥٩٠).

ولما فتح اللهُ عليه، وكثُرت الأموالُ عنده، قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَنَا أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**»، تحقيقا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦]، «**فَمَنْ تُوُفِّيَ مِنَ المُؤْمِنِينَ فَتَرَكَ دَيْنًا، فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ**»(١). فصار يقضي الدَّين هُوَ بنفسه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين فتَح اللهُ عليه، كُلُّ هَذَا داخلٌ فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾.

وكذلك أيضًا العطاء الأكبر يوم القيامة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، فإن النَّاسَ يومَ القِيامة يَلحَقُهم مِن الغَمِّ والكَرْبِ ما لا يُطيقون؛ لأنَّ اليومَ طويلٌ، وقَدْرُه خمسون أَلْفَ سَنة، الشَّمْسُ تَدْنُوا منهم بمِقْدَارِ مِيل، ويَلْحَقُهم مِن الغَمِّ والكَرْبِ ما لا يُطِيقُون، فيقولون: اطلُبوا مَن يشفعُ لنا يُريحُنا مِن هَذَا المقامِ، فيأتون إِلَى آدَمَ، فيعتذرُ بأنه أكل مِن الشجرةِ، ومع ذلك فقد تَابَ وتَابَ اللهُ عليه، واجْتَباهُ رَبُّه وهداه، لكن نظرًا لِشِدَّةِ تَعْظِيمِه لِرَبِّه صار فيه هَذَا الخَجَلُ، خَجِل أَنْ يتقدَّمَ إِلَى اللهِ تَعَالَى لِيَشْفَعَ فِي الخَلقِ؛ لأَنَّه فَعَلَ معصيةً، مَعَ أَنَّ هَذِهِ المعصيةَ لم يَبْقَ أثرُها عليه بدليلِ قولِه تَعَالَى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٣٧].

يأتون إِلَى نُوحٍ أولِ رسولٍ أُرسلَ إِلَى أهلِ الأرضِ، يطلُبون منه الشَّفاعةَ، فيقول: لا أستطيعُ لأني سألتُه ما لَيْسَ لي به عِلمٌ، وذلك لما وَعَدَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُنجيَه وأهلَهُ، صار أحدُ أولادِه كافرًا، أَحَدُ أولادِ رسولٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كافِرٌ، نعم، صار كافرًا، وصار مِن المُغْرَقِين، قالَ نوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود:٤٥] وقد وعدتَ أن تُنْجِيَني وأهلي، ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكفالة، باب من تكفل عن ميت دينا، فليس له أن يرجع، رقم (٢١٧٦)، ومسلم: كتاب الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته، رقم (١٦١٩).

قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[هود:٤٥-٤٦]، الله أكبر! نُوحٌ مِن أُولي العَزْم مِن الرُّسل، كيف يخاطبُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ هَذَا الخطابَ: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦].

رسولٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوَجِّهُ الربُّ إليه الموعظةَ وهو مِن أُولي العزمِ؛ لأنَّ اللهَ لَيس بَيْنَهُ وبَيْنَ النَّاس نَسَب، فأكرمُ النَّاسِ عندَ اللهِ أَتْقَاهُم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] والنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آخِرُ الرُّسلِ قالَ اللهُ له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:١]، الله أكبر! والرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ»[1]. ويوجه اللهُ له الخطابَ ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:١-٣]، ويقول عَزَّوَجَلَّ له: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب:٣٧]، الَّذِي أنعمَ اللهُ عليه، وأنعمَ عليه الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ زَيْدُ بنُ حارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنعمَ اللهُ عليه بالإسلامِ، وأنعمَ عليه النَّبِيُّ بالعِتقِ، بل إنَّ إنعامَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليه بالعِتقِ مِن إنعامِ اللهِ عليه أيضًا: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ انظر: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ الله أكبر! كلامٌ عظيمٌ، ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، قال أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ كَانَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصيام، رقم (١٤٠١).

رَسُولُ اللهِ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ»[١].

ووالله ما كَتَمَ حرفًا مِن القُرْآنِ، وبلَّغ ما أُنزلَ إليه مِن ربِّه، وبيَّن أيضًا ذلك، قالَ الله تَعالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، وقد بيَّن -صلوات الله وسلامه عليه- للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهم باللَّفْظ والمعنى.

المهم أن نُوحًا ﷺ يعتذرُ عن الشَّفاعةِ بأنه سَأَلَ اللهَ ما لَيْسَ له به عِلمٌ.

يأتون إِلَى إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيَعتذرُ بشيءٍ لَيْسَ ذنبًا، لكنه لِقُوَّةِ تَعْظِيمِه للهِ عَزَّوَجَلَّ خَافَ أَنْ يَكُونَ ذنبًا، فيَعتذرُ بثلاثِ كَذَبَاتٍ كَذَبَها، وليست كَذِبًا فِي الواقعِ، قالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيما قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ﴾ [الأنعام:٧٦]، وليس قصدُه أنَّه يعتقدُ أَنَّ الكوكبَ ربُّه؛ لأَنَّه إمامُ الحُنفاءِ، لكن يريدُ أَنْ يتحدَّى هَؤُلاءِ الَّذِينَ يعبدون الكواكبَ، وكذلك فِي القمرِ، وكذلك فِي الشَّمْسِ.

ولما حَطَّمَ الأصنامَ ورجعَ قومُه إليها: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣] قالَ ذلك تحدِّيًا لقومِه، كأنَّه يقولُ: كبيرُ الأصنامِ لا يَرْضَى أَنْ يُشارِكَهُ أحدٌ فِي العبادةِ، ولذلك كَسَّرَ الأصنامَ. والواقعُ أن هَذَا الصنمَ لم يُكَسِّر الأصنامَ، لكنه يريدُ أَنْ يُبينَ لهم أَنَّ اللهَ لا يرضى أَنْ يُشْرِكَ به أحدٌ، وهذا الَّذِي ذكرناه يُطابق قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم:٢٨] -استمِع إِلَى ضَرْبِ المَثَلِ- ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، معنى الآية يقول: الآن أنتَ لك عَبْدٌ تَملِكه،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، رقم (٧٤٢٠).

هل هَذَا العبدُ يشاركُك فِي مالِك؟ الجواب: لا، ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ فإذا كان كذلك، فكيف تجعلون لله شريكًا فيما خلَقَ؟

عَلَى كُلِّ حَالٍ، نرجعُ إِلَى إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الكِذْبَة الثَّالثةُ أَنَّه قالَ للمَلِكِ الَّذِي أراد أَنْ يَسْطُوَ عَلَى امرأتِه، قال: هَذِهِ أُختي. وليستْ أُختَه مِن النسبِ، ولكنها أختُه فِي دِينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ[1].

عَلَى كل حالٍ، هَذِهِ إذا تأمَّلتَها وجدتَ أنها ليست كَذِبًا، لكنها تَوْرِيَةٌ، لكنَّ مقامَ الأنبياءِ مقامٌ عالٍ، لا يريدون أن تَنْخَدِشَ أعمالُهم بأيِّ شيءٍ.

يأتـون بعد ذلك إِلَى مُوسَى -وهـو مِن أُولِي العَزمِ- فيعتذرُ بأنه قتَلَ نفسًا لم يُؤمَرْ بِقَتْلِها، خَرجَ يومًا مِن الأَيَّامِ، ووجدَ إسرائيليًّا -أي: مِن بني إسرائيلَ- وقِبطيًّا مِن آل فِرْعَوْن، وجدهما يختصمان: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ قَالَ مُجاهِدٌ: وَكَزَهُ، أَيْ: طَعَنَهُ بِجُمْعِ كَفِّهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: وَكَزَهُ بِعَصًا كَانَتْ مَعَهُ، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥] أي: هَلك ومات؛ لأنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِن أَشَدِّ الأنبياءِ، فهو قويٌّ جدًّا، ولهذا لما رجع إِلَى قومِه بَعْدَ مِيقاتِ ربِّه، ووجدهم يعبدون العِجلَ، ألقى الألواحَ الَّتِي كُتبت فيها التوراةُ، قالَ بعضُ المفسرين: حتَّى تكسَّرت، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف:١٥٠] يقول: كيف تفعل؟ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ [طه:٩٤]؛ لأنَّ هارونَ وَعَظَهم،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]، رقم (٣١٧٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ، رقم (٢٣٧١).

لكن قَالُوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٩١].

المهم أن مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ اعتذرَ.

يأتي النَّاس إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كل هَذَا يوم القيامةِ -نَسْأَلُ اللهَ أَنْ ينجيَنا وَإِيَّاكُم مِن أهوالِه- يأتون إِلَى عِيسَى، فلا يتعلَّلُ بشيءٍ، لكن يريدُ أَنْ يُعْطِيَ الفَضْلَ لأهلِه، فلا يَذكرُ عن نفسِه شيئًا، لكن يقولُ: اذهبوا إِلَى مُحَمَّدٍ -صلوات الله وسلامه عليه- وأسألُ اللهَ أَلَّا يَحرمَني وَإِيَّاكُم مِن شفاعتِه، عَبْدٌ غَفرَ اللهُ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِه وما تَأَخَّرَ، فيأتونَ إِلَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيقول: «**أَنَا لَهَا**». ثم يسجُدُ تحتَ العَرشِ، ويُؤذَن له بالشَّفاعةِ[1]، هَذَا أيضًا ممَّا أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ ولم يُعطِه أحدًا مِن النَّاسِ، وفي هَذَا يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩] هَذَا المقام يَحْمَدُه فيه الأَوَّلُون والآخِرون مِن أُمته، ومِن غيرِهم.

ثم قالَ عَزَّوَجَلَّ مُذَكِّرًا نَبِيَّهُ بِنِعَمِهِ عليه، حتَّى يَقِيس ما يُستقبَلُ عَلَى ما مضى، أليس اللهُ قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥]؟ قَرَّرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ نِعَمَهُ عليه الماضيةَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقِيسَ ما يأتي عَلَى ما مَضى، قال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى:٦] يعني: قَدْ وجدَك.

وهنا قاعِدةٌ مُهمةٌ في العربيةِ: إذا أتى اسمُ الاستفهامِ مقترنًا بالنفيِ، فهو للتحقيقِ، فإذا قال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ يعني: قَدْ وجدَكَ، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] يعني: قَدْ شَرحنا لك صَدْرَك، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ بلى، كان النَّبِيُّ ﷺ يَتِيمَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، رقم (٤٤٧٦)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

الأبِ والأُمِّ، والعادةُ أَنَّ اليتيمَ إذا لم يَكُنْ أحدٌ يُؤويه يَضيعُ، ولهذا أَوصى اللهُ تَعالَى باليَتامى فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِن القُرْآنِ.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ أي: لا أُمَّ له ولا أَبَ، ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ آواهُ أولًا بِجَدِّه عبدِ المُطَّلِب، ثمَّ لما مات وله ثماني سنواتٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَفَلَهُ عمه أبو طالبٍ.

ومفعولُ (آوَى) محذوفٌ، وهنا قاعدةٌ أيضًا فِي النحوِ: إذا حُذِف المفعولُ دَلَّ عَلَى العُمومِ، فعلى هَذَا يكون: (آوى) أي: آواكَ وآوَى بِك، وكَمْ مِن أُناسٍ آوَوْا إِلَى الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وآواهم، فإذن حُذِفَ المفعولُ للعُمومِ، يعني: لم يُؤْوِكَ وَحْدَكَ، بل آواكَ وآوى بك أيضًا.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧] الله أكبر! انظرْ نِعمةَ اللهِ عَلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان فِي الأولِ ضالًّا لا يعرفُ شيئًا إطلاقًا، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ [الشورى:٥٢]؛ لأَنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يُوحَ إليه، وإنما ذَكَّرَهُ اللهُ تَعالَى بحالِه قَبل الوحيِ لِيَتبيَّنَ بذلك قَدْرَ نِعمةِ اللهِ عليه بالوحيِ، ولهذا يُقال: بِضِدِّها تَتبيَّنُ الأشياءُ.

إذن، اذكُرْ نِعمةَ اللهِ عليك حيثُ كنتَ لا تعلمُ شيئًا، ﴿ضَآلًّا﴾ يعني: لَيسَ عندك عِلم، ﴿فَهَدَىٰ﴾ هدى هدايةَ الدَّلالةِ، وهِدايةَ التوفيقِ، وهدايةُ الدلالةِ أن تَدُلَّ أحدًا عَلَى خيرٍ، وهدايةُ التوفيقِ أَنْ يفعلَ هَذَا الخيرَ.

هدايةُ الدَّلالة مثلًا تأتي لإِنْسَانٍ، وتقولُ: يا أخي، ترى الصَّلاةَ واجبةً مَعَ الجماعةِ، ويجبُ عليك أن تُتابعَ الإمامَ، وألا تَسْبِقَ الإمامَ، هَذِهِ هدايةُ دَلالةٍ، لكن

كونه يُصَلِّي مَعَ الجماعةِ، ويُتابعُ الإمامَ، هَذِهِ هدايةُ توفيقٍ، فهدايةُ التوفيقِ ليست إِلَّا للهِ وَحْدَهُ -اللهم اهْدِنَا- هدايةُ الدَّلالةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ وللرُّسلِ، ولِوَرَثَةِ الرُّسلِ مِن العُلَمَاءِ، فكلُّهم يَهْدُون النَّاسَ، قالَ الله تَعَالَى لنبيِّه مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢] يعني: تَدُلُّ النَّاسَ عليه، وقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، هَذِهِ الهدايةُ الَّتِي نفاها اللهُ عنه، هِيَ هدايةُ التوفيقِ، لا أحدَ يَقْدِرُ أَنْ يَهْدِيَ أحدًا، أي أَنْ يُوَفِّقَهُ فيعملَ.

أحيانًا تأتي بأولادِك تنصحُهم، وتُبينُ لهم الحقَّ، ولكن لا يوافقون؛ لأنَّ هِدايةَ التوفيقِ بِيَدِ اللهِ.

إذن، ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ يعني الهِدايتين جميعًا، قالَ الله تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:١١٣] هَذِهِ هِدايةُ الدَّلالةِ، وهِدايةُ التوفيقِ أهدى النَّاسِ فِي عبادةِ اللهِ هُوَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وكَلِمة (هَدَى) تحتاجُ إِلَى مفعولٍ، والتقديرُ: هداكَ أنت، وهدى بك، فكَمْ مِن أُناسٍ ضالِّين هداهم اللهُ عَلَى يدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بل قالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لِعَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ حين أرسله إِلَى خَيْبَرَ: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»(١)، أي: الإبل.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابًا من دون الله، رقم (٢٩٤٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، رقم (٢٤٠٦).

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨]، ﴿عَآئِلًا﴾ أي: فقيرًا، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي: وَسَّعَ لك فِي المالِ، أعطاكَ المالَ الكثيرَ.

وهنا نقولُ: (أغنى) تحتاجُ إِلَى مفعولٍ، وهو هنا محذوفٌ، والتقديرُ: أي: أغناك وأغنى بك، وكما سمعتم فِي أولِ الدرسِ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما فتحَ اللهُ عليه بالمغانمِ الكثيرةِ، صار يَقضي الدَّيْنَ عَنِ المَدِينِين، كذلك الأُمَّةُ اغتَنَت غِنًى عَظِيمًا بسبب اتِّبَاعِها لرسولِ اللهِ ﷺ.

أَلَمْ تعلَمُوا -بارك اللهُ فيكم- أَنَّ تاجَ كِسرى -مَلِكِ الفُرسِ- جِيءَ به مِن المدائنِ إِلَى المَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ هذه، لم تُفْقَدْ منه خَرَزَةٌ واحدةٌ، جِيء به إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جِيءَ به محمولًا عَلَى جَمَلَيْنِ -كما يقول المؤرِّخُون- لم يكن هناك سياراتٌ، ولا نَقَّالاتٌ، إنما هي الإبلُ، رُبط عَلَى جَمَلين، وصارا يسيران به مِن المدائنِ إِلَى المَدِينَةِ، ووُضِع بين يَدَيْ عُمَرَ الفاروقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي فَتَحَ اللهُ به الأمصارَ، وأَذَلَّ به أهلَ الكُفرِ والنفاقِ، وُضِعَ بين يديه، فتَعَجَّبَ، لم تُفْقَدْ منه خَرَزَةٌ واحدةٌ، فقال: «إِنَّ قَوْمًا أَدَّوْا هَذَا لَأُمَنَاءُ». فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: «إِنَّكَ عَفَفْتَ فَعَفَّتْ رَعِيَّتُكَ، وَلَوْ رَتَعْتَ لَرَتَعَتْ»[1]. وهذا حَقٌّ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ، (فأغنى) معناه أغناك وأغنى بك، ثُمَّ لما ذَكَّرَهُ اللهُ بهذه النِّعمِ العظيمةِ عَطَفَ عَلَى ذلك، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى:٩]، مُقابِلَ قولِه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى:٦]، يعني: ما دُمنا آوَيْناكَ فآوِ اليَتامى، لا تَقْهَرْهُم.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:١٠]، ﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ المُسْتَجْدِي المالَ، وكذلك السَّائلُ عن العِلمِ.

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٧/ ٧٥).

وهنا نُعطيكم -بارك اللهُ فيكم- **قاعِدةً فِي التفسيرِ**: إذا كانت الآيةُ الكريمةُ تَحتملُ مَعْنَيَيْنِ عَلَى السَّواءِ، ولا مُنافَاة بينهما، وَجَبَ أَنْ تُحمَلَ عليهما جميعًا، لأنَّ اللهَ تَعَالَى يَعلمُ ماذا يَحتملُ هَذَا اللفظُ، فإذا كان يَحتملُ المعنيين، فقد أراد اللهُ ذلك، فاحمِلْهُ عَلَى المعنيين، أما إذا كان المَعْنيَان أحدُهما أَظْهَرُ مِن الآخَرِ، فاحْمِلْهَا عَلَى الأَظْهَرِ، وأمَّا إذا كانت تَحتملُ مَعْنيَيْنِ عَلَى السواءِ، ولكنهما يَتَنافَيان، لا يُمكنُ أَنْ يجتمعا، فحينئذٍ اطْلُبِ المُرَجِّحَ لأَحَدِ المَعْنَيَيْنِ عَلَى الآخَرِ، فإنْ حَصَلَ فذاك، وإن لم يحصُلْ فتَوَقَّفْ، وقل: سُبحانَكَ لا عِلمَ لنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا.

ولكن اعلموا أنَّه لا يمكنُ أَنْ يوجدَ فِي كتابِ اللهِ شيءٌ لا تعلمُه الأُمةُ، فلا بُدَّ أن تعلَمَه الأُمةُ، إما كُلُّها، وإما أُولو العِلمِ منها، أما أَنْ يُوجَدَ فِي كتابِ اللهِ ما لَيْسَ له معنًى، فهذا مستحيلٌ، لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مفهومًا.

إذا أتاك فقيرٌ يسألُك، يقولُ: أَعْطِنِي، أنا محتاجٌ، ابنُ سَبيلٍ، فلا تَنْهَرْهُ، إما أن تقولَ له قولًا كريمًا، تقولُ: واللهِ يا أخي ما عندي شيءٌ، ما فِي يدي شيءٌ، وإما أن تُعْطِيَهُ، أمَّا أن تَنْهَرَهُ تقولُ مثلا: اغْرُبْ عن وجهي، ما عندي شيءٌ، اذهبْ. فهذا لا يصحُّ، فربما يأتي يومٌ مِن الأَيَّامِ تكون أنت سائلًا بمنزلتِه، الدُّنيا ليست معلومةً.

وكذلك السائلُ عن العِلمِ، يأتيك إِنْسَانٌ يسألُك، ويريدُ أن تُبَيِّنَ له حُكمَ اللهِ، فيجبُ أن تُبيِّنَهُ، و«**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[1]،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، رقم (٣٦٥٨)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، رقم (٢٦٤٩)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه، رقم (٢٦٥).

نعوذُ باللهِ مِن ذلك، ولكن إذا عَلِمْتَ أَنَّ السَّائلَ يُريدُ التَّعَنُّتَ، أو يريدُ أَنْ يَضْرِبَ آراء العُلَماءِ بعضَها ببعضٍ، فحينئذ انْهَرْهُ.

ويَدُلُّ لذلك عَمَلُ السَّلفِ الصَّالِحِ، فقد جاء رَجلٌ إِلَى إمامِ دارِ الهِجرةِ مالِكِ بنِ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: يا أبا عبد الله، الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى، كيف استوى؟ لم يَقُلْ: ما معنى استوى، قال: كيف؟ فالسُّؤالُ إذن عن الكيفيةِ لا عن المعنى، فأَطْرَقَ مالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ برأسِه، حتَّى علاهُ الرُّحَضَاءُ -أي: العَرَقُ- يعني: حتَّى صار يتصَبَّبُ عَرَقًا؛ وذلك لِعِظَمِ السُّؤالِ فِي قلبِه، ثمَّ رَفَعَ رأسَهُ، وقال قولته المشهورةَ: «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بدعةٌ، وما أُراكَ إِلَّا مبتدعًا». ثُمَّ أَمَرَ به فأُخْرِجَ من مسجدِ النَّبيِّ ﷺ[1]. وهَذَا نَهْرٌ شديدٌ، أُخرِجَ مِن المَسْجِدِ؛ لأَنَّه سؤالُ مبتدعٍ، أنت تسأَلُ عن كيفيةِ صِفاتِ اللهِ، مَن يسأَلُ عن كيفيةِ صفاتِ اللهِ إِلَّا رَجلٌ مُتَعَنِّتٌ مُبْتَدِعٌ.

ولهذا نجدُ الصَّحابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهُمْ واللهِ خيرٌ منا، وأشدُّ منا تعظيمًا للهِ، وأشدُّ منا حِرصًا عَلَى معرفةِ اللهِ بأسمائِه وصفاتِه، لا يسألون مُحَمَّدًا رسولَ اللهِ، الَّذِي عنده مِن العِلمِ ما لَيْسَ عند غيرِه مِن صفاتِ اللهِ، فلا يسألونه عن الكيفيةِ أبدًا.

وبهذه المناسبةِ، أَوَدُّ أَنْ أُوَجِّهَ نصيحةً إِلَى إخوانِنا مِن طَلَبةِ العِلمِ الَّذِينَ يُريدون أَنْ يُحَقِّقوا فِي جانبِ العقيدةِ والتَّوحِيدِ، وهم يُشْكَرُونَ عَلَى هذا، لكنك تجدُهم يُنَقِّبُون عن أشياءَ ما سَأَلَ عنها الصَّحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولا بَحَثُوا فيها، يأتي مثلًا

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٥، رقم ٨٦٧).

إِنْسَانٌ يقولُ: إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ قال: «**عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا**»[١]، ثمَّ يُتْعِبُونَكَ: هل يُوصَفُ اللهُ بالمَلَلِ أَو لا؟! سُبْحَانَ اللهِ! هل أنتَ أَحْرَصُ مِن الصَّحَابَةِ؟ والمسؤول الَّذِي يوجهُ إليه السُّؤالُ الآن فِي وقتِنا هَذَا هل هُوَ أعلمُ مِن الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ الجواب: لا.

إذن، السببُ موجودٌ، والمانِعُ مفقودٌ فِي عهدِ الصَّحَابَةِ، ومع ذلك لما قالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَذَا الكلامَ، ما قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هل يُوصَفُ اللهُ بالسَّآمةِ أو بالمَلَلِ؟ فَلْيَسَعْكَ ما وَسِعَهُم.

ويبحث بعضُ النَّاسِ: «**أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ**»[٢]، إِلَى آخرِه، والذي عَلِمنا فِي البخاريِّ أنها خَمسةُ أصابعَ الَّتِي ذَكَرَها الرَّسُولُ ﷺ لنا، يأتي فيقولُ: هل له أكثرُ مِن خمسةِ أصابعَ؟! يا ناسُ اتَّقوا اللهَ، هل أنتم أحرصُ مِن الصَّحَابَةِ عَلَى معرفةِ اللهِ؟ والمسؤولُ الَّذِي يُوَجَّهُ إليه السُّؤالُ الآن هل هُوَ أعلمُ باللهِ مِن الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

إذن، إذا كان العِلمُ موجودًا فِي عهدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنْ هُوَ أعلمُ منا، وموجودٌ مَن هُوَ أَحْرَصُ منا عَلَى معرفةِ اللهِ بأسمائِه وصفاتِه، ولم يسألوا، فالواجبُ الكفُّ عن هذا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله عَزَّوَجَلَّ أدومه، رقم (٤٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن، رقم (٧٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، رقم (٤٥٣٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، بابٌ، رقم (٢٧٨٦).

ولذلك أنصحُ إخواني طُلَّابَ العِلمِ، ولا سِيَّما الَّذِينَ يُريدون أَنْ يُحقِّقُوا فِي بابِ العقيدةِ والتَّوْحِيدِ، أنصحُهم بالبُعدِ عن التَّعنُّتِ والتَّنطُّعِ، وأقولُ: قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ»، قَالَهَا ثَلَاثًا[1]. يا أخي، سِرْ عَلَى ما سار عليه السَّلَفُ، ولا تسأَلْ عما لم يسألوا عنه، فهم خيرٌ منك.

قوله تعالى:﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، حَدِّثِ النَّاسَ بنِعمةِ اللهِ، لا افتخارًا عليهم، ولكن إظهارًا لِنِعْمَةِ اللهِ، والتحدُّثُ بنعمةِ اللهِ ينقسم إِلَى قسمين: تَحدُّثٌ باللِّسانِ، بأن تقولَ: أنا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ بِوَلَدٍ، أنعمَ اللهُ عليَّ بزوجةٍ، أنعمَ اللهُ عليَّ بمالٍ، أنعمَ اللهُ عليَّ بِعِلْمٍ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

والثَّاني: تحدُّثٌ بالفعلِ، بأن تُرِي أثرَ النعمةِ عليك، فإذا كنت غَنِيًّا تَلْبَسُ ما يَلْبَسُ الأغنياءُ، وتَركبُ ما يركبُ الأغنياءُ، وتَطْعَمُ ما يَطْعَمُ الأغنياءُ، أمَّا أَنْ تَلْبَسَ لِباسَ الفُقراءِ وأنت قَدْ أغناك اللهُ، فهذه شَماتَةٌ يَشْمَتُ النَّاسُ بك، وليس تَحدُّثًا بنعمةِ اللهِ.

فإنْ قالَ قائلٌ: رَجُلٌ كان مُسرفًا عَلَى نفسِه، كان مُنحرفًا فِي عقيدتِه، وفِي أخلاقِه، وفِي عبادتِه، وفِي معاملتِه، فهل له أَنْ يقولَ: كنت كذا، فهداني اللهُ؟

فالجوابُ: عَلَى سبيلِ التفصيلِ لا تَقُلْ؛ لأني أخشى أَنْ يَكُونَ هَذَا مِن المجاهرين الَّذِينَ يفعلون المُنْكَرَ فيَستُرُهم اللهُ، ثمَّ يتحدَّثُون به، لكن عَلَى سبيلِ الإجمالِ لا بأسَ أن تقولَ: واللهِ كنتُ ضالًّا ضائعًا تائهًا، فمَنَّ اللهُ عليَّ بالهدايةِ وبالاستقامةِ. فلا بأسَ، أما عَلَى سبيلِ التفصيلِ، فهذا أخشى أَنْ يَكُونَ مِن

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).

المجاهرةِ الَّتِي قالَ فيها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَـافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم (٥٧٢١)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه، رقم (٢٩٩٠).

الدرسُ الثاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١-١١].

قولُه: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أَقْسَمَ اللهُ تَعالَى بالضحَى، وهو انتشارُ نورِ الشمسِ في أولِ النهارِ، وأقسمَ بالليلِ إذا سَجَى؛ أي: إذا غطَّى البَسيطةَ؛ أي الأرضَ، وهو يُشبِهُ ما سَبَقَ في السورةِ الَّتي قبلَها، حيثُ أَقْسَمَ بالليلِ إذا يَغشَى والنهارِ إذا تجلَّى.

واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى له أن يُقسِمَ بما شَاءَ مِنْ خَلْقِه، وإقسامُهُ بشيءٍ من خلقِه يدلُّ على عظمةِ هذا المخلوقِ الَّذي أقسمَ اللهُ به، أما نحنُ فلا يَحِلُّ لنا أن نُقسِمَ بغيرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فقد قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ حلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»(١).

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥، رقم ٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

وقال: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»(١).

وقال: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ»(٢).

وكانوا في الجاهليةِ يَحْلِفُونَ بالآباءِ تعظيمًا لآبائهمْ، فجاء الإسلامُ المبنيُّ على الإخلاصِ والتوحيدِ بنسخِ ذلك وتحريمِه، وجَعَلَه منَ الشركِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:٣] أي: ما تركك وأهملَكَ، بل اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يَحُوطُ نبيَّه بالنصرِ والتأييدِ والتثبيتِ، حتَّى في إنزالِ القُرآنِ، أَنْزَلَه اللهُ عليه مُفَرَّقًا، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني أَنْزَلْناه كذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي نقوِّي قلبَكَ؛ لأنَّه كلما نَزَلَتْ آيةٌ ثَبَّتَتْ قلبَ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وازداد الَّذِينَ آمنوا بها إيمانًا، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

فاللهُ عَزَّوَجَلَّ ما وَدَّعَ النبيَّ ﷺ وما تَرَكَهُ، بل ثبَّته وأعانهُ وقوَّاه حتَّى ظَهَرَ -وللهِ الحمدُ- على أعدائِه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، رقم (٦٦٤٦)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

قولُه: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: وما أبغضَ. ولم يَقُلْ: ما أبغضَكَ. تكريمًا لرسولِ اللهِ ﷺ أن يُضافَ إليه البُغضُ، بل أحبَّ اللهُ رَسُولَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لأن رسولَه امتثلَ أمرَ اللهِ؛ لأن رسولَه اتَّبعَ أمرَه، وكلما كان الإنسانُ لأمرِ اللهِ أَتْبعَ كان للهِ أحبَّ؛ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

اللَّهُمَّ ارزقنا حُبَّكَ، وحُبَّ مَن يُحِبُّكَ، وحبَّ العملِ الَّذِي يقرِّبُنا إلى حبِّك يا ربَّ العالمينَ، اللَّهُمَّ اجعلْ حُبَّكَ أحبَّ شيءٍ إلينا، اللَّهُمَّ اجعلْ حُبَّكَ أحبَّ إلينا من نُفوسِنا وأبنائِنا وأموالِنا وأهلِنا، وحُبَّ رسولِك أحبَّ إلينا من كلِّ مخلوقٍ، إنك على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ إذا انتفى البُغضُ فإنه تَثبُتُ المحبَّةُ الخالصةُ الَّتي لا يَعتريها أيُّ بُغضٍ.

قوله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤] ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى أن الآخرةَ خيرٌ مِنَ الدنيا، على ثلاثةِ وجوهٍ: مُطلَقةٍ، ومُقيَّدةٍ بشخصٍ، ومقيدةٍ بوصفٍ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧] فمُطلَقُ الآخرةِ ذاتها خيرٌ منَ الدنيا وأبقى من الدنيا، حتَّى إن النبيَّ ﷺ قال: «مَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»(١).

فموضعُ السوطِ خيرٌ من الدنيا وما فيها مِن أوَّلِ ما خُلِقَتْ إلى أن تَفنَى، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا من ساكني الجنةِ. فهذا مُطلَقٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

والمقيَّدُ بوصفٍ قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧]، فكل إنسانٍ مُتَّقٍ فالآخرةُ خيرٌ له من الدنيا، حتَّى أول الآخرةِ، أوَّلُ يومٍ يموتُ الإنسانُ فيه فإنه يَرَى أن موتَه خيرٌ من الدنيا؛ ولهذا إذا حُمِل الإنسانُ على نعشِه وخُرِجَ به من بيتِه يقولُ: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي؛ لأنَّه عند الموتِ قد بُشِّرَ بالجنةِ، فيقول: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي[1]. أي لهذا الَّذِي بُشِّرَ به. اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ هؤلاء.

إذن، الآخرة خيرٌ لِمَنِ اتقى، فأيُّ إنسانٍ مُتَّقٍ فالآخرةُ خيرٌ له، حتَّى القبرُ خيرٌ له من قُصورِه الَّتي فارَقها في الدنيا؛ لأنَّه يُفتَح له بابٌ إلى الجنةِ ويأتيه من رَوحها ونَعيمها، وينسَى ما كان فيه منَ النَّعيمِ في الدنيا.

والثَّالثُ مقيَّدٌ بشخصٍ، مثلُ هذه الآيةِ التي معنا، يقول اللهُ للرسولِ ﷺ: ﴿وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾، ولهذا خطب النبيُّ ﷺ في آخرِ حياتِه وقال: «**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**». فبكى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]، ولم يُنقَلْ أن غيرَه منَ الصَّحابَة بكَى، لأن أبا بكر أخصُّ النَّاس برسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، حتَّى أعلن النبيُّ ﷺ في مرضِه أنَّه لوِ اتخذ من أُمَّتِهِ خَليلًا لاتَّخذ أبا بكرٍ خليلًا[3]. رضي الله عن أبي بكرٍ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول الميت وهو على الجنازة: قدموني، رقم (١٣١٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم (٣٩٠٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة، رقم (٣٩٠٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٢).

بكى أبو بكر لما سمع هذا من الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأنَّه علِم أن الرَّسُولَ هو المخيَّرُ، وأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ اختار ما عندَ اللهِ، فكان أبو بكرٍ أعلمَ النَّاسِ برسولِ اللهِ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] (سوف) تدل على أمرينِ؛ تدل على تَحقُّقِ الأمرِ ولكن متأخِّرًا.

وقد أعطاهُ اللهُ، فقد فتحَ النبيُّ ﷺ بدعوتِه مَشارقَ الأرضِ ومغاربَها، أقول: بدعوتِه؛ لأنَّه بنفسِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنَّما فتحَ جزيرةَ العربِ، لكنَّ خلفاءَه الراشدينَ فَتَحوا مَشارقَ الأرضِ ومَغارِبَها، ففتحوا العراقَ، والشامَ، واليَمَنَ، ومِصرَ، واتَّسعتْ مَملكةُ الإسلامِ بعد ذلك اتِّساعًا هائلًا، ولم يوجد أي دَعوةٍ أشد وأسرع انتشارًا من الدعوةِ الَّتي جاء بها مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فما فتَحه الخلفاءُ الراشدونَ من أراضي الكفارِ كالذي فتَحه النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لأن أيَّ حَسَنَةٍ تقومُ بها هذه الأمةُ إلى يومِ القِيامَةِ فلرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مِثلُها، فمَن يُحصِي حسناتِ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ؟ الله عَزَّوَجَلَّ.

إذن، كلُّ عملٍ صالِحٍ فللرسولِ مثلُ أجرِهِ، فلو يقول الإنسانُ مِنَّا: سُبْحَانَ اللهِ. فللرسولِ مثلُ أجرِهِ، ولو يقولُ: الحمدُ للهِ. فللرسولِ مثلُ أجرِه، ومِن هنا نَعرف قِلَّةَ بصيرةِ أولئكَ القومِ الَّذِينَ يَعملون الصالحاتِ ويقولون: لِرُوح مُحَمَّدٍ، يعني يجعلونَ ثوابَ أعمالِهم لمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فيذبحون أُضْحِيَّةً في أيامِ الأضاحيِّ ويقولون: لمُحَمَّدٍ، أو بعضُهم يقول: لِرُوحِ مُحَمَّدٍ، ويَتَصَدَّق في رمضانَ ويقول: لِرُوحِ مُحَمَّدٍ. نقول: سُبْحَانَ اللهِ! ما أَسْفَهَكَ! إن

مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ له مِثْلُ أجرِكَ سواء قلتَ هذا أمْ لم تقلْ، ولهذا كان أشدُّ النَّاسِ محبةً للرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهم الصَّحَابَةُ، لم يَفعلوا مثلَ هذا، فلم يفعلْ أحدٌ منهم طاعةً ويقولُ: لِرُوحِ مُحَمَّدٍ، أو ثوابُها لُمحَمَّدٍ.

وأول ما عُرف هذا في القرنِ الرَّابعِ، سُبْحَانَ اللهِ! القرنُ الرَّابعُ حَصَلَ فيه من البِدَعِ الشيءُ الكثيرُ؛ لأنَّه بعدَ القرونِ الثلاثةِ المفضَّلةِ، أما العارفونَ باللهِ، العارفونَ بشريعةِ اللهِ فيَعلمون أن مُحَمَّدًا -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه- ما نفعلُ حسنةً إلَّا وله مثلُ أَجرِها، لا شكَّ.

إذن، لا فائدةَ أن تُعطِيَه الثوابَ، إذا أعطيتَه الثوابَ فقد حَرَمْتَ نَفْسَكَ، ولم تُجَدِّدْ نفعًا للرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّه قدِ انتفعَ بهذه الحسنةِ حيثُ إنَّه الدالُّ عليها.

ثمَّ قرَّر اللهُ عَزَّوَجَلَّ نعمتَه على رسولِه بشيءٍ واقعٍ، من أجلِ أن يَقيسَ عليه المستقبلَ فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى:٦]؛ لأنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عاشَ يتيمًا، وقد مات أبوه وهو في بطنِ أُمِّه، وماتت أُمُّه في أولِ ولادتِه، ولهذا استُرضِع عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهي ماتتْ قبل أن يبلغَ.

إذن، نَشَأَ يتيمًا ليس له أبٌ وليس له أمٌّ، فكَفَلَه جدُّه عبدُ المطَّلبِ، ولما مات عبدُ المطلبِ كَفَلَه عمُّه أبو طالبٍ، حتَّى أظهرهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على الدِّينِ كلِّه.

قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: فاقدَ الأمِّ والأبِ، وهنا نسألُ: هل اليتيمُ شَرْعًا مَن فَقَدَ الأمَّ أو مَن فَقَدَ الأبَ؟

الجواب: مَن فَقَدَ الأبَ حتَّى يبلغَ، فإذا بَلَغَ زال عنه اليُتْمُ، ولهذا يأتي بعضُ النَّاسِ الآن يسألُ المالَ ويقولُ: أنا يتيمٌ. واللحيةُ موجودةٌ، فهذا غيرُ صحيحٍ، فاليتيمُ هو الَّذِي فقد أباه ولم يَبْلُغْ.

قوله: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ آواه اللهُ عَزَّوَجَلَّ في الأولِ عند جدِّه عبدِ المطلبِ، ثمَّ عند عمِّه أبي طالبٍ، حتَّى أكرمهُ اللهُ تَعَالَى بالرسالةِ، وهذا واقِعٌ؛ لأن قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ استفهامٌ للتقريرِ، وحَسُن أن يَعطِفَ عليه قولَه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ فعَطَفَ الفعلَ الماضيَ على ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾؛ لأن ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ بمعنى قد وَجَدَ.

قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧] ضالًّا: يعني ليس عندك عِلمٌ منَ الشرعِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قبلَ أن يُوحَى إليه كان أُمِّيًّا كسائرِ قريشٍ، لا يَعرِفُ شيئًا من الكتابةِ، ولا يعرفُ شيئًا من القراءةِ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ [الأعراف:١٥٨].

لكن بعدَ أن نَزَلَ عليه القُرآنُ لم يكنْ أُمِّيًّا، بل كان مُعَلِّمًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

إذن ﴿ضَآلًّا﴾ بمعنى جاهلًا بشريعةِ اللهِ لا تعلمُ منها شيئًا، ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي فدلَّكَ على شَرْعِه جَلَّوَعَلَا ووفَّقَك له.

قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ يعني فقيرًا، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨] يعني: وسَّع عليك

العطاءَ بعد أن كنتَ فقيرًا، ولكن -يا إخواني- أغناه اللهُ عَزَّوَجَلَّ وأَغْنَى به، وهذا من الحكمةِ في كونِ المفعولِ به محذوفًا؛ لأنَّه قال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾، ولم يَقُلْ: فهداك، بل قال: ﴿فَهَدَىٰ﴾، أي هداك وهَدَى بك.

ولهذا لو قال قائلٌ: ما الفائدةُ من حذفِ المفعولِ به في قولِه: ﴿فَهَدَىٰ﴾؟

قلنا: فائدتان: لفظيَّةٌ ومَعنويةٌ.

اللفظيةُ: مناسبةُ الفواصلِ -رؤوسِ الآياتِ بعضِها لبعضٍ-.

والمعنويَّةُ: ليكونَ ذلك أعمَّ؛ لأن المعنى: فهداك وهَدَى بك.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى:٩] لما ذَكَّرَ اللهُ نبيَّه بِيُتْمِهِ قال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾؛ لِيَتَذَكَّرَ الإنسانُ الَّذِي كان يتيمًا حالَه حتَّى يرحمَ اليتيمَ الَّذِي فقدَ أباهُ قبل أن يبلغَ، فاليتيمَ لا تَقْهَرْه.

ولكنْ هل تؤدِّبُ اليتيمَ، بمعنى أنَّه لو أساءَ الأدبَ ولم ينتهِ إلَّا بالضربِ أتضربُه؟

نقولُ: نعم أَضرِبُه؛ لأنني إذا ضربتُ الطفلَ تأديبًا له فهذا إحسانٌ إليه، فعليه ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ إلَّا أن يكونَ ذلك تأديبًا له فلا بأسَ، فلو أرادَ اليتيمُ أن يُحرِقَ مالَه ومنعه وليُّه وانقهرَ اليتيمُ، وقام يَصيحُ، فمَنْعُهُ هذا ليس قَهرًا ولكن لمصلحتِه، وهذا لا يُنهَى عنه؛ لأن الشريعةَ الإسلاميةَ -والحمدُ للهِ- إنَّما جاءتْ بتحصيلِ المصالحِ الخالصةِ أو الراجحةِ، ودَفْعِ المفاسِدِ الخالصةِ أو الراجحةِ.

وقد جاء في الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ**»،

وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى(١). يعني أننا رُفقاءُ، لكن ما معنى كفالةِ اليتيمِ؟

معنى كفالةِ اليتيمِ أن تضمَّه إلى عِيَالِكَ يأكلُ معهم، ويشربُ معهم، وتكسُوه معهم، وتؤدِّبُه معهم، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران:٣٧].

فعلى هذا نقولُ: يجبُ علينا أن نُولِيَ اليتيمَ رعايةً خاصةً، وإحسانًا خاصًّا؛ لأنَّه انكسَرَ قلبُه بفقدِ أبيهِ، فاحتاجَ إلى الرفقِ واللِّينِ والإحسانِ بقدْرِ المستطاعِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:١٠] السائلُ عنِ العلمِ أو السائلُ للمالِ؟

إنْ قلتَ: السائلُ للعلمِ فهو يُناسبُ قولَه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ يعني: الجاهلُ يحتاجُ إلى الرفقِ إذا سَأَلَ، وإن نظرتَ إلى قولِهِ: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ قلت: إن السائلَ يناسبُ سائلَ المالِ، الفقير، حتَّى يكونَ عنده ما يعيشُ به.

وإذا قال قائلٌ: أفلا يَصِحُّ أن نجعلَ الآيةَ شاملةً للمعنيينِ؟ يعني: وأما السائلَ سؤالَ علمٍ، أو وأما السائلَ سؤالَ مالٍ، فإنه يجوزُ، بل إنَّه تقرَّرَ في قواعدِ التفسيرِ أن الآيةَ إذا كانتْ تَحتمِلُ معنيينِ لا مُرَجِّحَ لأحدِهما على الآخرِ ولا تناقُضَ بينهما، فإنها تُحمَلُ على المعنيينِ جميعًا، فإذا احتملتْ معنيينِ؛ الشرطُ الأولُ: لا مُرَجِّحَ لأحدِهما على الآخَرِ، والثَّاني: ولا منافاةَ بينهما، وَجَبَ أن تُحمَلَ عليهما جميعًا، فإن وُجِدَ مُرَجِّحٌ أُخِذَ بالراجحِ، وإن لم يُمْكِنِ الجمعُ بينهما رجعنا إلى النَّسْخِ؛ فننظر أيهما أقدمُ، فالسابقُ مَنسوخٌ باللاحِقِ، وإن لم نعلمِ النَّسْخَ وَجَبَ علينا أن نَتَوقَّفَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيما، رقم (٦٠٠٥).

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ أي لا تَنْهَرْه إذا سألَكَ، وأنتَ تَعلَم أنَّه سأَلَ لِيَسْتَرْشِدَ، وانتبه يا أخي إلى هذا القيدِ؛ تعلم أن السائل سأل ليسترشدَ؛ لأن الَّذِينَ يسألون منهم مَن يسأل ليسترشدَ، فهو جاهل يريد أن تعلِّمَه، فيجب أن تعلمه، وألا تَزجُرَه وألا تَنهَره.

الثَّاني: سائل يريدُ أن يعرفَ ما عندكَ منَ العلمِ، وهو ما يَعمَل بما تقول أبدًا، ولا أرادَ أن يعملَ بما تقول، لكن يَمتحِنُك، فلا يجبُ عليك أن تُعَلِّمَهُ، فإذا علِمتُ أن الرجلَ يريد أن يَمْتَحِنَنِي فما أُجِيبُه.

وسائل يسأل لا لِيَتَعَلَّمَ، ولا ليمتحنَ، ولكن لِيَضرِبَ آراءَ العلماءِ بعضها ببعضٍ، فيقول: سألتُ فلانًا وقال كذا، وسألتُ فلانًا وقال كذا، وإذا وجد ثالثًا سأل الثَّالث، يقول: انظُرِ العلماء يختلفونَ، فهذا يقول كذا، وهذا يقول كذا، قَصدُه أن يَضرِبَ آراءَ العلماءِ بعضها ببعضٍ، فهذا أيضًا لا يُجابُ، فإذا عرفتَ أَنَّه من هذا الطرازِ الَّذِينَ ليس لهم همٌّ إلَّا أن يسألوا العلماءَ من أجلِ أن يَضرِبوا أقوالَ بعضِهم ببعضٍ فلا تُجِبْه، وأنت مَعذورٌ.

وإذا علمتَ أَنَّه يسأَلُك من أجلِ أن يَنتقِدَكَ في جوابِكَ، ويُشِيعه في النَّاس، فلا تُجِبْهُ ولا كرامةَ له، وهل لك أن تنهرَه إذا علِمتَ ذلك؟

نقول: نعم لك أن تنهرَه، وتقولُ: اتَّقِ اللهَ، لا تمتحنِ العلماءَ، ولا تتبعْ زَلَّاتِ العلماءِ، فالعلماءُ كغيرِهم من النَّاسِ يُخطِئون ويصيبونَ، وإذا أخطأ العلماءُ مرةً فقد أصابوا مراتٍ، وهم أَولى النَّاس بالعُذرِ، لا سيَّما إذا علِمنا من هذا العالم أَنَّه ليس له هَوًى، وليس له غَرَض، فإذا أخطأ فإنه يجبُ أن يُغتفَرَ الخطأ في جانبِ الصوابِ.

ولهذا قال ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (القواعِدِ): «المُنْصِفُ مَنِ اغتفرَ قليلَ خطأِ المَرْءِ في كثيرِ صَوابِه»[1]. فهذا المنصِفُ، وليس الَّذِي يرى بعينٍ عَورَاءَ فيأخذَ السيِّئَ ويكتُمَ الحسنَ.

وإذا كنت -يا طالبَ العلمِ- لا تريدُ أن تجيبَ السائلَ فهل تُحِيلُه على شخصٍ معيَّنٍ، أو تقولُ: اسألِ العلماءَ؛ اسألْ غيري؟

نقولُ: الأصل ألَّا تُحِيلَه إلى شخصٍ معينٍ، بل قل: اسألْ غيرِي، وهو بنفسِه يَتَحَرَّى لنفسِه، إلَّا إذا علِمتَ أنَّه قد يسألُ (المُتَعَيْلِمَ)، وهو الذي يدَّعي العلمَ، وهو أجهلُ من الجاهلِ البَسيطِ؛ على ما يقولون، فإذا خفتَ أن يذهبَ هذا الرجلُ إلى شخصٍ جاهلٍ نصف متعلِّمٍ، ما هو نِصف عالمٍ؛ فأَفْتِهِ، واصبِر على أذاهُ.

كان الإمام أحمدُ بنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا سُئل عن مسألةٍ تُشكِل عليه يقول: اسأل عنها غيري. ولكن إذا خَشِيتَ مَفسَدةً بهذا التحويلِ فادرأِ المفسدةَ، وقُلِ: اسألْ فلانًا، ولا بأسَ.

إذن، إذا كان الإنسانُ لا يريدُ أن يجيبَ السائلَ، وأراد أن يحيلَه على عالمٍ، فهل يحيلُه على عالمٍ بعينِه، أو يقول: اسألِ العلماءَ؟

نقول: الأصل أن تُحِيلَه إحالةً عامةً، فتقولُ: اسألِ العلماءَ، وهو بنفسِه يبحثُ عمَّن يسألُ؛ لكن إذا كنتَ في زمنٍ قدِ انبرَى للفتوى مَن ليس أهلًا لها، فهنا يجبُ عليك أن تُعيِّنَ له مَن تراهُ أوثقَ النَّاسِ في عِلمِه وأمانتِه.

سُئل أبو موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن ميت مات عَنْ بِنْتٍ وَابْنَةِ ابْنٍ وَأُخْتٍ،

---

(١) قواعد ابن رجب (١/ ٣).

فَقَالَ: «لِلْبِنْتِ النِّصْفُ، وَلِلْأُخْتِ النِّصْفُ» فهذا مَبلَغ عِلْمِه، ولكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاف أن يكونَ قد أخطأَ، فقال للسائلِ: «وَأْتِ ابْنَ مَسْعُودٍ، فَسَيُتَابِعُنِي». فَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَأُخْبِرَ بِقَوْلِ أَبِي مُوسَى فَقَالَ: «لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذَنْ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، أَقْضِي فِيهَا بِمَا قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِلابْنَةِ النِّصْفُ، وَلِابْنَةِ ابْنِ السُّدُسُ تَكْمِلَةَ الثُّلُثَيْنِ، وَمَا بَقِيَ فَلِلْأُخْتِ»[1].

ووجهُ خطأِ أبِي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لم يُوَرِّثْ بنتَ الابنِ وقال: «لِلْبِنْتِ النِّصْفُ، وَلِلْأُخْتِ النِّصْفُ»، فجعلَ للأُختِ فَرْضًا، والأختُ هنا لا ترثُ بالفرضِ، بل ترثُ بالتعصِيبِ.

قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ذَكَرْنَا أن السائلينَ أقسامٌ؛ فمنهم مَن لك أن تَنهَرَه، وتمتنعُ مِن إجابتِه، ومنهم مَن يجبُ عليك أن تُجِيبَه، فمثلًا إذا عرفتَ أن هذا السائلَ لن يَثِقَ بغيرِك، وهو قد سأَلَ عن مسألةٍ سهلةٍ كلُّ يَعرِفها من طلبةِ العلمِ، لكن تعرِفُ أنَّه لن يثِقَ إلَّا بك؛ فهنا يجبُ عليك ويَتعَيَّنُ عليك أن تجيبَ بما تعلمُ.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] هذا آخِرُ السورةِ، وقدْ أنعمَ اللهُ على رسولِه أنَّه آواهُ حينَ كان يتيمًا، وهَدَاهُ بعدَ أن لم يكنْ عالمًا، والثَّالثُ: أغناه بعدَ الفقرِ.

فقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ يعني: حدِّث بها النَّاسَ لا فَخرًا، ولكِن شُكْرًا، قل: أنا كنتُ كذا وكذا، وهداني اللهُ، وكنتُ فقيرًا فأغناني اللهُ، لكِنْ لا افتخارًا على

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب ميراث ابنة الابن مع بنت، رقم (٦٧٣٦).

غيرِكَ، وإنما أداءً لشكرِ نعمةِ اللهِ عليكَ.

أسألُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يَرزُقَنا وإياكم إخلاصًا له، واتِّبَاعًا لرسولِهِ، وحُسْنَ أخلاقٍ في معاملةِ الخلائقِ، إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرسُ الثالثُ:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وأُصَلِّي وَأُسَلِّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وإمامِ المُتَّقِينَ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

نتكلمُ الآن يسيرًا على ما تلاهُ إمامُنا في هذه اللَّيْلَةِ، وقد تَلا سُورتين مبدوءتين بالقَسَمِ.

وفى الليلةِ الماضيةِ أيضًا قَرأَ الإمامُ بسُورةٍ مبدوءةٍ بالقَسَمِ ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى:١-٢].

الضُّحى معروف، وَهُوَ عندَ ارتفاعِ الشمسِ.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي إذا غَطَّى الأرضَ، وأقول عن مشاهَدَةٍ، كنتُ راكبًا في الطائرةِ عندما غَرَبَتِ الشمسُ، فلما ارتفعتِ الطائرةُ وإذا الليلُ بِالنِّسْبَةِ للأرضِ التي تَحْتَنَا كأنه غطاءٌ أَسْوَدُ يُغَطِّي الأرضَ، فسبحان الله! ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي غطَّى الأرضَ بظُلُماتِه.

فأقسَمَ اللهُ بشيئين مُتبَايِنَيْنِ: الضُّحى، وَهُوَ أَنْوَرُ ما يكونُ، والليلِ.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى:٣] أي ما تَرَكَكَ، ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي وما أَبْغَضَكَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عنايةِ اللهِ تَعَالَى برسولِه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وعلى محبةِ اللهِ له، اللَّهُمَّ ارزُقنا حُبَّكَ، وحُبَّ مَنْ يُحِبُّك، وحُبَّ العملِ الذي يُقَرِّبُنا إلى حُبِّكَ.

قوله تعالى:﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ لأنه لما تأخرَ الوحيُ قال مَن قال مِنَ الناسِ: إنَّ ربَّك يا محمدُ قد قَلاكَ وأَبْغَضَكَ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ وأقسمَ عَزَّوَجَلَّ عَلَى هَذَا

الخَبَرِ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الضحى:١-٤][1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ اللامُ للابتداءِ، دَخَلَت على المبتدأِ لكنها تفيدُ التوكيدَ، يعني مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. وغيرُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الآخرةُ خيرٌ له مِنَ الأولى بالوصفِ، يعني لا يوجدُ أَحَدٌ مِنَ الناسِ خاطَبَهُ اللهُ وقال: الآخِرةُ خيرٌ لك مِنَ الأُولى، لكن بالوصفِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

أخي المسلمَ المتقي اللهَ، إِنَّ الآخرةَ خيرٌ لك مِنَ الأُولى، إنك تَفِرُّ مِنَ الموتِ تخشى مُفارَقَةَ الحياةِ، ولكنك إذا كنتَ مِنَ المُتَّقِينَ فالآخرةُ خيرٌ لك مِنَ الأُولى، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ المُتَّقِينَ يا ربَّ العالمين، ولهذا يُبَشَّرُ المؤمنُ -جَعَلَني اللهُ وإياكم من المؤمنين- يُبَشَّرُ عند موتِه بِرَوْحٍ ورَيْحَانٍ، ورَبٍّ غيرِ غَضْبَانَ، فيَسْهُلُ خُروجُ الرُّوحِ مِنَ البدنِ، وتَنْسَلُّ مِنَ البَدَنِ كما تَنْسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ العَجِينِ، فالشعرةُ إذا وجدتَها في العَجِينِ مُنْغَمِسَةً فيه ونَزَعْتَها لا تجدُ فيها صُعوبةً، فرُوحُ المؤمنِ -اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا جميعا من المؤمنين- إذا بُشِّرَت بهذا انْسَلَّتْ مِنَ البدنِ وخَرَجَتْ لأنها بُشِّرَت بدارٍ خيرٍ مِن هذه الدَّارِ، إي واللهِ، هذه الدارُ كُلُّها نَكَدٌ وتَنْغِيصٌ.

فإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ: هل ذَكَرَ اللهُ أَنَّ الآخرةَ خيرٌ مِنَ الدنيا على سبيلِ الإطلاقِ؟ يعني غير مُقَيَّدَةٍ بِشَخْصٍ ولا بِوَصْفٍ؟ قلنا: نعم، وَهُوَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧]

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة والضحى، بابٌ، رقم (٤٩٥٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٧).

إذن، ثلاثُ آياتٍ ذُكِرَتْ للتأكيدِ أنَّ الآخرةَ خيرٌ مِنَ الأُولى، مرةً عُمومًا، ومرةً مُقَيَّدَةً بِوَصْفٍ ومرةً مُقَيَّدَةً بشخصٍ، والشخصُ هو النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِن أتباعِه، اللَّهُمَّ احشُرنا في زُمْرَتِه يا ربَّ العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] لسوفَ: (اللام) للتوكيدِ، و(سوف) للتحقيقِ لكن متأخرٌ، وهذا مِن جَمالِ اللغةِ العربيةِ، فالحمدُ للهِ على أننا عربٌ، إذا قلت: سيقومُ زيدٌ. فالخَبرُ مؤكَّدٌ ومعناه: سيقومُ الآنَ، وإذا قلتَ: سَوْفَ يقومُ زيدٌ. فالخبرُ مؤكَّدٌ، ومعناه: سَوْفَ يقومُ في المستقبلِ.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] ولقد أعطاه اللهُ عَزَّوَجَلَّ ما رضي به، فما توفَّاهُ اللهُ حتى فتحَ له، وأعطاه خزائن الأرض، أعطاه كُنوز كِسرى وقَيْصَرَ، لكن لَيْسَ قَبل موتِه، بل بَعد موته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فتح أصحابُه وخلفاؤه البلادَ بِسُنَّتِهِ وشَرِيعَتِهِ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ مُقَرِّرًا هذا المعنى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى:٦] والجوابُ هنا: بلى، وإذا قلتَ: نَعم. فمعناه: ما أعطاهُ، وما وَجَدَهُ يتيمًا، ولا آواهُ، فإذا قلتُ لك: ألم تَقُمْ؟ فإذا قلتَ: نَعَمْ. فمعناه أنك قاعدٌ، وإذا قلتَ: بلَى. فمعناه أنك قُمتَ، وفي قَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٤٠] تقول: بَلَى.

يُذكر عن عبدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَهُوَ تَرْجُمانُ القرآنِ في قول اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢] قال: «وَلَوْ قَالُوا: نَعَمْ لَكَفَرُوا»[1].

فإذا قلتَ لرَجُل: ألم تُطَلِّقِ امرأتَك؟ فلو قال: نعم. لا تُطَلَّقُ؛ لأنه صدَّق

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي (١/ ٤٥٦).

النفيَ، ولو قال: بلى. تُطَلَّقُ.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى:٦] فالجوابُ: بلى، كان النبي ﷺ يتيمًا، مات أبوه وَهُوَ حَمْلٌ وأُمُّه ماتت وَهُوَ صغيرٌ، لكن آواهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وحُذِف المفعولُ في قولِه: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ لمعنيَيْنِ:

المعنى الأول: لَفْظِيٌّ، وَهُوَ مُرَاعَـاةُ فَواصِـلِ الآيـاتِ، ولو قال: فآواك، لم تتناسَبْ مع ما قَبْلَها، ولا مع ما بَعْدَهَا.

المعنى الثاني: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ لَيْسَ المعنى أنه آوى الرسولَ فقط صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، بل المعنى آواك أنت وآوى بك، فكَمْ مِن فقيرٍ يأتي للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويُعطِيه، حتى إن رَجُلًا مِنَ الأعرابِ أتى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأعطاه غَنَمًا بين جبَلَيْنِ -يعني كثيرةً- والأعرابيُّ يحبُّ الغَنَم، فاستاقَ الغَنَمَ، ولكن هذا العطاء أَثَّرَ في نفسِه، فذهَبَ إلى قومِه وقال: يا قَوْمِ أسلِموا فإن مُحَمَّدًا يعطي عَطَاءَ مَن لا يخشى الفَقْرَ[1]. اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عليه.

الحاصِلُ أَنَّ قولَه: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ أي آواك أنت وآوى بك أَيْضًا، فكَمْ مِن أُناسٍ أَوَوْا إلى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فآواهم.

قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧] يعني لَيْسَ عندك عِلْمٌ فهداك اللهُ، وما كان عندَ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِلْمٌ مِنَ الوحي قبل أَنْ يُنْزِلَ اللهُ عليه الوحيَ، قالَ تعالَى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب ما سُئِلَ رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا وكثرة عطائه، رقم (٢٣١٢).

وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود:٤٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:١١٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢] فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يكنْ يعلمُ بشريعةِ اللهِ إلا بَعْدَ الوَحْيِ، لكن قد عَصَمَهُ اللهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ مِنَ الشِّرْكِ والكفرِ، وكل ما يخالفُ المروءة والشَّرَف ﷺ، ولهذا صار أهلًا لهذه الرسالةِ العظيمةِ.

والأصلُ هنا أَنْ يَقُولَ: فهَدَاك، لكن قال: ﴿فَهَدَىٰ﴾، يعني هداك وهدى بك كلَّ الأُمةِ التي تَبِعَتْهُ، فكلُّها مهديةٌ بطريقِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بِإِذْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم:١] وإلا ما استطاع أَنْ يَهْدِيَ أَحَدًا، فاللهُ هداهُ وهدى به.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨] ﴿عَائِلًا﴾ يعني فقيرا، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾، أغناك اللهُ عَزَّوَجَلَّ، كان النبيُّ ﷺ أولَ الأمرِ إِذَا قُدِّمَ إليه رَجُلٌ ليصليَ عليه وعليه دَيْنٌ ما يصلي عليه، وهذا زَجْرٌ كبيرٌ لمن يتهاوَنُ بالدَّيْنِ، كان النبي ﷺ لا يُصَلِّي على رَجُلٍ عليه دَيْنٌ فأُتي بمَيِّتٍ فسأل: «هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟» قالوا: نَعَمْ، دِينَارَانِ. فقال: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ». فقال أَبُو قَتَادَةَ: هُمَا عَلَيَّ يا رَسُولَ اللهِ. فصلى عليه، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حَقُّ الغَرِيمِ، وَبَرِئَ مِنْهُمَا المَيِّتُ»، فتقدَّم وصلى[1].

ونحن الآنَ كثيرٌ منا يتهاوَنُ بالدَّيْنِ، يَسْتَدِين لأجلِ أَنْ يضعَ دِيكُورًا في بيتِه، يستدين ليأخُذَ سيارةً بخمسين ألفًا، وَهُوَ يجدُ سيارةً بعشرين ألفًا، فهذا خَطَأٌ

(١) أخرجه أحمد (٢٢/ ٤٠٥، رقم ١٤٥٣٦).

عَظِيمٌ، احْذَرِ الدَّينَ.

يقول في الحديثِ: فلما فَتَحَ اللهُ عليه وكثُرت الأموالُ عنده مِنَ الغَنائمِ قال ﷺ: **«أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ تُوُفِّيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَرَكَ دَيْنًا، فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ»**(١).

وقوله: ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أغناك أنتَ وأغنى بك، فما أعظمَ كتابَ الله! اللَّهُمَّ ارزُقنا تِلاوته عَلَى الوجه الَّذِي يُرْضِيك عنا، كما قالت الجِنُّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن:١-٢].

إذن ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ يعني أغناكَ وأغنَى بك، فكلُّ الغَنائم التي حَصلَتْ بجهاده أو جِهاد خُلفائه كُلُّها بسبب النبي ﷺ.

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:٩-١١] هذه مُقابَلة، ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ لا تَقْهَرْهُ، أَعْطِه ما يريد إلا المحرَّماتِ.

واليتيم هو الذي فقَدَ أباه بالموت قبلَ أَنْ يبلُغ، الذَّكَر والأنثى سواء كلُّهم أيتام.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:١٠] السائل هنا ينقسم إلى قِسمين: السائلُ للمال والسائل للعِلم، فإذا جاء إليك فقيرٌ وقال: أنا والله ما عندي ما أشتري لأولادي غَداء أو عَشاء. فهذا سائل، وإذا جاء إنسانٌ يستفتيك يقول: أنا فعلتُ كذا وكذا فما الحُكْمُ؟ هذا أَيْضًا سائلٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكفالة، باب من تكفل عن ميت دينا، فليس له أَنْ يرجع، رقم (٢١٧٦)، ومسلم: كتاب الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته، رقم (١٦١٩).

إذن، السائل للمال والسائل للعِلم لا تَنْهَرْهُ، لأنه سائلٌ مُسْتَجْدٍ، لَكِنْ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ هذا السائلَ الذي يسألُ المالَ إنما يسألُ تَكَثُّرًا فلا بَأْسَ أَنْ تَنْهَرَهُ وتنصحه؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا، فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ**»[1].

وما أكثرَ السائلين الذين إذا ماتوا وجد الناسُ عندهم أموالًا كثيرة، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ.

وقال ﷺ: «**إِنَّ الرجلَ لَا يَزَالُ يَسْأَلُ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَمَا فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ**»[2]. ولهذا كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يُبايعُ أصحابَهُ أَلَّا يسألوا الناسَ شيئًا، حتى إِنَّ الواحدَ منهم لَيَسْقُطُ منه سَوْطُه وَهُوَ على بَعِيرِه ولا يقول: يا فلان ناوِلْنِي إياهُ، بل ينزل مِنَ البَعِيرِ ويأخذُه[3].

وبِالنِّسْبَةِ لسائلِ العِلمِ، إذا جاء يسأل فلا تَنْهَرْهُ، لأنه جاهلٌ يريدُ أن تُعَلِّمَهُ، ولكن إذا عَلِمت أَنَّ هذا السائلَ يُريدُ الفِتنةَ، يعني يأتي إليك يستفتيك حتى يذهبَ فيستفتيَ الآخَرَ ويقولُ له: فلانٌ قال كذا وكذا خلافَ ما تقولُ. يَفْتِنُ بين العلماءِ، ويقولُ: أنت لَيْسَ عندك عِلْمٌ، فلانٌ قال كذا وكذا. أو يقولُ للثاني: فلان قال كذا وكذا. هذا انْهَرْهُ وانْصَحْه لأنه -والعِيَاذُ بِاللهِ- نَمَّامٌ، ولهذا قال اللهُ لِنَبِيِّهِ في الذين يستفتُونه مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قال: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ﴾ ثم قال:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المَسْأَلَة للناس، رقم (١٠٤١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثرا، رقم (١٤٠٥)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المَسْأَلَة للناس، رقم (١٠٤٠).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المَسْأَلَة للناس، رقم (١٠٤٣).

﴿أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ ثم قال: ﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗا﴾ [المائدة:٤٢].

﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى:١١] فلتَنْتَبِهْ لهذا، إذا أنعمَ اللهُ عليك بمالٍ فحَدِّثْ بنعمةِ اللهِ عليك، وقل: الحمدُ للهِ، وأَثْنِ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ واشْكُرْ له، واعْتَرِفْ بفَضْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عليك، هذا هو المحمودُ.

أما إذا قاله تفاخُرًا فهذا مَذْمُومٌ، واسمعْ قِصة الرَّجُلين في سُورةِ الكهفِ، قال أحدُهما للآخرِ: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ [الكهف:٣٤] فهذا يفتخرُ، وهذا مذمُومٌ.

ونعمةُ اللهِ عَلَى العَبْدِ تتعدَّدُ مِن مالٍ، أو صِحَّةٍ، أو قُوَّةٍ، أو أولادٍ، أو جاهٍ، أو عِلمٍ، وغير ذلك كثير، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم:٣٤]، فاللَّهُمَّ ارزُقْنا شُكر نِعمتك وحُسْنَ عِبادَتِك.

قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لمُعَاذِ بنِ جَبَل: «**يَا مُعَاذُ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، قال ذلك تَوَدُّدًا وتَلَطُّفًا، ومِنْ أَجْلِ أَنْ يتلقى معاذٌ ما يَذكره الرَّسولُ ﷺ عَلَى أنه صادِرٌ مِن مُحِبٍّ لِحَبِيبِه، «**إِنِّي أُحِبُّكَ، فَلَا تَدَعَنَّ أَنْ تَقُولَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[1].

ادْعُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بهذا الدعاء لأنه صَدَرَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لمُعاذ بنِ جَبَلٍ مُصَدَّرًا بقوله: «**إِنِّي أُحِبُّكَ**».

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦/ ٤٣٠، رقم ٢٢١١٩)، وأبو داود: كتاب الصَّلَاة، باب في الاستغفار، رقم (١٥٢٢)، والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر مِنَ الدعاء، رقم (١٣٠٣).

كل صلاةٍ مكتوبةٍ إذا أكملتَ التشهُّدَ فقل: اللَّهُمَّ أَعِنِّي على ذِكرك وشُكرك وحُسن عِبادتك. ثم سَلِّم حتى تختِمَ به دعاءَ التشهُّدِ، هكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية -وَهُوَ حقٌّ- وقد جاءت بعضُ الروايات بهذا، أنك تقولها قَبْلَ السلامِ[(١)].

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَكَانَ شَيْخُنَا يُرَجِّحُ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ السَّلَامِ، فَرَاجَعْتُهُ فِيهِ، فَقَالَ: دُبُرُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهُ، كَدُبُرِ الحَيَوَانِ»[(٢)].

فاختم صلاةَ الفريضةِ بقولِ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي على ذِكرك وشُكرِك وحُسنِ عِبادتِك، ثم سَلِّمْ.



(١) الفتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٢٠٥).
(٢) زاد المعاد، لابن القيم (١/ ٢٩٥).

الدرسُ الرابعُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى:١-٢] هذانِ شَيئانِ متَضادَّانِ، فالضُّحَى: عُلُوُّ الشمْسِ حتى يَصْفَرَّ الجوُّ، والليلُ: هو الظُّلْمَةُ.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: إذا غَطَّتِ الأرضَ ظُلْمَةٌ، فالظُّلْمَةُ والضِّياءُ متَقارِنَانِ.
أقسَمَ اللهُ تعالى فقالَ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ فأقْسَمَ بشَيْئينِ: الضُّحَى، والليلِ. لأن هـذَا مِنْ آياتِ اللهِ العَظِيمَةِ، فـلا يستَطِيعُ أن يأتِيَ بالنَّهارِ إلا اللهُ، ولا يستَطِيعُ أن يأتِيَ بالليلِ إلا اللهُ. فهُمَا آيتانِ عظِيمَتانِ منْ آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقد جعَلَ اللهُ النَّهارَ معَاشًا، يعِيشُ الناسُ فِيهِ، وجَعَلَ الليلَ سُبَاتًا ينامُونَ، فيَقْطَعُ عنْهُم التَّعَبَ، ويعطِيهِمْ نشاطًا للمُسْتَقْبَلِ.

لكن معَ الأسفِ فإنَّنَا في وَقْتِنَا هذا صارَ النَّهارُ سُبَاتًا والليلُ مَعَاشًا، بل إنَّه ما هُو معَاشٌ بالمَعْنَى المعروفِ، بل أصبَحَ سَهَرًا بلا فائدَةٍ، بل رُبَّمَا يكونُ مضَرَّةً، وهذا قَلْبٌ للحَقِيقَةِ. ولهذَا كان النبيُّ ﷺ يكْرَهُ النومَ قَبْلَ صلاةِ العِشاءِ، ويكرهُ

الحديثَ بعدَ صلاةِ العِشَاءِ[1]. فإذَا نِمتَ بعدَ أن تُصَلِّيَ العِشاءَ فهذا أحسنُ لكَ دِينًا ودُنْيَا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ في هَذَا الإقْسَامِ إشْكالٌ، وهو الإقسَامُ بغَيْرِ اللهِ، فنَحنُ نعْرِفُ أنـه «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ**»[2]. فلو قُلْتَ مَثلًا: والنبيِّ محمدٍ، لأفْعَلَنَّ كذَا وكذَا. هذا نوعٌ مِنَ الشِّرْكِ، ولو قلتَ: والوطِنِ لأفعَلَنَّ كذَا. فهذا نَوعٌ مِنَ الشِّرْكِ. ولو قلتَ: والكعْبَةِ لأفعَلَنَّ كذا. فهذا نوعٌ مِنَ الشِّرْكِ. فالحَلِفُ لا يجوزُ إلا باللهِ وحْدَهُ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»[3].

إذن، هنا المشكِلَةُ، كيفَ يُقْسِمُ اللهُ بالضُّحَى والليلِ وهُما مخلوقانِ؟

نقولُ: لأن الحاكِمَ هو اللهُ، وله أن يحْكُمَ بما شاءَ، إذن، له أن يُحَرِّمَ على العِبادِ الإقسامَ بالمَخْلُوقِ، ولَهُ هو عَزَّوَجَلَّ أن يُقسِمَ بالمخْلُوقِ، ويُقْسِمَ بما شاءَ؛ لأن اللهَ حاكِمٌ، ولا يُحْكَمُ عليهِ، فله أن يُقْسِمَ بمَا شاءَ من خَلْقِهِ.

لكن اعْلَمْ أن اللهَ لا يُقْسِمُ بشَيْءٍ إلا وهو مِنْ أعظَمِ آياتِهِ، حتى إنَّه أقْسَمَ بيومِ القِيامَةِ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ [القيامة:١]؛ لأنه مِنْ أعظَمِ الآياتِ أن يقومَ النَّاسُ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت العصر، رقم (٥٢٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها، رقم (٦٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥، رقم ٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، رقم (٢٦٧٩)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

قُبورِهِمْ لربِّ العالمِينَ بصيحَةٍ واحِدَةٍ.

أنتم تَعْلَمُونَ أن قَتْلَ الأبناءِ في يومٍ مِنَ الأيامِ صارَ مِنْ أجَلِّ العباداتِ التي كُوفِئَ عليها الإنسانُ بوَصْفٍ عَظِيمٍ لا ينالُه إلا من يتَحَقَّقُ، مع أنَّه مِنْ أكبرِ المحرَّماتِ، فقَدْ أُمِرَ إبراهِيمُ أن يذْبَحَ ابنَهُ، فصارَ الذَّبْحُ طاعَةً وقُرْبَةً من أفضلِ القُرَبِ، ولهذا جازَاهُ اللهُ بأن جعلَهُ خَلِيلًا لَهُ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات:١٠٣-١٠٦] أي: واللهِ هذَا بَلاءٌ مُبِينٌ، وامتِحانٌ عَظِيمٌ؛ أن يؤمَرَ الإنسانُ بأن يذْبَحَ ابنَهُ الذي ليسَ لَهُ سِواهُ، وإسماعيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَتَى إبْرَاهِيمَ عَلَى كِبَرٍ، وليسَ لَهُ سِواه، ومع ذلك ابتَلاهُ رَبُّ العزَّة والجلالِ أن يَذْبَحَهُ، فوافَقَ.

فإن قالَ قائلٌ: في قِصَّةِ إبراهيمَ مع إسماعيلَ إشكَالٌ؛ لأن إبراهِيمَ خاطَبَ ابنَهُ بلُطْفٍ شَدِيدٍ ورِفْقٍ ولِينٍ، فقال: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ [الصافات:١٠٢] فكَيفَ يشَاوِرُ إبراهِيمُ ابنَهُ في أمْرٍ أُمِرَ بِهِ؟

فالجواب: أنه أرادَ أن يختَبِرَ الابْنَ، ولم يُرِدْ أن يَسْتَشِيرَهُ في تَنْفيذِ أمرِ اللهِ، فكانَ مقامُ الابنِ مِنْ أعظَمِ المقاماتِ وأعْجَبِهَا، وانظُرُوا ماذا قال لأبِيهِ: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾ [الصافات:١٠٢] لم يقُلْ: يا أبتِ اذْبحْنِي. قالَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾ ليُنبِّهَ أنه إذا ذَبحَهُ فإنَّما فعَلَ ما أمَرَ اللهُ بِهِ، ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، نَعَمْ واللهِ إنه لمَنَ الصَّابِرِينَ، أما الآن فلَوْ أنكَ قُلْتَ لابنِكَ: سأَضْرِبُكَ، سأُقَيِّدُكَ. ولَّى وهَرَبَ، لكنَّ هذَا الابنَ لما قالَ له أبُوه: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ

أَذْبَحُكَ فَأَنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ ورُؤْيا الأنبياءِ وَحْيٌ، قالَ: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، فهُنا أصبحَ ذَبْحُ الابنِ طاعةً بأمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ اللهَ هُو الَّذِي له الحُكْمُ.

وكذلك السجودُ، فهو لغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ، ولكن كان يومًا مَا السُّجودُ لغَيْرِ اللهِ عبادَةً، وتَرْكُه كُفْرٌ؛ وذلِكَ عندمَا أمرَ اللهُ الملائكَةَ أن تسجُدَ لآدَمَ، فسَجَدُوا امْتِثالًا لأمرِ اللهِ، إلا إبليسَ أَبَى فكانَ مِنَ الكافِرِينَ.

فتبيَّنَ الآنَ أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ له أنْ يأمُرَ بما شاءَ، ولجَمِيعِ أوامِرِه حِكْمَةٌ ليسَ فيهَا لَعِبٌ ولا بَاطِلٌ، بل كلُّ ما أمَرَ به فَهُو حَقٌّ. سَأَلَتِ امْرأةٌ أمَّ المُؤمِنِينَ عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا بَالُ الحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ، وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟ قَالَتْ: «كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ، فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ، وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ»[1]. أجابَتْها بما هُو الحِكْمَةُ؛ لأنَّنا نعْلَمُ أن كونَ اللهِ يأمُرُ الحائضَ أن تَقْضِيَ الصومَ دونَ الصلاةِ أن ذلِكَ هو الحِكْمَةُ، مجرَّدُ أمرِ اللهِ ورسولِهِ حِكْمَةٌ، اسمَعْ قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦] ما دَامَ الله أمَرَ بهذا فهُو الحِكْمَةُ، نَهَى عَنْ هذا فهُو الحِكْمَةُ.

وقد يسأَلُ بعضُ الناسِ فيقولُ: إنه أكَلَ لحْمَ إبلٍ، وهو عَلَى وُضوءٍ، وأرادَ أن يُصَلِّيَ، فلماذا يَلْزَمُهُ أن يُصَلِّيَ وهذَا اللَّحْمُ حلالٌ بالنَّصِّ والإجماعِ؟ نقولُ: لأن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ بِهِ وكَفَى، ولا مَأمُورَ بِهِ إلَّا لِحِكْمَةٍ إن عَقَلْتَهَا عَقَلْتَهَا، وإن لم تعْقِلْهَا فإن هَذَا أمرُ اللهِ ورَسولِهِ، قالَ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الحائض الصوم، رقم (٣٣٥).

ولهذا كان القَوْلُ الراجِحُ من أقوالِ العُلماءِ: أنَّ الإنسانَ إذَا أكلَ لحْمَ إبِلٍ نيِّئًا أو مَطْبُوخًا، هَبْرًا أو شَحْمًا، أو كَبِدًا أو أمعاءً، أو أيَّ شيءٍ مِنْ أجزاءِ البَعيرِ، فإنه يُنْتَقَضُ وُضوؤه، ويجِبُ عليه أن يتوَضَّأَ إذا أرادَ الصلاةَ، ولا يجِبُ عليه أن يَغْسِلَ فرْجَهُ، مع أن بَعْضَ العوامِ يَظُنُّونَ أن غَسْلَ الفَرْجِ من شُروطِ الوُضوءِ، وهذا غيرُ صَحِيحٍ،، فلو أنَّ الإنسانَ قَضَى حاجَتَهُ ببَوْلٍ أو غائطٍ الساعَةَ العاشِرَة ضُحًى، ثم جاءَ لصلاةِ الظُّهْرِ، وأرادَ أن يُصَلِّيَ فعلَيْهِ أن يتوَضَّأَ: يغْسِلَ وجْهَهُ ويدَيْهِ ويمسَحَ رأسَهُ ويغسِلَ رِجْليهِ، وليس عليه أن يغْسِلَ فرْجَهُ.

الخلاصَةُ: أن الإشكالَ الوارِدَ على قولِهِ تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ هو الإقسامُ بغَيْرِ اللهِ، والجوابُ: أن للهِ تعالى أن يُقْسِمَ بما شاءَ مِنْ خَلْقِهِ؛ لأنه هُوَ الحاكِمُ وليسَ المحكومَ عليهِ، ولكن يجِبُ أن نعلَمَ أن اللهَ لا يُقْسِمُ بشيءٍ إلا وهُو مِنْ أعظَمِ آياتِهِ.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:٣]: الخِطابُ للنَّبِيِّ ﷺ، وذلك لأنَّ الوَحْيَ قدْ تأخَّرَ، فقيلَ: إن محمَّدًا تَركَهُ رَبُّهُ وكَرِهَهُ. فأقسَمَ الله أنه ما وَدَّعه وما قَلاهُ، أي: ما تَرَكَهُ وما أبْغَضَهُ، بل اللهُ عَزَّوَجَلَّ يُحِبُّهُ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَاعِيه، وهو الَّذِي اعتنَى به أعظَمَ اعْتِنَاءٍ.

فإن قالَ قائلٌ: إن قُرَيْشًا قد سألتِ النَّبِيَّ ﷺ فقالَتْ: أخْبِرْنَا عن رَجُلٍ ملَكَ مشَارِقَ الأرْضِ ومغَارِبهَا، وعن قَوْمٍ اخْتبَؤوا في غارٍ مدَّةً طويلَةً -يعنُونَ أصحابَ الكَهْفِ- وعن ذِي القَرْنَيْنِ؟ أخبِرْنَا عنْهُم إذا كُنْتَ يا محمد تقولُ إنَّه يأتِيكَ الخَبَرُ من السَّماءِ؟ قالَ: «**غدًا أُخبِرُكُم**»[1].

(١) انظر: تفسير البحر المحيط، لأبي حيان (٦/ ٩٣).

ولكِنَّ الوَحْي قدْ تأخَّرَ خمْسَةَ عشَرَ يومًا، ثم نَزَلَ الوَحْي بِبيانِ أصحابِ الكَهْفِ وبيانِ ذِي القَرْنَيْنِ، وفي هذا مِنَ الحِكَمِ العظِيمَةِ ما يَظْهَرُ للمتأَمِّلِ، فلَو أنه أخبرَهُم في الموعِدِ الذي حدَّدَهُ، لاتَّهَمُوه باخْتلاقِ الكَلامِ وبالكَذِبِ، لكن لما تأخَّرَ الوَحْي، وهو قَدْ واعَدَهُمْ، علِمُوا أنه لا يتكَلَّمُ إلا بوَحْي، ولو كان كاذِبًا -وحاشَاه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من ذلِكَ- لكان يأتِي بما يأتِي به تَصْدِيقًا لكلامِهِمْ الذي وعَدَهُم به، لكنَّه لا يتْلُو إلا ما يُوحَى إليهِ فقَطْ، فصارَ في هذا مِنَ الحِكَم العظيمَةِ ما يَظْهَرُ عندَ المتأمِّلِ.

كذلك أيضًا أرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يُبيِّنَ لنبيِّهِ أن الأمْرَ أمرُ اللهِ، وأنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليسَ له مِنَ الأمرِ شيءٌ، ولهذَا قالَ له في سورة الكَهْفِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤] وإذا كان هذَا تَرْبيَةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لرُسُلِهِ فما بالُكَ بنا نحن؟ نحنُ نقولُ: غدًا نأتِيكَ، غدًا كَذَا. دون أن نقولَ: إنْ شاءَ اللهُ. ولذلِكَ لا يُبارِكُ لنَا في وَعْدِنَا، ولا يُبارِكُ لنا في عَمَلِنَا؛ لأننا لم نَقُلْ: إن شاء الله. هذه القِصَّةُ -أعني كون الله أخَّرَ الوَحْي لأن رسولَ الله لم يَقُلْ: إن شاءَ اللهُ- حدَثَتْ معَ محمدٍ وهو رسولُ اللهِ.

وقَدْ وَقَعَتْ مثلُ هذِهِ القِصَّةِ تمامًا مِنْ حيثُ المَعْنَى معَ نَبِيٍّ آخَرَ، هو سُلَيْمانُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان سليمانُ مَلِكًا نَبيًّا، وكانَ عندَهُ نساءٌ، فقالَ: «**وَاللهِ لأَطُوفَنَّ الليلَةَ على تِسْعِينَ امرَأَةً تَلِدُ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ**». فَقِيلَ لَهُ: قُلْ إِنْ شاءَ اللهُ. فَلَمْ يَقُلْ إنْ شاءَ اللهُ؛ لأنه عازِمٌ غيرُ مُتَرَدِّدٍ، فَفَهِمَ أن التَّعْلِيقَ يعْنِي التَّرَدُّدَ، وهو عازِمٌ على ذلِكَ، فجامَعَ تِسعينَ امرأَةً، فولَدَتْ واحِدَةٌ منهُنَّ فقط شِقَّ إنسانٍ.

سبحان اللهِ، فالأمْرُ أمرُ اللهِ، ولَدَتْ واحِدَةٌ فقَطْ شِقَّ إنسانٍ! هذا شيءٌ يعْجَزُ عن تفْسِيرِهِ حتى الأطباءُ، فَهُمْ لا يعتَقِدُونَ أن يأتِيَ مولودٌ بهذِهِ الصورَةِ ويَعِيشُ، واللهُ أعلَمُ هلْ عاشَ أو لا؟، لكِنَّ المُهِمَّ أنَّ اللهَ أرادَ عَزَّوَجَلَّ أن يُرِيَ نَبِيَّهُ سليمانَ أن الأمرَ بمَشِيئَةِ اللهِ، ولهذا قالَ نَبِيُّنَا محمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللهُ لَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ ولَقَاتَلُوا جَمِيعًا فِي سَبِيلِ اللهِ**»(١).

إذن: لا تَقُلْ شَيْئًا إلا قَارِنًا إِيَّاهُ بمَشِيئَةِ اللهِ؛ لأن هذا مِنْ أسبابِ عَوْنِ اللهِ لكَ.

ولو قالَ رجلٌ: واللهِ لأَتَصَدَّقَنَّ اليوم بعَشَرَةِ دراهِمَ. ثم غابَتِ الشَّمْسُ، ولم يتَصَدَّقْ، فعليهِ كفَّارَةٌ. وإذا قالَ آخَرُ: واللهِ لأَتَصَدَّقَنَّ اليومَ بعشَرَةِ دَرَاهِمَ إنْ شاءَ اللهُ. وغابَتِ الشَّمْسُ فليسَ عليهِ شيءٌ. والفَرْقُ بينَ الرَّجُلَيْنِ واضِحٌ؛ لأن هذَا قَرَنَهَا وعَلَّقَها بمَشِيئَةِ اللهِ، ولو شاءَ اللهُ أن يتَصَدَّقَ لتَصَدَّقَ.

إذن: امْتَنَعَ عنِ الصَّدَقَةِ؛ لأنَّ الله لم يشَأْ، لذلِكَ أُوصِيكُمْ أن تُعَوِّدوا أَلْسِنَتِكُم أَنَّكُم كلَّما حَلَفْتُمْ على شيءٍ فأَتِمُّوا وقولُوا: إنْ شاءَ اللهُ.

فإذا قُلْتُمْ هذا استَفَدْتُمْ فائدَتَيْنِ:

الفائِدَةُ الأُولَى: أن ذلِكَ مِنْ أسبابِ تَيْسِيرِ الأمورِ لكُمْ.

الفائدَةُ الثانِيَةُ: إذا تَخَلَّفَتِ المسألَةُ لم يكُنْ عليكُمْ كفَّارَةٌ.

أنا أُوصِيكُمْ بهذَا، وما أكْثَرَ الَّذِينَ يحلِفُونَ ويحْنَثُونَ في أيمانِهِمْ وتَلْزَمُهم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في اليمين، رقم (٦٧٢٠)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤).

الكفَّارَةُ، لكن إذَا قال: إنْ شاءَ اللهُ، وحَنِثَ فليسَ عليهِ شيءٌ.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤] اللامُ هُنا في قَولِهِ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ للتَّوكيدِ، ﴿خَيْرٌ لَّكَ﴾ الخِطابُ للرَّسولِ ﷺ، والآخِرَةُ معروفَةٌ، ﴿مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ الأُولَى هِيَ: الدُّنْيَا، فَقَدْ أخبَرَ اللهُ رسولَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَوَعَدَهُ بأَنَّ الآخِرَةَ خيرٌ لَهُ مِنَ الأُولَى، ولغيرِ الرسولِ جاءَ مُقيَّدًا، فقَدْ قالَ تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

ويجِبُ أن تَعْرِفَ الفَرْقَ، فالرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ اللهُ لَهُ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤] بِدونِ قَيْدٍ؛ لأَنَّه إمامُ المتَّقِينَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومَنْ سِواهُ قالَ لَهُ: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وهذا صَحِيحٌ، فالآخِرَةُ خيرٌ للمُؤمِنِ، ولكنَّها شَرٌّ للكافِرِ.

يذكر أن ابنَ حجَرٍ العَسْقَلَانِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان قاضِيَ القُضاةِ في مِصر، وهو صاحِبُ (فَتْحِ البارِي)، الكتابِ المعْروف، كأنه علَمٌ علَى نَارٍ، وكان قاضِيَ القُضاةِ، وكان إذا خَرَجَ مِنْ منْزِلِهِ إلى مكانِ القَضاءِ ركِبَ عَرَبَةً تجُرُّهَا الخيولُ، والناسُ منْ بينِ يدَيْهِ ومن خَلْفِه في موكِبٍ، فمَرَّ بيهُودِيٍّ زيَّات، وهذا عمَلُه، وثيابه متَّسِخَةٌ وهو مُتْعَبٌ من عَمَلِهِ، فاستَوْقَفَهُ اليهودِيُّ وقال له: يا قَاضِيَ القضاةِ، قِفْ. فوَقَفَ، وقال: ما لَكَ؟ قال: إن نَبِيَّكُم يقولُ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ**»[1]، كَيْفَ يتَّفِقُ هَذَا الكَلامُ مَعَ حَالِي وحالِكَ، أَنْتَ الآنَ مؤمِنٌ، وأنا في نَظَرِكَ كافِرٌ، ولكِنِّي أراكَ في جنَّةٍ ونَعيمٍ، وأرَانِي في بِلاءٍ وعَنَاءٍ ونارٍ؟ فقَالَ له: أَمَّا أَنَا فما أَنَا فيه مِنَ النَّعِيمِ فهُو سِجْنٌ بالنِّسْبَةِ لنَعِيمِ الآخِرَةِ، وأما أنْتَ مع هَذَا العَنَاءِ والتَّعَبِ فَهُو جَنَّةٌ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦).

بالنِّسْبَةِ لعذابِ الآخِرَةِ. فقالَ اليهودي: أشهدُ أنْ لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ[(١)].

أسْلَمَ لأنَّ الأمْرَ تبَيَّنَ لَهُ، وهو الحقُّ، فجَمِيعُ نَعِيمِ الدُّنْيا ليسَ بشَيْءٍ بالنِّسْبَةِ للآخِرَةِ، فقَدْ صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «**لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[(٢)]. اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا من سَاكِنِي الجنَّةِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ ساكِنِي الجنَّةِ، اللَّهُمَّ اجعلْنَا من ساكِنِي الجنَّةِ.

نَعَمْ مع أن السَّوطَ قصيرٌ، لكنَّ مِساحَتَهُ في الجنَّةِ خيرٌ من الدُّنْيا كلِّها -من أولها إلى أن تقوم الساعة- وما فِيهَا.

إذن، لا تَعارُضَ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤] وبينَ قولِهِ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧]؛ لأنَّ الرَّسولَ إمامُ المتَّقِينَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فقولُهُ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ جاء مِثْلُها في مَوْضِعٍ آخَرَ بالنِّسْبَةِ لعمومِ الناسِ، لكنَّه جاءَ مُقيَّدًا، وموضِعُ التَّقْييدِ قولُهُ تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧]؛ لأنه يخاطِبُ جميعَ النَّاسِ، ولا تكونُ الآخِرَةُ لجميعِ الناسِ خَيْرًا لهُم، وإنما هِيَ خيرٌ لِمَنِ اتَّقَى.

ولهذا إذا حُمِلَ الميِّتُ وكانَ صالحًا فإنَّ نفْسَهُ تقولُ: قدِّمُونِي قدِّمُونِي[(٣)]؛ لأنها قد بَشَّرَتْ بالرَّحْمَةِ والرضوانِ، فتقول: قدِّمُوني قدِّمُونِي لهذِهِ الرَّحْمَةِ والرِّضْوَانِ.

(١) فيض القدير (٣/ ٥٤٦).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).
(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب كلام الميت على الجنازة، رقم (١٣١٤).

جَعَلَني اللهُ وإياكم من هؤلاء، وأمّا إذا كانت بالعكسِ غيرَ صالحةٍ فإنها تقولُ: يا ويلها أين تذهبون بها. ولهذا أمرَ النبيُّ ﷺ بالإسراعِ بالجنازةِ، فقال: «**أَسْرِعُوا بِالجِنَازَةِ، فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا، وَإِنْ يَكُ سِوَى ذَلِكَ، فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ**»[(١)].

ولهذا قَالَ العُلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: الإسْراعُ بالجِنازَةِ في تَغْسيلِهَا، وتكْفِينِهَا، والصَّلاةِ عليهَا هُو السُّنَّةُ، وهو الأفضَلُ، وهو الإحْسانُ إلى الميِّتِ؛ لأن الميِّتَ يريدُ أن يتَقَدَّمَ إلى ما بُشِّرَ بِهِ مِنَ النَّعِيمِ. وقالوا كذلكَ: لا بأسَ أن يؤَخَّرَ إلى كثْرَةِ الجَمْعِ، مثلُ: أن يموتَ في أوَّلِ الضُّحْى فيُؤَخَّرُ إلى صلاةِ الظُّهْرِ مِنْ أجلِ كَثْرَةِ الجمْعِ؛ لأن كثْرَةَ الجمْعِ على الميِّتِ من أسبابِ المغْفِرَةِ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ**»[(٢)].

وأما ما يفْعَلُهُ بعضُ النَّاسِ، إذا ماتَ الميِّتُ انتظَرَ حتى يأتِيَ أهلُه من أقطَارٍ بعِيدَةٍ، ويبْقَى يومًا أو يومَيْنِ، فهذا جِنَايَةٌ على الميِّتِ، وإساءَةٌ إليهِ؛ لأن الميِّتَ الصالِحَ يقولُ: قدِّمُونِي قدِّمُونِي. وهؤلاءِ حَبَسُوهُ عمَّا أعدَّ اللهُ له مِنَ النَّعِيمِ، فصارُوا بذلِكَ مُسِيئِينَ إلى الميِّتِ من حيثُ لا يَشْعُرونَ، لكِنَّ التأخِيرَ اليَسِيرَ -كما قلت لكم- لا بأسَ بِهِ.

فإن قالَ قائلٌ: أليسَ النَّبِيُّ ﷺ قدْ ماتَ يومَ الاثْنينِ، ولم يُدْفَنْ إلا ليلَةَ الأربعاءِ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب السرعة بالجنازة، رقم (١٣١٥)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب الإسراع بالجنازة، رقم (٩٤٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم (٩٤٨).

فالجوابُ: بَلَى، هذا حدَثَ لا شَكَّ، لكِنَّ الصحابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَخَّرُوا دَفْنَهُ حتى يقومَ الخَلِيفَةُ بعدَهُ؛ حتى لا تَبْقَى الأُمَّةُ الإسلامِيَّةُ بلا قائدٍ يقُودُهَا، فلَمَّا تمَّتِ البيعَةُ لأبي بَكْرٍ الصديقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَفَنُوه.

فلا حُجَّةَ في هَذَا التأخيرِ الذي كان مِنَ الصحابَةِ لرسولِ الله ﷺ؛ لأن العِلَّةَ الموجُودَةَ التي حصَلَ بها التأخِيرُ لا تُوجَدُ في غيرِهِ، وهي أَنَّهُم لَا يُريدونَ أن يدْفِنُوا رسولَ اللهِ حتَّى يقومَ الخلِيفَةُ بعْدَهُ، ولو دُفِنَ قبلَ أن يكونَ الخَلِيفَةُ لبَقِيَتِ الأُمَّةُ الإسلامِيَّةُ بدون خليفةٍ؛ لذلِكَ أَخَّرُوا دفْنَه -صلوات الله وسلامه عليه-.

المهم: أن السُّنَّةَ هي الإسراعُ في غَسْلِ المَيِّتِ وتَكْفِينِهِ والصَّلاةِ عليهِ ودَفْنِه؛ لأنه إذا كان مِنَ المتَّقِينَ فالآخِرَةُ خيرٌ لَهُ، كَمَا قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

قولُهُ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] هذه الآية لم تُحَدِّدْ هل المرادُ إعطَاؤهُ في الدُّنْيا أم في الدُّنْيَا والآخِرَةِ؛ لأنَّ اللهَ لم يُقَيِّدْ ذلِكَ بالآخِرَةِ، ولم يقَيِّدْ ذلِكَ بالدُّنْيا، وإذا ورَدَتِ النُّصُوصُ القرآنِيَّةُ أو النَّبَوِيَّةُ مطلْقَةً فإن الواجِبَ إطْلاقُها، وأَلَّا تُقَيَّدَ بشَيْءٍ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ لرسولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾، وهذَا يشْمَلُ ما أعطاهُ في الدُّنْيَا وما أعطاهُ في الآخِرَةِ.

أما مَا أعْطَاهُ في الدُّنْيَا فَقَدْ فتَحَ به قُلُوبًا غُلْفًا، وآذَانًا صُمًّا، وأَعْيُنًا عُمْيًا، وأيضًا بسطَ اللهُ له فِي الرِّزْقِ؛ فجَاءتِ المغانِمُ كثيرةٌ، وفتَحَ خُلَفَاؤه الرَّاشدونَ مِنْ مشارِقِ الأَرْضِ ومغارِبِها ما هُو معلُومٌ، ومِنَ المعلومِ أن فتْحَ الخلفاءِ الراشِدِينَ لمشارِقِ الأَرْضِ ومغارِبِهَا إنما كان بدَعْوَةِ الرسولِ ﷺ، هم فتَحُوا البلادَ بالإسلامِ،

ولم يَفْتَحُوهَا بقُوَّتِهِمْ، بل بالإسلامِ الذي اتَّبَعُوه خَلَفًا لرسولِ اللهِ ﷺ.

إذن، فاللهُ أعطَى رسولَهُ ﷺ في الدُّنْيَا ما رَضِيَ بِهِ ولله الحَمْدُ.

أمَّا عَطَاؤُهُ له فِي الآخِرَةِ فسوفَ يُعْطِيهِ ما يُرْضِيهِ، يعْطِيهِ الشَّفَاعَةَ العُظْمَى التي لا يتَجَاسَرُ عليها أحدٌ مِنَ الرُّسُلِ الكِرامِ، حتى تَصِلَ إلى النَّبِيِّ ﷺ.

والشفاعة العظمى هي: أنَّ الناسَ يُبْعَثُونَ يومَ القِيامَةِ، ثم يَبْقَوْنَ خمسينَ ألفَ سَنَةٍ، لا أَلْفًا ولا عَشَرَةَ آلاف، بل خَمْسِينَ ألفَ سنَةٍ، لا طعَامَ ولا شَرابَ ولا شَيء، الشَّمْسُ تدْنُو منهُم مقْدَارَ مِيلٍ، ولا يَسْلَمُ مِنْ حَرِّهَا إلا مَنْ أظَلَّهُ اللهُ تعالى في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ.

يَلْحَقُ الناسَ مِنَ الهَمِّ والغَمِّ ما لا يُطِيقُونَ، ويتْعَبُونَ تَعَبًا عَظِيمًا، ويقولُ بعضُهُم لبعض: ألا تَطْلُبُونَ من يشْفَعُ لنَا إلى اللهِ؛ ليُرِيحَنا مِنْ هذَا الموقِفِ؟ فيُلْهِمُهُم الله تعالى أن يأتُوا آدَمَ، وآدَمُ هُو أبُو البشَرِ، ويقُولونَ لَه: أنتَ آدَمُ، خَلَقَكَ اللهُ بيدِهِ، وأسجَدَ لكَ مَلائِكَتَهُ، وعلَّمَكَ أسماءَ كلِّ شيءٍ، اشفَعْ لنَا إلى رَبِّكَ، ألا تَرى ما نَحْنُ فيهِ، فيعتَذِرُ عَنِ الشفاعَةِ بأنَّ الله نَهاهُ عن الأكلِ مِنَ الشجَرَةِ، ولكنَّه أكلَ مِنْهَا، وفي ذلك يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢١-١٢٢].

فإن قالَ قائلٌ: كيفَ يَعْتَذِر مِنْ ذنْبٍ تابَ مِنه والله تعالى اجْتَباهُ بعْدَهُ وهداهُ؟

قُلنا: لأنَّ مقَامَ الشفاعَةِ عظِيمٌ، ويحتاجُ إلى مَنْزِلَةٍ عالِيَةٍ، وآدمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خَجِلَ مِنَ اللهِ تَعَالَى أن يكونَ شَفِيعًا للخَلْقِ، مع أنه عَصَى ربَّه وتابَ مِنْ هذا الذَّنْبِ، وتابَ اللهُ عليهِ وهداهُ.

فيذهبونَ إلى نُوحٍ، وهو أَوَّلُ الرُّسُلِ، أما أَوَّلُ الأَنْبياءِ فهُو آدَمُ، أوحى اللهُ إليه بِمَا أَوْحَى، لكنَّ الرُّسُلَ أَوَّلُهم نُوحٌ، يأْتُونَ إليه ويقولون له: أنتَ أَوَّلُ رسولٍ أرسَلَهُ اللهُ إلى أَهْلِ الأرضِ -ويذْكُرونَ مِنْ مناقِبِهِ- ألا تَرَى ما نَحْنُ فيهِ؟ اشفَعْ لنَا إلى اللهِ. فيعتَذِرُ بأنه سألَ ما لَيْسَ به عِلْمٌ؛ لأنه سألَ ما ليسَ لَهُ به عِلْم، فقد وَعَدَ اللهُ نُوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يُنْجِيَهُ وأَهْلَهُ، وكان أحدُ أبناءِ نُوحٍ كافِرًا، كافرًا بأبيهِ وهو يَرَى الآياتِ، لكن مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هادِيَ لَه.

فلما أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يُهْلِكَ الكافِرينَ فتَحَ أبوابَ السماءِ بماءٍ مُنْهَمِرٍ، ماءٍ عَظِيم جدًّا منهمرٍ، وتأملْ قولَه تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر:١١] ليتَبَيَّنَ لكَ أن السماءَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ تُمْطِرُ، ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١٢]. لم يقل سبحانه: وفجرنا عيونَ الأرضِ. بل كل الأرضِ صارت عيونًا، ومعنى عيونًا: أي: مياهًا، ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢]، وملأ الماءُ الأرضَ حتى وَصَلَ إلى قممِ الجبالِ، وانصرف ابنُه، فقال له أبوه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٤٢-٤٣] فقال نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود:٤٥]، وقد وعدتني أن تنجيَني أنا وأهلي، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود:٤٥] قال الله له: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦] وهَذا كلامُ اللهِ لأَوَّلِ رسولٍ أرْسَلَهُ اللهُ إلى أهلِ الأرضِ يقول: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

في هَذِهِ الآيةِ مسأَلَةٌ فِقهيَّةٌ؛ وهي: أن الكافِرَ لا يرِثُ مِنَ المسلِمِ، نأخُذُها مِنْ

قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ مع أنَّه ابنُهُ، فيُستفادُ من هذِهِ الآية الكَريمَةِ أنه إذا اختَلَفَ دِينُ الميِّتِ وأقارِبِهِ فإنهُم لا يَرِثُون منْه؛ لأنهم ليسُوا مِنْ أهلِهِ، وإن كانُوا قَرابَتَهُ في النَّسَبِ، لكِنَّ الأواصِرَ الدِّينِيَّةَ هِيَ الأصلُ.

ثم يأتِي الناسُ إلى إبْراهيمَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، إمام الحُنفاءِ، الذي قالَ اللهُ تعالى فِيهِ: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣] يأْتُونَ إليه ويقولونَ: أنتَ خَلِيلُ اللهِ -ويذكُرُونَ من صِفاتِهِ- اشْفَعْ لنَا إلى ربِّكَ، ألا تَرَى ما نحنُ فيهِ؟ فيعتَذِرُ بأنه كَذَبَ ثَلاثَ كَذَباتٍ، وهذه الكَذَباتُ ليست كَذِبًا حقيقَةً ولكنَّها تَوْرِيَةٌ.

والتَّورِيَةُ هي أن يُريدَ المتكَلِّمُ بكلامِهِ ما يخالِفُ ظاهِرَهُ، فمثلًا لو سألكَ سائلٌ فقال: أتَعْرِفُ فُلانًا؟ وأنتَ تَعْرِفُه تمامًا فقلتُ: لا أعْرِفُهُ. هو يفْهَمُ أنك لا تَعْرِفُهُ، وأنتَ في الواقع تَعرِفُهُ، فكيفَ يمكِنُ أن يكونَ هذا النَّفْي حَقًّا؟ يكون حقًّا لو قَصَدْتَ أنكَ لا تَعرِفُهُ مسافِرًا، وهذا يصِحُّ، أو تقصد أنَّك لا تَعْرِفُهُ كذَّابًا، لا تعْرِفُه متزَوِّجًا، لا تعرفِهُ شَيْخًا. وهكذا، ويسمَّى هذا تأويلًا، وفي التأويلِ منْدُوحَةٌ عنِ الكَذِبِ، وهكذا قال إبراهيمُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قولًا هو فِيهِ متأَوِّلٌ، لكنه بحسبِ السامِعِ غيرُ صحِيحٍ.

أما الكَذَباتُ الثلاثُ التي كذَبَها ﷺ هي في الواقع غيرُ كَذِباتٍ، وهي:

الأُولى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾ [الصافات:٨٨-٨٩] لأن قومَه كانُوا يعبُدونَ النُّجومَ، ولهذا حاجَّهم، كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦] وهل هُو رَبُّهُ؟ لكنه يقولُ عَلَى زعْمِهِمْ: ﴿فَلَمَّآ

أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي: عَلَى زَعْمِ قومِهِ ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام:٧٦-٧٨]. ولكنَّه عنْدَمَا قالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ أي: مَرِيضٌ، لم يكُنْ مَرِيضًا حينئذٍ، ولكنه سيكونُ، والأصنامُ لا تُغْنِي شيئًا، هذِهِ واحِدَةٌ.

الثانِيَةُ: إبراهيمُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دعَا قومَهُ إلى توحيدِ اللهِ، وكانُوا يَعْبُدونَ الأصنامَ، فخَرَجُوا ذاتَ يومٍ، فعادَ إلى أصنْامِهِمْ فكَسَرَهَا، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٠-٦٣]، والصَّنَمُ الكبيرُ لم يكُنْ هو مَنْ كَسَرَ بَقِيَّةَ الأصنامِ، بل كان إبراهيمُ هو الفاعِلُ، لكنه قال: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ تحدِّيًا لقومِهِ، أي: أن هَذَا الكبيرَ لا يُريدُ أن يُنازِعَهُ أحدٌ في رُبُوبيَّتِهِ وأُلُوهِيَّتِهِ، إشارةً إلى أن الإلَهَ الحقَّ -وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ- لا يَرْضَى أن يكونَ أحدٌ شَرِيكًا لَهُ في العبادَةِ. وهذه الثانيةُ.

الثالثة: مَرَّ إبراهيمُ بمَلِكٍ ظالِمٍ يريدُ زَوْجَتَهُ، فقال له إبراهيمُ ﷺ: هَذِه أُخْتِي. وهي في الواقِعِ زَوجتُهُ، لكنه تَأَوَّلَ أنها أختُهُ في الإسلامِ. هذِهِ حقيقةٌ ليستْ كَذَبَات باعتبارِ الحقِيقَةِ، لكنَّها باعتبارِ المخاطَبِ كَذَبات، فإبراهيمُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اعتَذَرَ أنه كَذَبَ هذِهِ الكَذَبَات، مع أنها حقِيقَةٌ ليستْ كَذَبَات.

فيقول لهم إبراهيمُ: اذْهَبُوا إلى مُوسَى. فيأتُونَ موسَى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهو

أفضلُ أنْبياءِ بَنِي إسرائيلَ، فيقولون: أنتَ مُوسَى كَلَّمَكَ اللهُ واصْطَفاكَ لنَفْسِهِ -ويذكرون من مَناقِبِه- اشْفَعْ لنَا إلى ربِّكَ، ألا تَرَى ما نَحْنُ فيه؟ فيَعْتَذِرُ بأنه قتَلَ نَفْسًا لم يُؤمَرْ بقَتْلِهَا، وحقيقَةُ الأمرِ أن مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَرَّ برجُلٍ مِنْ بنِي إسرائيلَ ورَجُلٍ مِنَ الأقْباطِ يتَنَازَعانِ، فاستَغاثَ الإسْرائيليُّ موسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أي: طلَبَ منْهُ الغَوْثَ على القِبْطِيِّ، وكان مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَجُلًا شَدِيدًا قويًّا، فوكَزَ القِبْطِيَّ فقَضَى عليه، أي: هَلَكَ وماتَ.

ومَرَّ مرَّةً أخْرَى فإذا صاحِبُه الإسْرائيليُّ ينازعُ قِبْطِيًّا آخَرَ ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص:١٩]، وكانَ آلُ فِرْعونَ يَبْحَثُونَ عن الَّذِي قتَلَ صاحِبَهُم، فعُلِمَ بذلك أن مُوسَى هو الذي قَتَلَ القِبْطِيَّ بالأمسِ، ولم يقْتُلْهُ في اليومِ الثانِي، فقال: إنه قَتَلَ نَفْسًا لم يُؤْمَرْ بقَتْلِها. وجعل ذلِكَ من الأسبابِ التي يَخْجَلُ منْها أن يكون شَفِيعًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وهكذا ذَهَبُوا إلى أربَعَةِ أنبياءَ: آدَمَ، ونوحٍ، وإبراهِيمَ، ومُوسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ثم ذهَبُوا إلى عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وذَكَرُوا من مناقِبِه، وطلَبُوا منه أن يشفَعَ لهُمْ إلى اللهِ، ولكنه لم يَفْعَلْ، ولم يعتَذِرْ بذَنْبٍ، وإنما أحالهُمْ إلى محمَّدٍ رسولِ اللهِ ﷺ؛ لأن الرُّسُلَ كلَّهُم يعتَرِفُون بأنَّ محمَّدًا هو أفضَلُهم، جَعَلَنِي اللهُ وإياكُمْ من أتْباعِهِ؛ لأنه في ليلةِ المِعْراجِ صلَّى بِهِمْ إمَامًا، وكلُّهُم خَلْفَهُ، ذلك فضلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَنْ يشاءُ.

فأحالهُمْ إلى النَّبِيِّ ﷺ، ولم يَذْكُرْ شيئًا يعتَذِرُ به، وهذِه مِنْ حكمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛

أن اللهَ أَلْهَمَ البشَرَ أن يذْهَبُوا أولًا إلى أَبيهِمْ، ثم إلى أَوَّلِ رسولٍ، ثم إلى خَليلِ اللهِ إبراهِيمَ، ثم إلى مُوسَى، وكلُّ هؤلاءِ يعتَذِرُونَ بما يَرَوْنَ أنه يحولُ بينَهُم وبينَ الشفَاعَةِ، أما عَيسَى فلا يعتَذِرُ بشيءٍ، لكنه يعتَرِفُ بالفضْلِ لرسولِ الله ﷺ، فتكون نهايةُ الطَّلَبِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، ما بين معتَذِرٍ منْها لما يَرَى أنه مانِعٌ مِنَ الشفاعَةِ، وبينَ معتَرِفٍ بالفَضْلِ لرسولِ اللهِ ﷺ، فيقومُ النَّبِيُّ ﷺ ويشْفَعُ، ولا شكَّ أن الرسولَ يَرْضَى بهَذَا ويفْرَحُ بِه، ولهذا قالَ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء:٧٩]، وهَذَا واللهِ المقامُ المحمودُ، يحْمَدُهُ الأوَّلونَ والآخِرونَ، الذين مِنْ أُمَّتِهِ، والَّذِينَ سبقُوهَا، فهو عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعطِيهِ ربُّهُ فيَرْضَى[١].

وهناك أمرٌ آخَرُ، يُنصَبُ الصِّراطُ على جَهَنَّمَ، ويمرُّ النَّاسُ على هذا الصِّراطِ على قدْرِ أعمالِهِمْ، منهم مَنْ يمُرُّ كالبَرْقِ، ومنهم من يمُرُّ كالرِّيحِ، ومنهم من يمُرُّ كالإبلِ، ومنْهم من يمشِي، ومنهم من يزْحَفُ، المهم: أن النَّاسَ يمُرُّونَ عليه على قَدْرِ أعمالِهِمْ، فأوَّلُ الناسِ عُبُورًا لهذَا الصراطِ محمدٌ ﷺ وأمَّتُهُ[٢]، وهذا لا شكَّ أنه فضلٌ عظيمٌ ومَيْزَةٌ ومنْقَبَةٌ، يأتي النَّاسُ إلى بابِ الجنَّةِ، فيَجِدُونَهُ مغْلقًا، فيَطْلُبونَ الشَّفاعَةَ مِنْ محمدٍ ﷺ ليفتحَ لهم[٣].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، رقم (٤٤٧٦)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قول النبي ﷺ: **«أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعا»**، رقم (١٩٦).

وهذه مَقاماتٌ عَظِيمَةٌ داخِلَةٌ في قولِه تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥].

بعد ذلك قالَ اللهُ تعالى مُقَرِّرًا نِعَمَهُ على رسولِهِ ليستَدِلَّ بها حَدَثَ على مَا لم يَحْدُثْ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى:٦]، واليَتِيمُ: مَنْ ماتَ أبوهُ قبْلَ أن يبْلُغَ، والنَّبِيُّ ﷺ ماتَ أَبُوه وهُوَ حَمْل في بَطْنِ أُمِّه، ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: آوَاهُ بما قيَّدَ اللهُ له ممن يحنُو علَيْهِ، ويعْطِفُ عليه، ويقومُ بأمْرِهِ، فيَسَّرَ الله له جَدَّهُ عبدَ المطلِبِ، فكَفَلَهُ أحسنَ كفالَةٍ، ثم تُوفِّيَ عبدُ المطلِبِ، فقيَّد اللهُ له عَمَّهُ أبا طالِبٍ، وكَفَلَهُ أحسنَ كَفالَةٍ، واعتَنَى بِهِ ودافَعَ عنه، وأعلَنَ أنه صادِقٌ، أعلن أن الرَّسولَ ﷺ صادِقٌ، وله في ذلِكَ شِعْرٌ.

ولعل كَثِيرًا مِنَّا لا يحفَظُ هذا الشِّعْرَ، ولكن أَنْصَحُكُم ونَفْسِي بوُجوبِ معْرِفَةِ سيرَةِ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأن معْرِفَتَهَا تَزِيدُ في الإيمانِ، وتَزِيدُ في محبَّةِ اللهِ ورَسولِهِ، وتُكْسِبُ الإنسانَ أسوةً حسَنَةً: كيف كان خُلُقُ النَّبيِّ ﷺ في حَرْبِه وسِلْمِهِ ويُسْرِهِ وعُسْرِهِ. فمَعْرِفَةُ السيرَةِ أمرٌ مُهِمٌّ جِدًّا.

يقول أبو طالبٍ[1]:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ محمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا

إذن: اعتَرَفَ بأنه دِينٌ، واعترفَ بأنه من خَيْرِ الأديانِ، ولكن انظُرُوا ماذا مَنَعَهُ من اتِّباعِهِ:

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حِذَارِ مَسَبَّةً ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

(١) خزانة الأدب (٢/ ٧٦).

وله قصيدةٌ طَويلَةٌ، قال عنْها ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في البداية والنِّهايَةِ[(١)]: ينبَغِي أن تكونَ مِنَ المعَلَّقَاتِ، والمعلَّقاتُ سبعُ قصائدَ رأتِ العَرَبُ أنها أحسنُ ما قالَتْهُ العرَبُ، فعَلَّقُوها في الكعبَةِ، وهذه القصيدة لأبِي طالِبٍ تُسَمَّى اللَّامِيَّة، وقد قال فيها فيما قال:

لَقَدْ عَلِمُـوا أَنَّ ابْنَنَـا لَا مُكَـذَّبٌ   لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَـى بِقَـوْلِ الأَبَاطِـلِ

أي: لَقَدْ عَلِمَتْ قريشٌ أن رسولَ اللهِ ﷺ ليس بمكَذَّبٍ لدَيهِمْ، وليس من شِيَمِهِ قولُ الأباطلِ، وهذه شهادَةٌ له بأنه صادِقٌ، لكنه لم يؤمِنْ، ولهذا قال عن نَفْسِه:

لَـوْلَا المَلَامَـةُ أَوْ حِـذَارِ مَسَـبَّةٍ

وفي آخر رَمَقٍ له حَضَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ وقال له: «أَيْ عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»[(٢)]. ولكن كان عندَهُ جلساءُ السُّوءِ من قُرَيشٍ، فقالوا له: أَتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطلِبِ؟ فكان آخرُ ما قالَ: بل على مِلَّةِ عبدِ المطلِبِ. وأَبَى أن يقولَ: لا إله إلا اللهُ. اللَّهُمَّ أحسِنْ خاتِمَتَنَا، اللَّهُمَّ اختِمْ لنَا بالتوحيدِ والإيمانِ، إنَّك على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ.

ولكن نَظَرًا لما لهَذَا الرَّجُلِ من مواقِفَ دافَعَ فيها عَنِ الإسلامِ وعنْ رَسولِ الإسلامِ أذِنَ اللهُ لرَسولِهِ أن يشفَعَ فيهِ، مع أنه كافِرٌ، وقد صارَ إلى ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ عَلَيْهِ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ مِنَ الحَرَارَةِ[(٣)]، وما دُونَ الدِّماغِ؛ لأن القَدَمَيْنِ

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ١٤٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩).

أسفلُ ما يكونُ في الجَسَدِ، والدِّمَاغُ أعلَى ما يكونُ.

فإذا كان أعْلَى ما يكونُ مِنَ الجَسَدِ، وهو أبعدُ ما يكونُ من القَدَمَيْنِ، يغْلِي -نسأل اللهَ السلامةَ والعافيةَ- فَمَا دونَ الدِّماغِ من بابِ أَوْلى، ولكِنْ لا ينتَهِي الأمرُ إلى هذَا الحدِّ، وهو أهونُ أهلِ النَّارِ عَذَابًا، ولكنه يَرَى أنه أشَدُّهُم عَذَابًا، والإنسانُ إذا رأى أنه أشَدُّ من يعاقَبُ تزيدُ عليهِ العُقُوبَةُ ألَمًا بدَنِيًّا أو نَفْسِيًّا، لكن لو رَأَى أنه أهونُ الناسِ لهانَ عليه الأمرُ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩]. بينَمَا الناسُ في الدُّنيا إذا اشْتَرَكُوا في العذابِ هانَ عليهِمُ الأمرُ، كما قالتِ الخَنساءُ تَرْثِي أخاهَا صَخْرًا حيث قالتْ[1]:

وَلَــوْلَا كَثْــرَةُ البَــاكِينَ حَــوْلِي عَـلَى إِخْــوَانِهِمْ لَقَتَلْـتُ نَفْسِــي

مما يدُلُّ على أن الإنسان إذا شَاركَهُ غيرُهُ في ألمِهِ وعذابِهِ هانَ عليه الأمْرُ.

فقوله تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى:٦] أَمْرٌ محقَّقٌ، ولهذا قالَ علماءُ العَرَبيَّةِ: الاستفهامُ هنا فِي ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ للتَّقْرِيرِ، أي: إنَّ هذَا شيءٌ مقرَّرٌ.

وجوابُ **الاستِفْهامِ هنا هو**: بَلَى، وهذه مسألَةٌ، وهي جوابُ الاستِفْهامِ المقرونُ بالنَّفْيِ، لا يعرِفُها كثيرٌ مِنَ النَّاسِ، فلو سأَلْنَا شخْصَيْنِ، فقُلْنَا لأحدِهِما: أَلَسْتَ قد طَلَّقْتَ امرأَتَكَ؟ فقالَ: نَعَمْ. وقلنا للآخر فقال: بَلَى. فكان الذي قال: بَلَى، هو مَنْ طلَّقَ امرأتَهُ، أما الَّذِي قالَ: نَعَمْ. فلم يُطَلِّقِ امرأَتَهُ. لأن الإجابة بـ: نَعَمْ عن السؤالِ المنْفِيِّ هو تَقريرٌ للنَّفْيِ، أي: نَعَم لم أفْعَلْ؛ أما الإجابَةُ بـ: بَلَى فمعناه: بلى قَدْ فَعَلْتُ.

وهذه المسألةُ لا يَعْرِفُها العامِّيُّ؛ فإذا قيل له: ألستَ قد طَلَّقْتَ امرأَتَكَ؟

---

(١) ديوان الخنساء (ص:٦٧).

قال: نعم. وهو يريدُ مَعْنى (بَلَى) لا شكَّ في هذَا، لكنَّ طالِبَ العِلْمِ الذي يعرِفُ مدلولاتِ الألفاظِ العَرَبِيَّةِ هو الذي يُفَرِّقُ.

على كلِّ حالٍ فإن جوابَ قولِهِ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى:٦]: بَلَى، أي: تقريرٌ أن اللهَ وجَدَهُ يتيمًا فآواه، ولهذا قال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧]، فعَطَفَ الفِعْلَ الماضِيَ على الفعلِ المضارعِ؛ لأن المعْنَى قد وجَدَك يتيمًا فآواكَ، ووجَدَكَ ضالًّا فهَدَاكَ، والضلالُ هنَا ليس ضلالَ الغَيِّ، لكنَّه ضلالُ عدَمِ العِلْمِ، أي: وجَدَكَ لا تعْلَمُ فعَلَّمَكَ.

وهذا هو الحقُّ؛ كان النَّبِيُّ ﷺ أُمِّيًّا لا يقْرَأُ ولا يكتُبُ، كما قالَ الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨]. ولما قال له جِبْرِيلُ حين نَزَلَ عليهِ بالوَحْيِ أوَّلَ مَرَّةٍ: اقرَأْ. قالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»(١). أي: لَسْتُ مِنَ الذين يَقْرؤونَ؛ لأنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كغيرِهِ مِنَ العربِ الأُمِّيِّينَ، قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢].

إذن، الضَّلالُ هنا بمَعْنَى عدَمِ العِلْمِ، وليس بمعْنَى الغَيِّ، كما نقولُ للكافِرِ: إنه ضالٌّ، لا ولكنَّ المعْنَى أنه لا يعلَمُ شيئًا قَبْلَ أن ينزِلَ عليهِ الوَحْيُ. أليس اللهُ تعالى يقولُ لرسولِهِ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:١١٣]، وقال لَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢].

لكِنَّ الرسولَ هداهُ الله بما أَنْزَلَ عليهِ مِنَ الوَحْيِ، ولهَذَا قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦٠).

ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى:٧]، وهذا واقِعٌ، فقد هداهُ اللهُ تعالى عِلْمًا وعَمَلًا؛ لأنَّ الهدايَةَ تنقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: هدايَةِ بيانٍ، وهِدَايَةِ توْفِيقٍ.

أما هدِايَةُ البَيانِ: فَهِي عامَّةٌ لكلِّ إنسانٍ، حتى الكفَّارُ هداهُم الله هدايَةَ بيانٍ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧].

أما هِدَايَةُ التَّوفِيقِ: فَهِي خاصَّةٌ لمن وَفَّقَهُ اللهُ للإيمانِ، ولهذَا قالَ اللهُ لرَسولِهِ ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص:٥٦]. وقالَ في آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]. فكَيْفَ يجتَمِعُ النَّفْي والإثباتُ؟ نقولُ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ هَدَايَةُ تَوْفِيقٍ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هِدَايَةُ بَيانٍ.

فالرسولُ ﷺ ما تَرَكَ شيئًا إلا بَيَّنَهَ لأُمَّتِهِ، حتى إنَّ أبا ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «لَقَدْ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا»(١).

وقالَ رَجُلٌ مِنَ المشركينَ لسَلْمانَ الفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الخِرَاءَةَ قَالَ: فَقَالَ: «أَجَلْ». ومعنى كلامه: علَّمَكم كلَّ شيءٍ حتى قضاء الحاجَةِ، فإنَّ رسولَ الله عَلَّمَهُم كيفَ يفعلُونَ. قال: «أَجَلْ، لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ لِغَائِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِاليَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ»(٢).

وأهمُّ شيءٍ في هَذَا الأَثَرِ أُحِبُّ أن أُبيِّنَهُ هو قولُهُ: «أَنْ نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ لِغَائِطٍ»

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٢، رقم ٢١٤٧٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٢).

وهذا الحديثُ عامٌّ يشْمَلُ الفَضاءَ والبُنيانَ، لكِنْ دَلَّتِ السنَّةُ على أنه يجوزُ في البُنْيانِ استدبارُ القِبلَةِ دونَ استِقْبالِهَا، فقد قال ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «رَقِيتُ يومًا عَلَى بَيْتِ حَفْصَةَ، فرأيتُ النَّبيَّ ﷺ يقْضِي حاجَتَهُ مستَقْبِلَ الشَّامَ مُسْتَدْبِرَ الكَعْبَةَ»[1].

وبهذه المناسَبَةِ أَوَدُّ أن أقول لإخْوانِنَا الذين بَنَوْا مَراحِيضَهُم على اتجاهِ القِبْلَةِ: غيِّرُوها؛ لأن النبيَّ ﷺ نهى عنْ ذلِكَ، نهى عن استِقْبالِ القِبْلَةِ بغائطٍ أو بَوْلٍ، فأنتَ لا تَرْضَى أن تقْضِيَ حاجتَكَ وتمارِسَ نعمَةً مِن نِعَمِ اللهِ عليك وأنت تَعْصِيهِ. وتَغْيِيرُ هذه المراحيضِ سَهْلٌ، لا يكلِّفُ إلا شيئًا يَسِيرًا.

قد يقولُ قائلٌ: أنا أجلِسُ عليهَا وأجعَلُ القِبْلَةَ عن يَمِيني أو عَنْ شِمَالي؟

نقول: إذا فَرَضْنَا أنَّكَ تستطيعُ فِعْلَ هذَا، فهلْ كلُّ من يدْخُلُ هذا سَيَفْعَل مِثْلَكَ؟ فهذا المرحاضُ تدخُلُه أنتَ في حياتِكَ ويدخُلُه غيرُكَ من بعدكَ، وبالتأكيد أنت لا تريدُ أن تكونَ آثَامُهم عَلَيْكَ؟

ولهذا أقول: إن اتجاهَ المراحِيضِ إلى القِبْلَةِ حَرامٌ، واستِدْبارُهَا جائزٌ، والدَّليلُ على الجوازِ حديثُ ابنِ عُمَرَ: «رَقِيتُ يومًا عَلَى بَيْتِ حَفْصَةَ، فرأيتُ النَّبِيَّ ﷺ يقْضِي حاجَتَهُ مستَقْبِلَ الشَّامَ مُسْتَدْبِرَ الكَعْبَةَ».

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨] ﴿عَآئِلًا﴾ أي: فَقِيرًا، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي: أغنَاكَ. ونُلاحِظُ أنه قالَ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ ولَمْ يَقُلْ: فآواكَ، وقالَ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ ولم يقُلْ: فهَدَاكَ، وقال: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، ولم يَقُلْ: فأغْناكَ. والحِكْمَةُ من هذا نوعانِ: لفظِيَّةٌ، ومعْنَوِيَّةٌ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٦).

أما اللَّفْظِيَّةُ: حتى تتَنَاسَبُ الآياتُ في خِتَامِهَا، ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، فآخِرُ الآياتِ هو الألِفُ، وحتى تتَنَاسَبَ الآياتُ حُذِفَ المفْعُولُ، وإلا فالأصل: آواكَ، فهدَاكَ، فأغْنَاكَ. لكن حُذِفَ لفائدَةٍ لفظِيَّةٍ وهي تَنَاسُبُ الآياتِ.

الفائدة المعنوية: أن قوله: ﴿فَآوَىٰ﴾ أي: آواكَ وآوَى بِكَ، وما أكثَرَ الَّذِينَ آواهُمُ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: هَدَاكَ وهَدَى بِكَ، ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي: أغْنَاكَ وأغْنَى بِكَ. هذه هي الفائدةُ المعْنوِيَّةُ.

والدَّلِيلُ على ذلك أن الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال للأنْصارِ: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا، فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَعَالَةً، فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَمُتَفَرِّقِينَ، فَجَمَعَكُمُ اللهُ بِي؟»(١).

إذن، حَذْفُ المفْعولِ هنَا له فائدَتانِ: فائدَةٌ لَفْظِيَّةٌ وفائدَةٌ معنَوِيَّةٌ، الفائدةُ اللَّفْظِيَّةُ: تَنَاسُبُ رُؤوسِ الآيات. الفائدةُ المعنَوِيَّةُ: العُمومُ، أي: أن اللهَ آواهُ وأوَى بِهِ، وهدَاه وهَدَى بِهِ، وأغنَاه وأغْنَى بِهِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى:٩]، وهي فِي مُقابِلِ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى:٦]، أي: ما دَامَ اللهُ آواه وهُو يَتِيمٌ يجِبُ أن يَعْرِفَ حالَ اليَتِيمِ، واليتيمُ -كما سبَقَ- هو من مات أبوهُ قَبْلَ أن يبْلُغَ، وقَدْ أوْصَى اللهُ بِهِ فِي كتابِهِ، وكذلك رسولُهُ محمدٌ ﷺ، ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى:٩] ودَارِه وأفْسِحْ له، ويَسِّرْ لَهُ الأمرَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٠٧٥)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦١).

وهكذا ينبَغِي أيضًا أن نفْعَلَ بالصِّغَارِ فَلا نَقْهَرْهُم، فالصَّغِيرُ غيرُ مُميِّزٍ، فَقَدْ يدخُلُ على القَومِ الكبارِ من أشرافِ البَلَدِ ووُجَهائِهَا، فيكون مِنْه تَصَرُّفاتٌ غيرُ مَسْؤولَةٍ تُجاهُهُم؛ لأنه لم يَعْقِلْ بعدُ، ولا يصِحُّ للكبارِ أن يَزْجُروهُمْ، ويطْرُدوهُمْ، وهذا خطأٌ، بل عليهِمْ أن يترُكُوه، ويُفْسِحُوا له ليفْعَلَ ما يَحْلُو له؛ لأَنَّكَ إذا قَهَرْتَهُ وكَبَتَّه تحوَّلَ ذلِكَ إلى عُقْدَةٍ نفْسِيَّةٍ.

وهذا ليس من هَدْيِ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل كان ﷺ يمازِحُ الصِّبْيانَ، حتى إنَّه قالَ لصَبِيٍّ ذاتَ يومٍ: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**»[1]. والنُّغَيْرُ طائرٌ صَغِيرٌ، وكانَ هذا الصَّبِيُّ يلْعَبُ به مسْرورًا بطَيْرِهِ، الذي يَلْعَبُ بِهِ كما يلْعَبُ صِبْيانُنَا الآن، فماتَ النُّغَيْرُ، وهو حَبِيبٌ إلى أبي عُمَيْرٍ، فحَزِنَ، فكانَ النَّبِيُّ ﷺ يمازِحُهُ ويقول: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**».

وكان يومًا ﷺ يُصَلِّي بالنَّاسِ، فجاءَهُ الحسَنُ أو الحُسَيْنُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وهُو ساجِدٌ، فرَكَبَ على ظَهْرِهِ، يريدُ أن يجْعَلَهُ ناقَةً له، فأطالَ السُّجودَ، فلما انْصَرَفَ من صلاتِهِ قالَ للنَّاسِ: «**ابْنِي ارْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**»[2].

هذا خُلُقٌ عَظِيمٌ منه ﷺ، فلو حَدَثَ هذا لأحَدِنَا اليومَ، لدَفَعَ الصَّبِيَّ، ولكنه لا يقول: انْزِلْ. لأنه لو قالَ ذلك لبَطَلَتْ صلاتُهُ، لكنه يدفَعُهُ بيدِهِ، أما النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو يصَلِّي بأشْرَفِ المجتمعاتِ الصحابَةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم يفعَلْ ذلِكَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس، رقم (٥٧٧٨)، ومسلم: كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته، رقم (٢١٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٣، رقم ١٦٠٧٦)، والنسائي: كتاب التطبيق، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة، رقم (١١٤١).

وروي كذلك أن أُمَامَة بنتَ زَيْنَبَ بنتِ محمَّدٍ ﷺ كانَتْ مَعَهُ وهو يُصَلِّي بالناسِ، فكان يَحْمِلُها وهو يُصَلِّي، إذا قَامَ حَمَلَها، وإذَا سَجَدَ وَضَعْهَا[1]. وهذا مِنْ مُلاطَفَتِهِ بالأطفالِ ﷺ.

إذن، علينَا أن نُلاطِفَ الصِّبْيانَ، وأن نتَسَاهَلَ معَهُم في الأمور.

وقد يحتَجُّ علينَا بعضُ الناسِ فيقولُ: إذا تَرَكْنَا الصبيانَ في المسجِدِ يلْعَبُونَ تعوَّدُوا على هذا. فنقول: هذا غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّنَا عندَمَا كنَّا صِغَارًا كنا نَلْعَبُ عند الناسِ في المجالِسِ، ولما كَبِرْنَا أصبحَ أولادُنا هَمْ من يلْعَبُونَ، فإذا ما كَبروا مِثْلَنَا تَوَقَّفُوا ولَعِبَ أولادُهُم، وهكذَا. فدَعُوهم لا تَحْبِسُوا حُرِّيَتَهُم، اتركُوا الصِّبْيانَ ينطَلِقُونَ يفْرَحُونَ، فالحياةُ أمامَهُ واسِعَةٌ، إلا في شيءٍ واحِدٍ، فيجِبُ ألَّا نُمَكِّنَهُم منه، وهو الحَرَامُ، فلو قالَ الصبِيُّ: أنا أُحِبُّ المُغَنِّي الفُلاني، فاتْرُكِ التِّلِفزيونَ حتى أشاهِدَهُ. فهذا الذي يجِبُ أن تَمْنَعَهُ منه، لأننا لو تَرَكْنَاهُ لتَعَوَّدَ عليه.

ولهذا أُحَذِّرُ غايَةَ التَّحْذِيرِ من شُرورِ الدُّشوشِ ذواتِ القَنَواتِ الفضائيةِ؛ لأن فِيهَا مِنَ المفاسِدِ العَظِيمَةِ في الأخلاقِ، وفي العقِيدَةِ، وفي الأفكارِ، ما لا يعْلَمُهُ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، والذين يُشَاهِدُونَ هذِهِ الدُّشُوشَ يذْكُرونَ لنَا -والعياذُ باللهِ- من الفضائحِ ما لا يَصْبِرُ عليه أحدٌ مِنَ المؤمنينَ، والواجِبُ على المرءِ الَّذِي يتَّقِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ويخافُ من سُوءِ الخاتِمَةِ، أن يكسِرَ ما عنْدَهُ من هذه الدُّشوشِ تكسيرًا؛ لما فيها مِنَ الشَّرِّ والفَسادِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة، رقم (٥١٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة، رقم (٥٤٣).

وقد قالَ أهلُ العِلْمِ بوجوبِ تكْسِيرِ آلاتِ اللَّهْوِ، فنقولُ لهذَا الإنسانِ: لديكَ هَذَا البلاءُ في بَيتِكَ، الذي لا يشاهِدُ فيهِ إلَّا ما يَبُثُّهُ أعداؤكَ وأعداءُ اللهِ ورسولِهِ، فعليكَ أن تكْسِرَهُ، ولا تهتَمَّ بما دَفَعْتَهُ فيه منْ مالٍ، فأنتَ تُضَيِّعُهُ في ذاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومن تَرَكَ شيئًا للهِ عوَّضَهُ اللهُ خيرًا مِنْهُ.

وقد قالَ المفسِّرُونَ في قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في قِصَّةِ سُليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ [ص:٣١]، والعَشِيُّ: آخرُ النهارِ، والصَّافِنَاتُ الجِيادُ: الخَيْلُ الجيِّدَةُ؛ لأنَّه يُحِبُّ الجهادَ في سبيلِ اللهِ كغيرِهِ مِنَ الرُّسلِ، عُرِضَتْ عليه، فجَعَل يُعْجَبُ بها حتى تَوارَتْ بالحِجابِ، توارَتْ أي: الشَّمْسُ، بالحِجابِ أي: بالأرْضِ، والمعْنَى غابَتْ، فألْهَتْهُ عن صلاةِ العَصْرِ، فقالَ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ [ص:٣٣]، فرَدُّوها عليهِ، فجَعَلَ يضْرِبُها في سُوقِهَا، وفي أعْنَاقِهَا؛ انتِقَامًا مِنْ نفسِهِ بنَفْسِهِ؛ حيثُ أَلْهَتْهُ عن ذِكْرِ اللهِ قالَ: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص:٣٢-٣٣] فَقَدْ أتْلَفَها وهِيَ خيلٌ صافِنَاتٌ جِيادٌ؛ انتِقَامًا من نَفْسِهِ بنفْسِهِ، وغَضَبًا للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وها هو نَبِيُّكُم وإمامُكُم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أهْدَى إليه رَجُلٌ، يقالُ له أبو جَهْمٍ، خَمِيصَةً -والخَمِيصَةُ: كِساءٌ مُعْلَمٌ جَيِّدٌ وجَمِيلٌ- فجاء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُصَلِّي، فنَظَرَ إلى أعلامِهِ أي إلى خيوطِهِ، نظْرَةً واحدَةً، فلما قَضَى صلاتَهُ قالَ: «**اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ، وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِي جَهْمٍ، فإنَّهَا أَلْهَتْنِي آنفًا عَنْ صَلَاتِي**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب إذا صلى في ثوب له أعلام ونظر إلى علمها، رقم (٣٧٣)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة في ثوب له أعلام، رقم (٥٥٦).

فتَرَكَها النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع أنها كِساءٌ جَمِيلٌ تركَهَا لأنها أَلْهَتْهُ، نَظْرَةٌ واحِدَةٌ أَلْهَتْهُ عَنْ صلاتِهِ. والأَنْبِجَانِيَّةُ: كِساءٌ غَلِيظٌ ليس فيه أعلامٌ.

وقد طَلَبَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ أبي جَهْمٍ الأَنْبِجَانِيَّةَ جَبْرًا لخاطِرِه؛ لأنه لو رَدَّ عليه ما أَهْدَى إِليهِ من الخَمِيصَةِ، ولم يأخُذْهَا، لكانَ في نفْسِه شيءٌ، ولكنه طلَبَ منه بَدِيلًا حتى يُرْضِيَهُ.

فأقولُ لإخوانِي الذين عِندَهُم هذه الدُّشوشُ: إذا كَسَرُوهَا للهِ عَزَّوَجَلَّ فلْيُبْشِرُوا بالخيرِ، ولِيُبْشِرُوا بالخَلَفِ العَاجِلِ، وليُبْشِرُوا بقُوَّةِ الإيمانِ، فإنهم سيَذُوقونَ حَلاوةَ الإيمانِ، ثم إنهم يَسْلَمُونَ مِنْ شرورٍ عَظِيمَةٍ، فأنت لا تعْلَمُ ما سيفْعَلُ أهلكُ وأولادُكَ مِنْ بعدِكَ، وخاصة بعد أن تموتَ وهذا الجهازُ في بَيْتِكَ، وأنتَ مسؤولٌ عن رَعِيَّتِكَ التي استَرْعاكَ اللهُ عليهَا، والدَّليلُ من القُرآنِ والسُّنَّةِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم:٦]، ولم يأمُرْنَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن نَقِيَ أَهْلِينَا نَارًا إلا لنَمْنَعَهُم مما يكونُ سَببًا من دُخولِ النارِ.

إذن، فنَحْنُ رعاةٌ عليهِمْ بأمرِ الله عَزَّوَجَلَّ، أما السُّنَّةُ فاسْمَعْ قولَ النبيِّ ﷺ: «**الرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»(١). هَذِهِ مَرْتَبَةٌ.

المرتبَةُ الثانِيَةُ: هذا الرجلُ الذي يشاهِدُ أهلُهُ هذِهِ المنْكراتِ العظيمَةَ المُفْسِدَةَ للعَقِيدَةِ والأخلاقِ والمجتَمَعِ، وهو يشاهِدُهم، وهو قادِرٌ على أن يمْنَعَهُم من ذلك بإزالَةِ هذه الآلَةِ الخَبِيثَةِ عنهم، هو غاشٌّ لهُمْ، وإذا كان غَاشًّا نُدْرِجُهُ تحتَ الحديثِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم (٨٩٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم (١٨٢٩).

الصحيحِ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ**»(١).

والنُّصوصُ التي تَرِدُ في الوعيدِ أو في الوَعْدِ عَلَى وجهِ العُمومِ لا تَنْطَبِقُ على شخصٍ بعَيْنِهِ، بل تنْطَبِقُ على كلِّ الناسِ؛ لأن هذه العموماتِ، سواءٌ كانَتْ وعِيدًا أم وَعْدًا، هي عُموماتٌ، لكن قَدْ لا تَثْبُت لكَ واحدة، قد يكونُ هناكَ موانِعُ تمنَعُ من نُفوذِ الوَعيدِ، أو هناك حَسَنات كثِيرة، أو هناكَ عَفْوُ اللهِ فيما دونَ الشِّرْكِ، ولهذا مَثَلًا إذَا عَلِمْنَا أن فُلانًا ماتَ، وقد تَرَكَ الدِّشَّ عند أهلِهِ، فلا يجوزُ أن نقولَ: إنَّ اللهَ حَرَّمَ على هذا الرَّجُلِ الجَنَّةَ؛ لأن هناكَ فَرْقًا بين التَّعْمِيم والتَّعْيِينِ، فالتَّعْيِينُ لا بُدَّ فيه من نَصٍّ على الشَّخْصِ بعينِهِ، والتعمِيمُ للعُمومِ.

نحن نقول: الجَنَّةُ أُعِدَّتْ للمُتَّقِينَ، وأهلُها هُمُ المؤمنونَ، فإذا رأيْنَا رَجُلًا مؤمنًا متَّقِيًا لله لا نستطيعُ أن نجعلَهُ مِنْ أهلِ الجَنَّةِ، لكن نقول: نَرْجُو أن يكون مِنْ أهلِ الجَنَّةِ. ولا نُعَيِّنُهُ، فقَدْ لعَنَ النَّبِيُّ ﷺ آكل الرِّبَا وموكِلَهُ وشَاهِدَيْهِ وكاتِبَهُ، وقال: «**هُمْ سَوَاءٌ**»(٢). فإذا رأينا أحَدًا يأكُلُ الرِّبَا فلا نستَطِيعُ أن نَخُصَّهُ باللَّعْنِ؛ لأن هذا وعيدٌ عامٌّ، ولا نحكُمُ باللَّعْنَةِ على شخصٍ بعَيْنِهِ؛ لأن اللهَ قد يَهْدِيهِ، فتَنْتَفِي عنه اللَّعْنَةُ، ولاحِظُوا الفَرْقَ.

ولهذا قالَ العُلماءُ في عَقَائِدِهِمْ: لا نَشْهَدُ لأحدٍ بالجَنَّةِ أو بالنَّارِ بعَينِهِ إلا مَنْ شَهِدَ له النَّبِيُّ ﷺ، مثلُ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فنحنُ نشْهَدُ أنه من أهلِ الجَنَّةِ؛ لأن الرسولَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، رقم (٧١٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم (١٤٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله، رقم (١٥٩٨).

ﷺ شَهِدَ لَهُ، وكذلك عمرُ، وعثمانُ، وعُكَّاشَةُ بن مِحْصَنٍ، وثابتُ بنُ قَيْسٍ بن شَمَّاسٍ، وسَعْدُ بن مُعاذٍ، وبلالُ بنُ رباحٍ، وكلُّ من عَيَّنَهُ الرسولُ نشْهَدُ له بالجَنَّةِ، وكذلكَ أهلُ بَدْرٍ، نشهدُ أن الله تعالى قال لهُم على سبيلِ العُمومِ: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»(١)، وأهْلُ بيعَةِ الرُّضْوانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ الذين قال فيهِمْ رَبُّ العِزَّةِ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]، وأخبرَ النَّبيُّ ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»(٢)، هؤلاءِ نَشْهَدُ لهم كما شَهِدَ لهم الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أما العمومُ فنشهدُ أيضًا بأن كلَّ مؤمِنٍ في الجنَّةِ، وكلَّ كافرٍ في النَّارِ، أما التَّعْيينُ فَلَا.

ولا يجوزُ لصاحبِ هذه الدُّشُوشِ الخبيثَةِ أن يبيعَها لإنسانٍ آخَرَ، بل وجَبَ عليه أن يَكْسِرَهَا، فإن اللهَ إذا حرَّمَ شيئًا حَرَّم ثَمَنَهُ(٣). وكذلك إذا بَاعَها فسوفَ يستَعْمِلُها المشْتَرِي على وجْهٍ محرَّمٍ، وإذا باعها له كان من بابِ التَّعاونِ علَى الإثمِ والعُدْوانِ، وإذا تركَ الإنسانُ الشيءَ للهِ عوَّضَهُ خَيْرًا مِنْهُ(٤)، وجعل في قَلْبِهِ حلاوَةَ الإيمانِ.

نسألُ اللهَ لنَا ولكُمُ الهدِايَةُ، ونسألُ اللهَ تعالى أن يَكْبِتَ أعداءَنَا وأن يجعَلَ كيدَهُم في نُحُورِهِمْ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، رقم (٢٨٤٥)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٩٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان -رضي الله تعالى عنهم-، رقم (٢٤٩٦).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الإجارة، باب في ثمن الخمر والميتة، رقم (٣٤٨٨).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٣، رقم: ٢٣١٢٤).

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:١٠] والسائلُ هنا: هو المسْتَفْتِي عَنِ العِلْمِ، وقد يكونُ: المستَجْدِي الذي يطلُبُ مَالا، والكلِمَةُ تحتمِلُ المعنيَيْنِ، وهنا نُقرِّرُ مسألةً وقاعِدَةً نافِعَةً، لا سيَّما طلبَةُ العِلْمِ: إذا كان القرآنُ أو السُنَّةُ يحتَمِلُ معنيَيْنِ على السواءِ، ولا منافَاةَ بينَهُما، فإنه يجِبُ أن يُحْمَلَ النَّصُّ عليهِمَا جميعًا؛ لأن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يعلَمُ ما أراد بكلامِهِ، وما دامَ كلامُهُ يحتَمِلُ معنيَيْنِ فلا بُدَّ أن نَحْمِلَهُ عليهِمَا، وكذلك النبيُّ ﷺ.

ففي هذه الآية يَحْتَمِلُ السائلُ أن يكونَ للعِلْمِ، ويَحْتَمِلُ أنه سائلُ المالِ، وكلاهما علَى السَّواءِ، فقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧] يناسِبُهُ القولُ بأن المرادَ بالسائلِ المسْتَفْتِي؛ لأنه سائلٌ عن عِلْمٍ.

وقولُهُ: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨] يُناسِبُ أن يكونَ المرادُ بالسائلِ المسْتَجْدِي مالًا، وما دامتِ الآيَةُ تحتَمِلُ معْنَيينِ، وفيهَا ما يُؤَيِّدُ هذا، ويؤيِّدُ هذا، فالواجبُ حَمْلُها على المعْنَيَيْنِ.

فإذا سألكَ سائلٌ، وقال: إنَّه فَقِيرٌ، أو ابنُ سبيلٍ قد انْقَطَعَتْ به الحِبالُ في سفَرٍ، ويريدُ معونَةً. فالمشْرُوعُ في حقِّكَ أن تعْطِيَهُ إذا غَلَبَ على ظنِّكَ صِدْقَهُ، وإن لم يكنْ معكَ شيءٌ فلا تَنْهَرْهُ، ورُدَّهُ ردًّا جميلًا، ولهذا قالَ اللهُ تَعالَى في الأقارِبِ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٨] فأعْطِهِ، واليدُ العُلْيَا خيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى.

وإذا كُنْتَ تعلَمُ أن هذا الرَّجُلَ يسألُ المالَ تَكَثُّرًا، وأن عِنْدَهُ ما يُغْنِيهِ، لكنه يسألُ من أجلِ أن يَزِيدَ مالُهُ، فلك أن تَنْهَرَهُ، فقد ارتَكَبَ محرَّمًا وإِثْمًا؛ لقولِ النَّبِيِّ

ﷺ: «**مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ**»(١). وأخبَرَ النبيُّ ﷺ عن الرَّجُلِ يأتي يومَ القِيامَةِ، وليس في وجْهِهِ مِزْعَةُ لحمٍ؛ لِكَثْرَةِ سؤالِهِ للنَّاسِ(٢). وعلى هذا فإذا كُنْتُ أعْرِفُ أن هذَا الرَّجُلَ غَنِيٌّ، ولكنَّه يُكَرِّرُ السؤالَ، فَلِي أن أَنْهَرَهُ، وأقولَ لهُ: اتَّقِ اللهَ، أنت غَنِيٌّ، فكيفَ تَسْأَلُنِي، وأنتَ لا تحتاجُ. هذا لا بأسَ بِهِ.

ثم نأتِي لسائلِ العِلْمِ، وهو الَّذِي يسأَلُ ويَسْتَفْتِي، فيقولُ مثلًا: إنه طافَ سِتَّةَ أشواطٍ، وسَعَى وقَصَّرَ وتحَلَّلَ، فأتَى زَوجَتَهُ، فماذَا يفعَلُ؟ هذا لا يجِبُ أن نُوَبِّخَهُ، ونقولُ: كيف تفْعَلُ هذَا؟ أنتَ ظَالمٌ، أنت عاصٍ، بل نُلاقِيهِ بصَدْرٍ مُنْشَرِحٍ، ولنَا في ذلك أُسْوَةٌ؛ رسولُ اللهِ ﷺ.

فقد جاءَ رجلٌ النَّبِيَّ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ هَلَكْتُ. قال: «**مَا الَّذِي أَهْلَكَكَ؟**» قال: وقَعْتُ عَلَى امْرأتِي وأنا صَائمٌ. وكان ذلك في رمضانَ، قد ارْتَكَبَ ذنْبًا كبيرًا، فَقَدْ أفطرَ في صيامِ رمضانَ وهو فَرْضٌ، وركْنٌ من أركانِ الإسْلامِ. فقالَ لهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟**» قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟**» قَالَ: لَا، فَقَالَ: «**فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟**» قَالَ: لَا. طلَبَ مِنْهُ ثلاثَ خِصَالٍ: عِتْقُ رَقَبَةٍ، أو صِيامُ شَهْرَينِ متَتابِعَينِ. أو إطعامُ سِتِّينَ مِسْكينًا، وكُلُّها لا يجِدُها الرَّجُلُ، فَمَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ -وَالعَرَقُ المِكْتَلُ- قَالَ: «**أَيْنَ السَّائِلُ؟**» فَقَالَ: أَنَا، قَالَ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم (١٠٤١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثرا، رقم (١٤٠٥)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم (١٠٤٠).

«**خُذْهَا، فَتَصَدَّقْ بِهِ**». فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَوَاللهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا -يُرِيدُ الحَرَّتَيْنِ- أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي. أَقْسَمَ، ولم يَعْلَمْ بحالِ بُيوتِ المدينَةِ كلِّها، لكنَّه غَلَب عَلَى ظنِّه هَذَا، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ**»[1].

هذا الرجلُ جاء مستَفْتِيًا نادِمًا، لا مستَهْتِرًا ولا مستكْبِرًا، بل هو نادِمٌ يريدُ الخَلاصَ، فقابَلَهُ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ باليُسْرِ والسُّهولَةِ، وفي النهايةِ رَجَعَ إلى زَوجَتِهِ، ومعَه تمرٌ يُطْعِمُهُ وتَطْعَمُهُ. هكذا تَجْذِبُ قلوبَ الناسِ إليكَ باللِّينِ واللُّطْفِ.

إذن، الذي يأتينا مستفتيًا نادمًا، ولو فَعَلَ أكبَرَ ما يكونُ مِنَ الجَرِيمَةِ، يقابَلُ باللُّطْفِ واللِّينِ، ولَا يقابَلُ بالعُنْفِ، صحيحٌ أن الإنسانَ الذي يكونُ مستكْبِرًا ومستَهْتِرًا هذا له حالٌ، لكنْ من جاءَ يستَهْدِيكَ، يطْلُبُ منْكَ أن تهدِيَهُ الصِّراطَ المستَقِيمَ هذا له حالٌ.

هناكَ بعضُ الناسِ يكونُ مولَعًا بضَرْبِ آراءِ العُلماءِ بَعْضِهَا ببعضٍ، فتَجِدُهُ يجِيءُ ويَسْأَلُ فلانًا؛ ليَرَى ما عِنْدَهُ، ثم يذهَبُ إلى العالمِ الفُلانِي يسأَلُهُ ليَرَى ما عِنْدَهُ، فمِثْلُ هذا لا يجِبُ على المسؤولِ أن يُجِيبَهُ؛ فهُو إنسانٌ يسأَلُ ولا يريدُ الاسْتِرْشادَ، وإنما يُريدُ أن يَرَى ما عِنْدَكَ، ويرَى ما عندَ الثَّانِي، ثم الثالثِ، وهكَذَا، فلا يجِبُ عليك أن تُجِيبَهُ، ولا يُعَدُّ هذا مِنْ كتمانِ العِلْمِ، بل هذا مِنَ الرِّعايَةِ والتَّرْبِيَةِ؛ حتى يَعْرِفَ هذا السائلُ أنه ليسَ له قَدْرٌ عندَ أهلِ العِلْمِ، ولهذَا قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لنبيِّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان، ولم يكن له شيء، فتصدق عليه فليكفر، رقم (١٨٣٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان، رقم (١١١١).

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ [المائدة:٤٢] لأنَّهم لا يُريدُونَ الحقَّ.

ولكن هناكَ أناسٌ يسألونَ ويَتَتَبَّعونَ الرُّخصَ، فترَاهُ يذهَبُ ويسْتَفْتِي عَالمًا، فإن قالَ له هذَا حَرامٌ، تَرَكَهُ وذهَبَ إلى عالمٍ آخرَ حتى يقولَ لَهُ: هو حَلالٌ. فهذَا لا يجِبُ على العَالِمِ أن يُجِيبَهُ.

أما الَّذِي نعْلَمُ أنه يريدُ أن يستَرْشِدَ، فإنَّ الله تعالى يقولُ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى:١١]: النِّعْمَةُ هنَا مُفْرَدَةٌ، ولكِنَّ مَعْنَاها نِعَمٌ كَثِيرةٌ، والدَّلِيلُ قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

إذن، نِعْمَةُ اللهِ هُنا مُفْردٌ مضافٌ، والقاعِدَةُ الأصُولِيَّةُ أن المفْردَ إذا أُضِيفَ إلى معْرِفَةٍ صارَ عَامًّا، وهذا مضافٌ إلى مَعْرِفَةٍ، ﴿فَحَدِّثۡ﴾ وهنا التَّحْدِيثُ يكون بالجَنانِ وهو القَلْبُ، وباللِّسَانِ وبالجَنانِ.

الأول: التَّحْدِيثُ بالجَنانِ، ومعْناهُ أنَّ الإنسانَ يتأمَّلُ ويُفكِّرُ بما أنْعَمَ اللهُ عليهِ مِنَ الصِّحَةِ والعَقْلِ والعَافِيَةِ والعِلْمِ والمالِ والأهْلِ والبَنِينَ، ويحَدِّثُ نَفْسَهُ فيقولُ: يا نَفْسُ هذِهِ نِعَمٌ عَظِيمَةٌ، تحتاجُ إلى شُكْرٍ. فَلا يغْفُلُ ولا يَتَنَاسَى، هذا يُسَمَّى حدِيثَ النَّفْسِ، يحَدِّثُ نَفْسَهُ بما أنعَمَ اللهُ عليهِ، ويُفكِّرُ، فإن كان مَرِيضًا نَظَرَ إلى مَنْ هو أشَدُّ منْه مَرَضًا، ولهذَا جاءَ في الحديثِ: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**»[1]. فإذا رأيتَ بنَفْسِكَ مَرَضًا فلا تَنْظُرْ للصَّحِيحِ، بل انظُرْ للذِي هو أشَدُّ مِنْكَ مَرَضًا حتى تعرِفَ نِعْمَةَ اللهِ عليكَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٣).

والتحدُّثُ بالقَلْبِ نِعْمَةٌ، أي: يُذَكِّرُ نفسَهُ بما أنْعَمَ اللهُ عليه، ويعتَرِفُ للهِ تعالى بقَلْبِهِ؛ لأن هذِهِ النِّعَمَ من عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والدَّليلُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[1].

الثاني: التَّحْدِيثُ باللِّسانِ أن تقولَ لإخْوانِكَ: كُنْتُ فَقِيرًا فأَغْنَانِي اللهُ، وكنتُ جاهِلًا لا أعْرِفُ فعَلَّمَنِي اللهُ، وكنتُ فَرِيدًا فرَزَقَنِي اللهُ زَوْجَةً وأولادًا. هذا حديثٌ باللِّسَانِ، لكن يجِبُ ألَّا تقولَ هذا عَلَى سَبيلِ الافتِخَارِ والإعجابِ والعُلُوِّ، ولهذَا قالَ سيِّدُ البشَرِ محمدٌ ﷺ قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»[2]. أي: لا أفتَخِرُ بذلِكَ، ولكِنْ أتحَدَّثُ بنِعْمَةِ اللهِ.

الثالث: التَّحَدُّثُ بالأرْكَانِ، وهو أن يُرَى أثَرُ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى العَبْدِ، فإذا كان غَنِيًّا فلْيَلْبَسْ ما يَلْبَسهُ الأغنياءُ، ولَيَسْكُنْ ما يَسكُنُه الأغْنياءُ، ولْيَرْكَبْ ما يركَبُهُ الأغنياءُ. هذا تحدُّثٌ بنِعْمَةِ اللهِ؛ لأني إذا رأيتُ هذا الرَّجُلَ عليه ثِيابٌ جَمِيلَةٌ، ثيابُ الأغنياءِ، فسوف أقول: هُو غَنِيٌّ.

إذن، هو تحدَّثَ لَدَيَّ بنِعْمَةِ اللهِ بالفِعْلِ، لكن لو أن رَجُلًا غنيًّا ظَهَرَ بيننَا بِلِباسٍ لا يَلْبَسُهُ إلا الفُقراءُ، لِبَاسٌ وَسِخٌ مُرَقَّعٌ، فهذا ليس تحدُّثًا بنِعْمَةِ اللهِ، بل رُبَّما أُخْرِجُ أنا مِنْ جَيْبِي وأتَصَدَّقُ عليه؛ لأنه لم يتَحَدَّثْ بنِعْمَةِ اللهِ.

ومن التَّحَدُّثِ بنِعْمَةِ اللهِ، ولا سِيَّما لأهلِ العِلْمِ، أن يَنْشُروا عِلْمَهم بينَ الناسِ؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، رقم (٢٥٢٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨).

لأن طالِبَ العِلْمِ ليسَ كغَيرِهِ، فطالِبُ العِلْمِ يجِبُ عليه أن ينْشُرَ العِلْمَ بكلِّ وسيلَةٍ، ويجِبُ عليه أيضًا أن يتحَلَّى بأخلاقِ طالِبِ العِلْمِ، ويجِبُ عليه أن يتعَبَّدَ عبادَةَ طالِبِ العِلْمِ؛ لأن طالبَ العِلمِ يُحْصِي الناسُ أقوالَهُ وأفْعَالَهُ، إذا كان الناسُ يَنْظُرُ بعضُهُم إلى بعضٍ بعَيْنَينِ، فإنهم ينظُرونَ إلى العَالمِ بأَلْفِ عَيْنٍ، يراقِبُونَ هذا العالمَ: كيفَ عبادَتُهُ، وكيف صلاتُهُ، وكيفَ مُعامَلَتُه للناسِ في البَيعِ والشِّراءِ، كيف أخلاقُهُ: هل هُو صَدوقٌ، أم كَذُوبٌ، هل هو يَفِي بالوَعْدِ أو لَا؟ المهِمُّ: أن طالِبَ العِلْم لا ينظُرُ الناسُ إليه كرَجُلٍ عامِّيٍّ، بل كرَجُلٍ أسْوةٍ وقُدْوَةٍ، فيجِبُ على طالبِ العِلْمِ ما لا يجِبُ على غيرِهِ.

فمثلًا: رَفْعُ اليَدَيْنِ في الصلاةِ مَشْروعٌ في مَواضِعَ أربعةٍ: عندَ تكبيرَةِ الإحرامِ، وعندَ الرُّكوعِ، وعندَ الرَّفْعِ منْه، وعندَ القيامِ مِنَ التَّشَهُّدِ الأوَّلِ، فلو أن طالِبَ عِلْمٍ ممن يُقْتَدَى بِهِ، ويُتَأَسَّى به، تَرَكَ الرفْعَ لكانَ تَرْكُه للرَّفْعِ من بابِ كَتْمِ العِلْمِ؛ لأن أيَّ إنسانٍ يَراهُ لا يرفَعُ يدَيهِ، فسوفَ يقولُ: رَفْعُ اليَدَيْنِ ليسَ بسُنَّةٍ؛ لأني رأيتُ فلانَ بنَ فُلانٍ العَالمَ لا يَرْفَعُ يَدَيْهِ، ولو كان رفْعَ اليدينِ سُنَّةٌ لَفَعَلَ.

ولو رأينَا مَثَلًا رَجُلًا عَالمًا يتعامَلُ بالرِّبَا، لكِنْ بطَريقَةٍ ملْتَوِيَةٍ، فَقَدْ يأتِي إنسانٌ فيقولُ: أريدُ سيارةً فأَقْرِضْنِي جَزاكَ اللهُ خيرًا. فقال: لا، أشْتَرِي السيارَةَ وأبِيعُكَ إيَّاهَا بزيادَةٍ. مثلًا السيارةُ تُسَاوِي خمسينَ ألْفًا، فجِئتُ إلى التَّاجِرِ فقلتُ: يا فُلانُ، أقْرِضْنِي خمسينَ ألفًا، أريدُ أن أشْتَرِيَ سيارَةً. قال: لا، لَسْتُ مسْتَعِدًّا؛ لكِنْ أُقْرِضُكَ خمسينَ ألفًا على أن تكونَ بعدَ السنَةِ سِتِّينَ ألْفًا. نقول: هذا الرِّبْحُ حرامٌ، لكن إذا قُلْنا للتَّاجِرِ هذا، قال: هناكَ حَلٌّ، اذْهَبْ يا أيها الرَّجُلُ، اشْتَرِ السيارَةَ التي تريدُ مِنَ

المَعْرِضِ، وأَعْلِمْنِي بِهَا، وأنا أَشْتَرِيها لكَ بخَمْسينَ أَلْفًا، وأَبِيعُها لكَ بسِتِّينَ أَلْفًا. ولكن هذِه حِيلَةٌ واضِحَةٌ، ولا تَخْفَى على أحدٍ إلا أن يشاءَ اللهُ. فهل هُو يخادِعُ ربَّ العالَمِينَ؟ ولكِنَّ الله يعْلَمُ النيَّةَ وهي الزِّيادَةُ.

فهذا التاجِرُ لم يَشْتَرِ السيارَةَ أَوَّلًا ثُمَّ عَرَضَها للبَيْعِ، ولكنه اشتَرَاهَا لَمَّا طَلَبْتَها أنتَ، فهُو في الحقيقَةِ قدِ اشْتَرَاهَا ليَكْسِبَ، وكلُّنَا نعْرِفُ أن هذه حيلَةٌ، إذا كان اليهودُ قَدْ تحايَلُوا بأقَلَّ من هذِهِ الحيلَةِ القَرِيبَةِ، ودعا عليهِمُ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ! إِنَّه لَمَّا حُرِمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ جَمَلُوهَا** -يعني أَذَابُوهَا فصار بعدَ الإِذابَةِ ودَكًا- **فَبَاعُوهُ وَأَكَلُوا ثَمَنَهُ**»[1]. وقالوا: نَحنُ لم نأكُلِ الشَّحْمَ، فجعَلَ النَّبِيُّ ﷺ ذلك حِيلَةً، مع أَنَّها حيلَةٌ مرَكَّبَةٌ من ثلاثِ مَراحِلَ، لكِنَّ حيلَةَ صاحِبِنَا هذا مَرْحَلَةٌ واحِدَةٌ.

على كلِّ حالٍ، أنا أقول: إنَّ طالِبَ العِلْمِ يجِبُ أن يَسِيرَ في مُعامَلاتِهِ على الشَّرِيعَةِ؛ لأَنَّه قُدْوَةٌ.

وأَوَدُّ أن أُنبِّهَ على نِعْمَةٍ نُدْرِكُها جَمِيعًا -والحمد لله- وهِيَ الطَّعامُ والشَّرابُ؛ إذ لا يمكِنُ أن يقومَ البدنُ إلا بِهِما، ومع هذَا فهذِه النِّعْمَةُ تحتَهَا نِعَمٌ، إذا أَرَدْتَ أن تَأْكُلَ فسوفَ تقولُ: باسْمِ اللهِ. وجُوبًا، وليس استِحْبَابًا كما يَظُنُّ أكثَرُ الناسِ، كما قالَهُ أكثَرُ العُلَماءِ أيضًا. وهو واجِبٌ؛ لأَنَّه إذا لم يَقُلْ باسْمِ اللهِ شارَكَهُ الشيطانُ في أَكْلِهِ، ولا يَرْضَى أحدٌ مِنَّا أن يُشارِكَهُ عَدُوُّهُ في أَكْلِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكها، رقم (٢٢٢٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم بيع الخمر، رقم (١٥٨١).

وكذلك عندما تأكُل تأكُل بيَمِينِكَ، ولا تَظُنُّوا أن الأكلَ باليَسَارِ سَهْلٌ، بل هو حرامٌ، والدليلُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: **«لَا يَأْكُلْ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ، وَلَا يَشْرَبْ بِشِمَالِهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ»**(١). ولِذَلِكَ لا يحِلُّ لنا أن نتَأَسَّى بالشيطانِ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ﴾ [النور:٢١]، وقَدْ تَسَلَّطَ الشيطانُ علَى أعْداءِ الإسلامِ وهُمُ الكُفَّارُ، فجَعَلهمْ يأكُلونَ باليسَارِ؛ لأنهم جنودُ الشَّيطانِ، وحِزْبُ الشيطانِ، وليسَ لنَا أن نتَأَسَّى بأعداءِ الإسلامِ.

فإذا رأيتَ شخْصًا يأكُلُ بالشمالِ فانْصَحْهُ، ولكن باللُّطْفِ واللِّينِ، وإن كان مِنْ أصحابِ المكانَةِ العاليَةِ، فتَسْتَطِيعُ إذا انتَهَى الأكلُ أن تُمْسِكَ بيدِهِ وتقولُ: يا فلانُ، رأيتُكَ تأكُلُ بشِمالِكَ، وهذا حرامٌ، فنبِيُّكَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يأكُلُ بيَمِينِهِ، وينْهَى عن الأكلِ بالشِّمالِ.

وكذَلِكَ الشُّربُ يكونُ باليَمِينِ، لكِنْ إذا كان الإناءُ ثَقِيلًا، ولا تَسْتَطِيعُ أن تمسِكَهُ بيدٍ واحِدَةٍ، فلَكَ أن تستَعِينَ بيدِكَ اليُسْرَى؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وتُسَمِّي قَبْلَ الشُّرْبِ، تقول: باسمِ اللهِ. ثم إذَا شَرِبْتَ تَنَفَّسْتَ في الشُّرْبِ ثلاثًا، ولا تَزِدْ، ومِنَ الأحْسَنِ أن نمُصَّهُ مصًّا أحسن.

وعندَ الانتهاءِ مِنَ الطَّعامِ فقُلِ: الحَمْدُ للهِ، قالَ النبيُّ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»**(٢). وكُلُّنا يريدُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها، رقم (٢٠٢٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٥).

رِضَا اللهِ، نسأَلُ اللهَ تعالى أن يَرْضَى عنَّا كُلِّنَا، فإذا أَرَدْتَ أن تُدْرِكَ رِضَا اللهِ إذا أَكَلْتَ فاحْمَدِ اللهِ، وإذا شَرِبْتَ فاحْمَدِ اللهِ.

إذن: مِنَ النِّعَمِ أنَّ الإنسانَ إذَا أَكَلَ وحَمِدَ اللهَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وإذا رَضِيَ اللهُ عَنِ العَبْدِ فهذه غايَةُ مُناهُ.

فائدة:

تَعْلِيقًا عَلَى الحديثِ الصحيحِ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي ما حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا**».

نقول: لو أنَّ رَجُلًا قال في نَفْسِه: زَوْجَتِي طَالِقٌ. فَقَدْ أغْضَبَتْهُ مثلًا فقالَ في نَفْسِه ذلكَ دون أن ينْطِقَ بلِسانِهِ، فإن زوجته لا تُطَلَّقُ؛ والدَّلِيلُ على ذلكَ قولُهُ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي ما حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ**». وهذه المشكِلَةُ مَثَّلْتُ بِهَا؛ لأن كثيرًا مِنَ الناسِ يقَعُ فيهَا، تجِدُهُ مصابًا بالوَسواسِ، يُحَدِّثُ نَفْسَهُ ويقولُ: انتَهَى الأَمْرُ، أنا لا أريدُ زَوْجَتِي، زَوْجَتي طَالِقٌ. لكن ما نَطَقَ لسَانُهُ بهَذَا، فزَوجَتُهُ على هذَا لا تُطَلَّقُ؛ لأن حَدِيثَ النَّفْسِ مَعْفُوٌّ عنْه، إلا إذا عَمِلَ الإنسانُ، أو تَكَلَّمَ، فهذا يقَعُ ما عَمِلَهُ أو تكَلَّمَ بِهِ. وهذا من نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْنَا، والحمدُ للهِ أن ما تَحَدَّثُ به نُفُوسُنا لا يَضُرُّنَا شيئًا، حتى فِي أَشَدِّ الحالاتِ، حَتَّى لو حدَّثَتْكَ نَفْسُكَ بالشِّرْكِ والكُفْرِ، دونَ أن تَرْكَنَ إليهِ، ولكنه حدِيثُ نَفْسٍ عابِرٍ فإنَّه لا يَضُرُّ، وهذا مِنْ نِعْمَةِ اللهِ.



الدرس الخامس:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضُّحَى:١-٢].

الضُّحَى: هُوَ ارْتفاعُ النَّهارِ، إِذَا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ فهَذَا هُوَ الضُّحَى، وأَقْسَمَ اللهُ بالضُّحَى؛ لأنَّ بِهِ يَنْفَتِحُ النُّورُ عَلَى البَسِيطَةِ، ويَزُولُ الظُّلَمُ.

ضِدُّ ذَلِكَ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضُّحَى:٢] أَيْ غطَّى البَسِيطَةَ، فأَقْسَمَ اللهُ تَعالَى بشَيْئَيْنِ مُتضادَّيْنِ، أَحَدُهُمَا الضُّحَى والثَّانِي اللَّيْلُ إذَا سَجَى.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضُّحَى:٣]، ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ أَيْ: مَا تَرَكَكَ ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أَيْ: مَا أَبْغَضَكَ.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضُّحَى:٤] يقولُ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: الآخِرَةُ خَيْرٌ لهُ مِنَ الأُولَى، وغَيْرُهُ مِثْلُهُ، اقْرَأْ قَوْلَ اللهِ تعالَى فِي سَبِّحْ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلَى:١٦-١٧]، وقَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسْرَاء:٢١] أيْ: فِي الدُّنْيَا: هَذَا غَنِيٌّ وهَذَا فَقِيرٌ، هَذَا صَحِيحٌ وهَذَا مَرِيضٌ، هَذَا قَصِيرٌ وهَذَا طَوِيلٌ، هَذَا جاهِلٌ وهَذَا عالِمٌ، إِلَى آخِرِ الفُروقِ العَظِيمةِ.

يقولُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسْرَاء:٢١] قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَصْحَابَ الغُرَفِ كَمَا تَرَاءَوْنَ النَّجْمَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ» قالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَذِهِ مَنازِلُ الأَنْبِياءِ؟ قالَ: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا مَنَازِلُ قَوْمٍ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٥٦)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، رقم (٢٨٣١)، من حديث أبي سعيد الخدري.

آمَنَّا بِاللهِ، وصدَّقْنَا برَسُولِهِ، وأَسْأَلُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنِي وإيَّاكُمْ مِنْ أصْحابِ هَذِهِ الغُرَفِ.

إذَنِ: الآخِرَةُ خَيْرٌ لكُلِّ إنْسَانٍ مِنَ الدُّنْيَا، لكنْ كَيْفَ نَقُولُ فِيمَا وَرَدَ مِنَ الحَدِيثِ: «**إنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ**»(١) فإذا كانَتْ جَنَّةُ الكَافِرِ فَهِيَ خَيْرٌ مِنَ الآخِرَةِ؟

هُناكَ قِصَّةٌ ظَرِيفَةٌ تَدُلُّ عَلَى الذَّكاءِ مِنْ رَجُلٍ مِنْ عَسْقَلانَ، وهُوَ عَلِيُّ بْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، صاحِبُ (فَتْحِ البَارِي فِي شَرْحِ البُخارِيِّ) كانَ قاضِيَ القُضاةِ فِي مِصْرَ، وكانَ إذَا ذهَبَ مِنْ مَنْزِلِه إلَى مَقَرِّ عَمَلِهِ يَرْكَبُ عربَةً تَجُرُّهَا الخُيُولُ، ووَراءَهُ النَّاسُ، وهَذَا أفْخَمُ مرْكُوبٍ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، أمَّا فِي وقْتِنَا الآنَ المَرْكُوبُ الفاخِرُ هُوَ السيَّارَة الفارِهة، لكنْ عندَهُمُ العَرَبَةُ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ أحْسَنُ مِنْ هَذَا، مرَّ برَجُلٍ يَهُودِيٍّ زيَّاتٍ -أيْ: يَبِيعُ الزَّيْتَ- ثِيابُهُ كُلُّهَا زَيْتٌ، فأوْقَفَ اليَهُودِيُّ قاضِيَ القُضاةِ وقالَ لهُ: نَبِيُّكُمْ يَقُولُ: «**إنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ**» أنتَ الآنَ فِي هَذِهِ الرَّفاهِيَةِ وهَذَا النَّعِيمِ، وهَؤُلاءِ القَوْمِ وهَؤُلاءِ الأصْحَابِ، وهُوَ -أيِ اليَهُودِيُّ- زَيَّاتٌ قَدْ أحْرَقَ وجْهَهُ حرُّ النَّارِ، وأوْسَخَ ثِيابَهُ وسَخُ الزَّيْتُ، يقولُ اليَهُودِيُّ: أنا فِي سِجْنٍ وأنْتَ فِي جنَّةٍ، فكَيْفَ هَذَا؟ وكانَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ رَجُلًا ذَكِيًّا، فقالَ: مَا أنَا فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ هُوَ بالنِّسْبَةِ لنَعِيمِ الآخِرَةِ سِجْنٌ، ومَا أنْتَ فِيهِ مِنَ الشَّقاءِ بالنسبَةِ لعذَابِ الآخِرَةِ جَنَّةٌ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: أشْهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ(٢)؛ لأنَّهُ حقٌّ واضِحٌ فعَجَزَ عَنْ مُقاوَمَتِهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) ذكر هذه القصة المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/ ٥٤٦).

قصَّةٌ أُخْرَى يُقَالُ: إنَّ واحدًا مِنَ النَّصارَى قَالَ لرجُلٍ عاميٍّ مِنَ المُسْلِمينَ: لِمَاذَا يَجُوزُ لكُمْ أنْ تَتَزَوَّجُوا منَّا، ونحنُ لَا نَتَزَوَّجُ مِنْ نِسائِكُمْ؟

فمِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ الجَوابُ واضِحٌ، لكنْ مِنْ جِهَةِ العَقْلِ العامِّيِّ المُقْنِعِ قَالَ لهُ: لأنَّنَا نُؤْمِنُ برَسُولِكُمْ وأنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ برَسُولِنَا؛ لذَلِكَ أخَذْنَا مِنْ نِسائِكُمْ؛ لأنَّنا نُؤْمِنُ برَسُولِكُمْ، لكنْ آمَنُوا بِرَسُولِنَا نُعْطِكُمْ مِنْ نِسائِنَا، لَا مانِعَ.

وهَذَا جَوابٌ واضِحٌ مُقْنِعٌ مِنْ عَامِّيٍّ، فقَدْ يَفْتَحُ اللهُ عَلَى الإنْسَانِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى عالِمٍ مِنَ العُلَماءِ.

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضُّحَى:٤-٥].

(لَسَوْفَ) اللامُ يقولُ النَّحْوِيُّونَ إنَّها مُوَطِّئَةٌ للقَسَمِ، والتَقْدِيرُ: واللهِ لسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فتَرْضَى، أيْ يُعْطِيكَ رَبُّكَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ، فتَرْضَى بما أعْطاكَ، بدلًا مِنْ أنَّكَ مثلًا فَقِيرٌ، ولَيْسَ لكَ شَوْكَةٌ الآنَ سَوْفَ تَجِدُ.

ثُمَّ قَالَ لهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضُّحَى:٦] الجَوابُ: بَلَى، كانَ النَّبيُّ ﷺ يَتِيمًا، ماتَ أَبُوهُ وهُوَ حَمْلٌ، وماتَتْ أُمُّهُ وهُوَ فِي الرَّضاعَةِ، ومعَ ذَلِكَ أواهُ اللهُ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضُّحَى:٧] أيْ: وجَدَكَ غَيْرَ عالِمٍ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشُّورَى:٥٢] وقَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ [الضُّحَى:٧] أيْ: غَيْرَ عالمٍ ﴿فَهَدَىٰ﴾ [الضُّحَى:٧] ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ [الضُّحَى:٨] أيْ: فَقِيرًا ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ [الضُّحَى:٨].

هُنَا سُؤَالٌ: لِماذَا قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضُّحَى:٦] ولم يَقُلْ: ألَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فآوَاكَ، معَ أنَّ الخِطابَ للرَّسُولِ؟

والجَوابُ: يقولُ النَّحْوِيُّونَ والبَلاغِيُّونَ: إنَّ حذْفَ المَفْعُولِ يَدُلُّ عَلَى العُمومِ، والمَعْنَى فآوَاكَ وآوَى بكَ غَيْرَكَ، فكَمْ مِنْ إنْسَانٍ لاذَ بالرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجَمَعَ اللهُ النَّاسَ عَلَى الإِسْلامِ!

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضُّحَى:٧] ولَمْ يَقُلْ فهَداكَ، أيْ: هَداهُ وهَدَى به، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ للأَنْصارِ: «**أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي**»[1] إذَنْ (هَدَى) هَدَاهُ وهَدَى به.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضُّحَى:٨] ولَمْ يَقُلْ فأغْنَاكَ؛ ليكُونَ عامًّا، أغْناكَ وأغْنَى بِكَ.

وانْظُرْ للأُمَّةِ الإسْلامِيَّةِ فِي عُنْفُوَانِ شَبابِهَا كَيْفَ تَكَدَّسَتْ عنْدَهُمُ الأمْوَالُ العَظِيمَةُ حتَّى كانَتِ الدَّرَاهِمُ والدَّنانِيرُ تُرْمَى فِي المَسْجِدِ، وتُقْسَمُ بَيْنَ النَّاسِ، كُلُّ ذَلِكَ ببَرَكَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبَرَكَةِ دِينِهِ، قاتَلُوا عَلَى دِينِ اللهِ، وغَنِمُوا أمْوالَ أعْداءِ اللهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٣٣٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، رقم (١٠٦١)، من حديث عبدالله ابن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

إذَنْ: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضُّحَى:٨] أيْ: أغْنَاكَ وأغْنَى بِكَ.

ثُمَّ قالَ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضُّحَى:٩] لأنَّ اللهَ تَعالَى وجَدَكَ يَتِيمًا فآوَاكَ، إذَنْ تَذَكَّرْ حالَكَ فِي الأَوَّلِ وارْحَمِ اليَتِيمَ.

واليَتِيمُ هُوَ الَّذِي مَاتَ أَبُوهُ قَبْلَ أنْ يَبْلُغَ، فلوْ أنَّ غُلامًا لهُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً قَدْ ماتَ أَبُوهُ فلا نُسَمِّيهِ يَتِيمًا؛ لأَنَّهُ بالِغٌ، أيْضًا غُلامٌ لهُ أرْبعَ عَشْرَةَ سَنَةً، لكنْ قَدْ نبَتَتْ عانَتُهُ فلَيْسَ يَتِيمًا؛ لأَنَّهُ بالِغٌ، كذَلِكَ غُلامٌ لهُ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، لكنَّهُ احْتَلَمَ فأَنْزَلَ مَنِيًّا، فغَيْرُ يَتِيمٍ؛ لأَنَّهُ بالِغٌ؛ لأنَّ البُلُوغَ يَكُونُ واحِدًا مِنْ ثَلاثَةِ أُمُورٍ:

- إمَّا تَمامُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً.
- وإمَّا إنْباتُ العانَةِ.
- وإمَّا إنْزالُ المَنِيِّ باحْتلامٍ أوْ يَقَظَةٍ.

والمَرْأَة تَزِيدُ رابِعًا وهُوَ الحَيْضُ.

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ولِهَذَا أَوْصَى اللهُ تَعالَى باليَتامَى فِي عِدَّةِ آياتٍ مِنَ القُرْآنِ؛ لأنَّ اليَتِيمَ قَدِ انْكسَرَ قَلْبُهُ، يَجِدُ الصِّبْيانَ حوْلَهُ لَهُمْ آباءٌ يُحِبُّونَهُمْ ويُعْطُونَهُمْ وهُوَ لَيْسَ لهُ أبٌ.

إذَنِ: ارْحَمُوا مَنْ فِي الأرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّماءِ.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضُّحَى:١٠] هلِ المُرادُ بالسَّائِلِ سائِلُ المالِ، أمِ المُرادُ سائِلُ العِلْمِ؟

الجَوابُ: إذَا نَظَرْنَا إلَى قَوْلِهِ تَعالَى ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضُّحَى:٧] قُلْنَا:

المُرَادُ سائِلُ العِلْمِ، وإذَا نَظَرْنَا إلَى قَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضُّحى:٨] قُلْنَا: المُرَادُ سائِلُ المالِ، والآيَةُ تَحْتَمِلُ معْنيَيْنِ، وقدْ سَبَقَ لنا أنَّ الآيَةَ إذَا كانَتْ تَحْتَمِلُ معْنيَيْنِ لَا يَتنافَيَانِ ولا مُرَجِّحَ لأحَدِهِمَا عَلَى الآخرِ فإنَّهَا تُحْمَلُ عَلَى المَعْنيَيْنِ.

إذَنْ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ﴾ سائِلُ المالِ ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ﴾ سائِلُ العِلْمِ ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضُّحى:١٠] فإذَا جَاءَ إنْسانٌ يَسْأَلُكَ عَنِ العِلْمِ فلا تَنْهَرْهُ، ولا تَقُلْ: هَذِهِ مَسْأَلَةٌ لَا تُشْكِلُ عَلَى أحَدٍ، فكَيْفَ تَخْفَى عَنْكَ، كَيْفَ تَخْفَى عليْكَ يا غَبِيُّ؟ لَا تَقُلْ هكذا، بلْ قابِلْهُ بانْشِرَاحِ صدْرٍ حتَّى يَسْمَعَ منكَ ويَفْهَمَ، أمَّا أنْ تُقابِلَهُ بانْتِهَارٍ فاعْلَمْ أنَّهُ لنْ يَقْبَلَ منْكَ، وأنْ نفسَهُ سَوْفَ تَنْسَدُّ، ولا يَدْرِي مَا تَقُولُ، هَذَا واحِدٌ.

وقد يَأْتِيكَ سائِلُ المالِ، ويقولُ: أنَا رَجُلٌ مُحْتَاجٌ فَقِيرٌ، فلا تَقُلْ لهُ: اذْهَبْ لَا يُوجَدُ فَقْرٌ، فالبِلادُ غَنِيَّةٌ، أنتَ كذَّابٌ، أنْتَ جَمَّاعٌ للمالِ، لَا تَقُلْ هكَذَا.

ولكنْ فِي مَسائِلِ العِلْمِ يَأْتِيكَ رَجُلٌ تَعْرِفُ أنَّهُ مُتعَنِّتٌ، أوْ أنَّهُ صاحِبُ سُوءٍ، فهلْ تُقابِلُهُ باللُّطْفِ واللِّينِ أوْ تَنْهَرُهُ؟

الجَوابُ: أنْهَرُهُ؛ لأنَّنِي أعْلَمُ أنَّهُ لَا يُرِيدُ الحَقَّ، مالِكُ بنُ أنَسٍ قَالَ للرَّجُلِ الَّذِي قالَ: كَيْفَ اسْتَوَى الرَّحْمَنِ عَلَى العَرْشِ؟ قَالَ لهُ: مَا أُرَاكَ إلَّا مُبْتَدِعًا، وأَمَرَ أنْ يُخْرَجَ مِنَ المَسْجِدِ، فلكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ، فإذا كُنْتَ تَعرِفُ أنَّ هَذَا رَجُلٌ جَدَلِيٌّ لَا يُرِيدُ الحَقَّ، ويُرِيدُ أنْ يَنْتَصِرَ لنَفْسِهِ، أوْ يُرِيدُ أنْ يَزِلَّ هَذَا العَالِمُ، فلكَ أنْ تَنْهَرَهُ، ولا حَرَجَ.

أمَّا إذَا جاءَكَ سائِلٌ يَسْأَلُ المالَ، وأنْتَ تَعرِفُ أنَّ الرَّجُلَ غَنِيٌّ، لكنَّهُ يَسْأَلُ النَّاسَ أمْوالَهُمْ؛ تَكَثُّرًا فلَكَ أنْ تَنْهَرَهُ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «**مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ**

تَكَثُّرًا» يَعْنِي: يُرِيدُ أنْ يُكْثِرَ أَمْوَالَهُ «فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلْ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ»(١).

على كُلِّ حالٍ السائِلُ العادي، سواءٌ كانَ سائِلَ عِلْمٍ أوْ سائِلَ مَالٍ لَا تَنْهَرْهُ، لكنْ إنْ وُجِدَ شَيْءٌ يَقْتَضِي أنْ تَنْهَرَهُ فافْعَلْ؛ لأنَّ دِينَ الإِسْلامِ دِينُ الحَزْمِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي مَقامِ الوَعِيدِ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨] فبَدَأَ بالتَّهْدِيدِ ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨] وما عَلَى الرَّسُولِ إلَّا البلاغُ، وفي مَقامِ الإنْباءِ عَنْ صِفاتِهِ وكَمالِ صِفاتِهِ قالَ ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحِجر:٥٠] فبَدَأَ بذِكْرِ المَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ قَبْلَ ذِكْرِ العَذَابِ الأَلِيمِ؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ إخْبارٍ عَنْ صِفاتِ اللهِ تَعالَى، وأمَّا الأَوَّلُ فهُوَ مَقامُ إنْذارٍ ووعيدٍ وتهديدٍ، فلكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضُّحَى:١١] هَذِهِ الآيَةُ ضَلَّ بِهَا أقْوَامٌ واهْتَدَى بِهَا أقْوَامٌ، إذَا أنْعَمَ اللهُ عليْكَ نِعْمَةً فحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ، لكنْ مِنْ غَيْرِ افْتِخَارٍ عليهِمْ، أوِ اسْتِعْلَاءٍ عليهِمْ، حدِّثْ بِهَا لَتَنْشُرَ فَضْلَ اللهِ عليكَ؛ لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ؛ ولهَذَا يقولُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ» فهَذَا تَحَدُّثٌ بنِعْمَةِ اللهِ، وبَعْدَهَا «وَلَا فَخْرَ»(٢) يَعْنِي: لَا أفْتَخِرُ بذَلِكَ وأسْتَعْلِي بذَلِكَ عليكُمْ، لكنِّي أتَحَدَّثُ بنِعْمَةِ اللهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم (١٠٤١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم (٣١٤٨)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم (٤٣٠٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فإذا أَنْعَمَ اللهُ عليْكَ بنِعْمَةٍ وتحَدَّثْتَ بِهَا؛ إظْهَارًا لفَضْلِ اللهِ، وشُكْرًا لنِعْمَتِهِ فهَذَا خَيْرٌ، أمَّا إذَا ذكَرْتَهَا لتَسْتَعْلِيَ بِهَا عَلَى النَّاسِ، وتُبيِّنَ للنَّاسِ أنَّكَ فوقَهُمْ فهَذَا لَا يجوزُ، فلَيْسَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ مَنْ كانَ يَفْخَرُ بالأَحْسابِ والأنْسابِ، فلا تَفْتَخِرْ، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحُجُرات:١٣] لَا ليَفْخَرَ بعضُكُمْ عَلَى بعْضٍ، ويَعْلُوَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ويقولُ أنَا مِنَ النَّسَبِ الفُلانِيِّ، أنا مِنَ الهاشِمِيِّينَ، أنا مِنَ القُرَشِيِّينَ، أنا مِنْ آلِ البيْتِ، لَا بأْسَ، لكنْ لَا تَفْتَخِرْ عَلَى عِبادِ اللهِ بهَذَا، فأبُو لَهَبٍ مِنْ آلِ البيْتِ نَسَبًا، لكنَّهُ لَيْسَ مِنْ آلِ البيْتِ حَقًّا، يَعْنِي لَيْسَ لهُ حقُّ آلِ البيْتِ؛ لأنَّهُ كافِرٌ، أنْزَلَ اللهُ فِيهِ سُورَةً كامِلَةً: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المَسَد:١-٥].

إذَنْ: حدِّثْ بنِعْمَةِ اللهِ مِنْ غَيْرِ افْتِخارٍ عَلَى عِبادِ اللهِ.





سورة الشرح

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ وصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلى محمدٍ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فإنَّ اللهَ يقولُ لرسولِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] يعني: للإسلامِ، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤] يعني: أنك تُذْكَرُ عَلَى وجهِ الرِّفعةِ، وعُلو المنزلةِ، ويُذكَرُ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي كلِّ العباداتِ؛ لأنَّ العبادةَ مبنيةٌ عَلَى أمرين: الإخلاصِ للهِ، والثَّاني: المتابَعةِ، فأنا عندما أُصلي، أو أتوضأُ، أو أصومُ، أو أتصدَّق، أشعُرُ بأني بذلك مُخْلِصٌ للهِ، ومُتَّبِع لرسولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

إذن، كلُّ عبادةٍ فالرَّسُولُ ﷺ مذكور بها إذا فتَحَ اللهُ عَلَى القلبِ، وأحيا القلبَ، بحيثُ يشعُرُ الإِنْسَانُ أنَّه فِي عبادتِه مخلِصٌ للهِ، مُتبعٌ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦] هذه نِعمةٌ، يقولُ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيما يُروى عنه: «**لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ**»[1]، ففي قوله: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ العُسر هنا مَعرفة، لأنَّه محلًّى بـ(أل)، و﴿يُسْرًا﴾ نكِرة، والاسمُ إذا تكرَّر مُنكَّرًا صار الثَّاني غيرَ الأولِ، وإذا تكرَّر مُعرَّفًا صار الثَّاني هُوَ الأول، فيكون العسرُ حينئذ واحدًا، ويكون اليُسرُ اثنين، ولهذا قال: «**لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ**».

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٧٥، رقم ٣٩٤٩، ٣٩٥٠) مرسلا عن الحسن، وروي موقوفا من قول عمر، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فأنت -يا أخي- إذا قَدَّرَ اللهُ عليك فِي أمرٍ مِن الأمورِ أن تَعَسَّرَت أمورُك، فاذكُرِ اليُسرَ السابقَ، واذكرِ اليُسرَ الَّذِي تُوعَد به، وهو اليُسرُ اللَّاحقُ، كما قالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصرَ مع الصَّبْرِ، وأنَّ الفَرَجَ مع الكَرْبِ، وأنَّ مع العُسْرِ يُسْرًا**»(١).

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح:٧-٨] يعني: إذا فَرَغْتَ مما يُلهيك عن الطاعةِ ﴿فَٱنصَبْ﴾ للعِبادةِ، فمثلا: إِنْسَانٌ قُدِّمَ العَشَاءُ بين يديه، وأُقِيمتِ الصَّلاةُ، فعليه أن يُقَدِّمَ العَشاءَ، حتَّى يأتيَ الصَّلاةَ وقلبُه فارِغٌ، ويُصَلِّي.

لو قال قائلٌ: أَسْمَعُ الإمامَ يُصَلِّي وأنا آكُلُ؟

نقولُ: سُبْحَانَ اللهِ! نَعَمْ، كُلْ ولو كان الإمامُ يقرأُ، وكان ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو مِن أَشَدِّ النَّاسِ عِبادةً، كان يأكلُ -يتعشى- والإمامُ يُصَلِّي، ويسمعُ قراءتَه(٢)، لكن لَيْسَ معنى هَذَا أنك تجعلُ كلَّ يومٍ عَشَاءَك فِي وقتِ الصَّلاةِ، لا، لكن إذا صادَفْتَ المسألةَ وقُدِّمَ العَشاءُ لك، فكُلْ حتَّى تأتيَ الصَّلاةَ وأنتَ فارِغُ القلبِ.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ نِعم المولى ونِعم النَّصِيرُ، لا ترغبُ إِلَّا إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فهو مَلْجَؤُك، ومَلاذُك، وهو مَعَاذُك، وهو المستعانُ وعليه التُّكْلانُ، ارْغَبْ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي جميعِ أُمُورِك، واسْأَلْهُ كُلَّ شيءٍ تحتاجُه، فإنَّه عَزَّوَجَلَّ يُعطيك ما تسألُه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧، رقم ٢٨٠٤)، والطبراني (١١/ ١٢٣، رقم ١١٢٤٣)، والضياء (١٠/ ٢٣، رقم ١٣).

(٢) أخرجه البخاري تعليقا: كتاب الأذان، باب إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة.

أسأَلُ اللهَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الساعةِ لي ولكمُ الهِدايةَ والتوفيقَ لما يُحِبُّ ويَرضى، وَأَنْ يُحْسِنَ لنا العاقِبةَ، ويُحْسِنَ لنا الخاتمةَ، ويجعلَ مُسْتَقْبَلَنا خيرًا مِن ماضِينا، إنه عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ.





سورة التِّين

الدرسُ الأولُ:

الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

التِّينُ والزَّيْتونُ مَعْروفان، أَقْسَمَ اللهُ بهما لما فيهما من الخيرِ والبَرَكاتِ، وقيل: إِنَّه أَقْسَمَ بهما؛ لأَنَّهما فِي أرضِ الشامِ الَّتِي هِيَ مكانُ بَعْثِ الأنبياءِ من بَنِي إِسْرَائِيلَ.

قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هُوَ الطُّورُ الَّذِي كلَّم اللهُ منه مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ يعني مَكَّةَ الَّتِي بُعِث منها مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ ﷺ، أَقْسَمَ اللهُ بهذه الأماكنِ؛ لأنها أَمَاكِنُ حَدَثٍ عَظِيمٍ، وهي الرِّسالاتُ الإلهيةُ.

قولُه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ اللامُ للتَّوْكِيدِ، وقد للتَّحْقيقِ، فهي تَوْكِيدٌ، فتكونُ هَذِهِ الجُمْلَةُ مُؤَكَّدَةٌ بثَلاثَةِ مُؤَكِّدَاتٍ:

الأَوَّل: القَسَمُ.

والثَّاني: اللامُ.

والثَّالثُ: قَدْ.

قَدْ يَقولُ قَائِلٌ: أليسَ خَبَرُ اللهِ حَقًّا وصِدْقًا بدُونِ يَمِينٍ، وهو مَقْبولٌ بدُون يَمِينٍ، إذن لماذا يُقْسِمُ اللهُ؟ نَقولُ: إِنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ نَزَلَ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ؛ قالَ اللهُ

تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]، واللِّسانُ العَرَبِيُّ المُبِينُ يُؤَكِّدُ الأشياءَ الهَامَّةَ بأنواعِ المُؤَكِّداتِ، فأَقْسَمَ اللهُ هَذَا القَسَمَ المُؤَكَّدَ؛ لأنَّ هَذَا أُسلوبٌ عَرَبِيٌّ، والقُرْآنُ نَزَلَ بلِسَانِ العَرَب.

ولقد أَمَرَ اللهُ نَبِيَّه ﷺ أن يُقْسِمَ عَلَى الحقِّ فِي مَوَاضِعَ مِن القُرْآنِ ثلاثة، منها قولُه: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ﴾ [يونس:٥٣]، ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ يعني: يَطْلُبونَ منك أن تُنْبِئَهم هل هُوَ حَقٌّ أم غَيْرُ حَقٍّ؟ فقالَ اللهُ: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ﴾ هَذَا وَاحِدٌ. الموضع الثَّاني فِي التَّغابُنِ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧]. المَوْضِعُ الثَّالثُ فِي سُورَةِ سَبَأ، وهو قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ﴾ [سبأ:٣].

إذن، أَمَرَ اللهُ نَبِيَّه أن يُقْسِمَ جاء ذلك فِي ثلاثةِ مَوَاضِعَ من القُرْآنِ؛ لأنَّ المُقسَمَ عليه أَمْرٌ هَامٌّ، وهو: كَوْنُ القُرْآنِ حَقًّا، والثَّاني: قِيامُ الساعةِ، والثَّالثُ: البَعْثُ.

نعودُ إِلَى السُّورةِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] أيْ خلَقَ اللهُ الإنْسَانَ عَلَى الفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ، كما جاء فِي الحَدِيثِ الصحيحِ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»(١). إِنْ كان أَبواهُ يَهُودِيَّيْنِ صَارَ يَهُودِيًّا، وإِنْ كانَا نَصْرَانِيَّيْنِ كان نَصْرَانِيًّا، وإِنْ كَانَا مَجُوسِيَّيْنِ كان مَجُوسِيًّا؛ لأَنَّه عاشَ فِي أحضانِ هَؤُلاءِ الكَفَرةِ: اليهودِ، والنصارى، والمَجُوسِ، والإِنْسَانُ تُؤَثِّرُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨).

عليه البيئةُ، فيتَأَثَّرُ، يكونُ يَهودِيًّا أو نَصْرانيًّا أو مَجُوسِيًّا، وفي هَذَا دَلِيلٌ واضحٌ عَلَى أنَّ اليهودَ والنصارى -الذين يُسَمُّونَ أَنْفُسَهم (المسيحيين)- والمَجوس كُلهم فِي مَرْتَبةٍ واحدةٍ، بمعنى: أنَّهم كُلَّهم عَلَى بَاطِلٍ، كُلَّهم مُخالِفونَ للفِطْرةِ.

ولهذا نَدْحَضُ قولَ مَن يُحاوِلُونَ اليومَ أنْ يَخْلِطُوا بينَ الحَقِّ والباطلِ، ويَقولون: هَذِهِ أديانٌ سَمَاوِيَّةٌ! اليَهودُ عَلَى دِينٍ سَمَاوِيٍّ، والنَّصارَى عَلَى دِينٍ سَماوِيٍّ، والمُسْلِمُونَ عَلَى دِينٍ سَمَاوِيٍّ! نقول: هَذَا أَكْذَبُ الكَذِبِ، وأكذبُ كَلِمَةٍ قالها قَائِلُها هَذِهِ الكلمةُ، هل اليهودُ الآن عَلَى دِينٍ سَمَاوِيٍّ؟ لا والذي فَطَرَ السَّمَوَاتِ والأرضَ، ليسوا عَلَى دِينٍ سَمَاوِيٍّ، بل عَلَى دِينٍ بَاطِلٍ، نَسَخَهُ اللهُ تَعَالَى بشَريعةِ عِيسَى.

وهل النَّصارى الَّذِينَ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهم (مَسِيحِيِّين) نِسْبةً للمسيحِ، هل هم عَلَى دِينِ الحَقِّ؟ لا والذي فَطَرَ السَّمواتِ والأرضَ، إنهم عَلَى دِينٍ بَاطِلٍ، أي: مَنْسوخٍ، نُسِخَ بِرِسَالةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فليسوا عَلَى دِينٍ.

إذا كان اليهودُ يقولون: ﴿لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [البقرة:١١٣]، والنصارى يقولون: ﴿لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [البقرة:١١٣]، فنحن نقول: ليستِ اليهودُ ولا النَّصارَى عَلَى شيءٍ؛ لأنَّهم كَفَرُوا. فإذا قَالُوا: نَحْنُ نُؤْمِنُ باللهِ، وقد قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

فنقول لهم: أنتم فَرَّقْتُم بينَ الرُّسُلِ، وكَذَّبْتُم مُحَمَّدًا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنتم أيها اليهودُ، وكَذَّبْتم عِيسَى، بل كَذَّبْتُم مُوسَى، فالَّذِينَ كَذَّبوا مُحَمَّدًا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من

اليهود والنصارى، كَذَّبوا عِيسَى وكَذَّبوا مُوسَى؛ لأنَّ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ مَوْجودةٌ فِي التوراةِ والإنجيلِ، ويَعْرِفون مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما يَعْرِفُونَ أبناءَهم.

ثم نقولُ: مَن كَذَّب وَاحِدًا من الرُّسُلِ فقد كَذَّبَ جَمِيعَ الرُّسُلِ، حتَّى رَسولَه الَّذِي يَدَّعِي أَنَّه يَتَّبِعُه قد كَذَّبَه، والدَّلِيلُ مِن القُرْآنِ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] وهل هناك رَسولٌ بُعِثَ قبلَ نوحٍ؟ لا، ومعَ ذلك قال: كَذَّبَت المرسلين، فقومُ نُوحٍ الَّذِينَ كَذَّبوا نُوحًا كَذَّبوا جميعَ الرسلِ الَّذِينَ بعدَه، والذين كَذَّبوا مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَذَّبوا جَمِيعَ الرُّسُلِ السابقين، فهم مُكَذِّبونَ، فكيف يقالُ: إن هَؤُلاءِ آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ؟ كيف يُحاوَلُ أن يُجْمَعَ بينَ دِياناتٍ مَنْسوخةٍ، وبينَ دِينٍ قَائِمٍ؟ أليسَ اللهُ يقول: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥]؟ بلى، فأيُّ إِنْسَانٍ يقول: إن هناك دينًا يَقْبَلُه اللهُ، فهو مُكَذِّبٌ للآيةِ.

المسألةُ خَطِيرةٌ -يا إخواني- نَحْنُ يُمْكِنُ أن نُعاهِدَ اليهودَ والنصارى عَلَى مُعاهَدَاتٍ بالشروطِ الشَّرعيَّةِ، لكن لا يُمْكِنُ أَبَدًا أن نُقِرَّ بأنهم عَلَى دِينٍ مَقْبولٍ عندَ اللهِ أَبَدًا، وبأيِّ حالٍ من الأحوالِ.

الأَمْرُ خَطِيرٌ، والذين يُداهِنونَ هَؤُلاءِ اليهودَ والنصارى لقُوَّتِهم الماديةِ هم عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ، ونحن نُشْهِدُ اللهَ ومَلائكتَه وجَمِيعَ خَلْقِهِ أَنَّ اليهودَ ليسوا عَلَى دِينٍ، وأنَّ النصارى ليسوا عَلَى دِينٍ، وأنه يَجِبُ عَلَى الجميعِ أن يَدِينوا بدِينِ الإسلامِ الَّذِي يُؤْمِنُ بجَميعِ الأديانِ.

ومِن النُّكَتِ الَّتِي سَمِعناها أَنَّ رَجُلًا من النَّصارَى قالَ لرَجُلٍ من المُسْلِمِينَ:

أنتم ظَلَمَةٌ، ليسَ عندَكم عَدْلٌ، لَيْسَ عندَكم حَقٌّ؛ لأَنَّكم تَمْنَعونَ أن يَتَزَوَّجَ النَّصْرانِيُّ مُسْلِمَةً، وتَقولونَ: يَجوزُ للمُسْلِمِ أَنْ يَتَزَوَّجَ نَصْرَانِيَّةً؟ سَمِعْتُم احتجاجَ النَّصْرانِيِّ عَلَى المُسْلِمِ، فقالَ له المُسْلِمُ عَلَى الطبيعةِ: نَحْنُ نُؤْمِنُ برَسُولِكم، وأنتم لا تُؤْمِنُونَ برَسُولِنا، آمِنُوا برَسُولِنا كما آمَنَّا برَسُولِكم، ونُعْطِيكم بَناتِنا.

فهَذَا الجوابُ جَمِيلٌ جِدًّا، أَلْقَمَه حَجَرًا بكلِّ سُهولةٍ، وبهذا يَتَبَيَّنُ أَنَّه لا يُمْكِنُ الجَمْعُ بينَ الأديانِ أَبَدًا، دِينُ الإسلامِ دِينٌ مُسْتَقِلٌّ لا يَحْتاجُ إِلَى تَكْمِيلٍ، ولا يَحْتاجُ إِلَى دِينٍ آخَرَ، والدِّياناتُ الأُخْرَى كُلُّها مَنْسوخةٌ بالدِّينِ الإسلاميِّ.

وَصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ وبَارَكَ على سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّم



الدرسُ الثاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨].

هذا الاستفهامُ للتقريرِ، يعني تثبيتَ الأمرِ ووقوعَه، فمعنى ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ قد ثَبَتَ أن اللهَ أحكمُ الحاكمينَ.

فما معنى أحكم الحاكمين؟

هذا يتناولُ شيئينِ: الشيءُ الأولُ أن حُكمَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ نافِذٌ؛ لأن حُكمَ غيرِه قد يَنفُذُ وقد لا ينفُذُ.

ولو رأينا مَلِكًا من أكبرِ ملوكِ الدنيا حَكَمَ بشيءٍ أن يُفْعَلَ أو ألا يُفعَلَ، فإننا لا نَتيقَّنُ أنَّه سَيَقَعُ ما حَكَمَ به، فقد لا يقعُ، لكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ما حَكَمَ به فلا بُدَّ أن يقعَ.

ثمَّ إنَّه أيضًا لا مُعقِّبَ لحُكمِه عَزَّوَجَلَّ، فحُكمُه تامٌّ نافِذٌ، لا يمكِنُ لأحدٍ أن يتخلَّفَ عنه، حتَّى لو كان أكبرَ ملوكِ الدنيا.

وجهٌ آخرُ: أن اللهَ أحكمُ الحاكمينَ من حيثُ الحكمةُ، بمعنى أن حُكْمَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ليس عَبَثًا ولا لَعِبًا ولا لَهوًا؛ إنَّما هو جِدٌّ وحِكمةٌ بالغةٌ قد تصلُ إليها العقولُ وقد لا تصلُ إليها العقولُ.

إذن: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ من حيثُ الحكمُ ونفوذُه، ومن حيثُ الحكمةُ، فإذا آمنتَ بهذا فإنه لا يُمكِنك أن تعترضَ على حكمٍ من أحكامِ اللهِ أبدًا، سواءٌ كان هذا الحكمُ قَدَرِيًّا أو شرعيًّا.

فلا يمكنُ أن تقولَ: لماذا منعَ اللهُ المطرَ ثمَّ أَتَى به؛ اعتراضًا على اللهِ؛ لأننا نعلمُ أنَّه مَنَعَه لحكمةٍ، وأنه أتى به لحكمةٍ عَزَّوَجَلَّ.

كذلك أيضًا لا يمكنُ أن تقولَ: لماذا أوجبتِ الشريعةُ الإسلاميةُ أن الإنسانَ إذا أَكَلَ لحمَ إبلٍ انتقضَ وضوءُه، ووجب عليه أن يتوضأَ، ولو أَكَلَ لحمَ خِرفانٍ لم يجبْ عليه أن يتوضأَ، ما دُمْتَ تعلمُ أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ أحكمُ الحاكمينَ، فإذا أوجبتِ الشريعةُ على مَن أَكَلَ لحمَ إبلٍ أن يتوضأَ ولم تُوجِبْ ذلك على مَنْ أَكَلَ لحمَ غَنَمٍ فإننا نعلمُ أن هذا لحكمةٍ؛ لأنَّه صادرٌ من أحكمِ الحاكمينَ.

وأَجْرِ على هذا كلَّ ما يَمُرُّ بك من أحكامِ اللهِ الكونيَّةِ، وأحكامِ اللهِ الشرعيَّةِ، فكلُّها صادرةٌ عن حِكمةٍ، لكنَّ العقولَ قد تُدرِك هذه الحكمةَ وقد لا تُدْرِكُهَا، إلَّا إننا نؤمنُ بأنَّ كُلَّ ما شَرَعه اللهُ أو كُلَّ ما قَدَّره لحكمةٍ قطعًا.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩].

وقال تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٧].

وهذه نقطةٌ عظيمةٌ تُوجِبُ للإنسانِ إذا اعتقدها الاستسلامَ للقضاءِ القَدَرِيِّ، وللحُكمِ الشرعيِّ، فإذا آمنتَ إيمانًا حقيقيًّا بأن اللهَ أحكمُ الحاكمينَ لَزِمَ من ذلك الإيمانِ الاستسلامُ لقضاءِ اللهِ القدريِّ، ولقضاءِ اللهِ الشرعيِّ، فلا بُدَّ ما دُمْتَ آمنتَ بهذا، فإذا قدَّر اللهُ على خلقِه حُروبًا، أو مَجاعةً، أو مرضًا، أو زلازلَ، أو صواعِقَ، فإنك تعلمُ أن هذا لحكمةٍ، وتؤمنُ بهذا، فيَهُونُ عليك الأمرُ؛ لأن هذا إنَّما أتَى من عندِ اللهِ الَّذِي هو أحكمُ الحاكمينَ.

وإذا ابتلاكَ اللهُ بمرضٍ لَازَمَكَ على الرغمِ من العلاجِ، وعلى الرغمِ من الرُّقْيَةِ، فإنك تعلمُ أن لهذا حِكمةً عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ومن الحكمةِ أن يُوفِّقَك للصبرِ حتَّى تنالَ درجةَ الصابرينَ، والصبرُ درجةٌ عاليةٌ، لا ينالُها إلَّا مَنِ امتُحِنَ فصبَرَ، وقد حَصَلَ لرسولِ اللهِ ﷺ منَ الأذى الكثيرُ والشديدُ بسببِ دعوتِه للحقِّ، ولكنَّ اللهَ يُصَبِّرُه ويقولُ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وقد حَصَلَ له من القَدَرِ الَّذِي يَقضيه اللهُ عليه ممَّا لم يَقضِه على غيرِه شيءٌ كثيرٌ؛ كَانَ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم- إذا أتته الحُمَّى يُوعَكُ كما يُوعَكُ

الرجلانِ مِنَّا[1]. يعني يُضَعَّفُ عليه المرضُ أكثرَ كما يُوعَكُ الرجلانِ منَّا.

فإن قيل: لماذا وهو رسولُ اللهِ؟

قلنا: لينالَ درجةَ الصابرينَ؛ إذ إن الصبرَ لا يُنالُ بدونِ شيءٍ يُصْبَرُ عليه، فلهذا كان رسولُ اللهِ ﷺ أَصْبَرَ النَّاسِ على الشَّرِيعَةِ، وأَصْبَرَ النَّاس على قضاءِ اللهِ، وأقواهم في تنفيذِ أوامرِ اللهِ.

فيا أخي الزَمْ هذه القاعدةَ: كلُّ ما قَضَى اللهُ عليك أو على غيرِك فاعلمْ أَنَّه لحكمةٍ، إن وُفِّقْتَ لِفَهْمِها فهذا المطلوبُ، وإنْ لم تُوَفَّقْ فيَكفِي أن تؤمنَ بأن ذلك حُكمُ اللهِ، وللهِ تَعَالَى الحِكمةُ البالغةُ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، رقم (٥٦٤٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك، حتى الشوكة يشاكها، رقم (٢٥٧١).

الدرسُ الثالثُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قال تَعَالَى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين:١-٥]، هنا يُقْسِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالتِّينِ، وهو ثَمَرٌ مَعْروفٌ، وله فَوَائِدُ عَدِيدةٌ تكلَّمَ عنها أهلُ العِلْمِ، ومِمَّن تَكَلَّمَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ والزَّيْتونُ أيضًا مَعْروفٌ، وهو مما يُؤْتَدَمُ به، وقد ذَكَرَه اللهُ في قولِه: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٠].

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو طُورُ سَيْناءَ، وهو الجَبَلُ الذي كَلَّمَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى عِنْدَه.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ أي مَكَّة، وهي التي بَعَثَ اللهُ منه خَاتَمَ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

وإِقْسَامُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِشَيْءٍ من المخلوقاتِ يَدُلُّ على عَظَمَةِ هذا المَخْلوقِ؛ لأنه لا يَحْلِفُ إلا بشيءٍ عَظيمٍ، ولهذا عَرَّفَ العُلماءُ القَسَمَ أو الحَلِفَ بأنه تَأْكِيدُ الشيءِ بذِكْرِ مُعظَّمٍ بصِيغَةٍ مَخْصوصةٍ، وهي حُروفُ القَسَمِ الثلاثةُ: الواوُ والباءُ والتاءُ.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة:٥٦] هنا القَسَمُ بِالباءِ، وقال الله تَعالَى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٥٧] وهنا القَسَمُ بالتاءِ، أما القَسَمُ بالواوِ ففي آيتِنا هذه: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، فأداةُ القَسَمِ هنا هي الواوُ، والمُقْسَمُ به هذه الأربعة: التِّينُ، والزيتونُ، وطُور سِينِينَ، والبلدُ الأمينُ.

وصَفَ اللهُ هذا البَلَدَ بالأمينِ؛ لأنه يَأْمَنُ فيه كُلُّ شيءٍ، فمَن دَخَلَه كان آمِنًا، ولو أَصَابَ إنسانٌ حَدًّا ودخَلَ حَرَمَ مَكَّةَ صارَ آمنا؛ لأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص:٥٧] وقَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧].

فالأَشْجارُ البَرِّيَّةُ التي أَنْبَتَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ تكونُ آمِنَةً، حتى الأشجارُ المُؤْذِيَةُ ذاتُ الشَّوْكِ الذي يكونُ كالإِبَرِ، هي آمنةٌ؛ لقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا يُعْضَدُ شَوْكُهَا**»[1]. ومَعْلومٌ أنَّ الأشجارَ بَعْضُها يُؤْذِي، وبعضُها لا يُؤْذِي، فلا يجوزُ قَطْعُ الشَّجَرِ المُؤْذِي ولا غَيْرِه؛ وذلك لأنَّ الشَّجَرَ لا يُؤْذِي إلا مَن يَأْتِيهِ، فلم نَرَ شَجَرةً تمشي إلى شَخْصٍ لتَضْرِبَه بشَوْكِها! إذن الشَّجَرُ لا يُؤْذِي إلا مَن يَأتِيهِ؛ ولذلك كانت الصُّيودُ إذا آذت قُتِلَتْ في الحَرَمِ، والشَّجَرُ لا يُقْطَعُ، والفَرْقُ ظَاهِرٌ، فالصيودُ هي التي تأتي فتُؤْذِي الناسَ، والشَّجَرُ لا يمشي؛ ولذلك لو قال قائلٌ: فَرِّقوا لنا بينَ ما يُؤْذِي من الحيوان فيُقْتَلُ، وبينَ ما يؤذي من الشَّجَرِ فلا يُقْطَع؟ نقولُ: الفَرْقُ هو أنَّ الصَّيْدَ يأتي بنفسِه فيُؤْذِي، وأما الشَّجَرُ فلا يُؤْذِي إلا مَن أَتَى إليه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب فضل الحرم، رقم (١٥٨٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٥).

والحيوانُ في حُدودِ الحَرَمِ، وهي واسعةٌ، يَنْقَسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

القسم الأول: ما يُؤْذِي طبعًا، أي إنَّ طَبِيعَتَه الأَذَى، فهذا يُقْتَلُ على كلِّ حالٍ، ولو في جَوْفِ المَسْجِدِ، ومثالُ ذلكَ الحَيَّةُ والعَقْرَبُ، فهذه تُقْتَلُ على كلِّ حالٍ، حتى لو رأيتَ عَقْرَبًا في هذا المكانِ فَاقتُلْه؛ لقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**خَمسٌ فَوَاسِقُ، يُقْتَلْنَ فِي الحِلِّ وَالحَرَمِ: الحَيَّةُ وَالغُرَابُ الأَبْقَعُ وَالفَأْرَةُ وَالكَلْبُ العَقُورُ وَالحُدَيَّا**»[(١)].

فلو رأيتَ وَزَغًا فاقْتُلْه؛ لأنه مُؤذٍ بطَبْعِه، وقد أَمَرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بقَتْلِ الوَزَغِ، وأفادَ أن فيه إذا قَتَلْتَه في أَوَّلِ مَرَّةٍ مِئَةَ حَسَنَةٍ[(٢)]. وأخبر النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه بخُبْثِه كان يَنْفُخ النَّار على إِبْرَاهِيمَ[(٣)].

وصَدَقَ رسولُ اللهِ، وفِعْلُ الوَزَغِ هذا يَدُلُّ على كَراهَتِه للتوحيدِ، ولِمَن قام به، فاحْرِصْ على قَتْلِ الوَزَغِ بضَرْبَةٍ شَديدةٍ تَقْتُلُه من أَوَّلِ مَرَّةٍ، ولا تَهْرُبْ منه.

القِسْمُ الثاني: ليسَ مُؤْذِيًا، لكن قد يَصولُ عليك، فهذا يُقْتَلُ، إنْ صالَ يُقْتَلُ، وإن لم يَصُلْ فَدَعْه ولا تَقْتُلْه، وإن قَتَلْتَه فلا إِثْمَ عليك. مثل الحَشَراتِ كالخُنفساءِ والجُعَلِ والصُّرْصُورِ، وما أَشْبَهَها، فهي لا تُؤْذِي، لكن قد تَصُولُ على الإنسانِ، أي تَصْعَدُ عليه وتَقْرُصُه وتُؤذِيه بالمَشْيِ على جِلْدِه، وما أَشْبَهَ ذلك، ولا تُدْفَعُ إلا بالقَتْلِ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم، رقم (١١٩٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب استحباب قتل الوزغ، رقم (٢٢٤٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، رقم (٣٣٥٩).

لكن إن لم يَكُنْ منها صَوْلٌ فلا تَقْتُلْها، واعْلَمْ أن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نَهَى عن قَتْلِ أربعٍ من الدوابِّ: النَّملةِ، والنَّحْلةِ، والهُدْهُدِ، والصُّرَدِ(١).

القسم الثالث: حَيوانٌ أَهْلِيٌّ غيرُ وَحْشِيٍّ، وهو حَلالٌ، مِثْلُ بَهيمةِ الأنعامِ والدَّجاجِ، وما أَشْبَهَ ذلك، فهذه مما خَلَقَه الله لنا، متى شِئْنا ذَبَحْناه وأَكَلْناه، ولا إِشْكالَ فيه.

القسم الرابع: وهو الصَّيْدُ، وهو الحيوانُ البَرِّيُّ الحَلالُ المُتَوَحِّشُ، مثلُ: الحَمامِ والعَصافِيرِ والجَرادِ، فهذه يَحْرُمُ قَتْلُها في الحَرَمِ، ولا يَحِلُّ لإنسانٍ أن يَقْتُلَها. لقولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾ [المائدة:٩٥]، ولقولِه تَعالَى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ﴾ [المائدة:٩٦]، ولأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَ حينَ فَتَحَ مكةَ بأنَّ صَيْدَها لا يُنفَّرُ ولا يُقْتَلُ(٢).

أي أنك لو رأيتَ حَمامةً قارةً في ظِلٍّ فلا يَحِلُّ لك أن تُنَفِّرَها؛ لأن الحيوان في هذا المكان مُحْتَرَمٌ، لكن لو أن هذا النوعَ من الحيوانِ صَالَ على الإنسانِ ولم يَنْدَفِعِ إلا بالقَتْلِ يُقْتَلُ، فكُلُّ صَائِلٍ يُقْتَلُ إذا لم يَنْدَفِعْ إلا بالقَتْلِ.

ولو أنَّ الإنسانَ مَشَى بسيارتِه، فصَدَمَ حَمامةً، فإنْ تَعَمَّدَ أنْ يُثِيرَها ويَصْدِمَها فعليهِ الجَزَاءُ، وأما إذا كانتْ قد طارت وصُدِمَت بالسيارةِ فليسَ عليه جَزَاءٌ. وكذلك

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في قتل الذر، رقم (٥٢٦٧)، وابن ماجه: كتاب الصيد، باب ما ينهى، عن قتله، رقم (٣٢٢٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب الإذخر والحشيش في القبر، رقم (١٢٨٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٥).

لو دَهَسَها ولم يَرَها فليسَ عليه جَزَاءٌ؛ لقولِه تَعَالَى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة:٩٥]، فعُلِمَ من ذلك أنَّ غيرَ المُتعَمِّدِ لا شيءَ عليه، وهذا ما تَقْتَضِيهِ قَواعدُ الشريعةِ.

نَعودُ إلى القَسَمِ في الآياتِ التي بَيْنَ أيدينا، خَلَقَ الإنسانَ في أَحْسَنِ تقويمٍ صُورةً وفِطْرةً؛ ولهذا لا يُوجَدُ شيءٌ من الحيوانِ أَقْوَمَ من الآدَمِيِّ، والدليلُ قولُه تَعَالَى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾. وما في سورة الانفطار: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار:١-٧] أي: عَدَلَ قَامَتَكَ، فالرأسُ هو الأَعْلَى، والجَسَدُ هو الأَسْفَلُ، وأنت تمشي على قَدَمَيْنِ اثنين مَشْيًا مُعْتَدِلًا قَوِيمًا، ولا يُوجَدُ في الحيوانِ نَظِيرٌ للإنسانِ.

إذن، قولُه تَعَالَى: ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ أي: في الصورةِ وفي الفِطْرَةِ؛ لأنَّ الإنسانَ مَفْطورٌ على الإسلامِ.

ثم قال: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ هذا الإنسانُ الذي خَلَقَه اللهُ في أَحْسَنِ تَقْويمٍ رَدَّه في أَسْفَلَ سَافِلِينَ، وليسَ رَدُّ اللهِ الإنسانَ في أسفل سَافِلِينَ إلا من فِعْلِ العبدِ؛ لقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥]، ولقولِه تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾ [المائدة:٤٩].

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين:٦] أي: آمنوا بقُلوبِهم، وعَمِلوا الصالحاتِ بجَوارِحِهم، ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾. أي: ثَوابٌ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ، ثم قال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾ [التين:٧] أي: بعدَ هذا البيانِ أيُّ شيءٍ يُكَذِّبُكَ بالدِّينِ؟

والجوابُ: لا شيءَ، فالأمرُ وَاضِحٌ وَجَلِيٌّ.

ثم خَتَمَ الله تعالى السورةَ بقولِه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨] والجواب: بلى، أحْكَمُ الحاكمين قُوَّةً وتنفيذًا، أحْكَمُ الحاكمين حُكْمًا وسِياسةً؛ ولهذا لا يُوجَدُ حُكْمٌ أحسنُ من حُكْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولو أنَّ المسلمين اتَّبعوا حُكْمَ اللهِ في مَنْهجِ حَياتِهِم، وفي سِياساتهم في الداخلِ والخارجِ، لسَعِدوا سَعادةً لا تُوصَفُ.

لكن صارَ كثيرٌ من المسلمين -مع الأسف- يُداهِنُ الكُفَّارَ، أو وَاقِعًا تحت سَيْطرةِ الاستعمارِ الأجنبيِّ، فصار يَأْخُذُ من قَوانِينِهم وأَنْظِمَتِهم ويُطَبِّقُها في عِبادِ اللهِ، ويَدَعُ شَرْعَ اللهِ خَلْفَ ظَهْرِه، وربما يُصَرِّحُ ويقولُ: هذا الدِّينُ لا يُمْكِنُ أن يُنَفَّذَ في هذا العَصْرِ؛ لأنَّ العَصْرَ اختلَفَ، ولكلِّ حادثٍ حَدِيثٌ.

وعلى هذا يكونُ -على حَدِّ قولِه- إذا تطورت الأُمَّةُ في الدنيا أَلْقَتِ العَمَلَ بالشَّرْعِ، وإذا تَخَلَّفَ تَطَوُّرُها في الدنيا عَمِلَت بالشرعِ، فيكونُ الشرعُ أُلْعوبةً بينَ البَشَرِ، إنْ شاؤوا عَمِلوا به، وإن شاؤوا لم يَعْمَلوا به.

وهؤلاء الذين وضَعُوا قَوانِينَ مُخالِفةً للشريعةِ لا شَكَّ أنهم ضَلُّوا ضلالًا مُبِينًا، واتَّبعوا الأَسْوَأَ بَدَلًا عن الأحسنِ، وكانوا كقَوْمِ مُوسَى الذين قالوا: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٦١]، وواللهِ ما في القوانينِ المُخالفةِ للشريعةِ خَيْرٌ، بل كُلُّها شَرٌّ، ولو لَم يَكُنْ منها إلا العدولُ عن شَريعةِ اللهِ لكانَ ذلك كَافِيًا، ولكن كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

ومن الحُكَّامِ مَن يُزَيِّنُ لهم عُلماءُ السُّوءِ ما كانوا عليه من مُخالفةِ الشَّرْعِ في الحُكْمِ، فيقولون: هذا جَائِزٌ، هذا مَصْلحةٌ، والدِّينُ مَبْنِيٌّ على المَصالِحِ، وما أَشْبَهَ ذلك مما يُوَسْوِسون به للحُكَّامِ، وكثيرٌ من الحُكَّامِ ليسَ لديه عِلْمٌ بالشريعةِ، فيَغْتَرُّ بقولِ هؤلاءِ العلماءِ المُضِلِّينَ؛ ولهذا قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الأَئِمَّةُ المُضِلُّونَ**»(١). فتَجِدُ الحَاكِمَ يُقَرِّبُ هذا العَالِمَ المُضِلَّ فيَفْتَحُ له من أبوابِ التَّحريمِ والتأويلِ ما يَجْعَلُه يُخالِفُ الشريعةَ، ويَقولُ: أنا على حَقٍّ.

والعَجِيبُ أَنَّ بَعْضَ العلماءِ قال: إنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَكَّلَ أُمورَ الدنيا إلى أهلِ الدنيا يَفْعَلُونَ ما يَشاؤونَ. واسْتَدَلَّ بشُبْهَةٍ لا يَسْتَدِلُّ بها إلا مَن زَاغَ قَلْبُهُ؛ لأنَّ الذين في قُلُوبِهم زَيْغٌ يَتَّبِعون ما تَشَابَه من الأَدِلَّةِ من القرآنِ أو السُّنة، ومما يسْتَدِلَّ به قولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**»(٢). أي أَعْلَمُ مِنِّي. ومعنى ذلك أنه إذا تَعارَضَ حُكْمِي وحُكْمُكم فأنتم أولى بالاتِّباعِ؛ لأنكم أعْلَمُ!

ولا أَعْلَمُ كيفَ استدَلَّ هؤلاء بما لا دَلِيلَ لهم به، بل يُلَبِّسون على الحُكَّامِ بكلام الرسول هذا، فنقول لهم: اعْرِفوا سَبَبَ الحديثِ حتى تَعْرِفوا مُرادَ الرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فإنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لما هَاجَرَ

(١) أخرجه أحمد (٤٥/ ٤٧٨، رقم ٢٧٤٨٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا، دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا، على سبيل الرأي، رقم (٢٣٦٣).

من مَكَّةَ إلى المدينةِ، ولم يَكُنْ بمَكَّةَ نَخْلٌ، بل هي وَادٍ غيرُ ذِي زِرْعٍ، وجَدَ النَاسَ فِي المَدينةِ يُلَقِّحونَ النَّخِيلَ، والتَّلْقِيحُ هو أَخْذُ اللِّقاحَ من ذَكَرِ النَّخْلِ لِيُلْقَى في ثَمَرةِ النَّخْلةِ، فإذا فُعِلَ هذا ظَهَرَ التَّمْرُ صالحًا، وإنْ لم يُفْعَلْ ظَهَرَ التَّمْرُ غيرَ صَالِحٍ وفاسدًا، فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ».

فلَمَّا رَأَى الصحابةَ يَصْعَدُ الرجلُ منهم أَوَّلًا للذَّكَرِ، فيأْخُذُ لِقاحًا، ثم يَنْزِلُ ويَصْعَدُ النخلةَ حتى يضَعَ فيها اللِّقاحَ، ويَنْزِلُ، وهذا أَمْرٌ شَاقٌّ، والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ من الأُمورِ أَيْسَرَها، فقال: لا دَاعِيَ لهذا. فقال الصحابةُ: سَمْعٌ وطاعةٌ. فتَرَكوا التَّلْقِيحَ، ففَسَدَ التَّمْرُ، فجاؤوا للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقالوا: يا رسولَ اللهِ، فَسَدَ التَّمَر. فقال: اصْنَعُوا ما شِئْتُم أو كَلِمَةً نحوَها. أي: أنتم أَعْلَمُ بالصَّنْعةِ لا بالأَحْكامِ، فالصَّنْعَةُ لن يَفْعَلَ بها شَيْئًا، أما الأَحْكامُ فالحُكْمُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، كما في قولِه تَعالَى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]، فالحُكْمُ إلى اللهِ في الأَحْكامِ، لكن فيما يَتَعَلَّقُ بإصلاحِ الثَّمَرة وسَقْيِها وحَرْثِها فهذا يَرْجِعُ للإنسانِ.

أرأيتَ لو أنَّ شَخْصَينِ أحدُهما عَالِمٌ، والآخَرُ جَاهِلٌ، لكن الثاني نالَ شَهادةَ الدكتوراه في إصلاحِ المسجِّلات! أما العالم فلا يَعْرِفُ كيف يُصْلِحُ هذا الجِهازَ، فأيهما أعلم في أمور الدنيا هذه؟ الثاني، وليس هذا تناقضًا؛ فهذا الجاهل أَعْلَمُ، لكن أَعْلَمُ في فَنِّهِ، وكلُّ إنسانٍ عالم في فَنِّه، وهذا يَتَعلَّقُ بالصناعةِ وما يَتَعلَّقُ بها.

على كلِّ حالٍ هؤلاء الذين يُرِيدونَ أن يَتحَلَّلَ المسلمون من أحكامِ الشريعةِ بما يَتَعَلَّقُ بالمعاملات دَلِيلُهم لا حُجَّةَ فيه.

كذلك أيضًا بعضُ العلماءِ يقولُ: الرِّبا حَرامٌ، إذا كان فيه ظُلْمٌ، وأما إذا لم يَكُنْ فيه ظُلْمٌ فليسَ حَرَامًا؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى يَقولُ: ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٩]، إذن المسألةُ راجعةٌ إلى الظُّلْمِ، فإذا لم يَكُنْ ظُلْمٌ فلا بَأْسَ. ثم يقولُ: يَجوزُ الرِّبا الاستثماريُّ دونَ الرِّبا الاستغلاليِّ. فقَسَّمَ الرِّبا إلى نَوْعَيْنِ: استثماريٍّ، ويقولُ فيه: هذا جَائِزٌ. واستغلاليٍّ يقولُ فيه: هذا حَرَامٌ.

ومثالُ الاستثماريِّ -كما يقول- أن يكون هناك رَجُلٌ عَامِلٌ جَيِّدٌ، أو زَارِعٌ جَيِّدٌ، أو صَانِعٌ جَيِّدٌ، لكن لا يَمْلِكُ المالَ، فيأتي إلى رَجُلٍ غَنِيٍّ عنده مالٌ كَثِيرٌ، ولكن لا يَحْتَرِفُ صَنعةً من هذه، فيقول: أعطني مليون رِيالٍ بمليون ومئةِ ألفٍ. ثم يأخُذُ هذا المال ويشتري به مُعِدَّاتٍ لِيَصْنَعَ ويُنْتِجَ، أو حَرَّاثاتٍ لِيَزْرَعَ ويُنْتِجَ.

وهكذا يَسْتَثْمِرُ بمالِ هذا الغَنِيِّ ويَستفِيدُ هو ويَستفِيدُ الشعبُ ما يُنْتِج، وسوف يَرُدُّ المليون بزِيادةِ مئةِ ألفٍ فقط، وهذا رِبًا جَائِزٌ، فهذه مَصْلحةٌ لآكِلِ الرِّبا ومُوكِلِ الرِّبا، والرِّبا المُحَرَّم هو الذي يَشْتَمِلُ على الظُّلْمِ.

هكذا يُلَبِّسُ هذا العالم على الناسِ، فإذا جاء هذا العالم بأساليبَ بيانِيَّةٍ بَلِيغةٍ، وقَدَّمها للحَاكِمِ، والحاكمُ من الناسِ الذين لا يَعْرِفونَ عن الشرعِ شيئًا، فسوف يَقولُ: هذا صوابٌ، هذا حَسَنٌ، هذا هو العَالِمُ الذي عِلْمُه يُوافِقُ المَعقولَ، ويُوافِقُ الوَاقِع.

ولكنْ هذا التفسيرُ بَاطِلٌ من أصْلِهِ، وأَضْرِبُ لكم مثلًا يَدُلُّ على بُطلانِه، أُتِيَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بتَمْرٍ جَيِّدٍ، فقال: «مِنْ أَيْنَ هَذَا؟» قالوا:

كُنَّا نَأْخُذُ الصَّاعَ من هذا بالصاعين من الرَّدِيءِ، والصاعين من هذا بثلاثةٍ من الرديء، فقال: «**أَوَّهْ عَيْنُ الرِّبَا**»[1]. فرَدَّهُ.

هذه الصورةُ في ظَاهِرِها ليسَ فيها ظُلْمٌ إطلاقًا، يَشْتَرُونَ التمرَ الطَّيِّبَ الصاعَ بالصاعين من الرديء، والقيمةُ واحدةٌ، فمثلًا صاعانِ من الرديءِ يُساوي ريالين، وصاعٌ من الطَّيبِ يُساوي ريالين، إذن ليس فيه ظُلْم أبدًا، ومع ذلك قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ عَيْنُ الرِّبا**». وتأَوَّه منه، وأَمَرَ بردِّهِ، وإفسادِ البيعِ، فمن أين قَسَّمَ هذا الرَّجُلُ الرِّبا إلى قِسْمينِ: استغلاليٍّ واستثماريٍّ، الاستغلاليُّ حَرامٌ، والاستثماريُّ حَلالٌ؟!

المهم أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ والجوابُ: بلى بالإِجْماعِ، وعلى هذا يَتبَيَّنُ أنَّ جميعَ الأنظمةِ والقوانين المخالفة للشريعةِ باطلةٌ؛ لأنَّ الشريعةَ حُكْمُ اللهِ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].



(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، رقم (٢٢٠١)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب بيع الطعام مثلا بمثل، رقم (١٥٩٤).

الدرسُ الرابعُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:١-٣] أربعةُ أشياءَ أَقْسَمَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بها، فالواوُ هنا للقَسم، والتِّين: فاكهة معروفة، والزَّيتون كذلك، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هذا هو طُور سَيْنَاءَ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٠].

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ المشار إليه مكة، فهذا البَلد أمينٌ في كل الأحوال، أمينٌ في حُقوق بني آدم، فلا يَحِلُّ لمسلم أَنْ يَسْفِكَ فيه دمًا إلا ما كان قِصاصًا مِن قاتِلٍ فِي هَذَا البَلَدِ، فهذا لَا بُدَّ مِنْ تنفيذ القِصاص فيه.

أمينٌ في الحيوان غير الإنسانِ، فلا يُنَفَّرُ صيدُه، ولا يُقْتَلُ، لو وجدتَ حمامة في الطريق فلَيْسَ لك أن تنفُضَ ثوبَك عليها حتى تَطِير بل دَعْها، فإنْ طارَتْ بمُرورِك فلا شيء عليك، لكن أن تقْصِدَ تنفيرَها فهذا حرامٌ عليك؛ لأن هذا البَلَدَ آمِنٌ حرامٌ بِحُرمةِ اللهِ إلَى يَوْمِ القِيامَةِ.

بل الأشجارُ في هذا الحَرَم آمِنةٌ، لا يَحِلُّ لأحدٍ في مكةَ وحَرَمِها أَنْ يَعْضُدَ شَجَرة، أو يكسر غصنًا، لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حرم ذلك[1]، وهذا مِن تمامِ الأمانةِ.

أمينٌ في الأموالِ، فلا يَحِلُّ لأحدٍ أَنْ يَجِدَ لُقَطَةً في مكةَ أو حَرَمِها فيأخُذَها، إلا إذا أخذها لِيَنْشُدَها مَدى الحياة، لِقَوْلِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **«لَا تَحِلُّ سَاقِطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ»**[2]. فعلى هذا لو وَجَدْتَ مئةَ ريالٍ في مكةَ فلا تأخُذْها إلا إذا كنت تُرِيدُ أَنْ تَنْشُدَها مدى الحياة، وغير مكةَ إذا وجدتَ لُقطة تَنْشُدُها لمدة سَنة، فإنْ جاءَ صاحِبُها، وإلا فهي لك، أما مكة فلْتَبْقَ مُنشدًا لها، وإذا مُتَّ فأَوْصِ ورَثَتَك أَنْ يَنْشُدُوها، وإذا مات ورثتُك يُوصون كذلك.

فإذا قال قائل: هذا فيه مَشَقَّة. نقول: دَعْها. فإن قال: أخشى إِنْ تركتُها أَنْ يأخُذَها مَن يأكُلُها. **فالجواب**: افعَلْ ما أُمرتَ به، وإذا فعل ذلك أحدٌ بعدَك فلا حرجَ عليك منه.

لكن هنا مَخْرَج، وَهُوَ أنك إذا وجدتَ لُقَطَةً في مَكَّة أو حَرَمِها فإنك تدفعها إلى الجِهاتِ المسؤولةِ عن الضائعِ، وتَبْرَأُ بذلك ذِمَّتُك، فما كان في الحَرَمِ، أو حَوْلَهُ

(١) لحديث: **«حَرَّمَ اللهُ مَكَّةَ فَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا لِأَحَدٍ بَعْدِي، أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، لَا يُخْتَلَى خَلَاهَا وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُعَرِّفٍ»**. أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب الإذخر والحشيش في القبر، رقم (١٢٨٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة، رقم (٢٣٠٢)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٥).

يعني في المسجدِ هذا أو حَوْلَه، فهناك مكانٌ في جانبِ المسجدِ مكتوبٌ عليه (المفقودات) فَأَعْطِهم وتَبْرَأ ذِمَّتُك، وَإِنْ كَانَ لَيْسَ حول المسجدِ فالمَحْكَمة الشرعيَّة هي التي تتولى ذلك، فأَعْطِه المحكمةَ لِتَسْلَمَ مِن إثمه.

هذا البلدُ أمينٌ مِن كلِّ طاغيةٍ، فلا يَقْدِرُ عليه أحدٌ حتى في حال الجاهِلية لم يَقْدِرْ عليه أَبْرَهَةُ مَلِكُ اليَمن الذي جاء بفِيلِه وجُنوده مِنْ أَجْلِ أَنْ يَهْدِم الكعبة، مَنَعه اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِن ذلك، وكان سببُ هذا أَنَّ هذا المَلِكَ اتخذَ كعبةً في اليَمَن لِيَحُجَّ الناس إليها ارتزَاقًا، يريد أَنْ يأتِيَ الناس إليه، فقام رَجُل مِن قريش وتَغَوَّطَ فيها إهانةً لها؛ لأن الكعبة التي تُحَجُّ وتُقْصَدُ هي هذه الكعبة، فتَغَيَّظَ المَلِكُ وقال: لَأَهْدِمَنَّ هذه الكعبةَ. يعني هذه الكعبةَ المُعَظَّمَةَ، فأتى بجنوده وفِيلِه العظيم، ولكنَّ اللهَ تَعَالَى حَماها، لما اقتربُوا مِن مكة أرسلَ اللهُ عليهم: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:٣-٥]

وفي هذا يقول أُمَيَّةُ بنُ أبي الصَّلْتِ[١]:

حَبَسَ الفِيلَ بِالمُغَمَّسِ حَتَّى ... ظَلَّ يَحْبُو كَأَنَّه مَعْقُورُ

فقوله: «حَبس الفيل» يعني حبسه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فحَماها، وهذا مِن أَمْنِه.

عندنا أربعة أشياءَ أقسمَ اللهُ بها هي: التين، والزيتون، وطور سِينين، وهذا البلد الأمين، المقسَم عليه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] أقسَمَ اللهُ تَعَالَى أنه خَلَق الإنسانَ في أحسَنِ تقويمٍ في صُورته الظاهرة، وفي صورته الباطنة، في

(١) تاج العروس، مادة: غمس.

فِطرته المستقيمة، فكل ما يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تقويمًا خَلَقه اللهُ في أحسنِ تقويم، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦-٨]، فالإنسان -والحمد لله- يَقِفُ على قَدَمَيْهِ وُقوفًا مُتَّزِنًا كأنما وقف على ثلاثٍ أو أربعةٍ، وغيرُه مِنَ الحيوان لَا يُمْكِنُ أَنْ يقف هذا الموقِفَ.

وقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هو في الشكل الظاهِر والباطِن.

ثم بعد هذه الخِلقة ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين:٥] رَدَدْناه بَعد هذا التقويم ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ والسَّفَلُ نقصٌ، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦] يعني فلم نَرْدُدْهُم أسفلَ سافِلين، بل لهم ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع.

والذين آمنوا وعملوا الصالحات هُم الذين آمنوا بما يَجِبُ الإيمانُ به، والذي يَجِبُ الإيمانُ به ذَكَرَهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لجبريلَ حينَ سألَهُ عن الإيمان فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1].

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعني عَمِلوا الأعمالَ الصالحاتِ، ولا يكونُ العملُ صالحًا إلَّا إذَا كَانَ مَبْنِيًّا على أمرين، أو إذا كان مشتملًا على أمرين: هما الإخلاصُ للهِ، والمتابعةُ لرسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم (٩).

أركانُ الإيمان:

الإيمان هو الإيمانُ باللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه.

أوَّلًا: الإيمانُ باللهِ:

أما الإيمان بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ فهو يتضمَّنُ أربعةَ أشياء:

الأول: أن تُؤمن بوجوده عَزَّوَجَلَّ، وأنه هو الأولُ الذي لَيْسَ قَبْلَهُ شيءٌ، والآخِرُ الذي لَيْسَ بَعْدَهُ شيء، والظَّاهِرُ الذي لَيْسَ فوقه شيء، والباطِنُ الذي لَيْسَ دُونه شيء.

الثاني: أن تُؤمِنَ بِتَوْحِيدِه في الرُّبُوبيةِ، يعني تُوَحِّدُ اللهَ في الرُّبوبيةِ بأن تعتقدَ أنه لا خالِقَ، ولا مالِكَ، ولا مُدبِّرَ للخَلقِ إلا اللهُ.

الثالث: أن تُؤمِنَ بتوحيدِه في الألوهيةِ، بأن تُؤمنَ وتعتقدَ أنه لا معبودَ حَقٌّ إلا اللهُ.

الرابع: أن تُؤمنَ بتوحيدِه بالأسماءِ والصفاتِ، بمعنى أن تُؤمنَ بأنَّ اللهَ تَعَالَى لا مِثلَ له في صِفاتِه ولا في أسمائِه.

وبِالنِّسْبَةِ للإيمانِ بوجودِ اللهِ فهُناك مَن أنكرَ وُجودَ اللهِ، لكنَّ إنكارَه عن جُحودٍ واستكبارٍ، وَلَيْسَ عن اقتناعٍ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي فرعونَ وقومِه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، لِأَنَّهُ مَا مِنْ إنسانٍ عاقِلٍ -فضلًا عن مؤمنٍ- يُنكرُ وُجودَ اللهِ أبدًا، نقول مَثَلًا: مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ والشمسَ

والقَمَرَ والنُّجومَ والسَّحابَ والأنهارَ والجِبالَ والرِّمَالَ؟ كلٌّ يقول: اللهُ. ولا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ أَحَدًا خَلقَها سِوى اللهِ.

إذن، لا أَحَدَ يُنكِرُ وُجودَ اللهِ إلا رَجُلٌ مُكابرٌ ومُعاندٌ وجاحِدٌ استكبارًا كما حصلَ لِفِرْعَوْنَ وقومِه.

ولهذا قال موسى ﷺ لفرعونَ وَهُوَ يُحاورُه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:١٠٢] اللهُ أكبر! يُخاطِب هذا الرَّجُلَ العَنِيدَ بهذا الخطابِ الغَلِيظِ ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ فهؤلاء الرجال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ فلم يقل فرعون: لم أعلم، بل أَقَرَّ ذلك، ولذلك لما أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٩٠].

فهذا الرجلُ الكافرُ العَنِيدُ الذي يُقَتِّلُ بني إسرائيلَ الآن أصبح تَبَعًا لهم، ما قال: آمنتُ أنه لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، بل قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فكان آخِر حياته أن صار تَبَعًا لبني إسرائيل، وهذا مِنْ آياتِ اللهِ، فَقِيلَ له: ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ ﴾ تقول هكذا ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس:٩١-٩٢] لأن بني إسرائيل لو لم يشاهدوا بَدَنه طافيًا على الماءِ لصارت عندهم شُكوكٌ؛ لأن الرجلَ قد أَرْعَبَهُم: هل غَرِقَ أو ما غَرِق؟ فإذا شاهدوه اقتنعوا.

أما الإيمانُ بتوحيدِ اللهِ في أُلُوهِيَّتِه، فلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ومعنى لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أي:

لا معبودَ حَق إلا اللهُ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢]. كل المعبوداتِ التي تُعبدُ كُلُّها باطلةٌ لا تنفعَ أصحابَها، ولا تُغني عنهم شيئًا.

والعَجَبُ أن أُناسا يَعبُدون الأمواتِ، فيأتي إلى القَبرِ ويطوفُ به تعظيمًا لصاحبِ القَبرِ وتَقَرُّبًا لصاحبِ القَبْرِ، ورُبما يسألُ حاجَتَهُ مِن صاحبِ القبرِ، يا مسكينُ أين عقلُك؟! هذا الرَّجُلُ كان قَبل أَنْ يموتَ لا يستطيعُ أَنْ ينفَعَك، وبعد أَنْ يموتَ مِنْ بَابِ أَوْلَى، هو الآن جُثَّةٌ هامِدةٌ إن لم تكنِ الأرضُ أَكَلَتْهُ، فكيف تَعْبُده؟! قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣] القِطْمِير: غُلافُ النَّواة، وَهُوَ غُلافٌ رَقِيق لَيْسَ فيه شيءٌ، يعني ما يُساوي شيئًا.

في النَّواة ثلاثةُ أشياءَ: قِطْمِير، ونَقِير، وفَتِيل، وكُلُّها في القرآن، قَالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٤٩]، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٤]، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣] القِطْميرُ القِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ عَلَى النَّوَاةِ، والفَتِيل مَا كَانَ فِي شَقِّ النَّوَاةِ، والنَّقير النُّكْتة فِي ظَهْرِ النَّواة، وكُلها تُضرب بها الأمثال في القِلَّة والحَقارة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٣- ١٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ يعني: لا أحدَ أضلُّ ﴿مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦].

فلا تعبُدْ سِوى اللهِ، لا تتقرَّبْ بعِبَادَةٍ إلا إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ودَعْ عنك أولئك

الذين يلُوذُون بالقُبورِ، ويَسْتَجِيرُون بهم ويَدْعُونهم ويعبدونهم، دَعْهم عنك، إن ذلك لا يُغْنِي عنهم شيئًا.

الأمرُ الرابعُ مِنَ الإيمانِ باللهِ: الإيمانُ بتوحيدِه في الأسماءِ والصفاتِ، وأن تُثْبِتَ للهِ عَزَّوَجَلَّ كلَّ ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه في كتابِه، أو على أَلْسِنَةِ رُسُلِه مِن غيرِ تحريفٍ ولا تمثيلٍ، أَثْبِتْهُ كما أثبتَه اللهُ، لا تُحَرِّفْ ولا تُمَثِّلْ.

للهِ تَعالَى سَمْعٌ واسِعٌ لا يَغيبُ عنه شيءٌ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١] فهذه امرأةٌ ظاهَرَ منها زوجُها بعد أن بلَغت مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا، وجاءها أولاد، فقال لها يومًا: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أُمِّي. والظِّهار في الجاهلية فِراق بائنٌ، فما عادت تَحِلُّ له إطلاقًا، فجاءت هذه المرأةُ تشتكي إلى الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وتُحاوِرُه، واللهُ تَعالَى فوقَ سَبعِ سمواتٍ، عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى، يسمعُ تَحاوُرَهما، وأُمُّ المؤمنين عائشةُ في الحُجرةِ، ويخفى عليها بعضُ حديثِها، ولهذا قالت: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ، لَقَدْ كُنْتُ فِي الحُجْرَةِ -أي: حُجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ- والمَرْأَةُ تُجادِلُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهَا، وَإِنَّهُ لَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضَ حَدِيثِهَا»(١). واللهُ عَزَّوَجَلَّ سَمِعَ قولَها الذي تُجادلُ به، وسَمِعَ التحاوُرَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى سَعَةِ سَمْعِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

إذا آمَنْتَ بهذا فلا تُسمعْ ربَّك عَزَّوَجَلَّ ما لا يرضاه؛ لأنه يَسْمَعُه، فكلامُ الإنسانِ مع أهلِه يَسمعُه اللهُ، وكلامه مع صديقِه يسمعُه اللهُ، فاحذرْ أن تُسمعَ ربَّك ما لا يرضاه عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٦، رقم ٢٤٦٩٩).

عِلمُ اللهِ ثابتٌ وعامٌّ للماضي والمستقبَلِ والحاضِرِ والصغيرِ والكبيرِ، وما يفعلُ هو بنفسِه، وما يفعلُه العبادُ، وواسعٌ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

الماضي الذي وقع يعلمُه الناسُ، فكلُّ ما وَقَعَ في وقتِهم هذا لا بُدَّ أَنْ يعْلَمُوه، والحاضرُ يعْلَمُونَه، أما المستقبَلُ فلا يعلمونه، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

وما نسمع عن بعضِ الكُهَّانِ، وعن بعضِ مَن لا يُقَدِّرُون اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ مِن أمورِ الغَيبِ المستقبَلةِ فكُله باطلٌ، ولا يجوزُ تصديقُه، ومَن صدَّقَهُ فهو كافِرٌ بالقرآنِ؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

هؤلاء الذين يكتبون أحيانًا في الصُّحفِ بأن عُمْرَ الدنيا كذا وكذا، أو أنه سيحصُلُ في اليومِ الفلاني كذا وكذا، موقِفُنا نَحْوَهُمُ التكذيبُ وجوبًا، ولا نُصدِّقهم، ولا نَشُكُّ فيهم، فمَن صَدَّقَهم فقد كَفَرَ بالقرآنِ، ومَن شَكَّ فِي ذَلِكَ فَقَدْ كَفر بالقرآنِ، بل يَجِبُ أن نُكَذِّبَهم، وأن نَضْرِبَ هذا التكذيبَ على وجوهِهم، كَذَبُوا ثم كَذَبُوا ثم كَذَبُوا، ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

يوجد أُناس يقولون: أنتَ وُلِدْت في النَّجمِ الفُلاني، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حياتَك

حياةُ نَحْسٍ. نقول: كذبتُم ثم كذبتُم ثم كذبتُم.

وآخَرُ يقول: هذا وُلِد في نَوْءِ سَعْدِ السُّعودِ- وسَعْدُ السُّعود هذا أحدُ النجوم المعروفة- فيقولون: ما شَاءَ اللهُ حياتُه سعيدة. فنقُول: هذا كَذِبٌ.

وآخَرُ يقول: هذا وُلد في سَعْدِ بُلَعَ، هذا يُريد أَنْ يَبْلَعَ الدنيا كلها؛ لأنه وُلِد في سَعْدِ بُلَعَ. نقول: كَذِبٌ، ثم كَذِبٌ.

فيا أهلَ الإسلامِ، ادْحَرُوا هؤلاء، لا تُصدِّقوهم، بل ولا تَشُكُّوا في أمرِهم، فإنهم كذَبَةٌ، لأنه ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

مِن صفات اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ فَعَّالٌ لما يريدُ، كُلُّ ما أراده اللهُ عَزَّوَجَلَّ فهو قادرٌ على فِعلِه، وفاعِلٌ له، لا أحدَ يمنعُه مما أراد، والدَّلِيلُ قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٢-١٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فهو الفَعَّال لما يُريدُ، ولْنَضرِب لهذا أمثِلَةً:

على العَرشِ فِعلٌ يَفعلُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ عُلُوُّه على العَرْشِ عُلُوًّا يَلِيقُ بِجَلالِهِ وعَظَمَتِه، ولا يُماثِلُ استِواءَ المخلوقِ على المخلوقِ، فنُؤمنُ بأنَّ اللهَ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ حقيقةً، وَلَيْسَ المعنى استَولى؛ لأن معنى الاستيلاءِ عُدوانٌ على النصِّ من وجهين:

الأول: أنه صَرْفٌ عن ظاهِره.

والثاني: أنه أثبتَ له معنًى لا يَدُلُّ عليه.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٢- ١٣] ومعنى ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: تَعْلُون عليه، فقوله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] أي: علا على العَرش حَقًّا، ولا يجوز أن نُفَسِّرَه بـ(اسْتَوْلى) لأن هذا -كما قُلت لكم- جِناية على القرآنِ.

نُؤمن أيضًا بأن اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وأن اللهَ تَعَالَى لا يُعْجِزُه شيء فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كُن. فيكون.

ولْنَضْرِب هذا المثَل: البَعثُ يومَ القيامةِ: فهو -سبحانه- الذي يَبعث كُلَّ الخلائقِ بكلمةِ (كُن) بِدُونِ تكرارٍ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، وقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣] صَيْحَةٌ واحدةٌ صِيحَ بهم أَنِ اخْرُجُوا ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ و(إذا) هنا فُجائية، والمعنى أنه حصل الاجتماع في لحظةٍ.

وقال عَزَّوَجَلَّ في سُورةِ النازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤] أي على وجهِ الأرضِ.

فَيَجِبُ أَنْ نُؤْمِنَ بِكُلِّ ما وَصَفَ اللهُ به نَفْسَهُ في كتابه، أو على أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، لكن بِدُونِ تَمثيلٍ، نعلمُ أَنَّ اللهَ لا مِثلَ له عَزَّوَجَلَّ لقولِه تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وقوله تَعالَى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤].

ثانيًا: الإيمانُ بالملائكة:

الملائكةُ هُم خَلْقٌ مِن مخلوقاتِ اللهِ غَيْبِيٌّ، وقد يُشاهَدُ، لكنَّ الأصلَ أنه غَيْبِيٌّ، خَلَقَهم اللهُ تَعَالَى مِن نُورٍ، ولم يجعلْ لهم بُطونًا، بل هُم لا يأكلون ولا يشربون، وإنما وظيفتُهم القيامُ بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مِنَ التسبيحِ والتكبيرِ والتعظيمِ وغيرِ ذلك، هؤلاء الملائكةُ أقوياءُ أَشِدَّاءُ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي ملائكةِ النارِ: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]. أي هم قادرون على تنفيذه، ولا يتـأخرون، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠].

هؤلاء الملائكةُ الكِرام جعلَهُم اللهُ تَعَالَى في مَصالِحك، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٧] هؤلاء عندك يكتبُونَ كلَّ ما تقولُ، وكلَّ ما تَفعلُ لئلا يَضِيعَ.

وجعل اللهُ لك ملائكةً يحفظونَك مِن أمرِ اللهِ غيرَ الذين يَكتبون، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١].

ويوجدُ ملائكةٌ يَحملون العَرشَ يستغفرون للذين آمنوا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر:٧].

هم مُسَخَّرُون لك يُقاتلون معك، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال:١٢]. فالملائكة تُقاتلُ معك.

إذن، هم مُسَخَّرُون لك، وهم ملائكةٌ كِرام عند اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثالثا: الإيمانُ بالكُتُب المُنَزَّلَةِ مِن عِنْدِ اللهِ:

والإيمانُ بالكتبِ: أي نُؤمنُ بأنَّ اللهَ تَعالَى أَنْزَلَ على كُلِّ رسولٍ كتابًا، أوَّلُهم نُوح، فكُل رسُولٍ أَنْزَلَ اللهُ عليه كتابًا، والدَّلِيلُ على هَذَا قَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

والكُتب المعلومةُ لنا هي التوراةُ، والإنجيلُ، والزَّبُور، وصُحف إبراهيم، وصُحف موسى، والقرآن الكريم، وأعظمُها وأشرفُها والذي له السيطرةُ والسُّلطة القرآنُ الكريم، قَالَ اللهُ تَعالَى ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨] فالهَيْمنة: السَّيطرة، ولذلك فإنَّ القرآنَ يَحكمُ على الكتبِ السابقةِ، ولا تَحكمُ عليه، كلُّ الكتبِ السابقةِ منسوخةٌ لا يَدِينُ بها أحدٌ عند اللهِ أبدًا، ومَن دان بها فليس بمؤمنٍ، ولا ينفعُه التَّدَيُّنُ بها، والدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هذه الكتبَ -غير القرآن- لا يَنفعَ التَّدَيُّنُ للهِ بها قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة:٣]، ولهذا خَسِرَ

مَن حاول أَنْ يُقَرِّبَ بين الأديان؛ لِأَنَّ هَذَا الذي يحاولُ أَنْ يَفْعَلَ ذلك معناه أنه يريدُ أَنْ يُقَرِّبَ بين الإيمانِ والكفرِ، وبين المسلمِ والكافرِ، وهذا إِنْ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ تبقى الجَمْرَةُ في وَسَطِ الماءِ فهذا ممكنٌ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَبْقَى الجَمْرَةُ في وَسَطِ الماءِ، وهذا كما قال الشاعر(١):

إِذَا شَابَ الغُرَابُ لَقِيتُ أَهلِي ... وَصَارَ القَارُ كَاللَّبَنِ الحَلِيبِ

هذا وَعَدَ أهلَه بأنه سيأتي إليهم إذا شابَ الغُرابُ، والغُرابُ لا يَشِيبُ، يَظَلُّ أَسْوَدَ، وصار القَارُ كاللَّبَنِ الحَلِيبِ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ القارُ الأَسْوَدُ كاللَّبَنِ.

أقول: إِنَّ هؤلاء الذين ذَلُّوا وانْخَنَعُوا أمامَ الدُّولِ الكافرةِ يريدون أَنْ يُقَارِبُوا بينَ الإسلامِ والكفرِ، قَبَّحَ اللهُ هذه الفكرةَ، فإنها فِكرةُ إلحادٍ، فكرةٌ تَقْتَضِي أَنْ لَا دِينَ؛ لأنه إذا حاولنا أن نُقَرِّبَ بين الأديان الثلاثة -كما يزعمون- جاءت الأديانُ الأخرى فقالت: نحن معكم قَرِّبُوا. وهذه المحاولةُ محاولةٌ كُفريةٌ وَثَنِيَّةٌ، والعِيَاذُ بِاللهِ.

قال اللهُ تَعَالَى عن إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي أُمِرْنَا بالتَّأَسِّي به: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، فنحن نقولُ لليهودِ والنصارى وغيرِهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

نحن لن نَدْعُوَكُم أَنْ تَتَّبِعُونا، بل ندعُوكم أن تَتَّبِعوا ما أنزلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ

---

(١) البيت في حياة الحيوان، للدميري (٢/ ٢٤٤).

الكُتُبِ، وجميعُ الكُتبِ مَنْسُوخَةٌ بالقرآنِ الكريمِ.

أيها المسلمون لا تَنْخَدِعُوا بهذه الأفكارِ الباطلةِ المُنحرفةِ التي تُريد أن تُفَتِّتَ دِينكم، وأَنْ تُوهِنَ قُوَّتَكُم، دَعُوا هؤلاء الشياطين مِن بَني آدَمَ، فإنهم واللهِ ما دَعَوْا إلا إلى الكُفرِ، سُبْحَانَ اللهِ! ربُّنَا عَزَّوَجَلَّ الَّذِي يُشَرِّع ما يشاءُ، ويَنْسَخُ ما يشاءُ يقولُ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥] ونحن نقولُ: قَرِّبْ لنا الأديانَ؟! ويقول: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١]، ونحن نقول: نَتَّخِذُهم أولياءَ؟! سبحانك هذا بُهتانٌ عظيم.

الإيمانُ بالكتُبِ أن تُؤمِنَ بِكُلِّ كتابٍ عَلِمْتَهُ، لكن لا تتعبَّدْ للهِ به، الكُتبُ التي نعرفها الآن هي التوراةُ، والإنجيلُ، والزَّبورُ، وصُحفُ إبراهيمَ، وصُحفُ موسى، نُؤمنُ بأنها مِن عندِ اللهِ، ولكنْ هنا سؤالٌ: هل التوراةُ التي بين أيدي اليهودِ اليومَ هي التي نزلت على موسى؟ لا، بل مُحَرَّفَةٌ مُبَدَّلَةٌ مُغَيَّرَةٌ كَما جاءَ فِي القُرْآنِ الكريمِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩١].

الإنجيلُ الذي في أيدي النصارى هل هو الإنجيلُ الذي نَزَل على عِيسى؟ لا، بل مُحَرَّفٌ ومُبَدَّلٌ، هل يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِن دِين عيسى أَنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ؟! لا أبدًا، عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَغَيْرِه مِنَ الرسلِ إنما جاء للدعوةِ إلى عِبادَةِ اللهِ وحدَه، وإنكارِ أَنْ يَكُونَ هناك إلهٌ آخَرُ سِوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا يقولُ اللهُ لِعيسَى يومَ القيامةِ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فماذا يُجيب ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ تَنْزِيهًا لك أَنْ أَدْعُوَ هذه الدعوةَ ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ

فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧].

فهذا كلامُ عيسى ﷺ الذي يَدَّعِي هؤلاء النَّصارَى أنهم تابِعُون له، وكَذَبُوا، ثم كَذَبُوا، ثم كَذَبُوا.

واللهِ لو آمَنُوا بعيسى لآمَنُوا بمحمدٍ ﷺ لأنَّ عيسى بَشَّرَ بمحمدٍ قال لِبَني إسرائيل: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ يعني فآمِنوا بها ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ﴾ يعني فآمِنوا به واقْبَلُوا هذه البُشرى ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أي الرسولُ الذي بَشَّرَ به عيسى لما جاءهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦].

الذين آتاهم اللهُ الكتابَ مِنَ اليهودِ والنَّصارَى يَعْرِفُون النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كما يَعْرِفُون أبناءهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ [البقرة:١٤٦] لأن صِفَتَهُ موجودةٌ في التوراةِ والإنجيلِ ولكن ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩].

فلا تَنْخَدِعْ بهذه الدِّعاياتِ المَهْزُوزَةِ المَهْزُولةِ الانهزاميةِ، فإنها -واللهِ- باطلةٌ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ نُقَرِّبَ بين أديانٍ فَرَّقَ اللهُ بينها ونَسَخَها بهذا الدِّين، الإيمانُ بالكتبِ بأن نؤمنَ بأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْزَلَ على كُلِّ رسُولٍ كتابًا.

رابعا: الإيمان بالرسل:

كذلك نؤمنُ بالرسلِ الذين أَرْسَلَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، واللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أَرْسَلَ إلى كلِّ

قريةٍ نَذِيرًا، والله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨].

إذن، لم يَقُصَّ اللهُ علينا قَصَصَ كلِّ الرسلِ، فقَصَّ بعضَها علينا، وبعضَها لم يَقْصُصْ.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

فآمِن بهؤلاء الرُّسلِ المُسَمَّيْنَ الذين سَمَّاهُم اللهُ، فلا بُدَّ أَنْ تُؤمنَ بهم بأعيانِهم، وأما الذين لم يُسَمَّوْا فآمِن بهم إجمالًا.

خامسا: الإيمانُ باليومِ الآخِرِ:

اليومُ الآخِرُ يومُ القِيامةِ، وسُمِّيَ آخِرًا لأنه لا يَوْمَ بَعدَه، هو مُنْتَهى كلِّ شيءٍ لا يَومَ بعده، إذ إنَّ الناسَ في هذا اليومِ يَأْوُون إمَّا إلى الجنةِ -اللَّهُمَّ اجْعَلْنا منهم يا ربَّ العالمين- وإمَّا إلى النارِ، ويَنْتَهِي كُلُّ شيءٍ، يُخَلَّدُ أهلُ النارِ فيها أَبَدَ الآبِدِينَ، ويُخَلَّدُ أهلُ الجنةِ فيها أَبَدَ الآبِدِينَ، هذا اليومُ هو اليومُ الآخِرُ.

وأمَّا ما نقرؤه مِن بعضِ الكتابِ، إذا ماتَ الإنسانُ قالوا: إنه دُفِنَ إلَى مَثْوَاهُ

الأخيرِ. فهذه كلمةٌ عظيمةٌ جدًّا، لأن الذي يَسْمَعُها يَظُنُّ أَنَّ المنتَهى القَبرُ، وأنه لا بَعْثَ، فهذه الكلمةُ مَضْمُونُها خَطيرٌ جِدًّا، فالقبرُ لَيْسَ المَثْوَى الأخيرَ، إنما القَبْرُ مَزارٌ، قَالَ تَعالَى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر:١-٨]

فالزَّائِرُ سَيَرْحَل، ولهذا سَمِع أعرابيٌّ رجلًا يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فقال هذا الأعرابي بِسَلِيقَتِه وطبيعته: إنَّ الزَّائِرَ سَيَرْحَلُ مِنْ مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ[1]. الأعرابُ أحيانًا يفهمون ما لا يفهمُه المقيمون.

قرأ رَجُل قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ثم ختمها بقوله: وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، فقال أعرابيٌّ: اقْرَأِ الآيَةَ، هذا غَلَطٌ، فقرأها القارئُ وأعادَها كما قرأها، قال له: لا يُمكنُ، اقرأ. فقرأ الثالثة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨] قال الأعرابيُّ: الآن قَرَأْتَها قراءةً صحيحةً، لأن اللهَ تَعالَى لو غفرَ وَرَحِمَ مَا قَطَع، ولَمَّا عَزَّ وحَكَمَ قَطَعَ. سُبْحَانَ اللهِ! فَهْمٌ عجيبٌ، اللهُ أكبرُ.

فاليومُ الآخِر هو يومُ القِيامةِ، يَوم يَخرجُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ العالمين كَمَا قَالَ النبي ﷺ: «حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»[2]. الحُفاة: لَيْسَ على أقدامهم نِعال، العُراة: لَيْس

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٧٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩).

على أجسامِهم لِبَاسٌ، الغُرْلُ: يعني أنهم غيرُ مَخْتُونِين، والخِتان هو أخذُ القُلْفَةِ التي على الحَشَفَةِ، هذه القُلْفَةُ أخذُها مِنَ الفِطرةِ، لأن الذين لا يَخْتَتِنُون يجدون صعوبةً في الجماعِ ويَفْقِدُون اللَّذةَ هم ونساؤهم، فإذا كان يوم القيامةِ، وبُعث الناسُ تَعُودُ هذه القُلْفَةُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وفي روايةٍ لَيْسَتْ في الصحيحين: «بُهْمًا»[(١)]، يعني يُبعثون بُهْمًا، قال العلماء: أي لَيْسَ لهم مالٌ؛ لأنهم خَرَجُوا مِن بُطونِ أُمَّهاتِهم لَيْسَ معهم مال.

هذا اليومُ يَجِبُ أَنْ نُؤْمِنَ بأنه كائنٌ لا محالَةَ، ولولا أنه كائنٌ لا محَالَةَ لكَانَتْ حياتُنا الدنيا لَعِبًا ولهوًا وعَبَثًا، ولولا أَنَّ الإنسانَ يُؤمنُ بأن هناك يومًا يُبعثُ فيه الناسُ ويُجَازَوْنَ بأعمالهم لماتَ غَمًّا، يجدُ أمامه رجلًا قد أنعمَ اللهُ عليه في الدنيا بجميعِ أنواعِ النِّعمِ وَهُوَ فقيرٌ، لكن إذا عَلِمَ أن هناك يومًا آخِرَ اطمأنَّ وقال: لَعَلِّي أَسْبِقُ هذا التاجرَ، لأن الناسَ يُجَازَوْنَ يومَ القيامةِ على قَدْرِ أعمالِهم.

وفي اليَوْمِ الآخِرِ صُحفٌ مكتوبٌ فيها الأعمالُ، يُعْطَى كلُّ إنسانٍ كِتابَهُ ويقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]، قال بعضُ السلف: «لَقَدْ أَنْصَفَكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبًا عَلَى نَفْسِكَ بِعَمَلِكَ»[(٢)]. يعني حاسِبْ نَفْسَك، هذا كتابٌ مكتوبٌ مُحَقَّقٌ، ما فيه زيادةٌ ولا نَقْصٌ، فاقرأ.

في هذا اليوم أيضًا الموازينُ، تُوزَنُ الأعمالُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥، رقم ١٦٠٨٥)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١/ ١٣٣) قال الهيثمي: فيه عبد الله بن محمد ضعيف. والحاكم (٢/ ٤٧٥، رقم ٣٦٣٨) وقال: صحيح الإسناد. والضياء (٩/ ٢٥ رقم ١٠). وأخرجه أيضًا البخاري في الأدب المفرد (ص:٣٣٧، رقم ٩٧٠).

(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك (١/ ٥٤٥، رقم ١٥٦٣).

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]
وقال النَّبيُّ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ»(١).

وفي يومِ القيامةِ الصِّراطُ، يَعْبُرُ الناسُ به على قَدْرِ أعمالهم؛ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ سريعًا، ومنهمْ مَن يكونُ بطيئًا، ومنهم مَن يُخْدَشُ، ومنهم مَن يُكَرْدَسُ في النَّارِ(٢)، والعياذُ باللهِ.

في ذلك اليومِ تدنو الشمسُ على الخلائقِ حتى تكونَ على الرؤوسِ قَدْرَ المِيل(٣)، ولا ينجو مِن ذلك إلا مَن أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّه، منهم: «الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»(٤).

اللَّهُمَّ أَظِلَّنا في ظِلِّكَ، اللَّهُمَّ أَظِلَّنا في ظِلِّك، اللَّهُمَّ أَظِلَّنا في ظِلِّك يَوْمَ لَا ظِلَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن، رقم (٧١٢٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤).

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٨٤، رقم ١٠).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، رقم (٢٨٦٤).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

إلا ظِلُّك، يا أكرمَ الأكرمين، يا أرحمَ الراحمين، ارزُقنا الإخلاصَ لوَجْهِك، والاتباعَ لرسولِك، اللَّهُمَّ ارزقنا إخلاصًا لا شِركَ معه، وإيمانًا لا كُفرَ معه، ويَقِينًا لَا شَكَّ مَعَهُ، واتِّبَاعًا لا ابْتِدَاعَ معه، اللَّهُمَّ حَقِّقْ لنا الإِيمانَ، وَزَيِّنَهُ فِي قلوبِنا، وكَرِّهْ إلينا الكُفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ، واجْعَلْنَا مِنَ الراشدين.

ومما يدخلُ في الإيمانِ باليوم الآخِرِ مَا يَكُونُ فِي القبرِ، فالإنسانُ إذا خَرَجَتْ رُوحُهُ في الدنيا انْتَقَلَتْ فورًا إلى عالَمِ الآخِرةِ، ويكونُ في البَرْزَخِ سؤالٌ وجوابٌ، يُسألُ المرءُ عن ثلاثةِ أشياءَ: مَن رَبُّكَ؟ وما دِينُكَ؟ ومَنْ نَبِيُّكَ؟ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧] فيقولُ المؤمنُ: رَبِّيَ اللهُ، ودِيني الإسلامُ، ونَبِيِّي محمدٌ -اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا منهم- وأمَّا المنافِقُ المُرْتَابُ فيقول: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي سَمِعْت النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ(١).

نعوذُ باللهِ، ما دَخَلَ الإيمانُ قلبَه، إنما يَسمعُ فيقولُ ما لم يَصِلْ إلى قلبِه، ثم يُنَعَّمُ الأولُ، ويُعَذَّبُ الثاني، إنه ليأتيه هذان المَلَكَانِ، وإنه لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعال المُشَيِّعِين الذين خرجوا لِتَشْيِيعِهِ ودَفْنِه إذا انصرفوا.

ولهذا كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ المَيِّتِ قال: «**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ**»(٢).



---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في المَسْأَلَة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت، رقم (٣٢٢١).

الدرسُ الخامسُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:١-٨].

والبسملةُ آيةٌ مِن كتابِ اللهِ، فهيَ داخلةٌ في كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهيَ من كلامِ اللهِ، وهيَ آيةٌ مستقلةٌ ليستْ منَ الفاتحةِ ولا منْ غيرِ الفاتحةِ، ولذلكَ ثبتَ في الصحيحِ عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فيما يرويهِ عنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ:** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[١]. ولم يذكرِ البسملةَ، فليستْ من الفاتحةِ.

ولهذا لم يكنِ النبيُّ ﷺ يجهرُ بها في القراءةِ الجهريةِ؛ لأنها ليستْ مِنَ الفاتحةِ، ولو كانتْ منها لكانَ لها حكمُها في الجهرِ بها في الصلاةِ الجهريةِ، وقد رُوي عنهُ ﷺ أنه جهرَ بها[٢] لكنِ الأحاديثُ الكثيرةُ الصحيحةُ الصريحةُ تدلُّ على أنهُ لم يجهرْ بها، وإن جهرَ بها فهو قليلٌ.

ويدلُّ لهذا أيضًا أنكَ إذا قسمتَ الصلاةَ بينَ اللهِ وبينَ العبدِ تبينَ لكَ أن أولَ الفاتحةِ هيَ قولُه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾:

قالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ فهذه للهِ، وقولُه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بين العبدِ وبينَ ربِّه، وهيَ الآيةُ الوسطَى من سبعِ آياتٍ، ثمَّ قالَ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ وهذهِ للعبدِ. فثلاثٌ للهِ، وثلاثٌ للعبدِ، والوسطى الرابعةُ بينَ العبدِ وبينَ ربِّه.

إذنِ، البسملةُ ليستْ منَ السورةِ التي بعدَها، ولا منَ التي قبلَها، لكنهَا آيةٌ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب من رأى الجهر بـ(بسم الله الرحمن الرحيم)، رقم (٢٤٥) بلفظ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ بـ(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ).

من كتابِ اللهِ يؤتَى بها في أولِ كلِّ سورةٍ؛ إلا في سورةِ براءة.

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ الواو عندَ أهلِ اللغةِ للقَسَمِ، وحروفُ القسمِ ثلاثةٌ: الواوُ والباءُ والتاءُ، أما الواو فكثيرٌ، وأما الباءُ ففي مثلِ قولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ﴾ [النحل:٣٨]. الباءُ هنا للقسمِ.

وأما التاءُ ففي قولِه تعالى عَن إبراهيمَ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٥٧]. فالتاءُ هنا للقسمِ.

والتينُ هو الثمرُ المعروفُ، وهوَ فاكهةٌ وقوتٌ، وأقسمَ اللهُ بِهِ لكثرةِ منافعِه، وكذلكَ الزيتونُ هو أيضًا معروفٌ، ويُتَّخذُ منهُ الزيتُ الجيدُ الصافي، وأقسمَ اللهُ بهِ لكثرةِ منافعِه.

قولُه: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ طورُ سنينَ هو جبلُ الطورِ، أي طورُ سيناءَ، الذي كلَّمَ اللهُ منهُ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قولُه: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ يعني مكةَ، و(هذا) اسمُ إشارةٍ للقريبِ وليسَ للبعيدِ، ولهذا نقولُ: إن هذه السورةَ مكيةٌ؛ لأن اللهَ أشارَ للبلدِ الذي نزلتْ فيهِ بإشارةِ القريبِ، فهيَ إذنْ مكيةٌ.

أقسمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالتينِ والزيتونِ، وهما في أرضِ الشامِ وفلسطينَ، وهيَ محلُّ الرسالاتِ، أكثرِ رسالاتِ بني إسرائيلَ، وطور سنينَ وهوَ الجبلُ الذي أُرْسِلَ منهُ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا البلدُ الأمينُ الذي أُرْسِلَ منهُ سَيِّدُ المرسلينَ

وخاتمُ النبيينَ محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وجعلنِي اللهُ وإياكُم مِن أَتْبَاعِه، اللهمَّ اجْعَلْنَا مِن أَتْبَاعِه ظاهرًا وباطنًا، اللهمَّ توَفَّنَا على مِلَّتِه، اللهمَّ احْشُرْنَا في زُمْرَتِه، اللهمَّ اسْقِنَا من حَوْضِه، اللهمَّ أَدْخِلْنَا في شفاعتِه، اللهمَّ اجْمَعْنَا بهِ في جناتِ النعيمِ معَ الذينَ أنعمتَ عليهِمْ منَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشهداءِ والصالحينَ، آمينَ.

ووصفَ اللهُ هذا البلدَ بأنهُ أمينٌ لأنهُ يأمنُ فيهِ كلُّ شيءٍ؛ فالآدميُّ آمنٌ، والحيوانُ، والصيدُ آمنٌ، والأشجارُ آمنةٌ، والحشائشُ آمنةٌ.

فالآدميُّ آمِنٌ: قالَ النبيُّ ﷺ معلنًا ذلكَ: «**لا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهَا، فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ**»[1]. فبقي هذا البلدُ آمنًا.

وكذلكَ الصيودُ آمنةٌ، ولا يحلُّ لأحدٍ أن يصيدَ بها صيدًا، بل ولا أن يُنفرَ الصيدَ بأن يزعجَه حتى يطيرَ، بل إذا رأيتَ حمامةً فإنكَ تمشي الهوينَى حتى لا تطيرَ وتنفرَ؛ لأن النبيَّ ﷺ قالَ: «**لَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا**»[2].

وإذا رأيتَ في مكةَ فأرةً فإنكَ تقتلُها وهيَ حيوانٌ، لكنهَا مؤذيةٌ مِنَ الفواسقِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب في اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة، رقم (٢٤٣٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٥).

وقدْ قالَ النبيُّ ﷺ: «خَمْسٌ فَوَاسِقُ، يُقْتَلْنَ فِي الحَرَمِ: الفَأْرَةُ، وَالعَقْرَبُ، وَالحِدَأَةُ، وَالغُرَابُ، وَالكَلْبُ العَقُورُ»[١].

إذن، فالمؤذِي يُقتلُ حتى في الحرمِ؛ لدفعِ أذاهُ.

والحيةُ إذا وجدتَها في منًى أو في مزدلفةَ فإنكَ تقتلُها؛ لأنهُ إذا جازَ قتلُ العقربِ فقتلُ الحيةِ مِن بابِ أولى، بل قدْ جاءتِ السنةُ بقتلِ الحيةِ.

والأشجارُ في الحرمِ آمنةٌ، ولا يحلُّ للإنسانِ أن يكسرَ غصنًا منْ شجرةٍ، ولا أن يحطَّ ورقةً منْ شجرةٍ؛ لأنها آمنةٌ، حتى لو فرضَ أن الشجرةَ ذاتُ أشواكٍ فإن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قالَ: «لَا يُعْضَدُ شَوْكُهَا»[٢]. يعني: لا يُقطعُ شوكُها.

والإنسانُ الذي يمشِي وفي طريقِه شجرةٌ ذاتُ أشواكٍ لا يقطعُها ويتنحَّى عنها يمينًا أو شمالًا، وتبقَى هيَ آمنةً.

وكذلكَ الحشائشُ والنباتُ الصغيرُ في الأرضِ فهو آمنٌ؛ لأن النبيَّ ﷺ قالَ: «لَا يُخْتَلَى خَلَاهَا»[٣]. أي لا يُحشُّ حشيشُها.

إذنْ، كلُّ شيءٍ في البلدِ الأمينِ آمنٌ؛ إنسانٌ، وحيوانٌ، وأشجارٌ، وحشائشُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب ما يقتل المحرم من الدواب، رقم (١٨٢٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم، رقم (١١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب فضل الحرم، رقم (١٥٨٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الإذخر والحشيش في القبر، رقم (١٣٤٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٣).

وما أنبتَهُ الإنسانُ؛ كرجلٍ غرسَ نخلةً، أو غرسَ برتقالةً، أو ما أشبهَ ذلكَ، فإنهُ لا يحرمُ عليهِ قطعُها؛ لأنها لهُ، وإذا كانتْ لهُ فهيَ ملكُه، فلهُ أن يقطعَ النخلةَ التي غرسَها، وله أن يقلعَ الشجرةَ التي غرسَها، وله أن يحصدَ الزرعَ الذي بذرَه؛ لأنهُ ملكُه.

ولو أن إنسانًا أتى بصيدٍ منْ خارجِ الحرمِ وأدخلَه الحرمَ فهل يحرمُ عليهِ ذبحُه، أو لا يحرُم؟ يعني: دخلَ بالصيدِ غيرَ محرمٍ إلى مكةَ، مثالُه اصطادَ أرنبًا في عرفةَ ودخلَ بها إلى مكةَ، فهل يحرمُ عليهِ ذبحُ هذا الأرنبِ؟

نقولُ: اختلفَ العلماءُ على قولينِ؛ فمنَ العلماءِ منْ قالَ: إنهُ إذا دخلَ بالصيدِ في الحرمِ فهو آمنٌ، فلا يجوزُ أن يذبحَه. ومنهمْ من قالَ: إذا دخلَ بالصيدِ فهو ملكه يتصرفُ فيهِ بما شاءَ. وهذا القولُ هو القولُ الراجحُ؛ كما لو غرسَ شجرةً، فالشجرةُ ملكُه يفعلُ بها ما يشاءُ، كذلكَ إذا ملكَ صيدًا خارجَ الحرمِ ودخلَ بهِ الحرمَ فإنهُ ملكُه، فلهُ أن يذبحَه.

ولو أن رجلًا محرمًا خلعَ شجرةً في عرفةَ وهوَ محرمٌ فإن ذلكَ يجوزُ؛ لأن عرفةَ خارجَ الحرمِ، وأشجارُها لا حرمةَ لها.

ولو أن رجلًا محِلًا غيرَ محرمٍ قطعَ شجرةً في مزدلفةَ فذلكَ حرامٌ عليهِ؛ لأن مزدلفةَ منَ الحرمِ، والحرمُ آمنٌ.

فتبينَ بهذا عظمةُ القسمِ بالبلدِ الأمينِ؛ لأن البلدَ أمينٌ، وأهلُه مطمئنونَ.

واللُّقَطَةُ يجدُها الإنسانُ في مكةَ -وهيَ المالُ الضائعُ- لا يجوزُ أن يأخذَها

إلا إذا كان يريدُ أن يَنشُدها مدى الدهرِ، إلى يوم القيامةِ، فإذا ماتَ أوصى أهلَه؛ قالَ: إني وجدتُ لُقطةً في الحرمِ فاطلبُوا أهلَها؛ لأن النبيَّ ﷺ قالَ: «**لا تَحِلُّ سَاقِطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ**»(١)؛ إلا لإنسانٍ يريدُ أن يُعرِّفَها.

واللُّقطةُ في غيرِ مكةَ خذْهَا وعرِّفها سنةً، فإن جاءَ صاحبُها وإلا فهيَ لكَ، لكنَّ مكةَ لا، عرِّفها دائمًا وإلا لا تأخُذْها.

فإذا أنا مثلًا مررتُ بهذهِ اللقطةِ وقلتُ: لا آخذُها لأني سأتعبُ، فمرَّ آخرُ وقالَ مثلما قلتَ: لا آخذُ هذه اللقطةَ لأنهُ سوفَ يتعبُ، ومرَّ الثالثُ ولم يأخُذْها لأنهُ يقولُ: لستُ مُنشدًا لأن ذلكَ يُتْعِبُنِي، ومرَّ عَشَرَةُ أنفارٍ، ومئةُ نفرٍ ولم يأخُذُوها، فإنها تبقَى في مكانِها حتى يرجعَ إليها صاحبُها.

حتى اللقطةُ الضائعةُ هيَ آمنةٌ، فما بالُكم بالذي يسرقُ الحجاجَ؟ نقولُ: يكونُ من كبائرِ الذنوبِ؛ إن النبيَّ ﷺ رأى في النارِ رجلًا يسرقُ الحجاجَ بِمِحجَنِه(٢). والمِحجنُ: عصًا محنيةُ الرأسِ، فإذا جلبَ المتاعَ وفطنَ لهُ صاحبُه قالَ: واللهِ هذا المِحجنُ تعلقَ بهِ بغيرِ إرادتي، وإن لم يفطنْ لهُ أخذَهُ. رآهُ النبيُّ ﷺ يعذَّبُ في النارِ بِمِحجنِه والعياذُ باللهِ؛ لأنهُ يسرقُ بهِ الحجاجَ، فالناسُ في جاهليتِهم يخدمونَ الحجاجَ وهمْ في الجاهليةِ وفي الشركِ ويقدمونَ لهم كلَّ ما يسرُّهم، وهذا يأتي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب في اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة، رقم (٢٤٣٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، رقم (٩٠٤).

يسرقُ الحجاجَ والعياذُ باللهِ! فهذا الرجلُ قد فسقَ قلبُه والعياذُ باللهِ، ولا خوفَ عندَه مِنَ اللهِ، ولا رحمةَ لهُ بالخلقِ، فلا رحمةَ بالمخلوقِ ولا خوفَ منَ الخالقِ.

إذنْ، فهذا البلدُ آمنٌ.

والقسَمُ لا بدَّ فيهِ مِن: مُقسِمٍ، ومقسَمٍ به، ومقسَم عليهِ، وأداةِ قسمٍ. وفي الآيات: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فالمقسِمُ هو اللهُ، والمقسَم عليه ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، والمقسَم بهِ: التينُ والزيتونُ وطورُ سنينَ وهذا البلدُ الأمينُ، وأداةُ القسمِ الواوُ.

فالمقسَمُ عليه: أن اللهَ خلقَ الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ، ولذلكَ لا يوجدُ في الحيوانِ شيءٌ أحسنُ مِن خِلْقَةِ الإنسانِ أبدًا.

وهنا إشكالٌ: القسمُ بغيرِ اللهِ غيرُ جائزٍ، فإذا أقسمَ بالنبيِّ محمدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنهُ لا يجوزُ، فالقسمُ بغيرِ اللهِ لا يجوزُ، بل هو شركٌ، لكنهُ شركٌ أصغرُ، إلا أن يعتقدَ الحالفُ بأن للمحلوفِ بهِ مِنَ التعظيمِ مثلَ ما للهِ، فحينئذٍ يكونُ مشركًا شركًا أكبرَ.

وهنا قسمٌ بالتينِ، وهوَ مخلوقٌ، وكذلكَ الزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين، فكيفَ يُقْسِمُ بالمخلوقِ؟

الجوابُ: أن المقسِمَ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يحكمُ ما يريدُ، لا يُسألُ عما يَفعلُ وهمْ يُسألونَ، فلهُ أن يقسمَ بما شاءَ من خلقِه، ولسنَا الذينَ نَحْكُمُ على اللهِ، بلِ اللهُ هو الذي يحكمُ علينا؛ أرأيتُم السجودَ لغيرِ اللهِ، فهو غيرُ جائزٍ، ألم تعلمُوا أن السجودَ لغيرِ اللهِ في وقتٍ منَ الأوقاتِ كان عبادةً، وتاركُه كافرٌ؛ أمرَ اللهُ الملائكةَ أن

تسجدَ لآدمَ فسجدُوا إلا إبليسَ أبى واستكبرَ وكانَ منَ الكافرينَ، فالسجودُ لغيرِ اللهِ صارَ عبادةً، وصارَ مَن لم يسجدْ هذا السجودَ الذي أمرَ اللهُ بهِ كافرًا.

وقتلُ الولدِ حرامٌ ومنْ كبائرِ الذنوبِ، وفي يومٍ منَ الأيامِ كان قربةً وعبادةً، وهوَ قتلُ إبراهيمَ لابنِه إسماعيلَ، لكنْ لاحِظوا أن رحمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أدركتْ هذا الأمرَ، وتعلمونَ -يا إخواني- أن ابنَه هذا هو وحيدُه، وما لهُ ابنٌ غيرُه، وأتاهُ على كبرٍ، والولدُ إذا كان واحدًا وأتى والدَه على كبرٍ فإنهُ تكونُ منزلتُه في قلبِه منزلةً عظيمةً، قالَ إبراهيمُ لابنِه: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ نداءٌ بلطفٍ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾، ورؤيا الأنبياءِ حقٌّ ووحيٌ، ولم يُرِهِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنه يذبحُ ابنَه إلا لأنهُ أباحَ لهُ أن يذبحَه، بلْ أمرَه، ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ وهو لا يشاورُه في أمرِ اللهِ أبدًا، ولا يمكنُ لإبراهيمَ الخليلِ أن يشاورَ ابنَه في تنفيذِ أمرِ اللهِ، لكنهُ يختبرُه لينظرَ ماذا عندَه، فكانَ جوابُ الابنِ: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ﴾ وهيَ كلماتٌ رقيقةٌ: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ و ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾. قال: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ -رَضِي اللهُ عَنْهُ وصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فإسماعيلُ نبيٌّ منَ الأنبياءِ، ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

وهذهِ -واللهِ- همةٌ عاليةٌ، قالَ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ وهذا الفعلُ مؤكدٌ بالسينِ، لكنهُ لم يأخذْهُ الغرورُ فيجزِمْ، بل قالَ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي استَسْلَما لأمرِ اللهِ، وانقادَا لأمرِ اللهِ ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣] أي تلَّ إبراهيمُ ابنَه للجبينِ، أي على جبينِه، أي على جبهتِه؛ لئلَّا يرى وجهَه وهوَ يصوبُ السكينَ إلى رقبتِه؛ لأن هذا منظرٌ عظيمٌ فظيعٌ؛ لما تلَّهُ للجبينِ حينئذٍ صدقتْ محبةُ إبراهيمَ للهِ عَزَّوَجَلَّ وأنهُ يُقدِّمُ ما يحبُّه اللهُ على كلِّ محبوبٍ.

قال اللهُ تَعَالَى: ﴿وَنَدَيْنَهُ أَن يَتَإِبْرَاهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٤-١٠٥].

إذن، نعودُ إلى أصلِ المسألةِ، وهيَ كيفَ جازَ أن يُقسمَ بالتينِ والزيتونِ وطورِ سنينَ وهذا البلدِ الأمينِ؟

نقولُ: لأن المقسِمَ هو اللهُ، واللهُ تَعَالَى لهُ أن يُقسمَ بما شاءَ مِن خلقِه؛ لأنهُ يَحكمُ ولا يُحكمُ عليهِ، ويُجيرُ ولا يُجارُ عليهِ.

قالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ [التين:٤] الإنسانُ المرادُ بِهِ الجنسُ، يعني خلقَ اللهُ الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ في خلقتِه، وفي فطرتِه، وكلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرةِ؛ على التوحيدِ الخالصِ، وعلى معرفةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وعلى الإيمانِ بهِ، لكنَّ البيئةَ تؤثرُ؛ قالَ النبيُّ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[1]. أي يجعلانِه يهوديًّا أو نصرانيًّا أو مجوسيًّا، فكلُّ إنسانٍ مخلوقٌ في أحسنِ تقويمٍ؛ في البدنِ، وفي الهيئةِ، وفي العقلِ، وفي الإدراكِ، وفي الفطرةِ، فالإنسانُ لو رجعَ إلى فطرتِه لعَرَفَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وآمنَ بهِ.

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَهُ أَسْفَلَ سَفِلِينَ﴾ [التين:٥] الضميرُ في ﴿رَدَدْنَهُ﴾ يعودُ على الإنسانِ، ردَّهُ اللهُ بعدَ أحسنِ تقويمٍ إلى أسفلِ السافلينَ، وذلكَ الكافرُ، فالكافرُ في أسفلِ السافلينَ، قالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم (١٣٥٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم (٢٦٥٨).

[الأنفال:٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦]. فما خلقَ اللهُ أحدًا شرًّا منَ الكافرِ، سواء منَ اليهودِ أوِ النصارى أو غيرِهم. وقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

ولهذا كانتِ الآيةُ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، ولم يقلْ: مِن أسفلِ، بل هو أسفلُ السافلينَ.

قولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦].

ثم جعلَ الاستثناءَ -والحمدُ للهِ- وفرَّج اللهُ للمؤمنِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، استثنى اللهُ تَعَالَى مَنِ اتَّصَفَ بوصفينِ عظيمينِ؛ أولهما: الإيمانُ، والثاني: العملُ الصالحُ.

الإيمانُ كما في حديثِ عمرَ بنِ الخطابِ في قصةِ جبريلَ، حينَ سألَ جبريلُ النبيَّ ﷺ، وجبريلُ أفضلُ الرسلِ منَ الملائكةِ، ومحمدٌ أفضلُ البشرِ والملائكةِ، قالَ لهُ جبريلُ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١).

أركانُ الإيمانِ ستةٌ:

أولًا: الإيمانُ باللهِ:

الإيمانُ باللهِ: تؤمنُ باللهِ أي بأنَّ اللهَ تعالى خالقُ كلِّ شيءٍ، ومالكُ كل شيءٍ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم (٩).

ورازقُ كل شيءٍ، بيدِه الخيرُ، يحيي ويميتُ، وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، تؤمنُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ بأنهُ منفردٌ بالربوبيةِ، وتؤمنُ أيضًا بأنهُ منفردٌ بالألوهيةِ؛ لأنكَ تقولُ كلَّ صلاةٍ: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ. فكلُّنا نشهدُ، ونسألُ اللهَ أن يملأَ قلوبَنا بها: أشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ، أي أعترفُ بلساني، وأوقنُ بقلبِي أنهُ لا معبودَ حقٌّ إلا اللهُ، فكلُّ المعبوداتِ باطلةٌ، قالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]. أتت (هُوَ) التي هِيَ ضميرُ الفصلِ للتوكيدِ.

كذلكَ أيضًا تؤمنُ بانفرادِه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بأسمائِه وصفاتِه، وأنهُ لا شريكَ لهُ في صفاتِه، وأنهُ ليسَ كمثلِه شيءٌ، وأن صفاتِه حقٌّ، وأنها ثابتةٌ، ولهذا قالَ العلماءُ: **التوحيدُ ثلاثةُ أقسامٍ:**

الأولُ: توحيدُ الربوبيةِ.

والثاني: توحيدُ الألوهيةِ

والثالثُ: توحيدُ الأسماءِ والصفاتِ.

وهيَ مجتمعةٌ في قولِ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]:

توحيدُ العبوديةِ منَ الآيةِ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

توحيدُ الألوهيةِ، وهوَ العبادةُ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ﴾.

توحيدُ الأسماءِ والصفاتِ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ يعني لا تعلمُ لهُ مساميًا وشبيهًا ونظيرًا، أبدًا.

وأما مَن زادَ قسمًا رابعًا: توحيدُ الحاكميةِ، فقدْ أخطأَ، فليسَ هناكَ توحيدُ الحاكميةِ، فالحكمُ منْ مقتضياتِ الربوبيةِ، والربُّ لا بد أن يكونَ حاكمًا؛ حاكمًا بين العبادِ وفي العبادِ، ولا حاجةَ لزيادةِ هذا، ولم ينصَّ عليهِ علماءُ أجلاءُ ذهبُوا منذُ مئاتِ السنين ولم يأتُوا بهذا القسمِ الرابعِ، فهو محدثٌ ولا داعي لهُ؛ لأن الحكمَ من مقتضياتِ الربوبيةِ، فإذا كان الربُّ هو المنفردَ بالخلقِ والمُلكِ والتدبيرِ فلا حاجةَ إلى أن نأتيَ بالحاكميةِ، إلا أن يُرادَ بها معنًى مبطنٌ، فلا نَدري، لكن إذا أُريدَ بها المعنى الظاهرُ منْ كلمةِ (حكم) فللَّهِ الحكمُ لا شكَّ: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨]، لكن كونُه لهُ الحكمُ لا يخرجُ عنِ الربوبيةِ؛ لأن الربَّ هو الخالقُ المالكُ المدبرُ.

زادَ بعضُهم توحيدَ المتابعةِ، وهذا أيضًا غلطٌ؛ لأن توحيدَ المتابعةِ لا علاقةَ لهُ بالعبادةِ إلا بتصحيحِها إذا كانتْ على الطريقِ التي جاءَ بها هذا المتابعُ، صحيحٌ أنه يجبُ علينا أن نُوحدَ رسولَ اللهِ ﷺ بحيثُ لا نتابعُ غيرَه إذا خالفَ ما جاءَ بهِ الرسولُ.

ولهذا لو قالَ قائلٌ: هلِ التقليدُ حلالٌ أم حرامٌ؟

قلنا: أما مَن قَدَّمَ مَتْبُوعَه على رسولِ اللهِ ﷺ فهو حرامٌ، والإنسانُ قد يخطئُ.

فمثلًا تقولُ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ كذا، فيقولُ: لا، قالَ الإمامُ كذا وكذا، سبحانَ اللهِ! مَن إمامُنا نحنُ المسلمينَ؟ محمدٌ رسولُ اللهِ، هذا إمامُنا، فأيُّ أحدٍ يعارضُ قولَ رسولِ اللهِ ﷺ لقولِ أحدٍ كائنًا مَن كان فهو على خطرٍ عظيمٍ.

يُذكرُ عن عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهُ قالَ: «**يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ**

حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»(١).

فالذِي عارَضَ قولَ الرسولِ بقولِ أبي بكرٍ وعمرَ يوشكُ أن تنزلَ عليهِ حجارةٌ منَ السماءِ.

إذن، الذي يعارِضُ قولَ الرسولِ ﷺ بقولِ مَن هو دونَ أبي بكرٍ وعمرَ بمراحلَ عظيمةٍ فإنهُ ينزلُ عليهِ أكبرُ منَ الحجارةِ! لأن هذا أعظمُ؛ أن تُعارضَ قولَ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقولِ أحدٍ.

إذنْ، لدينَا توحيدانِ، لا حاجةَ لهما، زائدانِ على ما ذكرَ العلماءُ، وهما توحيدُ الحاكميةِ وتوحيدُ المتابعةِ، فلا حاجةَ لهما إطلاقًا، اللهمَّ إلا أن يكونَ وراءَ ذلكَ شيءٌ مبطنٌ، أعني كلمةَ (الحاكميةِ)، فهذا لا نَدري عنهُ، لكن إذا كان الحُكمُ بمعنَى القضاءِ بينَ الناسِ، وفي الناسِ، فهذا لا يخرجُ عن توحيدِ الربوبيةِ.

ثانيًا: الإيمانُ بالملائكةِ:

والملائكةُ عالَمٌ غَيبيٌّ ليسَ معلومًا لنا إلا ما أعلمَنَا اللهُ بهِ ورسولُه، خُلقوا من نورٍ، وخُلِقَ الجنُّ من نارٍ، ولهذا طبيعتُهم الطيشُ، كما أن النارَ تتلهبُ ليسَ لها قرارٌ، فالجنُّ خُلِقُوا منَ النارِ، والملائكةُ خلقُوا منَ النورِ، ونحنُ البشرُ مِن ترابٍ أصلًا، وصارَ طينًا، وصارَ صلصالًا، وصارَ جسدًا بإذنِ اللهِ، قالَ تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر:٦٧].

والملائكةُ عالمٌ غيبيٌّ، وهمْ رسلٌ كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٧، رقم ٣١٢١).

[فاطر:١]، ولا نعلمُ مِن أسمائِهم وصفاتِهم إلا ما أعلمَنَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فنعرفُ جبريلَ، وميكائيلَ، وإسرافيلَ، ومالكًا.

وجبريلُ ﷺ موكَّلٌ بالوحيِ، يرسلُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى أنبيائِه ورسلِه، وميكائيلُ موكَّلٌ بالقَطرِ والنباتِ؛ بالأمطارِ والنباتِ، وإسرافيلُ موكَّلٌ بالنفخِ في الصورِ.

إذنْ، كلُّ واحدٍ منْ هؤلاءِ الثلاثةِ الملائكةِ موكَّلٌ بما فيهِ الحياةُ، فجبريلُ موكَّلٌ بما فيهِ حياةُ القلوبِ، وهوَ الوحيُ؛ لأن الوحيَ -يا إخواني- فيهِ حياةُ القلوبِ؛ قالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] وكذلكَ أوحينَا إليكَ روحًا مِن أمرِنا.

وإسرافيلُ موكَّلٌ بما فيهِ حياةُ الأبدانِ، وذلكَ يومَ البعثِ، وتلكَ الحياةُ التي لا مُنتهى لها، فالحياةُ الأخرى ليسَ لها منتهًى؛ أهلُ النارِ في النارِ أبدًا، وأهلُ الجنةِ في الجنةِ أبدًا.

وميكائيلُ موكَّلٌ بما فيهِ حياةُ الأرضِ؛ حياةُ النباتِ.

ولهذا انظرُوا اختيارَ النبيِّ ﷺ هؤلاءِ الثلاثةُ يَفتتِحُ بذكرِهم صلاةَ الليلِ: «اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»(١).

فكانَ النبيُّ ﷺ يستفتحُ صلاةَ الليلِ بهذا الاستفتاحِ، فما يقولُ: سبحانكَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠).

اللهمَّ وبحمدِك، أو يقولُ: اللهمَّ باعدْ بينِي وبينَ خطايَايَ، فيفتتحُ صلاةَ الليلِ بهذا لأنها أولُ صلاةٍ يقومُ بها بعدَ بَعثِه، وأقولُ: أولُ صلاةٍ يقومُ بها بعدَ بعثِه؛ لأن النومَ موتٌ، فهو موتٌ أصغرُ، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِى لَمۡ تَمُتۡ فِى مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٤٢]. والأخرى هيَ التي توفَّاها في منامِها.

ومالكٌ وظيفتُه أنهُ خازنُ النارِ، ولهذا يقولُ أهلُ النارِ، أعاذَنا اللهُ وإياكُم منها: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]، فليس هناك راحةٌ، وليسَ هناكَ موتٌ يستراحُ فيهِ، ولا حياةٌ كريمةٌ، ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى:١٣].

بَقِيَ أحدٌ منَ الملائكةِ معروفٌ وهوَ رضوانُ، هذا إذا صحَّ أن رضوانَ خازنُ الجنةِ.

وهناكَ منكرٌ ونكيرٌ اللذانِ يسألانِ الإنسانَ في قبرِه.

وهناكَ ملَكُ الموتِ، واشتُهرَ عندَ البعضِ أن ملكَ الموتِ اسمُه عزرائيلُ، وهذا ليسَ بصحيحٍ، إنما ملَكُ الموتِ كما سماهُ اللهُ: ﴿۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السجدة:١١]، ولا نُسمِّي أحدًا غائبًا عنا بغيرِ ما نعلمُ، فأمورُ الغيبِ نتلقاهَا منَ الوحيِ، فلا نعلمُ.

وهناكَ ملائكةٌ تختلفُ وظائفُهم عنْ هؤلاءِ الثلاثةِ الذينَ أُخبِرنا بوظائفِهم، وهمْ جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ، وكذلكَ مالكٌ خازنُ النارِ، وكذلكَ ملَكُ الموتِ الذي يقبضُ الأرواحَ، أقولُ: هناكَ ملائكةٌ سياحونَ في الأرضِ يلتمسونَ حِلقَ الذكرِ، فإذا وجدُوا حلقةً حَفُّوهُم إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وهناكَ ملائكةٌ يحفظونَ الإنسانَ؛ حفظةٌ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١]، اللهمَّ لكَ الحمدُ، الملائكةُ مسخرونَ لنا يحفظونَنا، ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١].

هؤلاءِ الحفظةُ يجتمعونَ في صلاةِ الفجرِ، هؤلاءِ ينزلونَ وهؤلاءِ يصعدونَ إلى الربِّ عَزَّوَجَلَّ، وفي صلاةِ العصرِ، ولهذا كان أشرفُ الصلواتِ صلاتانِ: صلاةُ العصرِ وصلاةُ الفجرِ، التي قالَ عنهما رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**»(١).

والصلاةُ قبلَ طلوعِ الشمسِ هيَ الفجرُ، والصلاةُ قبلَ غروبِها هيَ العصرُ.

إذنْ، هاتانِ الصلاتانِ أفضلُ الصلواتِ، وأفضلُ الصلاتينِ الفجر والعصر، وصلاةُ العصرِ هيَ الصلاةُ الوسطَى التي خصَّها اللهُ بالذكرِ فقالَ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ أي العصر ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٣).

ولهذا -يا أخِي- استحضرْ وأنتَ تصلي العصرَ أنكَ تمتثلُ أمرَ اللهِ الذي أمركَ بالمحافظةِ على صلاةِ العصرِ أمرًا خاصًّا.

فإذا جاءَ إنسانٌ يُصلي ونوى أن يصليَ الصلاةَ الوسطى ولم ينوِ العصرَ فإنهُ تصحُّ صلاتُه؛ لأن الصلاةَ الوسطى هيَ صلاةُ العصرِ، وهكذا قالَ النبيُّ ﷺ[1].

وهناكَ ملائكةٌ أخصُّ مِن هؤلاءِ الملائكةِ، وهمْ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]. وقالَ تعَالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧-١٨]. نسألُ اللهَ النجاةَ، فكلُّ إنسانٍ عن يمينِه وعنْ شمالِه ملكانِ يكتبانِ ما يقولُ وما يفعلُ، ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، والفعلُ مِن بابِ أولى، فكلُّ كلمةٍ تتفوَّهُ بها تُكتبُ.

قيلَ للإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إمامِ أهلِ السنةِ، وهوَ مريضٌ ويئِنُّ: إن طاوسًا كان يكرَهُ الأنينَ في المرضِ، فلما قيلَ لأبي عبدِ اللهِ أحمدَ بنِ حنبلٍ ذلكَ أمسكَ عنِ الأنينِ[2]. اللهمَّ ارضَ عنهُ، هكذا يكونُ الأئمةُ، والمرادُ بأنينِ المريضِ الأنينُ الذي يوحِي بالتشكِّي، أما الأنينُ الطبيعيُّ فهذا لا يُكتبُ على الإنسانِ.

فكلُّ كلمةٍ تقولُها تُكتبُ يا أخي، ولو أن ملِكًا منَ الملوكِ جعلَ على صدرِك

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، رقم (٢٩٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، رقم (٦٢٧).

(٢) ذكره أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٢/ ١١٩).

مسجلًا يسجلُ كلَّ ما تقولُ، وكلَّ ما تفعلُ، ثم سمعتَ هذا المسجلَ بعدَ يومٍ ستجدُ عليكَ شيئًا كثيرًا، وليسَ قليلا، فما أكثرَ كلامَنا، وما أكثرَ أفعالَنا، وهذا يكتبُ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

أقولُ: كلُّ قولٍ يكتبُ، ونستفيدُ أن كلَّ قولٍ يكتبُ منَ الآيةِ من قولِه: ﴿مِن﴾ فـ(من) في سياقِ النفيِ تفيدُ العمومَ، وهيَ قاعدةٌ نحويةٌ مفيدةٌ. فالمعنى: ما يلفظُ من قولٍ أيِّ قولٍ يقولُه.

وانظرْ إلى آيةٍ أخرى نظيرَتها: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ﴾ [المائدة:١٩] يعني لا بشير قليل ولا كثير.

إذنْ، كلُّ قولٍ يُكتبُ، نسألُ اللهَ أن يعاملَنا وإياكُم بعفوِه، فالمسألةُ شديدةٌ، والمسألةُ عظيمةٌ، ولهذا كان عبادُ الرحمنِ لا يشهدونَ الزورَ وإذا مرُّوا باللغوِ مرُّوا كرامًا، يحفظونَ أنفسَهم، أما نحنُ فنسألُ اللهَ أن يعاملَنا بالعفوِ، فما أكثرَ اللغوَ، وما أكثرَ الزورَ، والزورُ كلُّ قولٍ محرمٍ.

وهناكَ ملائكةٌ موكلةٌ بحفظِ رُوحِ الإنسانِ بعدَ موتِه، فإذا حضرَ الرجلَ الموتُ نزلَ عليهِ ملائكةٌ منَ السماءِ؛ إن كان مؤمنًا -جعلنِي اللهُ وإياكُم منهمْ، وختمَ لي ولكُم بالخيرِ- فإن هؤلاءِ الملائكةَ يكونونَ بيضَ الوجوهِ، بيضَ الثيابِ، مَن رآهُم سُر بهمْ، فيأخذونَ رُوحَه إذا قبضَها ملَكُ الموتِ يجعلونَها في كفنٍ مِنَ الجنةِ وحَنوطٍ منَ الجنةِ، ويصعدونَ بها إلى اللهِ، وتفتحُ لها أبوابُ السماءِ حتى تصلَ إلى الربِّ عَزَّوَجَلَّ، اللهمَّ اجعلْ أرواحَنا تصلُ إليكَ يا ربَّ العالمينَ، ثم يقولُ عَزَّوَجَلَّ:

«اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ»[١].

والكافرُ والعياذُ باللهِ إذا حضرَهُ الموتُ نزلَ عليهِ ملائكةٌ منَ السماءِ سودُ الوجوهِ، سودُ الثيابِ، لا يُسرُّ بهم مَن رآهُم، فإذا قبضَ ملَكُ الموتِ رُوحَه فإذا همْ قَد هَيَّؤُوا كفنًا منَ النارِ وحنوطًا منَ النارِ، ثم يصعدونَ بها إلى السماءِ، ولكن لا تفتحُ لها أبوابُ السماءِ، فيطرحُ طرحًا إلى الأرضِ، ويُكتبُ في أسفلِ السافلينَ والعياذُ باللهِ. أعاذنَا اللهُ وإياكُم من هذا.

فالمهمُّ أن الملائكةَ -عليهمُ الصلاةُ والسلامُ- يجبُ علينا أن نؤمنَ بهمْ، وأنهمْ حقٌّ.

وهلْ هم أجسادٌ أو أرواحٌ؟

نقولُ: أجسادٌ، إن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رأى جبريلَ على الصورةِ التي خُلِقَ عليهَا له ستُّ مئةِ جناحٍ قد سدَّ الأفقَ[٢]. لا إلهَ إلا اللهُ! سبحانَ الخالقِ العليمِ! ومرةً أتى إلى النبيِّ ﷺ في صورةِ رجلٍ[٣]؛ لأن اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

فهذا الإيمانُ بالملائكةِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ آمِينَ وَالمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، رقم (٣٢٣٥)، و مسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]، رقم (١٧٧).

مسألةٌ: الملائكةُ أقوى أوِ الجنُّ؟

الجوابُ: الجنُّ ما همْ شيءٌ، فالملائكةُ أقوى، والدليلُ: قال سليمانُ ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٨]، أي: عرشِ بلقيسَ ملكةِ اليمنِ، وكان لها عرشٌ عظيمٌ، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: قويٌّ شديدٌ ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، وكانَ لهُ عادةٌ يقومُ فيها، يعني له وقتٌ محددٌ؛ لأنهُ قد نظمَ وقتَه؛ فلهُ وقتٌ محددٌ يقومُ فيهِ، ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٩] أي مؤتمنٌ، ما يأخذُ شيئًا.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فهو أسرعُ، فقبلَ أن يرتدَّ إليهِ طرفُه أسرعَ مِن قبلِ أن يقومَ مِنْ مقامِه فقبلَ أن يرتدَّ إليهِ طرفُه هذه لحظةٌ، ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ انتبهْ للفاءِ، جاءتِ الفاءُ الدالةُ على التعقيبِ، ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ ولم يقلْ: فلما رآهُ عندَه؛ لأن كلمةَ (مستقرًّا) تعطي معنًى غيرَ مجردِ الوجودِ، مستقرًّا يعني فيهِ قرارٌ تامٌّ، كأنهُ قد وضعَ قبلَ سنواتٍ، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠].

قالَ العلماءُ: إنما جاءَ بهذه السرعةِ لأن الذي عندَه علمٌ منَ الكتابِ دعا اللهَ عَزَّوَجَلَّ فحملتْهُ الملائكةُ منَ اليمنِ إلى الشامِ في لحظةٍ، طرفةِ عينٍ، فتبينَ بهذا أن الملائكةَ أقوى منَ الجنِّ، صحيحٌ أن الجنَّ أقوى منَ البشرِ، لكنهُم ليسُوا أقوى منَ الملائكةِ.

ومِن ثَمَّ أقولُ: إن اللهَ تعالى فوقَ الجميعِ، وهوَ أقوى مِن كلِّ شيءٍ؛ كما قالَ تَعالَى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، قال الله

تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، فهو أقوى من كلِّ شيءٍ.

إذنْ، يا أخي اعتمدْ على اللهِ، وإياكَ أن تتخيلَ أن الجنَّ قدِ اعتدَوا عليكَ، أو أنهمْ فعلُوا، أو كلما أصابَكَ شيءٌ كان الذي قامَ بهِ جنيٌّ وأصابَكَ بمسٍّ، فالآنَ ابتُلي الناسُ بهذا لأنهمْ قلَّ توكلُهم على اللهِ، وضعُفَ توكلُهم على اللهِ، فصارَ كلما أصيبَ الإنسانُ بزكمةٍ قالوا: بهِ مسٌّ منَ الجنِّ. فأينَ الجنُّ عنِ الأولينَ؟! لكنِ الجنُّ تتسلطُ على كلِّ مَن خافَ منها، وضعُفَ توكُّلُه على اللهِ، لكنْ إذا توكلتَ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ فهو نعمَ المولى ونعمَ النصيرُ، يمنعُك مِن هؤلاءِ الجنِّ، ويحميك منهمْ؛ لأن اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى هو الذي خَلَقَ الجنَّ وقوتَهم، ولهُ كلُّ شيءٍ، فإياكَ أن تتوهمَ أو يصيبَك هذا الخبالُ والتخيلُ، واستعملِ الأورادَ الواردةَ عنِ النبيِّ ﷺ؛ فمَن قرأَ آيةَ الكرسيِّ في ليلةٍ لم يزلْ عليهِ منَ اللهِ حافظٌ ولا يقربُهُ شيطانٌ حتى يصبحَ[(١)]، وآيةُ الكرسيِّ سهلةٌ وكلٌّ يقرؤُها: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فإذا قرأتَها في ليلةٍ فقدْ أخبرَ الصادقُ المصدوقُ الذي لا ينطقُ عنِ الهوى أنهُ لا يقربُكَ شيطانٌ، ولا يزالُ عليكَ منَ اللهِ حافظٌ حتى تصبحَ، فلا تُهمِلْهَا يا أخي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا، فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، رقم (٢٣١١).

واقرأْها كلَّ ليلةٍ، بل إنهُ ينبغِي للإنسانِ أن يقرأَها دُبرَ كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ، فيقرأُ آيةَ الكرسيِّ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١].

ثالثًا: الإيمانُ بالكتبِ:

ذكرنَا الإيمانَ باللهِ وملائكتِه، والثالثُ: كتبُه، والكتبُ جمعُ كتابٍ، وأشرفُ الكتبِ على الإطلاقِ وأفضلُها وأعمُّها وأقومُها وأبقاهَا هو القرآنُ الكريمُ، الذي جعلَهُ اللهُ تَعَالَى مُصَدِّقًا لما بينَ يديهِ منَ الكتابِ، ومهيمنًا عليهِ، والقرآنُ يحكمُ ولا يُحكمُ عليهِ، ولهُ الهيمنةُ على جميعِ الكتبِ، فما في الكتابِ العزيزِ القرآنِ فإنهُ ناسخٌ لجميعِ الأديانِ، ولا قيامَ للأديانِ بعدَ هذا الدينِ أبدًا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

ولقدْ ضلَّ أتمَّ الضلالِ، لقد ضلَّ أتمَّ الضلالِ، لقد ضلَّ أتمَّ الضلالِ، أقولُها في هذا المكانِ، وفي هذه الأيامِ الفاضلةِ، وفي استقبالِ حجِّ بيتِ اللهِ الحرامِ: لقدْ ضلَّ مَن حاولَ أن يجمعَ بينَ الأديانِ الثلاثةِ؛ بينَ اليهوديةِ والنصرانيةِ والإسلامِ، فهذا أضلُّ الضلالِ، بل مَنِ اعتقدَ أن دينًا سوى الإسلامِ قائمًا يرضَاهُ اللهُ فهو كافرٌ؛ لأنهُ مكذبٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فقدْ قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

وقالَ تَعَالَى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، ونحنُ لا يمكنُ ولا يحقُّ لنا أن نُكفرَ مَن لم يكفرْهُ اللهُ، ولا أن نقولَ عن شخصٍ: هو مؤمنٌ وهوَ كافرٌ باللهِ

أبدًا، فالتكفيرُ والتفسيقُ وعدمُ ذلكَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فإذا قالَ ربُّنا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ثم قالَ آخرُ: ومنْ تهودَ أو تنصرَ قُبلَ منهُ؛ فيكونُ هذا تكذيبًا، وإذا قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ وقالَ قائلٌ: مَن تهودَ أو تنصرَ فدينُه مقبولٌ فهذا تكذيبٌ للهِ، وهذا معناهُ أن تقلَّ الغيرةُ على دينِ اللهِ، وأن يُنسخَ مِن قلوبِنا تعظيمُ الإسلامِ، وأن يكونَ هؤلاءِ الكفارُ منَ اليهودِ والنصارى وغيرِهم على حدٍّ سواءٍ؛ لأنهُ إذا حاولَ اليهودُ والنصارى أن يجعلوا الدينَ الإسلاميَّ مقارنًا لهم، وأنَّ اختلافَ دينِ الإسلامِ معَ اليهوديةِ والنصرانيةِ كاختلافِ المالكيةِ معَ الشافعيةِ والحنبليةِ والحنفيةِ، فغدًا سيقالُ أيضًا: هاتِ الأديانَ الأخرى، فهيَ أيضًا لا تخالفُ الإسلامَ.

رابعًا: الإيمانُ بالرسلِ:

الإيمانُ بالرسلِ -عليهمُ الصلاةُ والسلامُ- أن تُؤْمِنَ بأنهم صَادِقُونَ فيما جاؤوا بهِ مِنْ عندِ اللهِ، وأن أولَهم نوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وآخرَهم محمدٌ ﷺ، وليسَ قبلَ نوحٍ رسولٌ، وعلى هذا فمَن زعمَ أن إدريسَ قبلَ نوحٍ فقد أخطأَ؛ لقولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، قال: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

وفي حديثِ الشفاعةِ المشهورِ أن أهلَ الموقفِ يقولونَ: «**ائْتُوا نُوحًا، أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ**»(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

أما إدريسُ فالظاهرُ -واللهُ أعلمُ- أنهُ مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ، أما أن يقالَ: إنهُ قبلَ نوحٍ فهذا خطأٌ مخالفٌ لظاهرِ الكتابِ والسنةِ، بل لظاهرِ القرآنِ وصريحِ السنةِ؛ لأن قولَ الناسِ: «**ائْتُوا نُوحًا، أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ**» صريحٌ في هذا.

وكيفَ نؤمنُ بالرسلِ؟

يجبُ أن نؤمنَ بأن جميعَ الرسلِ صادقونَ مصدوقونَ، وأنهمْ من عندِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولكنْ هلْ نتبعُ شرائعَهم؟

الجوابُ: لا، لا نتبعُ شرائعَهم؛ لأن شريعةَ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نَسَخَتْ جميعَ الشرائعِ، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨].

وقالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

فالشريعةُ الإسلاميةُ نَسختْ جميعَ الشرائعِ، لكنْ إذا جاءتِ الشرائعُ عن طريقٍ صحيحٍ لا يخالفُ شريعتَنا، فهلْ نعتبرُها شريعةً لنا، أو لا نعتبرُها؟

في هذا للعلماءِ قولانِ:

القولُ الأولُ: أن شريعةَ مَن قبلَنا شريعةٌ لنا ما لم يَردْ شرعُنا بخلافِه.

والقولُ الثاني: أن شريعةَ مَن قبلنَا ليستْ شريعةً لنا حتى يأتي شرعُنا بوفاقِه.

وهذا يَنْبَنِي عليهِ مسائلُ كثيرةٌ، فاللهُ تعالى قد قصَّ علينا في القرآنِ قصصًا كثيرةً عمن قبلَنا، فهل نعتبرُ بما جاءَ في هذا أو لا، فهذا ينبنِي على الخلافِ.

ذكرَ اللهُ تَعالَى في قصةِ أصحابِ الكهفِ: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ [الكهف:١٩].

فنأخذُ منْ هذا جوازَ التوكيلِ؛ أنه يجوزُ للجماعةِ أن يُوكِّلوا واحدًا منهمْ؛ لأنهم قَالوا: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾.

ثانيًا: أنه يجوزُ تفويضُ الوكيلِ دونَ تحديدٍ لهُ؛ لقولِه: ﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾.

فنقولُ: إنه يجوزُ لنا إذا كنا جماعةً أن نوكِّلَ جماعةً منا يأتونَنا بطعامٍ أو شرابٍ أو لباسٍ أو فراشٍ؛ استدلالًا بقصةِ أصحابِ الكهفِ.

وكذلكَ أيضًا ما وردَ عنْ أيوبَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حينَ أصابَه الضُّرُّ وحصلَ بينَه وبينَ زوجتِه ما أوجبَ أن يحلفَ أن يضربَها مئةَ جلدةٍ، فأفتاهُ اللهُ قال: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ [ص:٤٤]. فهل نقولُ: إن هذا مثلا جائزٌ في شريعتنا؟ فنقولُ: ينبغي على الخلافِ؛ إن قلنا: شريعةُ مَن قَبلنا شريعةٌ لنا ما لم يَردْ شرعُنا بخلافِه، قلنَا: نعمْ، وإذا قلنَا: ليسَ شريعةً لنا إلا أن يردَ شرعُنا بوفاقِه، قلنَا: ليسَ بحجةٍ.

والقولُ الراجحُ في هذه المسألةِ أن شريعةَ مَن قبلَنا شريعةٌ لنا، ما لم يَردْ شرعُنا بخلافِها.

ودليلُ ذلكَ قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

وقولُه تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف:١١١].

وعلى هذا فجميعُ ما تستنبطُه منَ الفوائدِ والأحكامِ فيما قصَّ اللهُ علينَا منْ قصصِ الأنبياءِ فهو حجةٌ، ما لم يَردْ شرعُنا بخلافِه، فإن وردَ شرعُنا بخلافِه فإن شرعَنَا ناسخٌ لكلِّ ما سبقَ.

إذنِ، الإيمانُ بالرسلِ نؤمنُ بأنهم صادقونَ مصدوقونَ، وأن ما جاؤوا بِهِ حقٌّ، ولكن بالنسبةِ لاتباعِهم فإننا لا نتبعُ مِن شرائعِهم ما يخالفُ شريعتَنا.

خامسًا: الإيمانُ باليومِ الآخرِ:

الإيمانُ باليومِ الآخِر أحدُ أركانِ الإيمانِ الستةِ، واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقرنُ الإيمانَ باليومِ الآخرِ بالإيمانِ بهِ دائمًا؛ يعني كثيرًا ما يذكرُ الإيمانَ باللهِ واليومِ الآخرِ.

فهلِ الإيمانُ باليومِ الآخرِ أشدُّ منَ الإيمانِ بالرسلِ؟

نقولُ: لا، هو مما جاءتْ بهِ الرسلُ، لكن لا يستقيمُ للإنسانِ عملٌ إلا إذا آمَنَ باليومِ الآخرِ؛ لأنهُ إذا لم يؤمنْ باليومِ الآخِرِ فكيفَ يعملُ! فهؤلاءِ الذينَ ينكرونَ البعثَ ويقولونَ: ليسَ هناكَ يومٌ آخِرٌ لا يمكنُ أن يعملُوا عملًا صالحًا أبدًا، وإنما يتبعونَ أهواءَهم.

واليومُ الآخِرُ لهُ أسماءٌ كثيرةٌ؛ سميَ باليومِ الآخِرِ -بالكسر- لأنهُ يومٌ لا يومَ بعدَه، وليسَ الآخَر؛ لأن الآخَر معناها المغايِرُ، ولا يلزمُ أن يكونَ هو الأخيرَ، لكنِ اليومُ الآخِرُ يعني الأخيرَ، فلا يومَ بعدَه، إذ إن الناسَ إذا حُشروا فإما إلى

الجنةِ وإما إلى النارِ، وكلٌّ مِن أهلِ الجنةِ والنارِ خالدٌ فيها هو فيهِ أبدَ الآبدينَ.

وهناكَ كلمةٌ يقولُها بعضُ الناسِ، يقولُ: فلانٌ ماتَ ثم نُقل إلى مثواهُ الأخيرُ. يعني إلى القبرِ، وهذهِ الكلمةُ ليستْ صحيحةً، فلو أن الإنسانَ يعتقدُ مدلولَها لكانَ كافرًا؛ لأنه إذا جعلَ القبرَ مثواهُ الأخيرَ فمعناهُ ليسَ هناكَ بعثٌ، فهذهِ الكلمةُ التي نسمعُها دائمًا أو نراها تكتبُ في الصحفِ دائمًا يجبُ أن نحترزَ منها، ويجبُ أن نبينَ أنها كلمةٌ باطلةٌ لا يجوزُ إطلاقُها أبدًا؛ لأن مدلولَها لو أن الإنسانَ أقرَّ بهِ لكانَ كافرًا منكرًا للبعثِ.

ومن ثَمَّ **أقولُ**: يجبُ علينا أيها الإخوةُ أن نتأملَ فيما يقعُ على ألسنِ العامةِ منَ الكلماتِ التي قد تكونُ خطيرةً جدًّا، ونحنُ نأخذُها تقليدًا دونَ تَروٍّ، فكثيرٌ منَ الناسِ يقولُ: لو حصلَ زلزالٌ لا سمحَ اللهُ لكانَ كذا وكذا. وهذا غلطٌ، فلا تقلْ: لا سمحَ اللهُ، فهلْ أحدٌ يُكرهُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حتى نقولَ: يسمحُ أو لا يسمحُ! نقولُ: لا، لكنْ قلْ: لا قدَّرَ اللهُ، منَ التقديرِ، ولا تقلْ: لا سمحَ اللهُ.

فعلى كلِّ حالٍ هناكَ كلماتٌ تَرِدُ على ألسنِ الناسِ لا يقيمونَ لها وزنًا، ولا يفكرونَ فيها.

واليومُ الآخِرُ سُمِّيَ باليومِ الآخِرِ لأنهُ لا يومَ بعدهُ، ويُسمى يومَ القيامةِ؛ لأمورٍ ثلاثةٍ:

الأولُ: أن الناسَ يقومونَ من قبورِهم لربِّ العالمينَ؛ كما قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦].

الثاني: أنهُ يقومُ بهِ الأشهادُ، الرسلُ تشهدُ على أُمَمِها أَنَّهمْ بَلَّغُوهم شريعةَ اللهِ، والعلماءُ يشهدونَ أيضًا، يشهدونَ للرسلِ بأنهم بَلَّغُوا، وعلى العامةِ بأنهمْ بلغُوا، بلِ الجوارحُ تشهدُ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤].

إذنْ، سُمِّيَ يومَ القيامةِ لأنهُ يقومُ الناسُ فيهِ من قبورِهم لربِّ العالمينَ، ثانيًا: يقومُ بهِ الأشهادُ.

الثالثُ: يقامُ فيهِ العدلُ؛ لقولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧]، فيقامُ العدلُ في ذلكَ اليومِ، ويُقْتَصُّ للمظلومِ منَ الظالمِ، ولو كان أباهُ، أو ابنَه، بل يُقْتَصُّ للمظلومِ منَ الظالمِ حتى بالحيوانِ، فيُقْتَصُّ للشاةِ الجَلْحَاءِ منَ الشاةِ القرناءِ[1]، والشاةُ القرناءُ لها قرونٌ تنطِحُ الشاةَ الجَلْحَاءَ التي ليسَ لها قرونٌ، فإذا كان يومُ القيامةِ فإن اللهَ يقضي بَيْنَهُما، فيقامُ العدلُ.

ولليومِ الآخِرِ أسماءٌ أُخرى لا يتسعُ المقامُ لذكرِها.

الإيمانُ بكلِّ ما أخبرَ بهِ النبيُّ ﷺ مما يكونُ بعدَ الموتِ:

ولا يَكفي أن نؤمنَ فقطْ بأن الساعةَ ستقومُ وأن الناسَ سيبعثونَ، ولكنْ يجبُ أن نؤمنَ بكلِّ ما أخبرَ بهِ النبيُّ ﷺ مما يكونُ بعدَ الموتِ.

ولهذا قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العقيدةِ الواسطيةِ -ونعمَ الكتابُ هيَ- قالَ: «ومنَ الإيمانِ باليومِ الآخرِ الإيمانُ بكلِّ ما أخبرَ بهِ النبيُّ ﷺ مما

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٢).

يكونُ بعدَ الموتِ»[1]. لأن الإنسانَ إذا ماتَ فقدْ قامتْ قيامتُه، ولهذا يقالُ للموتِ: القيامةُ الصغرى.

فأنتَ إذا مُتَّ فارقتَ الحياةَ، وذهبتَ كأنكَ لم تكنْ على الأرضِ، ودخلتَ في عالمِ القيامةِ، ولهذا قالوا: مَن ماتَ فقدْ قامتْ قيامتُه، وانتهى العلمُ، وانتهى الوجودُ على الأرضِ، فما بقيَ إلا الجزاءُ.

وما الذي يكونُ بعدَ الموتِ؟

يكونُ أشياءُ: منها أن الإنسانَ إذا ماتَ وخرجتْ رُوحُه فإنهُ إن كان مؤمنًا -وأسألُ اللهَ تعالى بمنِّه وكرمِه أن يجعلنِي وإياكُم منَ المؤمنينِ- بُشِّرَ بالجنةِ وهوَ في سياقِ الموتِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت:٣٠-٣١].

فإذا بُشِّرَ الإنسانُ عندَ الموتِ بهذهِ البشارةِ العظيمةِ سهُلَ خُرُوجُ رُوحِهِ، وخَرَجَتْ منقادةً كما تُسْحَبُ الشعرةُ منَ العجينِ، فيسهلُ انقيادُها وخروجُها لأنها بُشِّرَتْ برضَا اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والإنسانُ أيضا يَشْعُرُ بأنه انْتَقَلَ من دارِ الكدرِ والغمِّ والحزنِ إلى دارِ السرورِ والصفاءِ.

وكثيرٌ منَ الأمواتِ إذا شاهدتَه بعدَ موتِه وجدتْ وجهَه أحسنَ مما كان حيًّا

(١) العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة (ص:٦٥).

وأنورَ، وربما يرى بعضهُم يتبسمُ؛ لأنهُ بُشِّرَ بالجنةِ: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

فيجبُ علينَا أن نؤمنَ بهذا، فإذا حُمِلَ الإنسانُ على أعناقِ الرجالِ إن كان صالحًا فإن رُوحَه تقولُ: قدِّمُوني قدموني. للثوابِ ورضَا الرحمنِ، وإن كان سِوى ذلكَ فإن رُوحَه تقولُ: يا ويلهَا أينَ تذهبونَ بها؟ وقدْ أخبرَنا بهذا الخبرِ رسولُ اللهِ ﷺ الصادقُ المصدوقُ، وإلا فنحنُ لا ندري ماذا تقولُ الروحُ، فإننا نحملُ الميتَ إلى القبرِ ولا ندري ماذا تقولُ روحُه، ولكنِ النبيُّ ﷺ أخبرَنا بهذا، وهوَ الصادقُ المصدوقُ؛ أن نفسَ المؤمنِ تقولُ: قدِّمُوني قدموني؛ لأنها بُشِّرَتْ بالجنةِ، ونفسُ غيرِ المؤمنِ تقولُ: يا ويلَها أينَ تذهبونَ بها؛ لأنها بُشِّرَتْ بالنَّارِ[1].

اللهمَّ أَحْسِنْ خَاتِمَتَنا، اللهمَّ أَحْسِنْ خَاتِمَتَنا، اللهمَّ أَحْسِنْ خَاتِمَتَنا، اللهمَّ اجعلْ خيرَ أعمالِنا آخرَها، وخيرَ أعمالِنا خَواتِمَها، وخيرَ أيامِنا وأسعدِها يومَ نلقاكَ يا ربَّ العالمينَ، اللهمَّ صلِّ وسَلِّمْ على عبدِك ورسولِك محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه أجمعينَ.

وإذا دُفنَ الميتُ وتولَّى أصحابُه عنهُ حتى إنهُ ليسمعُ قرعَ نعالِهم[2] -وهوَ في القبرِ يسمعُ قرعَ النعالِ، ويعلمُ أن أهلَه وَدَّعُوه، وأنهم ودَّعُوه في هذا القبرِ- يأتيهِ ملكانِ، يأتيهِ ملكانِ فيسألانِه عن ثلاثةِ أسئلةٍ: مَن ربُّك؟ ما دينُك؟ من نبيُّك؟ فهذهِ الأصولُ الثلاثةُ التي بَنى عليها شيخُ الإسلامِ محمدُ بنُ عبدِ الوهابِ رسالةَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول الميت وهو على الجنازة: قدموني، رقم (١٣١٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال، رقم (١٣٣٨)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم (٢٨٧٠).

صغيرةً سماها: (الأصولَ الثلاثةَ)، ونحنُ ننصحُ جميعَ إخواننا أن يقرؤوا هذه الرسالةَ؛ لما فيها منَ العقيدةِ السليمةِ الصافيةِ.

يقولونَ: مَن ربكَ؟ فالمؤمنُ يجيبُ بالصحيحِ: ربيَ اللهُ. ما دينُك؟ ديني الإسلامُ. مَن نَبيُّكَ؟ محمدٌ. وحينئذٍ ينادِي منادٍ منَ السماءِ أن صدقَ عبدِي، فأفرِشُوهُ منَ الجنةِ، وألْبِسُوه منَ الجنةِ، وافتحُوا له بابًا إلى الجنةِ، ويفسحُ لهُ في قبرِه مَدَّ بصرِه.

وغيرُ المسلمِ إذا أتاهُ الملكانِ قالا: مَن رَبُّك؟ ما دِينُك؟ مَن نَبِيُّك؟ فإنهُ يقولُ -أعاذَنا اللهُ وإياكُم- يقولُ: هاهْ هاهْ، لا أدري، سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا فقلتُه.

وهذا ينطبقُ تمامًا على المنافقِ، وتنطبقُ تمامًا على مَن وصفَهُم الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنه يخرجُ قومٌ «**سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»(١). والعياذُ باللهِ.

فهذا يقولُ: هَاهْ هَاهْ، وتعني كلمةُ هَاهْ هَاهْ كأنهُ يتذكرُ شيئًا نَسِيَهُ، كما لوْ سألتَ عنْ شيءٍ فقلتَ: يا فلانُ تعرفُ كذا وكذا؟ فيقولُ: هَاهْ هَاهْ واللهِ يعني نسيتُ أو كلمةً نحوَها.

ولهذا أحثُّ إخواني أن يُطَهِّرُوا قُلُوبَهم قبلَ أن يُطهِّروا جَوارِحَهم، فالمدارُ على القلبِ، فكمْ مِنْ إنسانٍ يُصَلِّي ويتصدقُ ويصومُ ويحُجُّ لكنَّ قلبَه فارغٌ، والعياذُ باللهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب التحريض على قتال الخوارج، رقم (١٠٦٦).

فعليكَ يا أخي بتطهيرِ القلبِ حتى لا تقولَ في قبرِك: سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا فقلتُه.

فينادِي منادٍ منَ السماءِ أن كَذَبَ عبدِي، فأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وافتحُوا لهُ بابًا إلى النَّارِ. ثم يضيقُ عليهِ قبرُه حتى تختلفَ أضلاعُه؛ تشتبكُ من شدةِ التضييقِ.

وهذا الذِي أقولُه الآنَ مَن الذي أخبرَنا بهِ هو الرسولُ ﷺ الصادقُ المصدوقُ(١).

ولعلَّ زِنْدِيقًا مُلْحِدًا يقولُ: نحنُ نَدْفِنُ الأمواتَ المؤمنينَ وغيرَ المؤمنينَ، ولا نجدُ القبرَ اتسعَ إذا كان قبرَ مؤمنٍ، ولا أن الميتَ اختلفتْ أضلاعُه إذا كان غيرَ مؤمنٍ. فماذا نقولُ لهُ؟

نقولُ: لو أَنَّكَ رَأَيْتَ ذَلِكَ حِسًّا لَكَانَ إيمانُك بهِ غيرَ مفيدٍ، والإيمانُ المفيدُ هو الإيمانُ بالغيبِ.

ونقولُ: أليسَ النائمُ يرى في منامِه أنهُ في مكانٍ فسيحٍ، وفي بساتينَ نَضِرَةٍ، وفي قصورٍ، أليسَ يرى هذا وهوَ في فراشِه تحتَ لحافِه، ويرى العكس أنهُ في ضيقٍ ويَصْعَدُ جبالًا وعرةً، ويسقطُ في مياهٍ مغرقةٍ وهوَ في منامِه لا يتحركُ؟ فإذا كنَّا نشاهدُ هذا في الحياةِ فكيفَ لا نؤمنُ بهِ بعدَ المماتِ؟!

إذنْ، منَ الإيمانِ باليومِ الآخرِ الإيمانُ بفتنةِ القبرِ وعذابِ القبرِ ونعيمِ القبرِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).

الإيمانُ بأن الناسَ يبعثونَ يومَ القيامةِ حفاةً عراةً غُرلًا:

منَ الإيمانِ باليومِ الآخرِ الإيمانُ بأن الناسَ يبعثونَ يومَ القيامةِ حفاةً عراةً غرلًا، ومعنى (حفاةً): ليسَ عليهمْ نعالٌ ولا خِفافٌ ولا جواربُ، حافيةٌ أقدامُهم.

ولهذا كان النبيُّ ﷺ يَنْهَى عنْ كثرةِ الإرفاهِ يعني عن كثرةِ الرفاهيةِ ويأمُرُ بالاحتفاءِ أحيانًا(١)، يعني يأمرُ أن تمشيَ أحيانًا حافيًا، حتى لا تنغمسَ في الرفاهيةِ، وحتى لا تكونَ مشابهًا بمن قالَ اللهُ فيهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة:٤٥].

و(عراةً) يعني ليسَ عليهمْ لبسٌ.

و(غرلًا): جمعُ أَغْرَلَ، والأَغْرَلُ هو الذي لم يختتنْ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤]. فأنتَ أولُ ما تَخرجُ من بطنِ أُمِّكَ تكونُ حافيًا عاريًا أَغْرَلَ، فيُخْرِجُ اللهُ تَعَالَى هؤلاءِ البشرَ من بطونِ الأرضِ كما أَخْرَجَهُم من بطونِ أمهاتِهم على هذا الوصفِ: حافيًا عاريًا أغرلَ.

أُمُّ المؤمنينَ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «**الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ**»(٢).

فالأمرُ مذهلٌ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧].

فهل أنت تفرُّ مِنْ أبيكَ في الدنيا ولا تعرفُه؟ وهلْ أنتَ في الدنيا تفرُّ مِنْ أُمِّكَ..

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الترجل، باب النَّهْيِ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الإِرْفَاهِ، رقم (٤١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩).

مِن أخيكَ.. من زوجتكَ.. منِ ابنِك؟! أبدًا، بالعكسِ؛ تأوي إليهمْ ويأوونَ إليكَ، لكن في الآخرةِ يفرُّ بعضُكم من بعضٍ، قالَ أهلُ العلمِ: وإنما قالَ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ لأن أخاهُ قد لا يقومُ قائمًا بالتوجيهِ في تربيتِه وتوجيهِه، فيطالبُه، يقولُ: أنتَ ما قمتَ بواجبِي، فلذلكَ يَهْرُبُ ويفرُّ منه، كذلكَ الزوجةُ، قد يكونُ غيرَ قائمٍ بواجبِه بالنسبةِ لها، فيُضَيِّعُ حقوقَها ويدعُها تَتَسَكَّعُ في الأسواقِ ولا يبالي بها، فتغالبُهُ يومَ القيامةِ وهوَ يَفِرُّ، وكذلكَ بالنسبةِ للأمِّ والأبِ والابنِ.

ومن ثَم يجبُ علينا أن نقومَ بحقِّ مَن لهم حقٌّ علينا؛ من قرابةٍ، أو زوجيةٍ، أو ولاءٍ، حتى لا يطالبَنا بهِ يومَ القيامةِ.

الإيمانُ بأن الأرضَ يومَ القيامةِ تُمدُّ مَدَّ الأديمِ:

ومِنَ الإيمانِ باليومِ الآخرِ أن تؤمنَ بأن الأرضَ تُمدُّ مدَّ الأديمِ(١)، يعني مدَّ الجلدِ، وهيَ الآنَ كُرويةٌ، مدورةٌ، لكنها يومَ القيامةِ تزولُ منها الجبالُ والأوديةُ والأشجارُ والبناءُ وتُمد كأنها أديمٌ، أي كأنهَا جلدٌ، منْ أجلِ أن يكونَ الناسُ فيها على صعيدٍ واحدٍ، ينفذُهُمُ البصرُ، ويُسمِعهمُ الداعي، فيجبُ علينا أن نؤمنَ بهذا.

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق:١-٣]، وهيَ الآنَ غيرُ ممدودةٍ، فالآنَ هيَ مدورةٌ، لكنْ يوم القيامةِ تُمد، فعلينَا أن نؤمنَ بهذا، وأن نؤمنَ بأن هذه الجبالَ الصمَّ الصُّلبةَ تكونُ كثيبًا مهيلًا، ثم تكونُ كالعهنِ المنفوشِ، ثم تكونُ هباءً طائرًا، لا إلهَ إلا اللهُ! لأن الذِي خلقَها

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٥، رقم ٣٥٥٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب فِتْنَةِ الدَّجَّالِ وَخُرُوجِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَخُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، رقم (٤٠٨١).

وأوجدَها قادرٌ على إزالتِها، فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

الإيمانُ بأن الأعمالَ توزنُ يومَ القيامةِ:

ومنَ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ أن تؤمنَ بأن الأعمالَ توزنُ.

وهلْ هيَ موازينُ حسيةٌ، أو موازينُ بمعنى إقامةِ العدلِ؟

الجوابُ: هيَ حسيةٌ بلا شكٍّ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

وقالَ تَعالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وقالَ تَعالَى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:٨-٩].

هذا منَ القرآنِ.

ومنَ السُّنَّةِ: قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ**»(١).

فهاتانِ الكلمتانِ وَصَفَهُما النبيُّ ﷺ بهذهِ الأوصافِ الثلاثةِ: «**حَبِيبَتَانِ إِلَى**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤).

الرَّحْمَنِ» وشيءٌ يحبُّه الرحمنُ عَزَّوَجَلَّ فإنكَ تكونُ حريصًا عليهِ، فهو حبيبٌ إلينَا ولذا فإننَا نحبُّه. «**خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ**» أي سهلةٌ على اللسانِ، لا تحتاجُ إلى عناءٍ، وليستْ مَثلًا خمسَ صفحاتٍ، بل كلمتانِ: سبحانَ اللهِ وبحمدِه، سبحانَ اللهِ العظيمِ. «**ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ**» هذا الشاهدُ، يعني يومَ القيامةِ إذا وُضِعَتَا في الميزانِ صَارَتَا ثَقِيلَتَيْنِ.

فهذهِ ثلاثةُ أوصافٍ، نؤمنُ بها، ونشهدُ أنها حقٌّ، لكن يَبْقَى علينَا يا إخوانَنا -اللهمَّ عامِلْنا بعفوِك يا ربَّ العالمينَ- يَبْقَى علينَا التطبيقُ، إن كلمتينِ هذا شأنُهما لجديرتانِ ألا يَيْبَسَ اللسانُ منهما، وأن يقولَ الإنسانُ دائمًا: سبحانَ اللهِ وبحمدِه، سبحانَ اللهِ العظيمِ، ولا يضرُّه هذا، فهو خفيفٌ على اللسانِ، ولو بَقِيَ الإنسانُ يقولُهما دائمًا وأبدًا ما تَعبَ، وربما يَملُّ لكن لا يتعبُ.

فأكثِرْ -يا أخِي- مِن هذه الكلمةِ حتى وأنتَ في شغُلِك، حتى وأنتَ تمشِي، وأنتَ نائمٌ، وأنتَ قائمٌ، وأنتَ قاعدٌ: سبحانَ اللهِ وبحمدِه، سبحانَ اللهِ العظيمِ؛ لأن اللهَ يحبُّ ذلكَ، ولأنها ثقيلةٌ في الميزانِ.

إذن، القرآنُ والسنةُ دلَّا على أن الميزانَ حِسِّيٌّ، وليسَ معنويًّا، لكن ما كيفيةُ الميزانِ؟

ليسَ معروفًا، فالميزانُ الذي تُوزنُ بهِ الأعمالُ يومَ القيامةِ غيرُ معروفٍ؛ لأن اللهَ أخبرنَا عنهُ ولم يخبرْنا عن كيفيتِه، وأنا أقولُ لكمْ: جميعُ أخبارِ الغيبِ إذا لم تُخْبَرْ عن كيفيتِها فالواجبُ الإمساكُ.

فلو سألَكَ سائلٌ: كيفَ هذا الميزانُ؟ فإنكَ تقولُ: اللهُ أعلمُ، ما وُصِفَ لنا،

وإن كان قدْ وَرَدَتْ بعضُ الآثارِ تَدُلُّ على أن لهُ كِفتينِ، ولكنْ إن صحتِ الآثارُ في ذلكَ عنْ معصومٍ وجبَ علينَا قبولُها، وإن لم تصحَّ قلنَا: اللهُ أعلمُ، لكن نؤمنُ بأنَّ الأعمالَ توزنُ، وأنها تَثْقُلُ وأنها تَخِفُّ.

الإيمانُ بأن الشمسَ تدنُو منَ الخلائقِ يومَ القيامةِ:

ومنَ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ أن تؤمنَ بأن الشمسَ تدنُو منَ الخلائقِ على قدرِ مِيلٍ، والشمسُ ارتفاعُها الآنَ بعيدٌ جدًّا، لكنْ يومَ القيامةِ تدنُو منَ الخلائقِ بقدرِ مِيلٍ، والمِيلُ هو ميلُ المسافةِ، أو ميلُ المُكْحُلَةِ، أيًّا كان فهيَ قريبةٌ، سواءٌ كان ميلَ المُكْحُلَةِ، وميلُ المكحلةِ قصيرٌ، أو كان مِيلَ المسافةِ.

والآنَ الشمسُ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ:١٣] شديدَ الحرارةِ، ويقالُ: إنهُ لو حامَ حولَها أقوى فولاذٍ في الأرضِ صارَ شعاعًا هباءً مِن شدةِ حرارتِها، وهذا واضحٌ، وبينَنا وبينَها منَ المسافةِ الآنَ أبعادٌ طويلةٌ، ومعَ ذلكَ تصلُ حرارتُها إلى الأرضِ، حتى إن الإنسانَ في أيامِ الصيفِ لا يكادُ يمشِي على الأرضِ بدونِ نعلٍ، وهيَ بعيدةٌ، ويوم القيامةِ تدنُو منَ الخلائقِ، ويَعْرَقُ الناسُ على قدرِ أعمالِهم، فمنهمْ مَن يَصِلُ العرقُ إلى كعبيهِ، ومنهمْ من يَصِلُ إلى ركبتيهِ، ومنهمْ منْ يَصِلُ إلى حِقويهِ، ومنهمْ مَن يُلْجِمُهُ ويغطيهِ.

وهذا العرقُ وهُمْ في مقامٍ واحدٍ، وهنا إشكالانِ:

الإشكالُ الأولُ: كيفَ لا يحترقُ الناسُ منَ الشمسِ إذا دنتْ منهمْ إلى هذه المسافةِ؟

والإشكالُ الثاني: كيفَ يَبْلُغُ العرقُ إلى الكعبينِ، والركبتينِ، والحِقوينِ، وهمْ في مكانٍ واحدٍ؟ فهذا مُشكِلٌ.

والجوابُ أولًا أن نقولَ: الذي قالَ هذا هو المعصومُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[1]، فَصَدِّقْ، ولا تَقُلْ: كيفَ؟ فأمُورُ الغيبِ لا يُقَالُ فيها: كيفَ إطلاقًا، وأمورُ الآخرةِ لا تُشبهُ أمورَ الدنيا، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ قادرٌ على أن يُدْنِيَ الشمسَ منَ الخلائقِ ويعطيَ الخلائقَ قوةً تمنعُ مِنَ التأثرِ بها، وأحوالُ الآخرةِ لا تقاسُ بأحوالِ الدُّنْيَا.

وهذهِ قاعدةٌ ينبغِي أن تعرفُوها، فيما أخبرَ اللهُ بهِ عنِ اليومِ الآخِرِ، وفيما أخبرَ اللهُ بهِ عن نفسِه، حتى في صفاتِ اللهِ، فهناكَ أشياءُ يُخْبِرُ اللهُ بها لا يستطيعُ الإنسانُ أن يَتَصَوَّرَها بعقلِه، أو يُدْرِكَها بعقلِه.

والإشكالُ الثاني: العَرَقُ كيفَ يبلغُ عندَ شخصٍ إلى الكعبينِ، وعندَ آخرَ إلى الركبتينِ؟ والجوابُ أن أمورَ الآخرةِ يجبُ علينا فيها التصديقُ، وألا نسألَ: لمَ، ولا كيفَ؛ لأن عقولَنا لا تُدْرِكُ ذلكَ، لكن نؤمنُ بها؛ لأنها جاءتْ مِنَ الصادقِ المصدوقِ، فلا يجوزُ أن نقولَ: لمَ وكيفَ.

الاستظلالُ منَ الشمسِ يومَ القيامةِ:

ويمكنُ أن يَسْتَظِلَّ الإنسانُ بظلٍّ منْ هذه الشمسِ؛ كما في الحديثِ الذي ذَكَرَ فيهِ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سبعةً، فقالَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ،**

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، رقم (٢٨٦٤).

وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ. وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[1]. أسألُ اللهَ أن يجعلَنا وإياكُم منهمْ، فليسَ هناكَ ظلٌّ يومَ القيامةِ إلا ظلُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فليسَ هناكَ قصورٌ، ولا أشجارٌ، ولا مغاراتٌ، ولا جبالٌ، ولا جدرانٌ، ولا شيءٌ، فليسَ ظلٌّ إلا ظلُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ:

الأولُ: إمامٌ عادلٌ، **والثاني:** شابٌّ نَشَأَ في طاعةِ اللهِ، **والثالثُ:** رجلٌ قَلْبُه مَعَلَّقٌ بالمساجدِ، **والرابعُ:** رجلانِ تحابَّا في اللهِ، اجْتَمَعَا عليه وتَفرَّقَا عليهِ، **والخامسُ:** رجلٌ تصدقَ بصدقةٍ فأخفَاهَا حتى لا تعلمَ شمالُه ما تنفقُ يمينُه، **والسادسُ:** رجلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقالَ: إني أخافُ اللهَ، **والسابعُ:** رجلٌ ذَكَرَ اللهَ خاليًا ففاضتْ عيناهُ، فهو خالٍ ما عندَهُ أحدٌ يرائيهِ، ولا يريدُ أن يَرَاهُ، لكنهُ خالٍ، ففاضتْ عيناهُ. فهؤلاءِ سبعةٌ.

ويمكنُ أن يَتَّصِفَ شخصٌ بهذهِ السبعةِ كلِّها، يعني يمكنُ أن يكونَ إمامٌ عادلٌ وهوَ منذُ شبابِه ناشئٌ في طاعةِ اللهِ، ويمكنُ أن يكونَ هذا الإمامُ قلبُه معلقٌ بالمساجدِ، يعني بالصلواتِ وأماكنِ الصلاةِ، فإن خرجَ منَ المسجدِ فقلبُه في المسجدِ، لكن ما ظنُّكُم -يا إخواننا- بمَن هو في المسجدِ وقلبُه في الشارعِ؟! فهذا معاكِسٌ، وكثيرٌ منَ الناسِ الآنَ وهمْ في الصلاةِ همْ في المساجدِ ولكنَّ قلوبَهم في

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، رقم (١٤٢٣)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

الخارجِ؛ في أمرٍ لا فائدةَ منهُ.

والعجبُ أن الإنسانَ إذا دخلَ في الصلاةِ انفتحتْ عليهِ الوساوسُ التي ما كانتْ تطرأُ على قلبِه، ولا كان يَعْرِفُها، وإذا سَلَّمَ طارتْ وراحتْ؛ لأن الشيطانَ لنا عدوٌّ، وهوَ الذي يصرفُ قلوبَنا عن طاعةِ اللهِ، قالَ تَعَالَى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [الناس:٤-٦].

قولُه: «رَجُلَانِ تَحَابَّا في اللهِ» المعنى أحبَّ أحدُهما الآخرَ في اللهِ؛ لأنهُ رآهُ عابدًا للهِ، مخبتًا إلى اللهِ، كافًّا سمعَه وبصرَه عما يُغْضِبُ اللهَ، دائمَ الطاعةِ، فأحبَّه للهِ، ولم يحبَّه لمالٍ، ولا لشرفٍ، ولا لقرابةٍ، ولا لجوارٍ، ولا لأيِّ شيءٍ، إنما أحبَّهُ للهِ، فهذانِ الرجلانِ تحابَّا في اللهِ، اجتمعَا عليهِ وتفرقَا عليهِ، يعني ماتَا على ذلكَ، أي على المحبةِ في اللهِ.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنهُ ينبغِي للإنسانِ ألا يحبَّ المرءَ إلا للهِ، وهذا مِن كمالِ اليقينِ أن تحبَّ المرءَ لا تحبُّه إلا للهِ.

قولُه: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا» لا يريدُ جزاءً ولا شكورًا منَ الذي أعطاهُ إياهَا، وإنما هيَ للهِ.

وقولُه: «حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ» هذا لهُ معنيانِ:

المعنى الأولُ: حتى لا تعلمَ شمالُه أي مَن كان على شمالِه، ما تنفقُه يمينُه، يعني واحدٌ بجانبِي على الشمالِ وجاءني الفقيرُ فأدخلتُ يدي في جيبِي ثم أعطيتُه

ولكن مَن على شِمالي بجانبي لا يَدري.

المعنى الثاني: أو أن هذا منَ المبالغةِ حتى إنهُ لو كان يمكنُ ألا تعلمَ يدُه اليسرى ما تنفقُ اليمنى لكانَ كذلكَ.

على كلِّ حالٍ المقصودُ المبالغةُ في إخفاءِ الصدقةِ.

وهلِ الأفضلُ إخفاءُ الصدقةِ أوِ الأفضلُ إعلانُ الصدقةِ؟

نقولُ: حَسَبَ الحالِ، ولهذا يَمْدَحُ اللهُ الذينَ يُنْفِقُونَ سرًّا وعلانيةً: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٤] وبدأ بالسرِّ لأنهُ أفضلُ، والعلانيةُ قد يكونُ فيها خيرٌ، فلو فَرَضْنَا أن إنسانًا عَرَضَ مشروعَ خيرٍ على جماعةٍ، فهلِ الأفضلُ أن كلَّ واحدٍ فيهمْ يعطيه سرًّا أوِ الأفضلُ أن يقومَ واحدٌ ويقولُ: تفضلْ خُذِ الصدقةَ، والثاني كذلكَ والثالثُ كذلكَ؟

نقولُ: الثاني أفضلُ، وهذا مِن أجلِ أن يتسابقَ الناسُ إلى الإنفاقِ.

أما إذا كنتَ تريدُ أن تتصدقَ على شخصٍ معينٍ، فالأفضلُ الإسرارُ، حتى لا يَخْجَلَ أمامَ الناسِ، وحتى لا يَنْكَسِرَ قلبُه أمامَ الناسِ، فالأصلُ في الصدقةِ أن السِّرَّ فيها أفضلُ، وقد يكونُ الإعلانُ أفضلَ إذا كانتِ المصلحةُ فيهِ.

قولُه: «وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ» في مكانٍ خالٍ، وهذا الرجلُ شابٌّ أو غيرُ شابٍّ، لكنْ بهِ شهوةٌ، دعتْهُ امرأةٌ في مكانٍ خالٍ ليسَ معهما إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ «فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ» إذن الرجلُ ليسَ عندَه ضعفٌ جنسيٌّ، وليسَ عندَه أحدٌ

منَ البشرِ يشاهدُه؛ لأنهُ لما دَعَتْه ما قالَ: انتظِري، الناسُ ينظرونَ. فالذي منعَهُ خوفُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. والمرأةُ ليسَ فيها عيبٌ معنويٌّ ولا عيبٌ حِسِّيٌّ، فهيَ ذاتُ جمالٍ، وذاتُ منصبٍ، شريفةٌ وليستْ وضيعةً من ساقطاتِ النساءِ، بل هِيَ شريفةٌ وجميلةٌ، ومعَ ذلكَ قالَ: إني أخافُ اللهَ. إذنْ منعَهُ مِن هذا الفعلِ خوفُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. وممن مَنَعَهُ مِنْ ذلكَ خوفُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قولُه: «**وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**» وهذا يَقَعُ كثيرًا، إذا خلَا الإنسانُ عن مشاغلِ الدنيا في مكانٍ لا يُقبلُ عليهِ إلا اللهُ، وأَحْضَرَ قَلْبَه وذَكَرَ اللهَ بلفظِ الذِّكرِ، أو ذَكَرَ اللهَ بعظمتِه وجلالِه، وسلطانِه وقدرتِه، فإنَّ عينَه تفيضُ منَ الدمعِ؛ شوقًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومحبةً للهِ، وتعظيمًا للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

هؤلاءِ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه.

إذنْ، يخلقُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ظلًّا يَتَظَلَّلُونَ بهِ، كما جاءَ في الحديثِ: «**كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ**»(١). وهذهِ قاعدةٌ مفيدةٌ؛ فالإنسانُ إذا تَصَدَّقَ فإنَّ هذه الصدقةَ سَتَأْتِي يَوْمَ القيامةِ وتكونُ ظلًّا عليهِ منَ الشمسِ.

الإيمانُ بالشفاعةِ:

ومنَ الإيمانِ باليومِ الآخرِ أن تؤمنَ بشفاعةِ النبيِّ ﷺ. وشفاعتُه ﷺ خاصةٌ وعامةٌ؛ خاصةٌ يعني لا أحدَ يشاركُه فيها، وعامةٌ لهُ ولسائرِ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشهداءِ والصالحينَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٧، رقم ١٧٣٧١).

الشفاعةُ العامةُ:

والشفاعةُ العامةُ هو أن الناسَ يُحْشَرُونَ ويَقِفُونَ في موقفٍ مقدارُه خمسونَ ألفَ سنةٍ، لا طعامَ ولا شرابَ، حافيةً أقدامُهم، شاخصةً أبصارُهم، عاريةً أجسامُهم، في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ، ويَلْحَقُهم مِنَ الغمِّ والكربِ ما لا يُطِيقُونَ، اللهُ أكبرُ!

«فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ، فَيأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي».

فيعتذرُ بذكرِ خَطِيئَتِه أنهُ أكلَ مِنَ الشجرةِ، وهيَ شجرةٌ في الجنةِ التي أَسْكَنَهُ اللهُ إياها هو وزوجه، وقالَ لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٣٥]، فجاءَ الشيطانُ فوسوسَ لهما وقاسمَهُما؛ أقسمَ قالَ: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١]. فأكلَا منَ الشجرةِ. وكانَ اللهُ تَعَالَى قد سترَ عورتَهما، فبدتْ لهما سوءاتُهما ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٢].

آدمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يذكرُ هذه المعصيةَ، كأنهُ يقولُ: أنا أخجلُ أن أشفعَ إلى

اللهِ وأنا قدْ عصيتُه، واعتذارُه هذا منْ بابِ التواضعِ، وإلا فإن هذا الذنبَ الذي حصَلَ لهُ قدْ زالَ أثَرُه بالكليةِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢١-١٢٢].

فكانَ آدمُ بعدَ التوبةِ خيرًا منهُ بعدَها، فتابَ اللهُ عليهِ وانتهَى كلُّ شيءٍ، والتائبُ منَ الذنبِ كمنْ لا ذنبَ لهُ، لكن لعلوِّ منزلتِه رأى أن هذه المعصيةَ وإن كان قدْ تابَ منها تحُولُ بينَه وبينَ أن يكونَ أهلًا للشفاعةِ، ولكنهُ يحيلُهم إلى أولِ الرسلِ نوحٍ «اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ» فيأتونَ إلى نوحٍ ويقولونَ لهُ: «يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا» ولكنهُ يعتذرُ لأنهُ سألَ ما ليسَ لهُ به علمٌ؛ وذلكَ أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمرَه أن ينجُوَ بأهلِه في الفُلْكِ، وكانَ لهُ ابنٌ كافرٌ، ابنٌ مِن نبيٍّ صارَ كافرًا! سبحانَ اللهِ! وهناكَ نبيٌّ من أبٍ كان كافرًا وهوَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ منْ أبٍ كافرٍ، وإبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كذلكَ.

ونوحٌ لما أدركَ ابنَهُ الغرقُ قالَ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٥-٤٦] لأنهُ كافرٌ، والكافرُ ليسَ مِن أهلِ المؤمنِ، ولهذا قالَ العلماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن هذه الآيةَ تشهدُ لما جاءَ بِهِ الحديثُ الصحيحُ أنهُ «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الكَافِرَ، وَلَا يَرِثُ الكَافِرُ الْمُسْلِمَ»[١]، يعني واحدٌ ماتَ عنِ ابنِ عمٍّ بعيدٍ، وعنِ ابنِه القريبِ، لكن الابنُ كافرٌ، فالذي يرثُه ابنُ عمِّه البعيدُ، وابنُه الكافرُ لا يرثُ؛ لأنهُ ليسَ من أهلِه.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم، رقم (٦٧٦٤)، ومسلم: كتاب الفرائض، رقم (١٦١٤).

نوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعتذرُ ويُحيلُهم على مَنْ؟ على إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أفضلِ الرسلِ بعدَ محمدٍ ﷺ ولكنهُ يعتذرُ بشيءٍ فَعَلَه، ويحيلُهم إلى موسَى، ولكنهُ يعتذرُ كذلكَ بشيءٍ فَعَلَه، ويحيلُهم موسى على عيسَى، وعيسَى لا يعتذرُ بشيءٍ فَعَلَه لكنهُ يقولُ: «اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ».

فسبحانَ اللهِ! انظرُوا إلى حكمةِ اللهِ؛ ألهمَ اللهُ الخلقَ أن يذهبُوا إلى آدمَ، ثم إلى نوحٍ، فيعتذرُ آدمُ بفعلِ شيءٍ يَرى أنهُ يَمنعُه من أن يكونَ شافعًا، ونوحٌ يعتذرُ أيضًا بفعلِ شيءٍ يَرى أنهُ يَمْنَعُه من أن يَكُونَ شافعًا، وإبراهيمُ كذلكَ يعتذرُ بشيءٍ يرى أنهُ يَمْنَعُه من أن يكونَ شافعًا، وموسَى كذلكَ يعتذرُ بأنهُ فَعَلَ شيئًا يَمْنَعُه من أن يكونَ شافعًا، وعيسَى لا يعتذرُ بشيءٍ لكن يَرى أن محمدًا ﷺ أحقُّ منهُ بالشفاعةِ، فيأتونَ إلى محمدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيشفعُ، فيأتي اللهُ تَعَالَى للقضاءِ بينَ العبادِ ويريحُهم منْ هذا الموقفِ العظيمِ(١).

وهذهِ الشفاعةُ هيَ الشفاعةُ العُظمى، التي تشملُ جميعَ الخلقِ؛ المؤمنَ والكافرَ، والبرَّ والفاجرَ، والتي لا يقومُ بها إلا واحدٌ منَ الخلقِ، وهوَ الرسولُ محمدٌ ﷺ.

الشفاعةُ الخاصةُ:

فنؤمنُ بهذه الشفاعةِ، وأنها لا بدَّ أن تكونَ، ونؤمنُ كذلكَ بشفاعةٍ أُخرى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١]، رقم (٣٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

للرسولِ ﷺ خاصةٍ بهِ، وهيَ أن أهلَ الجنةِ إذا عبَرُوا على الصراطِ ووصلُوا إلى الجنةِ وجدُوا الأبوابَ مغلقةً، فيَشْفَعُ لهمُ النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويَسْتَفْتِحُ بابَ الجنةِ فيُفْتَحُ لهُ، وهيَ شفاعةٌ خاصةٌ للنبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وهناكَ شفاعـاتٌ أخرى عامـةٌ للنبيِّ ﷺ ولغـيرِه منَ النبيينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ. ومنَ الشفاعةِ أن الذينَ يُصلُّونَ على الميتِ يَشْفَعُونَ لهُ، ففي الحديثِ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ**»[1].

سادسًا: الإيمانُ بالقدرِ خيرِه وشرِّه:

أما الإيمانُ بالقضاءِ والقدرِ فنقولُ: القضاءُ والقدرُ بمعنى واحدٍ إنِ انفردَ أحدُهما عنِ الآخرِ، وإن ذُكرا جميعًا فقيلَ: القضاءُ والقدرُ صارَ القدرُ ما قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى أزلًا وكتبَه في اللوحِ المحفوظِ، والقضاءُ ما فعلَهُ.

ومثالُ ذلكَ رسالةُ النبيِّ ﷺ قدَّرَها في اللوحِ المحفوظِ ثم قضاهَا في الإرسالِ.

قالَ: «**وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» القدرُ إما خيرٌ للإنسانِ وإما شرٌّ، ولكنْ هلْ هذا بالنسبةِ لفعلِ اللهِ، أو بالنسبةِ لمفعولِ اللهِ؟ يعني مثلًا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقَدِّرُ الصحةَ، والخصبَ، والرغدَ، والعلمَ، والعبادةَ، فهذا كلُّه خيرٌ، ويُقَدِّرُ عَزَّوَجَلَّ ضِدَّ ذلكَ؛ يُقَدِّرُ الفقرَ، والمرضَ، والجهلَ، والفسوقَ، والعصيانَ، وهذا شرٌّ لا شكَّ فيهِ، لكنْ كونُ اللهِ يقدرُ هذا الشيءَ ليسَ شرًّا؛ لأنهُ عَزَّوَجَلَّ إنما قَدَّرَهُ لحكمةٍ، وإذا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم (٩٤٨).

كان قَدَّرَهُ لحكمةٍ صارَ خيرًا؛ لأن لهُ عاقبةً حميدةً.

إذنْ، هناكَ فرقٌ بينَ القدرِ والمقدورِ، فالذي ينقسمُ إلى خيرٍ وشرٍّ هو المقدورُ، أما القدرُ الذي هو فعلُ اللهِ فإنهُ لا ينقسمُ إلى هذا التقسيمِ، بلْ هو خيرٌ محضٌ.

الآنَ، إنسانٌ منحرفٌ كافرٌ عاصٍ، كلُّ مَا يُذكرُ مِن معصيةٍ يَرتكبُها، فأصيبَ بالمرضِ، وكانَ بالأولِ صحيحًا نشيطًا، وحينَما أصيبَ بالمرضِ فَكَّرَ في الأمرِ فرجعَ إلى اللهِ، فالمرضُ بالنسبةِ لهذا الرجلِ مكروهٌ وليسَ محبوبًا، وخيرٌ وليسَ شرًّا، هو نفسُه شرٌّ لكنْ صارَ خيرًا؛ لأن هذا الرجلَ الفاسقَ الطاغيَ لما أصيبَ بالمرضِ رجعَ إلى نفسِه وفَكَّرَ وقالَ: أينَ أنا! أنا ضائعٌ. ثم عادَ إلى اللهِ، فصارَ هذا المرضُ الذي أصابَهُ خيرًا لهُ.

وكمْ مِن إنسانٍ بَلَغَنِي عنهُ أنهُ كان فاسقًا منحرفًا فماتَ أبوهُ، فأصيبَ، ثم بإذنِ اللهِ لما ماتَ أبوهُ استقامَ الرجلُ.

إذن، المصائبُ بنفسِها مكروهةٌ، لكنْ قدْ تكونُ خيرًا، واستمعْ إلى قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ والفسادُ شرٌّ، شرٌّ وليسَ خيرًا ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١] فإذَا رجعُوا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وعرَفُوا أن ما أَصَابَهُم منَ الفسادِ بما كسبتْ أيديهِم رَجَعُوا إلى اللهِ، فحينئذٍ استقامُوا وصارَ هذا الفسادُ خيرًا، وهذا شيءٌ مُشاهَدٌ.

إذن، القدرُ بالنسبةِ لتقديرِ اللهِ خيرٌ مهما كانَ، وبالنسبةِ للمقدورِ يكونُ خيرًا ويكونُ شرًّا.

اللهُ عَزَّوَجَلَّ قسَّمَ العبادَ إلى مؤمنٍ وكافرٍ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن:٢] والإيمانُ خيرٌ لا شكَّ فيهِ، والكفرُ شرٌّ، لكنْ كونُ اللهِ يُقَدِّرُ الكفرَ خيرٌ، فلولا الكفرُ لم يعرفِ الإنسانُ قدرَ الإيمانِ.

ولهذا قالَ أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً إِذَا نَشَأَ فِي الإِسْلَامِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ الجَاهِلِيَّةَ**»(١). كلامٌ عجيبٌ! لا يَنْقُضُ الإسلامَ إلا مَن لم يعرفِ الكفرَ، أما مَن عَرَفَ الكفرَ ثم دَخَلَ في الإسلامِ فإنهُ سوفَ يتمسكُ بالإسلامِ.

إذنْ، هذا الكفرُ الذِي خلقَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لهُ فائدةٌ عظيمةٌ، فلولا الكفرُ لم يُعرفِ الإيمانُ، ولولا الكفرُ لم تقمْ رايةُ الجهادِ، يعني الجهاد منَ المؤمنينَ للكافرينَ، ولولا الكفرُ لم يكنْ أحدٌ في جهنمَ، وقَدَّرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى للنارِ وللجنةِ أن يكونَا فيهما مِلْئَهُما. والمصالحُ كثيرةٌ في وجودِ الكفرِ.

إذنْ، لو سألَكَ سائلٌ: هلْ في القدَرِ خيرٌ وشرٌّ؟

فقلْ: أما بالنسبةِ لتقديرِ اللهِ نفسِه فهو خيرٌ، وأما بالنسبةِ للمقدورِ فمنهُ خيرٌ ومنهُ شرٌّ.

إذنْ، لو أنكَ قلتَ: لا خيرَ فيهِ ولا شرَّ فخطأٌ، وليسَ فيهِ شرٌّ خطأٌ، وليسَ فيهِ خيرٌ خطأٌ، فلا بدَّ منَ التفصيلِ فيقالُ: أما بالنسبةِ للقدرِ الذي هو تقديرُ اللهِ فإنهُ ليسَ فيهِ شرٌّ إطلاقًا، وأما بالنسبةِ للمقدورِ فمنهُ خيرٌ ومنهُ شرٌّ.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠١).

ولو قالَ لكَ قائلٌ: ما الدليلُ على أن الشرَّ لا ينسبُ إلى فعلِ اللهِ؟

قلنا: الدليلُ منَ السُّنَّةِ؛ قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»(١). فلا ينسبُ الشرُّ إلى اللهِ، وإنما يُنسبُ إلى مقدورِ اللهِ.

وهناكَ فرقٌ بينَ القدرِ الذي هو فعلُ اللهِ، والمقدورِ الذي هو مفعولُه.

مراتبُ الإيمانِ بالقدرِ:

والإيمانُ بالقدرِ لهُ مراتبُ، ولا بدَّ منَ الإيمانِ بها:

المرتبةُ الأولى: الإيمانُ بالعلمِ:

ومعنى الإيمانِ بالعلمِ أن تؤمنَ بأنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بكلِّ شيءٍ، أزلًا وأبدًا، أزلًا باعتبارِ الماضي، وأبدًا باعتبارِ المستقبلِ، فاللهُ جَلَّ وَعَلَا عليمٌ بكلِّ شيءٍ، سواءٌ مما يفعلُه هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو مما يفعلُه الخلقُ، فهو عليمٌ بكلِّ شيءٍ أزلًا وأبدًا.

قالَ موسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما سألَهُ فرعونُ: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢]. فلا يجهلُ ولا ينسى، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليمٌ بكلِّ شيءٍ أزلًا وأبدًا.

وهوَ يعلمُ أفعالَ العبادِ قبلَ وقوعِها، قالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥].

فطهرْ قلبَك -يا أخي- واعلمْ أن اللهَ يَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ، قالَ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٥].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١).

فطَهِّرْ قلبَك، ولا تتظاهرْ أمامَ الناسِ بأنكَ مؤمنٌ ولكنِ القلبُ خربان، فطَهِّرِ القلبَ قبلَ كلِّ شيءٍ، فعليهِ المدارُ، وأسألُ اللهَ أن يصلحَ قلبي وقلوبَكم، قالَ تَعالَى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩-١٠]، وقالَ تَعالَى: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق:٨-٩].

فكَمْ من إنسانٍ إذا رأيته أعجبَكَ بهيئتِه، وإذا قالَ فإذا قولُه مِن أحسنِ ما يكونُ، ولكنهُ -والعياذُ باللهِ- مِن أفسقِ عبادِ اللهِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٦]. أعاذنَا اللهُ وإياكُم مِن هذا.

وقالَ اللهُ تَعالَى عنِ المنافقينَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ﴾ أجسامٌ وهيئةٌ كأنهمْ مشيخةٌ أو عبادٌ ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ﴾ فصحاءُ منْ أفصحِ الناسِ وأبينِ الناسِ قولًا، لكنْ ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ﴾ خشبةٌ ما تستقيمُ، بل هيَ خشبةٌ مسندةٌ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون:٤].

فأقولُ يا أخي: طهِّرْ قلبَكَ، وفكِّرْ في قلبِك هلْ فيهِ إنابةٌ إلى اللهِ، وهلْ فيهِ إخلاصٌ للهِ، وهلْ فيهِ محبةٌ لما شَرَعَ اللهُ، وهل فيهِ محبةٌ لعبادِ اللهِ الصالحينَ أو لا؟ طَهِّرْ قلبَكَ فهو الأصلُ والمدارُ، قالَ النبيُّ ﷺ: **«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩).

إذن، المرتبةُ الأولى مِن مراتبِ الإيمانِ بالقضاءِ والقدرِ الإيمانُ بالعلمِ، أي بأن اللهَ تعالى عليمٌ بكلِّ شيءٍ، لا يخفَى عليهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ، لا مِن أفعالِ العبادِ، ولا مِن أفعالِه نفسِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهذا لا بدَّ منهُ.

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

وقالتِ الملائكةُ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر:٧].

المرتبةُ الثانيةُ: الكتابةُ:

أن تؤمنَ بأنَّ اللهَ كتبَ في اللوحِ المحفوظِ مقاديرَ كلِّ شيءٍ إلى قيامِ الساعةِ، فكلُّ شيءٍ مكتوبٌ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يتغيرُ، وكُتِبَ قبلَ خلقِ السَّمَوَاتِ والأرضِ بخمسينَ ألف سنةٍ، لا إلهَ إلا اللهُ!

ومتى كانتِ الكتابةُ؟

كتبَ قبلَ خلقِ السَّمَوَاتِ والأرضِ بخمسينَ ألف سنةٍ، وهيَ مدةٌ طويلةٌ.

وكيفَ كانتِ الكتابةُ؟

خلقَ اللهُ القلمَ، وهوَ قلمٌ لا نعرفُ كيفيتَه، ولا نعرفُ مادتَه، ولا نَدْرِي أَمِنْ ذَهَبٍ أو فضةٍ أو مِنْ لؤلؤٍ، أو مِنْ جوهرٍ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»[1]. أمرٌ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة (ن)، رقم (٣٣١٩).

مُوجَّهٌ لقلمٍ جمادٍ فكتبَ القلمَ بأمرِ اللهِ ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ.

وهنا نسألُ: هلِ القلمُ امتثلَ أو لا؟

نقولُ: نعمْ، امتثلَ؛ لأنهُ سألَ: ماذا يكتبُ، فالأمرُ المجملُ يحتاجُ إلى بيانٍ، ولهذا لما قالَ: «اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ». فجرَى في تلكَ الساعةِ بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ، سبحانَ اللهِ! الربُّ عَزَّوَجَلَّ يوجِّهُ الخطابَ إلى الجمادِ فيمتثلُ.

قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

وقالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ تخبرُ الأرضُ بما عُملَ عليهَا من خيرٍ وشرٍّ، ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة:٤-٥]، فاللهُ تَعَالَى لهُ الملكُ، إذا خاطبَ شيئًا فلا بدَّ أن يمتثلَ.

إذن، المرتبةُ الثانيةُ هيَ الإيمانُ بالكتابةِ، أي بأن اللهَ كتبَ في اللوحِ المحفوظِ مقاديرَ كلِّ شيءٍ إلى أن تقومَ الساعةُ، ودليلُ هذا قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج:٧٠] والجملةُ هنا استفهامُ تقريرٍ، مثلَ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] يعني قدْ شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ، قالَ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ هذا الكتابُ هو العلمُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

فما أصابَ الإنسانَ لم يكنْ ليخطئَهُ، وما أخطأَهُ لم يكنْ ليصيبَهُ، ولهذا ترى نفسَك أنكَ تَخْرُجُ مِن بيتِكَ تريدُ شيئًا وإذا بالقَدَرِ يصيبُك، وأنتَ لم تُردْهُ، أليسَ

الواحدُ منَ الناسِ يذهبُ يسافرُ يريدُ غرضًا منَ الأغراضِ فإذا بالقدرِ يحولُ بينَه وبينَ هذا الغرضِ؛ لأن ما أصابَ الإنسانَ لم يكنْ ليخطئَه، وما أخطأَهُ لم يكنْ ليصيبَه.

المرتبةُ الثالثةُ: الإيمانُ بمشيئةِ اللهِ:

أي بعمومِ مشيئةِ اللهِ، وأن كلَّ شيءٍ في الكونِ لم يكنْ إلا بمشيئةِ اللهِ، فما شاءَ اللهُ كان وما لم يشأْ لم يكنْ، فما شاءَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لا بدَّ أن يكونَ، فنؤمنُ بعمومِ مشيئةِ اللهِ في كلِّ ما يكونُ.

وهذا بالنسبةِ لفعلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ واضحٌ أن اللهَ يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ، وكذلكَ بالنسبةِ لفعلِ العبدِ فهو واقعٌ بمشيئةِ اللهِ؛ فأنتَ الآنَ تتحركُ وتخرجُ من بيتِك وتأتي إلى المسجدِ، وترجعُ منَ المسجدِ إلى البيتِ، وتبيعُ وتشتري، وتطلبُ العلمَ، وتسافرُ وتقيمُ، فهذا فعلُكَ، وفعلُك هذا بمشيئةِ اللهِ.

والدليلُ على أن فعلَ العبدِ مِن مشيئةِ اللهِ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]. إذن فعلُ العبدِ بمشيئةِ اللهِ.

وقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢]، فكلُّ أفعالِ العبادِ المؤمنينَ والكافرينَ والفاسقينَ والأبرارِ كلُّها بمشيئةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإذَا قالَ قائلٌ: إذا كان بمشيئةِ اللهِ فما ذنبُ الفاسقِ أن يعذبَه اللهُ، والشيءُ قدْ

وقعَ بمشيئةِ اللهِ وما للإنسانِ قدرةٌ، فما شاءَ اللهُ كان وما لم يشأْ لم يكنْ، فكيفَ يعذبُ الفاسقَ والكافرَ والمجرمَ وفعلُه بمشيئةِ اللهِ؟

نقولُ: إن اللهَ تعالى أجابَ على ذلكَ هو بنفسهِ جَلَّ وَعَلَا، فقالَ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]. ولو كان لهمْ حجةٌ في ذلكَ ما أذاقَهُمُ اللهُ بأسَه؛ لأن اللهَ تعالى أرحمُ وأعدلُ مِن أن يعذبَ مَن لا يستحقُّ العذابَ.

إذنْ، يا إخواني كونُ ما نفعلُه بمشيئةِ اللهِ لا يبيحُ لنَا، ولا يسوغُ لنا أن نحتجَّ على معاصينا بقدرِ اللهِ؛ لأن اللهَ أبطلَ هذه الحجةَ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ ما ينفعُهُم هذا العذرُ، فكونُ الفعلِ بمشيئةِ اللهِ هلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أجبركَ عليهِ، أو جعلَ لكَ مشيئةً وإرادةً، فهلِ اللهُ أجبرَكُم على الفعلِ أو جعلَ لكمْ مشيئةً وإرادةً؟

نقولُ: جعلَ لنا مشيئةً وإرادةً، فالإنسانُ يدخلُ الجامعةَ ويدخلُ المعهدَ ويدخلُ المدرسةَ باختيارِه، ولا يشعرُ أبدًا أن أحدًا أَجْبَرَهُ، ولا أن هناكَ مشيئةً أجبرتْهُ، بل هو باختيارِه.

ولكنِ اعلمْ يا أخي أنكَ لن تفعلَ فعلًا ولنْ تشاءَ شيئًا إلا وقدْ سبقتْكَ مشيئةُ اللهِ، فإذا شئتَ شيئًا عَلِمْنا أن اللهَ قد شاءَهُ، وإذا فعلتَ شيئًا عَلِمْنا أن اللهَ تعالى قدْ خلقَهُ بما أعطاكَ منَ القدرةِ على الفعلِ؛ أيِ المشيئةِ والإرادةِ.

وهلْ للإنسانِ إرادةٌ مطلقةٌ، أو مقيدةٌ؟

نقولُ: لهُ إرادةٌ مطلقةٌ، لكنها لن تكونَ إلا بإرادةِ اللهِ، ولهذا اشتهرَ عندَ بعضِ الناسِ الآنَ هل الإنسانُ مخيرٌ أو مسيرٌ، نقولُ: هذه جملةٌ محدَثَةٌ، فما كانتْ في كلامِ السلفِ الصالحِ ولا في كلامِ الأئمةِ، فهيَ محدثةٌ.

والواقعُ أن الإنسانَ مخيرٌ إلا فيما لا طاقةَ لهُ بِهِ، فليسَ اختيارَه، فلو سافرَ الإنسانُ وأصيبَ بحادثٍ فَسَفَرُهُ مخيَّرٌ فيهِ، فلو شاءَ سافرَ وإن شاءَ ما سافرَ، وحدوثُ الحادثِ مُسَيَّرٌ فيهِ ومقدرٌ عليهِ، فما لا طاقةَ لكَ بهِ كأنهُ ليسَ من إرادتِكَ، وأما ما ليسَ لكَ بهِ طاقةٌ فإنهُ مِن إرادتِكَ، وأنتَ مختارٌ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة:٨٩] وهذا في الأيمانِ، فأنتَ هنا مخيرٌ ولستَ مُسيَّرًا، تفعلُ هذا أو هذَا، فأنتَ حرٌّ.

فإذنْ، للإنسانِ حريةٌ ولهُ اختيارٌ، ولكن متى اختارَ شيئًا علمنا أن هناكَ إرادةً سَبقَتْهُ، وهيَ إرادةُ اللهِ.

المرتبةُ الرابعةُ: الخَلْقُ:

أن تؤمنَ بأن اللهَ تعالى خالقُ كلِّ شيءٍ، والدليلُ على أن اللهَ خالقُ كلِّ شيءٍ قولُه تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:٦٢]، وقالَ

تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

فكلُّ شيءٍ هو مخلوقٌ للهِ، خلقَ السَّمَوَاتِ والأرضَ، والنجومَ والقمرَ، فلا أحدَ يستطيعُ أن يخلقَ مثلَها، لكن مَن خالقُ ركوعِ الإنسانِ؟ ومنْ خالقُ سجودِ الإنسانِ؟ ومنْ خالقُ قيامِه؟ ومنْ خالقُ قعودِهِ؟

نقولُ: الإنسانُ فاعلٌ واللهُ خالقٌ، فالإنسانُ فاعلٌ، فهو الذي يُصلي ويصومُ ويتصدقُ، ويفعلُ الخيرَ، ولكنَّ اللهَ هو الخالقُ، فكيفَ يكونُ الإنسانُ فاعلًا واللهُ هو الخالقُ؟

نقولُ: تَصَوُّرُ هذا سهلٌ، ففعلُك ناشئٌ عن أمرينِ: الأمرُ الأولُ: الإرادةُ، والأمرُ الثاني: القدرةُ، فعندمَا أحرِّكُ يدي فهذا ناشئٌ عن إرادةِ الحركةِ، وعنْ قدرةٍ، فإذا لم يُردِ الإنسانُ الشيءَ فلا يكونُ ولا يتحركُ بدونِ إرادةٍ، وكذلكَ لا بد منَ القدرةِ، فلو أن إنسانًا مشلولًا -أجارنَا اللهُ وإياكُم من ذلكَ- أرادَ أن يقومَ ليسابقَ غيرَه فإن هذا ما يمكنُ؛ لأنهُ غيرُ قادرٍ.

فالآنَ عندنَا أربعةُ رجالٍ أحدُهم مشلولٌ، قالَ الأولُ: مَن يسابقُني؟ فقالَ المشلولُ: أنا لا أقدرُ، فقالَ للثاني: تسابقُني؟ قالَ: لا أريدُ أن أسابقَ، فقالَ للثالثِ: سابقْني، قالَ: نعمْ أسابِقُكَ.

فالمشلولُ لم يسابقْ لعدمِ القدرةِ، والثاني لعدمِ الإرادةِ، فهو لو قامَ مشَى، لكنهُ لم يُرِدْ، والأخيرُ الذي تحدَّى وقالَ: أنا أسابِقُك هذا عندَه إرادةٌ وقدرةٌ.

المهمُّ أن نقولَ: فعلُ العبدِ ناتجٌ عن إرادةٍ وقدرةٍ، فغيرُ المريدِ لا يمكنُ أن يفعلَ، وغيرُ القادرِ لا يمكنُ أن يفعلَ، والذي خلقَ الإرادةَ وخلقَ القدرةَ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

فصارَ فعلُ العبدِ مخلوقًا للهِ لأنهُ ناتجٌ عن إرادتِه وقدرتِه، وخالقُ إرادتِه وقدرتِه هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ. وهذا واضحٌ والحمدُ للهِ.

من فوائدِ الإيمانِ بالقدرِ:

والإيمانُ بالقدرِ لهُ فوائدُ عديدةٌ، منها طمأنينةُ القلبِ؛ أن الإنسانَ يطمئنُّ قلبُه، وينشرحُ صدرُه لما وقعَ؛ لأنهُ يعلمُ أنهُ بقضاءِ اللهِ، ويعلمُ أيضًا أنهُ لا يمكنُ أن يتخلفَ، وهذهِ نقطةٌ هامةٌ، فلا يمكنُ تغييرُ ما كانَ عما كانَ، فيطمئنُّ، ولهذا قالَ علقمةُ، وهوَ منْ أكابرِ أصحابِ ابنِ مسعودٍ، قالَ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]: «**هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فيرَضَى وَيُسَلِّمُ**»(١).

فتجدُ الإنسانَ الذي يؤمنُ بالقدرِ مطمئنًّا لأنهُ يقولُ: هذا قدرُ اللهِ ولا بدَّ أن يكونَ، فمهما حاولَ الإنسانُ أن يمنعَ ما وقعَ فلنْ يستطيعَ، وحينئذٍ تطمئنُّ وتستريحُ.

ولهذا لا تجدُ أحدًا أطيبَ نفسًا، وأريحَ قلبًا ممن حققَ الإيمانَ بالقدرِ، قالَ النبيُّ -صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ-: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**». والمرادُ القويُّ في إيمانِه وليسَ كبيرَ الجسمِ قويَّ العضلاتِ، فالمؤمنُ القويُّ في إيمانِه خيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ منَ المؤمنِ الضعيفِ، ثم إن الرسولَ ﷺ لما قالَ

---

(١) أخرجه البخاري تعليقا: كتاب تفسير القرآن، باب سورة التغابن، والبيهقي في السنن الكبير (٤/ ٦٦).

هذه الجملةَ رُبَّما يَتَوَهَّمُ الإنسانُ أن المؤمنَ الضعيفَ لا خيرَ فيهِ، فقالَ: «**وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»[1] . وانظرْ إلى الكلامِ، وأرجُو -يا إخواني- الانتباهَ لإصلاحِ القولِ وإصلاحِ الكلامِ، قالَ: «**وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**» ولو لمْ يقلْ هذه الجملةَ لقالَ قائلٌ: إن المؤمنَ الضعيفَ لا خيرَ فيهِ، لكنْ قالَ: «**وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**» .

إن النبيَّ ﷺ كلامُهُ فصلٌ وبيانٌ، وكلامُ اللهِ أعظمُ وأعظمُ، قالَ تَعَالَى: ﴿**لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ**﴾ [الحديد:١٠].

وقالَ تَعَالَى: ﴿**لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ**﴾ [النساء:٩٥].

فخذْ مِن كلامِ اللهِ وكلامِ رسولِه الاحترازَ أو الاحتراسَ، فإذا خِفتَ أن يُوهِمَ كلامُك شيئًا غيرَ مرادِه فأتِ بما يَدُلُّ على مرادِه؛ قالَ النبيُّ ﷺ: «**المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**» ثم قالَ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**». يعني ابذُلِ الجهدَ في تحصيلِ ما ينفعُكَ منْ أمورِ الدينِ والدنيَا، حتى ما ينفعُ منَ الدنيا فالإنسانُ مأمورٌ أن يطْلُبَهُ.

ثم قالَ: «**وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**». اللهمَّ صلِّ وسلمْ على عبدِك ورسولِك ﷺ، لما أمرَ بالحرصِ فإنهُ ربما يَعْتَمِدُ الإنسانُ على نفسِه، لكنهُ قالَ: واستعنْ باللهِ؛ لا تَعْجَبْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

بنفسِكَ، ولا تعتمدْ على نفسِكَ، بلِ استعنْ باللهِ.

ثم قالَ: «**وَلَا تَعْجِزْ**» ومعنى (لا تعجِزْ): لا تتكاسلْ فتضعفَ، ولا تهملْ، فما دامَ الشيءُ نافعًا فاسْتَمِرَّ فيهِ.

ولهذا مما يَقْطَعُ حياةَ الإنسانِ وينزعُ البركةَ عن عَمَلِه أنه يَتخبطُ، فيبدأُ بالعملِ ثم يعودُ إلى عملٍ آخرَ، ثم يعودُ إلى عملٍ ثالثٍ، وهلمَّ جرًّا، وهذا غلطٌ، فهذا مما يقطعُ حياتَك وعملَكَ.

ويؤثَرُ عنْ أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهُ قالَ: «**مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي شَيْءٍ فَلْيَلْزَمْهُ**»[1].

فإذا رأيتَ أن اللهَ قدْ باركَ لكَ في هذا العملِ فاستمرَّ فيهِ، حتى لو كان عندكَ سيارةٌ قدْ باركَ اللهُ فيها وصارتْ تعملُ ولم تكدرْ عليكَ لا بخرابٍ ولا بغيرِه، فالزمْها، ولا تفرطْ فيهَا.

ثم قالَ في الحديثِ: «**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ**» يعني بعدَ أن تبذلَ الجهدَ وتستعينَ باللهِ، وتأتيَ العملَ بقوةٍ ونشاطٍ إن أصابَكَ شيءٌ، يعني خلافَ مرادِكَ «**فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا**».

إنسانٌ مثلًا سافرَ إلى مكةَ للعمرةِ أو للحجِّ، وفي أثناءِ الطريقِ أصيبَ بحادثٍ

---

(١) أخرج ابن ماجه: كتاب التجارات، باب إذا قسم للرجل رزق من وجه فليلزمه، رقم (٢١٤٧) من حديث أنس بن مالك مرفوعا: «**مَنْ أَصَابَ مِنْ شَيْءٍ فَلْيَلْزَمْهُ**» وذكر لفظه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٨/ ١٢٣) وذكر أنه يؤثر عن بعض السلف.

فانكسرتْ رجلُه، فهذا الرجلُ حَرَصَ على ما ينفعُهُ، واستعانَ باللهِ، ومضى في عملِه، لكن أصيبَ بالحادثِ، ولم يتمكنْ من أداءِ العمرةِ، يقولُ الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا**»، فلا تقل: لو أني لم أسافرْ وبقيتُ لسلِمْتُ من هذا الكسرِ «**وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».

وصدقَ الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإذا قلتَ فيما نزلَ بكَ مما تكرهُ: لو أني فعلتُ. فاعلمْ أن الشيطانَ سوفَ يتسلطُ عليكَ وسوفَ تبقى في الأوهامِ والخيالاتِ والوساوسِ، قالَ النبيُّ ﷺ: «**وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ**» يعني هذا قدر الله «**وَمَا شَاءَ فَعَلَ**»، فحينئذٍ نستسلمُ للأمرِ إذا كان الأمرُ بعدَ بذلِ الجهدِ على خلافِ ما تريدُ، حينئذٍ استسلمْ لأمرِ اللهِ واستسلمْ للقضاءِ، ولكنْ قلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ.

فهذهِ نُبذٌ مهمةٌ فيما يتعلقُ بالإيمانِ بالقدرِ.

مسألةٌ: رجلٌ يعصِي اللهَ فقيلَ لهُ في ذلكَ، فقالَ: واللهِ هذا شيءٌ مقدَّرٌ عليَّ، أسألُ اللهَ أن يهديَني.

فيقالُ: نعمْ أوافقُكَ أن هذا بقدرِ اللهِ، لكنْ قد جعلَ اللهُ لكَ فرجًا ومخرجًا، تبْ إلى اللهِ، فإذا تابَ استقامتْ حالُه.

يُذْكَرُ أن أميرَ المؤمنينَ عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ جيءَ إليهِ بسارقٍ، والسارقُ هو الذي يأخذُ المالَ بخفيةٍ؛ لأنه لو أخذَهُ قهرًا سُمِّيَ غاصبًا، والذي يأخُذُ بخفيةٍ يسمَّى سارقًا.

أُتِيَ لعمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بسارقٍ، فأمرَ بقطعِ يدهِ -والدليلُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿**وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا**﴾ [المائدة:٣٨]، وفي قراءةِ عبدِ اللهِ

ابنِ مسعودٍ: (فاقطعُوا أَيمانَهُم)[١] فتقطعُ اليدُ اليمنَى -فقالَ: سَرَقْتُ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، فَقَالَ لَهُ: «وَأَنَا أَقْطَعُ يَدَكَ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ»[٢].

اللهُ أكبرُ! وقطعُ اليدِ عقوبةٌ عظيمةٌ؛ لأن السارقَ ربما يَتمنى أن يموتَ ولا يمشِي بينَ الناسِ مقطوعَ اليدِ لأنهُ سارقٌ، فهو عارٌ عليهِ، فإن قيلَ: لماذا لا نَرْحَمُهُ ونقولُ: أعطِنا ديةَ اليدِ خمسينَ بعيرًا ونأخذُ الإبلَ نجعلُها في بيتِ المالِ، وهذا الرجلُ السارقُ تبقى يدُه؟

قلنَا: سبحانَ اللهِ! أنحنُ أحكَمُ أمِ اللهُ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨].

ولهذا سمعَ أعرابيٌّ -وهوَ البدويُّ- قارئًا يقرأُ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ واللهُ غفورٌ رحيمٌ. فقالَ الأعرابيُّ: كلامُ مَن هذا؟ قالَ القارئُ: كلامُ اللهِ. قالَ: أَعِدْ فأعادَ: واللهُ غفورٌ رحيمٌ، فقالَ: ليسَ هذا كلامُ اللهِ، فتنبهَ القارئُ فقالَ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨]. فقالَ: أصبتَ، هذا كلامُ اللهِ. فقالَ لهُ القارئُ: أتقرأُ القرآنَ؟ قالَ: لا. قالَ: فمِن أينَ عَلِمْت أني أخطأتُ؟ فقالَ: يا هذا، عزَّ فحكمَ فقطعَ، ولو غفرَ ورحمَ لما قطعَ.

فاللهُ عَزَّوَجَلَّ أحكمُ منا، وأرحمُ منا، ومعَ ذلكَ أمرَ أن تُقطعَ يدُ السارقِ؛ لأن هذا السارقَ وإن أصيبَ بمصيبةٍ فهو كفارةٌ لهُ، وعذابُ الدنيا أهونُ من عذابِ الآخرةِ.

لكنْ هل هذا يقطعُ دابرَ السرَّاقِ ويمنعُ تَكررَ السرقةِ أو لا يمنعُ؟

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٢٩٤).

(٢) منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٢٣٤).

نقولُ: يمنعُ، فأيُّ واحدٍ يَهُمُّ بالسرقةِ وهوَ يعرفُ أنه إذا سَرِقَ قُطِعَتْ يدُه فلن يَسْرِقَ، ولا يُمْكِنُ أن يَسرقَ، ولقدْ قرأتُ قديمًا منْ مؤلَّفاتِ الكتَّابِ المنحرفينَ السفهاءِ مَن قالَ: لو أننا قَطَعْنَا يدَ السارقِ لكانَ نصفُ الشعبِ أشلَّ، نقولُ: الآنَ فهمنا أن هذا الرجلَ نصفُ شعبِه سُرَّاقٌ! لكن لو قُطعتْ أيديهم ما صارَ ولا واحدٌ في الألفِ منَ السُّراقِ، لكنَّ هؤلاءِ الكتابَ المنحرفينَ يُمَوِّهُونَ على السذجِ منَ الناسِ، كالذي قالَ: لو قتلنَا القاتلَ لكُنا زدنَا قتلَ نفسٍ أخرَى، فرجلٌ قتلَ آخرَ عمدًا وتمتْ شروطُ القصاصِ ونَفَّذْنَا في القاتلِ القصاصَ، فعندنَا الآنَ نفسانِ: المقتولُ ظلمًا والمقتولُ قصاصًا، يقولُ: لا تَقْتُلْه، فأنتَ الآنَ قتلتَ نفسينِ، لكنْ لو تركتَه لم يكنِ المقتولُ إلا واحدًا؟

ولكنْ نقولُ: كَذَبَ قولُك، وكذَبَ حِسُّكَ، وكذَبَ ظنُّك، اسمعْ قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩]، فالقصاصُ حياةٌ؛ لأنهُ عدلٌ، ولهذا جاءتِ الآيةُ الكريمةُ: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يعني يا أصحابَ العقولِ المفكرينَ الذين ينظرونَ في العواقبِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

المهمُّ أنهُ لا حجةَ للعاصي بقدرِ اللهِ؛ لأن اللهَ أعطاهُ إرادةً، وأعطاهُ اختيارًا، ويمكنُ أن يتوبَ، فإذا تابَ تابَ اللهُ عليهِ، ومحا عنهُ الذنبَ.

فإن قالَ قائلٌ: وردَ في الحديثِ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ**

سَنَةً؟» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»[(١)]. يعني غلبَ آدمُ موسى بالحجةِ، وهذهِ حجةٌ بالقدرِ، فما الجوابُ عن هذا الحديثِ؟ فهذا يقتضِي أن العاصيَ يحتجُّ بالقدرِ على معصيتِه، والنبيُّ ﷺ شهِدَ بأن الحجةَ معَ آدمَ، وهذا مُشكِلٌ.

أجابَ العلماءُ بأن موسى لم يُرد الاحتجاجَ على آدمَ بالمعصيةِ، ولا يمكنُ أن يحتجَّ عليهِ بالمعصيةِ؛ لأن موسى أبرُّ وأكرمُ من أن يلومَ أباهُ على ذنبٍ تابَ منهُ، وقبِلَ اللهُ توبةَ آدمَ واجْتَبَاهُ، وهداهُ، ولا يمكنُ لموسى وهوَ أحدُ الأنبياءِ بل أحدُ المرسلينَ أولي العزمِ أن يلومَ آدمَ على شيءٍ تابَ منهُ، لكنَّ آدمَ احتجَّ بالقدرِ على المصيبةِ وهيَ إخراجُه منَ الجنةِ، وليسَ على معصيتِه، وهيَ أكلُه منَ الشجرةِ.

وهذا جوابُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]، وهوَ جوابٌ سديدٌ يزولُ بِهِ الإشكالُ، وهوَ مناسبٌ تمامًا لمقامِ موسى ومقامِ آدمَ؛ فإن آدمَ لم يكنْ ليحتجَّ بالقدرِ على المعصيةِ، وموسَى لم يكنْ ليلومَ أباهُ على معصيةٍ تابَ منها واجتباهُ اللهُ تَعَالَى وهداهُ.

إذنْ، لا حجةَ للعاصي على معصيتِه بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ.

ولو أننَا أمسكنَا زانيًا، وقلنَا: إن هذا الزانيَ ثيبٌ وتمتْ شروطُ الرجمِ بحقِّه، فارجُمُوهُ، فقالَ لنا: هذا بقضاءِ اللهِ وقدرِه، فإننا نقولُ: ورجمنَا إياكَ بقضاءِ اللهِ وقدرِه؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، رقم (٦٦١٤)، ومسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، رقم (٢٦٥٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٢٥).

كما قالَ عمرُ للسارقِ: «**قطعنَا يدَك بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ**».

ولو أن إنسانًا قذفَ شخصًا فقالَ لهُ: أنتَ زانٍ، فإننا نقولُ للقاذفِ: هاتِ شهودًا أربعةً وإلا جلدنَاكَ ثمانينَ جلدةً، فإن قالَ: الحقيقةُ أنني ما قلتُ هذا إلا بقضاءِ اللهِ وقدرِه، قلنَا لهُ كما قالَ عمرُ: ونحنُ لا نجلدُك إلا بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ.

ولو أن إنسانًا لا يُصلي معَ الجماعةِ، والصلاةُ معَ الجماعةِ واجبةٌ على الرجالِ، لكن هذا يتخلفُ، فقالَ لهُ الأميرُ: لماذا تتخلفُ؟ قالَ: بقضاءِ اللهِ وقدرِه، قالَ: إذنْ لا تنمْ إلا بالمسجدِ، وإلا فبادرْ بالصلاةِ معَ الجماعةِ، وهلْ لوليِّ الأمرِ أن يعزِّرَهُ هذا التعزيرَ؟ الجوابُ: نعمْ، إذا كان فيهِ استقامةٌ لهُ ولغيرِه، فالتعزيرُ إنما يرادُ بِهِ إصلاحُ الخلقِ، والوسائلُ غيرُ معينةٍ، فكلُّ وسيلةٍ يصلحُ اللهُ بها الخلقَ فهيَ جائزةٌ ما لم يتعدَّ فيها حدودَ اللهِ، فإن تعدَّى المُعَزِّرُ حدودَ اللهِ فإنهُ لا يجوزُ.

ولهذا لو أن رجلًا قبَّلَ امرأةً أجنبيةً منهُ، فقضى الحاكمُ أن يُجلدَ مئةَ جلدةٍ، فإن هذا يجوزُ؛ لأن الزنى وهوَ أعظمُ إذا كان غيرَ ثيبٍ يجلدُ مئةَ جلدةٍ، فلا يمكنُ أن يتجاوزَ الإنسانُ في التعزيرِ الحدودَ، إذا كانتِ المعصيةُ التي يعذَّرُ عليها منْ جنسِ المعصيةِ التي بها الحدودُ؛ لئلا نتعدَّى حدودَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه.





سورةُ القدرِ

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:١-٥].

سُورَةُ القدرِ هي سُورَةٌ أُنْزِلَتْ كَامِلَةً في بيانِ فضلِ ليلةِ القَدْرِ.

قال تَعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أيِ القُرآنَ ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، ثمَّ فخَّمها اللهُ عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ يعني لتعظيمِ شأنِها فهي ليلةٌ عظيمةٌ، ولهذا قال: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، وألفُ شهرٍ أي ثلاثٌ وثمانونَ سنةً وأربعةُ أشهرٍ تقريبًا.

وقوله: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي: في ثوابِها وأجْرِها.

وهذه الليلةُ -ليلةُ القدرِ- لَيستْ إلَّا في العشْرِ الأواخرِ من رمضانَ،

فلا تَلْتَمِسْها في رجبٍ، ولا شَعبانَ، ولا مُحرَّمٍ، ولا أيِّ شهرٍ، بل ولا في العشرينَ الأُولى من رمضانَ، فهي في العشرِ الأواخرِ من رمضانَ.

وقد اعْتكَفَ النبيُّ ﷺ في العَشْرِ الأُوَلِ يَتَحَرَّى ليلةَ القدْر، ثمَّ اعْتكَفَ في العَشْرِ الأوسطِ -وتبدأ ليلة الحادي عشر وتنتهي ليلة العشرين- ثمَّ قيل له: إنَّها في العشرِ الأواخرِ، فاعتكَفَ العشرَ الأواخِرَ، وذكر لأصحابِه أن من أَرَادَ أن يعتكفَ فليعتكفْ في العشرِ الأواخِرِ؛ تحرِّيًا لليلةِ القَدر[1].

وقد أُرِيَها النبيُّ ﷺ بعينِها، ثمَّ أُنسِيَها، ولكنَّه أُعْطِيَ عَلَامَةً، قال: «**وَقَدْ رَأَيْتُنِي أَسْجُدُ فِي صَبِيحَتِهَا فِي مَاءٍ وَطِينٍ**»؛ يسجدُ في صلاةِ الفجرِ من ليلةِ القدرِ في ماءٍ وطينٍ، وقَدْ أَمْطَرَتِ السَّماءُ تلك الليلةَ، وكان مسجدُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ على عَرِيشٍ، يعني سقفه من جَريدِ النخلِ، فنَزَلَ المطرُ إلى الأرضِ، وابتلَّتِ الأرضُ وصارت طينًا، فأصبح النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذلك اليومَ ليلةَ إحدى وعشرينَ، وصَلَّى الفجرَ، ولما انصرف شَاهَدَ الصَّحَابَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ على جَبْهَتِه أثرَ الماءِ والطينِ.

إذن، كانت ليلةُ القدرِ ذلك العامَ ليلةَ الواحدِ والعشرينَ، لكنها تَنتقِلُ.

وليلةُ القدرِ لها علاماتٌ لاحقةٌ، وعلاماتٌ مُصاحِبةٌ، وليس لها علامةٌ سابقةٌ؛ والمصاحبةُ أن تكونَ الليلةُ ليلةً مضيئةً، يعني أن نُورَها أكثرُ من نورِ غيرِها من ليالي العشرِ، هذا واحِدٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب السجود على الأنف والسجود على الطين، رقم (٨١٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعا لرمضان، رقم (١١٦٧).

ثانيًا: أن المؤمنَ يَنشرِحُ صَدرُه لها، وينشرحُ لكثرةِ العملِ فيها، وتجدُه في أسرِّ ما يكونُ، وهذا شيءٌ يَقذِفُه اللهُ تَعَالَى في قلبِ المؤمِنِ، فيستريحُ للعبادةِ، ويُكثِرُ منها، ويَحْضُرُ قلبُه فيها. هذه علامةٌ.

والعلامةُ اللاحِقَةُ أن صَبيحتَها تطلُعُ الشمسُ صافيةً ليس لها شُعاعٌ، واستنبطَ بعضُ العلماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ الحكمةَ في ذلك، قال: لأنَّ الملائكةَ في تلك الليلةِ تملأُ الأرضَ؛ لأنها تَتنزَّلُ فيها، وجِبريلُ ينزلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والشمسُ إذا طلعتْ تطلعُ بين قَرْنَيْ شيطانٍ، كما ثَبتَ عن النبيِّ ﷺ[1]، لكن في صبيحةِ ليلةِ القدرِ بناءً على أن الملائكةَ مَلَأَتِ الأرضَ فلا مجالَ للشياطينِ في العملِ، فتخرجُ الشمسُ صافيةً، ليس لها شُعاعٌ. فهذه علامةٌ لاحِقةٌ.

فإذا قال قائلٌ: ما فائدتُنا من العلامةِ اللاحقةِ؟

قلنا: العلامةُ اللاحقةُ لنا فيها فائدةٌ، وهي أن الإنسانَ إذا كان مُوَفَّقًا في تلك الليلةِ للعملِ الصالحِ فهذه بُشرى وتهنئةٌ له أنَّه وافَقَ ليلةَ القَدرِ، وهذا من نعمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فمَن وُفِّقَ في تلكَ الليلةِ للقيامِ، والعملِ الصالحِ، فإنه يكونُ هذا كالتهنئةِ له، والبشرى بأنه أصابَ ليلةَ القدرِ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٢)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها، رقم (٨٢٨).



سورةُ الزلزلةِ

الدرس الأول:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فإنَّني أَوَدُّ مِن إخواني المسلمينَ أن يَعْتَنُوا بكلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأن يتدبرُوا معناهُ؛ لأنهُ الصراطُ المستقيمُ، وهوَ الذي نَزَلَ مِن أجلِ إسعادِ البشريةِ في الدنيا والآخرةِ.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:١-٨].

قولُه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١] وذلكَ لقيامِ الساعةِ، فإنها تزلزلُ الزلزالَ العظيمَ؛ كما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ

كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١-٢].

قولُه: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:٢] وما في بطنِها مِن بني آدمَ، فإن بني آدمَ يموتونَ ثم يُدفنونَ في القبورِ، يعودونَ إلى الأرضِ التي خُلقُوا مِنْهَا، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥].

وقالَ نوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لقومِهِ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:١٧-١٨].

قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة:٣] يعني: أيُّ شيءٍ لها؟ ما الَّذي حَصَلَ؟ وما الذي كانَ؟ وذلكَ مِن شدةِ الفزعِ العظيمِ.

قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:٤] هذا جوابُ (إذا).

ومعنَى ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي تخبرُ عما عُمِلَ عليها مِن خيرٍ وشرٍّ، والأرضُ جمادٌ، والجمادُ يتكلمُ بأمرِ اللهِ؛ واسْتَمِعْ إلى قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت:٢١].

فالأرضُ تتكلمُ، فإذَا أمرَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ تكلمتْ، ولهذا قالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة:٤-٥] اللهُ أكبرُ! ما أعظمَ غرورَك يا ابنَ آدمَ! لا يمكنُك أبدًا أن تُنْكِرَ ما عَمِلْتَ مِن خيرٍ وشرٍّ، إن أَنْكَرْتَه شَهِدَتْ عليكَ الجوارحُ، وإن لم تشهدْ عليكَ الجوارحُ شَهِدَتْ عليكَ الأرضُ، فلا فِرَارَ لكَ منَ الشُّهُودِ، فاستيقظْ لهذا، وإياكَ أن تعملَ عملًا تشهدُ بهِ عليكَ جوارحُك أو أرضُك التي تسيرُ عليهَا.

وفي قولِه: ﴿رَبَّكَ﴾ هلِ الخطابُ للرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أم لكلِّ مَن يَصِحُّ أن يُوجَّهَ إليهِ الخطابُ؟

نقولُ: كلُّ مَن يَصِحُّ أن يُوَجَّهَ إليهِ الخطابُ فإنهُ مخاطبٌ في هذا، وعلى رأسِهم رسولُ اللهِ ﷺ.

وقولُه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أيْ: أوحَى لها أن تتكلَّمَ وتتحدَّثَ.

قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة:٦] يَصْدُرُونَ في يومِ القيامةِ مُتَشَتِّتِينَ مُتَفَرِّقِينَ، كلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إلى كتابِها، وكلُّ أمةٍ وحدَها، وكلُّ أمةٍ يَشْهَدُ عليها رسولُها بأنهُ بَلَّغَ الرسالةَ وأدَّى الأمانةَ، ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: ليُبصِرُوا، و(يرى) مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعلُه، أي ليريَهمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أعمالَهم؛ كما قالَ تَعَالَى في آيةٍ أُخرى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:١٦٧].

يعني أن الناسَ يَرَوْنَ أعمالَهم ويُجْبَرُونَ على رؤيةِ أعمالِهم؛ إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

قولُه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧] والذَّرةُ التي ضَرَبَ اللهُ بها المثَلَ في القِلَّةِ هيَ صغارُ النملِ، هذا هو المعروفُ في لغةِ العربِ، والقرآنُ نَزَلَ باللغةِ العربيةِ، وليستِ الذرةَ التي اصطلحَ عليها الفيزيائيونَ، وإنما الذرةُ هيَ صغارُ النملِ، ويُضْرَبُ بها المثَلُ في القِلَّةِ؛ كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢]. فالذرةُ مَضْرِبُ المثلِ في القلةِ.

إذنْ، مَن يَعْمَلْ دونَ مثقالِ الذَّرةِ فإنهُ يراهُ؛ لأن هذا التقريرَ إنما هو للمبالغةِ، يعني أنهُ يضربُ المثلُ في القِلَّةِ بالذَّرةِ.

قالَ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨] فكلٌّ سَيرى عَمَلَه؛ إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، فيجازَى مَن يرَى خيرًا مِن عَمَلِه الحسنةُ بعَشْرِ أمثالِها، إلى سبعِ مئةِ ضعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ، والسيئةُ بمثلِها.

واسْتَمِعْ إلى قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في سورةِ الأنعامِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠]؛ أي لا يُنْقَصُونَ مِن حسناتِهم، ولا يزادُ في سيئاتِهم، هكذا يكونُ الجزاءُ لُطْفًا مِنَ اللهِ ورحمةً منهُ جَلَّوَعَلَا، وإلا لكانَ يُجازِي بالسيئةِ سيئةً ويُجازِي بالحسنةِ حسنةً، ولكنهُ يُجازِي بالحسنةِ عَشْرَ أمثالِها إلى سبعِ مئةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وهذا مِن مقتضَى كونِ رحمةِ اللهِ سبقتْ غَضَبَه.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصَحْبِه.



الدرس الثاني:

الحَمدُ لله رَبِّ العالَمينَ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيِّينَ وإمامِ المُتَّقِينَ، وعَلَى آلِهِ وأصْحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسَانٍ إلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فيقول الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزَّلْزَلَة:١-٤].

وكُلُّ هَذَا حَدِيثٌ عَنْ يَوْمِ القِيامَةِ، تُزَلْزَلُ الأرْضُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحَجّ:١] وتُخْرِجُ أثْقالَهَا، وأَثْقالُها ما فِي بَطْنِها مِنَ الحَيَوانِ، ومِنْهُمْ بَنُو آدَمَ، فإنَّ النَّاسَ يَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ العالَمِينَ.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ [الزَّلْزَلَة:٣] ما الَّذِي غَيَّرَ الأرْضَ؟ كانَتِ الأرْضُ حِينَ مَوْتِهِ جِبالًا وأنْهارًا ورِمالًا وأشْجارًا وبِناءً وغَيْرَ ذَلِكَ، فأَصْبَحَتِ الآنَ قاعًا صَفْصَفًا، مَا لَهَا تَتَزَلْزَلُ؟!

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزَّلْزَلَةِ:٤-٥] ومعْنَى ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أيْ: تُخْبِرُ بِمَا عُمِلَ علَيْهَا مِنْ خَيْرٍ وشَرٍّ، أنْطَقَهَا اللهُ؛ ولِهَذَا يَقُولُ أَهْلُ النَّارِ لِجُلُودِهِمْ: لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فُصِّلَتْ:٢١].

يَأْمُرُهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فتَنْطِقُ، تَقُولُ: عَمِلَ عَلَيَّ فُلانٌ خَيْرًا فِي اليَوْمِ الفُلانِيِّ، وعَمِلَ عَلَيَّ فُلانٌ شرًّا فِي اليَوْمِ الفُلانِيِّ، تُحَدِّثُ أخبارَهَا تَمَامًا؛ ولِهَذَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عليهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّم-: «أَنَّ المُؤَذِّنَ لَا يَسْمَعُ صوته شَيْءٌ إِلَّا شهد لَهُ يَوْم

القِيامَةِ»[1] ، ومِنْ هُنَا نَعْرِفُ أَنَّ المُؤَذِّنَ أعْلَى رُتْبَةً مِنَ الإمامِ، فالإمامُ يأْتِي ويُصَلِّي بأَصْحابِهِ ثُمَّ يَنْصَرِفُ، أَمَّا المُؤَذِّنُ فيَسْمَعُهُ كُلُّ مَا حَوْلَهُ، ويَشْهَدُ لهُ يَوْمَ القِيامَةِ، والمُؤَذِّنُونَ أطْوَلُ النَّاسِ أعْناقًا -أيْ: رِقابًا- يَوْمَ القِيامَةِ، شَرَفًا وفَخْرًا لهُمْ يَتَمَيَّزُونَ بِهِ عَنِ النَّاسِ يَوْمَ القِيامَةِ.

ولهَذَا كانَ الأذانُ أفْضَلَ مِنَ الإمامَةِ، وكانَ المُؤَذِّنُ أكْمَلَ حَالًا مِنَ الإمامِ، ولسْنَا نَحْنُ الَّذِينَ نُقَسِّمُ المَراتِبَ بَيْنَ النَّاسِ، بلِ الَّذِي يُقَسِّمُهَا هُوَ اللهُ ورَسُولُهُ.

فإذا قَالَ قائِلٌ: إذَا قُلْتَ هَذَا لِماذَا لَمْ يَتَوَلَّ الرَّسُولُ ﷺ الأذانَ ولا أبو بَكْرٍ ولا عُمَرُ ولا عُثْمانُ ولا عَلِيٌّ؟

قُلْنَا: لانْشِغالِهِمْ بِما هُوَ أَهَمُّ، فالمُؤَذِّنُ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَيْسَ كالمُؤَذِّنِ فِي عَهْدِنَا، فالمُؤَذِّنُ فِي عَهْدِنَا يَخْرُجُ السَّاعَةَ يَنْظُرُ كمِ السَّاعَةُ ثُمَّ يُؤَذِّنُ، وهَذَا سَهْلٌ، لكنْ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ كانُوا يُراقِبُونَ الشَّمْسَ عندَ الزَّوَالِ، يَبْقَى، هلْ زادَ الظِّلُّ أمْ نَقَصَ؟ وما أقَلَّ اخْتِلافَ الظِّلِّ عندَ الزَّوالِ! يَنْتَظِرُ حتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ، وهَذَا صَعْبٌ، وعندَ الفَجْرِ يقومُ المُؤَذِّنُ قَبْلَ الفَجْرِ ويُراقِبُ الأُفُقَ، وما أَشَدَّ اهْتِمامَهُ إذَا كانَتِ الأُفُقُ مُغْبَرَّةً أوْ مُغَيِّمَةً! فهَذَا صَعْبٌ، وهكَذَا بَقِيَّةُ الأَوْقاتِ.

فالمُؤَذِّنُ عَلَيْهِ مَسْئُولِيَّةٌ، ثُمَّ المُؤَذِّنُ لا يَتَعَلَّقُ بِهِ المُصَلُّونَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ فِي المَسْجِدِ، بلِ المُصَلُّونَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ فِي المَسْجِدِ ومَنْ يَسْمَعُ صَوْتَهُ حتَّى النَّاسُ فِي بُيُوتِهِمْ يَتَعَلَّقُونَ بهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء، رقم (٦٠٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَيْضًا المُؤَذِّنُ يَتَعَلَّقُ المُسْلِمُونَ بِهِ فِي رُكْنَيْنِ مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلامِ، وهُمَا: الصَّلاةُ والصِّيامُ، وليستِ الصَّلاةَ فقطْ؛ لِهَذَا كانَ المُؤَذِّنُ أَعْلَى رُتْبَةً مِنَ الإمامِ.

صحيحٌ أَنَّ الإمامَ عَلَيْهِ مَسْؤُولِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُتَقَيِّدًا بالسُّنَّةِ فِي صلاتِهِ بالجَماعَةِ، وألَّا يُطِيلَ إطَالةً أَكْثَرَ مِمَّا وَرَدَ، وما أَشْبَهَ ذَلِكَ وهُوَ أَمْرٌ مَعْرُوفٌ، لكنْ هَذَا أَفْضَلُ.

إِذَنِ: الأَرْضُ تُحَدِّثُ أَخبارَهَا، والسَّببُ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزَّلْزَلَةِ:٥] أَمَرَهَا أَنْ تُحَدِّثَ أَخبارَهَا، فقالتْ: سَمْعًا وطَاعَةً.

فإنْ قَالَ قائِلٌ: هلْ يَصِحُّ أَنْ يُوَجَّهُ الخِطابُ إِلَى الأَرْضِ وهِيَ جَمادٌ؟

قُلْنَا: يَصِحُّ، فالرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ يُوَجِّهُ الخِطابَ إِلَى مَنْ شاءَ، وقدْ وجَّهَ الخِطابَ إِلَى السَّماءِ والأَرْضِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَتْ:١١] ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سَبَأ:١٠].





سورةُ التَّكَاثُرِ

الدرسُ الأولُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢]، ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ الخطابُ للبَشَرِ، ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ يعني: في الأموالِ والأولادِ، كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد:٢٠] التكاثُر يُلْهِي ولا شَكَّ، كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن:١٥]، وكَمْ مِن إِنْسَانٍ كان مستقيمًا ملتزمًا متجهًا إِلَى اللهِ، فإذا كثُر مالُه -والعِياذُ باللهِ- ألهاهُ المالُ، وإذا كثُر ولدُه أَلهاهُ الولدُ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:٩].

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، (حَتَّى) هنا غائيةٌ، والمعنى: أَنَّه

ألهاكُم التكاثُرُ حتَّى مُتُّمْ، يعني: فهي بمعنى (إلى)، والتعليلية: هِيَ الَّتِي بمعنى (مِن أَجْلِ)، مثالها: قولُ المنافقين: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧]، المعنى: مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنْفَضُّوا عنه، وليس المعنى: إِلَى أَنْ يَنْفَضُّوا، فهنا (حَتَّى) تَعْلِيلِيَّة.

إذن، نفهمُ أنَّ (حتَّى) فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ تأتي للتعليلِ وللغَايَةِ، وهذا أكثرُ ما يدورُ فِي الكلامِ، وتأتي لِمَعانٍ أُخرى لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهَا.

إذن، ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ﴾ [التكاثر:٢] يعني: إِلَى أَنْ زُرْتُمُ المقابِرَ، والمرادُ بالزيارةِ هنا ليست زيارةَ الحَيِّ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى المقبرةِ، ويُسَلِّمَ عَلَى أهلِ القُبُورِ، بل المرادُ: ﴿زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي: مُتُّمْ، فَدُفِنْتُم فِي المقابرِ.

سَمِعَ أعرابيٌّ رَجُلًا يقرأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢] فقال: بَعْثُ القومِ للقيامَةِ ورَبِّ الكَعبةِ، فإنَّ الزائِرَ مُنصرِفٌ لا مُقيمٌ[1].

واللهِ هذا مِن ذَكاءِ الأعرابيِّ، لأن الزائرَ يأتي لصاحِبِ البيتِ يَزُورُه يومًا أو يومين ويمشي، فيقول: أنتُم فِي المقابِرِ لَسْتُمْ مُقِيمِين أَبَدَ الآبِدِين، بل هِيَ زيارَةُ ماشٍ إِلَى البَعْثِ، فاستدلَّ الأعرابيُّ بِفَهْمِهِ العربيِّ عَلَى أَنَّ الآيَةَ تَدُلُّ عَلَى ثُبوتِ البَعثِ، ووجهُ ذلك ما سَمِعتم مِن أن الزائرَ غيرُ مُقِيمٍ، فالَّذِي يُدفَنُ فِي المقبرَةِ إذن غيرُ مُقيمٍ، ولهذا كان مِن الخطأِ الفاحِشِ ما نقرؤه أحيانًا فِي الصُّحفِ، يقول: فُلَانٌ نُقِل إِلَى مَثْوَاهُ الأَخِيرِ. فهذه الكلمةُ مُنْكَرَةٌ غايَةَ الإنكارِ، ولو أَنَّ الإِنْسَانَ اعتقدَهَا لَكَفَرَ، لكنْ أكثرُ النَّاسِ يقولُها تقليدًا، سَمِعُوهَا مِن واحِدٍ وقَلَّدُوه، ولا يعرفون المعنى.

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/ ٥١٨).

لو قلنا: إِنَّ القَبْرَ هُوَ المَثْوَى الأخيرِ. لَزِمَ مِن ذلك أَلَّا يكونَ هناك بعثٌ، ولهذا يجبُ أن تُنْكِرَ عَلَى مَن قالَ هذا، وتقولَ: أتعتقدُ أَنَّ القَبْرَ هُوَ المثوى الأخيرُ؟ فإن قال: نعم، فقَدْ أَنْكَرَ البَعْثَ، وإنكارُ البَعْثِ كُفرٌ، وإن قال: لا، قُلنا: لماذا تقولُ هَذَا الكلامَ؟ لا تَقُلِ المَثْوى الأخير، فالمَثْوَى الأخيرُ هُوَ إمَّا الجنَّةُ وإمَّا النَّارُ، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٧٢] هَذِهِ النَّار.

عَلَى كُلِّ حَالٍ، الآيةُ تَدُلُّ عَلَى إثباتِ البَعثِ، حيث جَعَلَ القُبُورَ زيارةً.

وهنا ينبغي أن نتكلَّمَ عَلَى زيارةِ القُبُورِ، فنقولُ: زيارةُ القُبُورِ سُنَّةٌ سَنَّها النَّبِيُّ ﷺ بقولِه وفِعلِه، أما فِعْلُه فقَدْ كان يَزُورُ البَقِيعَ[1] عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وزار شُهداءَ أُحُدٍ، ودعا لهم[2].

وقد أمرَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بذلك فقال: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ، أَلَا فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ**»[3]. وفي لفظ: «**فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ المَوْتَ**»[4]. وصدَق نَبِيُّنا -صلوات الله وسلامه عليه-، أخوك الَّذِي كان بالأمسِ معك، يأكُلُ كما تأكُلُ، ويَشربُ كما تَشربُ، ويَلبسُ كما تَلبسُ، ويَتَمَتَّعُ فِي دُنْيَاه أَصْبَحَ الآنَ رَهِينَ عَمَلِه فِي هَذَا القَبْرِ، لا تَدْرِي متى تَلْحَقُه، ربما لا يكونُ بَيْنَكَ وبَيْنَه إِلَّا مسافةٌ قليلةٌ، فهي تُذَكِّرُ الآخِرَةَ كما قالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (٩٧٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة أحد، رقم (٤٠٤٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، رقم (٢٢٩٦).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عَزَّوَجَلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٧).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عَزَّوَجَلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٦).

وزيارتُنا للقُبُورِ للدُّعاءِ لأصحابِ القُبُورِ، وليس لدُعاءِ أصحابِ القُبُورِ، ولهذا نقولُ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا -إِنْ شَاءَ اللهُ- لَلَاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ العَافِيَةَ**»[١]. هم محتاجون للعافيةِ، محتاجون للمغفرةِ، ولهذا كان النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا فَرَغَ مِن دَفْنِ الميتِ، وَقَفَ عليه، وقال: «**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ**»[٢]. اللهُ أكبرُ! مِن حِينِ ما يَتِمُّ دَفْنُ الميتِ قَدْ سُلِّمَ الآنَ للآخِرَةِ، انتهى مِن الدُّنيا نهائيًّا، كأنْ لم يكُنْ موجودًا فِي الدُّنيا، قال تَعالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، هُوَ الآن انتهى، لم يَكُنْ شيئًا موجودًا، وأصبح خبرًا مِن الأخبارِ، انتهى، وخُتِمَ عَلَى عَمَلِه: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[٣].

إذن، نَحْنُ ندعو لهم، تَقِفُ عند القَبْرِ إذا تَمَّ الدفنُ، تقولُ: اللَّهُمَّ اغفِرْ له، اللَّهُمَّ اغْفِرْ له، اللَّهُمَّ اغفِرْ له، واخترنا الثَّلاثَ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان إذا دعا دعا ثلاثًا[٤]، ونقولُ: اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ بالقولِ الثابتِ؛ لأنَّ الإِنْسَانَ مِن حينِ ما ينتهي تسليمُه يأتيه مَلَكَان يَسْأَلَانِه عن رَبِّه ودِينِه ونَبِيِّه، أسألُ اللهَ أَنْ يُثَبِّتَنِي وَإِيَّاكُم بالقولِ الثابتِ فِي الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ.

وأما زيارةُ القُبُورِ لدعاءِ القُبُورِ، فهو سَفَهٌ فِي العقلِ، وضلالٌ فِي الدِّينِ، سَفَهٌ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يُقَال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (٩٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت، رقم (٣٢٢١).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

فِي العقلِ، لأنَّ هَذَا الميِّتَ لا ينفعُ نفسَه، فكيف ينفعُك أنت؟! كيف تأتي إِلَى جُثَّةٍ هامِدَةٍ رُبَّمَا تكونُ الأرضُ أَكَلَتْها إِلَّا ما شَاءَ اللهُ، ثمَّ تَدْعُوها، وهل يمكن لهذا الميِّتِ أَنْ يُنْقِذَكَ مِن شيءٍ؟ الجوابُ: لا -واللهِ- أبدًا، هُوَ نفسُه محتاجٌ للدعاءِ، فكيف تَدْعُوه؟! هَذَا سَفَهٌ، فلو أَنَّ الإِنْسَان جاء إِلَى شخصٍ حَيٍّ لكنه أَشَلُّ، وقال: يا فُلَانُ، أَدْعُوكَ أن تَحْمِلَ مَتَاعِي معي إِلَى السيارةِ. سيعتبرُ النَّاسُ هذا سفيهًا، إذ كيف تقولُ للميتِ: يا فُلَانُ أَعْطِنِي كذا، ارزُقني مالًا، زَوِّجْنِي؟ سُبْحَانَ اللهِ! امرأتي لا تَحْمَلُ اجْعَلْها تَحْمَلُ، هذا سَفَهٌ في العقلِ، وضلال فِي الدِّينِ، لأنَّ اللهَ تَعَالَى يقولُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥]، هَذَا استفهامٌ بمعنى النفيِ، لو بقيتَ تدعو هَذَا إِلَى يوم القيامةِ ما استجابَ لك، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، هنا يقولُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾. لا يفهمون ولا يسمعون، وبعد ذلك: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦]، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ يعني: لَيْتَ لنا كَرَّة، ﴿فَنَتَبَرَّأَ﴾ منكم كما كنا فِي الأولِ نُوَالِيكم، ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧]، أَجَارَنَا اللهُ وَإِيَّاكُم من ذلك.

إذن، أهلُ القُبُورِ لا ينفعونك، ولا يَحِلُّ لك أن تَدْعُوَ لهم حتَّى لو أتيتَ

لرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشافِعِ المُشَفَّعِ الشَّفِيعِ للأُمةِ، لو أتيتَ إليه الآن، وقلتَ: يَا رَسُولَ اللهِ اشْفَعْ لي. فهو حرامٌ عليك، النبيُّ لا يَمْلِكُ هذا، إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لا يملك الشَّفاعةَ إِلَّا بإذنِ اللهِ، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

إن النَّاسَ يومَ القيامة يُصيبُهم مِن الغَمِّ والكَرْبِ ما لا يُطِيقُون، في يومٍ مقدارُه خمسونَ ألفَ سَنةٍ، والوقتُ حارٌّ، والشَّمْسُ تَدْنُو بمِقدارِ مِيلٍ، والعَرَقُ يَبْلُغُ مِن الإِنْسَانِ بِحَسَبِ عَمَلِه، فمنهم مَن يبلُغُ العَرَقُ إِلَى كَعْبَيْهِ، ومنهم مَن يبلُغُ إِلى ركبتيه، ومنهم مَن يبلُغُ إلى حَقْوَيْهِ، ومنهم مَن يُلْجِمُه العَرَقُ، كَرْبٌ عَظِيمٌ، لا يمكنُ أن تتصوَّرَه، فيقولُ النَّاسُ بعضُهم لبعضٍ: اطْلُبُوا مَنْ يَشْفَعُ لَنَا. يَأْتُونَ إِلَى آدَمَ فَيَعْتَذِرُ، وَيَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ فَيَعْتَذِرُ، وَيَأْتُونَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَيَعْتَذِرُ، وَيَأْتُونَ إِلَى مُوسَى فَيَعْتَذِرُ، وَيَأْتُونَ إِلَى عِيسَى، وعِيسَى لا يُقدِّمُ عُذرًا، لكنه يُحِيل عَلَى مَن هُوَ أفضلُ منه، يقول: «ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدًا غفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ». فهل رسولُ اللهِ -جَعَلَهُ اللهُ لنا ولكم شفيعًا- يقومُ ويَشفعُ مُباشرةً؟ لا، بل يَسْجُدُ تحتَ العَرْشِ، ويَفتحُ اللهُ عليه مِن المَحامِدِ ما لم يَكُنْ فَتَحَهُ عليه مِن قَبْلُ، ويَسْجُدُ سُجُودًا طويلًا حتَّى يُؤْذَنَ له، وَيُقَالُ لَهُ: «ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»(١).

هَذَا هُوَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يستطيعُ أَنْ يشفعَ إِلَّا بإذنِ اللهِ، أبدًا.

إذن، لا يجوزُ أبدًا أن نسألَ أَيَّ مَيِّتٍ شيئًا مِن حَاجَاتِنا، بل نسألُ اللهَ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ لعبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، رقم (٤٤٧٦)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣، رقم ٢٦٦٩)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، بابٌ، رقم (٢٥١٦).

فاسأَلِ اللهَ واعلمْ أنه لَيْسَ بينك وبين اللهِ واسِطةٌ، والربُّ عَزَّوَجَلَّ فتَحَ بابَهُ، يقولُ لك: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:٦٠]، أتُريدُ كَرَمًا أكثرَ مِن هذا؟ هُوَ نفسُه عَزَّوَجَلَّ يفتحُ البابَ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ ويقول لنبيه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة:١٨٦].

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يجيبَنا وَإِيَّاكُم.

إذن، لماذا تسأَلُ مخلوقًا مِثلَك، وهو مخلوقٌ لا يمكنُ أَنْ ينفَعَك ولا بِشَرْبَةِ ماءٍ؟!

إذن، دعاءُ الأمواتِ سَفَهٌ فِي العَقلِ، وضلالٌ فِي الدِّينِ.

ولكن لو قالَ قائلٌ: إنه ذَهَبِ إِلَى قَبرِ السَّيدِ الفُلَاني، أو الوَلِيِّ الفُلَاني، ودعاه، وأُجيبَ. ولنَقُلْ مثلًا: إنه كان مريضًا، فذَهَبَ إِلَى صاحبِ القَبْرِ، وقال: يا سَيِّدي، يا وَلِيَّ اللهِ، يا كذا يا كذا، إنه مريضٌ، فشُفِيَ، ما العَمَلُ؟

نقولُ: نَحنُ نَشهَدُ أَنَّ هَذَا لم يَشْفِكَ، ونَحْلِفُ عَلَى هَذَا أَنَّه لم يَشْفِكَ؛ لأَنَّ رَبَّنا عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر:١٤]، هل أحدٌ أَخْبَرُ مِن اللهِ؟ لا، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ يعني: مِثلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ فهذا الرَّجُلُ الَّذِي دعا صاحبَ القَبْرِ وشُفِي، تقولُ: الَّذِي شَفاك هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لكن جَعَلَ شِفاءَك عَلَى هَذَا السببِ المحرَّمِ فِتنةً لك، فقد يُفْتَنُ الإِنْسَانُ، وتُهَيَّأُ له أسبابُ المعصيةِ.

أقولُ لكم -بَارَكَ اللهُ فيكم-: كان الصَّحَابَةُ مُحْرِمِين مَعَ الرَّسُولِ ﷺ

فابتَلاهم اللهُ، المُحرِمُ هل يجوزُ أَنْ يَصِيدَ الصَّيدَ؟ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، الصَّيدُ مُباحٌ، رأى أَرْنبًا، رأى غزالًا، أيجوزُ أَنْ يَصِيدَها؟

الجواب: المُحرمُ لا يجوزُ أَنْ يصيدَ هَـذَا الصيدَ، فابتـلاهُم الله عَزَّوَجَلَّ ابتلَى الصَّحابَةَ، فبَعَثَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الصيدَ، فقال تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [المائدة:٩٤]: تُمْسِكُه مَسْكًا، ﴿وَرِمَاحُكُمۡ﴾ الرُّمحُ، فالطائرُ يُصطادُ بالرُّمحِ وعادةً لا يكونُ إِلَّا بالسَّهمِ، والزاحِفُ يكونُ بالرُّمحِ، والآن يُؤخذُ باليَدِ، وهذا تسهيلٌ، لكنه اختبارٌ، فسُهِّلَت لهم المَعْصِيَةُ لِيَنْظُرَ عَزَّوَجَلَّ أيخافون اللهَ أَمْ لا ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [المائدة:٩٤].

هَذِهِ الأُمَّةُ -والحمدُ للهِ- أُمةٌ مؤمنةٌ مُوقِنةٌ، اليهودُ حَرَّمَ اللهُ عليهم صَيْدَ الحُوتِ يومَ السبتِ، قال: لا تَصِيدُوا الحُوتَ يومَ السبتِ. فابتلاهُم اللهُ، فصارتِ الحِيتانُ يومَ السبتِ تأتي شُرَّعًا عَلَى وجهِ الماءِ، وفي غيرِ يومِ السبتِ لا يَرَوْنَها: ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡ﴾ [الأعراف:١٦٣]، واليهودُ -كما تعلمون- لا يُريدون إِلَّا مَلْءَ البُطونِ، وشَهْوَةَ الفُروجِ، ناسٌ دُنْيَوِيُّون بمعنى الكلمةِ.

طال عليهم الأَمَدُ فقَالُوا: لا بُدَّ مِن حِيلةٍ، قالوا: ضَعُوا شِباكًا يومَ الجُمُعَةِ، وتأتي الحِيتانُ يومَ السبتِ تدخُلُ فِي الشِّباكِ، ولا تستطيعُ الخُروجَ، وإذا كان يومُ الأحدِ أخذوها، وتكونون لم تَصِيدوا يومَ السبتِ.

انظُر كيف زَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم، ففعلوا، قال تَعالَى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم

بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٣].

ثم انقسموا فِي هَذَا إِلَى ثلاثةِ أقسام: قِسم نَهَوْا هؤلاء، قَالُوا: لا تأخُذوا الصَّيدَ، ولا تحْتَالُوا عليه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٤]، فصاروا ثلاثة أقسام: قِسم تحَيَّل، وقِسْمٌ سَكَت لم يُنكر، وقِسْم أَنْكَر، بل الَّذِينَ سَكَتُوا ولم يُنْكِرُوا أَنْكَرُوا عَلَى مَن أَنْكَرَ، وقَالُوا لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ هَؤُلاءِ هلَكُوا، ولا حاجةَ لِأَن تَعِظُوهم، فأجابوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾، لا تيأسْ ربما يَتَّقِي.

فماذا فعلَ اللهُ بهم؟ اسْتَمِعْ إِلَى قولِه فِي سُورَة البقرةِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥] الأمر: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ هنا أمرٌ كَوْنِيٌّ، فكانوا: ﴿قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ قِرَدَة ذَلِيلَة، ما تعلُو عَلَى أَحَدٍ، أصابهمُ اللهُ بالذُّلِّ الظاهِرِ والباطن، لكنْ هَذِهِ القُرودُ المعروفةُ الآن ليست الأُمَّةُ الَّتِي ابتُليت بذلك؛ لأنها هَلَكَتْ.

نعودُ إِلَى تفسيرِ الآيةِ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢] ومعنى: ﴿زُرْتُمُ﴾ أي: مُتُّمْ، فدُفِنْتُم فِي المقابِرِ، وليس المرادُ زيارةَ القُبُورِ.

ثم تَعرَّضْنا إِلَى زيارةِ القُبُورِ المشروعةِ، وإلى أَنَّ أَهْلَ القُبُورِ محتاجون إِلَى الدُّعاءِ لهم، ولا يجوزُ أَنْ تَدْعُوَهُم.

فإياك يا أخي أن تتعلَّقَ إِلَّا باللهِ عَزَّوَجَلَّ اسْأَلِ اللهَ، فلا واسِطَةَ بينك وبينه: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**».

أقولُ: إن هَذَا الَّذِي شُفِي إنَّما شَفاه اللهُ عَزَّوَجَلَّ وليس هَذَا المدفُونَ، ولكنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ يَبْتَلِي بعضَ العِبادِ بتسهيلِ المعصيةِ عليه؛ حتَّى يختبرَه عَزَّوَجَلَّ.

لو قالَ قائل: هل التكاثُرُ فِي الأموالِ حرامٌ أَمْ حلالٌ، أَمْ مُسْتَحَبٌّ، أَمْ ماذا؟

فالجوابُ: أَمَّا إذا ألهى عن طاعةِ اللهِ، فهو حرامٌ؛ إِنْ ألهى عن واجبٍ، ومَذْمُومٌ إِنْ أَلْهَى عن مُستحَبٍّ، وأمَّا إذا لم يُلْهِ، بل كان عَونًا عَلَى طاعةِ اللهِ، والإِنْسَان يُتاجرُ في مالِه ليستفيدَ، ويُفيدَ إخوانَه، فهذا لا بأسَ به إطلاقًا.

﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ في هَذَا إشارةٌ إِلَى أَنَّه لا بُدَّ أَنْ يُدفنَ الإِنْسَانُ، ولهذا قالَ العُلَمَاءُ: إِنَّ دَفْنَ الميِّتِ فرضُ كفايةٍ. وإذا مات الإِنْسَانُ فِي البحرِ -مثلًا- ولا نستطيعُ أن نَحملَه إِلَى الساحلِ، قالَ العُلَمَاءُ: يُغسَّلُ ويُكفَّنُ ويُصلى عليه، ويُدْفَنُ فِي البَحرِ، يعني: يُغمسُ فِي البحرِ، ويُجعلُ فِي رِجْلِه ثِقْلًا يُثقِّلُه؛ حتَّى لا يَطْفُوَ عَلَى سطحِ الماءِ، لأَنَّه إذا ماتَ وانتفخَ فلا بُدَّ أَنْ يَطْفُوَ عَلَى ظَهرِ الماءِ، فيُجعلُ فِي رِجلِه حَجَرٌ كبير يَنزل به إِلَى الأرض، فإذا أكلته الحيتان فلا مانِعَ، كما أَنَّ الأرضَ تأكله إذا كان فِي البَرِّ.

﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣-٤] هَذِهِ الجُملةُ تُفيدُ الوَعِيدَ والتهديدَ، يعني: كَلَّا أيها المتكاثِرون الَّذِينَ ألهاكم التكاثُرُ ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: سوفَ تعلمون ماذا كانت نتيجةُ تكاثُرِكم فِي الأموالِ والأولادِ، وإعراضِكم عن دِينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ويكون هَذَا العِلم عند الموت، وفي القَبْر، وفي يوم القيامة، قال تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾

[المؤمنون:٩٩-١٠٠]، إذا جاءه الأجل، قال: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ إِلَى الدُّنيا، ولكن هل يقول: ارجعُوني إِلَى الدُّنيا لأُعمِّرَ القُصور، وأتزوَّجَ النِّسَاءَ، وأَرْكَبَ السيارَاتِ الفَخْمَةَ، أم ماذا؟ ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ فِي المالِ الَّذِي تركتُه ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ فيه، فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾، ﴿كَلَّآ﴾ يعني: لن تَعُودَ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [يونس:٤٩]، ﴿كَلَّآۚ﴾ ثمَّ أكَّد أن هَذِهِ الكلمةَ لا بُدَّ أن تُقال، فقال: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ﴾ أي: حاجِزٌ، ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾، وهَذَا البَرْزَخُ هو ما بين الحياتين: حياةِ الدُّنيا، وحياةِ الآخرةِ، قَدْ يكونُ القَبْرُ، وقد يموتُ الإِنْسَانُ فِي فلاةٍ مِن الأرضِ لَيْسَ له أحدٌ، فتأكُلُه الطيورُ والسِّباعُ، وقد يكونُ فِي البحرِ، أو غير ذلك، المهمُّ أن البَرْزَخَ هُوَ الحاجِزُ بين حياةِ الدُّنيا وحياةِ الآخرةِ: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾، فهذا الرَّجلُ ما تمَنَّى أَنْ يرجعَ إِلَى الدُّنيا ليُكملَ التكاثُرَ، إنَّما تمنَّى أَنْ يرجعَ إِلَى الدُّنيا، لِيَفْنِيَ التكاثُرَ فِي طاعةِ اللهِ: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ وكرَّر ذلك للتوكيدِ.

﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥]، ﴿لَوۡ﴾ هَذِهِ شَرطيةٌ تحتاجُ إِلَى فِعلِ الشَّرطِ، وجوابِ الشَّرطِ، فِفِعْلُ الشَّرطِ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، وليس هُوَ قولَه: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ [التكاثر:٦] بل هُوَ محذوفٌ، والتقديرُ: لو تعلمون عِلمَ اليقينِ ما ألهاكُمُ التكاثُرُ عن طاعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكن إنَّما استولى عليكم الشيطانُ، وأوقعَكُم فِي الشكِّ، أو فِي التَّرَدُّدِ، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وأما قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ فهي جملة لا علاقة لها بما قبلها.

ولهذا ينبغي للقارئ إذا قرأ أَنْ يَقِفَ عَلَى قوله: ﴿**لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ**﴾ وألَّا يَصِلَ قوله: ﴿**لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ**﴾ بما قَبْلَهُ؛ لأنَّه لو وَصَلَهُ بما قَبْلَهُ، لَظَنَّ الظانُّ أنه جواب ﴿**لَوۡ**﴾، وهذا يُخِلُّ بالمعنى إخلالًا عظيمًا.

وقوله: ﴿**لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ**﴾ أي: والله لَتَرَوُنَّ، ولهذا يقول علماء العربية: إنَّ هَذِهِ الجملةَ مُؤَكَّدَةٌ بثلاثةِ مُؤَكِّدَاتٍ: القَسَم المُقَدَّر، واللَّام، ونُون التوكيد، والتقدير: واللهِ لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ، أي: النَّار، وذلك حينما تُعرَضُ يومَ القيامةِ، فيراها النَّاسُ كُلُّهم، بل إنَّ مَن كان مِن أهلِها فهو يُساقُ إليها -والعِياذُ باللهِ- ﴿**إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا**﴾ [مريم:٨٦] وأما مَن كان مِن أهلِ الجنَّةِ، فإنَّه يَصعدُ مَعَ الصراطِ الموضوعِ عَلَى مَتْنِ جهنمَ، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُنَجِّينا وَإِيَّاكُم.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿**ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ**﴾ [التكاثر:٨] يعني: يوم القيامة سيُسألُ الإِنْسَانُ عن النعيمِ، أي: عن كلِّ ما تَنَعَّمَ به فِي الدُّنيا -نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يرزُقَنا وَإِيَّاكُم جوابًا صوابًا- يُسأل: مِن أينَ جاءكَ هذا؟ وفيمَ أَنْفَقْتَهُ؟ ولذلك نَهَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ عن الإسرافِ فِي المآكِلِ والمَشَارِبِ، فقال: ﴿**وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ**﴾ [الأعراف:٣١] وقال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**بِحَسْبِ ابْنِ آدمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ**» أي: يُمْسِكْنَ حياتَهُ، «**فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**»[1]. ولهذا كان مِن أُصُولِ الطِّبِ أَنْ يأكلَ الإِنْسَانُ ما يَقُومُ به جِسمُه، ولا يُكثِرَ، ثمَّ إذا جاع بَعْدَ ذلك فليأكُلْ، يعني: ليسَ بلازِمٍ أَنْ نأكُلَ ثلاثَ مرَّاتٍ، بل نأكُلُ قليلًا، ثمَّ إذا جُعْنَا أَكَلْنَا، وهَلُمَّ جرًّا.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم (٢٣٨٠).

وإلى هنا ينتهي ما أرادَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن نتكلمَ به عن هَذِهِ السُّورةِ، ولها مَعَانٍ أكثرُ ممَّا ذَكَرْنَا، واللهُ عَزَّوَجَلَّ لا نُحِيطُ به عِلمًا.



الدرس الثاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١] فَالخطابُ للنَّاسِ، و﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أَي: شَغَلَكُم عَنْ ذِكرِ اللهِ، وعنِ الصَّلاةِ، وعنْ طَاعةِ اللهِ، والتكاثُرُ يَعني التَّكاثرَ في الأموالِ والأَولادِ كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد:٢٠] أَلهى النَّاسَ عَن طَاعةِ اللهِ كَما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن:١٥]، وصدقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، انظرْ للذِينَ ابتُلوا بحبِّ الدُّنيا وإِيثَارِها عَلى الآخرةِ كَيْفَ أَلْهَتهم عنْ دينِ اللهِ، كَيف شَغَلتهم؛ شَغَلَتِ القلبَ والفكرَ والبَدنَ لِطلبِ الحياةِ الدُّنيا.

لكنْ كلُّ هذَا إِلَى متى؟ قالَ اللهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:٢] يَعني إِلى أنْ متُّم ودُفِنتُمْ فِي المقابرِ وأَنْتم لَاهونَ بِها، وزيارةُ المقابرِ بِهَذَا المعنَى قَريبةٌ، لكنَّها غيرُ مَعلومةٍ لنَا، ربَّما يَكونُ الإنسانُ فِي القبرِ آخرَ النهارِ وقَد كان أولَ النهارِ فِي القصرِ.

وسَمَّى اللهُ تعالى ذلكَ زيارةً؛ لأنَّ الإنسانَ لَا يَبْقى فِي قبرِهِ، لا بدَّ مِن بَعْثٍ، فمُكْثُه فِي القبورِ زيارةٌ، وهذَا يدُلُّ عَلى طولِ أمدِ الآخرةِ، وأنَّه لَا نهايةَ لَهَا؛ لأنَّنا نَعلمُ أنَّ فِي القبورِ مَن لهمْ مَلايينُ السنينَ.

سَمِعَ أعرابيٌّ رَجلًا يقرأُ قولَ اللهِ تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، فقالَ هذَا الأعرابيُّ: واللهِ إنَّ وَراءَ المقابرِ شَيْئًا. لأنَّ الزائرَ غيرُ مُقيمٍ، فالَّذي يَزُورُك لَا يَبْقى عندكَ دائمًا؛ بلْ ينصرفُ، فَفهم هَذَا الأعرابيُّ بحِسِّهِ العربيِّ -والقرآنُ الكريمُ عربيٌّ- فَهِمَ أنَّ الزيارةَ تَعني أنَّه لا بدَّ منْ مغادرةِ هذه القُبورِ إِلَى الدَّارِ الآخرَةِ، جَعَلنا اللهُ وإيَّاكُم فِيها منَ السُّعداءِ.

وهنَا أُنبِّهُ عَلى مَا نقرأُ فِي الصحفِ، أَو نَسمعُ فِي الكلامِ، يَقولونَ: الرجلُ ماتَ ونُقِلَ إِلَى مثواهُ الأخيرِ. هذه كلمةٌ خاطئَةٌ، ولا يجوزُ أنْ يَقولَهَا الإنسانُ؛ بَل لَو أَخذْنَا بِمُقْتَضاها لكانَ هذَا الرجلُ القائلُ لَها مُنكرًا لِلبعثِ؛ لأنَّه إذَا جعلَ المثوَى الأخيرَ هو القبورَ فَمَعناه أنَّه لا بَعْثَ؛ ولِذَلك يَجبُ أنْ نُنكرَ عَلى مَن يَقولُهُ، سواءٌ أَكْتبها فِي الصُّحفِ، أَو قَالها بِلسانِهِ، فَنقولُ لِأَمثالِ هَؤلاءِ: اصْبِروا، القبورُ لَيست مَثواهُ الأخيرَ، المثوَى الأخيرُ هِيَ الجَنَّةُ أوِ النارُ.

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ كَلمتانِ يُؤكدُ بَعْضُهُما بَعضًا، والمقصودُ مِنْهما التَّحذيرُ مِن أنْ يُلهيَنا التكاثرُ عنِ الدارِ الآخرةِ، كَما تقولُ لِمن تُريدُ أنْ تُهددَه: سوفَ تعلمُ، سوفَ تعلمُ، فَهو تهديدٌ لِمن يُلْهِيهِ التكاثرُ عنِ الآخِرَةِ.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥] ﴿لَوْ﴾ هَا هُنا شَرطيةٌ،

وجَوَابُها مَحذوفٌ، والتقديرُ: كلَّا لَو تَعلمون علمَ اليقينِ مَا أَلْهاكمُ التكاثرُ؛ ولِذَلك تَجدُ المؤمنَ فِي الدنيا لَا يمكنُ أنْ يؤثرَ الدُّنيا عَلى الآخرةِ أبدًا، إذَا سَمِعَ الأذانَ أغلقَ المحلَّ وأوقفَ عملَهُ وَذَهب يُصلِّي؛ لأَنَّه يَعلمُ علمَ اليقينِ أنَّ الآخرةَ سَتَأتي، وسيكونُ الجزاءُ.

وقوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ [التكاثر:٦] قَد يَظنُّ الَّذي لَيس عِندهُ فهمٌ لِلْمعنى أنَّها جوابُ قولِهِ: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾، هذَا غلطٌ، هذه جُملةٌ مُستأنفةٌ، لَا تعلُّقَ لَها بِما قَبْلَها، والتَّقديرُ فِي هَذهِ الجملةِ: واللهِ لِترونَّ الجَحيمَ، فأكدَ الجملةَ بِالقسمِ المقدرِ، واللامِ، ونونِ التَّوكيدِ، فهذهِ ثَلاثُ مُؤكداتٍ.

والجحيمُ هيَ نـارُ جهنَّمَ، أعاذنَا اللهُ وإيَّاكُم مِنها بِمنِّهِ وكرمِهِ، ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ رُؤيةَ عـينٍ؛ بلْ قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧١-٧٢] اللهمَّ أَنْجِنا مِنْهَا يَا ربَّ العالمين.

ثمَّ أكدَ ذلكَ، فَقالَ: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر:٧]. فانظرْ إِلَى الأُسلوبِ القرآنيِّ فِي الإقناعِ، سُبحانَ اللهِ! لَا شيءَ مثلُهُ، أوَّلًا أخبر خبرًا مُؤكَّدًا بأنَّنا سَنراهُ، ثمَّ قالَ: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾، وهذِهِ مُشاهدةٌ، والمشاهدَةُ أَقوى منَ الخبرِ؛ وَلهذَا قالَ إِبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ قالَ اللهُ لهُ: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة:٢٦٠]. ولما بشرتِ الملائكةُ زَكريَّا بِولدٍ قالَ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ﴾ أَي: علامةً؛ حتَّى أطمئنَّ أكثرَ ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠].

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨] الَّذين كُنتمْ تُكاثرونَ فيهِ، تُسْأَلُ عَن هذَا النعيمِ، أولًا: مَن أَين جَاءكَ؟ وكيفَ جاءكَ؟ ثانيًا: فِيمَ صَرفتَهُ؟ أَصرفته فِي مرضاتِ اللهِ، أَم فِي معصيةِ اللهِ، أَم فِي لغوٍ لَا فائدةَ منهُ؟ لَا بدَّ أَنْ نُسْأَلَ عَن هذَا.

إنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نزلَ ضيفًا عَلى بعضِ الأنصارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم، فَبَسَطَ لَهُمْ بِسَاطًا ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى نَخْلَةٍ فَجَاءَ بِقِنْوٍ فَوَضَعَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «أَفَلاَ تَنَقَّيْتَ لَنَا مِنْ رُطَبِهِ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ تَخْتَارُوا مِنْ رُطَبِهِ وَبُسْرِهِ فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا مِنْ ذَلِكَ المَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ ظِلٌّ بَارِدٌ، وَرُطَبٌ طَيِّبٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ**»[1]. اللهمَّ صلِّ وسلمْ عليه، أخبر أَنَّهُ سَيُسأَلُ عَن هذَا: تمرٌ وماءٌ وظلُّ شَجرةٍ، فما بالُنا اليومَ عَلى ما نحنُ فيهِ منَ النَّعيمِ؟! كلُّ شيءٍ متوفرٌ، تَفتح صُنْبُورَ الماءِ يَنزلُ لكَ الماءُ كَما تحبُّ، إنْ شئتَ باردًا، وإنْ شئتَ حارًّا، وإنْ شئتَ مُتوسطًا بينَ هذَا وذاكَ، عَلى مَا تَبغي وتُريدُ، كذلكَ أنواعُ الأكلِ الَّذي تَعجز عَن تَعدادهَا، مَوجودةٌ والحمدُ للهِ، أَمْنٌ ورخاءٌ، واللهِ لنُسْأَلَنَّ عنْ هَذَا.

ثمَّ هذه النِّعمُ الَّتي نَحن فِيها يُخشى مِنْها؛ لأنَّ النعمَ ابتلاءٌ، والنِّقمَ ابتلاءٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، مِنَ الناسِ مَنْ إذَا أنعمَ اللهُ عَليه بِنعمةٍ أَشْركَ وبغَى، وعصَى واستكبرَ، واستعانَ بِهَا عَلى المعصيَةِ، ومثلُ هذَا نعلمُ أنَّ هذه النِّعمةَ فِي حقِّهِ نقمةٌ واستِدراجٌ، ومنَ الناسِ مَن إذَا أنعمَ اللهُ عليهِ بِالنعمَةِ استعمَلَها فِي طاعةِ اللهِ، وإذَا استعْمَلها فِي المباحِ استعْملها عَلى وجهِ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ، رقم (٢٣٦٩).

لَا إسرافَ فِيه ولَا تَقتيرَ، وتصدَّق مِنها، وأَنْفق فِي سبيلِ اللهِ وهَكَذا، هذه أيضًا نعمةٌ.

فيجبُ عَلَينا أنْ نَتَنَبَّهَ، بِماذا سنجيبُ اللهَ يومَ القيامَةِ إذَا سَأَلَنَا عَن هذَا النَّعيمِ.

الدَّرْسُ الثَّالِثُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١]؛ ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ يعْنِي: أغْفلَكُم حتَّى لهَوْتُمْ بِهِ، ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ في ماذَا؟ فسَّرَتْهَا الآيةُ الأخْرَى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ [الحديد:٢٠]، تجِدُ الرجُلَ يكاثِرُ غيرَهُ يقول: أنا عِنْدِي مئةُ بعيرٍ، وهذَا يقولُ: عِنْدِي مئتَانِ، هذا يقول: عِنْدِي (فِيلَّا) ممتازَةٌ، وهذا يقولُ: عِنْدِي (فِلَّتان)، وهَلُّمَ جرًّا.

أَلْهَى الناسَ التكاثُرُ إلا مَنْ وفَّقَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ للزُّهْدِ في الدُّنْيا، فهنَا لا يُلْهِيهِ التكاثُرُ، ولا شَكَّ أن الآخِرَةَ خيرٌ، وقد ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن الآخِرَةَ ختيرٌ على ثلاثَةِ وُجوهٍ:

الوجْهِ الأوَّلِ: خَصَّ بها شَخْصًا مُعَيَّنًا.

الوجْهِ الثَّانِي: خَصَّ بها بالوصْفِ، وهِي المقَيَّدَةُ بوصْفٍ.

الوجْهِ الثالثِ: أطْلَقَ الآخِرَةَ من حيثُ هي خيرٌ مِنَ الدُّنْيا بلا شَكٍّ.

فمِنَ الأوَّلِ قولُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(١). وفي هذا يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:١٦- ١٧]، ولم يَقُلْ: لِكَذَا ولا لِكَذَا.

ومن الثاني -مقيَّدَةٌ بوَصْفٍ- قولُهُ تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧]، وقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٣٢].

ومن الثالثِ -مقيَّدَةٌ بشَخْصٍ معيَّنٍ- ما جاءَ في قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى للرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤]، فهذا خاصٌّ.

ولهذا لما خطَبَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في أصْحابِهِ ذاتَ يومٍ؛ وقالَ: «**إِنَّ اللهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا** -بينَ أنْ يَعِيشَ في الدنيا ما شَاءَ اللهُ أنْ يعيشَ-، **وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ**»، فبَكَى أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيرُهُ لم يَبْكِ(٢)؛ لأنَّ أبا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعلَمُ الناسِ بمُرادِ رَسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فعَرَفَ أَبو بكرٍ أن المَرادَ بالعَبْدِ رَسُولُ الله ﷺ فبَكَى، فكان في هذا منْقَبةٌ لأبي بَكْرٍ الصدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه أعْلَمُ الناسِ بمُرادِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ ولهذا لو تَعارَضَ قولُ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ، ولا مُرَجِّحَ من الكِتَابِ والسُّنَّةِ؛ أخَذْنا بقَولِ أبي بكْرٍ، ولو تعارَضَ قولُ أبي بَكْرٍ وعثمانَ في مسألَةٍ، وليسَ فيها نصٌّ يفصِلُ بينَ الرَّجُلَينِ؛ أخَذْنا بقولِ أبي بكْرٍ، ولو تعارَضَ قولُ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقولِ عَلِيٍّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقم (٤٦٦).

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وليس هناك نصٌّ يفصِلُ بينَ القَولينِ؛ أخذْنَا بقولِ أبي بكْرٍ؛ لأن قولَ أبي بكرٍ أقرَبُ للصَّوابِ بلا شكٍّ، هو أوَّلُ خليفَةٍ في هذِهِ الأمَّةِ.

إذن: التَّكَاثُرُ يعْنِي فِي الأموالِ والأولادِ.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:٢] يعْنِي: حَتَّى انتَقَلْتُمْ مِنَ الدُّنْيا إلى المقابِرِ، هذا هو المُرادُ مِنَ الزيارَةِ، وليس المعْنَى: حتَّى زُرْتُمُ المقابِرَ للسَّلامِ على أهْلِ القُبورِ، في أن هذَا خَيْرٌ، فقولُهُ: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي: حتَّى مُتُّمْ ودُفِنْتُمْ في المقابِرِ.

وذَكَرَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ في كتَابِهِ (الجواب الكافي) أن رَجُلًا حَضَرْتُه الوفاةُ، فقِيلَ له: قُلْ: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، قال: العَشْرُ بإحْدَى عشرة، قل: لَا إِلَهَ إلا الله، فيقُولُ: العَشْرُ بإحْدَى عشْرَةَ، قل: لا إِلَهَ إلا اللهُ، فيقولُ: العَشْرُ بإحْدَى عشْرَةَ[1]. يعني التجارَةَ، يبِيعُ العَشْرَ بإحْدَى عشْرَةَ، ففُتِنَ في الدُّنْيا إلى هذِه اللحْظَةِ.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣] ﴿كَلَّا﴾ هنا بمَعْنَى حقًّا، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تَعْلَمُونَ مَا أنْكَرْتُموهُ مِنَ البعْثِ؛ لأن الكفَّارَ أنْكَرُوا البَعْثَ؛ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، فأجابَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِمَا ذُكِرَ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، ثُمَّ ذكَرَ الأدِلَّةَ على هَذَا.



---

(١) الداء والدواء (١/ ٣٨٧).

الدرس الرابع:

الحَمدُ لله رَبِّ العالَمِينَ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيِّينَ وإمامِ المُتَّقِينَ، وعَلَى آلِهِ وأصْحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسَانٍ إلَى يَوْمِ الدِّينِ، أمَّا بَعْدُ:

فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التَّكاثُر:١-٢].

هُنا مُلْهٍ ومُلْهًى عنهُ، أَلْهَاكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المُنافِقونَ:٩].

إِذَنْ: أَلْهَاكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ التَّكاثُرُ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلَادِ، يَقُولُ: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكَهْفِ:٣٤] أنَا أكْثَرُ منكَ مالًا وأكْثَرُ ولَدًا: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مَرْيَم:٧٧] فالتَّكاثُرُ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلَادِ أَمْرٌ جِبِلِّيٌّ جُبِلَ عَلَيْهِ الخَلْقُ.

مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ هَذِهِ الكَثْرَةَ الَّتِي يَمُنُّ اللهُ بِهَا عَلَيْهِ يَجْعَلُهَا فِي مَرْضاةِ اللهِ، وفي هَذَا يقولُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ عِنْدَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ**»(١) ومِنَ النَّاسِ مَنْ تكُونُ الكَثْرَةُ مُلْهِيَةً لهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ حتَّى يَتَشاغَلَ بما خُلِقَ لهُ عمَّا خُلِقَ لهُ، يَتَشاغَلُ بِمَا خُلِقَ لهُ وهُوَ المالُ، فالمالُ مَخْلُوقٌ لكَ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البَقَرة:٢٩] وكُلُّ الَّذِي فِي الأَرْضِ مَخْلوقٌ لَنا، بلْ قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لُقمان:٢٠] سَخَّرَ اللهُ لنَا الشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ، فهَذَا اشْتَغَلَ بما خُلِقَ لهُ عمَّا خُلِقَ هُوَ لهُ وهُوَ عِبادَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات:٥٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٧)، من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِذَنْ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١]فِي الأَمْوَالِ والأَوْلَادِ عَنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:٢] يَعْنِي حتَّى مِتُّمْ، والمَقابِرُ جَمْعُ مَقْبَرَةٍ، وهِيَ مَدْفَنُ المَوْتَى، وفي هَذَا يقولُ الشاعِرُ:

لِكُلِّ أُنَاسٍ مَدْفَنٌ فِي فِنَائِهِمْ فَهُمْ يَنْقُصُونَ وَالقُبُورُ تَزِيدُ[1]

وقالَ تَعالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران:١٨٥] وهَذَا المَوْتُ أَيْضًا لَيْسَ مَعْلُومًا؛ إِذْ أَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَدْرِي متى يَفْجَؤُهُ المَوْتُ، ولكنْ معَ ذَلِكَ النُّفُوسُ مجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢].

واسْتَدَلَّ أعْرابِيٌّ مِنَ الأعْرابِ -والأعْرابُ عِنْدَهُمْ ذَكاءٌ- بهذِهِ الآيَةِ عَلَى ثُبوتِ البَعْثِ، وأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ بَعْثٍ، قالَ: واللهِ إِذَا كانَ الإِنْسَانُ يَزُورُ المَقابِرَ فلا بُدَّ أَنْ يَرْتَحِلَ عَنِ المَقابِرِ، فالَّذِي يَزُورُكَ لَا يَسْكُنُ عِنْدَكَ، بلْ يَزُورُ ويَمْضِي، فالأَعْرَابِيُّ قَالَ: لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُناكَ شَيْءٌ وَراءَ المَقابِرِ؛ لأَنَّهُ قالَ: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:٢] فالأَعْرَابُ عندهُمْ ذَكاءٌ فِي بَعْضِ الأَحْيانِ.

وقَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَمِعَ قارِئًا يَقْرَأُ: «والسارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، قَالَ الأَعْرَابِيُّ: مَا هَكَذَا؟ اقْرَأِ الآيَةَ، قالَ: «والسارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» قَالَ: اقْرَأْ، قالَ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا

(١) نسبه في الصحاح (٢/ ٧٨٤)، ولسان العرب (٥/ ٦٨) لعبد الله بن ثعلبة الحنفي، وهو في البيان والتبيين (٣/ ١٢٤)، وعيون الأخبار (٣/ ٧٥) غير منسوب.

كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٨] قال: الآنَ عَزَّ وحَكَمَ فَقطَعَ، ولوْ غفَرَ ورَحِمَ ما قَطعَ(١)، سُبْحَانَ اللهِ! فَهْمٌ عَمِيقٌ جِدًّا.

إذَنْ نقولُ: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التَّكاثر:٢] تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الإنْسَانَ إذَا دُفِنَ فإنَّما هُوَ زَائِرٌ، ولا بُدَّ لهُ مِنْ رَحِيلٍ.

وبهذِهِ المُناسَبَةِ أَوَدُّ أنْ أُنَبِّهَكُمْ عَلَى كَلِمَةٍ تُقالُ كَثِيرًا وهِيَ خطأٌ وخَطِيرَةٌ أيْضًا، يقولُ بعضُ النَّاسِ إذَا ماتَ الإنْسَانُ: ثُمَّ نُقِلَ إلَى مثواهُ الأخيرِ، وهَذَا غَلَطٌ، فالقَبْرُ لَيْسَ المَثْوَى الأخِيرَ، بلِ المَثْوَى الأخِيرُ هُوَ الجَنَّةُ أوِ النَّارُ؛ ولِهَذَا لوْ كانَ الإنْسَانُ يَعْتَقِدُ مَدْلُولَ مَا يقولُ لكانَ كافِرًا؛ لأَنَّنَا لوْ أخَذْنَا اللَّفْظَ فِي قَالَبِهِ لكانَ المَعْنَى أَنَّ القَبْرَ هُوَ النِّهايةُ ولَيْسَ كذَلِكَ، فهُناكَ بَعْثٌ بعدَ القَبْرِ؛ ولِهَذَا انْتَبِهُوا لهذِهِ الكَلِمَةِ الَّتِي تُقالُ كَثِيرًا فِي المَجَلَّاتِ والصُّحُفِ والجَرائِدِ.

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التَّكاثر:٢-٤] هَاتانِ جُمْلَتَانِ تَتَضَمَّنَانِ أشَدَّ الوَعِيدِ، إنَّ مِنْ أساليبِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ أنْ يَقُولَ الأعْلَى لِمَنْ دُونَهُ: سَوْفَ تَعْلَمُ، سَوْفَ يَتبَيَّنُ لكَ، وهَذَا تَهْدِيدٌ عَظِيمٌ؛ لأَنَّهُ يدلُّ عَلَى أَنَّ القائِلَ سَوْفَ يَبْطِشُ بالمُخاطَبِ.

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التَّكاثر:٣-٥] و(كَلَّا) جاءَتْ فِي القُرْآنِ المَكِّيِّ، والقُرْآنُ تَعْلَمُونَ أنَّهُ مَكِّيٌّ ومَدَنِيٌّ، مَا نَزَلَ قَبْلَ الهِجْرَةِ فهُوَ مَكِّيٌّ، وما نَزَلَ بَعْدَهَا فهو مَدَنِيٌّ، والآياتُ القُرْآنِيَّةُ المَكِّيَّةُ

---

(١) ذكرها السمعاني في تفسيره (٢/ ٣٦)، والطيبي في حاشيته على الكشاف (٣/ ٣٢٥)، وابن القيم في جلاء الأفهام (ص: ١٧٢).

تَجِدُهَا قَوِيَّةً جدًّا، أُسْلُوبُهَا قاسٍ؛ لأَنَّهَا نَزَلَتْ بَيْنَ قَوْمٍ عُتاةٍ مُشْرِكِينَ، لكنِ الآيَاتُ المَدَنِيَّةُ تَجِدُهَا سَهْلَةَ الأُسْلُوبِ؛ لأَنَّهَا تُخاطِبُ أُناسًا أَخَذُوا عَلَى الإِسْلامِ، وعَرَفُوا الإِسْلامَ، ثُمَّ هِيَ أَيْضًا نَزَلَتْ بَيْنَ أَهْلِ الكِتَابِ اليَهُودِ، فكانَتِ العِباراتُ لَيِّنَةً.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التَّكاثر:٣-٥] تَكَرَّرَتْ (كَلَّا) ثَلاثَ مرَّاتٍ فِي آياتٍ قِصَارٍ.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التَّكاثر:٥] جوابُ (لَوْ) مَحْذُوفٌ، والتقدِيرُ: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ لَمَا أَلْهَاكُمُ التَّكاثُرُ» يَعْنِي: لوْ تَعْلَمُونَ مَا أَمَامَكُمْ مِنَ الوَعِيدِ عندَ اللَّهْوِ عَنْ ذِكْرِ اللهِ لَمَا أَلْهَاكُمُ التَّكاثُرُ، فالجوابُ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ السِّياقُ.

وأمَّا قَوْلُهُ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التَّكاثر:٦] فهَذَا لَيْسَ جَوابَ (لَوْ) ولهَذَا يَحْسُنُ إذَا قَرَأْتَ هَذِهِ السُّورَةَ أَنْ تَقِفَ فتَقُولَ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ وبعضُ القُرَّاءِ حتَّى بعضُ أئِمَّةِ المساجِدِ يَصِلُ فيقولُ:

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التَّكاثر:٥-٦] وهَذَا يُخِلُّ بالمَعْنَى؛ لأَنَّ السامِعَ يَظُنُّ أنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جوابُ ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ ولَيْسَ كذَلِكَ، فالجوابُ مَحْذُوفٌ، و﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ مُؤَكَّدَةٌ بثَلاثَةِ مُؤَكِّداتٍ:

- القَسَمُ المَحْذُوفُ.
- واللامُ.
- ونُونُ التَّوْكِيدِ.

وأَصْلُ العِبارَةِ: «واللهِ لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ» ولكنَّ القُرْآنَ كما تَعْلَمُونَ نَزَلَ باللِّسانِ

العَرَبِيِّ، والقَسَمُ يُحْذَفُ فِي مِثْلِ هَذَا التَّقْيِيدِ باللِّسانِ العَرَبِيِّ.

والجَحِيمُ اسْمٌ مِنْ أَسْماءِ النَّارِ، وأَسْمَاءُ النَّارِ مُتَعَدِّدَةٌ، ولكنْ كُلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْماءِ النَّارِ فإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الآخَرُ، والأَسْماءُ كُلُّهَا تكونُ مُشْتَرَكَةً بالدَّلالَةِ عَلَى الذَّاتِ، وتَكُونُ مُتبايِنَةً فِي الدَّلالَةِ عَلَى الأَوْصافِ والمَعانِي الَّتِي يَتَضَمَّنُهَا كُلُّ اسْمٍ.

فمَثَلًا: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البَقَرة:٢٥٥] ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ ﴾ [الحشر:٢٢-٢٣] فالمَلِكُ، والقُدُّوسُ، والسَّلامُ، والمُؤْمِنُ، والمُهَيْمِنُ، والعَزِيزُ، والجَبَّارُ، والمُتكبِّرُ هُوَ اللهُ، فكُلُّ هَذِهِ دَلَّتْ عَلَى شَيْءٍ واحِدٍ، وهُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لكنْ لكُلِّ اسْمٍ مِنْهَا مَعْنًى خاصٌّ يَسْتَقِلُّ به.

والنَّارُ لهَا أَسْماءٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا الجَحِيمُ، وجَهَنَّمُ، والسَّعِيرُ، كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ واحِدٍ، أَمَّا فِي المَعْنَى فتَخْتَلِفُ.

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴾ [التَكاثر:٧] الجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ حَيْثُ المَعْنَى مُؤَكِّدَةٌ للجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ أي الجَحِيمَ ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴾ أي: المُشاهَدَةِ، كُلُّ النَّاسِ يُشاهِدُونَ النَّارَ، أَعاذَنَا اللهُ وإِيَّاكُمْ مِنْهَا، وأَنْقَذَنا مِنْهَا بمَنِّهِ وكَرَمِهِ.

وهُنا ثَلاثَةُ أَشْياءَ: (عِلْمُ اليَقِينِ، وعَيْنُ اليَقِينِ، وحَقُّ اليَقِينِ).

فِي يدِ الأخِ تُفَّاحَةٌ، فأَخْبَرَنِي قالَ: بِيَدِي تُفَّاحَةٌ وأَنَا أَعْرِفُ أَنَّ الرَّجُلَ ثِقَةٌ، فهَذَا عِلْمُ اليَقِينِ، فإذا أَرانِي إِيَّاها فهَذَا عَيْنُ اليَقِينِ، وإِذَا أَكَلْتُهَا فهَذَا حقُّ اليَقِينِ.

ثانيًا: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التَّكاثر:٧] أيْ: تُشاهِدُونَهَا يَقِينًا ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التَّكاثر:٨] مَا أعْظَمَ هَذَا! و﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ جُمْلَةٌ مُؤَكَّدَةٌ بثَلاثَةِ مُؤَكِّدَاتٍ:

الأَوَّلُ: القَسَمُ المَحْذُوفُ.

والثَّانِي: اللامُ.

والثَّالِثُ: نُونُ التَّوْكِيدِ.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التَّكاثر:٨] أيْ: عمَّا نَعَّمَكُمُ اللهُ بِهِ وأعْطَاكُمْ، تُسْأَلُونَ، تُسْأَلُ أوَّلًا مِنْ أيْنَ جاءَكَ هَذَا المالُ؟ لأنَّا نَعْلَمُ أنَّ السَّماءَ لَا تُمْطِرُ ذَهَبًا ولا فِضَّةً، فلا بُدَّ مِنْ عَمَلٍ وكَسْبٍ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [المُلك:١٥] ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة:١٠] فالمالُ لَا بُدَّ مِنْ كَسْبِهِ، والكَسْبُ إمَّا اخْتيارِيٌّ وإمَّا إجْبارِيٌّ قَهْرِيٌّ، فانْتِقالُ المالِ مِنَ المَيِّتِ إِلَى وارِثِهِ إجْبارِيٌّ؛ ولهَذَا لوْ قَالَ الوارِثُ: أنَا لَا أُرِيدُ المِيرَاثَ، قُلْنَا: غَصْبٌ عَلَيْكَ، المِيرَاثُ حَقٌّ لكَ مَلَّكَكَ اللهُ إيَّاهُ فلا يُمْكِنُ أنْ تَفِرَّ منهُ.

أمَّا انْتقالُ المِلْكِ بالبَيْعِ فاخْتِيَارِيٌّ، فلا أحَدَ يُجْبَرُ عَلَى البَيْعِ، اللَّهُمَّ إلَّا بحَقٍّ كالمَحْجُورِ عليْهِمْ، لكنْ إذَا كانَ سَبَبٌ شَرْعِيٌّ فهو اخْتِيَارِيٌّ، فلا أحَدَ يُجْبَرُ عَلَى أنْ يَبِيعَ مالَهُ، حتَّى أبُوكَ لَا يَسْتَطِيعُ أنْ يُجْبِرَكَ عَلَى بَيْعِ مَالِكَ، لوْ قَالَ لكَ أبُوكَ: يَا وَلَدِي بِعِ السَّيَّارَةَ، فلا يُجْبِرُكَ.

فإنْ قَالَ قائِلٌ: ألَيْسَ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ**»[1]؟

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٤)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في الرجل يأكل من مال ولده، رقم

فالجَوَابُ: بَلَى، لكنْ دَعْهُ يَتَمَلَّكُ السَّيَّارَةَ، ثُمَّ يَبِيعُهَا، يَعْنِي: لَوْ شاءَ أَبِي تَمَلَّكَ السَّيَّارَةَ وبَاعَهَا، أَمَّا أَنْ يُجْبِرَنِي عَلَى بَيْعِهَا وهِيَ مِلْكِي فلا.

ولَوْ قَالَ أَبُوكَ: طَلِّقْ زَوْجَتَكَ! تُطَلِّقُ؟! أَقُولُ: لا، أَنَا أُرِيدُ زَوْجَتِي أُمَّ أَوْلادِي، أَوْ أَنَّها لَمْ تَلِدْ حتَّى الآنَ، لكنْ أَنَا أُرِيدُهَا، فلا يُمْكِنُ.

يُقَالُ: إنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى الإمامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَسْتَفْتِيهِ، يقولُ: إنَّ أَبِي أَمَرَنِي أَنْ أُطَلِّقَ زَوْجَتِي وأَنَا رَاغِبُهَا وهِيَ ذاتُ دِينٍ وخُلُقٍ، قالَ: لَا تُطَلِّقْهَا.

يَقُولُهُ الإمامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَعْلَمُ الأئِمَّةِ بالسُّنَّةِ، وأَشَدُّهُمْ وَرَعًا وزُهْدًا وخَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وكُلُّهُمْ عَلَى حقٍّ، لكنَّ الإمامَ أَحْمَدَ مَشْهُورٌ بِلَقَبِ إِمَامِ أَهْلِ السُّنَّةِ.

قالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ أَلَيْسَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمَرَ ابْنَهُ أَنْ يُطَلِّقَ زَوْجَتَهُ، فاسْتَفْتَى عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**طَلِّقْهَا**»(١) فقالَ لهُ الإمامُ أَحْمَدُ جَوَابًا سَدِيدًا قالَ: هلْ أَبُوكَ عُمَرُ؟(٢)

الجَوابُ: لا، فعُمَرُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْمُرَ ابْنَهُ أَنْ يُطَلِّقَ زَوْجَتَهُ إِلَّا لسَبَبٍ شَرْعِيٍّ، لكنَّ غَيْرَ عُمَرَ رُبَّما يُطَلِّقُهَا لسَبَبٍ شَخْصِيٍّ، فبَعْضُ النَّاسِ إِذَا رأَى أَنَّ ابْنَهُ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بزَوْجَتِهِ يَغارُ مِنْ ذَلِكَ، ويقولُ: طَلِّقْ، ولاسيَّما بعضَ الأُمَّهاتِ، فبعضُ الأُمَّهاتِ

= (٣٥٣٠)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، رقم (٢٢٩٢)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في بر الوالدين، رقم (٥١٣٨)، والترمذي: كتاب الطلاق، باب ما جاء في الرجل يسأله أبوه أن يطلق زوجته، رقم (١١٨٩)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب الرجل يأمره أبوه بطلاق امرأته، رقم (٢٠٨٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١/ ١٧١)، والآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٤٤٧).

إِذَا رأَتِ ابْنَهَا مُتَعَلِّقًا بزَوْجَتِهِ صارتْ كأَنَّهَا ضَرَّةً لها، وأَمَرَتْهُ أَنْ يُطَلِّقَ، وهَذَا لَا يَلْزَمُ الوَلَدَ.

إِذَنْ: يُسْأَلُ الإنْسَانُ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَ المالَ؟ قَدْ يَكُونُ اكْتَسَبَهُ عَنْ طريقٍ مُحَرَّمٍ، فإذا قَالَ: إنَّهُ اكْتَسَبَهُ عَنْ طَرِيقِ الرِّبا، كأَنْ يُعْطِيَ إنْسَانًا أَلْفَ دِينارٍ ويَقُولَ لهُ: هاتِهَا بعدَ سَنَةٍ أَلْفًا ومِئَةَ دِينارٍ، فهَذَا يَكُونُ رِبًا.

ويقولُ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحْمَةُ اللهِ عليْهِ-: إِنَّهُ وَرَدَ مِنَ الوَعِيدِ عَلَى الرِّبَا مَا لَمْ يَرِدْ فِي أَيِّ ذَنْبٍ آخرَ سِوَى الشِّرْكِ[1]، لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ آكِلَ الرِّبَا، ومُوكِلَ الرِّبَا، وشَاهِدَيِ الرِّبَا، وكاتِبَ الرِّبَا[2]، كلُّهُمْ لُعِنُوا عَلَى لِسانِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فآكِلُ الرِّبَا آكِلُ اكْتَسَبَ المالَ بالغِشِّ، كإِنْسَانٍ عندَهُ طَعامٌ، فِيهِ طَيِّبٌ وفِيهِ رَدِيءٌ، فجَعَلَ الرَّدِيءَ أَسْفَلَ والطَّيِّبَ فَوْقَ، حتَّى يَغُشَّ النَّاسَ ويَغُرَّ النَّاسَ، فهَذَا حَرامٌ، بل هُوَ مِنْ كَبائِرِ الذُّنُوبِ، والعياذُ باللهِ.

مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بصاحِبِ طَعامٍ، فأَدْخَلَ يدَهُ فِي الطَّعامِ، وكأَنَّهُ واللهُ أَعْلَمُ شَمَّ منهُ رائِحَةً، فأَدْخَلَ يدَهُ فِي الطَّعامِ فإذا أَسْفَلُ الطَّعامِ فِيهِ ماءٌ، فقَالَ: «**ما هَذَا؟**» قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَصابَتْهُ السَّماءُ، أَيِ المَطَرُ، قالَ: «**هَلَّا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ؛ لِيَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا**»[3].

---

(١) انظر: إقامة الدليل على إبطال التحليل [الفتاوى الكبرى] (٦/ ١٣٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا، رقم (١٥٩٨)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**من غشنا فليس منا**»، رقم (١٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كذَلِكَ إنْسَانٌ قالَ: أنَا أتَعامَلُ بالغِشِّ معَ الكُفَّارِ وبالأَمَانَةِ معَ المُسْلِمينَ، فإنَّهُ يَدْخُلُ فِي هَذَا الحَدِيثِ: «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا» بلْ قَدْ يَكُونُ أشَدَّ؛ لأنَّ غِشَّ الكَافِرِ يُوجِبُ النُّفْرَةَ عَنِ الإسْلامِ.

فالَّذِي اكْتَسَبَ المالَ بالغِشِّ يُعاقَبُ عَلَى هَذَا؛ لأنَّهُ اكْتَسَبَهُ عَنْ طَرِيقٍ مُحَرَّمٍ، وكُلُّ مَنِ اكْتَسَبَهُ عَنْ طريقٍ مُحَرَّمٍ فهُوَ حَرامٌ، لَا يَجُوزُ.

إذَنْ: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التَّكاثُر:٨] عَنِ المالِ مِنْ أيْنَ اكْتَسَبْتَهُ؟

وتُسْأَلُ أيْضًا عَنِ المالِ فِيمَا أفْنَيْتَهُ، قَدْ يَكْتَسِبُ الإنْسَانُ المالَ مِنْ طَرِيقٍ حَلالٍ، لكنْ يَصْرِفُهُ فِي غيْرِ مَا أُذِنَ لهُ فيهِ، كإنْسَانٍ اشْتَرَى بمالِهِ المُباحِ خَمْرًا ليَشْرَبَهَا، فإنَّهُ يُسْأَلُ عَنْ هَذَا؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى لَمْ يُعْطِكَ المالَ لِتَعْصِيَهُ بهِ، وإنَّمَا أعْطاكَ المالَ لِتَشْكُرَهُ بِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البَقَرة:١٧٢] أمَّا أنْ تَسْتَعِينَ بالمالِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ فهَذَا غيرُ مَقْبُولٍ لا شَرْعًا ولا عَقْلًا.

أرَأَيْتَ -وللهِ المَثَلُ الأعْلَى- لوْ أنَّ شَخْصًا أعْطاكَ مالًا هَدِيَّةً، فأخَذْتَ هَذَا المالَ، وصِرْتَ تَعْصِي الَّذِي أعْطاكَ هَذَا المالَ، فإنَّ هَذَا لَا يُعَدُّ مِنَ العَقْلِ.

إذَنْ: أَعِدَّ جوابًا لهذِهِ الأسْئِلَةِ:

السُّؤَالُ الأَوَّلُ: مِمَّا اكْتَسَبْتَ المالَ؟

السُّؤَال الثَّانِي: فِيمَا أنْفَقْتَ المالَ وأفْنَيْتَ المالَ.

ولِهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النِّساءِ:٥]

أيْ: يَقُومُ بِهِ مَصالِحُ الدِّينِ والدُّنْيَا، ونَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ إضَاعَةِ المالِ[1]، حتَّى قَالَ العُلَماءُ: مَنْ عُرِفَ بأنَّهُ يُضَيِّعُ المالَ فإنَّهُ يَجِبُ عَلَى وَلِيِّ الأمْرِ أنْ يَحْجُرَ عليْهِ، كمَنْ عندَهُ مالٌ كَثِيرٌ، واشْتَرى مُفَرْقَعاتٍ، وجَعَلَ يَلْعَبُ بهَا، فهَذَا سَفِيهٌ نَحْجُرُ عَلَيْهِ فِي مالِهِ.

فإذا قالَ: هَذَا مالِي.

قُلْنَا: لكِنْ مَالُكَ لَا يُمْكِنُ أنْ نُمَكِّنَكَ مِنْ صَرْفِهِ فِي أمْرٍ لَا خَيْرَ فيهِ، وفي أمْرٍ فِيهِ مَضَرَّةٌ مِنْ بابِ أوْلَى أنْ نَمْنَعَهُ.

وهُنا مَسْأَلَةٌ ابْتُلِيَ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ حتَّى مِنْ أهْلِ الدِّينِ، وهِيَ التَّدْخِينُ، وهُوَ حَرامٌ، والدَّلِيلُ مِنَ القُرْآنِ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النِّساءِ:٢٩] والدُّخانُ سَبَبٌ لأمْراضٍ تَقْتُلُ الإنْسَانَ، فمِنْ أكْبَرِ أسْبابِ السَّرطانِ الرِّئَوِيِّ والحَلْقِيِّ شُرْبُ الدُّخانِ.

دَلِيلٌ آخَرُ: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النِّساءِ:٥] والأمْوالُ قِيامٌ للدِّينِ والدُّنْيَا، ولَيْسَتْ تُصْرَفُ فِي الأشْياءِ الضَّارَّةِ.

والدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ إضاعَةِ المالِ[2] وهَذَا إضاعَةٌ.

والدَّلِيلُ مِنَ العَقْلِ والنَّظَرِ: أنَّ التَّدْخِينَ سَبَبٌ لِثِقَلِ العِبادَاتِ عَلَى المُدَخِّنِ، ولاسِيَّما الصَّوْمَ، تَجِدُ الصَّوْمَ عِنْدَ المُدَخِّنِ أثْقَلَ شَيْءٍ، حتَّى الصَّلاةُ ثَقِيلَةٌ عليْهِ، فلَوْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستقراض، باب ما ينهى عن إضاعة المال، رقم (٢٤٠٨)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) التخريج السابق.

حانَ وقْتُ صَلاةٍ وهُوَ يَشْتَهِي أنْ يَشْرَبَ سِيجارَةً تكونُ الصَّلاةُ ثَقِيلَةً عليْهِ، والَّذِي يَثْقُلُ عَنِ العِبادَاتِ لَا خَيْرَ فيهِ.

كذَلِكَ تَجِدُ المُدَخِّنَ يَبْتَعِدُ ابْتِعادًا تامًّا عَنْ مُجالَسَةِ أهْلِ الصَّلاحِ؛ لأنَّ أهْلَ الصَّلاحِ سَوْفَ يَمْنَعُونَهُ مُباشَرَةً أوْ حياءً -هُوَ يَمْتَنِعُ حياءً أوْ يَمْتَنِعُ قَهْرًا إذَا قالُوا: لَا تُدَخِّنْ- وكُلُّ شَيْءٍ يُنَفِّرُكَ عَنْ مُخالَطَةِ أهْلِ الصَّلاحِ فلا خَيْرَ فِيهِ.

والأدِلَّةُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ؛ ولِهَذَا أُشِيرُ عَلَى مَنِ ابْتُلِيَ بِهَذَا التَّدْخِينِ أنْ يَتُوبَ إلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنْ يُمَرِّنَ نفسَهُ عَلَى تَرْكِهِ.

لكنْ قَدْ يَقُولُ: أنا لَا أسْتَطِيعُ أنْ أَدعَهُ مرَّةً واحِدَةً، فهل مِنَ المُمْكِنِ أنْ أدعَهُ عَلَى فَتراتٍ؟

الجَوابُ: نَعَمْ، مُمْكِنٌ، نقولُ: اليَوْمَ اشْرَبْ عَشَرَةً بَدَلًا من عِشْرِينَ، وغدًا خَمْسَةً بدَلًا مِنْ عشَرَةٍ؛ لأنَّ هَذَا دواءٌ، والدَّواءُ يُسْلَكُ فِيهِ أقْرَبُ الطُّرُقِ إلَى حُصولِ العِلاجِ.

فإذَا قالَ: أنا لَا أسْتَطِيعُ أنْ أَدعَهُ مرَّةً واحِدَةً.

قُلْنَا لهُ: خَفِّفْ شَيْئًا فشَيْئًا، حتَّى تَدَعَهُ بالكُلِّيَّةِ.

لكنَّ أكْثَرَ المُدَخِّنِينَ -نسأَلُ اللهَ لنا ولهُمُ الهِدايَةَ- لَيْسَ عِنْدَهُمْ عَزِيمَةٌ ولا قُوَّةُ شَخْصِيَّةٍ، يَغْلِبُهُمُ الهَوَى والنَّفْسُ، فيَعْجِزُونَ عَنْ تَرْكِهِ، لكنْ لَوْ مَرَّنُوا أنْفُسَهُمْ لتَرَكُوهُ.

إذَنْ: سَوْفَ يُسْأَلُ الإنْسَانُ يَوْمَ القِيامَةِ عَنْ مالِهِ، لِماذَا صَرَفْتَهُ فِي هَذَا الدُّخانِ؟

فإنْ قَالَ قائِلٌ: هلْ يُسْأَلُ الإنْسَانُ عَنِ المالِ إذَا كانَ مُلائمًا للنَّفْسِ، فمَثلًا الأكْلُ أحْيانًا لَا يجِدُ الإنْسَانُ مَا يَأْكُلُهُ إلَّا قُرْصًا وماءً مُسْكِرًا -أيْ: جُعِلَ فِيهِ سُكْرٌ- فلا يَجِدُ أنْواعَ الإداماتِ وأنْواعَ الخُبْزِ؟

قُلْنَا: يُسْأَلُ؛ لأنَّ كُلَّ نَعِيمٍ بحَسَبِهِ، فنَعِيمُ الغَنِيِّ شَيْءٌ ونَعِيمُ الفَقِيرِ شَيْءٌ آخَرُ، لكنْ كُلُّ إنْسَانٍ يُسْأَلُ يَوْمَ القِيامَةِ عَنِ النَّعِيمِ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعالَى أنْ يُوَفِّقَنَا وإيَّاكُمْ لصَرْفِ مَا أنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا فِيمَا يُرْضِيهِ، اللَّهُمَّ مُنَّ عَلَيْنَا بذَلِكَ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، واجْعَلْنَا مِنْ عِبادِكَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَسْتَعِينُونَ بِفَضْلِكَ عَلَى طَاعَتِكَ؛ إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.





سورةُ العصرِ

الدرسُ الأولُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢] الواوُ هذه للقسمِ، والعصرُ هو الدهرُ؛ وأقسمَ اللهُ بِهِ لأنَّ الدهرَ خزائنُ لِلأعمالِ الصَّالحةِ أَوِ السَّيِّئَةِ، والعصرُ قيلَ: إنَّه مئةُ سنةٍ، أَو ألفُ سنةٍ، أَو مَا أَشْبَهَ ذَلك؛ لكنَّ الصوابَ أَنَّهُ الدهرُ مطلقًا، وقدْ أقسمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلى أنَّ الإنسانَ فِي خسرٍ، والمرادُ بِالإنسانِ هنَا كلُّ إنسانٍ، فالإنسانُ هُنا كَالإنسانِ فِي قَولِهِ تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] أي: كلُّ إِنسانٍ، وسأُعْطِي إِخْوانَنا الَّذين يَشمُّون رَائحةَ النحوِ، وليسَ مَن تشبَّعُوا منهُ، بلِ الذينَ يَشمُّونَ الرائحةَ: أنَّ (ال) إنْ صحَّ أنْ يحلَّ محلَّها (كل) فَهيَ للعمومِ، فهُنا يَصِحُّ أنْ يقالَ: إنَّ كلَّ إنسانٍ لفِي خسرٍ؛ ولهذَا قالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر:٣]، والاستثناءُ مِعيارُ العمومِ، كلُّ إنسانٍ فهو فِي خسرٍ.

وانظرْ كيفَ عبرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِقولِهِ: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، ولَمْ يقلْ لخاسرٍ؛ لأنَّ ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أعظمُ وأبلغُ، كأنَّه -أي: الخُسْر- إناء، والإنسانُ فِي وَسطِهِ، أَي: إنَّ الخسرَ مُحيطٌ بِه منْ كلِّ جانبٍ؛ لأنَّ (فِي) للظَّرفيةِ، والظَّرف مُحيطٌ بِالمظروفِ، فَالمعْنى أنَّ الإنسانَ فِي خسرٍ، إلَّا هَؤلاءِ السادةَ الكرامَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾، فذكرَ -سُبحانهُ- أربعةَ أَوصافٍ:

الوَصفُ الأولُ: الذينَ آمنُوا بِاللهِ، وبمَا يجبُ الإيمانُ بهِ، وهوَ الإيمانُ بِاللهِ، ومَلائكتِهِ، وكتبِهِ، ورُسلِهِ، واليوم الآخرِ، والقَدَرِ خَيرِهِ وشرِّهِ.

الوَصْفُ الثَّانِي: عملُوا الصَّالحاتِ، أَي: عمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ، وهِيَ العباداتُ المبنيَّةُ عَلى الإخلاصِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، والمتابعةِ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

الوصفُ الثَّالثُ: وتَوَاصَوْا بالحقِّ، أَي: صارَ بعضُهمْ يُوصِي بَعضًا بِالحقِّ، والحقُّ مَا جاءَ بِهِ الشَّرعُ.

الوصفُ الرَّابعُ: وتَواصَوْا بِالصبرِ، أَي: أَوْصى بَعضُهم بَعضًا بالصبرِ عَلى طاعةِ اللهِ، وعنْ مَعصيةِ اللهِ، وعَلى أَقدارِ اللهِ، فَالصبرُ ثَلاثةُ أنواعٍ:

النَّوعُ الأولُ: صبرٌ عَلى معاصِي اللهِ؛ لأنَّ الشيطانَ والنفسَ الأمارةَ بالسوءِ إذَا أردتَ طاعةً جعلَا يوسوسان لكَ، ويثبطانكَ، فاصبرْ، وافعلِ الطاعاتِ.

النوعُ الثَّاني: صبرٌ عنْ مَعصيةِ اللهِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ أيضًا يَؤُزُّك أزًّا إِلَى المعاصِي، فاصبرْ عَنْهَا، واحبسْ نَفسَكَ عَنها، ومَا هيَ إلَّا ساعاتٌ ثمَّ تَنْتَهِي.

النَّوعُ الثالثُ: الصبرُ عَلى أقدارِ اللهِ، أقدارُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْها مَا يؤلِمُ، ومنهَا مَا يلائمُ، فَالمؤلم مثلُ المرضِ والفقرِ، والملائمُ مثلُ الصِّحةِ والغنَى.

إذن، الصبرُ عَلَى أقدارِ اللهِ: أنْ يصبرَ الإنسانُ عَلى ما قدَّر اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الأشياءِ المؤلمةِ، وأمَّا الملائمةُ فلَا يُحتاجُ أنْ نقولَ له: اصبرْ عَلَيْها؛ لأنَّها مُلائمةٌ لِلطبعِ.

فعَلَيْنا أنْ نتصفَ بهذهِ الصفاتِ الأَربعِ، وعلَيْنا أنْ نسألَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الثباتَ عَلَيْهَا، اللهمَّ ارْزُقنا الاتصافَ بِهَا، والثباتَ عَلَيْهَا، يا ربَّ العالمينَ، إنَّكَ عَلى كلِّ شيءٍ قديرٌ.



الدَّرْسُ الثَّانِي:

إِنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

قولُه: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر:٣] الأعمالُ الصالحاتُ ما جَمَعَتْ وصْفَيْنِ: الإخلاصَ للهِ، والمتابَعَةَ لرَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾؛ يعني: أَوْصَى بعْضُهم بَعْضًا بالحَقِّ، والحقُّ ضِدُّ الباطِلِ، فتَواصِيهِمْ بالحَقِّ يستَلْزِمُ نَهْيَ بعضِهِمْ لبعضٍ عنِ الباطِلِ.

مثال ذلكَ: أن تَرَى إنسانًا مُقَصِّرًا في الصلاةِ، فتقولُ: يا أَخِي؛ أُوصِيكَ أن تَتَّقِيَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وأن تُقِيمَ الصلاةَ. كذلك تَجِدُ إنسانًا مُقَصِّرًا في بِرِّ الوالِدَينِ، تقولُ: يا فُلانُ؛ أُوصِيكَ بِبِرِّ الوالِدَينِ، اتَّقِ اللهِ، وهُلَّمْ جرًّا.

لكن لو قالَ قائل: هل مِنْ ذلِكَ -من التواصِي بالحَقِّ- أن يُوصِيَ بعْضُهم بَعْضًا بالتَّصْديقِ بكُلِّ ما أَخْبَرَ اللهُ به عَنْ نفْسِهِ؟

فنقولُ: نعم مِنْ هَذَا، تقولُ: يا أَخِي؛ لا تُحَرِّفِ القرآنَ، صَدِّقْ بكلِّ ما جاءَ

فِي القُرآنِ، ولا تُحرِّفه لهَوًى في نفسِكَ، كما فَعَلَ طوائفُ أهلِ البِدْعِ؛ أهلُ البِدَعِ حرَّفُوا القُرآنَ وصَرَفُوه إلى مَعَانٍ لا يُريدُهَا اللهُ، ولا رَسولُهُ.

ولهذا أمثِلَةٌ كثيرَةٌ من ذلِكَ: منها قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢١- ٢٢]؛ فتَرى بعضُهم يقولُوا: جاءَ ربُّكَ؟ كيفَ ذلِكَ؟ فنقولُ له: اللهُ جاءَ أمْ غيرُهُ هو الَّذِي جاءَ؟ نصُّ الآيَةِ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، فامْتَلِكِ الشجاعَةَ وقُلْ: اللهُ هو الذِي جاءَ دونَ غيرِهِ، فلو قالَ لكَ قائلٌ: جاء أخُوكَ، فمَنِ الذِي جاءَ؟ الجوابُ: أخِي، كذلِكَ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، فالَّذِي جاءَ هو اللهُ تَعَالَى، ولو سَأَلْنَا طالِبَ عِلْمٍ لم يتجاوزِ خَمْسَ عشْرَةَ سنَةً، وقلنا لَهُ: من الذي جاءَ؟ لقال: اللهُ. فهذا له خمسَ عشْرَةَ سنَةً، وفَهِمَ مِنَ الآية الكريمَةِ أن الذي جاءَ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فانظُرْ إلى الفِطْرَةِ! وصَدَقَ فيها فَهِمَ، فالصحيحُ أن الذي جاءَ هُو اللهُ تَعَالَى.

ونتَعَلَّمُ مِن هذَا الصَّبِيِّ الذي أجابَ بأنَّ اللهَ تَعَالَى هو الذي جاءَ، نَتَعَلَّمُ منْه أن القُرآنَ الكريمَ إذا فُسِّرَ دونَ اتِّبَاعٍ للهَوَى لم يكُنْ فيهِ إشْكالٌ، أتدرُونَ ماذا قالَ أهْلُ التَّحْرِيفِ؟ قالوا: جاءَ رَبُّكَ، أي: جاء أمْرُ ربِّكَ. واللهِ ليُسْأَلُنَّ هؤلاءِ عن هذِهِ الزيادَةِ التي زادُوها، لماذا يُقْحِمُونَ (الأمْر) في آيةٍ واضِحَةٍ لا إشكالَ فِيهَا؟ فمن فَسَّرَ مجيئَهُ -سبحانه- بالأمْرِ وقالَ: المعْنَى: (جاءَ أمْرُ ربِّكَ)؛ فقَدْ شهِدَ على اللهِ بما لا يَدُلُّ عَلَيْهِ كلامُ اللهِ، وواللهِ ليسألُنَّ عن هذِهِ الشهادَةِ.

فينْبَغِي عليكَ يا أخِي أن تحْتَرِمَ كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأن تحْتَرِمَ كلامَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، لا تُفَسِّرْهُ بمُقْتَضى هواك، ما الَّذِي يَضُرُّكَ إذا قلتَ: جاءَ ربُّكَ، أي: جاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ نفْسُهُ؟! هل يَضُرُّكَ شيءٌ؟! لا يَضُرُّكَ، ولكَ الحُجَّةُ

عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ أن تقولَ: يا رَبِّ، إني قرأتُ كِتابَكَ، وفَهِمْتُ معناهُ وهذا هُوَ.

بَقِيَ أن يقالَ: هل يمكِنُ أن نَعْرِفَ كيفَ جاءَ؟

والجوابُ: لا، لا نَعْرِفُ، معْنى المجِيءِ معروفٌ، لكن كيفَ جاءَ، اللهُ أعلَمُ، لا نَدْرِي؛ ولهذا سُئِلَ الإمامُ مالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمامُ أهلِ المدينَةِ، الحافِظُ المعروفُ، وقد كان في حَلَقَةِ الدَّرْسِ فجاءَ رجلٌ، فقالَ: يا أَبَا عبدِ اللهِ؛ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، كيفَ استوَى؟ فأطْرَقَ الإمامُ مالِكٌ رأسَهُ، ثم جعَلَ يتَصبَّبُ عَرَقًا، من شدَّةِ وقْعِ هذا السؤالِ على قَلبِهِ، ثم رفعَ رأسَهُ وقالَ: «يا هَذَا، الاستِوَاءُ غَيْرُ مجْهُولٍ- يعني: مَعروفٌ في اللغَةِ العَرَبيَّةِ- والكَيْفُ غَيرُ مَعْقولٍ، والإيمانُ بِهِ واجِبٌ، والسؤالُ عنْهُ بِدْعَةٌ، ومَا أُرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا»[1].

كَلِماتٌ أربعٌ تَسْتَحِقُّ أن تُكْتَبَ بماءِ الذَّهَبِ على صفحاتِ الفِضَّةِ: «الاسْتِوَاءُ غَيْرُ مجْهُولٍ»؛ يعنِي: معلومٌ في اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ؛ اسْتَوَى علَى كَذَا يعني: عَلَا عليهِ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٢- ١٣].

«والكَيْفُ غَيرُ مَعْقولٍ». نَحْنُ لا نُدْرِك كَيفِيَّةَ صفاتِ ربِّنَا عَزَّوَجَلَّ؛ لأن ذلِكَ أعظَمُ من أن تُدْرِكَهُ العُقولُ، وإذا كان البَصَرُ إذا رَأَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ لا يُدْرِكُهُ؛ فكيفَ بالمعَانِي المعْقُولَةِ؟! من حاوَلَ أن يُكَيِّفَ صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا، وقد تَنَقَّصَ ربَّهُ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٥، رقم ٨٦٧).

فلا يمكِنُ أن تُكيِّفَ صفاتِ اللهِ، لو قالَ قائلٌ: أَتُثْبِتُ للهِ وَجْهًا؟ لقُلْتُ: نَعَمْ، أُثْبِتُ ذلك للهِ؛ لأن اللهَ أثْبَتَهُ لنَفْسِهِ؛ قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]. فإن استَطْرَدَ وقالَ: إذن؛ هل تَستَطِيعُ أن تَصِفَ وجْهَ اللهِ؟ نقول: لَا؛ لأن اللهَ أَخْبَرَنَا عن وجْهِهِ، ولم يُخْبِرْنَا كيفَ وجْهُهُ، وقد قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

ثم يقولُ الإمامُ مالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والإيمانُ بِهِ واجِبٌ»، الإيمانُ به أي: بالاستِوَاءِ واجِبٌ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى أخْبَرَ به عَنْ نفسِهِ، وكلُّ ما أَخْبَرَ به عنْ نفْسِهِ وجَبَ علينا قَبُولُهُ، وعدَمُ التَّرَدُّدِ فيهِ، ولكن دونَ تمثِيلٍ، ودونَ تَكْييفٍ.

ثم يقولُ: «والسؤالُ عنْهُ بِدْعَةٌ»؛ أي: السُّؤالُ عن كَيفِيَّةِ الاستواءِ، أمَّا السؤالُ عَنِ المعْنَى فهَذا واجِبٌ، لا بُدَّ أن نَعْرِفَ معْنَى كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثم قال: «ومَا أُرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا»؛ أُراكَ يعني: أَظُنُّكَ. ثم أمَرَ به فأُخْرِجَ مِنَ المسجِدِ، أي: أُخْرِجَ من مسجِدِ الرَّسولِ ﷺ ولم يأمُرْ بِهِ أن يَخْرُجَ مِنَ الحَلَقَةِ؛ بل قال: فأُخْرِجَ من المسجِدِ، وهكَذا يجِبُ أن نُبْعِدَ عن مجالِسِنَا كلَّ مبتَدِعٍ، وأن نُحَذِّرَ منه، وألا يثِقَ أحدٌ بنَفْسِه ويقولُ: أنا وإن حَضَرْتُ مجلِسَهُ لم يُضِلَّنِي، احْذَرْ، فإنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: **«مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ»**[1]؛ أي: فلْيَبْتَعِدْ، والدَّجَّالُ -كما هو معلوم- يأتي إليه الرَّجُلُ وهو يَرَى أنه مُؤمِنٌ، ثم لا يَزالُ به حَتَّى يفْتِنَهُ، هذا معْنَى الحديثِ، لا تقولُ: أنا الحَمْدُ للهِ مُطْمئنٌّ ولا يَهُمُّنِي ولن

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١، رقم ١٩٨٨٨)، وأبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، رقم (٤٣١٩).

يَضُرَّنَي. لا، الشيطانُ يجْرِي مِنِ ابْنِ آدمَ مَجْرَى الدَّمِ[1]، فإيَّاكَ ومجالَسَةَ أَهْلِ البِدَعِ.

فالرابِحُ بهذِهِ الدُّنْيا هُو المؤمِنُ. والثاني: العامِلُ الصَّالِحَات. والثالثُ: الَّذِي يُوصِي غيرَه بالحَقِّ. والرابعُ: الذي يُوصِيَ غيرَهُ بالصَّبْرِ، والواجِبُ على المسْلِمِ أن كلَّ ما يجْرِي عليهِ مِن الأحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ أو الأمورِ القَدَرِيَّةِ لا بُدَّ أن يَرْضَى بِهَا، وإن وَجَدَ فِيهَا مَا لَا يُلائِمُ طَبِيعَتَهُ، فالمَرَضُ يُصِيبُ الإنسانَ، وهو عنْه غيرُ راضٍ؛ لأن هذَا لا يُلائمُ الطَّبِيعَةَ، فلا بُدَّ مِنْ صَبرٍ، اصْبِرْ، وتحَمَّلْ، واعلَمْ أن لكُلِّ شيءٍ مُنْتَهًى، لو آلَمَكَ المَرَضُ الآن فسوفَ ينْتَهِي، دَوَامُ الحَالِ من المُحالِ، فعليكَ أن تَصْبِرَ وتَرْضَى بقَضاءِ اللهِ، فالمَرَضُ من قَضاءِ اللهِ عَلَيْكَ، اللهُ قَضَى عليكَ أن تمْرَضَ، فيَجِبُ أن تَصْبِرَ وتَرْضَى؛ لأنك أيها الإنسانُ مَخْلُوقٌ مِنْ مخلُوقاتِ اللهِ، يفْعَلُ فيكَ ما شاءَ، فكَما أنه عَزَّوَجَلَّ يُحْيِي الشجَرَةَ ويُمِيتُهَا، كذلك يُمْرِضُ الإنسانَ ويُصَحِّحُهُ، فأنْتَ عبْدٌ، والرَّبُّ رَبٌّ.

كذلك فَرَضَ عليك أن تُقاتِلَ وتُجَاهِدَ في سبيلِ اللهِ؛ فعَليكَ أن تُقَاتِلَ في سبيلِ اللهِ، وهذا مِنَ الأمُورِ التي تَحتَاجُ إلى صَبْرٍ؛ لأن القِتَالَ لا يُلائمُ النَّفْسَ، ولَوْلَا ما فِي الجِهادِ في سبيلِ اللهِ مِنَ الثَّوابِ العظِيمِ؛ ما اختَارَ الإنسانُ أن يُقدِّمَ رَقَبَتَهُ لأعدائهِ؛ ولهذا قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]؛ ﴿وَهُوَ﴾ يعْنِي القِتَالَ، وليسَ الكِتَابَةَ؛ لأن الصحابةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ قد رَضُوا بذلِكَ، وتَقَبَّلُوهُ بكُلِّ نَفسٍ مُطْمَئنَّةٍ، لكِنَّ الإنسانَ لا يريدُ أن يقاتِلَ، إلا بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، رقم (٢٠٣٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، رقم (٢١٧٤).

ولهذا قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»(١).

إذن، ذَكَرْنَا أَوَّلَ مثالٍ، وهو الصَّبْرُ على المَرَضِ، وهو مِنْ قضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، ليس أمْرًا تكْلِيفِيًّا، وثاني مثال: وهو الصَّبْرُ على القِتالِ، وهو صبرٌ على طاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فقَاتِلِ امتِثالًا لأمْرِ اللهِ، وإن كَرِهْتَ القِتَالَ.

كذلك شُرْبُ الخَمْرِ، مثَلًا: رَجُلٌ عاشَ في بَلَدِ الكُفَّارِ، يشْرَبُونَ الخُمورَ ولا يُبَالُونَ، فكانَتْ نفْسُهُ تُراودُهُ على شُرْبِ الخَمْرِ، وهو يتَحَمَّلُ ويصبِرُ، فهذا يُسَمَّى صَبْرًا عن معْصِيَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣] أي: إن بَعْضَهُم يوصِي بَعْضًا في الصَّبْرِ على شريعَةِ اللهِ أمْرًا ونَهْيًا، وفي الصبرِ على قَضاءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، اللهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ هؤلاءِ، اللهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ هؤلاءِ، اللهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ هؤلاءِ.

قال الإمامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَوْ لَمْ يُنْزِلِ اللهُ عَلَى عبادِهِ حُجَّةً إلا هذِهِ السُّورَةَ لكَفَتْهُمْ؛ فإِنَّها حُجَّةٌ»(٢).

وقد يَرِدُ سؤالٌ: أقسَمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هنا بالعَصْرِ، والعَصْرُ مخلُوقٌ مِنَ المخْلُوقاتِ، فهل يجوزُ لنَا أن نُقْسِمَ بمخلوقاتِ اللهِ؟

والجواب: القَسَمُ بغيرِ اللهِ حرامٌ؛ بل هو مِنَ الشِّرْكِ؛ ولهذا قالَ النَّبِيُّ صَلَّى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، رقم (٢٩٦٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء، رقم (١٧٤٢).

(٢) تفسير الشافعي (٣/ ١٤٦١).

اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»[(١)]، وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[(٢)]، فلا يجوزُ الحَلِفُ بَنَبِيٍّ، ولَا بمَلَكٍ، ولا بشَمْسٍ، ولا بقَمَرٍ، ولا بأيِّ شيءٍ مِنَ المخْلوقاتِ، الحَلِفُ إنما هُو بأسماءِ اللهِ وصفاتِهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإذا قـالَ قائـلٌ: في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ [العصر:١] فِيها قَسَمٌ بالمخْلوقِ، فكيفَ ذلِكَ؟

فنقولُ جوابًا عليهِ: إن الَّذِي أقْسَمَ بالمَخْلُوقِ هو الخَالِقُ عَزَّوَجَلَّ، ولله عَزَّوَجَلَّ أن يحْلِفَ بِمَا شاءَ مِنْ خَلْقِهِ، لا أحَدَ يحجرُ عَلَى اللهِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، أما نَحْنُ فلا يجوزُ أن نَحْلِفَ بغيرِ اللهِ أبدًا.

ونجدُ الآنَ بعضَ الناسِ يقُولونَ: والنَّبِيِّ افعَلْ هكذا. وعندَه أن قولَهُ (والنبي) أشدُّ من قولِهِ (والله)، نسألُ اللهَ العافِيَةَ، وهذا موجودٌ، يجْرِي على ألسنَةِ كثيرٍ مِنَ الناسِ؛ يحلِفُونَ بالنَّبِيِّ، فنقول: اتقِّ اللهَ، لا تحلِفْ بالنَّبِيِّ، فإن قالَ: النَّبِيُّ ﷺ أشرَفُ الخَلْقِ؟ فلماذا لَا أحلِفُ بِهِ؟ نقول: هذا النَّبِيُّ الذي حَلَفْتَ بِه تعْظِيمًا له قالَ لكَ: لا تَحْلِفْ بغيرِ اللهِ، وحَذَّركَ من هذَا، فكيف تحلِفُ بالنَّبِيِّ؟!

وهنا نذْكُرُ قِصَّةً ظريفَةً: كَلَّمَ شخْصٌ آخر، فقالَ: بالنَّبِيِّ لتُخْبِرُنِي، قال له: هذا لا يجوزُ؛ الحَلْفُ بالنَّبِيِّ حرامٌ، لا تَعُدْ لهذا، فقال: والنَّبِيِّ لا أعودُ لهذا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، رقم (٢٦٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥، رقم ٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

فمِثْلُ هذا قالَ ما قالَ لأنَّ لسانَهُ اعتادَ هذَا الشيءَ، ولكن يجِبُ عليكَ أن تُعَوِّدَ لسانَكَ على ما كان مباحًا لكَ، أما المُحَرَّمُ فلَا.



الدَّرْسُ الثَّالِثُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:١- ٢] الواو هنا للقَسَمِ، وهنا أَقْسَمَ اللهُ بالعَصْرِ، والعَصْرُ هو الزَّمانُ؛ لأنَّ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يُقْسِمَ بما شاءَ مِنْ خَلْقِهِ؛ لأنَّه حاكِمٌ لا مَحكُومٌ عليهِ، فاللهُ يُقْسِمُ بالعَصْرِ وبالضُّحَى وباللَّيْلِ وبالشَّمسِ وبالقِيامَةِ، وبكلِّ ما أرادَ؛ لأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا له الحُكْمُ، وليسَ عليهِ حُكْمٌ، إلا ما أَوْجَبَهُ على نَفْسِهِ، قد يوجِبُ اللهُ على نَفْسِه شَيْئا فيَجِبُ، مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] كَتَبَ أي: أَوْجَبَ.

وكما قُلْنَا فإنَّ العَصْرَ هو الزَّمَنُ، فإنا نقولُ: عَصْرُ الصحابَةِ، وعَصْرُ التابِعِينَ، وعَصْرُ تابِعِي التابِعِينَ. ونحنُ نريد زَمَنَ الصحابَةِ، وزَمَنَ التابِعِينَ، وزمَنَ تابِعِي التابِعِينَ.

إذن، العَصْرُ هو الزَّمانُ، وإنما أقسمَ اللهُ تعالى بالزَّمانِ لما فيهِ مِنَ العِبَرِ العظِيمَةِ التي قالَ الله تعالى عنْها إجْمالا: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]. في الزَّمَنِ يُعَزُّ أقوامٌ، ويُذَلُّ آخرونَ، ويُغْنَى فيه أقوامٌ، ويُفْقَرُ فيه آخرونَ، وتَرْتَفِعُ

الأُمَمُ، وتنزِلُ وتُقْهَرُ وتُغْلَبُ، فالزمانُ في الحقيقَةِ كلُّه عِبَرٌ، بل إن الإنسانَ في حياتِهِ اليومِيَّةِ -وحياةُ الإنسانِ منَّا قصيرةٌ- يجِدُ العِبَرَ، فَقَدْ تجِدُ إنسانًا -بدونِ أي سَبَبٍ معلومٍ- يومًا مسرورًا، ويومًا مغمومًا، بل إن الإنسانَ رُبَّما يأتِي عليهِ في اليومِ الواحدِ شُرورٌ وحُزْنٌ دونَ أي سَبَبٍ، وفي هذا يقولُ الشاعِرُ(١):

فَيَـــوْمٌ عَلَيْنَـــا وَيَـــوْمٌ لَنَـــا   وَيَـــوْمٌ نُسَـــاءُ وَيَـــوْمٌ نُسَـــرُّ

وإنما أقْسَمَ اللهُ بالعَصْرِ لما يحدُثُ فيه مِنَ الآياتِ والعِبَرِ العَظِيمَةِ، فَفِي عصرِ النَّبيِّ ﷺ انتَصَرَ هُوَ وأصحابُهُ في سَنَةٍ، وبعدَها بسَنَةٍ هُزِمُوا، فقد انتَصَرُوا في بَدْرٍ، وهُزِمُوا في أُحُدٍ، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران:١٤٠] أي: إن يَمْسَسْكُم قَرْحٌ في أُحُدٍ فقَدْ مَسَّ القومَ قَرحٌ مِثْلُه في بَدْرٍ، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠] وهذا شيءٌ مشاهَدٌ.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:٢]: والإنْسانُ هنَا تَعْنِي كلَّ إنسانٍ، فـ(ال) هنا تَنُوبُ منابَ (كلٍّ)، فيَصِحُّ التَّقْريرُ: إن كلَّ إنسانٍ لَفِي خُسْرٍ. والجملَةُ هنا مؤكَّدَةٌ بثلاثَةِ مؤكِّداتٍ: الأول: القَسْم، والثَّانِي: إنَّ، والثالث: اللام في قولِهِ: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾.

أكَّدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هذا الخَبَرَ الصادِقَ بهذِهِ المؤكِّداتِ، تأمَّلُوا قولَهُ: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ ولم يَقُلْ: لخاسِرٌ. والأوَّلُ أبلَغُ لأنه جعَلَ الخُسْرَ ظرْفًا لَهُ، والظَّرْفُ محيطٌ بالمظْرُوفِ، فكأنه قال: إن الإنسانَ منْغَمِسٌ في الخُسرانِ، إلا من اسْتَثْنَى، لكن لو قالَ: إن الإنسانَ لخاسِرٌ. فلن تكونَ في البَلاغَةِ مثلَ قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾.

والخُسْرُ ضِدُّهُ الرِّبْحُ، فالإنسانُ في تعامُلِهِ إمَّا أن يخْسَرَ وإمَّا أن يَرْبَحَ، وإمَّا ألا

---

(١) البيت للنمر بن تولب، كما في كتاب سيبويه (١/ ٨٦).

يَرْبَحَ ولا يَخْسَرَ، فإذَا اشْتَرَى بضاعَةً بمئةٍ، وباعَهَا بمئةٍ وعِشْرينَ، فقد رَبِحَ، وإذا اشْتَرَى بضاعَةً بمئةٍ وباعَهَا بثَمانِينَ فقدْ خَسِرَ، وإذا اشْتَرَى بمئةٍ وباعَها بمئةٍ فَلَمْ يَرْبَحْ ولم يكْسِبْ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر:٣] استَثْنَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَنِ استَثْنَى **بصفاتٍ أرْبَعٍ**: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

الأُولَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: الَّذِينَ آمنُوا بكلِّ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ، وقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ الإيمانَ بأكْمَلِ بَيانٍ، فقَدْ سألَهُ جِبْرِيلُ عن الإيمانِ، فَقَالَ: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[(١)].

الثانية: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والعَمَلُ الصالِحُ بيَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ في حديثِ جِبْرِيلَ، وبيَّنَ أصولَهُ، وهي: شهادَةُ أن لا إِلَهَ إلا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وحَجُّ البيتِ.

واعلم أن العَمَلَ لا يكونُ صالحًا حتَّى يجتَمِعَ فيه **شيئانِ**:

الأول: الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وهو ألَّا تَنْوِيَ بعبادَتِكَ أن يمدَحكَ الناسُ، أو أن تكونَ وَجِيهًا بينهُمْ، أو أن تكونَ مُعَظَّمًا فيهِمْ، وأن تَنْوِيَ بعبادَتِكَ وجهَ اللهِ والدارَ الآخِرَةَ، ولا تُبالِ أرآكَ الناسُ أم لم يَرَوْكَ؛ لأنك تعْمَلُ للهِ، وهذا هو الإخْلاصُ.

وعلامَةُ الإخلاصِ أن يكونَ الإنسانُ إذَا أدَّى عبادَةً فلا فَرْقَ عندَهُ بين أن يعلَمَ الناسُ بِهَا أو لا، وهذا هو المخْلِصُ؛ الذي لا يَهْتَمُّ بالنَّاسِ في عِبادتِهِ للهِ، فهو

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم (٩).

يَعْبدُهُ في كلِّ حالٍ، سواءٌ رَأَوْهُ أو لَمْ يَرَوْهُ، وهذه علامَةُ الإخْلاصِ.

الثاني: المتابَعَةُ للرسولِ ﷺ. واعْلَمْ أن المتابَعَةَ لا تَتَحقَّقُ إلا إذَا وافَقَتِ العبادَةُ الشَّرِيعَةَ في أمورٍ ستَّةٍ:

الأَوَّلِ: أن تُوافِقَ الشريعَةَ في سَبَبِهَا. **الثاني**: في جِنْسِهَا. **الثالث**: في قَدْرِهَا. **الرابع**: فِي كَيْفِيَّتِهَا. **الخامس**: في زَمانِهَا. **السادس**: في مَكانِهَا.

الأَوَّلُ: أن تُوافِقَ الشَّريعَةَ في السَّبَبِ، فإذَا أحدَثَ الإنسانُ عبادَةً بسبَبٍ غيرِ شَرْعِيٍّ فَهِي باطِلَةٌ مرْدُودَةٌ عليه؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[1]. وهذا له أَمْثِلَةٌ، مِنْها: أَنَّنَا نسمَعُ بعضَ الناسِ إذا طَيَّبْتَهُ بالبُخورِ أو بالدُّهْنِ قال: اللهم صلِّ على محمدٍ. فجَعَلَ التَّطَيُّبَ من أسبابِ الصلاةِ علَى النَّبِيِّ ﷺ، فنقول: هذه عبادة مردودةٌ عليكَ؛ لأنك قيَّدْتَها بسببٍ غَيْرِ شَرْعِيٍّ، فإذا احتَجَّ علينا فقالَ: أليس النبيُّ ﷺ يُحِبُّ الطِّيبَ؟ قلنا: إذا كُنْتَ كذلِكَ فإذا شَرِبْتَ صلِّ علَى النَّبِيِّ، إذا أكَلْتَ فصلِّ على النَّبِيِّ، إذا أَتَيْتَ أهلَكَ فصَلِّ علَى النَّبِيِّ، وإذا كان النبيُّ ﷺ يتطَيَّبُ ولا يُصَلِّي على النبيِّ عُلِمَ أن الصلاةَ عليه بسبَبِ الطِّيبِ صلاةٌ ليسَ لها أصْلٌ.

من **ذَلِكَ أيضًا**: ما يُسَمَّى بعيدِ الميلادِ النَّبَوِيِّ، فهو عيدُ المولِدِ يُقْصَدُ به تعظِيمُ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإظهارُ محَبَّتِهِ، ورَفْعُ ذِكْرِهِ، ولا شَكَّ أن هذِه عبادَةٌ عظِيمَةٌ، بل لا يتِمُّ الإيمانُ حتى يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ أحبَّ إليكَ مِنْ نَفْسِكَ ووَلَدِكَ ووَالِدِكَ والناسِ أجْمعينَ، ونحنُ نُشهِدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ متحَدِّثِينَ بنِعْمَتِهِ علينَا أن محبَّةَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

رسولِ الله ﷺ أشدُّ مِنْ محبَّتِنا لأنفُسِنا وأوْلادِنا ووالدِينا، ولا شكَّ أيضًا أننا نعظِّمُ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكلامُه عنْدَنا فوقَ كلِّ كلامٍ، وسُنَّتُهُ فوقَ كلِّ سُنَّةٍ، وهَدْيُهُ فوقَ كلِّ هدْيٍ، ولا نتقَدَّمُ بين يديهِ تَعْظِيمًا لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولا شكَّ أن ذِكْرَ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على أَلْسِنَتِنا أحْلَى من ذِكْرِ كلِّ مخْلوقٍ، ونحمدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ على هذا، ولا شكّ أيضًا أنَّنا نرفَعُ ذِكْرَ الرسولِ ﷺ في أعْلَى مكانٍ في الأذانِ، فالمؤذِّنُ يقولُ: أشهدُ أن محمَّدًا رسولُ اللهِ، وهذا رَفْعُ ذِكْرِهِ. وهكذا فإن محبَّةَ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عبادةٌ، وتَعْظِيمُهُ عبادَةٌ، ورَفْعُ ذِكْرِهِ عبادَةٌ، ولكنَّنا لا نجعَلُ في شَريعَتِهِ ما لم يَشْرَعْهُ لنَا. فإنَّ النبيَّ ﷺ لم يُقِمْ لمولِدِه عِيدًا، وكذلك أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورسولُ اللهِ ﷺ أحبُّ إليه مِنْ كلِّ النَّاسِ، وعُمَرُ وعثمانُ وعَلِيٌّ، بل الصحابَةُ كُلُّهُم، والتابِعُونَ، وتابِعُو التابِعِينَ لم يفْعَلُوا.

وما حدَثَتْ هذه البِدْعَةُ إلا في القَرْنِ الرابعِ الهِجْرِيِّ، ولا يُعْقَلُ أن ثلاثةَ قُرونٍ في الأمَّةِ الإسلامِيَّةِ تجهَلُ أن هذا مشروعٌ، أو أنها تَعْلَمُ ولكنها خالَفَتْ. وكلُّ هذا مُمْتَنِعٌ، فالأُمَّةُ الإسلامِيَّةُ ليستْ جاهِلَةً أن هذا مشروعٌ لو كان مَشْروعًا، وليستْ مخالِفَةً ألَّا تقومَ به لو كان مَشْرُوعًا، فكونُ القُرونِ المفَضَّلَةِ التي قالَ عنها الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[1]. لَمْ تَفْعَلْهُ، فهذَا يدُلُّ دلالةً واضِحَةً على أنها ليستْ مِنَ السُّنَّةِ، وأن التَّعَبَ فيهَا ضائعٌ.

وعلامَةُ تعْظِيمِ الرسولِ ألَّا نتَقَدَّمَ بينَ يَدَيْهِ، وألَّا نُدْخِلَ في دِينِهِ ما ليسَ مِنْهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب فضل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٦٥١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

وذِكْرُ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -والحمدُ للهِ- في كلِّ عِبادَةٍ نَتعَبَّدُها؛ لأن جميعَ العباداتِ لا بُدَّ فيها مِنَ الإخْلاصِ والمتابَعَةِ، فإذا كُنْتَ تُصَلِّي وأنتَ تَشْعُرُ أنك تَتَّبعُ الرسولَ فهَذَا ذِكْرٌ للرَّسولِ.

إذن: جميعُ العباداتِ التي نَقومُ بها هِيَ ذِكْرٌ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأننا نُتَابِعُ الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فنحنُ الآن نشْعُرُ أنَّنا إذا صَلَّيْنَا نَقْتَدِي بالرسولِ، وهكذا جميعُ العباداتِ، إذن: نحنُ لسنَا بحاجَةٍ ألَّا نُقِيمَ ذِكْرَاهُ إلا فِي ليلةٍ واحِدَةٍ.

ثم إنَّ ما يَقَعُ في هذِهِ الأعْيادِ مِنَ المنْكراتِ العظِيمَةِ يؤدِّي إلى مَنْعِهَا؛ لأنه يقالُ فيهَا أقوالٌ مُنْكَرَةٌ، ويُفْعَلُ فيها أفعالٌ مُنْكرةٌ. وبلادُنَا -ولله الحمد- لا تُقِيمُ مثلَ هذِهِ الاحتِفَالاتِ، ولكن هناكَ بِلادٌ إسلامِيَّةٌ -مع الأسف- تُقِيمُها.

وهذَا الأمرُ شأنُهُ عظيمٌ وخطِيرٌ، وأنا أقولُ وأُكَرِّرُ: يجِبُ أن نُبَلِّغَ أهلَ هذه البلادِ أن هذَا الأمْرَ بِدْعَةٌ، والعِلْمُ يأتِي شيئًا فشَيئًا والتَّطْبِيقُ يأتِي شَيئًا فشيئًا، فإذا شاعَ بينَ العامَّةِ أن هذا لا أصْلَ له وأنَّه بِدْعَةٌ تركُوهُ، فكلُّ إنسانٍ يفْعَلُ عبادَةً فإنما يُريدُ التَّقَرُّبَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الثاني: لا بُدَّ أن تكونَ العِبادَةُ مطابِقَةً للشَّريعَةِ في جِنْسِهَا، فكُلٌّ يعلَمُ أن الأضاحِيَّ إنما تكونُ فِي عيدِ الأضْحَى، والتَّضْحِيَةُ للهِ تكونُ أوَّلًا بالغَنَمِ، وثانيًا: بالبَقَرِ، وثالثًا: بالإبِلِ. فلو أن رَجُلًا ضَحَّى بفَرَسٍ، والفَرَسُ أغْلَى من الماعِزِ، وأغْلَى مِنَ الشَّاةِ، وربما أغْلَى مِنَ البَعيرِ، فلا تَصِحُّ التَّضْحِيَةُ؛ لأنه لم يوافِقِ الشَّريعَةَ في الجِنْسِ.

الثالث: لا بد أن توافِقَ الشريعَةَ في القَدْرِ، فكلُّنَا يعلمُ أن الصلاةَ محدودَةٌ،

فصلاةُ الظُّهْرِ أربعٌ، فَلَوْ أن إنسانًا قال: أنا أُحِبُّ الخيرَ، وأُحِبُّ الزيادةَ في العَمَلِ، وسأُصَلِّي الظُّهْرَ ستَّ ركعاتٍ. قلنا لَه: لا تَصِحُّ هذه العبادَةُ؛ لأنها مخالِفَةٌ للشَّريعَةِ في قَدْرِهَا.

الرابع: لا بُدَّ أن تُوافِقَ الشريعَةَ في كَيْفِيَّتِهَا، فإنْ خالَفَتْ في الكَيْفِيَّةِ لم تَصِحَّ. فمثلًا كَيفِيَّةُ الوضوءِ: أن يَغْسِلَ الإنسانُ وَجْهَهُ، ثم يَدَيْهِ، ثم يمسَحُ رأسَهُ، ثم يغسِلُ رِجْلَيهِ، وهذه هِي الأعضاءُ الأربعةُ التي ذَكَرَهَا الله تعالى في القُرآنِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة:٦]، فلَوْ أنَّ رجلًا غَسَلَ يدَيْهِ قبلَ غَسْلِ وَجْهِهِ لم يصِحَّ وُضُوءُهُ؛ حتى إن غَسَلَ بعدَ ذلِكَ وَجْهَهُ، ثم مسَحَ رأسَهُ، ثم غسَلَ رِجْليهِ، لأنه خالَفَ في الكَيْفِيَّةِ.

وكذلك في العُمْرَةِ، فلو أن إنسانًا جاءَ معتَمِرًا، فوجَدَ المطافَ مُزْدَحِمًا، فبدأَ بالسَّعْيِ قبلَ الطَّوافِ، فلا يَصِحُّ سَعْيُهُ؛ لأنه خالَفَ الشريعةَ في الكَيْفِيَّةِ والواجبِ.

ولو أن إنسانًا يُصَلِّي فسجَدَ قبلَ أن يَرْكَعَ، ثم قامَ وركَعَ، فلا تَصِحُّ صَلاتُهُ؛ لأن الركوعَ هُوَ الأوَّلُ، وقد خالَفَ في أصلِ العِبادَةِ في الكَيْفِيَّةِ.

الخامس: لا بُدَّ أن تُوافِقَ الشريعَةَ في الزمانِ، فلو أنَّ رَجُلًا يَتْعَبُ في النَّهارِ في عَمَلِهِ، كالعامِلِ أو التاجِرِ، فقال: سأصومُ في الليلِ بدَلًا عنِ النهارِ. فإن عَمَلَهُ لايَصِحُّ؛ لأنه صامَ في زَمَنٍ لا يُشْرَعُ فيهِ الصومُ، فخالَفَ في زمَنِ العِبادَةِ.

السادس: لا بُدَّ أن تُوافِقَ الشريعَةَ في المكانِ، فَلَوْ أن رَجُلًا أحبَّ أن يعتكِفَ في العشْرِ الأواخِرِ، ولكنه يُصابُ بالتَّعَبِ إذا أرادَ أن يُفْطِرَ أو يتَسَحَّرَ، فأراد أن

يعتكِفَ في بَيتِهِ، لا في المسجِدِ، فلا يَصِحُّ؛ لأنه خالَفَ الشريعَةَ في المكانِ، فالاعتِكَافُ في المساجِدِ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ [البقرة:١٨٧]، فالضَّابِطُ لأيِّ عبادَةٍ هو أن تكونَ موافِقَةً للشَّريعَةِ في هذِهِ الأمورِ السِّتَّةِ.

نعودُ إلى السورةِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر:٣] أي: عَمِلُوا الأعمالَ الصالحاتِ، وهي ما كان العمَلُ فيها خالصًا لله، موافِقًا لشَّريعَةِ اللهِ.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر:٣]: لم يَقْتَصِرِ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ على صلاحِ هؤلاءِ بأنْفُسِهِمْ، ولكِنْ محاولَةُ إصلاحِ غيرِهِمْ، وهي الصِّفَةُ الثالِثَةُ.

الصفة الثالثة: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: جَعَل بعْضُهُم يُوصِي بعْضًا بالحَقِّ، والتَّوَاصِي بالحَقِّ من الأعمالِ الصالحاتِ ولا شَكَّ، لكِنْ نُصَّ عليه لأَهَمِّيتِهِ، أي جَعَلَ بعضُهُم يوصِي بَعْضَهم بالحَقِّ، والحَقُّ كلُّ ما جاءَ به الرَّسولُ، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [النساء:١٧٠]، تواصَوْا بكُلِّ ما جاءَ بِهِ الرَّسولُ، يُوصونَ غيرَهُم بالالتزامِ بما جاءَ بِهِ الرَّسولُ، وبالشريعَةِ الزَمْ أوامِرَها، واتْرُكْ نواهِيَها، وما أشبه ذلِكَ.

الرابعَةُ: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [البلد:١٧] والصَّبْرُ في الأصلِ هو الحَبْسُ، ومنه قولُهُم: قُتِلَ فُلانٌ صَبْرا، وذلك إذا أُمْسِكَ، ثُمَّ قُتِلَ، فقد قُتِلَ وهو محبُوسٌ عَنْوَةً.

فالصَّبْرُ في اللُّغَةِ هو الحَبْسُ، أما في الشَّرْعِ فهو الصَّبْرُ على أوامِرِ الله، والصَّبْرُ عن نَواهِي اللهِ، والصَّبْرُ على أقدارِ اللهِ، **وهذه ثلاثُ جهاتٍ:**

الأول: الصَّبْرُ على أوامِرِ اللهِ: أن يَحْبِسَ الإنسانُ نَفْسَهُ على فِعْلِ العبادَةِ؛ لأن العبادَةَ ثقيلَةٌ علَى النُّفوسِ، إلا ما رَحِمَ ربي، فيَحْبِسُ نفْسَهُ على أن يُصَلِّيَ مع الجماعَةِ في الصباحِ، يَحْبِسُ نفْسَهُ على أنْ تصُومَ، يحبِسُ نفْسَهُ على برِّ والدَيْهِ على صِلَةِ الأرحامِ، إلى آخرِ الأوامِرِ الكَثِيرَةِ.

الثاني: والصبْرُ عن نواهِي اللهِ: كما قال تَعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ [النساء:٤٣]. وهَذِه نَواهٍ، كذلكَ أيضا قالَ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:٣١] وهذا نَهْي، قد تقولُ المرأةُ: أشاهِدُ مَنْ تُبْدِي زِينَتَهَا. فتُسَوِّلُ لها نَفْسَها أن تفْعَلَ مثلَ فِعْلِهَا، فنقولُ: اصْبِرِي عن هذَا المحَرَّمِ، ولا تَتَّبِعِي أهواءَ مَنْ ضلَّ، اصْبِرِي واحْبِسِي نَفْسَكِ.

النِّيَاحَةُ على الميِّتِ مثلًا مَنْهِيٌّ عنْها؛ فإنَّ من جُمْلَةِ مَا بايعَ النَّبيُّ ﷺ النِّسَاءَ أن لا يَنُحْنَ[1]، فإذا ماتَ الميِّتُ للمرأةِ، والمرأةُ ضعِيفَةٌ لا تَتَحَمَّلُ الصبْرَ، وأرادَتْ أن تَنُوحَ عليه، نقولُ: اصْبِرِي واحْبِسِي نَفْسَكِ عن النِّيَاحَةِ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ نهى عن النياحَةِ، فقالَ: «**النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ** -يعني من قبرها- **وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**»[2].

وقال تَعالَى كذلِكَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢] وهذا نَهْيٌ، فلو أن إنْسانًا سَوَّلَتْ لَهُ نفْسُهُ أن يَزْنِيَ، إما بفَرْجِهِ، أو بعَيْنِهِ، أو بسَماعِهِ، نقولُ: صَبِّرْ نَفْسَكَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٧، رقم ١٣٠٥٥)، والنسائي: كتاب الجنائز، باب النياحة على الميت، رقم (١٨٥١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، رقم (٩٣٤).

يا أخِي، لا تنظُرْ للنساءِ، ولا تَتَلَذَّذْ بأصواتِهِنَّ، ولا تُصِّدق زِنَى العَيْنِ والأذنِ بزِنَى الفَرْجِ، صَبِّرْ نفْسَكَ واحبِسْهَا.

الثالث: الصَّبْرُ على أقدارِ اللهِ، ومن المعلومِ أن أقدارَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ نوعان: نوعٌ مُلائمٌ للنَّفْسِ وطَبِيعَتِهَا، ونوعٌ غيرُ مُلائمٍ. فإذَا قدَّرَ اللهُ لكَ أن تَرْبَحَ رِبْحًا كثيرًا في تجارَةٍ، فهذا أمر يحتاجُ إلى صَبْرٍ، وهذَا ملائمٌ للإنسانِ، ولو قَدَّرَ اللهُ له أن يتَزَوَّجَ، فهَذَا أمْرٌ يحتاجُ إلى صَبْرٍ؛ لأنه ملائمٌ للنَّفْسِ، ولو قَدَّرَ اللهُ تعالى أن يَدْعُوَ شخْصًا على طعامٍ، وأجابَ الدَّعوةَ، وأكلَ الطعامَ، فهذا صَبْرٌ ملائمٌ.

إذن: أقدارُ اللهِ تعالى لا شَكَّ أنَّها أقدارُ خَيْرٍ وسُرورٍ، وأقدارٌ مؤلِمَةٌ لا تَتَناسَبُ مع الطَّبِيعَةِ. فنقول: اصْبِرْ على ذلِكَ.

ولو أن إنسانًا سَقَطَ مِنْ درَجِ السُّلَّمِ، وانكَسَرَتْ ساقُهُ، فهذا مِنَ الأقدارِ المؤلِمَةِ، ونقولُ له: اصْبِرْ وتحمَّلْ؛ فإن مع العُسْرِ يُسرًا، إن مع العُسْرِ يُسْرًا. وكذلك إنسانٌ أتى قومَهُ يدْعُوهُم إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فدعاهُمْ ولم يجِدِ استِجَابَةً، فنقولُ: اصْبِرْ على هذَا. وهذا يتَضَمَّنُ الصبرَ على أقدارِ اللهِ؛ لأن عَدَمَ إجابَتِهِمْ من أقدارِ اللهِ.

فعوِّدْ نفْسَكَ الصبْرَ، ولذلك نقولُ للمريضِ: اصْبِرْ وانتظِرِ الفَرَجَ، فقد كُنْتَ بالأمسِ صَحِيحًا، وأنتَ الآن مَرِيضٌ، وغدًا ستكونُ صَحِيحًا.

إذن: قُلْنَا إن الصبْرَ يكونُ على ثلاثةِ أُمورٍ: الصَّبْرِ على أوامِرِ اللهِ، والصَّبْرِ عن نَواهِي اللهِ، والصَّبْرِ على أقدارِ اللهِ. وأشْرَفُهَا وأعْلاهَا منْزِلَةً هو الصَّبْرُ على طاعَةِ اللهِ؛ لأن الصبرَ على الطاعَةِ يحتَاجُ إلى شَيْئينِ: أولًا: حَبْسِ النَّفْسِ. ثانيًا: الكُلْفَةِ البَدَنِيَّةِ القَوليةِ أو الفِعْلِيَّةِ.

ويأتي بَعْدَهُ: الصَّبْرُ عن نواهِي اللهِ؛ لأن فِعْلَ الإنسانِ النَّواهِي اختِيارِيٌّ، واجتنابُهُ النَّواهِي اختِيارِيٌّ، فالأمرُ بيدِهِ، لو شاءَ فَعَلَ المنْهِيَّ عنْه، فإذا كفَّ عنه فقَدْ صبرَ عنْهُ، ولكن الكَفَّ عن المنْهِيَّاتِ ليسَ فيه عَمَلٌ، إلا حَمْلَ النَّفْسِ على الصَّبْرِ.

وأخِيرًا وفي أدْنَى مَرْتَبَةٍ: الصَّبْرُ على أقْدارِ اللهِ؛ لأن أقدارَ اللهِ ليسَتْ باخْتيارِ الإنسانِ، بل هو أمرٌ قَدَّرَهُ اللهُ، ولا بُدَّ أن يقَعَ بغيرِ اختِيارِ الإنسانِ، ولهذا قال بعْضُهُم: من أُصِيبَ بمُصِيبَةٍ فإمَّا أن يصْبِرَ صبرَ الكرامِ، وإما أن يَسْلُوَ، فإن المصابَ إذا صَبَرَ صبرَ الكرامِ أُثِيبَ، وإذا لم يَصْبِرْ، فسوفَ يجْزَع بعضَ الأيامِ، ثم يَنْسَى ويَسْلُو.

ونَرَى كثيرًا من النَّاسِ قد أُصِيبَ بمُصِيبَةٍ، فيَجِدُ أوَّلَ ما يُصابُ بالمصِيبَةِ حرارةً عظِيمَةً على الصَّبْرِ عليهَا، ثم بعدَ ذلِكَ يَنْسَاهَا، ولولا أننا نَنْسَى المصائبَ -والحمد لله- لهَلَكْنَا، فلو كان الإنسانُ كلَّما مَرَّ به مُصِيبَةٌ بَقِيَتْ في ذِهْنِهِ، وبَقِيَ ألمُ صَدْمَتِهَا في نفْسِه، ما هَنِئَ بعيشٍ أبدًا.

ويَجْدُرُ بنا هُنَا أن نَذْكُرَ أنه يدخُلُ في قولِهِ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [البلد:١٧] أن نَصْبِرَ علَى الحَقِّ وهو ما جاءتْ بِهِ الرُّسُلُ؛ لأن هذا شديدٌ على النُّفوسِ، فإذا لم يَصْبِرْ عليه فإنه يسْتَحْسِرُ، ولا يَسْتَمِرُّ في التَّواصِي بالحَقِّ.

هذه السورةُ العظِيمَةُ قال عنها الإمامُ الشافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو مَا أنْزَلَ اللهُ على خَلْقِهِ حُجَّةً إلا هذِه السورَةَ لكَفَتْهُمْ»(١). فأيُّ إنسانٍ عاقِلٍ سيُفكِّرُ أنه ما دامَ في خُسرانٍ إلا إذا اتَّصَفَ بهذِهِ الصفاتِ الأربعِ فسوفَ يتَّصِفُ بها، **ونَذْكُرُها إجْمالًا:**

---

(١) تفسير الشافعي (٣/ ١٤٦١).

الأول: الإيمانُ بما يجِبُ الإيمانُ بِهِ، وهو الإيمانُ باللهِ، ومَلائكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسلِهِ، واليومِ الآخرِ، والقَدَرِ خيرِهِ وشَرِّه.

والثاني: العَمَلُ الصالحُ.

والثالثُ: التَّواصِي بالحَقِّ.

والرابعُ: التواصِي بالصَّبْرِ. جعلنَا اللهُ وإياكُمْ مِنْ هؤلاءِ الرَّابِحِينَ، إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.



الدرس الرابع:

سُورَةُ العَصْرِ سُورَةٌ عَظِيمَةٌ، قَالَ عَنْهَا الشَّافِعِيُّ فِيمَا نُقِلَ عنهُ: لوْ لَمْ يُنْزِلِ اللهُ عَلَى خَلْقِهِ سُورَةً غَيْرَ هَذِهِ السُّورَةِ لكَفَتْهُمْ[1]، يَعْنِي فِي الحثِّ عَلَى الطَّاعَةِ، وبيانِ أحْوالِ الخَلْقِ، ولَيْسَ المَعْنَى أنَّها تَكْفِيهِمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ لأنَّهُ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ الصَّلاةِ، ولا ذِكْرُ الزَّكاةِ، ولا ذِكْرُ البَيْعِ، ولا ذِكْرُ الرَّهْنِ، ولا ذِكْرُ الضَّمانِ، لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا، لكنْ مُرادُ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّها كافِيَةٌ فِي بيانِ أحْوالِ الخَلْقِ، وأنَّ كُلَّ إنْسَانٍ خاسِرٌ إلَّا مَنْ جَمَعَ الأصْنافَ الأرْبَعَةَ.

وهذِهِ السُّورَةُ أقْسَمَ اللهُ فِيهَا تَعالَى بالعَصْرِ ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ [العصر:١].

ما المُرَاد بالعَصْرِ هُنَا أهُـوَ آخِرُ النَّهارِ المُقابِلُ للظُّهْـرِ، أوِ المُرَادُ بالعَصْرِ جَمِيعُ الدَّهْرِ؟

الجَوابُ: الثَّانِي، المُرَاد بالعَصْرِ جَمِيعُ الدَّهْرِ، وإنَّما أقْسَمَ اللهُ بالدَّهْرِ؛ لأنَّ الدَّهْر مَحَلُّ الحَوادِثِ، فكُلُّ مَا يَحْدُثُ فهُوَ فِي العَصْرِ.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العَصْر:٢] هَذَا جَوابُ القَسَمِ ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أيْ: كُلَّ الإنْسَانِ فَـ(أل) هُنَا تَقُومُ مَقامَ (كُلّ)، أيْ: إنَّ كُلَّ إنْسَانٍ لِفِي خُسْرٍ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العَصْر:٣] الَّذِينَ جَمَعُوا هَذَا الأوْصافَ هُمُ الرَّابِحُونَ، وما سِوَى ذَلِكَ فهُوَ خَاسِرٌ.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١١٢).

فإنْ قَالَ قائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي الكُفَّارِ أَهُمْ خاسِرُونَ أَمْ رَابِحُونَ؟

فالجَوَابُ: خَاسِرُونَ، حتَّى وإنْ مُتِّعُوا فِي الدُّنْيَا، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لنَبيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والخِطابُ لهُ وللأُمَّةِ: ﴿**لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ**﴾ [آلِ عِمْرَانَ:١٩٦].





الدَّرْسُ الأَوَّلُ:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعالَى بالهدى ودِينِ الحَقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قالَ تَعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الهمزة:١-٩].

قولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾. الويلُ في القرآنِ الكريمِ كلمةُ وعيدٍ وعذابٍ، وإنها تكونُ كلمةَ وعيدٍ وعذابٍ لأن مَن وجهتْ إليهِ يستحقُّ هذا العذابَ والوعيدَ.

قولُه: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ وهوَ الذِي يهمزُ الناسَ ويعيبُهم، ويهمزُهُم بألقابِ السوءِ، ويلٌ لهُ.

وهذا الذي يكونُ همزةً لمزةً هو أيضًا موصوفٌ بالبخلِ والشحِّ والطمعِ ومحبةِ المالِ، ولهذا قالَ: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ يعني أنهُ يجمعُ الأموالَ ويعددُها ويحصِيها كلَّ يومٍ، وكلَّ ليلةٍ، وكلَّ ساعةٍ، لكنهُ غفلَ عن دينِه، وظن أن مالَه سيُخْلِدُه وسيبقِيه، والواقعُ أن المالَ لن يُخلِدَ صاحبَه، وصاحبُ المالِ لن يُخْلِدَ المالَ لنفسِه؛ إذ كلُّ إنسانٍ ذي مالٍ فإنهُ إما أن يموتَ ويبقَى المالُ، وإما أن يفنَى المالُ ويبقَى صاحبُه، أما أن يخلدَ المالُ وصاحبُه، فهذا لا يمكنُ؛ لقولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

وقالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف:٧-٨] صعيدًا خاليًا لا يوجدُ فيه نباتٌ ولا بناءٌ ولا غيرُه.

فالمالُ أيها الإنسانُ مخلوقٌ لكَ، ولستَ مخلوقًا للمالِ، وما أحسنَ ما قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قالَ: «يَكُونُ المَالُ عِنْدَهُ يَسْتَعْمِلُهُ فِي حَاجَتِهِ بِمَنْزِلَةِ حِمَارِهِ الَّذِي يَرْكَبُهُ، وَبِسَاطِهِ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ؛ بَلْ بِمَنْزِلَةِ الكَنِيفِ الَّذِي يَقْضِي فِيهِ حَاجَتَهُ -يعني مكان البول والغائط- مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَعْبِدَهُ»(١).

ولننظرْ غالبَ المسلمينَ اليومَ، جعلُوا أنفسَهم بمنزلةِ الحمارِ الذي يُركبُ، فجعلُوا أكبرَ همِهم المالَ، حتى إن بعضَهم -والعياذُ باللهِ- ليكسبُ المالَ من حلالٍ وحرامٍ ولا يبالي بذلكَ، ويكسبُ المالَ بالكذبِ وبالخديعةِ وبالغشِّ، ولقدْ قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي**»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**من غشنا فليس منا**»، رقم (١٠١).

وسببُ هذا الحديثِ أن النبيَّ ﷺ مرَّ بصاحبِ طعامٍ فأدخلَ النبيُّ ﷺ يدَه في الطعامِ وإذا أسفلَ الطعامِ بهِ بللٌ، فقالَ لصاحبِه: «**مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟**» قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي**».

وما أكثرَ الذينَ يغشونَ اليومَ! يغشونَ في البيعِ، وفي الشراءِ، وفي الإجارةِ، وفي الرهنِ، وفي كثيرٍ منَ المعاملاتِ، حتى إن الرجلَ ليغشُّ الزوجةَ عندَ عقدِ النكاحِ، أو الزوجةُ تغشُّ الرجلَ عندَ عقدِ النكاحِ، لا يبالونَ بذلكَ. نسألُ اللهَ لنا ولكمُ السلامةَ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ قالَ: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ ولم يقلْ: وعدَّهُ؛ إشارةً إلى أنهُ يُكررُ العدَّ كلما مرَّ عليهِ زمنٌ، ولو قصيرًا؛ عدَّهُ لأن المالَ أكثرُ عندَه.

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة:٣] يعني أيظنُّ أن المالَ يُخلِدُهُ؟ الجوابُ: كلا لنْ يخلدَه المالُ، ولذا إذا جاءَ أَجَلُ الإنسانِ فلا يمكنُ أن يؤخَّرَ ولا لحظةً واحدةً، ولوْ كان عندَه أكبرُ الأموالِ، فالمالُ لا يُخلِدُ صاحبَهُ.

ولكن هلِ المالُ يبقَى لصاحبِه أو لا؟

فإن قالَ المجيبُ: لا يبقَى، فقدْ أخطأَ، وإن قالَ: يبقَى فقدْ أخطأَ.

والحلُّ أن ما تصدقتَ بهِ للهِ فهو باقٍ، وما أنفقتَه في الدنيَا فهو غيرُ باقٍ، فالذي يبقَى حقيقةً هو ما أنفقَهُ الإنسانُ في طاعةِ اللهِ.

فإذا قالَ قائلٌ: هلْ إذا أنفقتُ المالَ على نفسِي وأهلي هلْ أنا مأجورٌ على ذلكَ، وهلْ لي فيهِ أجرٌ؟

فالجوابُ: نعمْ، وفي الحديثِ أن النبيَّ ﷺ عادَ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مكةَ في عامِ حجةِ الوداعِ لأنهُ مريضٌ، فقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا ذُو مَالٍ -يعني ذو مال كثير- وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ -يعني لا يَرثني مِن أولادِي إلا بنتٌ- أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ -يعني اثنينِ مِن ثلاثةٍ- قَالَ: «**لَا**». قَالَ: أَفَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ؟ -يعني النصفَ-، قَالَ: «**لَا**». قَالَ: أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ؟ قَالَ: «**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ**»(١). وكأنَّ النبيَّ ﷺ يحبُّ أن يقللَ عنِ الثلثِ.

ولهذا نقولُ: مَن أرادَ أن يوصيَ فليوصِ بأقلَّ منَ الثلثِ؛ كما فَهِمَ ذلكَ الحبرُ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حيثُ قالَ: لَوْ أَنَّ النَّاسَ غَضُّوا مِنَ الثُّلُثِ إِلَى الرُّبُعِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ**»(٢).

وأحسنُ مِن هذا أن يُوصيَ بالخمسِ؛ لأن هذا الجزءَ هو الذي اختارَهُ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «لا أَرْضَى مِنْ مَالِي بِمَا رَضِيَ اللهُ بِهِ مِنْ غَنَائِمِ الْمُسْلِمِينَ؟!»(٣). حيثُ قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال:٤١].

ولهذا قالَ الفقهاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: ينبغي لمنْ أرادَ أن يوصيَ بشيءٍ من بعدِ موتِه أن يوصيَ بالخمسِ، وإن زادَ إلى الربعِ فجائزٌ، وإلى الثلثِ فجائزٌ، لكنِ الثلثُ كثيرٌ.

ثم قالَ النبيُّ ﷺ معللًا عدمَ جوازِ الوصيةِ لما زادَ على الثلثِ، قالَ: «**إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، رقم (٢٧٤٢)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث، رقم (٢٧٤٣)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٩).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبير (٦/ ٤٤٢، رقم ١٢٥٧٤).

فإذا تركتَ مالًا للورثةِ وانتفعُوا بهِ فهو خيرٌ مِن أن تتصدقَ بهِ، خيرٌ من أن تذرَهُم عالةً؛ لأنكَ لو أنفقتَ مالَك كلَّه وأوصيتَ بهِ صارَ الورثةُ معدمينَ، ليسَ عندَهم شيءٌ.

ثم قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ**» يعني إلا جاءَكَ بها أجرٌ، ولكنِ الرسولُ ﷺ قيدَ هذا بقولِه: «**تُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللهِ**».

وإنفاقُ الإنسانِ على زوجتِه واجبٌ، فإنفاقُ الإنسانِ على زوجتِه في مقابلةِ الاستمتاعِ بها، ومعَ ذلكَ إذا أنفقَ عليهَا يبتغِي بذلكَ وجهَ اللهِ أثيبَ أجرًا على ذلكَ.

وإذا أنفقَ الإنسانُ على نفسِه، يعني اشترَى لنفسِه طعامًا وأكلَهُ مِن أجلِ أن يحفظَ قوتَه وصحتَه، فإنهُ يكونُ مأجورًا، حتى الذي تنفقُه على نفسِك فأنتَ مأجورٌ عليهِ.

ثم قالَ سعدٌ: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أُخَلَّفُ بَعْدَ أَصْحَابِي**» يعني أنهُ خشيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يموتَ في مكةَ، وسعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منَ المهاجرينَ، وكانُوا يكرهونَ أن يموتَ المهاجرُ في بلدِه؛ لأن الإنسانَ إذا هاجرَ عن بلدٍ ابتغاءَ وجهِ اللهِ فإنهُ لا يجوزُ أن يرجعَ ويسكنَ فيهِ، كما أنهُ إذا تصدقَ بصدقةٍ فإنهُ لا يجوزُ أن يرجعَ فيها، كذلكَ إذا تركَ البلدَ؛ لأنها بلادُ كفرٍ وهاجرَ منها ابتغاءَ وجهِ اللهِ، فإنهُ لا يجوزُ أن يرجعَ فيسكنَهَا مرةً أخرَى.

المهمُّ أن سعدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أُخَلَّفُ بَعْدَ أَصْحَابِي**» يعني أموتُ في مكةَ وأصحابي المهاجرونَ لم يموتُوا فيها، أشفقَ أن يكونَ الأمرُ كذلكَ،

فقالَ النبيُّ ﷺ: «**إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ، إِلَّا ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً، وَلَعَلَّكَ تُخَلَّفُ حَتَّى يُنْفَعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ**». لعلكَ أن تخلدَ يعني أن تبقَى وتعمرَ حتى ينتفعَ بكَ أقوامٌ ويضرَّ بكَ آخرونَ.

والأمرُ وقعَ كذلكَ؛ كان سعدُ بنُ أبي وقاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو قائدَ الجيشِ يومَ القادسيةِ، وكانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مشهورًا بسدادِ الرأيِ وبالشجاعةِ وبالقوةِ وبالعزيمةِ، والذي انتفعَ بهِ المسلمونَ، والذي تضررَ بهِ الكفارُ: «**وَلَعَلَّكَ تُخَلَّفُ حَتَّى يُنْفَعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ**»، فهذا هو الأمرُ الذي وقعَ.

أتدرونَ ماذا كان لهذا الرجلِ الذي لم يكنْ لهُ في حجةِ الوداعِ إلا بنتٌ؟ لقدْ خلفَ أحدَ عشرَ ولدًا ذكرًا، اللهُ أكبرُ!

أنتَ لا تعلمُ المستقبلَ، ولذلكَ نقولُ: إن منَ الناسِ مَن يقسمُ مالَه بينَ أولادِه بحسبِ الإرثِ، يعني يقدرُ أنهُ يموتُ ثم يقسمُ مالَه بينَ ورثتِه، وهذا ليسَ بجائزٍ، فليسَ منَ الصوابِ أن تقسمَ مالَك بينَ أولادِك، أرأيتَ لو ماتَ أحدُهم، أيكونُ وارثًا لو ماتَ أحدُهم قبلَكَ؟ ما يكونُ وارثًا.

كذلكَ أيضًا ربما تحتاجُ المالَ، فلا تتعجلْ يا أخي، ولا تقسمْ مالَك بينَ ورثتِك، ودعْ مالَك بيدِكَ، وإذا قضَى اللهُ عليكَ فإنهم سوفَ يَرثونَ على حسبِ فرائضِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قولُه: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ [الهمزة:٤] (كلا) في القرآنِ لها معانٌ؛ منها الردعُ، ومنها التحقيقُ، ولها معانٍ أخرَى. ولا توجدُ (كلا) في نصفِ القرآنِ الأولِ.

قالَ: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ أي يُطرحنَّ في الحُطمةِ، وما الحطمةُ؟ قالَ اللهُ

عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ [الهمزة:٥] هذا استفهامُ تعظيمٍ، ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة:٦] يعني هيَ نارُ اللهِ الموقدةُ ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ [الهمزة:٧] على القلوبِ، نسألُ اللهَ لنا ولكمُ السلامةَ منها، ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ﴾ [الهمزة:٨] أي: مغلقةٌ، نسألُ اللهَ العافيةَ، ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ [الهمزة:٩] يعني أن هذه العمدَ كانت لتثبيتِ السُّورِ الذي وصدتْ بهِ نارُ جهنمَ.

وإنهمْ فيها ليسُوا أحياءً وليسُوا أمواتًا، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى:١٢-١٣]، يعني لا يموتُ ميتةً يستريحُ فيها، ولا يحيَا حياةً طيبةً يَسلمُ فيها منَ العذابِ.

ولهذا قالَ اللهُ عنْ أهلِ النارِ: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ أي يُهلِكُنا ويريحُنا ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].

اللهمَّ أجِرْنَا منَ النارِ، اللهم أجِرْنَا منَ النارِ، اللهم أجِرْنَا منَ النارِ.



الدَّرْسُ الثَّانِي:

إِنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

يقولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١] ﴿وَيْلٌ﴾ كَلِمَةُ وَعِيدٍ، ولهذا يُتَوَعَّدُ الإنسانُ بها، فالأبُ يتوَعَّدُ صَبِيَّهُ فيُهَدِّدُه بها ويقولُ: ويلٌ لك افعل كذا. فـ(ويل) إذن كَلِمَةُ وعيدٍ وتهديدٍ، ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ يَعْنِي: الَّذِي يَعِيبُ الناسَ بالهَمْزِ أحيانًا، وباللَّمْزِ أحْيانًا، واللَّمْزُ ذِكْرُ معَايبِ الغَيْرِ، كما قالَ الله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات:١١]

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ [الهمزة:٢] أي: جَمَعَ مَالًا كَثِيرًا؛ لأن ﴿مَالًا﴾ نكِرَة، فَهِي للتَّعْظِيمِ، و﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ هناكَ فَرْقٌ بينَ عدَّدَ وعَدَّ، فَعَدَّ أي مَرَّة واحِدة، عدَّ المالَ: وَضَعَهُ في الصُّندوقِ، لكن عَدَّدَهُ صباحًا ومساء يأتي فيَعُدُّهُ مرَّةً ثانية وثالِثَةً، ويخْشَى أن يكونَ قَدْ نَقَصَ، إذن: أكْبَرُ هَمِّهِ هو المالُ.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة:٣] أي: أيظُنُّ هذا أن مَالَهُ سيُخْلِدُهُ ويَبْقَى؟ والجوابُ: لا، ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ لن يُخْلِدَهُ المالُ، وكَمْ من أُناسٍ فارَقُوا الدُّنْيا وأموالُهم عَظِيمَةٌ، وهُمْ أشَدُّ ما يكونونَ لها حُبًّا وتَعَلُّقًا، ولكنَّها لا تُفِيدُ، لكِنَّ

المالَ الصالِحَ عندَ الرَّجُلِ الصالِحِ نِعْمَ المُعِينِ، إذا اكتَسَبَهُ الإنسانُ مِنْ حَلالٍ، ووضَعَهُ فيما يُرْضِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فهذا مِمَّنْ يُغْبَطُ عليهِ؛ الرَّجُلُ الذي آتاهُ اللهُ العِلْمَ وعَلَّمَهُ الناسَ يُغْبَطُ علَى عِلْمِهِ، والرجُلُ الذي آتاهُ اللهُ المالَ وصَرَفَهُ فيما يُرْضِي اللهَ أيضًا يُغْبَطُ، لذلك نحنُ لا نَلومُ الإنسانَ إذا كَثُرَ مالُه، فمن الصحابَةِ مَنْ كَثُرَ مالُهُ مثلُ: عثمانُ بنُ عفَّانَ وعبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ، كانت لدَيهِمْ أموالٌ عظِيمَةٌ، لكننا نقولُ: اجْعَلْ هذا المالَ طَرِيقًا لك إلى الآخِرَةِ، اكتَسِبْهُ مِنْ حَلالٍ، واصْرِفْه فيما يُرْضِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ حتى يكونَ هذا خَيْرًا لكَ في الدُّنيا وفِي الآخِرَةِ.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة:٣-٤] (ينبَذُ) أي: يُطْرحُ، والنَّبْذُ: الطَّرْحُ بِقوَّةٍ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران:١٨٧] أَيْ: طَرَحُوه وتَرَكُوه، إذن: لَيُنْبَذَنَّ هذا الهُمَزَةُ اللُّمَزَةُ الذي جَمَعَ مَالًا، والصفَةُ الرابِعَةُ ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾، سَيُنْبَذُ فِي الحُطَمَةِ، يُطْرَحُ طَرْحًا عَنِيفًا، كما قالَ الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]. أعاذَنَا اللهُ وإِيَّاكُمْ مِنَ النارِ.

أهلُ النَّارِ لا يدْخُلُونَ النارَ على جِهَةِ الإكرامِ، أما أهلُ الجَنَّةِ -جعلني الله وإياكم منهم- يَدْخُلُونَها على جِهَةِ الإكرامِ، فتَتلقَّاهُم الملائكةُ، ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]، أَمَّا أَهْلُ النَّارِ فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾. أي: يُدْفَعُونَ؛ لأنهم تَصَوَّرُوا أن النَّارَ تُعْرَضُ لهم كأنها السَّرابُ الذي يكونُ فِي الأرضِ الفَسيحَةِ الواسِعَةِ، يَظُنُّهُ الإنسانُ ماءً وهُمْ عِطَاشٌ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٦]، أي:

أَشَدُّ ما يكونُ إلى العَطَشِ، يُسْرِعُونَ إلى شَرابٍ يَظُنُّونَهُ ماءً، يريدونَ الشُّرْبَ، فإذا جاؤوا فإذَا هِيَ النارُ، فيتَوَقَّفُونَ ولا يدْخُلونَ، فيُدَعُّونَ إليها دَعًّا، أي: يُدْفَعُونَ بعُنْفٍ وقُوَّةٍ ويُوَبَّخونَ، ويقالُ: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور:١٤].

هذا هو حَقُّ اليَقِينِ، ولا بدَّ أن يكونَ، وما بَيْنَكَ وبينَهُ إلا أن تَخْرُجَ الرُّوحُ من الجَسَدِ، وخُروجُ الرُّوحِ من الجَسَدِ ليس له أجَلٌ مَعلومٌ، فقَدْ يَخْرُجُ الإنسانُ من بَيتِهِ ويرْجِعُ محمُولًا على نَعْشِهِ، وقد يكونُ على مكتَبِهِ فيَمُوتُ، وقد يسافِرُ فيَمُوتُ، ليس بينَكَ وبين هذِهِ الحقائقِ إلا الموتُ، ثم تَرَى كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لما ذَكَرَ أصنافَ الناسِ عندَ الموتِ المقَرَّبينَ وأصحابَ اليَمِينِ وأصحابَ الشِّمالِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥].

وهنا يقولُ: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة:٤] و(حُطَمَة) على وَزْنِ فُعَلَة، من الحَطْمِ وهو الإتْلافُ، أي: أنها تَحْطِمُ حطْمًا شَدِيدًا، ثم فَخَّمَ اللهُ هذَا الحَطْمَ فقالَ:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ [الهمزة:٥] أي: ما الذي أعْلَمَكَ بِها؟ وهذا الاستفهامُ للتَّعْظِيمِ والتشويقِ، شَوَّقَنا اللهُ لننْظُرَ ما هَذِهِ الحُطَمَةُ، قالَ الله تعالى:

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة:٦] أضافَهَا اللهُ تعالى لنَفْسِهِ؛ لأنها ليستْ نَارَ الآدَمِيِّينَ الذينَ يجمعونَ الحَطَبَ ويوقِدُونَهُ، ولكنها نارُ اللهِ الذي قال عَنْ نَفْسِهِ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، وقالَ عزَّوَجَلَّ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨]. لهَذَا أضافَ اللهُ هذِهِ النَّارَ إلَى نفسِهِ لأنها محِلُّ عِقابِهِ وغَضَبِهِ، أجارَنَا اللهُ وإياكم مِنْهَا.

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة:٦] وَوَقُودُهَا الناسُ والحِجَارَةُ، كما قالَ تَعالَى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ﴾ [التحريم:٦] أي: الطِّبَاع، ﴿شِدَادٌ﴾ القُوَى، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾؛ لأنهم مُمْتَثِلُونَ لأمرِ اللهِ، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] لأنهم قادِرُونَ. فصِفَاتُهم أربع: غِلاظٌ، شِدَادٌ، لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُم، ويَفْعَلُونَ ما يؤمَرونَ، ليستْ ملائكةَ رَحْمَةٍ على النارِ، ولكنَّها مَلائكَةُ عذابٍ غِلاظُ الطِّبَاعِ شِدَادُ القُوَى، لا يعْصُونَ اللهَ ما أمَرَهُم، بل هُمْ ممتَثِلُونَ لأمرِ اللهِ، ويفعلونَ ما يُؤمَرُونَ فلا يَعْجَزُونَ.

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة:٦-٧] الأفئدةُ أي: القُلوبُ، والمعنى: أنها تَصِلُ إلى القَلْبِ والعِياذُ باللهِ، كما قالَ تعالى ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، وهذا العَذابُ هو إلى ما شاءَ اللهُ وإلى الأَبَدِ، لا يُخَفَّفُ عنهم ولا هم يُنْصَرُونَ -والعياذُ باللهِ-.

اسْمَعْ قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩] أولًا: هم لَيْسُوا في حالٍ تُؤَهِّلُهم إلى أن يَدْعُوا اللهَ بأنْفُسِهِمْ، لا يستَطِيعونَ، بل طَلَبُوا مِنَ الملائكةِ أن يَدْعُوا لهُمْ ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾. وأيضًا خَجِلُوا أن يقُولوا: ادْعُوا رَبَّنَا. بل قالُوا: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩]. لم يقولوا: يَرفَعْ عنَّا يومًا، بل قَالُوا: ﴿يُخَفِّفْ﴾ ولم يقولُوا: أبدًا، ولكِنْ ﴿يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

واللهِ إن قَوْمًا هذِهِ حالهُمْ لتُوجِبُ للعاقِلِ أن يقولَ: أينَ طريقُ الجنَّةِ؟ حتى يَلِجَ هذا الطريقَ، اللَّهُمَّ هيِّئْهُ لنا، وهَيِّئْنا لَهُ، واجعلنَا من أهلِ الجنَّةِ يا رَبَّ العالمينَ،

ولا تُزِغْ قُلوبَنَا بعد إذ هَدَيْتَنَا وهَبْ لنَا مِنْ لدُنْكَ رحمَةً، إنك أنتَ الوَهَّابُ.

واللهِ ما سألُوا رَفْعَ العَذابِ، ولا سألُوا التَّخْفِيفَ دائمًا، إنما سألُوا أن يُخَفِّفَ عنهم يومًا مِنَ العذابِ، ثم قالَ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ [غافر:٥٠]، فَهَلْ يُستجابُ لهُمْ؟ اقْرَأْ آخرَ الآيَةِ: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤].

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة:٨] أي: النَّارُ، على أهْلِهَا مؤصدَةٌ مغْلَقَةٌ.

﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الهمزة:٩]: عَمَدٍ تُقَوِّيها وتَمْنَعُ مِنْ تَفكُّكِهَا، ﴿مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ لو أَرَدْنَا أن نُمَثِّلَ لهذا فَهُو مثلُ تَنُّورٍ عظِيمٍ محاطٍ بمواسِيرَ قويَّةٍ مُمَدَّة عليه، ثم يُغْلَقُ فلا شَكَّ أن الذي في داخِله يحتَرِقُ، هذه مؤصدَةٌ في عَمَدٍ ممددةٍ.





إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحمَدُهُ، ونَستَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ تَعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:١-٥].

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ ألم ترَ أيها الإنسانُ، أو ألم ترَ يا محمدُ كيفَ فعلَ ربُّك بأصحابِ الفيلِ، أي ماذا فعلَ من الأفاعيلِ.

وأصحابُ الفيلِ همْ قومٌ جاؤوا ليهدِموا الكعبةَ، وسببُ ذلكَ أن أبرهةَ بنى بيتًا في اليمنِ على شكلِ الكعبةِ، مِن أجلِ أن يصدَّ الناسَ عنِ الكعبةِ التي هيَ بيتُ اللهِ إلى الكعبةِ التي هيَ بيتُه، فخرجَ رجلٌ منَ العربِ بحَمِيَّةِ الجاهليةِ ليحجَّ إلى كعبةِ اليمنِ فوضعَ فيها القذَرَ، فغضِبَ أبرهةُ وأقسَمَ ليهدمَنَّ هذه الكعبةَ، وخرجَ بجنودِه وبفِيلِه العظيمِ، وفي ذلكَ اليومِ الفيلُ مثلُ الدَّبَّابةِ في يومِنا هذا.

خرجَ بفيلِه مِن أجلِ أن يهدمَ الكعبةَ، فلما بلغَ المُغَمَّسَ -والمُغَمَّسُ أرضٌ فسيحةٌ تقعُ شرقيَّ عرفةَ، أعني الشرقيَّ الشماليَّ، وقبلَ أن يدخُلَ الحرمَ- كان إذا وجَّهَ الفيلَ إلى الكعبةِ حَرنَ وأبى أن يتقدمَ، وإذا وجَّهُه إلى اليمنِ انطلقَ ماشيًا.

والذي حبَسهُ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ حمايةً لبيتِه العظيمِ الكريمِ.

فبَقوا أيامًا وحصلَ بَيْنَهُم وبينَ أهلِ مكةَ محاوراتٌ ومناقشاتٌ، فما كان مِن ربِّ الأرضِ والسَّمَوَاتِ إلا أن أرسلَ عليهمْ طيرًا أبابيلَ، يعني جماعاتٍ، وهذه الطيورُ لم يبينِ اللهُ لنا ما هيَ، أهيَ حمامٌ، أم صقورٌ، أم غربانٌ، فما ندرِي.

قالَ: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي جماعاتٍ متفرقةً ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ ترمي أصحابَ الفيلِ، وحجارةٌ مِن سجيلٍ أي مِن طينٍ مشويٍّ قويٍّ، تضربُ الرجلَ على أمِّ رأسِه حتى تخرُجَ مِن دُبرِه، نعوذُ باللهِ، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي كالزرعِ إذا داستْهُ الإبلُ أوِ المواشِي وأكلتْهُ.

وكلُّ هذا حمايةً للكعبةِ؛ لأن اللهَ تعالى يقولُ في هذا البلدِ الأمينِ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥].

انتهتْ هذه القصةُ العظيمةُ التي فيها مِن آياتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ما يُبهرُ العقلَ.

أهميةُ معرفةِ السيرةِ النبويةِ:

ويجبُ عليكمْ -يا إخواني- معرفةُ سيرةِ نبيِّكُم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فمعرفةُ سيرةِ النبيِّ ﷺ فيها تقويةُ الإيمانِ باللهِ وبرسولِه، وفيها محبةُ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفيها الاهتداءُ بهديِه، والتحلِّي بأخلاقِه.

فاقرؤوا سيرةَ النبيِّ ﷺ تُرْشَدُوا وتُفْلِحُوا؛ لأن في هذا كما ذكرتُ زيادةَ الإيمانِ والمحبةِ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وتعظيمُ الرسولِ ومحبتُه ﷺ فرضٌ واجبٌ على كلِّ مؤمنٍ، فيجبُ أن يُقدمَ الإنسانُ محبةَ الرسولِ ﷺ على محبةِ جميعِ المخلوقينَ.

أقولُ: يجبُ أن نقدمَ محبةَ الرسولِ ﷺ على محبةِ جميعِ المخلوقينَ ولا يُستثنى أحدٌ: الأمُّ، أوِ الأبُ، أوِ النفسُ.

فيجبُ علينا أن نقدمَ محبةَ نبيِّنا -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ، وحشرنَا وإياكُم في زُمرتِه- على الأمِّ، والأبِ، والجدِّ، والجدةِ، والأخِ، والأختِ، بل وعلى النفسِ، وعلى الناسِ أجمعينَ.

قالَ ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(١).

وهلْ يجوزُ أن نقدمَ محبتَه على محبةِ اللهِ؟

نقولُ: لا، ونحنُ ما أحببناهُ إلا لمحبتِنا للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنهُ رسولُ اللهِ، فكيفَ نجعلُ الفرعَ أفضلَ منَ الأصلِ، هذا خلافُ المعقولِ، فمحبةُ اللهِ -عَزَّوَجَلَّ وأسألُ اللهَ أن يرزقَني وإيَّاكُم محبتَه- فوقَ كلِّ شيءٍ، ومحبةُ الرسولِ مِن محبةِ اللهِ، قالَ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

فإذا كنتُم تحبونَ اللهَ تعالى فإن هناكَ في القرآنِ آيةً تسمَّى آيةَ المحنةِ، يعنِي آيةَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم (١٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد، والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة، رقم (٤٤).

الامتحانِ، قالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١] يعني قلْ للأمةِ؛ أمةِ محمدٍ: إن كنتُم تحبونَ اللهَ وأنتُم صادقونَ فاتبعُوني، وإذا اتبعتُموني يحببْكُمُ اللهُ.

فأيُّ إنسانٍ يقولُ: إني أحبُّ اللهَ، وهوَ لا يتبعُ رسولَ اللهِ، فهو كاذبٌ في قولِه.

فصحِّحْ قولَكَ يا أخِي، وانظرْ هلْ أنتَ تتبعُ الرسولَ فأنتَ صادقٌ في محبةِ اللهِ، وهلْ أنتَ تخالفُه، فأنتَ كاذبٌ.

ثم إن كانتِ المخالفةُ في كلِّ شريعتِه فهو كفرٌ، وإن كانتِ المخالفةُ في بعضِ الشريعةِ فهو فسوقٌ، حسبَ الأعمالِ التي خالفَ فيهَا.

فائدةٌ: وفي الآيةِ الكريمةِ قالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وكانَ المتوقعُ أن يقولَ: قلْ إن كنتُم تحبونَ اللهَ فاتبعُوني تكونُوا صادقينَ، فلماذَا عدلَ عَن قولِه: تكونُوا صادقينَ إلى قولِه: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فجاءَ الجوابُ على خلافِ ما توقعَ؟

نقولُ: يعني أن الشأنَ كلَّ الشأنِ أن يحبَّكَ اللهُ، وإلا كمْ مِن إنسانٍ يقولُ: أنا أحبُّ اللهَ. لكنِ الشأنُ والمطلوبُ أن يحبَّكَ اللهُ -اللهمَّ أحبَّنا يا ربَّ العالمينَ- فهذا هو الشأنُ؛ أن يحبَّكَ اللهُ؛ لأنهُ «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ**»(١). فالشأنُ كلُّ الشأنِ يا أخي أن يحبَّكَ اللهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب المقة من الله تعالى، رقم (٦٠٤٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حببه لعباده، رقم (٢٦٣٧).

أيضًا هناكَ فائدةٌ أخرى: أن اتباعَ النبيِّ ﷺ سببٌ لمحبةِ اللهِ للعبدِ، وكلما كان الإنسانُ أتبعَ لرسولِ اللهِ كان أحبَّ إلى اللهِ.

فاحرصْ -يا أخِي- على معرفةِ شريعةِ النبيِّ ﷺ ثم احرصْ على اتباعِها، ثم أبشِرْ بالثمرةِ التي لا يُشبهُها ثمرةٌ، ألا وهيَ محبةُ اللهِ، واللهُ تَعَالَى إذا أحبَّ عبدًا فلا تسألْ عن مرتبتِه ومنزلتِه.

حبسُ ناقةِ الرسولِ ﷺ كحبسِ فيلِ أبرهةَ:

وقدْ وقعَ للنبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حبسٌ لناقتِه كحبسِ الفيلِ؛ ففي شهرِ ذي القَعْدَةِ خرجَ يريدُ العمرةَ ومعهُ الهديُ؛ الإبلُ والبقرُ، يريدُ أن يُهدِيَها إلى البيتِ ويطعمَ أهلَ مكةَ ويَنْعَمَ الناسُ بذلكَ، فلما وصلَ إلى حدودِ الحرمِ، أي الحديبيةِ -والحديبيةُ في حدودِ الحرمِ، بعضُها في الحِلِّ وبعضُها في الحرمِ- جُعلَ في قلوبِ الذينَ كفروا الحميةُ؛ حميةُ الجاهليةِ، كأنهم يقولونَ: ما يمكنُ أن تدخلَ مكةَ، فمكةُ بلدُنا، والحرمُ حرمُنا، ولا يمكنُ أن تدخلَ، وجرَتْ بينهُم مراسلةٌ وحصلَ الصلحُ.

لكن قبلَ أن يحصلَ هذا كان النبيُّ ﷺ إذا وجَّه ناقتَه إلى مكةَ حرنَتْ وأبَتْ أن تمشيَ، وإذا وجَّهها إلى المدينةِ هَمْلَجَتْ[1] ومشتْ، فقالَ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: خلأَتِ القصواءُ -أي حرنتْ ووقفتْ- فقالَ النبيُّ ﷺ: «**مَا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ**». اللهُ أكبرُ! الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يدافعُ عن عِرضِ الناقةِ، وأنتم لا تدافعونَ عن عرضِ إخوانِكم، فلو سَمِعتَ أحدًا يسبُّ شخصًا فقلْ لهُ: لا أبدًا، هذا الرجلُ ما يفعلُ هذا الشيءَ، ولا تمشِ معهُ، وأكثرُنا لا يفعلُ ذلكَ.

---

(١) الهملجة: حسن سير الدابة في سرعة. لسان العرب (هملج).

الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دافعَ عن عرضِ الناقةِ وقالَ: «مَا خَلَأَتْ القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ». صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ، يدافعُ عنِ الحقِّ للحقِّ، حتى في البهائمِ.

قالَ: «وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ»، وحابسُ الفيلِ هو اللهُ، أي حبَسَها، اللهُ. ثم قالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»(١). أقسمَ، وجرَى الصلحُ، وليس هذا موضعَ ذكرِه لأنهُ طويلٌ.

لكنِ المقصودُ أن اللهَ تعالى هو الذِي بيدِه الأمورُ، حتى البهائم هُو يصرِّفُها جَلَّ وَعَلَا، فإذا شاءَ منعَها، وإذا شاءَ أطلقَها، فالأمرُ بيدِه، قالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٢٣].

فإذا كان الأمرُ كلُّه بيدِ اللهِ فإذا استعنتَ فاستعنْ باللهِ، وإذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا مسَّكَ الضرُّ فالجأْ إلى اللهِ، وهكذا لا يكونُ ملجؤُكَ إلا ربَّ العالمينَ عَزَّوَجَلَّ، والجأْ إلى اللهِ في السراءِ والضراءِ، حتى إنهُ جاءَ في الحديثِ: «لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ»(٢).

فاسألْ ربَّك كلَّ شيءٍ، ولا تقلْ: هذا بسيطٌ، ما أحتاجُ أن أسألَ اللهَ إياهُ، بلِ اسألِ اللهَ كلَّ شيءٍ؛ لأن ملجأَكَ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، إذنْ لا تسألْ غيرَه، حتى إن بعضَ العلماءِ يقولُ: لا تسألْ شخصًا أن يدعوَ لكَ، فلا تَقُلْ: يا فلانُ، ادعُ اللهَ لي. بل ادعُ أنتَ ربَّك مباشرةً، وبعضُ العلماءِ رخصَ في طلبِ الدعوةِ منَ الرجلِ الصالحِ، لكن لا شكَّ أن كونَ الإنسانِ يعتمدُ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولا يسألُ إلا اللهَ؛ «إِذَا سَأَلْتَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، باب، رقم (٣٦٠٤). والشسع: أحد سيور النعل.

فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»[١]، هذا هو الأحسنُ، وهوَ الأحقُّ، أما كونُ الإنسانِ يتعلقُ بغيرِه ويقولُ: ادعُ اللهَ لي. ويجعلُ بينَه وبينَ اللهِ أحدًا فلَا.

وربَّما يقولُ قائلٌ: أنا أريدُ أن يدعوَ لي لأنهُ أقربُ إلى الإجابةِ.

فنقولُ: يا أخِي، كونُك تحقِّرُ نفسَك هذا مِن أسبابِ الإجابةِ؛ لأن معنَى هذا إظهارُ الضعفِ أمامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقد يقولُ قائلٌ: إن الرسولَ ﷺ قالَ لعمرَ: «**لَا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ**»[٢].

فنقولُ: هذا الحديثُ لا يَصِحُّ.

وقد جاءَ في الحديثِ أن الرسولَ ﷺ أتاهُ رجلٌ وقالَ: «**يا رسولَ اللهِ، هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ فَادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا**»[٣]. لكنْ هذا الدعاءُ عامٌّ وليسَ خاصًّا، ولهذا لا بأسَ أن تأتيَ إلى شخصٍ وتقولُ: يا فلانُ، إن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قدْ منعَ المطرَ وهلكتِ الأموالُ، وانقطعتِ السبلُ، فادعُ اللهَ أن يُغيثَ العبادَ. وليسَ في هذا مشكلةٌ؛ لأن هذا وقعَ في حضرةِ النبيِّ ﷺ وأجازَهُ، ودعَا.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه.

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب، رقم (٢٥١٦).

(٢) أخرجه أبو داود: تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٩٨)، والترمذي: كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم (٣٥٦٢)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب فضل دعاء الحج، رقم (٢٨٩٤).

(٣) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).



سورةُ الماعونِ

الدَّرْسُ الأولُ:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ، وأُصلِّي وأُسلِّم على نبيِّنا مُحَمَّدٍ خاتمِ النَّبِيِّينَ وإمام المتَّقينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، **أمَّا بعْدُ:**

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:١-٥].

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ (أَرَأَيْتَ) بمعنى: أَخْبِرني، فقد فسَّرها كثيرٌ من العلماءِ بذلك، وكأنهم فسَّروها باللازِم؛ لأنَّ مَنْ رَأَى واسْتُفْهِمَ منه يُخبِرُ: أخبرني عن الَّذِي يكذِّب بالدِّينِ ما حالُه وما مآلُه؟

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ (يَدُعُّ) يعني يدفعه بِعُنفٍ، فإذا جاءه اليتيمُ الَّذِي هو مَحَلُّ الرحمةِ والإحسانِ دَفَعَه بعنفٍ.

واليتيمُ هو الَّذِي مات أبوه قبل بُلُوغِه؛ أي بلوغ الولد. فقد انفردَ عن أبيه، وانكسرَ قلبُه بِفَقْدِ أبيهِ، فهو مَحَلُّ الرأفةِ والرحمةِ، ولهذا تجدون في القُرآنِ الكريمِ كثيرًا من الآياتِ فيها الوصيَّة باليتامى.

قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ لا يَحُضُّ: يعني لا يَحُثُّ النَّاسَ على أن يُطعِموا المساكينَ، فهو لا يُطعِمُ المسكينَ ولا يَحُثُّ النَّاسَ على ذلك. وفي هذا دليلٌ

على أنَّه ينبغي إكرامُ اليتامى، وينبغي الحثُّ على إطعامِ المساكينِ، و«**مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِه**»[1].

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ويلٌ: كلِمة وَعيد يُتوَعَّد بها مَن خالَفَ.

وبعضهم لا يقف عند قوله: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ بل يستمر: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، فنقول:

قوله تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ آية، إذن هي مَحَلُّ وقفٍ؛ لأن جميعَ رؤوسِ الآياتِ مَحَلُّ وَقْف، فيحسُن أن تقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ثم تقول: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: الآيةُ الثَّانية مرتبِطة بالأُولى ارتباطًا وثيقًا، فكيف أقف على الآية؟

فالجواب: أأنتم أعلمُ أمِ اللهُ؟! الله عَزَّوَجَلَّ جعلها آيةً مُنفصِلةً.

ثمَّ إن فيها -يا إخواني- فائدةً عظيمةً، وهي أن الإنسان إذا قرأ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ فإنه يَنتبِهُ ويَتحَرَّكُ قلبُه؛ كيف يُتوَعَّد الُمصلِّي، فإذا جاءت: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ صارت كالماءِ البارِدِ على كبِد العطشانِ.

لكن بعض النَّاس يقول: أخشَى إذا قرأ قارئٌ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ وسكتَ ثمَّ استأنفَ أن يَتوَهَّمَ السامِعُ أن الثَّانيةَ لا علاقةَ لها بالأولى.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير، رقم (١٨٩٣).

فالجواب أنَّ اللهَ أَعْلَمُ، فنقفُ على رأسِ الآيةِ ثمَّ نَستأنِفُ، وهذا لا شَكَّ فيه خيرٌ كثيرٌ.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يعني هم يصلونَ لكنَّهم ساهونَ عن الصَّلاةِ، يُصلون لكن يُقَصِّرُون، فهم يُقَصِّرُون في الطمأنينة، فيصلون بسُرعةٍ، فهذا ساهٍ عن الصَّلاةِ، ويقصِّرون في قراءةِ الفاتحةِ فيقرؤونها هَذًّا[1] حتَّى تسقُطَ بعضُ حُروفها، ويُقصِّرون في أذكارِ الرُّكُوعِ، وفي أذكارِ السُّجُودِ، وفي التشهُّدِ.

فهَؤُلاءِ مصلون لكنهم عن صلاتِهم ساهونَ، ويقصِّرون في إيقاعها في وقتِها، بمعنى أنَّهم يؤخرون الصَّلاةَ عن وَقتها، وهذا سهوٌ عنها، ويُقصِّرونَ بِعَدَمِ الصَّلاةِ مع الجماعةِ، فيشتغِلُ أحدُهم بدُنياهُ أو بأهلِه، فهذا ساهٍ عنها.

أحكام سجود السهو:

وهنا قال بعض أهل العلم: الحمد لله الَّذِي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل: في صلاتهمْ ساهونَ[2].

وسها في صلاتِه يعني نَسِيَ، فالسهوُ في الصَّلاةِ يعني النسيانَ، نَسِيَ مثلًا فترك سجدةً، أو نسِيَ فسلَّم قبل تمامِ الصَّلاةِ.

أما سها عن صلاتِه فالمعنى أَعرضَ عنها، وغَفَلَ عنها، وهذا مذمومٌ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٥٩-٦٠].

---

(١) الهذ: هو سرعة القراءة. لسان العرب (هذذ).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٩٣) من قول عطاء بن دينار.

وأما الذي يسهو في صلاتِه فغيرُ مذمومٍ، فلا يُذَمُّ الإنسانُ إذا سها؛ لأن هذا السهوَ وقعَ من أَتقى عبادِ اللهِ وأشدِّهم خشيةً له، وهو الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقد سها في صلاته عدةَ مراتٍ؛ مرةً صلى خمسًا، ومرةً صلى ثِنتينِ وسلَّمَ، ومرة قامَ عند التشهُّدِ الأوَّلِ، فلا يقال: إن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فعل في ذلك ما يُذَمُّ عليه، بل سها كما يَسْهُو بنو آدمَ.

ولهذا لما صلى يومًا من الأيام خمسًا وسلَّم، قال له الصَّحَابَة: أَزِيدَ فِي الصَّلاةِ؟ فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَ: صَلَّيْتَ خَمْسًا، فَثَنَى رِجْلَيْهِ وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ بَعْدَمَا سَلَّمَ وقال لهم: «إِنَّهُ لَوْ حَدَثَ فِي الصَّلَاةِ شَيْءٌ أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي، وَإِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَتَحَرَّ الصَّوَابَ، فَلْيُتِمَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ»[1].

وفي يومٍ من الأيام صلى الظُّهْرَ أو العصرَ، ثمَّ سلَّم من ركعتينِ، فبقي ركعتانِ، فلما سلَّم هابه المسلمونَ، هابوا أن يكلموه لأن اللهَ تَعَالَى جعل على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الهَيبةَ العظيمةَ، مع أنَّه من أسهلِ النَّاسِ خُلُقًا لكنه مَهِيب، فقال رجل من الصَّحَابَةِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَسِيتَ أَمْ قَصُرَتِ الصَّلاةُ؟ قَالَ: «لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تُقْصَرْ». فنفى الأمرينِ جميعًا، أما قولُه: «لَمْ تُقْصَرْ» فهو حكمٌ شرعيٌّ يَتبَيَّنُ به أن الصَّلاةَ الَّتي سها فيها وسلَّم ركعتينِ أربع، وأما «لَمْ أَنْسَ» فهذا في اعتقادِه أنَّه لم ينسَ؛ لأنَّه لو كان يعتقدُ أن الصَّلاة لم تتمَّ أَتمَّها، فقال الصحابيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلَى قَدْ نَسِيتَ. وهذا واللهِ كمالُ الأدبِ، فلما قال هذا الرجل: بَلَى قَدْ نَسِيتَ.

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب ما جاء في السهو، باب إذا صلى خمسا، رقم (١٢٢٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢).

وهو في نفسِه يَعتقدُ أنَّه أتمَّ؛ احتاجَ إلى حاكمٍ، وهم الصَّحَابَة، فقال: **«أَكَمَا يَقُولُ ذُو الْيَدَيْنِ؟»** فَقَالُوا: نَعَمْ، فَتَقَدَّمَ فَصَلَّى مَا تَرَكَ. والذي تركه ركعتانِ، ثمَّ سَجَدَ سجدتين ثمَّ سلَّم، صلوات اللهِ وسلامه عليه(١).

نأخُذُ من هذا الحديثِ أن الإنسانَ إذا سها في صلاتِه وسلَّم قبلَ الإتمامِ فإنَّه يَسْجُدُ للسهوِ بعدَ السلامِ، وأكثرُ المسلمينَ اليوم لا يَعرِفون هذا، فيرون أن سجودَ السهوِ دائمًا قبل السلامِ، ولكنَّ السنَّةَ تدلُّ على خلافِ هذا.

وفي يومٍ من الأيامِ صلى ﷺ صلاة الظُّهْر، وقام عن التشهد الأول ولم يجلِسْ، فسبحوا به ولكنه مَضَى، ولمَّا أتمَّ صلاتَه سجدَ سجدتينِ قبل أن يُسَلِّمَ(٢).

فصار النبي ﷺ تارَةً يسجدُ قبلَ السلامِ، وتارَةً يسجدُ بعدَ السلامِ، فهل فعل ذلك على سبيل بيان الجائزِ، بمعنى أنَّه أراد أن يبيِّن للأمَّة أن سجودَ السهوِ قبلَ السلامِ وبعدَ السلامِ كلاهما جائزٌ، أو أنَّ لكلِّ صِفَةٍ محلَّها؟

نقولُ: الصوابُ أن لكلِّ صفةٍ محلَّها؛ لأنَّه لو كانت الصفةُ واحدةً، ومرةً سجدَ قبل السلام، ومرةً بعده، تبيَّن أن هذا على التخييرِ؛ لكن لمَّا اختلفتِ الصفاتُ تبين أن المسألةَ ليستْ تخييرًا.

فكيف نُخَرِّج هذا الاختلافَ؛ مرةً قبلَ السلامِ ومرةً بعدَه؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من لم ير التشهد الأول واجبًا؛ لأن النبي ﷺ: «قام من الركعتين ولم يرجع»، رقم (٨٢٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٠).

نقولُ: إذا كان سجودُ السهوِ عن زيادةٍ فمَحَلُّه بعدَ السلامِ، وإذا كان عن نقصٍ فمَحَلُّه قبلَ السلامِ، فهذا ضابِطٌ.

فلمَّا صلى خمسًا سجدَ بعدَ السلامِ؛ لأنَّه زادَ، ولَمَّا سلَّم من ركعتينِ ثمَّ أتمَّ سجدَ بعد السلامِ؛ لأنَّه زاد التشهُّدَ والتسليمَ أيضًا، فصار زيادةً، ولهذا سجدَ بعد السلامِ، ولَمَّا قام عن التشهُّدِ الأولِ سجدَ قبلَ السلامِ؛ لأنَّه عن نقصٍ، فقد نَقَصَ التشهُّدَ الأوَّلَ، فصارتِ القاعدةُ: إذا كان سجودُ السهوِ عن زيادةٍ فبعدَ السلامِ، وإذا كان عن نقصٍ فقبلَ السلامِ.

فإن قال قائلٌ: ما الحكمةُ؟

قلنا: إذا كان عن زيادةٍ فالسُّجُودُ بعدَ السلامِ لِئَلَّا تجتمعَ في الصَّلاةِ زيادتانِ؛ زيادةُ السهوِ وزيادةُ السُّجُودِ، وإذا كان عن نقصٍ فإن من الحكمةِ أن يُجْبَرَ النقصُ قبلَ تمامِ الصَّلاةِ، وهذا واضحٌ جدًّا.

بقِينا في الشكِّ الَّذي يَعْتَرِي كثيرًا من النَّاسِ اليومَ؛ هل صَلَّى ثلاثًا أو أربعًا، فماذا يعملُ؟ يَبْنِي على الأقلِّ أم على الأكثرِ؟

نقولُ: إن قيل: على الأقلِّ قلنا: أخطأتَ، وإن قيلَ: على الأكثرِ قلنا: أخطأتَ، وإن قيلَ: على اليقينِ قلنا: أخطأتَ.

نقولُ: هل عندَك ترجيحٌ أو لا؟ فإذا قال: أُرَجِّح أني صليتُ ثلاثًا فإنه يَجْعَلُها ثلاثًا، وإذا قال: أُرَجِّح أني صليتُ أربعًا فإنه يَجْعَلُها أربعًا، ولكن يسجدُ بعدَ السلامِ، وعلى هذا فالضابطُ في الشكِّ أنَّه إذا تَرَجَّحَ عنده أحدُ الأمرينِ عمِل بالراجِح وسجدَ بعدَ السلامِ، وأقول: اعمَلْ بالراجِحِ، سواءٌ كان الأقلَّ أو الأكثرَ.

فإذا قال: أنا مُتَرَدِّد، وليس عندي تَرجيحٌ لا بالزيادةِ ولا بالنقصِ، فنقول حينئذٍ: ابْنِ على الأقلِّ؛ لأَنَّه ليس عندك ما يُرَجِّحُ، وإذا بنيتَ على الأقلِّ فاسجدْ للسهوِ قبلَ السلامِ.

فصار الشكُّ إن كان فيه ترجيحٌ فإننا نعمل بالراجِحِ، سواء الأقل أو الأكثر، ونسجُدُ بعدَ السلامِ، وإذا لم يكـنْ فيه ترجيحٌ فإننا نعملُ بالأقلِّ، ونسجدُ قبلَ السلامِ.

فهذه القواعدُ الَّتي ذَكَرنا تَحْصُر لك أحكامَ سجودِ السهوِ، الَّتي يَجْهَلُهَا كثيرٌ من النَّاسِ.

وأحيانًا يَتَرَدَّدُ الإمامُ في الشيءِ، فيُنَبِّهُه المأمومونَ الَّذِينَ وراءَه، فإنه يأخذُ بقولِهم إذا كان مُتَرَدِّدًا، أما إذا كان جازِمًا فلا يأخذُ، بل يأخذُ بصوابِ نفسِه؛ لأَنَّه لا يمكِنُ للإنسانِ أن يرجِعَ إلى قولِ غيرِه مع تَيَقُّنِه أن الصوابَ ما فعله هو.

ولو كان الإنسان بعد أن أتمَّ الصَّلاة شكَّ بعد أن سلَّم، قال: والله ما أدري صليتُ أربعًا أو ثلاثًا، فإننا نقول: لا عبرة بهذا الشكِّ، وهذا الحكمُ نافعٌ جدًّا للإنسانِ، فكل شكٍّ بعد الفراغِ فلا عِبرةَ به في كلِّ العباداتِ، حتَّى في الطَّوافِ، فلو أَنَّه بعد أن طافَ وانتهى من الطَّوَافِ وذهبَ ليصليَ ركعتينِ خلفَ المقامِ، شكَّ هل طاف سبعًا أو سِتًّا، قلنا: لا عِبرةَ به.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

الدَّرْسُ الثَّانِي:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ البَسْمَلَةُ آيةٌ من كِتابِ اللهِ، لكنَّها ليستْ مِنَ السُّورَةِ التي بَعْدَهَا، ولا من السورَةِ التي قَبْلَها، بل هي آيةٌ مستَقِلَّةٌ، ولذلك لا تُحْسَبُ من آياتِ السُّورَةِ، فمثلًا الفاتحة أوَّلُ آياتها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [سورة الفاتحة] فهذه سبعُ آياتٍ، أما البَسْمَلَةُ فليستْ مِنْها، لكنَّ بعضَ العُلماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قالَ: إنَّها مِنْها. وعلى ذلك جَرَتِ الطباعَةُ في المصحَفِ الشريفِ، فإنكم تَجِدُونَ البسملَةَ في سُورةِ الفاتِحَةِ معدودةً على أنَّها أوَّلُ آيةٍ، وفي بَقِيَّةِ السُّوَرِ لم يُكتَبْ لها رَقَمٌ؛ لأنها ليستْ مِنَ السُّورَةِ.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون:١] قالَ العلماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إذا قالَ اللهُ تَعالَى ﴿أَرَءَيْتَ﴾ فالمَعْنَى: أَخْبِرْنِي. أي: أَخْبِرْنِي عن حالِ هذا الرَّجُلِ الذي يُكَذِّبُ بالدِّينِ، و﴿يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ أي: لا يُصَدِّقُ بِه، والمرادُ بالدِّينِ

هنَا الجزاءُ، وذلك يومَ القيامَةِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧-١٨]، وما أَكْثَرَ الذين يُكَذِّبُونَ بالبعْثِ، كما قالَ الله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

وهذا الذي يُكَذِّبُ بالدِّينِ ذكَرَ اللهُ مِنْ أوصافِهِ:

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون:٢] أي: يَدْفَعُهُ بالعُنْفِ، ﴿يَدُعُّ﴾ أي: يَدْفَعُهُ بعُنْفٍ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣] أي: يُدْفَعُونَ بعُنْفٍ، و(اليتيم) هو الذي ماتَ أَبُوهُ قبلَ بُلُوغِهِ، أي: الوَلَدُ، سواء كان ذَكَرًا أم أُنْثَى. هذا هو اليتيمُ، وأما مَنْ ماتَتْ أُمُّهُ وأَبُوه حَيٌّ فليسَ بِيَتيمٍ، وإنما سُمِّيَ يَتيمًا من اليُتْمِ وهو الانفرادُ؛ لأنه انْفَرَدَ عن كاسبٍ يَكْسِبُ له نَفَقَتَهُ، ويُرَبِّيهِ ويوجِّهُهُ.

وقد وردتْ أحاديثُ وآياتٌ كثيرةٌ تَحُثُّ على إكرامِ اليَتيمِ، وعلى الإحسانِ إليه، وهو في القرآنِ كثيرٌ، وفي السُّنَّةِ كذلك، حتى قالَ النبي ﷺ: **«أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا»**. وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُما شَيْئًا(١).

فقولُه: ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي: يَدفَعُهُ بعُنْفٍ، ليسَ في قَلْبِهِ رَحْمَةٌ -والعياذُ باللهِ-؛ لأنَّ الصغارَ، سواء كانُوا أيتَامًا أم غير أيتامٍ، ينْبَغِي للإنسانِ أن يَرْحَمَهُم، وأن يَرِقَّ لهم، فإنَّ الرَّحْمَةَ بهم والرِّقَّةَ لهم مِنْ أسبابِ رحمةِ اللهِ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»**(٢) وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب اللعان، رقم (٤٩٩٨).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم (٤٩٤١)، والترمذي: أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، رقم (١٩٢٤).

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون:٣] هذا أيضًا من صِفَاتِ الذي يُكَذِّبُ بيومِ الدِّينِ، ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ أي: لا يحثُّ الناسَ على طَعامِ المسكِينِ، وهو أيضًا لا يُطْعِمُ المسكِينَ، فلا خيرَ فيهِ لنَفْسِهِ، ولا خيرَ فيهِ لغَيرِهِ. والمسكِينُ هو الفَقِيرُ، وسُمِّيَ مِسْكِينًا لأن الفَقْرَ أسكَنَهُ، فليسَ عندَهُ عِزَّةٌ، وليس عندَهُ قوةٌ، وليس له وَجْهٌ يقابِلُ الناسَ لأنه فَقِيرٌ، إذن المسكِينُ هو الفَقِيرُ.

وقَد يقولُ قائلٌ: إذا كان الفَقِيرُ هو المسْكِينُ، فكيفَ فرَّقَ اللهُ بينَهُما في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠] فجعَلَ الفُقراءَ صِنْفًا، والمساكِينَ صِنْفًا آخرَ؟

نقولُ: نعم، هناكَ كَلِماتٌ في اللُّغَةِ العربيَّةِ إذا قُرِنَتْ صارَ لكلِّ واحِدَةٍ مَعْنى، وإذا انْفَرَدَتْ إحْداهُما صارَتْ بمعْنَى الأُخْرَى. انتَبِهُوا لهذِهِ القاعِدَةِ في اللُّغَةِ العَربِيَّةِ، والقرآنُ عَربِيٌّ، هناكَ أزواجٌ مِنَ الكلماتِ إذا ذُكِرَتْ إحْدَاهما مُنْفَرِدَةً شَمِلَتِ الأخْرَى، وإذا ذُكِرَتَا مَعًا صارَ لكلِّ واحِدَةٍ مَعْنى. فالفَقِيرُ في آياتِ الصَّدقاتِ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ هنا أشدُّ حاجَةً مِنَ المسكِينِ، والمسكِينُ دُونَهُ.

وقد قالَ الفقهاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إذا كان الإنسانُ لا يَجِدُ إلا أقَلَّ من نِصْفِ الكِفَايَةِ فهو فَقِيرٌ، وإنْ كان يجِدُ النِّصْفَ فَما فوقَ، لكِنْ لا يجِدُ الكِفايَةَ الكامِلَةَ، فهو مِسْكِينٌ، إذن: فالفَقِيرُ أَشَدُّ حاجَةً، ولهذَا بدَأَ اللهُ بِهِ عَزَّوَجَلَّ.

هناكَ أيضًا مثالٌ آخَرُ، والأمثلةُ كثيرَةٌ: الإسلامُ والإيمانُ، إذا أُطْلِقَ الإسلامُ وَحْدَهُ دخَلَ فيهِ الإيمانُ، وإذا ذُكِرَ الإيمانُ وَحْدَهُ دخَلَ فيهِ الإسلامُ، مثالُ ذلِكَ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فالإسلامُ هُنَا شامِلٌ للإيمانِ، وقولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢] يشْمَلُ المسلِمِينَ. وهكَذَا إذَا ذُكِرَتْ كَلِمَةُ (إسلام)، وَحْدَهَا وكلِمَةُ (إيمان) وَحْدَهَا.

ولكنْ إذا ذُكِرَتَا جميعًا، كما في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]، وكذَلِكَ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤] فَفِي الآيَةِ الأُولَى فَرَّقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بَيْنَ الإيمانِ والإسلامِ، والمرادُ بهذِهِ القَرْيَةِ قَريةُ قومِ لُوطٍ، أَخْرَجَ اللهُ من كان فِيهَا مِنَ المؤمِنِينَ، وهو لُوطٌ وأهلُهُ إلا زَوْجَتَهُ، وهذا البيتُ الذي كان فيها يدْخُلُ فيهِ امرأةُ لُوطٍ، وهي مُسْلِمَةٌ وليستْ مُؤمِنَةً؛ لأنها تتظاهَرُ بالإسلامِ، ولهذا قالَ اللهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠] و﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بالكُفْرِ، وليسَ بسُوءِ الخُلُقِ أو بالزِّنَى مثلًا، فامرأةُ لُوطٍ مُسْلِمَةٌ لكنَّها ليستْ مؤمِنَةً، إذن: الذي نَجَا منْ أهلِ لُوطٍ المؤمنونَ، أما أهلُ البَيْتِ فكلُّهم مُسْلِمُونَ.

أما قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ الأعْرابُ هم: سكَّانُ البادِيَةِ، والغالِبُ علَى سُكَّانِ البادِيَةِ الجفاءُ والجَهْلُ، وفيهم من يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ. فلَمَّا ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ قالَ اللهُ تعالى لنَبيِّهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]، أي: إنَّ الإيمانَ لما يدخُلْ بعدُ، ولكنَّهُ مع الاستمرارِ في الإسلامِ سَيَدْخُلُ الإيمانُ في القَلْبِ.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون:٤] (وَيلٌ) كَلِمَةُ وَعيدٍ، فمَنِ الَّذِي له الوَيْلُ مِنَ المصلِّينَ؟ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٥] ليسَ كلُّ مصلٍّ له الوَيْلُ، بل المصلِّي حقيقةً له الخَيْرُ، لكنَّ المصلِّي الَّذِي هو لَاهٍ عن صَلاتِهِ هذَا هُو الَّذِي ويلٌ لَهُ، أعاذَنَا اللهُ وإياكُم مِنْهُم.

قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي: غافِلُونَ مُفرِّطُونَ، لا يُبالُونَ، متى قامُوا من النَّوْمِ صلَّوْا، لا يُبَالُونَ إن صَلَّوْا مع الجَماعَةِ أو معَ غيرِ الجماعَةِ، ساهونَ عنْها، وإذا دَخَلُوا فيها حاصَرَتْهُم الوساوسُ والهواجِسُ من كلِّ مكانٍ، فمن كان هكذا لم يكُنْ مصَلِّيًا، وصلاتُهُ كجِسْمٍ بلا رُوحٍ، ولهذا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أن يُصَلِّيَ الرَّجُلُ بِحضْرَةِ الطَّعَامِ[1]؛ لأنَّ قَلْبَهُ سيكونُ مَشْغُولًا بالطعامِ.

فالمصلُّونَ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ هم الذين ويلٌ لهُمْ، ولذلِكَ -أيها الفقهاء- مِنْ بابِ أوْلَى، إذا كان الَّذِي يُصَلِّي وهو غافِلٌ ويلٌ لهُ، فمَنْ لا يُصَلِّي أبدًا أَشَدُّ وأَشَدُّ، ولهذا كان أصحُّ أقوالِ العُلماءِ أن الَّذِي لا يُصَلِّي كافِرٌ خارجٌ عن الإسلامِ، ليسَ مِنَ المسلِمِينَ في شَيْءٍ، وإذا ماتَ فإنَّه لا يجوزُ أن يُغسَّلَ، ولا يُكَفَّنَ، ولا يُصَلَّى عليهِ، ولا يُدْفَنَ مع المسلِمِينَ، ولا يُدْعَى لهُ بالرَّحْمَةِ ولا بالمغفِرَةِ؛ لأنه كافرٌ، ولهذا لا يَحِلُّ لأحدٍ يَعْلَمُ من قَرِيبِهِ أنه ماتَ وهو لا يُصَلِّي، أن يقدِّمَهُ للمسلِمِينَ ليُصَلُّوا عليه، بل يصنَعُ به كما قالَ أهلُ العِلمِ الذين قالوا بِكُفْرِ تاركِ الصلاةِ وهو الحَقُّ: يُخرجُ به إلى أرضِ فَلاةٍ، ويُحْفَرُ له حُفْرَةٌ لا تكونُ قَبْرًا، ويُرْمَسُ فيها بثِيابِهِ رَمْسًا، وإذا كان يومُ القيامَةِ يحشَرُ مع فِرعونَ وهامَانَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال وكراهة الصلاة مع مدافعة الأخبثين، رقم (٥٦٠).

وقارونَ وأُبِيِّ بن خَلَفٍ، أعاذنا اللهُ وإياكُمْ من ذلك، فالصلاةُ أمْرُهَا خَطِيرٌ، وشأنُها عظِيمٌ.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ومَعْنَى ساهُونَ: أي غافِلُون لاهُونَ عَنْهَا متَهاوِنُونَ فيهَا.

وهنا مَلْحَظٌ حَسَنٌ، لو قال: ويلٌ للمُصَلِّينَ الذين هُمْ في صَلاتِهِمْ ساهونَ. لكانَتْ كارِثَةً؛ لأنه لا يَسْلَمُ أحدٌ مِنَ السَّهْو في الصلاةِ، فهذَا النَّبِيُّ ﷺ وهو أخشَعُ الناسِ للهِ عَزَّوَجَلَّ سَهَا في صَلاتِهِ، سَهَا مَرَّةً وصلى الظُّهْرَ خمسًا [1]، وسَها مَرَّةً وسَلَّم مِنْ ركعَتَيْنِ مِنَ الظُّهرِ أو العَصْرِ [2]، وسَها مَرَّةً وقامَ ولم يتَشَهَّدِ التَّشَهُّدَ الأَوَّلَ [3]، كل هَذَا وقَعَ منْه، بل أكثرُ مِنْ هذَا.

لكن أقولُ لكم: الذين هُمْ في صَلاتِهِمْ ساهونَ ليس لهُمُ الويلُ، بل الذين لهُمُ الويلُ هم الذين عَنْ صلاتِهِمْ ساهُونَ، ولهذا أذكركم بما قالَ العلماءُ، قالَ العلماءُ: الحمدُ للهِ الَّذِي لم يَقُلِ: الذينَ هُمْ في صَلاتِهِمْ ساهُونَ.

وهناك آية أُخْرَى تُشْبِهُ هذِهِ ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] قالَ العلماءُ: الحمدُ لله الَّذِي لم يَقُلْ: والظالمون هُم الكافِرونَ؛ لأنه لو قال: والظَّالمونَ هم الكافِرُونَ لصارَ الظَّالمُ كافرًا، لكن قالَ ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٤٠١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من لم ير التشهد الأول واجبا، رقم (٨٢٩).

أعظَمَ الظُّلْمِ أن تَكْفُرَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وهنا سؤال: هذه الآيَةُ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ مستَقِلَّةٌ عمَّا بَعْدَهَا، وهو قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾. فَهَلْ نَقْرَؤهَا كما هِيَ في المصحَفِ، بمعْنَى أن نقولَ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾، ثمَّ نَقُولَ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أو نَصِلُها فنقولَ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾؟ هناكَ قولانِ في المسألةِ، بعضُ الناس قال: لا تَقِفْ؛ لأنك لو قُلْتَ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ وسَكَتَّ بناءً على أنَّها رأسُ آيَةٍ صارَ هنَا إشكالٌ، فلا بُدَّ أن تَقُولَ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فتَصِلَ الآيَتَيْنِ.

وبعضُ العلماءِ يقولُ: لا، فالَّذِي أَنْزَلَ الآياتِ هُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، والذي يضَعُ الآيَةَ في مكانِهَا هُو الرسولُ، كان يقولُ: « **ضَعُوا هَذِهِ الآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا**»[1]. إذن: هاتَانِ آيتَانِ، فَلَكَ أن تقولَ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ثم تَقِفَ، ثم تَقْرَأَ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾؛ لأن رُؤوسَ الآياتِ كلَّها محَلُّ وقْفٍ، سواءٌ انقَطَعَ المعْنَى أم لم ينْقَطِعْ.

وإذا قرأتَ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ وسَكَتَّ فسوفَ تُفَكِّرُ قائلا: كيف هذا؟ وتَظَلُّ متَشَوِّفًا غايَةَ التَّشَوُّفِ لما بعْدَهَا، وحينئذ يكونُ للوَقْفِ فائدَةٌ عظِيمَةٌ؛ وهي أن الإنسانَ إذا سَمِعَ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ تعجَّبَ وقال: لا بُدَّ أن هناكَ أمْرًا ما، فإذا قُرِئَ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ نَزَلَتْ عليهِ كالماءِ البارِدِ على كَبِدِ الإنسانِ العَطْشانِ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٦٩، رقم ٤٩٩).

ومع ذلك يجوزُ الوَصْلُ، لكنَّ الوَقْفَ لا يُعابُ علَى فاعِلِهِ، فلا يقالُ للإنسانِ: لماذا وقَفْتَ، والآيةُ التي بَعْدها متَّصِلَةٌ بِهَا؟ ولكننا نقولُ: لا بأسَ، أَلَسْنَا نقِفُ في الفاتحةِ فنقولُ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة:٦] ثم نقولُ: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الفاتحة:٧]، مع أنها متَّصِلَةٌ، ولكنَّنا نَقِفُ على كلِّ آيةٍ.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ [الماعون:٦] يُراؤونَ: أي يَعْمَلُونَ العَمَلَ ليَرَاهُم الناسُ فَقَطْ، أعاذَنَا اللهُ وإياكُمْ مِنْ ذلِكَ. وهذه صِفَةُ المنافِقِينَ، فالمنافِقُ لا يَهُمُّهُ ما بَيْنَهُ وبينَ اللهِ، بل يَهُمُّهُ ما بينَهُ وبينَ الخَلْقِ: هل رآهُ الناسُ في الصفِّ الأوَّلِ أو لا؟ هل رَأَوْهُ في الركوعِ والسُّجودِ؟ هل رَأَوْهُ يقْرَأُ القرآنَ؟ هل رَأَوْهُ متَخَشِّعًا؟ هذا هو الذي يَهُمُّهُ، لا يَهُمُّهُ ربُّ العالمينَ، يَهُمُّهُ أن يراهُ الناسُ، فذلكَ ليس له حَظٌّ في الآخِرَةِ، الذي يُرَائِي الناسَ في صَلاتِهِ أو صَدَقَتِهِ أو صيامِهِ أو حَجِّهِ أو غيرِ ذلك ليس له في الآخِرَةِ مِنْ خلاقٍ.

والدليلُ: قولُ اللهِ تعالى في الحديثِ القُدُسِيِّ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1]. أي: لا أَقْبَلُ منْهُ، ولا أريدُ، وليس له حَظٌّ في الآخِرَةِ، ولذلك أُوصِي نَفْسِي أوَّلًا وأُوصِيكُمْ ثانِيًا بالإخلاصِ للهِ، طَهِّرُوا قُلُوبَكُم من مُراءاةِ الناسِ، وهذا أَشَدُّ ما يكون على الإنسانِ، فإذا صَلَّى الإنسانُ يَنْبَغِي عليهِ أن يُتِمَّ قِرَاءتَهَا وركوعَهَا وسُجودَهَا وقِيامَهَا وقُعُودَهَا تمامًا على السُّنَّةِ، لكنَّ المشكِلَةَ هي تَنْقِيَةُ القَلْبِ مِنَ الرِّياءِ، وهو ما يَعْجِزُ عنه كثيرٌ مِنَ الناسِ إلا مَنْ شاءَ اللهُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

ولهذا قالَ بعضُ السلَفِ: ما جاهَدْتُ نَفْسِي على شَيْءٍ مُجَاهَدَتَها عَلَى الإخْلاصِ. فالإخْلاصُ صَعْبٌ شديدٌ؛ فلو أنكَ رأيتَ مَثلًا وأنتَ تُصَلِّي إنسانًا ينظُرُ إليكَ، فأُعْجِبْتَ بأن يراكَ هذا الرَّجُلُ، حتى يمدَحَ في صلاتِكَ. فالرِّياءُ آفةٌ مِنَ الآفاتِ، وهو للعباداتِ كالسُّوسِ يَنْخَرُ في الحبَّةِ فيُتْلِفُهَا.

قوله تعالى:﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ أي: ليس لهُمْ إلا أنْ يُرَاؤوا الناسَ. وربما نقولُ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ داخِلَةٌ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾. أي: أنهم غافِلُونَ عَنِ الإخلاصِ فِيهَا، فهُمْ يُراؤونَ الناسَ.

فإذا قال قائلٌ: أنا أعْمَلُ العمَلَ وأُحْسِنُ العمَلَ ليرَانِي الناسُ، فيَتَأَسَّوْا بِي، فهل هذا رِياءٌ أم دعوةٌ إلى اللهِ؟ نقول له: بل أنتَ دَاعٍ إلى اللهِ. ولهذا لما صُنِعَ المنبرُ للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صلَّى عليهِ، يقومُ ويَرْكَعُ، وإذا أرادَ السجودَ نَزَلَ إلى الأرضِ وسَجَدَ، فقالَ: «**فَعَلْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بِي**» هذه واحِدَةٌ، والثانِيَةُ: «**وَلِتَعْلَمُوا صَلَاتِي**»(١). وكذلك لما زَاحَمَهُ الناسُ في المسْعَى ركِبَ على بَعيرٍ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**من أجْلِ أن يَراه الناسُ ويتَأَسَّوْا بِهِ**»(٢).

إذن: إذا كان الإنسانُ أُسْوَةً للناسِ، أي كان عَالمًا مَوْثُوقًا عندَ الناسِ، وصَلَّى صلاةً يَطْمَئِنُّ فيهَا، لا ليرَاهُ الناسُ، ولا ليتَقَرَّبَ إليهِمْ برؤيتِهِمْ، ولكن ليتَعَلَّمُوا منْه، لم يكن هذا مِنَ الرِّياءِ، بل هو مِنَ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ؛ لأن الدعْوَةَ إلى اللهِ تكونُ بالقَوْلِ وتكونُ بالفِعْلِ. ولذلك ما أَشَدَّ المسْؤولِيَّةَ علَى العُلماءِ! فالعُلماءُ عليهم

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة، رقم (٥٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣١١، رقم ٢٨٤٣).

مسؤولِيَّةٌ عظيمَةٌ؛ لأن الناس يَرَوْنهم أئمَّةً يُقْتَدَى بهِمْ، فإذا أَخَلَّ العالِمُ بشيءٍ مِنَ الشَّرِيعَةِ لم يكُنْ ضَرَرُه على نفْسِه، بل عليه وعلى غيرِه.

فإذا كان العالمُ مَثَلًا يَتَساهَلُ في الصلاةِ في رَفْعِ اليدَيْنِ، ورفْعُ اليدَيْنِ يكونُ عندَ تكبيرَةِ الإحْرامِ، وعندَ الرَّفْعِ مِنَ الركوعِ، وعندَ القِيامِ مِنَ التَّشَهُّدِ الأوَّلِ، هذه أربعة مواضِع مِنَ السُّنَّةِ، لكن قد تكون هذه السُّنَّةُ في حقِّ العالِمِ واجِبَةً؛ لأن العَالِمَ أُسْوَةٌ، فإذا رآه الناسُ لا يَرْفَعُ يدَيْهِ تَرَكُوا هذه السُّنَّةَ. ولذلِكَ أقولُ: إن مَسْؤولِيَّةَ العُلماءِ عظِيمَةٌ، فهُمُ الَّذِين يَقْتَدِي بهِمُ الناسُ، فأَحُثُّ إخوانِي العُلماءَ، وحتى طلَبَةَ العِلْمِ الراقِي، أحثُّهُم على أن يحرِصُوا على تَطْبِيقِ السُّنَّةِ ما استطاعوا.

قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٧] الماعُونُ هو القَدَحُ الذي يُجْعَلُ في الطعامِ والماءِ ومَا أشبَه ذلِكَ، ويرادِفُه الإناءُ، ومعنى ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ أي: يمنَعُونَ طالِبَ الماعُونِ أن يستَعِيرَهُ. والفعل (يمنع) يدُلُّ على شِدَّةِ البُخْلِ. فقد يأتِي إليهِمُ الرَّجُلُ ويطلُبُ منْهُم آنيَةً لوجودِ ضُيُوفٍ عندَهُ، فيأْبَوْنَ، فهؤلاء تشْمَلُهم الآيةُ، فهُمْ يمْنَعُونَ إعارَةَ الماعونِ وهو سيُعادُ إليهِمْ وسيُضْمَنُ أيضًا؛ لأن العارِيَّةَ تُضْمَنُ على المستَعِيرِ، فليسَ عليكُمْ ضَررٌ.

فلو أن أحَدًا طَلَبَ منكَ إعارَةَ الماعُونِ، وأنتَ تَعْرِفُ أنه سيُخْرِبُه، فامْنَعْه ولا تُعْطِهِ؛ لأن هذا ضَرَرٌ عليك، ولا تُلامُ إذا مَنَعْتَ، لكن لو طلَبَ شخصٌ منك أن تُعِيرَهُ الماعونَ، وأنتَ تعلَمُ أن الرجلَ أمِينٌ، ولا يمكنُ أن يُحْدِثَ فيهِ شَيْئًا، فإنه لا يَحِلُّ لكَ أن تمْنَعَهُ، مع استِغْنائكَ عنه، فإنْ مَنَعْتَهُ دَخَلْتَ في هذِه الآيَةِ.

وإعارةُ الكُتُبِ كذلك تكونُ كإعارَةِ الماعونِ، فلو أن إنسانًا جاءَهُ طالِبُ عِلْمٍ

فطَلَبَ مِنْه كِتَابًا ليَقْرَأهُ ويستَفِيدَ مِنْه، فليس لكَ أن تَمْنَعَهُ، وإذا فعلتَ دخَلْتَ في الآيَةِ؛ لأنه إذا كان إناءُ الغِذَاءِ الجِسْمِيِّ، وهو الماعُونُ الذي يُجْعَلُ فيه الطعامُ، إذا كان مَنْعُهُ مَذْمُومًا، فغذاءُ الرُّوحِ من بابِ أَوْلَى.

وكذلك إذا جاءَكَ رجُلٌ فقالَ: أَعِرْنِي المصحَفَ، أريدُ أن أقْرَأَ وليسَ عِنْدي مُصْحَفٌ. فوجَبَ عليكَ أن تُعِيرَهُ، لكن إذا خِفْتَ أن يُتْلِفَهُ فلَكَ أن تمنَعَهُ، وكذلك إذا خِفْتَ أن يَكْتُبَ عليه حَواشِيَ أو هوامِشَ؛ لأن بعضَ طلَبَةِ العِلْمِ إذا استعارَ كِتابًا مِنْكَ، ثم ردَّه إليكَ، فإذا هو قَدْ ملأهُ كِتَابَةً يَمِينًا ويَسَارًا، فيَحِقُّ لنا مَنْعُهم؛ لأنَّهم يُفْسِدُونَ الكِتابَ، ولا نُذَمَّ على ذلِكَ، لأن فِعْلَهُم يُضِرُّ بالكِتابِ، ولا سِيَّما إذا كانوا طلبَةً صغارًا، وكَتَبُوا فيه ما ليسَ بصَحِيحٍ. أو تُعْطِيه كِتَابًا في الفقه فتَجِدُ قد عَلَّقَ عليه بشيءٍ مِنَ النَّحْوِ، فكيف هذا؟! لكن تَذَكَّرَ وهو يقْرأُ في الفِقهِ إعرابَ بيتٍ أو إعرابَ جُملَةٍ، فكتبَهَا في كتابِ الفِقْهِ، فلا يُعابُ على مَنْ مَنَعَهُ مِثْلَ هذا، ولا يكونُ مَذْمُومًا.





سورةُ الكافرونَ

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَولهُ تَعالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦].

هذهِ السُّورةُ هِي إحدَى سُورتَي الإخلاصِ، فَسُورتا الإِخلاصِ هُما قَولُهُ تَعالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقَولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، وكانَ النبيُّ ﷺ يقرأُ بهاتينِ السُّورتينِ في سُنَّةِ الفجرِ(١)، وفي سنَّةِ المغربِ(٢)، وكذلِك في

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب اسْتِحْبَابِ ركعتي سُنَّةِ الفَجْرِ وَالحَثِّ عليهما وَتَخْفِيفِهِمَا وَالمحافظة عليهما وَبَيَانِ ما يُسْتَحَبُّ أَنْ يُقْرَأَ فيهما، رقم (٧٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في الركعتين بعد المغرب والقراءة فيهما، رقم (٤٣١)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما يقرأ في الركعتين بعد المغرب، رقم (١١٦٦).

رَكْعتيِ الطَّواف[1]، لَمِا تضمَّنَتاه هَاتينِ السُّورتينِ منَ الإخلاصِ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

أمرَ اللهُ نبيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنْ يتبرَّأَ منْ عِبادةِ المشركينَ، فقالَ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، فَالكافرونَ يَعبدونَ: الأَصنامَ، والشَّجرَ، والحَجَرَ، والشَّمسَ، والقمرَ.

فيقولُ اللهُ لنبيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أيْ: لَا أَعبدُ الَّذي تَعبدونهُ، فأَنَا بَريءٌ مِنهُ، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أيِ: اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإنْ قيلَ: أَلَيْسوا يَعبدونَ الأَصنامَ وَيَعْبدونَ اللهَ؟

قلنَا: نَعم، بَعضُهمْ يَعبدُ اللهَ ويَعبدُ الأَصنامَ، ولكنَّ عِبادتَهُ للهِ لَا تَنفَعُهُ معَ الشِّركِ؛ فَلِهَذا نَفاها، وَقَال: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾.

فإنْ قيلَ: إنَّ الآياتِ فِيها تكرارٌ.

قُلنا: اختلفَ العُلماءُ فِي هذَا التَّكرارِ عَلى ثَلاثةِ أَقوالٍ:

القَولُ الأَوَّلُ: أنَّ هذَا التَّكرارَ مِن بَابِ التَّوكيدِ، وأنَّ الأمورَ الهامَّةَ تُؤَكَّدُ بِالتَّكرارِ، مِثل قَولهِ تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ:٤-٥]، وقَولهُ تَعَالَى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٦-٧]، فَالشَّيءُ المهمُّ يَحسنُ أنْ يُؤكَّدَ بالتَّكرارِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب صفة حجة النبي ﷺ، رقم (١٩٠٧)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب حجة رسول الله ﷺ، رقم (٣٠٧٤).

القَولُ الثَّاني: أنَّه لَيس فِي الآيةِ تكرارٌ، وأنَّ قَولَهُ: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ نَفي لِلمعبودَاتِ، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ نفيٌ لِكيفيَّةِ العبادَةِ، كأنَّه يَقولُ: أَنَا لَا أعبدُ الأصْنامَ الَّتي تَعبدونَهَا، وأنَا لَا أَعبدُ عَلى شِبه عِبَادتكمْ، ولَا أَتمثَّل بِها، ولَا أَتشبَّه بِها، فيكونُ الأَوَّلُ بِاعتبارِ المعبودِ، والثَّاني بِاعتبارِ العِبادةِ، أَي: إنَّ عِبَادتي لَيْست كَعِبَادَتِكُمْ، ومَعْبودي لَيْس مَعْبودَكم، وهذَا القولُ جيِّدٌ؛ لأنَّ فيهِ السَّلامةَ مِن دَعْوَى التَّكرارِ.

القولُ الثَّالثُ: وهُو قولُ شيخِ الإِسلامِ ابنِ تَيْمِيةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ الآيتينِ الأُوليينِ، نفيٌ للفعـلِ، والآيتينِ الأُخريينِ نفيٌ لِلقبولِ والاستِعدادِ، يَعْنِي أَنَا لَا أفعـلُ، ولَا يُمكنُ أنْ أفعلَ ولَا أَقبلَ هذا[1].

فَالمقامُ مَقامٌ عظيمٌ، ويَجِبُ عَلى الإِنسانِ أنْ يَتبرَّأَ مِن مَعبوداتِ المشركينَ، وأنْ يَتبرأَ مِن عِبادةِ المُشركينَ، وأنْ يَكونَ مُخلصًا للهِ فِي عبادتِهِ مُتَّبعًا لِرسولِهِ، ولَا بُدَّ أَنْ يَتميَّزَ دينُ المسلمينَ عَن دينِ الكفَّارِ؛ وَلِهَذَا جاءَ النَّهيُ عنِ التَّشبُّه بهم حتَّى فِي اللِّباسِ، فقالَ النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[2]. لأنَّ التَّشبُّهَ بِهم فِي الظَّاهرِ، يُؤدِّي إِلى التَّشبُّهِ بهم فِي البَاطنِ وفِي العَقيدةِ وفِي العملِ.



---

(١) جامع البيان للطبري (٢٤/ ٧٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١).



سورة الإخلاص

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قَولهُ تَعالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤].

هذِهِ السُّورةُ هِي إِحْدَى سُورَتي الإِخلاصِ، فَسُورتا الإِخلاص هما قَولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، وقَولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. وكانَ النبيُّ ﷺ يقرأُ بِهاتينِ السُّورتينِ فِي سُنَّةِ الفجرِ(١)، وفِي سنَّةِ المغربِ(٢)، وكَذَلك فِي رَكْعتيِ الطَّوافِ(٣)، لما تَضَمَّنتاه هَاتَينِ السُّورَتين مِنَ الإخلاصِ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب اسْتِحْبَابِ ركعتي سُنَّةِ الفَجْرِ وَالحَثِّ عليهما وَتَخْفِيفِهِمَا وَالمحافظة عليهما وبَيَانِ ما يُسْتَحَبُّ أَنْ يُقْرَأَ فيهما، رقم (٧٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في الركعتين بعد المغرب والقراءة فيهما، رقم (٤٣١)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما يقرأ في الركعتين بعد المغرب، رقم (١١٦٦).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب صفة حجة النبي ﷺ، رقم (١٩٠٧)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب حجة رسول الله ﷺ، رقم (٣٠٧٤).

وهذهِ السُّورةُ لَيْست أَعْظمَ سُورةٍ فِي كتابِ اللهِ، بَل أعظمُ سُورةٍ فِي كتابِ اللهِ هِيَ الفَاتحةُ، كَما ثَبت ذَلك عنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكنَّ سُورةَ الإِخلاصِ تَعْدِلُ ثلثَ القرآنِ، ولكنَّها لَا تجزئُ عنِ القرآنِ؛ وَلِهذا لَو كَرَّرها الإنسانُ ثَلَاثَ مرَّاتٍ فِي الصَّلاةِ، وقالَ: أنَا كرَّرْتها ثَلاثَ مرَّاتٍ، والمرَّةُ الوَاحدةُ ثُلثُ القرآنِ، فأكونُ كأنِّي قَرأتُ القرآنَ كلَّهُ. فَلا يُجزئهُ ذَلك، فالمُعادلةُ لَا يَلزمُ مِنهَا المُقابلةُ فِي الإجزَاءِ، لكنَّها تَعْدِلُ ثُلثَ القرآنِ، كَما ثَبت ذَلك عنِ النبيِّ ﷺ[1] والخطابُ فِيها لِلرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والخطابُ للرَّسول خِطابٌ لَه وللأُمَّة.

قَولهُ: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، أَي: مُتوحِّد جَلَّ وَعَلَا فِي ذاتهِ وفِي أَسْمائه وَفِي صِفاتهِ، وفِي أَحْكامه، لهُ الحكمُ، ولهُ الأمرُ، ولَهُ الخلقُ، ولَهُ التَّدبير، فهُوَ أَحدٌ فِي كلِّ شيءٍ.

قَولهُ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، الصَّمدُ يَعني الكاملُ فِي صِفاتهِ، فهُو صَمدٌ مُستغنٍ عَن جَميعِ مَخلوقاتهِ، كلُّ الخلائقِ تَسمُو إِلَيْهِ؛ وَلهذا قالَ بعضُ العلماءِ فِي تَفسيرهَا: الصَّمدُ هو الَّذي تَصْمُدُ إليْهِ الخلائقُ فِي حَوائجِها؛ وَلِهذا لَا يجدُ الإِنسانُ مَن يَصْمُدُ إِلَيْه عندَ الحوائجِ إِلَّا اللهَ، وهوَ أمرٌ مَفطورٌ عليهِ الإِنسانُ، حتَّى الكافرُ إِذَا غشيَهُ مَوجٌ كالظُّللِ يَدعُو اللهَ، ويتَّجهُ الإِنسانُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي جَميعِ حَوائجِهِ، ومَنِ اتَّجه إِلى اللهِ فِي حَوائجهِ اتِّجاهًا صَحيحًا مُظهرًا لِلافتِقَارِ إِلَى اللهِ، مُوقنًا بِقدرةِ اللهِ وَإِجابةِ اللهِ، فإِنَّ حَاجتَهُ سَوف تُقضَى فِي كلِّ حالٍ.

لكنَّ الذِي يَعوزُنا الصِّدقُ، إِمَّا أَنْ يَكونَ لجُوءُنا إِلى اللهِ فِيه مَا فيه، أَو تَصديقُنا بِوَعدِه فِيه مَا فِيه، فيَفوتُنا خَيرٌ كثيرٌ، وإِلَّا فَمن لجَأَ إِلى اللهِ بِصدقٍ وإِخلاصٍ فَحَسْبُهُ اللهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم (٥٠١٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم (٨١١).

وَلِهَذَا لَمَا جاءَ رَجلٌ منَ المشركينَ وَرسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نائمٌ تحتَ شَجرةٍ، فأخذَ المُشركُ سيفَ الرَّسولِ وكانَ مُعلقًا بِالشَّجرةِ، فَاستيقظَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقالَ الرَّجلُ المشركُ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «**اللهُ**» قَالَ: فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «**مَنْ يَمْنَعُكَ؟**» قَالَ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ[1].

ومنْ أَراد أنْ يَطَّلِعَ عَلى مثلِ هذه الأَحوالِ، فَليرجعْ إِلى كتابِ (الفُرقانِ بَيْنَ أَولياءِ الرَّحمنِ وَأَوْلياءِ الشَّيطانِ) لشَيْخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَةَ، ذكرَ فيهِ آياتٍ عجيبةً، جرتْ لِبعضِ السَّلفِ الصَّالحينَ[2].

قَولهُ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ لَمْ يَلدْ ردًّا لما زعمهُ النَّصارَى، وَلما زَعَمهُ اليَهودُ، وَلما زَعمهُ المشْرِكونَ.

فالنَّصارى قَالُوا: إنَّ المسيحَ ابنُ اللهِ، واليَهودُ قالُوا: إنَّ عُزَيْرًا ابنُ اللهِ، وَالمشركونَ قَالُوا: الملائِكةُ بَناتُ اللهِ، فَقالَ اللهُ تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، فَهو لَمْ يَلدْ وَلم يَتَّخذْ وَلدًا أَيضًا، مَا تَبنَّى أحدًا، كَما قالَ تَعَالَى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون:٩١].

قَولهُ: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ هذَا وإنْ كَان لَم يَقلْ بِه أحدٌ، لكنْ مِن أجلِ المقَابلةِ، فهُو لَم يَلدْ وَلم يُولدْ، فَلا شَيءَ قَبلهُ عَزَّوَجَلَّ فهوَ الأوَّلُ الَّذي لَيس قَبله شَيءٌ، وهوَ الغنيُّ عَن كلِّ أحدٍ، فلَا يَحتاجُ إِلى الولدِ.

قَولهُ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ يَعني لَا أَحدَ يُكافِئُهُ فِي جميعِ صِفاتهِ، وَفِي جَميعِ أَفعالهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من علق سيفه بالشجر في السفر، رقم (٢٧٠٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب توكله على الله تعالى، رقم (٤٢٣٨).

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية (ص:٢٤٥).

فقومُ عادٍ أَعْطاهمُ اللهُ تعالى مِنَ القُوَّةِ مَا لَم يُعطِ أَحدًا منَ البشرِ، حتَّى قَالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾. فقالَ اللهُ لَهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، فَلا أحدَ يُكافئُهُ.

ثُمَّ انظرْ إِلى هَؤلاءِ الَّذينَ قالُوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أَهْلَكهمُ اللهُ بِألطفِ الأَشْياءِ، بالرِّيحِ اللَّطيفةِ، أَرْسَلها اللهُ عَزَّوَجَلَّ فكانت تَأخذُ الواحدَ مِنْهم فيكونُ فِي السَّماءِ، ثمَّ يَنْقلبُ عَلى رَأْسِه وَالعياذُ بِاللهِ، فَصَاروا كأنَّهم أَعجازُ نَخلٍ خاويةٌ.

وفِرعونُ يَقولُ لِقومهِ: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥١-٥٢]، فأَهْلَكَ اللهُ فِرعونَ بِما كان يَفتخرُ بِهِ وهُوَ الماءُ، فأُهلكَ بِالغرقِ، فتبيَّنَ بِهذا أنَّ اللهَ تعالى لَا كُفْءَ لَهُ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.





سورةُ الفلقِ

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

هاتانِ السورتانِ عظِيمتانِ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١]، قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**مَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا**»(١). ولهذَا وَجَّهَ اللهُ تَعَالَى الخطابَ للعبادِ أن يتعَوَّذُوا بهِمَا فقالَ:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١] كَلِمَةُ (قُل) فِعْلُ أمرٍ، والمخاطَبُ فيها واحِدٌ، والخطابُ مُوَجَّهٌ إلى كلِّ من يَصِحُّ أن يُوَجَّهَ إليه الخطابُ. أما الخطَابُ الموَجَّهُ للرسولِ ﷺ فينقَسِمُ إلى ثلاثَةِ أقْسَامٍ:

القسم الأول: ما دَلَّتْ القرينَةُ على أنه خاصٌّ به، فهذا خاصٌّ بِهِ لا يتَعَدَّاهُ إلى غيرِهِ، مثالُ ذلك: قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٢، رقم ١٧٤٢٧)، وأبو داود: كتاب الوتر، باب في المعوذتين، رقم (١٤٦٣)، والنسائي: كتاب الاستعاذة، بابٌ، رقم (٥٤٣٨).

وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:١-٣] فالخِطابُ هنَا للرَّسولِ ﷺ، وهو خاصٌّ بِهِ. وكذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:١-٢] الخِطابُ للنَّبيِّ ﷺ وهو خاصٌّ بِهِ.

القسم الثاني: ما دَلَّتِ القَرينَةُ فيه على العُمومِ، مثالُهُ: قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق:١] فهنا وجَّهَ الخطابَ أوَّلًا للنَّبيِّ ﷺ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ثم عَمَّمَ فقالَ: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. فيكونُ هذا الخِطابُ عامًّا للرسولِ ﷺ وللأُمَّةِ.

القسم الثالث: ما كان الخِطابُ فيه موَجَّهًا للرسولِ ﷺ، وليس فيهِ قرينةٌ تَدُلُّ على أنه لَهُ وحدَهُ، أو له ولغَيْرِهِ، وهو كثيرٌ في القُرآنِ، مثالُ ذلِكَ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون:١-٢]، فالخِطابُ موَجَّهٌ للرسولِ ﷺ، لكنَّهُ عامٌّ للأمَّةِ، وكذلك ما نحْنُ بصدَدِهِ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، فالخِطابُ هنَا للمفردِ (قُلْ)، لكنه يرادُ به العُمومُ.

﴿قُلْ﴾ أي: أَيُّهَا المخاطَبُ فهو للعُمومِ، ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:١-٢] إلى آخِرِهِ، وقبْلَها سورَةُ الإخلاصِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، وبعدها سورةُ الناسِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١]، كلُّ هذِهِ الأوامِرِ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقد قالَ بعضُ الملْحِدينَ: إنَّنا لا نحتاجُ أن نَقُولَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، بل نقولُ: اللهُ أحدٌ، أعوذُ بِربِّ الفَلَقِ، أعوذُ بِرَبِّ الناسِ؛ لأن اللهَ يقولُ: قولُوا. والمقُولُ غيرُ القَوْلِ. ولكنهم يقولونَ

هذا لضلالهِمْ وجَهْلِهِمْ وإلحادِهِمْ؛ لأنك إذا قُلْتَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، تَشْعُرُ أن الذي أمَرَكَ بهذا هُوَ اللهُ، لكن لو قلتَ: أعوذُ بِرَبِّ الفلَقِ، أعوذُ بربِّ الناسِ. ما شَعَرْتَ بهذَا، وكأنك قُلْتَهَا من نَفْسِكَ، الملحدونَ يُشَبِّهُونَ على الناسِ، ولكن -والحمدُ للهِ- أدْنَى واحِدٍ من الناسِ يعرِفُ أن هذا شُبْهَةٌ وضَلَالٌ.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ (أَعُوذُ): أي: أعتَصِمُ باللهِ مِنْ كلِّ مَكْروهٍ، أعتَصِمُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ نِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النَّصِيرُ، من لاذَ بجَلالِهِ وجَدَ ما يَسُرُّهُ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨].

﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ رَبُّ الفَلَقِ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، **والفَلَقُ له مَعْنَيانِ:**

الأول: فَلَقُ الصُّبْحِ، والثاني: فَلَقُ النَّوَى؛ قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الأَوَّلِ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام:٩٦] أي: فَلَقَ الصُّبْحَ، وفي حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في بَدْءِ الوَحْيِ لرَسولِ اللهِ ﷺ قالتْ: «كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ»[1].

الثاني: فَلَقُ الحَبِّ والنَّوَى، قال الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام:٩٥] الحُبوبُ مثلُ: البُرِّ والشَّعِيرِ والذُّرَةِ، أما النَّوَى فمِثْلُ نَوَى التَّمرِ، والزيتونِ.

إذن: الذي يقْدِرُ على أن يخْلُقَ هذه الحَبَّةَ اليابسَةَ الناشِفَةَ حتى تكونَ زرعًا هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وهذه النواة الصُّلْبَةُ تُغْرَسُ في الأرْضِ، فيُخْرِجُ اللهُ مِنْها نَخلًا، وهذا لا يَسْتَطِيعُهُ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦٠).

ولهذا جاءَ في الحديثِ القُدُسِيِّ: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً**»[1] . ولا أحدَ يستَطِيعُ هذا، فما بَالُكُم بالحيوانِ ولو كان صَغِيرًا؟! يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ**﴾ [الحج:٧٣] لو كُلُّ ما يُعبدُ مِنْ دونِ الله طُلِبَ منه أن يخْلُقَ ذُبَابًا، وهو مِنْ أهونِ الحيواناتِ أو الحَشَراتِ، لما استطَاعُوا.

إذن: فرَبُّ الفَلَقِ هو اللهُ، والفَلَقُ فيها قولان: فالِقُ الإصباحِ، وفالِقُ الحبِّ والنَّوَى.

﴿ **مِن شَرِّ مَا خَلَقَ** ﴾ [الفلق:٢] كَلِمَةُ (ما) اسمٌ مَوصولٌ، والاسمُ الموصولُ يُفِيدُ العمومَ، أي: من شَرِّ كلِّ المخلوقاتِ، وأوَّلُ ما يدْخُلُ في ذلِكَ نَفْسُهُ، وفي حديثِ خطْبَةِ عبدِ الله بنِ مسعودٍ التي عَلَّمَهَا له الرسولُ ﷺ قال: «**نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا**»[2] ، فأَوَّلُ ما يدْخُلُ في قولِكَ ﴿ **مِن شَرِّ مَا خَلَقَ** ﴾ [الفلق:٢] نَفْسُكَ، فنَفْسُكَ فيها شَرٌّ، واستَمِعْ إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿**وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ**﴾ [يوسف:٥٣] غير نَفْسِ الشياطِينِ، فالشَّيَاطِينُ كلُّها شَرٌّ، تُسَلَّطُ على الإنسانِ وتَصُدُّهُ عن سبيلِ اللهِ، كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾ [المائدة:٩١]، وفي الإنسِ شَياطِينُ، قالَ تَعالَى: ﴿**شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا**﴾ [الأنعام:١١٢] وهُمْ شِرارُ خَلْقِ اللهِ، ومن أعداءِ اللهِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب نقض الصور، رقم (٥٩٥٣).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب الجمعة، باب كيفية الخطبة، رقم (١٤٠٤)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، رقم (١٨٩٢).

عَزَّوَجَلَّ، واستَمِعْ إلى قولِ اللهِ تعالى في الكُفَّارِ: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء:٨٩]، ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة:٢]، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة:٢٣]، فبَنُو آدَمَ فيهم شَرٌّ، وفيهم حَسَدَةٌ، وفيهم سَحَرَةٌ، وفيهم من يُصِيبُ النَّاسَ بعَينِهِ، وفيهم من يَشِي بالرَّجُلِ إلى أقارِبِه وأصحابِهِ، ويقول: هذا رجل ليس فيه خيرٌ، هذا رجلٌ فيه كَذَا وكَذَا. وفيهم من يَشِي بعبادِ اللهِ إلى الأمراءِ والسَّلاطينِ، كمَنْ وَشَى بالإمامِ أحمدَ بنِ حَنْبَلٍ حتى حُبِسَ، ومَنْ وشَى بشيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَةَ، وأولئكَ هم شِرَارُ الخلْقِ، هكذا فإن الإنسَ فيهم شَرٌّ.

هناك أيضًا شَرٌّ في غيرِ ذَوِي الإرادَةِ والشُّعورِ، فهناك رياحٌ عاصفَةٌ تُدمِّرُ، ولهذا ينْبَغِي للإنسانِ إذا عَصفَتِ الريحُ أن يقولَ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ**»[(١)].

كذلك أيضًا في الزَّلازِلِ شَرٌّ، كل هذا مِنْ مخلوقاتِ اللهِ، فكَلِمَةُ ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ اعلم أنها شامِلَةٌ عامَّةٌ لكل ذِي شَرٍّ، سواءٌ كان بإرادَةٍ أم بغيرِ إرادَةٍ.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق:٣] الغاسِقُ: هو اللَّيْلُ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء:٧٨]، وإنَّما نَصَّ اللهُ عليهِ مَعَ أنه مِنَ المخْلُوقاتِ؛ لأن الهوامَّ والسِّباعَ كُلَّها تكونُ في الغالِبِ في اللَّيْلِ، بل حتى الأوجاعُ في المرْضَى تشتَدُّ في الليلِ أكثرَ مِنَ النهارِ، فبهذَا أمَرَنَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن نستَعِيذَ بِهِ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إذا وقَبْ، و(وقب) أي: دَخَلَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والفرح بالمطر، رقم (٨٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق:٤] النَّفَّاثاتُ: جمْعُ نَفَّاثَةٍ، وهي التي تَنفُثُ في العُقَدِ، وهي الساحِرَةُ؛ فالساحِرَةُ تعْقِدُ عُقَدًا، وتَنْفُثُ عليها هكَذَا، وتقرأُ قراءَةً تستخدمُ بها الشَّياطِينَ، كلَّما نَفَثَتْ عَقَدَتْ، ويُصَابُ مَنْ سَحَرَتْهُ. وقولُه ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ قد يكونُ المرادُ مِنْهُ: النِّساءُ النَّفَّاثاتُ، وقد يكون المراد مِنْهُ: الأنْفُسُ النَّفَّاثَاتُ. ولكِنَّ القولَ الراجِحَ: الأنفسُ النَّفَّاثات؛ لأنَّها أعَمُّ، يدخُلُ فيها الرِّجالُ والنِّساءُ؛ لأن السحَرَةَ قد يكونُونَ رِجالًا أو نِساءً.

والسِّحْرُ أشدُّهُ ما ذَكَرَ اللهُ مِنْهُ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾؛ لأن النَّفَّاثَاتِ في العُقَدِ تَسْتَعِينُ بالشياطِينِ على المسْحُورِ، فيصابُ، إما في عَقْلِهِ، وإما في بدَنِهِ، وله أنواعٌ. فمثَلًا: هناكَ ما يُعْرَفُ بالصَّرْفِ والعَطْفِ، وهو مِنْ أشدِّ أنواعِ السِّحْرِ، بمعنى أن يُسْحَرَ الرجلُ حتى يتَعَلَّقَ بهذا الذي سُحِرَ من أجْلِه تعلُّقًا تامًّا، وعَكْسُهُ العطْفُ؛ يُسْحَرُ حتى يكْرَهَ أقربَ الناسِ إليهِ، استَمِعْ إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢]، والعلاقةُ بينَ الزَّوجَيْنِ مِنْ أقْوَى العلاقاتِ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١] فيُسَلَّطُ الساحِرُ على الرَّجُلِ ليُفرِّقَ بينَهُ وبينَ امرأتِهِ، ولكن استَمِعْ إلى آخِرِ الآيةِ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]، فالسِّحْرُ سَبَبٌ للضَّرَرِ، لكِنَّ وراءَ السَّببِ خالِقٌ قادِرٌ على إبطالِ هذا السِّحْرِ.

وهناكَ سِحْرٌ بدونِ نَفْثٍ، بأدْوِيَةٍ تُجْمَعُ من هُنَا ومن هناك، ثم تُوضَعُ في مكانٍ مَا، فيَتَأَثَّرُ بها المسحورُ. والآيةُ قد ذَكَرَتْ أشدَّ أنواعِ السِّحْرِ، وهو سِحْرُ النَّفْثِ؛ لأن هذا هو سِحْرُ الشياطِينِ، والعُلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ قالُوا: إن الساحِرَ الذي

يَنْفُثُ في العُقَدِ يكْفُرُ ويُقْتَلُ، اللهم إلا إذا تابَ تَوْبَةً نَصُوحًا، وعَلِمْنَا أنه صادِقٌ في تَوبَتِهِ، فإنَّ اللهَ تعالى يغفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعًا.

القِسْمُ الثَّانِي مِنَ السَّحَرَةِ: من لا يَصِلُ سِحْرُهُ إلى الكُفْرِ، ولكنه يجِبُ أن يُقْتَلَ حَدًّا؛ لأنه مفسدٌ في الأَرْضِ، مُعْتَدٍ على عبادِ اللهِ، فيجِبُ قتْلُهُ، لكن إذا تَابَ قبلَ أن يُقْدَرَ عليهِ تابَ إلى اللهِ، ورجَعَ وأبطَلَ السِّحْرَ الذي كان قد عَقَدَهُ للنَّاسِ، فإنه حينئذٍ لا يُقْتَلُ على القولِ الراجِحِ، وإن كان بعضُ العلماءِ يقولُ: إن الساحِرَ يجِبُ قَتْلُهُ، سواءٌ تابَ أو لم يَتُبْ؛ لكَفِّ شَرِّهِ. ولكِنَّ الصحيحَ أنه إذا تَاب فلَدَيْنا نصوصٌ تَدُلُّ على أن كلَّ من تابَ تابَ اللهُ علَيْهِ.

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥] الحاسِدُ: هو العائنُ، الذي يغْبِطُ الناسَ عَلَى ما أنعَمَ اللهُ بِهِ علَيهِمْ، إذا رَأى شَخْصًا أنعمَ اللهُ عليه بالمالِ، أو بالصِّحَّةِ، أو بالولَدِ، حسدَهُ، وهي نفْسٌ شِرِّيرَةٌ، تكرَهُ الخيرَ للخَلْقِ، فيَخْرُجُ من هذِهِ النَّفْسِ الشرِّيرَةِ قوَّةٌ معنوِيَّةٌ تُصِيبُ مَنْ أصابَتْهُ.

بعضُ الناس -لا أقولُ: أكثرُ الناسِ والحمدُ للهِ- يكونُ حاسِدًا، يَغْبِطُ الناسَ على نِعْمَةِ اللهِ، فإذا رَأى ما يُعْجِبُه فزَّ قَلْبُه كالمِدْفَعِ، فإذا صَارَ كذلكَ أصابَ مَنْ وُجِّه إليه.

ودواءُ العَينِ أمرانِ: دواءٌ سابِقٌ، ودواءٌ لاحِقٌ، الدواءُ السابقُ أن يقالَ للعَائنِ: إذا رأيتَ ما يُعْجِبُكَ فقُلْ: بارَكَ اللهُ عليكَ. فإذا قال العائنُ هذا فإنه بإذنِ اللهِ لن يُصِيبَ أحَدًا بعَينِهِ، ولهذا كان بعضُ الطَّيِّبِينَ من أهلِ العَيْنِ كان كلَّما مشَى في السُّوقِ ورأى ما يُعْجِبُهُ قال: تباركَ اللهُ، تباركَ اللهُ، باركَ اللهُ عَلَيْكَ. حتى لا يصيبَ أحدًا

بعَيْنِهِ، وهذا دواءٌ سابقٌ يكونُ مِنَ العائنِ نَفْسِهِ.

أما الدَّواءُ اللاحِقُ: إذا عُلِمَ العائنُ طُلِبَ منه أن يَتَوَضَّأَ وضوءَ الصَّلاةِ، يَغْسِلُ وجْهَهُ ويديهِ إلى المِرْفَقَيْنِ، ويغسلُ رِجْليهِ، وما تناثَرَ مِنَ الماءِ يُجْعَلُ في إناءٍ، ويُعْطَى للمصابِ يَشْرَبُ منْهُ، ويَصُبُّ على رأسِهِ وظهْرِه فيُشْفَى بإذنِ اللهِ فورًا. وقِصَصُ العائِنِينَ كثيرَةٌ جِدًّا، نسمَعُها سَابقًا ولاحِقًا، وهي حقِيقَةٌ واقِعَةٌ، لكن إذا استَعَذْتَ بِرَبِّ الفَلَقِ من شرِّ ما خَلَقَ، ومن شَرِّ غاسِقٍ إذا وقَبَ، ومن شَرِّ النَّفَاثاتِ في العُقَدِ، ومن شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَدَ، إذا استَعَذْتَ بِه بقَلْبٍ مُوقِنٍ مؤمِنٍ؛ بأنه سيدْفَعُ عنْكَ هذا، فإن اللهَ تعالى سيَدْفَعُهُ.

لكِنَّ مُصِيبَتَنَا أن كثيرًا مِنَ الناسِ يقرؤون المُعَوِّذَتَيْنِ، لا على سبيلِ اليَقِينِ، لكن على سَبيلِ التَّجْرِبَةِ، يقول: سأنظر هل تنْفَعُ قراءَتُها أو لا؟ فهذا ليس عندَهُ يقينٌ ولا إيمانٌ، فلا تَنْفَعُه المعوذتانِ ولا غيرُهُمَا.





سورةُ الناسِ

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنَا، ومن سَيِّئاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِه، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قال اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١] ﴿قُلْ﴾ فِعْلُ أمْرٍ، الآمِرُ هو اللهُ، والمأمورُ هنَا كلُّ الناسِ، فَهِي للعُمومِ، فإن كان الخطابُ لواحِدٍ فالمرادُ بِهِ العُمومُ، أي: قلْ أيها الإنسانُ: أعوذُ بربِّ الناسِ، مَلِكِ الناسِ... إلخ. و﴿أَعُوذُ﴾بمَعْنَى: أعتَصِمُ، ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وإنما قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ لأنَّ الناسَ فيهِمْ شَرٌّ كثيرٌ، والَّذِي يمْلِكُهُم هو اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ ولهذا قالَ بَعْدَهَا: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٢] أي: ذِي المُلْكِ والسُّلْطانِ والسيطَرَةِ، فهو رَبُّهم الذي خلَقَهُم وأَوْجَدَهُم مِنَ العَدَمِ، وهو رَبُّهم الذي أَمَدَّهُم بما تكونُ بِهِ الحياةُ مِنْ طعامٍ وشَرابٍ وهواءٍ وغير ذلك، وهو أيضًا مَلِكُهُم الذي له المُلْكُ والسُّلْطانُ والسيطرَةُ، فلا أحدَ لَهُ المُلْكُ التامُّ إلا اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٣] أي: مَعْبُودِ الناسِ، فـ(إله) بمَعْنَى معبودٍ، أما كونُهُ

رَبَّ الناسِ فهذَا واضِحٌ، ولا أحدَ يُنْكِرُ رُبُوبِيَّةِ اللهِ، حتى المشركونَ إذا سُئِلُوا: مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأرضِ؟ فسيقولونَ: اللهُ. ولن يُنْكِرُوه، وكونُه مَلِكًا أيضًا لا يُنْكَرُ؛ لأن كلَّ إنسانٍ يعلَمُ أنه لا يستَطِيعُ أن يدْفَعَ ما أرادَ اللهُ، ولا أن يُوجِدَ ما مَنَعَ اللهُ أبدًا.

فـ﴿ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي: معبودِ الناسِ، ولكِنْ ليسَ الناسُ كلُّهُم يعبُدُون اللهَ، فمنهم من يَعْبُدُ الأصنامَ، ومنهم من يَعْبُدُ الأشجارَ، ومنهم مَن يَعْبُدُ الشمسَ، ومنهم من يَعْبُدُ القَمَرَ، ومنهم من يَعْبُدُ البقرَ، وكُلُّها أشياءُ غريبةٌ، إذا طالَعَ الإنسانُ كُتُبَ المِلَلِ والنِّحَلِ تَعَجَّبَ من عُقولِ بَنِي آدمَ، كيف تَصِلُ إلى هذِهِ الحالِ؟!

قبلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، الذي بَعَثَهُ اللهُ رحمةً للعبادِ، كان العَرَبُ يَعْجِنُ الواحدُ منهم التَّمْرَ على صورَةِ معْبُودٍ، ويركَعُ له ويسجُدُ، وإذا جاعَ أكَلَهُ، سبحان اللهِ! رَبٌّ يُؤكَلُ! ذلك مِنَ السَّفَهِ؛ ولهذا قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ ﴾ وهِيَ التَّوحيدُ ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]. وهناك غرائبُ كثيرةٌ تُذْكَرُ عنهُمْ، فكانُوا يقولونَ: إن الإنسانَ إذا نَزَلَ أرْضًا، وأراد أن يَطْبُخَ، أتى بأربَعَةِ أحجارٍ، فيَرَى أحْسَنَها في نظَرِهِ، فيجعَلُهُ معبُودًا يَعْبُدُهُ، وثلاثة يَنْصِبُها للقِدْرِ، سبحان الله! أحجارٌ التَقَطَها مِنَ الأرضِ، يجْعَلُ أحدَهَا إلهًا، والثلاثَةَ يسْتَخْدِمُها في الإيقَادِ!

على كلِّ حالٍ نقولُ: إن اللهَ عَزَّوَجَلَّ هو إلَهُ الناسِ حَقًّا، أما جميعُ المَعْبوداتِ التي يتَألَّهُ لها مَنْ يعبدُها فَهِي باطِلَةٌ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ ﴾ [الحج:٦٢]، وآيَةٌ أُخْرَى في سورَةِ لُقْمان: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [لقمان:٣٠].

كَلِمَةُ التوحيدِ هي: لا إِلَهَ إلا اللهُ. وخَبَرُ (لا) النافِيَةِ للجِنْسِ هنا مُقَدَّرٌ؛ لأن خَبَرَهَا لَا يجوزُ أن يكونَ مَعْرِفَةً على رَأْيِ البَصْرِيِّينَ، ولفظُ الجلالَةِ هو أعرفُ المعارِفِ، فيكونُ مُقَدَّرًا، والتقدير: لا إِلَهَ حقٌّ إلا اللهُ. فتكونُ أُلُوهِيَّةُ اللهِ حَقًّا، وألوهيةُ من سِواهُ باطِلَةً، أما تَقْدِيرُ (لا إِلَهَ بِحَقٍّ إلا اللهُ) فلا شَكَّ أنه تقديرٌ أوضَحُ جِدًّا، لكن عندَ التأمُّلِ تجدُ أنه ينبَغِي أن يكون التقديرُ: لا إِلَهَ حَقٌّ إلا اللهُ.

قوله تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٢-٣] وقوله ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هنا عَامٌّ أريدُ به الخَاصُّ؛ لأن بعضَ البشَرِ لا يجعَلُ اللهَ إلهًا، وقدْ قالَتْ قُرَيْشٌ للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص:٥] والاستِفْهامُ هنَا للإنكارِ والتَّعَجُّبِ، ثم قالُوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: جَعْلَ الآلِهَةِ إلهًا واحِدًا ﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]. واللهِ إنَّ الشَّيْءَ العُجَابَ أن تجعَلَ الآلهةَ متعَدِّدَةً، أما أن يُجْعَلَ إلهًا واحدًا فهُوَ الشيءُ الصَّوابُ.

وقال فرعونُ أيضا لقومِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]. وهو في ادِّعائِهِ هذا كاذِبٌ، فهو نفسُه يعْلَمُ أن هناك إلهًا سواهُ، والدليلُ على هذا قولُهُ تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، وقالَ لَهُ موسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُخاطِبُهُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢] يخاطِبُهُ، ولكِنَّ فرعونَ لَمْ يَقُلْ: لم أعْلَمْ. وليس عاجِزًا عَنِ القَولِ؛ لأنَّه في المناظَرَةِ التي وَقَعَتْ بينَهُ وبينَ موسَى في سورَةِ الشُّعراءِ صَرَّحَ؛ لكنَّه في الثانية عجزَ لما قالَ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، فما استطَاعَ أن

يَرُدَّ، فتبيَّنَ بهذا أن الذين يُنكِرُونَ ألوهِيَّةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على خطأٍ عظِيمٍ، فهُو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإلهُ وَحْدَهُ.

ولهذا جاءتْ هذِهِ الكلِمَةُ العظيمةُ (لا إله إلا الله) مُكَرَّرَةً في القُرآنِ العظيمِ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران:١٨] أي: حالَ كونِهِ قائمًا بالقِسْطِ، أي: بالعَدْلِ. ثم أكَّدَ هذَا بقولِهِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨]، أسأَلُ اللهَ أن يَجْعَلَنِي وإياكُمْ مِنْ أهلِ العِلْمِ، الذين شَهِدُوا أن لا إلهَ إلا اللهُ، كما أخبرَ رَبُّنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾، وهذِهِ واللهِ مَزِيَّةٌ وفضيلَةٌ للعُلماءِ لا يعادِلُها شيءٌ؛ أن اللهَ جَعَلَهُم هم الشهداءَ عَلَى وحدَانِيَّتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولو لم يكُنْ مِنْ تَرْغِيبٍ في العِلْمِ إلا هذه الآيةُ لكانَ كافِيًا.

والمرادُ بأهلِ العِلْمِ هنا هُمْ أُولُو العِلْمِ باللهِ وشَرْعِهِ وأحكامِهِ، وكلَّما رأيتَ مَدْحًا للعِلْمِ في القرآنِ والسُّنَّةِ فإنما المرادُ به العِلْمُ الشرعِيُّ أبدًا، والمرادُ بالعِلْمِ الشَّرْعِيِّ: العِلْمُ باللهِ وبأحكامِهِ وبأفعالِهِ.

قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس:٤] والوسْواسُ هنا صِفَةٌ، وليستْ مَصْدَرًا؛ لأن المصدَرَ لا يوصَفُ بأنه خَنَّاسٌ، إذن: هِيَ صِفَةٌ، فالوسْواسُ هو الشَّيطانُ، ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس:٥] ويُلْقِي في صُدُورِهِمُ الشُّبُهاتِ والشَّهواتِ، فبالشبهاتِ يُنْكِرُ الإنسانُ الأخبارَ ويَشُكُّ فيهَا.

ولهذا يأتي الشيطانُ للإنسانِ يُشَكِّكُهُ في اليومِ الآخِرِ، يأتِيهِ ويُوَسْوِسُ في صدْرِهِ بأمرٍ يَتَعَلَّقُ باللهِ ربِّ العالمينَ، حتى إنه يأتِي الإنسانَ فيقولُ: مَنْ خَلَقَ كذا؟

فيقول: خَلَقَهُ اللهُ. فيقول: مَنْ خَلَقَ السَّماءَ؟ فيقولُ: اللهُ. وهكذا: مَنْ خلَقَ الأرضَ؟ من خَلَقَ الهواءَ؟ مَنْ خَلَقَ الشَّمْسَ؟ من خَلَقَ القَمَرَ؟ فتكون إجابتُه: اللهُ. فيقولُ الشيطانُ: مَن خَلَقَ اللهَ؟ وعندئذٍ ماذا يجبُ على الإنسانِ أن يفعلَ؟

الحلُّ عند النبيِّ ﷺ، الذي أعطاه اللهُ طبَّ القلوبِ والنفوسِ والأبدانِ، فأعلمنا ماذا نصنعُ، فقال: «**فَلْيَسْتَعِذْ باللهِ، وَلْيَنْتَهِ**»(١). فأَمَرَنا بدَوَاءَيْنِ: دواءٍ لا طَاقَةَ لنا به، ودَواءٍ لنَا بِهِ طاقَةٌ.

أما الدواءُ الذي لا طاقَةَ لنَا بِهِ، وهو دفْعُ الشيطانِ، فهذا أمرٌ لا نَسْتَطِيعُهُ، إنما يقدِرُ عليهِ اللهُ، ولهذا قال: «**فَلْيَسْتَعِذْ باللهِ**».

وأما الدواء الذي نستطيعه فقوله: «**وَلْيَنْتَهِ**»، أي: ولْيُعْرِضْ عن هذا الوَسْواسِ، ولا يلْتَفِتُ إليه، فإنه لا يضُرُّهُ، فإذا جاءكَ الشيطانُ يُوَسْوِسُ لك مثلًا: مَن خلَقَ اللهَ؟ فعليك أن تستَعِيذَ باللهِ، وتنتَهِيَ، وتُعْرِضَ عن هذا، وتَنْصَرِفَ إلى أعمالِكَ، ولا تَهْتَمَّ، وهذا وَسواسٌ عظيمٌ، وهذه مِنَ الشُّبُهاتِ.

النوع الثاني: ما يجعَلَهُ الإنسانُ في قَلْبِهِ من الشَّهواتِ، ولستُ أَعْنِي بالشَّهواتِ شَهْوَةَ النساءِ، بل ما تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ مما يخالِفُ أمرَ اللهِ، فإن الله حَرَّمَ مثلًا على الإنسانِ الرِّبَا، ولكنَّنَا نجدُ إنسانًا يقول: الرِّبَا فيهِ مصْلَحَةٌ للآخِذِ والمعْطِي! ولنَفْرِضْ أن رَجُلًا أراد أن يُؤَسِّسَ مَصْنَعًا وهو فقيرٌ، فجاء إلى البنكِ، وطلَبَ منهُمْ مليونَ ريالٍ بمليونٍ ومئةِ أَلْفٍ؛ حتى يُؤَسِّسَ المصنَعَ، فتأسيسُ المصنعِ فيهِ فائدَةٌ، ينتَفِعُ المؤَسِّسُ، وينتفعُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٦٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٤).

الناسُ، وكذلك البنكُ الذي أخَذَ الرِّبَا استفادَ مئةَ ألفٍ، فيقولُ: كيف يكونُ هَذَا حَرَامًا؟ ولكنها شَهْوَةٌ، وهو يعرفُ أنه حَرامٌ حَرَّمَهُ اللهُ، لكنه يريدُ المالَ مِنْ أجلِ الفائدَةِ الرِّبَوِيَّةِ.

والفائدةُ الرِّبَوِيَّةُ خسارةٌ وليست بفائدَةٍ؛ ولذلك أحسنُ ما نقولُ في فوائدِ الرِّبَا: إنها زِيادَةٌ رِبَوِيَّةٌ، ولا نُسَمِّيهَا فائدَةً، وإلا كنَّا تابِعينَ لهؤلاءِ الذين يتهاوَنُونَ في الرِّبَا، والدليل على أنه لا يُسَمَّى فائدَةً قولُ الرسولِ: «**فَمَنْ زَادَ، أَوِ اسْتَزَادَ، فَقَدْ أَرْبَى**»[1]، فتَسْمِيَتُها فائدَةً رُبَّما جَعَلَتْ من يسْمَعُ ذلك أن يقول: ليس فيها ضَرَرٌ، فكلنا يطلُبُ الفائدَةَ. لكن نُسَمِّيهَا زيادَةً رِبَوِيَّةً.

فهذه شَهْوَةٌ، فكل إنسانٍ يرْغَبُ أن يستَدِينَ بالرِّبَا حتى تسيرَ أمورُهُ، هذه أيضًا مِنَ الوَسَاوِسِ، ولهذا قالَ الذين يتعاملونَ بالرِّبَا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة:٢٧٥]، أي: لا فَرْقَ بينَهُما، فأَلْحَقُوا البيعَ بالرِّبَا، وكان عليهم أن يقولوا: إنَّما الرِّبَا مثلُ البَيْعِ، لكنهم قالُوا: لا، الأصلُ هو الرِّبَا، والبيعُ مثلُ الرِّبَا. فأبطَلَ اللهُ هذا القولَ وقالَ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة:٢٧٥].

وهنا أمرٌ ذو صِلَةٍ، بمناسبَةِ الآيةِ، لا يصِحُّ أن نَصِلَ الآيةَ فنقولُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ فقد يفْهَمُ الإنسانُ أن يكونَ قولُ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ من قولِهِم؛ لهذا نَقِفُ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ انتهى كلامُهُم، ثم قالَ اللهُ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ ردًّا على قولِهِمْ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المُسَاقَاة، باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقدا، رقم (١٥٨٤).

فالوَسْواسُ وصفٌ وليس بمَصْدَرٍ، والدليـلُ قـوله: ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾، وهذا الوَسواسُ يُوَسْوِسُ في صُدورِ الناسِ بأمْرَيْـنِ أَحَدِهِـا: بالشُّبُهَاتِ، والثـاني: بالشَّهواتِ، ولا يرادُ بالشَّهواتِ هنا شهوةُ النِّساءِ، بل المراد: كلُّ ما تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ مما يخالِفُ الشرْعَ، فهو داخلٌ في قولِنَا إنه يوسوسُ في صُدورِ النَّاسِ بالشَّهواتِ.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ هو: الرَّجَّاعُ، مِنْ خَنَسَ الشيءُ إذا رَجَعَ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥-١٦]، فالشيطانُ إذا ذُكِرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ خَنَسَ وذَلَّ وتقاعَسَ، ولذلك إذا سَمِعَ النِّداءَ للصلاةِ أَدْبَرَ وَلَهُ ضُراطٌ من شِدَّةِ ما يَجِدُ[١]، فهو خَنَّاسٌ؛ لأنه يخنَسُ إذا ذُكِرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وعلى هذا فَفِي الآيَةِ إشارَةٌ إلى أن الإنسانَ إذا أُصيبَ بمِثْلِ هذِهِ الوَساوِسِ فلْيَذْكُرِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حتى يذْهَبَ الشيطانُ ويَهْرَبَ مِنْهُ.

﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٥] أي: يُلْقِي الوسْوسَةَ في صُدورِ الناسِ، ولا يؤاخِذُ الإنسانُ بالوَسْوَسَةِ؛ لأنها بغيرِ اختيارِهِ؛ إلا إذا رَكَنَ إليها واعتَقَدَهَا، ولهذَا لو أن إنسانًا أُصِيبَ بوَسْوَسَةٍ في ذاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ثم أقلَعَ وأعْرَضَ، وفَعَلَ ما أَمَرَ به الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الانتهاءِ، فإن ذلكَ لا يَضُرُّهُ؛ حتى لو كان أعظمَ شيءٍ.

قال الصحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: يا رسولَ اللهِ، إنَّنَا نَجِدُ في قُلوبِنَا -أو قالوا: في نُفُوسِنَا- ما يُحِبُّ أحدُنَا أَنْ يَخِرَّ مِنَ السَّماءِ ولا يَتَكَلَّمَ بِهِ. قالَ: «**وَجَدْتُمْ ذَلِكَ؟**»

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل التأذين، رقم (٦٠٨)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، رقم (٣٨٩).

قالُوا: نَعَمْ. قالَ: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**»[(١)].

يقول العلماءُ: وَجْه ذلِكَ أن الشيطانَ لا يُلْقِي مثلَ هذِهِ الوساوسِ إلا إذا كان الإيمانُ قَوِيًّا؛ كي يُمْتَحَنُ المرءُ: هل يَرْكَنُ لهذِهِ الوَساوِسِ، أم يتْرُكُها بالاستعاذَةِ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرَّجِيمِ والإعراضِ؟ لكن مَنْ كان إيمانُهُ ضَعِيفًا أو مَفْقُودًا فالشيطان قد انتَهى مِنْهُ، ولا يوسوسُ لَهُ.

ونحن نضرِبُ لذلكَ مَثَلًا: إذا أَقْبَلَ رجلٌ شجاعٌ عليكَ بالسَّيْفِ، ألستَ تَسْتَعِدَّ لَهُ؟ أما الميِّتُ فلا نَهابُهُ أصلًا. فالقلبُ الَّذِي لا خيرَ فيه لا يَعْتَرِيهِ الوَسواسُ فيما يتعلَّقُ بذاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قالوا لابنِ عباسٍ، أو ابنِ مسعودٍ: إنَّ اليهودَ يقولونُ: نَحْنُ لا يُوَسْوَسُ لنَا فِي صَلاتِنَا. ومعْلومٌ أن صَلاةَ اليَهُودِ مَرْدُودَةٌ عندَ اللهِ، وغيرُ مقبولَةٍ، فقَدْ قالَ الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ [آل عمران:١٨٥]، فَهُمْ يدْخُلُونَ في صَلاتِهِمْ، والشيطانُ لم يتعَرَّضْ لهم. فقالَ ابنُ عباسٍ أو ابنُ مسعود: «**وما يصنَعُ الشيطانُ بِقَلْبٍ خَرِبٍ**»[(٢)]؟!

وهذا صحيحٌ، فلو جئتَ إلى بيتٍ متهَدِّمٍ فلا يُعْقَلُ أن نأتِيَ إليه لنَهْدِمَهُ، لكن يصِحُّ هذا معَ البيوتِ العامِرَةِ، ولذلك لا يأتي الشيطانُ إلى القلْبِ الخَرِبِ، ولا يَتَعَرَّضُ له؛ لأنه قد انتَهَى مِنْهُ.

هذا معنى قولِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين شكَا إليه الصحابَةُ أنهم يجِدُونَ في نفوسِهِمْ هذه الوساوسَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٦٠٨) عن بعض السلف.

وقولُهُ: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ عَبَّرَ بالصُّدورِ، والمرادُ القلوبُ، لكنه عبَّرَ بالمحِلِّ عن الحالِّ، فالمحِلُّ هو الصدورُ، والحالُّ هو القُلوبُ، والدليلُ على أن القَلْبَ في الصَّدْرِ قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٦] يقال: جُنَّةٌ وجَنَّةٌ وجِنَّةٌ، مثلَّثَةُ الجِيمِ، فالجُنَّةُ ما يُتَّقَى بِهِ، والجَنَّةُ البستانُ، والجِنَّةُ ما يُجْتَنُّ عن الأعينِ، أي: يَغِيبُ عَنْهَا. وكلُّها موجودةٌ في القُرآنِ، فالجَنَّةُ بفتحِ الميمِ في قولِهِ: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ [الإسراء:٩١]، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف:٣٢]. والجُنَّة بضمِّ الجيمِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١٦]، والجِنَّةُ بكسْرِ الجيمِ في آيتِنَا هذِهِ ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ والجِنُّ والجِنَّةُ معناهُما واحِدٌ، قالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات:١٥٨].

والجِنَّةُ: ما يُجْتَنُّ عنِ الأعينِ، والجِنُّ عالمٌ غَيْبِيٌّ، الأصلُ فيهم أنهم من عالمِ الغَيْبِ، لا يُشاهَدونَ ولا يُرَوْنَ، لكنهم قد يتَمَثَّلُونَ بصورةِ إنسانٍ، صورةِ حيوانٍ، صورةِ ثَعابِينَ، وما أشبه ذلك. ولهذا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عن قَتْلِ الجِنَّانِ الَّتِي تكونُ في البُيوتِ، أَيْ: الحَيَّاتُ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ هذَا إِلَّا الأَبْتَرَ وذَا الطُّفْيَتَيْنِ(١).

وقد قالَ العلماءُ عن الأبتَرِ: إنه ثعبانٌ قَطِيعُ الذَّنَبِ، ويجِبُ قتْلُهُ ولو في الحُجْرَةِ، وقالوا عن ذِي الطُّفْيَتَيْنِ: إنه ثعبانٌ على ظَهْرِه خطَّانِ أسْودانِ، وعلَّلَ النَّبِيُّ ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب قتل الحيات وغيرها، رقم (٢٢٣٣).

قَتْلَهُما بكلِّ حالٍ بأنهما يخطِفَانِ البَصَرَ، ويُسْقِطانِ ما في بُطونِ الحَوامِلِ، أما غيرُهُ من الحيَّاتِ فلا تَقْتُلْهُ، ولو في البيتِ، ولو في الحُجْرَةِ.

وقد يسألُ سائلٌ فيقول: لماذا لا أَقْتُلُ حيَّةً أجِدُهَا في بَيْتِي؟ فنقول: لأنه ربما تكونُ جِنَّةً، فقد ثَبَتَ في الحديثِ الصَّحِيحِ أن رَجُلًا شابًّا تزوَّجَ امرأةً، فَخَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى الخَنْدَقِ فَبَيْنَا هُوَ بِهِ إِذْ أَتَاهُ الفَتَى يَسْتَأْذِنُهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي أُحْدِثُ بِأَهْلِي عَهْدًا. فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «خُذْ عَلَيْكَ سِلاَحَكَ فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ بَنِي قُرَيْظَةَ» فَانْطَلَقَ الفتَى إِلَى أَهْلِهِ فَوَجَدَ امْرَأَتَهُ قَائِمَةً بَيْنَ البَابَيْنِ فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرُّمحِ لِيَطْعُنَهَا وَأَدْرَكَتْهُ غَيْرَةٌ، فَقَالَتْ: لاَ تَعْجَلْ حَتَّى تَدْخُلَ وَتَنْظُرَ مَا فِي بَيْتِكَ. فَدَخَلَ فَإِذَا هُوَ بِحَيَّةٍ مُنْطَوِيَةٍ عَلَى فِرَاشِهِ فَرَكَزَ فِيهَا رُمْحَهُ ثُمَّ خَرَجَ بِهَا فَنَصَبَهُ فِي الدَّارِ فَاضْطَرَبَتِ الحَيَّةُ فِي رَأْسِ الرُّمْحِ وَخَرَّ الفَتَى مَيِّتًا فَمَا يُدْرَى أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا الفَتَى أَمِ الحَيَّةُ[1]. أي أن الرجلَ ماتَ مباشرَةً، وماتَتِ الحَيَّةُ كذلكَ؛ لأن هذه الحيَّةَ جِنِّيَّةٌ، فلما قَتَلَها أخذَ أولياؤهَا بالثَّأرِ.

لكنكم تتساءلون: ماذا نَفْعَلُ إذا وجَدَ الإنسانُ في بيتِهِ حيَّةً، قد تؤذِي النِّساءَ والأولادَ؟ نقول: لكلِّ داءٍ دواءٌ، أُحَرِّجُ عليها ثلاثَ مرَّاتٍ، أقول: أنتِ مِنِّي في حَرَجٍ إن بَقِيتِ في بَيْتِي. فإذا كانت جِنِّيَّةً ستَخْرُجُ، وإذا كانت ثعبانًا عاديًّا فستظلُّ مكانَها؛ لأنها لا تَفْقَهُ، فإن بقيتْ فاقْتُلْهَا؛ لأننا نَعْلَمُ أنها ليست جِنِّيَّةً.

المهم أن الجنَّ في الأصلِ هم عالَمٌ غَيْبِيٌّ محجوبونَ عنَّا، لكن قد نراهُمْ بصورٍ مختَلِفَةٍ، ولكنَّ الإنسَ أفضلُ مِنَ الجنِّ بلا شك، ولهذا أجمعَ العلماءُ على أن الكافِرَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب قتل الحيات وغيرها، رقم (٢٢٣٦).

مِنَ الإنسِ والجنِّ في النار، واختلفَ العُلماءُ في مؤمِنِي الجنِّ هل يدْخُلون الجنَّةَ أو لا؟ والأدِلَّةُ على هذا كثيرَةٌ.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [الناس:٤-٦].

إذن: مِنَ الجِنَّةِ يعْنِي: مِنَ الجِنِّ والناسِ، وكونُ الجِنِّ يُوَسْوِسُ للإنسانِ فهذا أمرٌ مَعْرُوفٌ، لكن كيفَ يُوَسْوِسُ بنُو آدمَ له؟ قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام:١١٢]، فبَنُو آدمَ يُوَسْوِسُ بعضُهُم لبعضٍ، تجِدُ الرجلَ يسِيرُ في طريقٍ مسْتَقِيمٍ، فيأتِيهِ واحدٌ من الناسِ، ويتكَلَّمُ معه، ويُوَسْوِسُ له، ويَقْلِبُ تَفْكِيرَهُ رأسًا على عَقِبٍ، وهذا مشاهَدٌ.

ولذلك يجِبُ على الإنسانِ أن يعْرِفَ مَنْ خلِيلُهُ ومن صاحِبُهُ ومن صدِيقُهُ، هل هو رجُلُ خيرٍ أم رَجُلُ سوءٍ، فإذا كان رجلَ خَيْرٍ فلْيَسْتَمْسِكْ بغَرْزِهِ، وإن كان رَجُلَ سُوءٍ فعليهِ أن يَفِرَّ منه فِرارَهُ مِنَ الأسدِ، ولقد ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ مثلَيْنِ، أَحدِهِما للجَليسِ الصالِحِ، والثاني لجَلِيسِ السُّوءِ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ»** يُحْذِيَكَ أي: يَهَبَكَ مِنْهُ **«وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً»**. هذا الجليسُ الصالِحُ، وكلُّهُ خيرٌ. أما الجلِيسُ السوءُ **«وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»**[1]، ونافِخُ الكِيرِ هو نافِخُ النارِ، فنافِخُ النارِ إما أن يُحْرِقَ ثيابَكَ، وإما أن تَجِدَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، رقم (٢٦٢٨).

منه رِيحًا خَبِيثَةً.

وجاء في الحديث «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»(١). وكم مِنْ إنسانٍ مَعْرُوفٍ بالاستِقَامَةِ والصَّلاحِ يتَّصِلُ به جُلساءُ السُّوءِ فيُفْسِدُونَهُ، وكم مِنْ إنسانٍ ليسَ بصالِحٍ ولا مُلْتَزِمٍ، يتَّصِلُ به أهلُ الخيرِ والالتزامِ، فيَهْدِيهِ اللهُ على أيدِيهِمْ.

ولذلك أنا أَنْصَحُ الشبابَ -وغيرَ الشباب- أن يكونَ جُلَساؤُهُمْ رِجالًا صَالِحِينَ، ينْفَعونَهُ وينتَفِعُونَ بِهِ، وإذا رَأَوْا أحدًا من جُلسائِهِمْ مُنْحَرِفًا فلْيَفِرُّوا منه فِرَارَهم مِنَ الأسدِ؛ حتى لا يتَأَثَّرُوا به وبأفكارِهِ أو بأخلاقِهِ وما أشبه ذلك.

إذن: الجِنُّ لهم وَساوسُ، والإنسُ لهم وَساوسُ، ولهذا يَسْتَعيذُ الإنسانُ بِرَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ من الجِنَّةِ والنَّاسِ، وهنا مسائلُ تتعلَّقُ بالوَسَواسِ ابْتُلِيَ بها كثيرٌ مِنَ الناسِ.

المسألة الأولى: رَجُلٌ -أو امرأةٌ- ابْتُلِيَ بالوَسواسِ، فتَجِدُهُ يتوضَّأُ، ثم يظنُّ أنه لم يَنْوِ. فإذَا نَوَى وبدأَ ظنَّ أنَّه لم يَغْسِلْ يدَيْهِ، وبعدَ قليلٍ شكَّ أنه لا يَغْسِلُ وجْهَهُ، وهكذا، فتَجِدُهُ يتوضَّأُ أربعَ مرات أو خَمْسًا أو أكثرَ، بناء على الوَسْوَاسِ.

ولهذا ننصَحُ إخوانَنَا الذين ابتَلاهُم الله بذلِكَ أن يستَعِيذُوا باللهِ مِنَ الشيطانِ الرَّجِيمِ، وأن يقتَصِرُوا على مرَّةٍ واحِدَةٍ، إذا غَسَلَ الوجْهَ واليدَيْنِ ومسَحَ الرأسَ وغَسَلَ الرِّجْلَينِ مرَّةً واحِدَةً كفَى، فإنْ زادَ مَرَّةً فيما يغسِلُ مرة أُخْرَى فهو أفضَلُ، وثالثَةٌ هو أفْضَلُ، وما زاد عن الثالثة فإنَّهُ قد أساءَ وتعدَّى وظَلَمَ.

هكذا جاء في الحديث؛ أن النَّبِيَّ ﷺ توَضَّأَ مرَّةً مرَّةً، ومرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ، وثَلاثًا

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٣)، والترمذي: كتاب الزهد، بابٌ، رقم (٢٣٧٨) وقال: حسن غريب.

ثلاثًا وقالَ: «فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا فَقَدْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى وَظَلَمَ»(١).

وكذلك يُبْتَلَى بعضُ الناسِ في الصلاةِ بالوَسْوَسَةِ، فإذا أرادَ أن يُكَبِّرَ في الصلاةِ كبَّرَ ثم يقولُ بعد قليلٍ: لعَلِّي لم أُكَبِّرْ. فيُعيدُ التكْبِيرَ مرَّةً ثانية وثالثة ورابعة، وكذلك في القِراءَةِ يَشُكُّ، وفي الرُّكوعِ، وفي السُّجودِ، هذا أيضًا كلُّه يجِبُ أن يطْرَحَهُ الإنسان، وألَّا يلتَفِتَ إليهِ؛ لأنَّه إن التفتَ إليه أَثَّرَ على سلوكِهِ، وعلى عقْلِهِ، بل ربما أثَّرَ على عقيدتِهِ، فليطْرَحْ هذا جانِبًا.

كذلك بعضُ الناسِ يلْحَقُهُ الوسَواسُ في مجتَمَعِهِ، فتراهُ يمُرُّ على الناس مثلًا فيقولُ: الناس ينظُرونَ إليَّ نظْرَةَ غضَبٍ وكَرَاهَةٍ. وهذا مما يُوَسْوِسُ إليه الشيطانُ به، أو يقولُ: الناسُ لا يُرِيدُونَنِي. ولكن هذا مِنَ الوَسْوَاسِ، والذي يَنْبَغِي للإنسانِ هو أن يعتَقِدَ أن الناسَ ينْظُرونَ إليه نَظَرَ رِضًا وفَرَحٍ وسُرورٍ؛ حتى يُدْخِلَ السرورَ على قَلْبِه، ويلاقِي الناسَ بِبِشْرٍ وسُرورٍ.

من الناس أيضًا مَنْ يَلْحَقُهُ الوَسْواسُ في أهْلِهِ، وفي زَوجتِهِ، يُوْسوسُ أنها إذا تَكَلَّمَت في الهاتِفِ فإنها تخاطِبُ فُلانًا، ويظلُّ يقولُ له: امرأتُكَ تفْعَلُ كذا وكذا. مع أنها قد تكون رَدَّتْ على الهاتِفِ بقولها: صاحِبُ البيتِ مَوجودٌ، أو غيرُ موجودٍ. ولكنه يَشُكُّ فيهَا، وهذا لا يجوزُ؛ لأنَّ الأصلَ السلامَةُ، والأصلَ العَفَافُ، والأصلَ أن المرأَةَ تكونُ كما يَطْلُبُ الرَّجُلُ ويَرْضَى.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ يلحَقُهُ الوَسْواسُ في أهلِهِ في مسألَةِ الطَّلاقِ، وهذا كثيرًا ما

(١) أخرجه النسائي: كتاب الطهارة، باب الاعتداء في الوضوء، رقم (١٤٠)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي فيه، رقم (٤٢٢).

يَقَعُ، يُوَسْوَسُ للإنسانِ أنه طلَّقَ، حتى إن بَعْضَهُم يقولُ لي: إنه إذا جَلَسَ يقْرأُ المصحَفَ، وقلَبَ الصفحَةَ، أنه قال لامرأَتِهِ هي طالِقٌ. ويقولُ له الشيطانُ: إنكَ قُلْتَ: إن فَعلَتِ امْرأتِي كذا فَهِي طالِقٌ. فيُوَسْوِسُ له في زَوجَتِهِ. حتى إن بعضَ الناسِ يقولُ له الشيطانُ: استَرِحْ من هذا الوَسْوَاسِ، وطلِّقْهَا. وهذا لا يجوزُ، فالمرأةُ تم العَقْدُ عليها على وَجْهٍ صحيحٍ، والأصلُ بقاءُ العَقْدِ، وأنك لم تُطَلِّقْ.

وقد اختَلَفَ العلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فيما إذا شَكَّ في وُقوعِ الطَّلاقِ، هل الوَرَعُ أن يُمْضِيَ الطلاقَ، أو الورَعُ ألَّا يُمْضِيَ الطلاقَ؟ الصوابُ: الوَرَعُ ألَّا يُمْضِيَ الطلاقَ، بل النكاحُ باقٍ؛ لأن الإنسانَ إذا أمْضَى الطلاقَ فَعَلَ جِنَايَتَينِ: الجنايَةَ الأُولَى: حِرْمانُها مِنْ زَوْجِهَا. الثانية: إحْلَالُها لغيرِهِ. فالأصلُ بقاءُ النِّكاحِ الأوَّلِ، فإذا شَكَكْنَا في وقوعِ الطَّلاقِ فالأصلُ عدمُ الطلاقِ، والنكاحُ باقٍ، وليس الورَعُ أن يُمْضِيَ الطلاقَ، بل الورَعُ ألَّا يُمْضِيَ الطلاقَ.

كذلك الشيطانُ يأتِي للإنسانِ وهو مُتَوَضِّئٌ، ويقول: إنك أحْدَثْتَ، ورُبَّما يُحِسُّ بحرَكَةٍ في السَّبِيلَيْنِ، فنقول له: استَعِذْ باللهِ، وابْقَ على طَهارَتِكَ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ شُكِيَ إليه الرَّجُلُ يُخَيَّلُ إليه أنه وجَدَ الشيءَ في الصَّلاةِ -أي وَجَدَ الريحَ أو نُقْطَةَ البَولِ أو ما أَشْبَهَ ذلكَ- فقال: «**لَا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا**»(١). أَيْ: حتَّى يُدْرِكَ الشيءَ بحِسِّهِ لا بِوَهمِهِ، وإدراكُ الشيءِ بالحِسِّ هو إما أن يجِدَ رِيحًا أو يسمَعَ صَوْتًا.

بعضُ الناسِ يُبْتَلَى بهذا، فيَشُكُّ هل أحدَثَ أو لَا، فيقول له الشيطانُ: يا رَجُلُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين، من القبل والدبر، رقم (١٧٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على من تيقن الطهارة، رقم (٣٦١).

استَرِحْ من هذا الشَّكِّ، اذهَبْ إلى الميضأَةِ وتَوَضَّأْ، وهكذا ينتهى الأمرُ. ولكنَّ هَذَا الحَلَّ غيرُ صَحِيحٍ، وبهذَا الجَزْمِ، لأنه عَلَّلَ بتعليلٍ جَيِّدٍ، لكن هناك تعليلٌ أَحْسَنُ منْه؛ لأن النَّبِيَّ ﷺ قال: «**لَا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا**». ولم يَقُلْ: ليَذْهَبْ ويَنْقُضِ الوضوءَ على يَقِينٍ.

ولهذا أقولُ: لا تَعْدِلُوا بالكتابِ والسُّنَّةِ شيئًا أبدًا، كُلُّ التَّعْلِيلاتِ يمكنُ أن تُنْقَضَ، لكنَّ الكتابَ والسُّنَّةَ لا يمكنُ أن يُنْقَضَ، خيرُ الكلامِ كلامُ اللهِ، وخيرُ الهَدْيِ هدْيُ محمَّدٍ ﷺ، على كلِّ حالٍ الكلامُ في هذا البابِ يطُولُ، والوَسَاوِسُ كثيرَةٌ، لكنَّ دَوَاءَهَا أن تستَعِيذَ بالرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ.

ثم إن مِنَ الوَسَاوِسِ أيضًا أن يخاطِبَكَ أخوكَ أو صَدِيقُكَ أو صاحِبُكَ الذي تعْرِفُهُ بخطابٍ يَحْتَمِلُ أن فيه ما يدُلُّ على كراهَتِهِ إياكَ، وفيه مَا لا يَدُلُّ، فعليكَ أن تحمِلَ كلامَ أخيكَ على الأحسنِ، لا على الأسْوأِ.

وهذه مسألةٌ أُصِيبَ كثيرٌ مِنَ الناسِ بخِلافِهَا، فنَرَى بعضَ الناسِ إذا تكَلَّمَ أخوهُ بكلامٍ يَحْتَمِلُ معْنَيينِ: حسَنًا وسَيِّئًا يحمِلهُ على السَّيِّءِ، وهذا مِنَ الوَسْوَاسِ؛ لأن الذي ينبَغِي للإنسانِ أن يحمِلَ كلامَ أخيه على أحسنِ المحامِلِ.

ولهذا يَجِيئُكَ رَجلٌ يُوَسْوِسُ لك فيقول: فلانٌ يقولُ فيكَ كذَا وكذَا. فيقَعُ في نفْسِكَ أنَّ المتكَلِّمَ بهذا الكلامِ يُبْغِضُكَ ويلْمِزُكَ، وما أشبهَ ذلك. فالواجبُ عَلَيْكَ أن تقولَ: هذا أخِي المسلِمُ تكَلَّمَ بكلامٍ يَحْتَمِلُ أنه حَسَنٌ، ويَحْتَمِلُ أنه سَيِّءٌ، وأنا أَحْمِلُهُ على الحَسَنِ؛ ولهذا أكَّدَ السلَفُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ على أنه ينبَغِي للإنسانِ أن يَحْمِلَ الكلامَ على أحسنِ محامِلِهِ ما دامَ يجِدُ لَهُ محْمَلًا حَسَنًا.

ولو استَعْمَلْنَا هذا لاسْتَرَحْنَا مِنْ أشياءَ كثيرةٍ، لكنَّ بعضَ الناسِ يَحْمِلُ كلامَ أخيهِ على أسوأِ المحامِلِ، وهذا غَلَطٌ.

والصلاةُ والسلامُ على سيِّدِ المرْسَلينَ، والحمدُ للهِ الَّذي بنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ.

تَمَّ المُجَلَّدُ الخَامِسُ بِحَمدِ الله تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ

وَيَلِيهِ بِمَشِيئَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ المُجَلَّدُ السَّادِسُ

وَأَوَّلُهُ دُرُوسُ الحَدِيثِ



فهرس الآيات

الآيـــة	الصفحة
﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾	٥
﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾	٥
﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾	٦
﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾	٦
﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾	٦
﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾	٧
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾	٧
﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	٨
﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾	٩
﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾	٩
﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾	١٠
﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾	١٠
﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾	١٠
﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾	١٠
﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾	١٣

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث **الصفحة**

فهرس الفوائد

الفائدة **الصفحة**

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

